العود الهندي

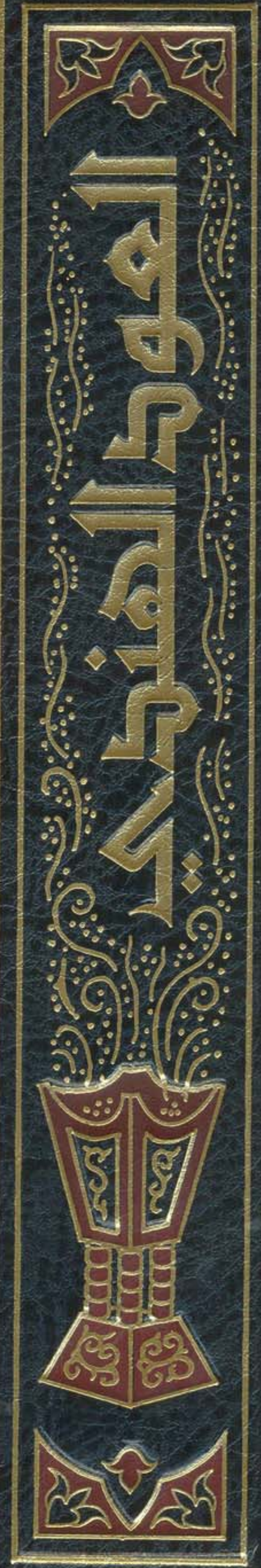
عن أمالي في ديوان الكندي

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى

الجزء الأول

دار المنهاج



العُودُ الهِنديّ

عَنْ أمَاليَّ في ديوان الكِنديّ

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف
علّامة حضرموت ومفتيها
السيّد عبد الرحمن بن عبيد الله السقّاف
رحمه الله تعالى

عُنِيَ بِهِ
محمد مصطفى الخطيب

بمساهمة
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والنشر

المجلد الأول

دار المنهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

العُودُ الهِنْدِيّ

عَنْ أَمَالِيَّ فِي دِيوَانِ الكِنْدِيّ



لبنان ـ بيروت ـ فاكس : ٧٨٦٢٣٠

الطّبعة الثّانية

١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف

وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة

حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392

ص . ب 22943 ـ جدة 21416

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5



www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

دار المنهاج للنشر والتوزيع ـ جدة هاتف 6322471 ـ فاكس 6320392	مكتبة دار كنوز المعرفة ـ جدة هاتف 6570628 ـ 6510421	مكتبة الشنقيطي ـ جدة هاتف 6893638
مكتبة المأمون ـ جدة هاتف 6446614	مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة هاتف 5570506	مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة هاتف 5473838 ـ فاكس 5473939
دار البدوي ـ المدينة المنورة هاتف 0503000240	مكتبة الزمان ـ المدينة المنورة هاتف 8366666 ـ فاكس 8383226	مكتبة المزيني ـ الطائف هاتف 7365852
مكتبة جرير ـ الرياض وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها هاتف 2741578 ـ فاكس 2741750	مكتبة العبيكان ـ الرياض وجميع فروعها داخل المملكة هاتف 2741578 ـ فاكس 2741750	مكتبة الرشد ـ الرياض هاتف 4593451 ـ 4583712 فاكس 4573381
دار التدمرية ـ الرياض هاتف 4924706 ـ فاكس 4937130	دار أطلس ـ الرياض هاتف 4266104	مكتبة المتنبي ـ الدمام هاتف 8413000 ـ فاكس 8432794



الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

الإمارات العربية المتحدة مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي هاتف 2211949 ـ فاكس 2225137 دار الفقيه ـ أبو ظبي هاتف 6678920 ـ فاكس 6678921	دولة الكويت مكتبة دار البيان ـ حَوَلي هاتف 2616495 ـ فاكس 2616490 دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلي هاتف 2658180 ـ فاكس 2658180	الجمهورية اليمنية مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت هاتف 417130 ـ فاكس 418130 دار القدس ـ صنعاء هاتف 00967777711881
جمهورية مصر العربية دار السلام ـ القاهرة هاتف 2741578 ـ 2704280 مكتبة نزار مصطفى الباز ـ القاهرة هاتف 25060822 ـ جوال 0122107253	الجمهورية العربية السورية دار السنابل ـ دمشق هاتف 2242753 ـ فاكس 2237960 مكتبة المنهاج القويم ـ دمشق هاتف 2235402 ـ فاكس 2235402	الجمهورية اللبنانية الدار العربية للعلوم ـ بيروت هاتف 785107 ـ فاكس 786230 مكتبة التمام ـ بيروت هاتف 707039 ـ جوال 03662783
دولة قطر مكتبة الأقصى ـ الدوحة هاتف 4437409 ـ 4316895 فاكس 2291135	مملكة البحرين مكتبة الفاروق ـ المنامة هاتف 17272204 ـ 17273464 فاكس 17256936	المملكة الأردنية الهاشمية دار محمد دنديس ـ عمّان هاتف 4653390 فاكس 4653380
المملكة المغربية دار الأمان ـ الرباط هاتف 037723267 ـ فاكس 037200055	الجمهورية التونسية الدار المتوسطية للنشر ـ تونس هاتف 70698880 ـ فاكس 70698633	جمهورية أندونيسيا دار العلوم الإسلامية ـ سورويايا هاتف 60304660-006231

الجمهورية التركية مكتبة الإرشاد ـ إستانبول هاتف 02126381633 فاكس 02126381700	جمهورية داغستان مكتبة دار الرسالة ـ محج قلعة هاتف 0079285708188 هاتف 0079882904764

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أضواء على الكتاب

بقلم / الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل

أَحمدُكَ ٱللَّهُمَّ ، وأَستَمنِحُكَ ٱلسَّدادَ ، وأُصلِّي وأُسلِّمُ على ٱلمبعوثِ بجوامِعِ ٱلكَلِمِ ، مَنْ مَدَّت عليه ٱلفصاحَةُ رِواقَها ، وَشَدَّت بهِ ٱلبلاغَةُ نِطاقَها ، ابنِ ٱلذَّبيحينِ ، وخيرِ ٱلثَّقلينِ ، وعلىٰ ٱلآلِ ٱلغُرِّ ٱلميامينِ ، وصحابتِهِ ٱلدُّعاةِ ٱلمجاهدينَ ، وٱلتَّابعينَ لَهم في كُلِّ عَصرٍ وحين .

وبعدُ :

فإنِّي لا أَقصدُ بهٰذِهِ الكلماتِ كَشفَ ٱلنِّقابِ عَنِ ٱلمزايا ٱلمتألِّقَةِ في سماءِ ٱلبيانِ ٱلَّتي تتلألأُ بها صفحاتُ هٰذا ٱلسِّجلِّ ٱلأَدبيِّ ٱلحافِلِ بٱلدَّقائِقِ ٱلأَدبيَّةِ ، ولَم أُعنَ بتوصيفِ مواهبِ ٱلمؤلِّفِ وبلاغتِهِ ٱلهاشميَّةِ ، ولَم أَصمُدْ إلىٰ بَقْرِ محتوياتِ كتابهِ علىٰ ٱلنَّحوِ ٱلاستقرائِيِّ ٱلَّذي يمنحُ ٱلمتأَهِّلَ ٱلحكمَ ٱلصَّائِبَ علىٰ هٰذا ٱلسِّفرِ ، ووضعِهِ في مرتبتِهِ ٱلأَدبيَّةِ ٱللاَّئِقَةِ ؛ فقدِ ٱضطلعتْ بذلكَ ٱلمقدِّمَةُ ٱلرَّائِعَةُ ٱلَّتي نسجَ خيوطَها ٱلمحقِّقونَ .

وَعِندَ جُهينَةَ ٱلخبرُ ٱليقينُ

نعم ، لقد نعِمْتُ بمطالَعَةِ أَجزاءٍ منهُ ، ومتَّعتُ ٱلفكرَ في رياضِها ، وٱستنشقْتُ شذىٰ أَدبيَّاتها ، وأَفَدتُ مِن جواهرِها ٱلمكنونَةِ ، وقطَفتُ من أَزاهيرِها ٱلبَسَّامَةِ كُلَّ معنىً بديعٍ .

فٱجتمعَ لي بتصفُّحِ هٰذهِ ٱلأَجزاءِ ٱلاستفادَةُ ٱلعلميَّةُ ، وٱلابتهاجُ ٱلرُّوحيُّ ، ٱلممزوجَانِ بٱلإِمتاعِ ٱلأَدبيِّ ، فكانَ لِزاماً أَن تتمخَّضَ تلكَ ٱلمطالعةُ عَن سَيَلانِ أَحاسيسي بنعوتِ ٱلإِعجابِ بهٰذا ٱلسِّفرِ ٱلبديعِ .

لذلكَ أَعنقَتْ يراعتي في ميدانِ ٱلإِشادَةِ بٱلقيمةِ ٱلأَدبيَّةِ لهٰذا ٱلسِّفْرِ ٱلممتعِ ٱلمفيدِ .

سَقَوْنِيْ وَقَالُوا لاَ تُغَنِّيْ وَلَوْ سَقَوْا   جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِيْ لَغَنَّتِ

وإِذَا كانَتِ ٱلكتابَةُ تَنُمُّ عَنْ وُجهةِ ٱلكاتِبِ ، وٱلمؤلِّفُ يُفصِحُ عَن قُدرةِ جامِعِهِ ، وينبىءُ عن معارِفِهِ ، ويحدِّدُ مكانتَهُ ٱلعلميَّةَ . . فإِنَّنا بنظرةٍ فاحصةٍ في هٰذا ٱلكتابِ نَجزِمُ مطمئِنِّينَ بأَنَّ ٱلفلسفَةَ ٱلأَدبيَّةَ ٱلَّتي نحاها هٰذا ٱلإِمامُ ٱلعَلَمُ ، وٱلتَّنوُّعَ ٱلَّذي ٱصطفاهُ . . لَيَشهدانِ بعُلُوِّ كَعبِهِ في مختلِفِ ٱلمعارِفِ ، ورُسوخِ قَدمِهِ في ٱلإِحاطَةِ ببنتِ عدنانَ ، وٱلتَّشبُّعِ بلطائِفِها ، وٱلهيمنَةِ علىٰ دقائِقِها ؛ فقد أَهدت إِلىٰ هٰذا ٱلسَّيِّدِ ٱلعبقريِّ كنوزَها ، وٱستسلَمَت لَهُ شوارِدُها وأَوابدُها ، هٰذا إِضافةً إِلىٰ ما تميَّزَ بهِ مِنْ حسنِ ٱختيارٍ لما يبهجُ ٱلأَنْفُسَ مِنْ أَدبيَّاتٍ ، وما تنتشِطُ بهِ ٱلأَفكارُ مِنَ ٱلفكاهاتِ .

أَمَّا تلكَ ٱلمباحِثُ ٱلعويصَةُ ، ذاتُ ٱلمسالِكِ ٱلضَّيِّقَةِ ، ٱلَّتي يطرحُها علىٰ ٱلبساطِ ٱلشَّرعيِّ ، ثُمَّ يرسِلُ عليها أَشعَّةَ تحقيقاتِهِ ، ويضعُ ٱلهناءَ علىٰ ٱلنَّقْبِ . . فإِنَّها منثورَةٌ في ثنايا هٰذا ٱلكتابِ ، وإِلىٰ أَدنىٰ مِنها أَهمِّيَّةً يرحلُ ٱلمتفقِّهونَ ، ولا غرو . . فهوَ إِمامُ وقتِهِ ، ومُفتي قُطرِهِ ، ما رأَىٰ في عصرِهِ مثلَ نفسِهِ ، إِلاَّ أَنَّ كُلَّ أَحدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قولِهِ ويُرَدُّ . . إِلاَّ مَنْ عُصِمَ .

ومعَ أَنَّ ٱلمؤَلِّفَ قد جمعَ في كتابِهِ بينَ ٱلجِدِّ وٱلهزلِ ، ومَزَجَ ٱلمعرفَةَ بٱلإِمتاعِ . . إِلاَّ أَنَّهُ لم يُلْحَق شأْوُه في نمطِهِ ، ولم يَسبقْ أَحدٌ إِلىٰ طريقتِهِ ، أَلَم يُلَفِّعْ كتابَه بمِرطِ ٱلجودَةِ ، ويحلِّيهِ بزينَةِ ٱلإِتقانِ ؟!

ولذا سالَتْ مِنْهُ حلاوةُ ٱلجِدَّةِ علىٰ قُربِ ٱلعهدِ .

وأَمَّا ما روَّح بهِ ٱلمؤَلِّفُ علىٰ ٱلنُّفوسِ لهَزْم جيوشِ ٱلسَّآمَةِ . . فليست إلاَّ مفاكهاتٍ يتسامَرُ بأَمثالِها ٱلفضلاءُ ، ويَستملحُ لطائِفَها ٱلكبراءُ ، مِمَّا لا يأْنَفُ ٱلمحتشمونَ مِنَ ٱلمُسامَرةِ بأضرابِها ، وهي طريقَةُ ٱلألِبَّاءِ ، ومُتَنَفَّسُ ٱلأُدباءِ في كُلِّ عصرٍ ومِصرٍ .

وهو بذلكَ لم يُقارِفْ ما يُخلُّ بٱلمروءَةِ ، ولَم يوضِعْ في فحش المُجونِ ، ولَم يصطدمْ بما يهزُّ ٱلآدابَ ٱلشَّرعيَّةَ ، بَلِ ٱتَّسمَتْ مفاكهاتُهُ بٱلملاحَةِ ، وٱنتظمَتْ في سِلكِ ٱلإمتاعِ وٱللَّطافَةِ ، ومِثلُ هـٰذا ٱلقَدرِ يستعذبُهُ ٱلعلماءُ ، ويَتَنَدَّرُ بِخِفَّتِهِ ٱلفُقهاءُ ، ويَلهَجُ بهِ عُشَّاقُ ٱلطُّرَفِ وٱلمُلَحِ ، وقلَّ أَن يخلوَ كتابٌ أَدبيٌّ مِن هـٰذه ٱلمتعَةِ وتلكَ ٱلمؤانَسَةِ .

وإنِّي علىٰ يقينٍ تامٍّ بأَنَّ هـٰذا ٱلسِّفْرَ ٱلبِكرَ سيتربَّعُ بعدَ نشرِهِ علىٰ مَنصَّةِ ٱلقَبولِ ، وسيكونُ مَنهلاً عذباً مِن مناهِلِ ٱلأَدَبِ .

وَٱلْمَنْهَلُ ٱلْعَذْبُ كَثِيْرُ ٱلزِّحَامْ

بَل سيكونُ مرجِعاً وثيقاً لِمَنْ يُعنىٰ بقواعِدِ ٱلنَّقدِ ، أَو يَهمُّهُ ٱلوقوفُ على نُكَتِ ٱلبلاغَةِ ، وطُرُقِ ٱلفصاحَةِ .

وما ذلكَ إلاَّ لما حواهُ مِنْ أَدَبٍ جَمٍّ ، وتِبيانٍ لدقائِقِ ٱلفصحاءِ ، وإبرازٍ لمحاسِنِ ٱلموهوبينَ مِنَ ٱلشُّعراءِ ، وٱلإتيانِ بٱلأشباهِ وٱلنَّظائِرِ مِنَ ٱلمعاني ٱلَّتي تَواطأَ ٱلبلغاءُ علىٰ نظمِها في سِمطِ ٱلدُّرَرِ ، وٱلمقارنَةِ ٱلعادِلَةِ بينَ تلكَ ٱلنَّظائِرِ ، وما أَبرزَتْهُ تحويراتُهم مِنْ حُسنٍ أَو إساءَةٍ ، ولئِنْ أَطلقتُ في نعتِهِ عِنانَ ٱلكلامِ . . فما مرامي إلاَّ أَنْ أبلُغَ بهِ ما يستحقُّ مِنَ ٱلمكانَةِ ، ولاسيَّما وهوَ لم يَقرعْ مِنْ قَبلُ آذانَ ٱلمتأَدِّبينَ ، ولَم يصافح أَذهانَ ٱلمعنيِّينَ بٱلنَّقدِ ٱلأَدبيِّ ، فليسَ

صنيعي هٰذا خروجاً عَنْ حَدِّ ٱلاعتدالِ ، ولا وقوعاً في ثَبَجِ ٱلغلوِّ .

بَل لا أَجدُني مبالغاً إِنِ ٱعترفتُ بأَنَّ قَلَمي لَم يَقوَ علىٰ ٱلإِفصاحِ عن كُلِّ خِصِّيْصَةٍ فيهِ ، ولَم يثبْ بَياني إِلىٰ تِبيانٍ جديدِهِ ، ولَم يَخُضْ فِكري فيما ٱفترعَهُ ٱلمؤَلِّفُ مِن أَبكارِ ٱلفوائِدِ ، ٱلَّتي هي من نسجِ طبعِهِ ، وسَبْكِ فهمِهِ ، وصوغِ ذهنِهِ .

ولعلَّ في مقدِّمَةِ ٱلنَّاشِرِ ما يرفَعُ ٱلأَستارَ عَن تلكَ ٱلخصائِصِ جميعِها ، بيدَ أَنَّ ٱلَّذي يستدعيني ٱلمَقامُ أَنْ أَستهدفَهُ في هٰذهِ ٱلأَحرف ، وأُميطَ عنه لثامَ ٱلحقيقةِ . . هوَ ٱلإِعلامُ بما يقاسيهِ ٱلأَدَبُ ٱلعربيُّ في ٱلعصرِ ٱلحاضِرِ مِن جفاءٍ ، وما يعانيهِ مِن قَطيعةٍ مِن بني جِلدَتِهِ ، سواءٌ في ذلكَ شعرُهُ ونثرُهُ ، وجِدُّهُ وهزلُهُ ، وقديمُهُ وجديدُهُ ، بَل رُبَّما وقفَ ذُو طبع غليظٍ وحسٍّ متبلِّدٍ يهدمُ عمداً مآثِرَ ٱلشِّعرِ عامَّةً ، فتراهُ يتابعُ ٱلاستغفارَ وٱلاستنكارَ معاً إِنْ صكَّ سمعَهُ بيتُ شعرٍ ترنَّم بهِ أَديبٌ ، أَو تمثَّلَ بهِ أَريبٌ ، أَوِ ٱستدعتْهُ حادِثَةٌ ، وهٰذا خلافُ ما عليهِ ٱلقومُ .

وكثيراً ما نسمعُ في مسامراتِنا مَنْ يتأَفَّفُ مِن إِنشادِ ٱلأَشعارِ ، ويعتصِمُ بِنَصِّ ٱلتَّنزيلِ ٱلحكيمِ ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ـ٢٢٦] ، ثُمَّ ينقطعُ نَفَسُهُ فلا يتابعُ ٱلاستثناءَ ٱلَّذي يرفَعُ ٱلملامَ عَنْ مُؤْمني ٱلشُّعراءِ ، فيكونُ صنيعُ هٰذا ٱلمُستشهِدِ بنصٍّ مبتورٍ شبيهاً بمَن يقرأُ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ [الماعون : ٤] ويَقِفُ ، وكِلا ٱلوقفينِ مَذمومٌ شرعاً .

وقد نتجَ عن هٰذا ٱلعِداءِ وتلكَ ٱلجفوَةِ هٰذا ٱلانكماشُ ٱلملحوظُ في ٱلحركَةِ ٱلأَدبيَّةِ ، وإِيجادُ سَدٍّ متينٍ بينَ ٱلنَّاشئَةِ وتُراثِهِمُ ٱلأَدبيِّ .

وأَعانَ علىٰ تقويَةِ هٰذا ٱلسَّدِّ ذلكَ ٱلهزالُ ٱلبيِّنُ ٱلَّذي يَنْخَرُ في معارفِ

ٱلخرِّيجينَ مِنَ ٱلنَّاحيةِ ٱللُّغويَّةِ ، وحُقَّ لنا أَنْ نتمثَّلَ بقولِ ٱلأَوَّلِ (ضِغثٌ علىٰ إِبالَةٍ)[1] فٱستحكمَ ٱلدَّاءُ ، وعَزَّ ٱلدَّواءُ .

ولستُ ملزماً هنا بسردِ مزايا ٱلأَدَبِ بسائِرِ فنونِهِ ؛ ففي ٱلمقدِّمةِ ما يكفي ويَشفي ، وفي صحيحِ ٱلأَخبارِ ما يدحضُ هـٰذا ٱلاستنكارَ .

بيدَ أَنِّي أَذكرُ موقفاً خالداً مِن مواقفِ ٱلفاروقِ رضيَ ٱللهُ عنهُ ؛ فقد خرجَ علىٰ ٱلمسلمينَ في مسجدِ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، وقامَ فيهم مُستفهماً ، فقالَ : أَيُّكم يعرفُ هـٰذا ٱلحرفَ ؟ ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل : ٤٧] ما ٱلتَّخوُّفُ ها هنا ؟

فأَرمَّ ٱلقومُ ، فقامَ شيخٌ مِن أُخرياتِ ٱلمسجدِ فقالَ : أَنا أَعرفُ ذلكَ ، اَلتخوُّفُ ها هنا : ٱلتَّنَقُّصُ ، فقالَ لهُ عمرُ : أَوَ يَعرِفُ ٱلعربُ ذلكَ ؟ فقالَ لَهُ : نعم ، يقولُ شاعِرُنا :

تَخَـوَّفَ ٱلـرَّحْـلُ مِنْهَـا تَـامِكـاً قَـرِداً ... كَمَـا تَخَـوَّفَ عُـوْدَ ٱلنَّبْعَـةِ ٱلسَّفَـنُ[2]

ـ (تخوَّفَ) : تنقَّصَ . (ٱلتَّامِكُ) : ٱلسَّنامُ . (ٱلقَرِدُ) : كثيرُ ٱلشَّعَرِ . و(ٱلنَّبعةُ) : شجرةٌ تُتَّخَذُ مِنها ٱلسِّهامُ . و(ٱلسَّفَنُ) : ٱلمبراةُ ـ فقالَ أَميرُ ٱلمؤْمنينَ :

(عليكم بأَشعارِ ٱلعربِ ؛ فإِنَّ فيها معرفَةَ كلامِ ربِّكُم) . أَو قالَ نحو هـٰذا .

وهناكَ صِنفٌ مِنَ ٱلفضلاءِ تظهرُ عليهم سِماتُ ٱلاحتشامِ إِذا ترامت إِلىٰ مسامِعِهم نوادرُ يتروَّحُ بنسيمها ٱلمتأَدِّبونَ من هَجيرِ ٱلحياةِ ؛ إِذ تتجهَّمُ وجوهُهم

---

(١) **الضِّغثُ** : القبضة من الحشيش . **الإِبالة** : الحزمة من الحطب . وهو مثل عربي ، معناه : مصيبة على أخرىٰ .

(٢) يصفه بأَنَّه مِن كثرةِ أَسفارِهِ علىٰ ناقتِهِ . تنقَّصَ رحلُها مِن سنامِها كما تتنقَّصُ ٱلسّهمَ ٱلمبراةُ .

إن باسطَهم أحدٌ بمزحٍ مُؤْنِسٍ ، أو طرفةٍ لطيفةٍ ، ويَعُدُّون هـٰذا ٱلهزلَ سخفاً يَصفعُ قَفا ٱلأَلِبّاءِ ، وهَذراً يَستَتِرُ منهُ أُولو ٱلحشمَةِ بسجافِ ٱلمروءَةِ ، حتَّىٰ وإن كانَ مَزحاً لم يرتعْ في حماَةِ ٱلفُحشِ ، ولَم يَكْلَمْ جسمَ ٱلحياءِ ، ولم يَسبح في يَمّ ٱلمجونِ ٱلممجوجِ .

وقد غابَ عن هـٰؤلاءِ أَنَّ ٱلتَّرويحَ عنِ ٱلأَنفُسِ بما هو مباحٌ . . فيهِ ٱستجمامٌ للفكرِ مِنْ عناءِ ٱلجدِّ ، وٱستملاحٌ يهفو إِليهِ ٱلطَّبعُ ، وتفكُّهٌ بٱلممتعِ مِنَ ٱلنَّوادِرِ ، ومجلبةٌ لطيبِ ٱلخاطِرِ ، ومؤانَسةٌ تبعثُ علىٰ ٱلصَّفاءِ .

وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

ولا يزالُ ٱلأَكابرُ في كلِّ عَصرٍ ومصرٍ يتعشَّقونَ هـٰذا ٱلفنَّ ٱللَّطيفَ ، وطالَما جنحوا إِلىٰ مَلاحَتِهِ ، وٱلارتشافِ مِن دَنِّهِ .

وها هو ٱلوزيرُ أَبو عبدِ ٱللهِ ٱلحسينُ بنُ أَحمدَ بنِ سعدانَ ، ٱلمتوفَّىٰ مقتولاً سنةَ (٣٧٥هـ) قالَ للإِمامِ ٱلعلاَّمَةِ أَبي حيَّانَ ٱلتَّوحيديِّ[1] :

(تعالَ حتَّىٰ نجعلَ ليلتَنا هـٰذه مجونيَّةً ، ونأْخُذَ مِنَ ٱلهزلِ بنصيبٍ وافرٍ ؛ فإِنَّ ٱلجدَّ قَد كدَّنا ، ونالَ مِن قُوانا ، وملأَنا قَبضاً وكرباً) ، فٱندفعَ هـٰذا ٱلإِمامُ يُسامِرهُ بأَخبارِ ٱلمُجّانِ ، وأَحوالِهم في ذلكَ ٱلزَّمانِ .

ولا زالَ ٱلعلماءُ ـ علىٰ تنوُّعِ ٱختصاصاتِهم ـ يستملحونَ ٱلأَخذَ بطرَفٍ من هـٰذا ٱلبابِ ، ولم يرموا ٱلمؤلِّفينَ في هـٰذا ٱلبابِ بٱلعظائِمِ .

وها هو أَحدُ أَئِمَّةِ ٱلشَّافعيَّةِ يملي في حلقةِ درسِهِ علىٰ أَتباعِهِ حينَ سُئِلَ : (هل يُقتَلُ ٱلحرُّ بٱلعبدِ ؟) وهيَ مسأَلَةٌ خلافيَّةٌ أَعرقَ ٱلخلافُ فيها مِنَ ٱلقِدَمِ ، فأَجابَ مترنِّماً :

---

(١) « الإمتاع والمؤانسة » (٢/ ٥٠) .

خُـذُوْا بِـدَمِـيْ هَـٰذا ٱلْغَـزَالَ فَـإِنَّـهُ رَمَـانِـيْ بِسَهْمَـيْ مُقْلَتَيْـهِ عَلَـىٰ عَمْـدِ
وَلاَ تَقْتُلُـــوْهُ إِنَّمَـــا أَنَـــا عَبْـــدُهُ وَفِيْ مَذْهَبِيْ لاَ يُقْتَلُ ٱلْحُرُّ بِٱلْعَبْدِ

فجمعَ رحمهُ ٱللهُ تعالىٰ بينَ ٱللُّطفِ ، وجميلِ ٱلسَّبكِ ، وإصابَةِ ٱلغَرَضِ ، وٱلجزم بٱلحُكمِ يزهو في حُلَلِ ٱلملاحَةِ ويَنضَحُ بوابلٍ مِنَ ٱلرِّقَّةِ . بَلْ ما تحرَّجَ ٱلإمامُ ٱلشَّافِعِيُّ حينَ رَفَعَ إليهِ شابٌّ سُؤَالَهُ قائلاً :

سَلِ ٱلْعَالِمَ ٱلْمَكِّيَّ هَلْ فِيْ تَزَاوُرٍ وَضَمَّـــةِ مُشْتَـــاقِ ٱلْفُـــؤَادِ جُنَـــاحُ

لَم يتحرَّجِ ٱلإمامُ مِنْ إجابَتِهِ ، فقالَ لَهُ مجيباً :

فَقُلْـتُ مَعَـاذَ ٱللهِ أَنْ يُـذْهِـبَ ٱلتُّقَـىٰ تَـــلاَصُـــقُ أَكْبَـــادٍ بهـــنَّ جِـــرَاحُ

ولولا خشيةُ أَن تطولَ ذُيولُ هـٰذهِ ٱلأَحرفِ ، ويَؤُوبَ ٱلتَّقديمُ بَطيناً . . لأَعنقتُ في هـٰذا ٱلميدان مَليّاً .

بَل إِنَّ بعضَ ٱلأُدباءِ ٱلمتقدِّمينَ لَم يَتحرَّجْ مِن روايةِ أَشعارِ ٱلمجونِ في مؤَلَّفاتِهِ ، وجُلُّها موغلٌ في ٱلإفحاشِ ؛ إبرازاً لاقتدارِ شعراءِ ٱلمجونِ علىٰ إيرادِ ٱلمعاني ٱللَّطيفَةِ ، وٱلتَّشبيهاتِ ٱلبديعةِ ؛ إِذْ غَدَتْ منتظمةً في سِلكِ ٱلملاحَةِ وٱلبلاغَةِ ، فرجَّحوا أَنَّ قيمتَها ٱلأَدبيَّةَ تستُرُ بِثَوبِها ٱلسَّابغِ فُحشَها ، وحسنَ نَسيجِها يُغطِّي قُبحَها :

وَتَحتَ ٱلرَّغوَةِ ٱللَّبَنُ ٱلصَّرِيْحُ

بيد أَنَّ صنيعَهم هـٰذا محلُّ نظر ، ومثالاً علىٰ ذلكَ ٱلعلاَّمةُ ٱلمحقِّقُ مُحَمَّدٌ محيي ٱلدِّينِ عبدُ ٱلحميدِ لمَّا أَجمعَ ٱلعزمَ علىٰ تحقيقِ « يتيمةِ ٱلدَّهرِ في محاسِنِ أَهلِ ٱلعصرِ » للأَديبِ ٱلمؤرِّخِ أَبي منصورٍ عبدِ ٱلملكِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ إسماعيلَ ٱلثَّعالبيِّ ٱلنَّيسابوريِّ ٱلمتوفَّىٰ سنة (٤٢٩هـ) ، وهيَ مشحونةٌ بأَشعارِ ٱلخلاعَةِ

وٱلمجونِ . . قالَ : (وَلٰكنَّا لَم نَشَأْ أَنْ نحذفَ شيئاً مِمَّا في هٰذا ٱلكتابِ مِنَ ٱلمجونِ كما يفعلُ بعضُ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلنَّاشرينَ ؛ تحرُّجاً منهم وتأثُّماً زَعموا ، وحِرصاً علىٰ مكارِمِ ٱلأَخلاقِ ظَنُّوا ؛ لأَنَّا لا نُؤَلِّفُ كتاباً نختارُ فيهِ ما نَشاءُ ، وندعُ ما نشاءُ ، وإِنَّما نحقِّقُ نصّاً قَيَّدَهُ صاحبُهُ في زَمَنٍ كانَ ٱلنَّاسُ فيهِ أَشَدَّ تحرُّجاً مِن هٰذا ٱلزَّمَنِ ٱلَّذي نعيشُ فيهِ . . إِلىٰ أَن قالَ :

(وٱللهُ يعلَمُ أَنَّنا لا نَقِلُّ عن هٰؤلاءِ ـ ٱلمتأَدِّبينَ ٱلَّذين يفسدونَ كُتُبَ ٱلنَّاسِ ـ تحرُّجاً مِنَ ٱلمجونِ ، ولا حِرصاً علىٰ مكارِمِ ٱلأَخلاقِ[1] ، وإِنَّما ٱلغَرَضُ مِن نشرِ ٱلكتابِ في رأْينا إِنَّما هوَ أَن نَدُلَّ قُرَّاءَ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ علىٰ ٱلحياةِ ٱلأَدبيَّةِ ، وٱلحياةِ ٱلاجتماعيَّةِ وٱلسِّياسيَّةِ في هٰذهِ ٱلحقبةِ ٱلَّتي كانَ ٱلشُّعراءُ يعيشونَ فيها ، وأَنْ نضعَ بينَ أَيديهِمُ ٱلنُّصوصَ ٱلَّتي تدلُّهم على ما يتوجَّهونَ إِليهِ مِن مناحي ٱلبحثِ)[2] .

فإِذا كانَتْ هٰذهِ ٱلحالُ في ٱلمجونِ ٱلمَمْجوجِ شرعاً . . فإِنَّا نَبرَأُ إِلىٰ ٱللهِ تعالىٰ مِنْ أَنْ نَصِمَ أَديباً كبيراً وعالماً نِحريراً بٱللَّومِ ، أَو نغمزَهُ بٱلخروجِ عَن دائِرَةِ ٱلآدابِ ٱلشَّرعيَّةِ ، وهوَ لم يَزبُر في سفرِهِ هجراً ، ولَم يرتَعْ في حمأَةِ ٱلمجونِ ، وما غرضُ هٰذا ٱلشَّيخِ ٱلعلاَّمَةِ إِلاَّ شحذُ ذِهنِ ٱلقارىءِ ، ودفعُ سآمَةِ ٱلجِدِّ ، ومحوُ عَنَتِ كَدِّ ٱلأَفكارِ في ٱلمعاني ٱلدَّقيقَةِ ؛ ليعودَ إِلىٰ جدِّهِ مرتاحَ ٱلفكرِ خفيفَ ٱلرُّوحِ ، مُتجدِّدَ ٱلنَّشَاطِ .

ودارُ ٱلمنهاجِ قدِ ٱضطلعَتْ مشكورَةً بٱستخراجِ جواهِرِ ٱلتُّراثِ مِنْ أَعماقِ ٱلمكتباتِ ٱلمخطوطَةِ ، ودأَبَتْ علىٰ إِبرازِ كُنوزِنا ٱلثَّمينَةِ تتهادىٰ في حُلَلِ

---

(١) كذا في الأَصلِ .

(٢) المقدمة لـ« يتيمة الدهر » (١/ ٥) .

ٱلتَّحقيقِ ، وها هيَ ٱليومَ تُهدي إِلىٰ عُشَّاقِ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ هـٰذا ٱلسِّفْرَ ٱلنَّافِعَ ، وسوفَ ترحبُ بهِ ٱلمكتبَةُ ٱلعربيَّةُ ، وتبتسِمُ لَهُ لغةُ ٱلضَّادِ .

وبعدُ :

فإِنَّ هـٰذا ٱلكتابَ غزيرُ ٱلمعاني ، رفيعُ ٱلأُسلوبِ ، عَزيزُ ٱلمباحِثِ ، رقيقُ ٱلحواشي ، بطينُ ٱلمحتوىٰ ، عظيمُ ٱلفائِدَةِ ، جمعَ بين ٱلمتانَةِ وٱلحلاوَةِ ، وٱلسُّهولَةِ وٱلجزالَةِ ، وٱلغوصِ لانتقاءِ ٱلجواهِرِ ٱلثَّمينَةِ ، كيفَ لاَ ومُؤَلِّفُهُ فردُ دهرِهِ ، وشمسُ عصرِهِ ، ومفتي قطرِهِ .

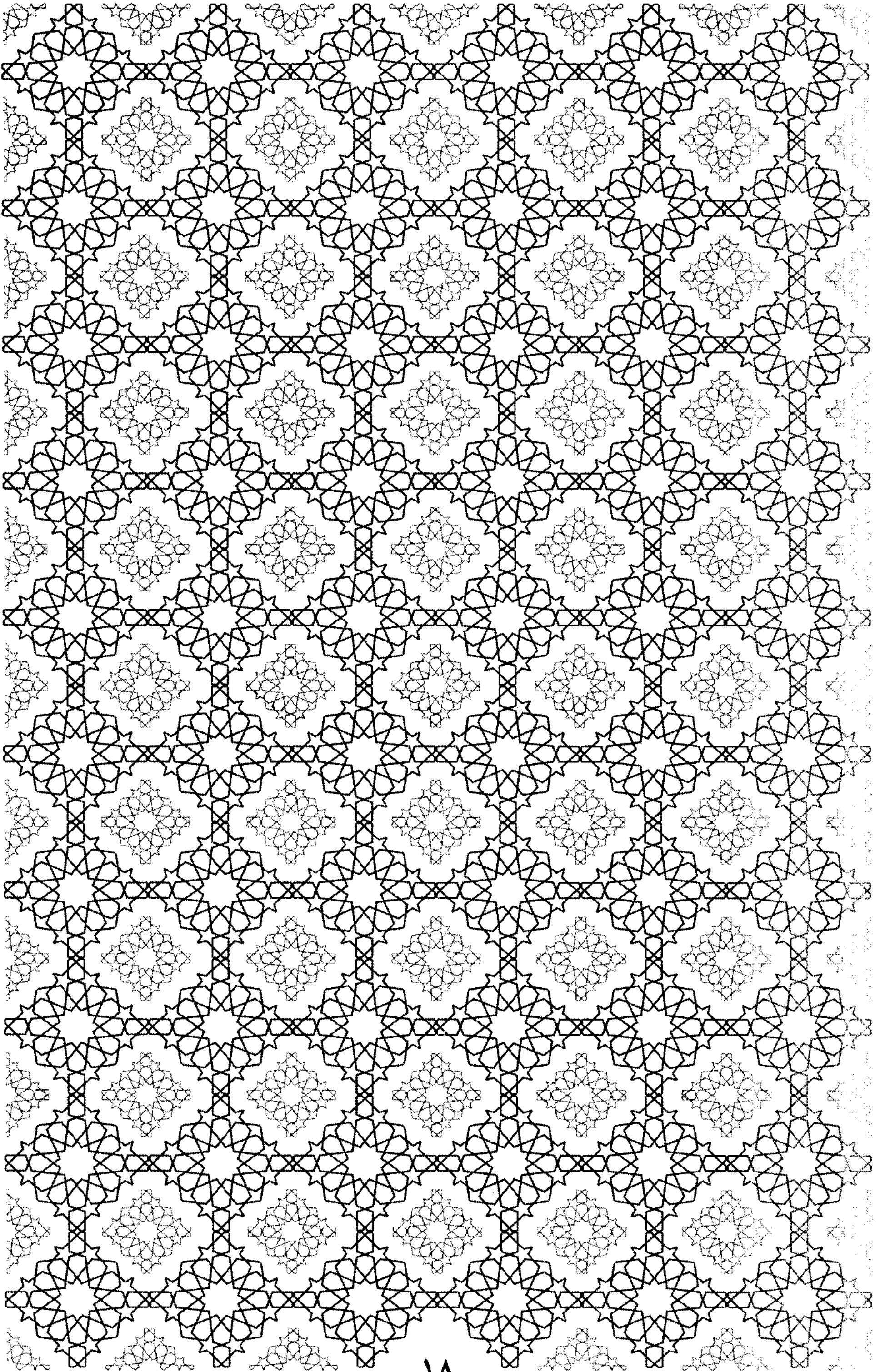
كتبه أبو عبد الباري عجلاً خجلاً

الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل

في ١٥/ ٨/ ١٤٢٢هـ

* * *

مقدّمة التحقيق



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

بقلم/ محمد مصطفى الخطيب

الحمدُ للهِ ٱلعليمِ ٱلعلاَّمِ ، ٱلرَّحيمِ ٱلرَّحمٰنِ ، أَنزلَ ٱلقرآنَ ، خَلَقَ ٱلإِنسانَ ، عَلَّمَهُ ٱلبيانَ .

وٱلصَّلاةُ وٱلسَّلامُ علىٰ نبيِّهِ ٱلهادِ ، أَفصحِ مَن نطقَ بٱلضَّادِ ، وعلىٰ آلهِ وصحبهِ ذوي ٱلرَّأْيِ وٱلسَّدادِ .

أَمَّا بعدُ :

فقد قيلَ : راوِحوا ٱلقلوبَ ساعةً فساعةً ؛ فإِنَّها إِذا كَلَّتْ . . عَمِيَتْ .

فكما أَنَّ ٱلجسدَ يتعبُ ويطلُبُ ٱلرَّاحةَ ، فكذلكَ ٱلرُّوحُ وٱلنَّفْسُ ، وخصوصاً في هٰذهِ ٱلأَيَّامِ ٱلَّتي كثُرَتْ فيها ٱلمشاغِلُ وٱلمنغِّصاتُ ، وصارَتِ ٱلحاجَةُ مُلِحَّةً إِلىٰ ما يُستأْنَسُ بهِ ويُستروَحُ إِليهِ بما لا يخرجُ عنِ ٱلإِطارِ ٱلشَّرعيِّ .

ولولا أَنَّ ٱلإِنسانَ مِن حينٍ لآخرَ يسمعُ كلاماً حسناً يميِّزُهُ بعينِ عقلِهِ ، أَو أَنَّهُ يرىٰ مَنظراً جميلاً يَراهُ بعينِ رأْسِهِ ، ثُمَّ ينعكِسُ ذلكَ إِيجاباً علىٰ مِرآةِ فِكرِهِ . . لَتكالَبَتْ عليهِ ٱلهمومُ وٱلغمومُ ، وَلَعَلَتْهُ ٱلكآبَةُ وٱلحزْنُ .

وقد أَوضحَ هٰذا ٱلمعنىٰ ٱلشاعرُ في قولِهِ :

أَفِدْ طَبْعَكَ ٱلْمَكْدُوْدَ بِٱلْهَمّ راحةً بحزمٍ وعلله بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْمَزْحِ

وَلَٰكِـنْ إِذَا أَعْطَيْتَـهُ ٱلْمَـزْحَ فَلْيَكُـنْ بِمِقْدَارِ مَا تُعْطِي الطَّعَامَ مِنَ ٱلْمِلْحِ

هذا هو المِقياسُ .

وكتابُنا هـٰذا كالواحةِ لِطُلاَّبِ العلمِ ؛ فمؤلِّفُهُ مِنَ العلماءِ البارزينَ وهوَ مَن هوَ في العالَمِ الإسلاميِّ . . ولعلَّهُ مِن حُسنِ الحظِّ والطَّالِعِ أَنْ يُؤَلِّفَ عالِمٌ مثلُهُ كتاباً في هـٰذا الفنِّ .

ومِنْ مقاصِدِ طباعةِ هـٰذا الكتابِ أَنْ يكونَ حافزاً ومساعِداً لحفظِ الشَّواهِدِ الشِّعريَّةِ ، والقَصَصِ الأَدبيَّةِ والأَمثالِ الحِكَميَّةِ . . الَّتي يُستأْنَسُ بها ، ويعذُبُ إيرادُها عندَ المناسبَةِ ، بَل وبِها تقوىٰ الحُجَّةُ . . كما أَنَّ في بعضِ القصَصِ العِظةَ والعبرَةَ ، كيفَ والخالقُ سبحانَهُ يَقولُ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠]؟!

وَإِذا علِمنا ذلكَ . . فنقولُ : إِنَّ الإِسلامَ ورسولَهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم قد أَوجدا لنا الطريقَ والخلاصَ من معاناة الروح ، وتعب النفس ، وبينوا لنا كيفية صفاء القلب ، فجعَلوا الطَّريقَ إِلىٰ تسليةِ الرُّوحِ مباحاً ، ولـٰكِنَّهم وَضَعوا لها ضوابطَ .

فهـٰذا النَّبيُّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم كانَ يمزَحُ ولـٰكِنَّهُ ما كانَ لِيقولَ غيرَ الحقِّ .

فنراهُ عندَما تأْتي إِليهِ العجوزُ وتقولُ لهُ : ادعُ اللهَ أَنْ يجعلَني مِن أَهلِ الجنَّةِ يقولُ لها : « **يا أُمَّ فُلاَنٍ . . إِنَّ الجَنَّةَ لاَ تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ** » فَوَلَّتِ المرأَةُ وهيَ تبكي ، فقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لاَ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَهِيَ عَجُوزٌ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُوْلُ** : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾

[الواقعة : ٣٥ـ٣٧] » .

وجاءَتْهُ امرأَةٌ أُخرىٰ ، فقالَت : يا رسولَ اللهِ . . احمِلني علىٰ بعيرٍ ،

فقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « احمِلُوْهَا عَلَىٰ ٱبْنِ ٱلْبَعِيْرِ » ، فقالَتْ ما أَصنعُ بهِ ما يحمِلُني؟! فقالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم « هَلْ مِنْ بَعِيْرٍ إِلاَّ ٱبْنُ بَعِيْرٍ » فكانَ يمزحُ معَها .

وكذلكَ ٱلأَئِمَّةُ ٱلأَعلامُ ما كانوا لِيَخرجوا عَنِ ٱلطَّريقِ ٱلَّتي رسمَها لهم سيِّدُ ٱلأَنام صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم فهٰذا الإمام ٱبنُ عبَّاسٍ رضيَ ٱللهُ عنهُما كانَ يقولُ ـ إِذا أَكثَروا عليهِ في مسائِلِ ٱلقرآنِ وٱلحديثِ ـ : خُذوا في ٱلشِّعرِ وأَخبارِ ٱلعَربِ .

ونرىٰ ٱلإِمامَ عمرَ بنَ عبدِ ٱلعزيزِ يحثُّ علىٰ تعلُّمِ ٱلأَدَبِ قائلاً :

إِنَّ في ٱلمحادَثَةِ تلقيحاً للعقولِ ، وترويحاً للقلوبِ ، وتسريحاً لِلْهَمِّ ، وتنقيحاً للأَدَبِ .

وأَنشدَ أَبو نُوَاسٍ :

أُرَوِّحُ ٱلْقَلْبَ بِبَعْضِ ٱلْهَزْلِ ... تَجَاهُلاً مِنِّيْ بِغَيْرِ جَهْلِ
أَمْزَحُ فِيْهِ مَزْحَ أَهْلِ ٱلْفَضْلِ ... وَٱلْمَزْحُ أَحْيَاناً جَلاَءُ ٱلْعَقْلِ

وقَد كانَ أَصحابُ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يمزحونَ بحضْرَتِهِ ولا يُنكِرُ عليهم شيئاً مِن ذلكَ .

روىٰ ٱلبُخاريُّ في « ٱلأَدَبِ ٱلمفرَدِ » : كانَ أَصحابُ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يتبادَحونَ ـ يترامون ـ بِٱلبِطِّيخِ ، فإِذا كانَتِ ٱلحقائِقُ . كانوا هُمُ ٱلرِّجالَ .

ورُوي أَنَّ رجلاً أَتىٰ برجُلٍ إِلىٰ عليِّ ٱبنِ أَبي طالبٍ فقالَ : إِنَّ هٰذا زعمَ أَنَّهُ ٱحتلمَ علىٰ أُمِّي فقالَ : أَقِمهُ في ٱلشَّمسِ وٱضرِبْ ظلَّهُ ٱلحدَّ .

هٰذا وقد ينفعُ ٱلمِزاحُ في بعضِ ٱلأَحيانِ ويُنجي مِنَ ٱلشَّدائِدِ فقد حُكِيَ : أَنَّ

بعضهم أهدىٰ للحجّاج تيناً قبلَ أوانِهِ ؛ ليأخُذَ منهُ ٱلجائزَةَ ، فلمّا قَرُبَ مِن دارِ ٱلحجّاجِ . . إذا بٱلشُّرطِيِّ قد أقبلَ ومعهُ طائِفَةٌ مِنَ ٱللُّصوصِ وقد هربَ منهُم واحدٌ فأخذَ ٱلشُّرطِيُّ صاحبَ ٱلتِّينِ عوضاً عنهُ ، وقرنَهُ معهم ، فلمّا عرضَه علىٰ ٱلحجّاجِ . . أمرَ بضربِ أعناقِهِم ، فلمّا قُدِّمَ صاحبُ ٱلتِّينِ . . صاحَ : أيُّها ٱلأميرُ . . لستُ منهُم فقالَ : ما شأنُكَ؟ فقصَّ عليهِ ٱلقِصَّةَ فقالَ : إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعونَ ، كادَ ٱلملعُونُ يهلكُ ظُلماً ، ثُمَّ قالَ : ما تريدُ مِنَ ٱلجائزَةِ؟ فقالَ : أيُّهَا ٱلأميرُ . . أُريدُ فأساً . قالَ : وما تصنعُ بها؟ قالَ : أقطعُ بِها جِذعَ ٱلشَّجَرةِ ٱلَّتي عرَّفَتْ بيني وبينَكَ . فضحِكَ ٱلحجّاجُ وأجازَهُ جائزَةً سنيَّةً .

وٱلكتابُ ٱلَّذي بينَ أيدينا . . هوَ كتابٌ مِنَ ٱلأدَبِ ٱلرَّفيعِ ؛ فقد ٱستطاعَ مؤلِّفُهُ بما ٱمتازَ بهِ مِنَ ٱلذَّكاءِ ٱلوَقّادِ . . أن يقسمه إلى أبواب وفصول ، حتّىٰ يصلَ إلىٰ فكرةٍ واضحة ومعنىً محدَّدٍ ، فلا تسمع بمعنى من معاني ٱلشَّجاعَةِ ، وٱلشَّهامَةِ ، وٱلإيثارِ ، وٱلفداءِ ، وٱلمحبّةِ ، وٱلوفاءِ ، وٱلتَّضحيَةِ عندَ ٱلعربِ . . إلاَّ وتجدُ له فصلاً يتحدث عنه في هذا الباب يبرزُهُ مؤلِّفُهُ في أحسنِ صورةٍ ، معَ ما يتعلَّقُ بهِ مِنَ ٱلجانِبِ ٱلشَّرعيِّ . . ولذلكَ رُبَّما تجدُ موضوعاً ما وقد انتقل بهِ ٱلمؤلِّفُ مِنَ ٱلجانِبِ ٱلشِّعريِّ إلىٰ ٱلجانِبِ ٱلشَّرعيِّ ، فتجدُهُ يغوص في ٱلتَّفسيرِ وٱلحديثِ وٱلتّاريخ بطريقَةٍ فريدَةٍ ، تستطيعُ من خلالها أنْ ترىٰ ٱلموضوعَ ٱلواحِدَ مِنْ زوايا متعدِّدَةٍ ، ولهٰذا فنحنُ محظوظونَ بهٰذا ٱلمؤلَّفِ . . . وفي هٰذا ٱلعصرِ بٱلذّاتِ .

وفي تركيزِنا علىٰ ٱلمِزاحِ في واقعِ حياتِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم إضاءَةٌ لجانبٍ مِن جوانبِ ٱلأدَبِ ٱلكثيرةِ ؛ حيثُ إنَّ ٱلأدَبَ فنٌّ مِنَ ٱلفنونِ ، يشملُ أنواعاً كثيرةً .

مِنها : ٱلمزاحُ .

ومنها : ٱلكلامُ ٱلنَّثريُّ ٱلبليغُ .

ومنها : ٱلشِّعْرُ .

أَمَّا إذا أَردنا ٱلحُكمَ ٱلشَّرعيَّ لِكُلِّ نوعٍ مِن هٰذا ٱلفنِّ . . فعلينا أَنْ نلجأَ إِلىٰ ٱلمشرِّعِ ٱلحكيمِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم .

فأَمَّا ٱلنَّوعُ ٱلأَوَّلُ : فقد تكلَّمنا عنه بما فيهِ كفايَةٌ للموضوعِ .

وأَمَّا ٱلنَّوعُ ٱلثَّاني : فقد سأَلَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم عمرَو بنَ ٱلأَهْتَم عَنِ ٱلزِّبرقانِ بنِ بدرٍ ، فقالَ عمرٌو : مُطاعٌ في أَدْنَيْهِ ، شديدُ ٱلعارِضَةِ ، مانعٌ لِما وراءَ ظهرِهِ .

فقالَ ٱلزِّبرقانُ : وٱللهِ يا رسولَ ٱللهِ . . إِنَّهُ ليعلمُ مِنِّي أَكثرَ مِمَّا قالَ ، ولٰكِنَّهُ حَسَدَني شَرَفي .

فقالَ عمرٌو : أَمَّا لَئِن قالَ ما قالَ . . فوٱللهِ ما علمتُهُ إلاَّ ضَيِّقَ ٱلصَّدرِ ، زَمِرَ ٱلمروءَةِ ، أَحمقَ ٱلوالدِ ، لئيمَ ٱلخالِ ، حديثَ ٱلغنىٰ .

فلمَّا رأَىٰ أَنَّهُ خالَفَ قولُهُ ٱلآخِرُ قولَهُ ٱلأَوَّلَ ، ورأَىٰ ٱلإِنكارَ في عيني رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم . . قالَ : يا رسولَ ٱللهِ . . رضيتُ . . فقلتُ أَحسنَ ما علمتهُ ، وغضِبتُ . . فقلتُ أَقبحَ ما علمتُ ، وما كذبتُ في ٱلأُولىٰ ، ولقد صدقتُ في ٱلأُخرىٰ .

فقالَ رسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم عندَ ذلكَ : « **إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْراً** » .

وأَمَّا ٱلنَّوعُ ٱلأَخيرُ : فنراهُ أَحياناً يشدِّدُ في ٱلمنعِ فيقولُ : « **لأَنْ يَمْتَلِىءَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً . . خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِىءَ شِعْراً** » ، ويقولُ : « **لأَنْ يَكُوْنَ جَوْفُ ٱبْنِ آدَمَ مَمْلُوْءاً قَيْحاً . . خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَكُوْنَ مَمْلُوْءاً شِعْراً** » .

بينما نراهُ في ٱلحين ٱلآخرِ يقولُ : « إِنَّ مِنَ ٱلشِّعْرِ حِكْمَةً » .

وكذلك فإِنَّ الإِسلامَ لَم يُهمِلِ ٱلشِّعرَ بَلْ أَعادَ له مكانتَهُ ، وأَذكىٰ جَذْوتَهُ علىٰ لسانِ سيِّدنا رسولِ الله صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم حينما قالَ لحسَّانَ : « اهْجُ ٱلْمُشْرِكِيْنَ ؛ فَإِنَّ رُوْحَ ٱلْقُدُسِ مَعَكَ » . بَل إِنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم قد نصبَ لحسَّانَ منبراً في ٱلمسجدِ .

ثُمَّ ما كانَ فتحُ (مكَّةَ) إِلاَّ استجابةً لأَبياتٍ حرَّكتِ ٱلحبيبَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم حين أَنشَدَهُ عمرو بنُ سَالمٍ الخزاعيُّ [مِنَ ٱلرَّجز] :

يَا رَبِّ إِنِّيْ نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ... حِلْفَ أَبِيْهِ وَأَبِيْنَا ٱلأَتْلَدَا

إِنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوْكَ ٱلْمَوْعِدَا ... وَنَقَضُوْا مِيْثَاقَكَ ٱلْمُؤَكَّدَا

وَقَتَّلُوْنَا رُكَّعاً وَسُجَّدَا[1]

فٱهتزَّ صلواتُ ٱللهِ عليه قائِلاً : « نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ . . نُصِرْتَ يَا عَمْرُو » .

وَلا يغيبُ عن أَحدٍ أَنَّ النَّبيَّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم أَجازَ ببردَتِهِ ٱلشَّريفَةِ مَن أَباحَ دَمَهُ ولو كانَ متعلِّقاً بأَستارِ ٱلكعبةِ . . حينمَا أَنشدَهُ مفتتحاً بصريحِ ٱلغزلِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِيْ ٱلْيَوْمَ مَتْبُوْلُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُوْلُ[2]

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوْا ... إِلاَّ أَغَنُّ غَضِيْضُ ٱلطَّرْفِ مَكْحُوْلُ[3]

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً ... لاَ يُشْتَكَىٰ قِصَرٌ مِنْهَا وَلاَ طُوْلُ[4]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٩٤) .

(٢) متبول : أَسقمه الحبُّ وأَضناهُ . ولم يُفْدَ : لم يخلص من الأَسرِ . مكبولٌ : مقيَّدٌ .

(٣) الأَغنُّ : الظبي الصغير الذي في صوته غُنَّةٌ . **غضيضُ ٱلطَّرفِ** : فاتِرُهُ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٥٠٤) .

وهٰكذا ٱحتضَنَ ٱلإسلامُ هٰذهِ ٱلمادَّةَ ٱلشَّاعريَّةَ ٱلعلميَّةَ ؛ ليجعلَ منها تاجاً على غُرَّةِ ذلكَ ٱلعصرِ . . بعد أَن توَّجَها بتاجِ كتابِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، ثُمَّ بتاجِ ينابيعِ ٱلحِكَمِ ٱلنَّبويَّةِ ٱلشَّريفَةِ ، وَأَينعَت هٰذهِ ٱلثَّمرةُ في صدرِ ٱلإسلامِ علىٰ لسانِ ٱلصَّحبِ ٱلكرامِ ، أَمثالِ حسَّانَ بنِ ثابتٍ ، وكعبِ بنِ زُهيرٍ ، وعبدِ اللهِ بنِ رواحةَ ، وٱلخنساءِ ، وغيرهم . . وإنْ كَانَ مِنْ أَمثالِ لبيدِ بنِ ربيعة أَنِ ٱستثقَلَ نفسَهُ أَنْ يتكلَّم بٱلشِّعرِ بعدَ أَن فاضَتْ في روحِهِ محبَّةُ كتابِ ٱللهِ وسُنَّةُ نبيِّهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم .

وٱلقولُ ٱلحقُّ في ٱلشِّعرِ هوَ قولُ ٱللهِ تعالىٰ : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ـ٢٢٧] .

وعن عائِشَةَ رضيَ ٱللهُ عنها قالَتْ : سُئِل رَسولُ ٱللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم عَنِ ٱلشِّعرِ فقالَ : « **هُوَ كَلَامٌ فَحَسَنُهُ حَسَنٌ ، وَقَبِيْحُهُ قَبِيْحٌ** » .

وإذا علمنا هٰذا . . فلا أَروعَ ولا أَحلىٰ مِنَ ٱلأَدَبِ ؛ لفكِّ عُقَدِ ٱلنَّفسِ وتسليَتِها بما يفيدُها ، وهوَ ٱلحَلُّ ٱلأَمثلُ في هٰذهِ ٱلأَيَّامِ ، فلنعقِد فصلاً خاصّاً حولَ مفهومِ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ وأَدوارِهِ ٱلَّتي مَرَّ بها .

* * *

ٱلأَدَبُ ـ مفهومه وتاريخه

كلمةُ (أدب)[١] مِنَ ٱلكلماتِ ٱلَّتي تطوَّرَ معناها بتطوُّرِ حياةِ ٱلأُمَّةِ ٱلعربيَّةِ ، مِن دَورِ ٱلبَداوَةِ إِلىٰ أَدوارِ ٱلمَدَنِيَّةِ وٱلحضارَةِ ، وقدِ ٱختلفَتْ عليها معاني متقاربَةٌ ، حتَّىٰ أَخذَتْ معناها ٱلَّذي يتبادَرُ إِلىٰ أَذهانِنا ٱليومَ وهوَ :

الكلامُ ٱلإِنشائِيُّ ٱلبَليغُ ، ٱلَّذي يُقصَدُ بهِ ٱلتَّأْثيرُ في عواطِفِ ٱلقُرَّاءِ وٱلسَّامعينَ ، سواءٌ أَكانَ شِعراً أَم نثراً .

وإِذا ما عدنا إِلىٰ ٱلمُعجمِ ٱلعربيِّ للبحثِ عَنْ معنىٰ كلمةِ (أدب) . . فإِنَّنا نجدُ لفظَ (آدِب) بمعنىٰ ٱلدَّاعي إِلىٰ ٱلطَّعامِ ، ومِن ذلكَ (ٱلمَأْدُبَةُ) بمعنىٰ ٱلطَّعامِ ٱلَّذي يُدعىٰ إِليهِ ٱلنَّاسُ .

وٱشتقُّوا مِنْ ذلكَ (أدُب يأدُب) بمعنىٰ صنعَ مأدُبةً ، أو دَعا إِليها .

وهـٰكذا فأَصلُ ٱلأَدَبِ ٱلدُّعاءُ ، وبهـٰذا ٱلمعنىٰ وَرَدَتْ في ٱلشِّعرِ ٱلجاهليِّ ؛ فقد جاءَ علىٰ لسانِ طرفةَ بنِ ٱلعبدِ [مِنَ ٱلرَّملِ] :

نَحْـنُ فِـيْ ٱلْمَشْتَـاةِ نَـدْعُـو ٱلْجَفَلَـىٰ ... لاَ تَـــرَىٰ ٱلآدِبَ فِيْنَـــا يَنْتَقِــــرْ[٢]

ومعَ مرورِ ٱلزَّمَنِ ٱنتقلَتْ دِلالَةُ ٱلكَلِمَةِ مِنْ معناها ٱلحِسِّيِّ إِلىٰ معناها

---

(١) اقتبسنا هذه المقدمة من كتاب « تاريخ الأدب العربي » للدكتور : شوقي ضيف ، و« تاريخ الأدب العربي » للأستاذ : أحمد حسن الزيات .

(٢) الجَفَلىٰ : الدعوة العامة . ينتقر : أي يدعو دعوة خاصة وينتقي .

ٱلمُجرَّدِ ، شأْنُها في ذلكَ شأْنُ بقيَّةِ ٱلكلماتِ ٱلمعنويَّةِ ، ٱلَّتي تُستَخدَمُ أَوَّلاً في معنىً حسيٍّ حقيقيٍّ . . . ثُمَّ تخرجُ منهُ إِلىٰ معنىً ذِهنيٍّ مَجازيٍّ .

جاءَ في « تاجِ ٱلعروسِ » (الأَدَب) محرَّكَةً : ٱلَّذي يتأَدَّبُ بهِ ٱلأَديبُ مِنَ ٱلنَّاسِ ، سُمِّيَ بهِ ؛ لأَنَّهُ يُؤَدِّبُ ٱلنَّاسَ إِلىٰ ٱلمحامِدِ ، وينهىٰ عَنِ ٱلقبائِحِ .

وبهـٰذا ٱلمعنىٰ ٱلتَّهذيبيِّ وَرَدَتْ في حديثِ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم إذ يقولُ : « **أَدَّبَنِيْ رَبِّيْ فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِيْ** » .

وقد حافَظَتِ ٱلكلمةُ علىٰ معناها ٱلتَّهذيبيِّ في عصرِ بني أُميَّةَ ، وأُضيفَ إِليها معنىً ثانٍ جديدٌ ، وهوَ معنىً تأْديبيٌّ ؛ فقد وُجدَ طائفةٌ مِنَ ٱلمعلِّمينَ تُسمَّىٰ بـ (ٱلمؤَدِّبينَ) ، كانوا يُعلِّمونَ أَولادَ ٱلخلفاءِ ٱلشِّعرَ وٱلخُطَبَ ، وأَخبارَ ٱلعربِ وأَنسابَهم ، وأَيَّامهم في ٱلجاهليَّةِ وٱلإِسلامِ .

وأَتاحَ هـٰذا ٱلاستخدامُ لكلمَةِ (أَدب) أَنْ تُصبِحَ مقابلةً لكلمَةِ (ٱلعلمِ) ٱلَّذي كانَ يُطلَقُ حينئِذٍ علىٰ ٱلشَّريعَةِ ٱلإِسلاميَّةِ ، وما يَتَّصِلُ بها مِن دراسَةِ ٱلفقهِ وٱلحديثِ وتفسيرِ ٱلقرآنِ ٱلكريمِ .

وفي ٱلعصرِ ٱلعبَّاسيِّ تقاربَ ٱلمعنيانِ ـ ٱلتَّهذيبيُّ وٱلتَّعليميُّ ـ في ٱستخدامِ ٱلكلمةِ ؛ فقد سَمَّىٰ ٱبنُ ٱلمُقَفَّعِ رسالَتَينِ لهُ تَتَضمَّنانِ ضروباً مِنَ ٱلحِكَمِ وٱلنَّصائحِ ٱلخُلُقيَّةِ وٱلسِّياسيَّةِ بٱسمِ « ٱلأَدَبِ ٱلصَّغيْرِ » و« ٱلأَدَبِ ٱلكبيرِ » .

ولَم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّىٰ صارتِ ٱلكلمَةُ تُطلَقُ علىٰ معرفَةِ أَشعارِ ٱلعربِ وأَخبارِهم ، وقد أُلِّفتْ كُتُبٌ بهـٰذا ٱلمعنىٰ ، سمَّوها كُتُبَ أَدَبٍ ، مثلَ « ٱلبيانِ وٱلتَّبيِيْنِ » للجاحظِ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٢٥٥هـ) .

ومثلُهُ كتابُ « ٱلكاملِ في ٱللُّغَةِ وٱلأَدَبِ » للمبرِّدِ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٢٨٥هـ) ، جاءَ في مقدِّمَةِ هـٰذا ٱلكتابِ : (هـٰذا كتابٌ أَلَّفناهُ ، يجمعُ ضُروباً مِنَ ٱلآدابِ ،

ما بينَ كلامٍ منثورٍ ، وشِعرٍ مرصوفٍ ، ومَثَلٍ سائرٍ ، وموعظَةٍ بالغَةٍ ، واختيارٍ مِن خُطبَةٍ شريفَةٍ ورسالَةٍ بليغَةٍ)[1] .

ومثل كتابِ « ٱلكاملِ » كتابُ « عُيونِ ٱلأخبارِ » لابنِ قُتَيبةَ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٢٧٦هـ) ، و« ٱلعِقدِ ٱلفريدِ » لابن عبدِ ربِّهِ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٣٢٨هـ) ، و« زَهرِ ٱلآدابِ » للقيروانيِّ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٤٥٣هـ) . وغيرِها .

هـٰذا ولَم تقفِ ٱلكلمَةُ عندَ هـٰذا ٱلمعنىٰ ٱلتَّعليميِّ ٱلخاصِّ بصناعتَي ٱلنَّظمِ وٱلنَّثرِ وما يتَّصِلُ بهما مِنَ ٱلمُلَحِ وٱلنَّوادِرِ ؛ فقد ٱتَّسعتْ أَحياناً لتشملَ كُلَّ ٱلمعارِفِ غيرَ ٱلدينيَّةِ ٱلَّتي تَرقىٰ بٱلإِنسانِ مِنْ جانبَيهِ ٱلاجتماعيِّ وٱلثَّقافِيِّ .

وبهـٰذا ٱلمعنىٰ نجدُها عندَ (إخوانِ ٱلصَّفا) في ٱلقرنِ ٱلرَّابعِ للهجرَةِ ؛ فقد دَلُّوا بها في رسائِلِهم إِلىٰ جانِبِ علومِ ٱللُّغَةِ وٱلبيانِ وٱلتَّاريخِ وٱلأَخبارِ . . علىٰ علومِ ٱلسِّحرِ وٱلكيمياءِ وٱلحسابِ وٱلمُعاملاتِ وٱلتِّجاراتِ .

ولا نصلُ إِلىٰ ٱبنِ خلدونَ ٱلمتوفَّىٰ سنةَ (٨٠٨هـ) حتَّىٰ نجدَها تُطلَقُ علىٰ جميعِ ٱلمعارفِ دِينيَّةً وغيرَ دِينيَّةٍ ، يقولُ ٱبنُ خلدونَ :

ٱلأَدَبُ هوَ حفظُ أَشعارِ ٱلعربِ ، وٱلأَخذُ مِن كُلِّ علمٍ بِطرفٍ .

وعلىٰ ٱلعمومِ أَخذَتِ ٱلكلِمَةُ تدلُّ منذُ أَواسطِ ٱلقرنِ ٱلماضي علىٰ معنيينِ ٱثنينِ :

أَوَّلاً : معنىً عامٌّ : يتناولُ كُلَّ ما يُكتبُ في ٱللُّغَةِ ، سواءٌ كانَ عِلماً أَم فلسفَةً أَم أَدَباً خالِصاً ؛ فكلُّ ما ينتجُهُ ٱلعقلُ وٱلشُّعورُ يُسمَّىٰ أَدَباً .

ثانياً : معنىً خاصٌّ : يشملُ ٱلأَدَبَ ٱلخالِصَ ٱلَّذي لا يُرادُ بِهِ مُجرَّدُ ٱلتَّعبيرِ

---

(١) الكامل (١/٢) .

عَن معنىً مِنَ ٱلمعاني ، بل يُرادُ بهِ أَيضاً أَنْ يكونَ جميلاً بحيثُ يؤَثِّرُ في عواطِفِ ٱلقارىءِ وٱلسَّامِعِ ، علىٰ نحوِ ما هوَ معروفٌ في صناعتَي ٱلشِّعرِ وفنونِ ٱلنَّثرِ .

* * *

تاريخُ ٱلأَدَبِ :

إِنَّ ٱلاختلافَ في تعريفِ (ٱلأَدبِ) يقودُ إِلىٰ ٱلاختلافِ في ٱلمقصودِ مِن (تاريخِ ٱلأَدَبِ) ، وفي ٱلمجالِ ٱلَّذي تدورُ فيهِ مباحِثُ ٱلتَّأْريخِ ٱلأَدبيِّ .

فإِذا أَخذنا بما قالَهُ ٱبنُ خلدونَ مِن أَنَّ ٱلأَدَبَ هوَ : (حفظُ أَشعارِ ٱلعربِ ، وٱلأَخذُ مِن كُلِّ علمٍ بطرفٍ) . . كانَ علىٰ ٱلمؤَرِّخِ ٱلأَدَبيِّ أَنْ يُؤَرِّخَ للحياةِ ٱلعقليَّةِ وٱلشُّعوريَّةِ للأُمَّةِ ٱلعربيَّةِ ؛ لأَنَّ ٱلأَخذَ مِن كُلِّ علمٍ بطرَفٍ يَعني : إِغناءَ ٱلأَدَبِ بعلومِ ٱلعربيَّةِ (نحو ـ صرف ـ بلاغة . . . إلخ) ، وبٱلعلومِ ٱلشَّرعيَّةِ (حديث ـ تفسير . . . إلخ) ، وبٱلعلومِ ٱلإِنسانيَّةِ (فلسفة ـ اجتماع . . . إلخ) .

فهٰذهِ ٱلعلومُ كلُّها ترفدُ ٱلأَدَبَ ، وتعينُ علىٰ فهمِهِ . ولعلَّ أَهمَّ مَن أَرَّخَ لأَدبنا بهٰذا ٱلمعنىٰ (بروكلمان) في كتابِهِ « تاريخُ ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ » .

وإِذا أَخذنا بٱلقولِ ٱلَّذي يقولُ : (ٱلأَدَبُ كلامٌ جميلٌ يُؤَثِّرُ في ٱلنَّفسِ) . . كانَ علىٰ مُؤَرِّخِ ٱلأَدَبِ أَن يَقصُرَ مباحِثَهُ علىٰ دراسَةِ ٱلأَدَبِ ، شعرِهِ ونثرِهِ ، فيعرِفَ موضوعاتِهِ ، ويلاحِقَ تطوُّرَهُ ، ويبرزَ ملامِحَهُ وسماتِهِ في كُلِّ عصرٍ مِنَ ٱلعُصورِ ، وكانَ عليهِ أَن يُلِمَّ بشخصيَّاتِهِ دراسةً وتحليلاً ؛ ليكشفَ عمَّا تأَثَّروا بهِ مِن أُمورِ ٱلثَّقافَةِ وٱلسِّياسةِ وٱلعقيدَةِ .

* * *

تقسيماتُ تاريخِ ٱلأَدَبِ وعصورِهِ :

اتَّجهَ معظمُ مؤرِّخي ٱلأَدَبِ ٱلعربيِّ في تقسيمِهِ إِلىٰ أَعصُرٍ تعادِلُ ٱلأَعصُرَ ٱلتَّاريخيَّةَ وٱلسِّياسيَّةَ ، فجعلوا ٱلأَدوارَ ٱلَّتي مرَّ بها تاريخُ ٱلأَدَبِ خمسةَ أَدوارٍ ، وهي :

١ـ **العصرُ ٱلجاهليُّ** : نهايتُهُ ظهورُ ٱلإِسلامِ وعمرُهُ قرنٌ ونصفٌ .

٢ـ **عصرُ صدرِ ٱلإِسلامِ** : بدايتُهُ ظهورُ ٱلإِسلامِ ،ونهايتُهُ سقوطُ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ سنةَ (١٣٢هـ) .

ومِنَ ٱلمؤَرِّخينَ من يقسمُ هـٰذا ٱلعصرَ إِلىٰ قسمينِ .

أ ـ عصرُ صدرِ ٱلإِسلامِ : وهوَ إِلىٰ نهايةِ عصرِ ٱلخلفاءِ ٱلرَّاشدينَ .

ب ـ عصرُ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ .

٣ـ **العصرُ ٱلعبَّاسيُّ** : أَوَّلُهُ سقوطُ بني أُميَّةَ ، وآخرُهُ سقوطُ (بغدادَ) بأَيدي ٱلتتار (٦٥٦هـ) .

٤ـ **عصرُ ٱلدُّوَلِ ٱلمُتتابعَةِ** : أَوَّلُهُ سقوطُ (بغدادَ) ، ونهايتُهُ نزولُ ٱلحملَةِ ٱلفرنسيَّةِ بـ (مصرَ) سنة (١٢١٣هـ) .

٥ـ **عصرُ ٱلنَّهضَةِ ٱلحديثَةِ** : ٱلَّذي يمتدُّ إِلىٰ أَيَّامِنا هـٰذهِ .

وٱلَّذي يخصُّنا في كتابِنا هـٰذا هوَ : ٱلعصرُ ٱلعبَّاسيُّ ٱلَّذي نشأَ فيهِ ٱلمتنبِّي ، فلنعقِد لهُ فصلاً خاصّاً مستعينين بٱللهِ .

* * *

العصرُ ٱلعبَّاسيُّ :

عصرُ ٱلدَّولَةِ ٱلعبَّاسيَّةِ هوَ عصرُ ٱلإسلامِ ٱلذَّهبيُّ ، ٱلَّذي بلغَ فيهِ ٱلمسلمونَ مِنَ ٱلعمرانِ وٱلسُّلطانِ ما لم يبلغوهُ مِن قبلُ ولا من بعدُ .

أثمرَتْ فيهِ ٱلفنونُ ٱلإسلاميَّةُ ، وزهَتِ ٱلآدابُ ٱلعربيَّةُ ، ونُقلَتِ ٱلعلومُ ٱلأجنبيَّةُ ، ونضجَ ٱلعقلُ ٱلعربيُّ ، فوجدَ سبيلاً إلىٰ ٱلبحثِ ، ومجالاً للتَّفكيرِ .

وملوكُ هـٰذهِ ٱلدَّولَةِ ينتمونَ إلىٰ ٱلعبَّاسِ عمِّ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ، ٱنتزعوا ٱلخلافَةَ قسراً مِنْ يدِ ٱلأمويِّينَ بمعونَةِ ٱلفرسِ ، وأقاموا عرشَها بـ (ٱلعراقِ) ، وتبوَّأَهُ منهم سبعةٌ وثلاثونَ خليفةً في خمسةِ قرونٍ وبعضِ ٱلقرنِ ، حتَّىٰ ثلَّ ذلكَ ٱلعرشَ (هولاكو) سنةَ (٦٥٦هـ) ، وما زالتْ حضارَةُ ٱلدَّولَةِ وآدابُها تهبطُ بهبوطِها ، حتَّىٰ سقطَتْ بسقوطِها .

وتختلفُ هـٰذهِ ٱلدَّولةُ عَنِ ٱلدَّولَةِ ٱلأمويَّةِ بأحوالٍ سياسيَّةٍ وعمرانيَّةٍ ، كانَ لها ٱلأثَرُ ٱلظَّاهِرُ في أدَبِ ٱللُّغَةِ .

فٱلدَّولَةُ ٱلأمويَّةُ : كانَت عربيَّةً خالصَةً ، تعصَّبَتْ للعربِ ولغتِهم وآدابِهم ، وجعلَتْ قاعدَتها (دمشقَ) علىٰ حدودِ باديَتِهم .

وكانَ جنودُها وقوَّادُها وكُتَّابُها وسائِرُ عمَّالِها مِنَ ٱلعربِ ، فلم يحدُث في أدبِ ٱللُّغَةِ تأثيرٌ إلاَّ ما ٱقتضاهُ ٱلتَّحضُّرُ وٱتِّساعُ ٱلعمرانِ .

أمَّا ٱلدَّولةُ ٱلعبَّاسيَّةُ : فقدِ ٱصطبغَتْ بصِبغَةٍ فارسيَّةٍ ؛ لأنَّ ٱلفرسَ هُمُ ٱلَّذينَ أوجدوها وأيَّدوها ، فٱتَّخذَتْ قصبتَها (بغدادَ) ـ أقرَبَ ٱلأمصارِ إلىٰ بلادهِم ـ وأطلقَ ٱلخلفاءُ أيدي ٱلموالي في سياسَةِ ٱلدَّولَةِ فٱستقلُّوا بشؤُونها ، وٱستبدُّوا بأُمورِها ، وكالوا للعربِ مِنَ ٱلحقارَةِ وٱلمهانَةِ صاعاً بصاعٍ .

فضعفتِ ٱلعصبيَّةُ ٱلعربيَّةُ ، وعلا صوتُ ٱلشُّعوبيَّةِ ، ونتجَ مِن ذلكَ دخولُ

ٱلعناصِرِ ٱلفارسيَّةِ وٱلتُّركيَّةِ وٱلسُّريانيَّةِ وٱلرُّوميَّةِ وٱلبربريَّةِ في تكوينِ ٱلدَّولَةِ ، وتمازُجُهم بٱلتَّزاوُجِ وٱلتَّناسُلِ ، وٱختلاطُ ٱلمدنيَّةِ ٱلآريَّةِ بٱلمدنيَّةِ ٱلسَّاميَّةِ ، ولكلٍّ مِنها لُغةٌ وأَخلاقٌ وعاداتٌ وٱعتقاداتٌ أَثَّرَتْ في ٱلأُخرىٰ .

ناهيكَ بما ٱمتازَتْ بهِ هٰذهِ ٱلدَّولَةُ مِن إِطلاقِ ٱلحريَّةِ في ٱلدِّينِ وتعدُّدِ ٱلفِرَقِ[١] ، وشيوعِ ٱلمقالاتِ ٱلمختلفَةِ في ٱلإِلحادِ وٱلسِّياسةِ ، وتكاثُرِ ٱلجواري وٱلغِلمانِ ، وٱلاسترسالِ في ٱلخلاعَةِ وٱلمجونِ ، وٱلتَّأنُّقِ في ٱلطَّعامِ وٱللِّباسِ ، وٱلتَّنافُسِ في ٱلبناءِ وٱلرِّياشِ .

وكُلُّ ذلكَ لَهُ أَثرٌ بيِّنٌ في ٱللُّغَةِ وآدابِها ، وسنعقِدُ ٱلفصلَ ٱلتَّالي للدِّلالَةِ علىٰ ذلكَ .

* * *

أَثرُ ٱلفتوحِ وٱلسِّياسةِ وٱلحضارَةِ في ٱللُّغَةِ :

فَتَحَ ٱلمسلمونَ في أَواخِرِ ٱلدَّولَةِ ٱلأُمويَّةِ أَكثرَ ٱلمعروفِ حينئِذٍ مِنَ ٱلدُّنيا ٱلقديمةِ .

فٱمتدَّ ملكُهُم مِنَ (ٱلهندِ) و(ٱلصِّينِ) شَرقاً إِلىٰ (جبالِ بيرانس) غَرباً ، وٱنبسطَ سلطانُهم علىٰ تلكَ ٱلشُّعوبِ ، وٱستولىٰ دينُهم علىٰ ٱلأَفئِدَةِ ، ولغتُهم

---

(١) نجمَتْ في ٱلأُمَّةِ ٱلإِسلاميَّةِ مِن غيرِ أَهلِ ٱلسُّنَّةِ فرقٌ كثيرةٌ ، يُكفِّرُ بعضُها بعضاً ، وٱنشعبَتْ كُلُّ فرقَةٍ إِلىٰ فِرَقٍ متعدِّدَةٍ ، ترىٰ كُلُّ واحدَةٍ مِنها ٱلحقَّ معها دونَ ٱلأُخرىٰ .

ومِنْ أَشهَرِ هٰذهِ ٱلفِرَقِ : ٱلمعتزلَةُ وهم عشرونَ فرقةً ، وٱلشِّيعةُ وهمُ ٱثنتانِ وعشرونَ ، وٱلخوارجُ وهُم سبعُ فِرَقٍ .

وكُلُّ أُولٰئِكَ : منهم جبريَّةٌ ، ومنهم مشبِّهَةٌ . . . ولِكلِّ شُعبةٍ لَقَبٌ تُعرفُ بهِ .

علىٰ ٱلأَلسنَةِ ، فأَسلمتْ هـٰذهِ ٱلأُمَمُ ٱلمختلِفَةُ ، وٱمتزجَتْ تلكَ ٱلعناصِرُ ٱلمتبايِنةُ .

وسارعوا إِلىٰ تعلُّمِ ٱللُّغَةِ ٱلعربيَّةَ وٱلتَّكلُّمِ بِها ؛ تقرُّباً مِنَ ٱلفاتِحِ ، وٱستدراراً للرِّزقِ ، وتفقُّهاً في ٱلدِّينِ ، فكثُرَ ٱللَّحنُ ، وسرَتْ عدواهُ إِلىٰ ٱلباديَةِ ، وقد كانَ قاصراً علىٰ ٱلحاضرَةِ .

وبقيَ داءُ ٱلعُجمَةِ يستفحلُ بينَ ٱلعامَّةِ وٱلصُّنَّاعِ ، بٱلرَّغمِ مِن محاربَةِ ٱلأَئِمَّةِ وأُولي ٱلأَمرِ لهـٰذا ٱلوباءِ بتدوينِ علومِ ٱللِّسانِ ، وتقبيحِ ٱلعامِّيَّةِ ، ومَقْتِ ٱلمتكلِّمينَ بها ، حتَّىٰ نشأَ في كلِّ إِقليمٍ لغةٌ عامِّيَّةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ ٱلعربيَّةِ ، ومِن لغةِ ٱلإِقليمِ ٱلوطنيَّةِ .

وقدِ ٱتَّسعَتْ دائِرَةُ ٱللُّغَةِ بما ٱقتضاهُ تمدُّنُ ٱلدَّولَةِ ، ونقلُ ٱلعلومِ عَنِ ٱلفارسيَّةِ وٱلهنديَّةِ وٱليونانيَّةِ مِنَ ٱلمُصطلحاتِ ٱلعلميَّةِ ، وٱلأَلفاظِ ٱلإِداريَّةِ وٱلسِّياسيَّةِ وٱلاقتصاديَّةِ وٱلمنزليَّةِ .

وكانَ لـ (دارِ ٱلحكمَةِ) ٱلَّتي أَنشأَها ٱلمأْمونُ ٱلفضلُ ٱلأَكبرُ في تهذيبِ ٱلكُتبِ ٱلمُترجَمَةِ ، وتوحيدِ ٱلأَسماءِ ٱلمُعرَّبَةِ .

ثُمَّ رقَّتِ ٱلأَلفاظُ ؛ لانغماسِ ٱلقومِ في ٱلحضارَةِ ، وإِخلادِهِم إِلىٰ ٱلتَّرَفِ ، وإِيثارِ ٱلموالي لِلكَلِمِ ٱلسَّهلِ وٱلأُسلوبِ ٱللَّيِّنِ ؛ لأَنَّهُم حذَقُواٱللُّغَةَ بٱلدِّراسَةِ وٱلصَّنعةِ ، لا بٱلتَّلقينِ وٱلطَّبعِ .

وٱقتبستِ ٱلعربيَّةُ مِنَ ٱلفارسيَّةِ غيرَ ٱلأَلفاظِ كثيراً مِنَ ٱلأَساليبِ .

١ـ كٱلتَّبجيلِ في ٱلخطابِ .

٢ـ وٱلاحتشامِ معَ ٱلمخاطَبِ .

٣ـ وإِسنادِ ٱلشَّيءِ إِلىٰ ٱلحضرَةِ وٱلجَنابِ وٱلمجلِسِ .

٤ـ وإِحداثِ ٱلأَلقابِ وٱلنُّعوتِ للخلفاءِ وٱلوزراءِ وٱلكُتَّابِ وٱلقُوَّادِ ، كـ : (ٱلسَّفاحِ وٱلرَّشيدِ وذي ٱلرِّئاستينِ وركنِ ٱلدَّولَةِ . . . إِلخ) .

٥ـ وٱلإِسهابِ في ٱلعهودِ وٱلرَّسائِلِ .

٦ـ وتأْديَةِ ٱلمعنىٰ ٱلواحدِ بأَلفاظٍ كثيرةٍ ، وجُمَلٍ مترادِفَةٍ .

وغير ذلكَ مِمَّا زانَ ٱللُّغَةَ مِنْ جهَةٍ وشانَها مِنْ جهَةٍ أُخرىٰ .

وما زالتِ ٱللُّغَةُ تتَّسِعُ وتنمو باتِّساعِ ٱلمُلكِ ، وتقدُّمِ ٱلعلمِ ونموِّ ٱلحضارَةِ ، وتنتشرُ وتسمو في حِمىٰ ٱلدِّينِ وظِلِّ ٱلخلافَةِ وسُلطانِ ٱلعربِ ، حتَّىٰ خلافَةِ ٱلمُتَوكِّلِ علىٰ ٱللهِ سنةَ (٢٣٢هـ) ؛ إِذِ ٱستفحَلَ أَمرُ ٱلأَتراكِ ٱلَّذينَ جلبَهُمُ ٱلمعتصِمُ مِنَ (ٱلتُّركستانِ) ، فأَخذوا يغالبونَ ٱلعرَبَ ، ويواثبونَ ٱلفرسَ ، ويغتصبونَ ٱلسُّلطانَ .

وكانَ ٱلأَمرُ للموالي بعدَ غلبَةِ ٱلمأمونِ ـ وهُم شيعَةٌ ـ فجاءَ ٱلمتوكِّلُ فعضَدَ ٱلأَتراكَ ، ونصرَ ٱلسُّنَّةَ .

فتقاتَلَ ٱلعنصرانِ ، وتناضَلَ ٱلمذهبانِ ، وٱبتغىٰ كُلٌّ منهُما ٱلفَلَجَ وٱلفوزَ بقهرِ ٱلعربِ ، وكبتِ ٱلخلفاءِ ، حتَّىٰ ذهبَ جلالُ ٱلخلافَةِ مِنَ ٱلنُّفوسِ ، وزالَتْ هيبتُها مِنَ ٱلقلوبِ ، فٱستشرفَ ولاةُ ٱلأَطرافِ إِلىٰ ٱلاستقلالِ .

وبدأَ بنو بويهِ فوضَعوا أَيديَهُم سنةَ (٣٣٤هـ) علىٰ شؤُونِ ٱلدَّولَةِ في (بغدادَ) ، وٱمتدَّ نفوذُهم إِلىٰ جُلِّ ٱلممالِيكِ ٱلشَّرقيَّةِ ٱلإِسلاميَّةِ ، فأَخذَ سلطانُ ٱلعربِ وٱلعربيَّةِ يتراجَعُ في ٱلشَّرقِ ، وهَبَّ أَحفادُ ٱلأَكاسِرَةِ ، وأَبناءُ ٱلدَّهاقينِ يستردُّونَ مجدَ أَجدادِهم ، ويطارِدونَ ٱللُّغةَ ونفوذَها في بلادِهم .

وطَلبوا إِلىٰ شعرائِهم مِنْ أَمثالِ (ٱلدَّقيِّ وٱلفردوسيِّ)[1] أَنْ يُجدِّدوا مفاخرَ

---

(١) أَلَّفَ ٱلفردوسيُّ كتاباً سمَّاهُ : « شاه نامه » ، وهوَ ستُّونَ أَلفَ بيتٍ مِنَ ٱلشِّعرِ ، يشتملُ علىٰ=

ٱلأَسلافِ بتأْليفِ ٱلمنظوماتِ ٱلقصصيَّةِ ، وٱلأَناشيدِ ٱلقوميَّةِ .

ومِنَ ٱلعجيبِ أَنْ تَمَّ لَهُم ذلكَ سريعاً ؛ فإِنَّ ٱلمتنبِّيَ ـ وهوَ مِن رجالِ ٱلقرنِ ٱلرَّابعِ ـ يقولُ وقد زارَ (شِعبَ بوَّانَ) من بلادِ ٱلفرسِ :

مَغَانِيْ ٱلشِّعْبِ طِيْباً فِيْ ٱلْمَغَانِيْ ... بِمَنْـزِلَـةِ ٱلـرَّبِيْـعِ مِـنَ ٱلـزَّمَـانِ
وَلٰكِـنَّ ٱلْفَتَـىٰ ٱلْعَـرَبِـيَّ فِيْهَـا ... غَـرِيْـبُ ٱلْـوَجْـهِ وَٱلْيَـدِ وَٱللِّسَـانِ
مَـلَاعِـبُ جِنَّـةٍ لَـوْ سَـارَ فِيْهَـا ... سُلَيْمَـانٌ لَسَـارَ بِتَـرْجُمَـانِ

ثُمَّ ٱقتدىٰ بٱلفرسِ في ذلكَ ٱلأَتراكُ وٱلأَكرادُ .

ولٰكنَّ ٱلعربيَّةَ بقيَتْ في حِمىٰ ٱلقرآنِ تدافِعُ سيلَ ٱلفارسيَّةِ وٱلتُّركيَّةِ ٱلجارِفَ .

وقد عزَّ ٱلنَّصيرُ مِن أَهلِها ، حتَّىٰ غلَبَ ٱلتَّتارُ علىٰ (بغدادَ) فغُلِبَتْ علىٰ أَمرِها ، وخضعَتْ لقانونِ ٱلطَّبيعَةِ ٱلقاهرةِ بعدما خلَّفت في تلكَ ٱلبلادِ شرائِعَ وعلوماً وآداباً لَم تقوَ علىٰ محوِها ٱلأَيَّامُ .

* * *

= تاريخِ ٱلفُرسِ ، وهوَ قرآنُ ٱلقومِ ، وقد أَجمعَ فصحاؤُهم علىٰ أَنَّهُ ليسَ في لغتِهم أَفصحَ منهُ .

ترجمة
أبي الطيّب المتنبّي
٣٠٣-٣٥٤هـ

بقلم/ محمد مصطفىٰ الخطيب

نشأتُهُ وحياتُه :

أَبو ٱلطَّيِّبِ أَحمدُ بنُ ٱلحسينِ ٱلمُتَنبِّي ، وُلِدَ بـ(ٱلكوفةِ) من أَبوينِ فقيرَينِ .

كانَ أَبوهُ سقَّاءً بٱلكوفَةِ ، ثُمَّ سافرَ بهِ وهو صغيرٌ إِلىٰ (ٱلشَّامِ) متنقِّلًا مِنَ ٱلباديَةِ إِلىٰ ٱلحاضرَةِ ، يُسلِمُهُ إِلىٰ ٱلمَكاتِبِ ، ويُردِّدُهُ في ٱلقبائِلِ ، ومخايلُهُ نواطِقُ بفضلِهِ ، ضوامِنُ لنُجحِهِ . . حتَّىٰ تُوُفِّيَ أَبوهُ ، وقد ترعرَعَ ٱلشَّاعِرُ ، ونالَ حظَّهُ مِن علومِ ٱللُّغَةِ وٱلأَدبِ ، فأَخذَ يضربُ في ٱلأَرضِ ؛ ٱبتغاءً للرِّزقِ وٱكتساباً للمجدِ .

وكانَ ٱلمُتنبِّي منذُ نشأَتِهِ كبيرَ ٱلنَّفسِ ، عاليَ ٱلهِمَّةِ ، طَموحاً إِلىٰ ٱلمجدِ ، بلغَ مِن كِبَرِ نفسهِ أَن دعا إِلىٰ بيعتِهِ بٱلخلافَةِ وهو لَدْنُ ٱلعودِ ، حديثُ ٱلسِّنِّ .

وحينَ كادَ يتمُّ ٱلأَمرُ . . تأَدَّىٰ خبرُهُ إِلىٰ والي ٱلبلدةِ . . فأَمرَ بحبسِهِ ، فكتبَ إِليهِ مِنَ ٱلسِّجنِ قصيدةً [مِنَ المتقاربِ] :

أَمَالِكَ رِقِّي وَمَنْ شَأْنُهُ	هِبَاتُ ٱللُّجَيْنِ وَعِتْقُ ٱلْعَبِيْدْ
دَعَوْتُكَ عِنْدَ انقِطَاعِ ٱلرَّجَا	ءِ وَٱلْمَوْتُ مِنِّيْ كَحَبْلِ ٱلْوَرِيْدْ
دَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَانِيْ ٱلْبِلَىٰ	وَأَوْهَنَ رِجْلَيَّ ثِقْلُ ٱلْحَدِيْدْ

فأَطلقَهُ .

ولٰكنَّ حُبَّ ٱلرِّياسَةِ لَم يَزَلْ مُتمكِّناً مِنْ قلبِهِ إِلىٰ أَنْ أَخلقَ بُردَ شبابِهِ ، وتضاعَفَ عقودُ عُمُرِهِ .

وفي سنة (٣٣٣هـ) ٱدَّعىٰ ٱلنُّبُوَّةَ في (ٱلشَّامِ) ، وفتَنَ شِرذمةً مِنَ ٱلنَّاسِ بقوَّةِ أَدَبِهِ ، وسحرِ بيانِهِ .

ولمَّا سُئِلَ عَنِ ٱلنَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم . . قالَ إِنَّهُ بشَّرَ بمَجيئِي ، وأَخبرَ بنبوَّتي ؛ فقالَ : « لا ، نبيٌّ بَعدي » ، وأَنا ٱسمي في ٱلسَّماءِ (لا) .

وصنَّفَ كلاماً عارضَ بهِ ٱلقرآنَ ، فلمَّا ٱشتهَرَ أَمرُهُ . . قَبَضَ عليهِ لؤلؤٌ أَميرُ حِمصَ ، نائِبُ ٱلإِخشيديَّةِ ، فأَوثَقَهُ ، ثُمَّ أَطلقَهُ بعدَ أَنِ ٱستتابَهُ وتَفرَّقَ عنهُ أَصحابُهُ .

فطَفِقَ يَتَجَشَّمُ أَسفاراً أَبعدَ مِن آمالِهِ ، ولا زادَ إِلَّا صبرُهُ ، ولا عُدَّةَ إِلَّا بأسُهُ ، كمَا يتجلَّىٰ ذلكَ في مِثْلِ قولِهِ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَحِيدٌ مِنَ ٱلخُلَّانِ في كُلِّ بَلْدَةٍ ... إِذَا عَظُمَ ٱلمَطْلُوبُ قَلَّ ٱلمُسَاعِدُ

وقولِهِ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

ضَاقَ صَدْرِيْ وطَالَ فِي طَلَبِ ٱلرِّزْ ... قِ قِيَامِيْ وَقَلَّ عَنْهُ قُعُوْدِيْ

أَبَداً أَقْطَعُ ٱلبِلَادَ وَنَجْمِيْ ... فِيْ نُحُوْسٍ وَهِمَّتِيْ فِيْ سُعُوْدِ

ولَمْ يَزَلْ هٰكذا حتَّىٰ ٱتَّصَلَ بأَبي ٱلعشائِرِ ـ والي (أَنطاكيَّة) مِنْ قِبَلِ سيفِ ٱلدَّولَةِ ـ وٱمتدَحَهُ فأَكرَمَ مثواهُ ، وقدَّمَهُ إِلىٰ سيفِ ٱلدَّولَةِ ، وعرَّفَهُ بمنزلتِهِ مِنَ ٱلشِّعرِ وٱلأَدَبِ .

فَضَمَّهُ ٱلأَميرُ إِليهِ ، وحَسُنَ موقِعُهُ عندَهُ ، فسلَّمَهُ إِلىٰ ٱلرُّوَّاضِ فعلَّموهُ ٱلفروسيَّةَ ، وٱلطِّرادَ ؛ حتَّىٰ لا يفارِقَهُ في ٱلحربِ ولا في ٱلسِّلْمِ .

ودرَّت لَهُ أخلافُ ٱلدُّنيا علىٰ يَديهِ ، حتَّىٰ كانَ مِن قولِهِ فيهِ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

تَرَكْتُ ٱلسُّرَىٰ خَلْفِيْ لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِيْ بِنُعْمَاكَ عَسْجَدَا
وَقَيَّدْتُ نَفْسِيْ فِيْ هَوَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ ٱلإِحْسَانَ قَيْداً . . تَقَيَّدَا

ولَم يَزَلْ معَهُ في حالٍ حَسَنَةٍ حتَّىٰ حَدَثَتْ بينَهما جفوةٌ ، ففارَقَهُ إِلىٰ (مصرَ) في سنة (٣٤٦هـ) .

ومدحَ كافوراً ٱلإخشيديَّ وأَبا شجاعٍ .

وأقامَ في (مصرَ) خمسَ سنينَ يرقُبُ ٱلفرصَةَ مِن كافورٍ فيصعَدُ ٱلمجدَ علىٰ كاهِلِهِ .

فما هو إِلَّا أَن قالَ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

أَبَا ٱلْمِسْكِ هَلْ فِيْ ٱلْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ فَإِنِّيَ أَغْنَىٰ مُنْذُ حِيْنٍ وَتَشْرَبُ

وقالَ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَهَلْ نَافِعِيْ أَنْ تُرْفَعَ ٱلْحُجْبُ بَيْنَنَا وَدُوْنَ ٱلَّذِيْ أَمَّلْتُ مِنْكَ حِجَابُ
وَفِيْ ٱلنَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيْكَ فَطَانَةٌ سُكُوْتِيْ بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

حتَّىٰ أَوجَسَ كافورُ منهُ خِيفةً ؛ لتعاليهِ في شعرِهِ ، وطموحِهِ إِلىٰ ٱلمُلْكِ ، فزوىٰ عنهُ وجهَهُ ، فهجاهُ ، وقَصَدَ (بغدادَ) .

ولم يمدحِ ٱلوزيرَ ٱلمُهلَّبيَّ ؛ لأَنَّهُ كانَ يترفَّعُ عن مدحِ غيرِ ٱلملوكِ ، فشقَّ ذلكَ علىٰ ٱلوزيرِ ، فأَشلىٰ عليهِ شعراءَ (بغدادَ) فنالوا من عِرضِهِ ومن شِعرِهِ .

ولٰكنَّهُ لَم يُجِبْهم ، وذَهَبَ قاصداً (أَرَّجانَ) ؛ لزيارَةِ ٱلفضلِ بنِ ٱلعميدِ ، فكتبَ إِليهِ ٱلوزيرُ ٱلصَّاحِبُ بنُ عبَّادٍ يستزيرُهُ بـ(أَصبهانَ) ؛ طامعاً أَن يمدحَهُ . . فلَم يُقِمْ لهُ وزناً ، وأَمَّ عَضُدَ ٱلدَّولةِ بـ(شيراز) .

فأُوغِرَ عليهِ قلبُ ٱلصَّاحبِ ، وأَخذَ يَتَتَبَّعُ هفواتِهِ ـ وهو أَعلمُ ٱلنَّاسِ بحسناتِهِ ـ وشَنَّ عليهِ هو وأَشياعُهُ حرباً قَلَميَّةً ، وأَلَّفَ ٱلكتبَ في نقدِهِ ، ورمَوهُ بٱلسَّرقَةِ وٱلخروجِ عَنِ ٱلأَساليبِ ٱلعربيَّةِ ، وهو لا يأبَهُ لهم ؛ ذهاباً بنفسِهِ وإِعجاباً بشعرِهِ .

ولمَّا حَصَلَ عندَ عَضُدِ ٱلدَّولَةِ . . أَسبغَ عليهِ نعمتَهُ ، ووصلَهُ بثلاثَةِ آلافِ دينارٍ وخيولٍ وثيابٍ .

ثُمَّ دَسَّ مَنْ يسأَلُهُ : أَينَ هـٰذا ٱلعطاءُ مِن عطاءِ سيفِ ٱلدَّولَةِ ؟ فقالَ لهُ : هـٰذا أَجزلُ . . لـٰكنَّهُ مُتكلَّفٌ ، وسيفُ ٱلدَّولَةِ يُعطي طبعاً .

فغضِبَ عليهِ عضدُ ٱلدَّولَةِ مِن ذلكَ ، فجهَّزَ عليهِ فاتِكاً ٱلأَسديَّ ، ولمَّا بلغَهُ مغادَرَةُ ٱلمُتنبِّي لبلادِ فارسَ ، وعلمَ ٱجتيازَهُ بجبلِ ديرِ ٱلعاقولِ . . تتبَّعَ أَثَرَهُ .

وكانَ أَبو ٱلطَّيِّبِ قد مَرَّ بأَبي نصرٍ مُحَمَّدٍ ٱلحلبيِّ ، فأَطلَعَهُ علىٰ حقيقةِ ٱلأَمرِ ، وما ينويهِ فاتكٌ مِنَ ٱلشَّرِّ لَهُ ، ونصحَهُ بأَن يَصْحَبَ معهُ مَن يَستأْنِسُ بهِ في ٱلطَّريقِ .

فلَم يزدَدْ إِلَّا أَنفَةً وعناداً ، وأَبىٰ أَنْ يصحبَ معهُ أَحداً قائِلًا : أَنَا وٱلجُرازُ[1] في عُنُقي فَما بي حاجةٌ إِلىٰ مُؤْنِسٍ . ثُمَّ قالَ : وٱللهِ لا أَرضىٰ أَن يتحدَّثَ ٱلنَّاسُ بأَنَّني سِرتُ في خفارَةِ غيرِ سَيفي .

فحذَّرَهُ أَبو ٱلنَّصرِ كثيراً ، فما كانَ منهُ إِلَّا أَنْ أَجابَ :

---

(١) الجُرازُ : السيف .

أَبِنَجْوِ ٱلطَّيرِ تُخَوِّفُني؟ وَمِن عبيدِ ٱلعَصا تخافُ عَلَيَّ ؟!! وَٱللهِ لَو أَنَّ مِخْصَرتي هٰذهِ ملقاةٌ علىٰ شاطىءِ ٱلفراتِ ، وبنو أَسَدٍ معطَّشون لخَمسٍ ، وقد نظروا ٱلماءَ كبطونِ ٱلحيَّاتِ . . ما جَسَرَ لَهم خُفٌّ ولا ظِلفٌ أَنْ يَرِدَهُ ، معاذَ ٱللهِ أَن أَشغلَ فكري بهم لحظةَ عينٍ .

فقالَ لَهُ أَبو نصرٍ : قُلْ : إن شاءَ ٱللهُ .

فقالَ : هي كلمةٌ مقولَةٌ ، لا تَدفَعُ مَقضياً ، ولا تستجلِبُ آتياً .

ثُمَّ رَكِبَ وسارَ ، فلقيَهُ فاتِكٌ في ٱلطَّريقِ فقتَلَهُ وقتلَ معَهُ ولدَهُ مُحَسَّداً وغلامَهُ مُفلحاً .

وكانَ مقتَلُهُ في (٢٨) رمضان سنة (٣٥٤هـ) .

* * *

شعره :

المُتنبِّي شاعرٌ مِن شعراءِ ٱلمعاني ، وَفَّقَ بينَ ٱلشِّعرِ وٱلفلسفَةِ ، وجعلَ أَكثَرَ عنايتِهِ بٱلمعنىٰ ، وأَطلقَ ٱلشِّعرَ مِنَ ٱلقيودِ ٱلَّتي قَيَّدَهُ بها غيرُهُ مِنَ ٱلشُّعراءِ ، وخَرَجَ بهِ عَنْ أَساليبِ ٱلعربِ ٱلتَّقليديَّةِ ، فهوَ إِمامُ ٱلطَّريقَةِ ٱلابتداعيَّةِ في ٱلشِّعرِ ٱلعربيِّ .

ولقد حَظِيَ في شعرِهِ بٱلحِكَمِ وٱلأَمثالِ ، وٱختصَّ بٱلإِبداعِ في وصفِ ٱلقتالِ ، وٱلتَّشبيبِ بٱلأَعرابيَّاتِ ، وإِجادَةِ ٱلتَّشبيهِ ، وإِرسالِ ٱلمَثَلَيْنِ في ٱلبيتِ ٱلواحِدِ ، وحُسْنِ ٱلتَّخلُّصِ ، وصِحَّةِ ٱلتَّقْسِيمِ ، وإِبداعِ ٱلمديحِ ، وإِيجاعِ ٱلهجاءِ .

وأَخَصُّ ما يميِّزُ ٱلمُتنبِّيَ بروزُ شخصيَّتِهِ في شعرِهِ ، وصدقُ إِيمانِهِ برأْيِهِ ، وقُوَّةُ ٱعتدادِهِ بنفسِهِ ، وصِحَّةُ تعبيرِهِ عَنْ طبائِعِ ٱلنَّفْسِ ، ومشاغِلِ ٱلنَّاسِ ،

وأَهواءِ ٱلقلوبِ ، وحقائِقِ ٱلوجودِ ، وأَغراضِ ٱلحياةِ .

لذلكَ كانَ شِعرُهُ في كُلِّ عصرٍ مَدداً لكُلِّ كاتِبٍ ، ومَثَلًا لكُلِّ خاطِبٍ .

* * *

نموذجٌ مِن بديعِ شعرِهِ :

قالَ يشكو ٱلزَّمانَ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَمْ يَتْرُكِ ٱلدَّهْرُ مِنْ قَلْبِيْ وَلَا كَبِدِيْ ... شَيْئاً تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيْدُ

يَا سَاقِيَيَّ أَخَمْرٌ فِيْ كُؤُوْسِكُمَا ... أَمْ فِيْ كُؤُوْسِكُمَا هَمٌّ وَتَسْهِيْدُ ؟

أَصَخْرَةٌ أَنَا!؟ مَا لِيْ لَا تُغَيِّرُنِيْ ... هَٰذِيْ ٱلْمُدَامُ وَلَا تِلْكَ ٱلأَنَاشِيْدُ ؟

إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ ٱللَّوْنِ صَافِيَةً ... وَجَدْتُهَا وَحَبِيْبُ ٱلنَّفْسِ مَفْقُوْدُ

مَاذَا لَقِيْتُ مِنَ ٱلدُّنْيَا ؟ وَأَعْجَبُهَا ... أَنِّيْ بِمَا أَنَا بَاكٍ مِنْهُ مَحْسُوْدُ

وقالَ [مِنَ ٱلوافرِ] :

نَصِيْبُكَ فِيْ حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيْبٍ ... نَصِيْبُكَ فِيْ مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

رَمَانِيْ ٱلدَّهْرُ بِٱلأَرْزَاءِ حَتَّىٰ ... فُؤَادِيْ فِيْ غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِيْ سِهَامٌ ... تَكَسَّرَتِ ٱلنِّصَالُ عَلَىٰ ٱلنِّصَالِ

وَهَانَ فَمَا أُبَالِيْ بِٱلرَّزَايَا ... لأَنِّيْ مَا ٱنْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِيْ

وقالَ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

صَحِبَ ٱلنَّاسُ قَبْلَنَا ذَا ٱلزَّمَانَا ... وَعَنَاهُمْ مِنْ أَمْرِهِ مَا عَنَانَا

وَمُرَادُ ٱلنُّفُوْسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ ... نَتَعَادَىٰ فِيْهِ وَأَنْ نَتَفَانَىٰ

غَيْرَ أَنَّ ٱلْفَتَىٰ يُلَاقِيْ ٱلْمَنَايَا ... كَالِحَاتٍ وَلَا يُلَاقِيْ ٱلْهَوَانَا

وَلَوَ ٱنَّ ٱلْحَيَاةَ تَبْقَىٰ لِحَيٍّ ... لَعَدَدْنَا أَضَلَّنَا ٱلشُّجْعَانَا

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْمَوْتِ بُدٌّ ... فَمِنَ ٱلْعَارِ أَنْ تَمُوْتَ جَبَانَا

وقالَ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَأَتْعَبُ خَلْقِ ٱللهِ مَنْ زادَ هَمُّهُ   وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهِي ٱلنَّفسُ وُجْدُهُ
فَلَا مَجْدَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ   وَلَا مَالَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ
وَفِيْ ٱلنَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُوْرِ عَيْشِهِ   وَمَرْكُوْبُهُ رِجْلَاهُ وَٱلثَّوْبُ جِلْدُهُ

وقالَ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً   لِمَنْ بَاتَ فِيْ نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

ومِن أَمثالِهِ ٱلسَّائِرَةِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّىٰ ٱلْمَرْءُ يُدْرِكُهُ   تَجْرِيْ ٱلرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِيْ ٱلسُّفُنُ

ومِنها أَيضاً [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَمْ أَرَ فِيْ عُيُوْبِ ٱلنَّاسِ عَيْباً   كَنَقْصِ ٱلْقَادِرِيْنَ عَلَىٰ ٱلتَّمَامِ

ومِنها أَيضاً [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِيْ ٱلدُّنَىٰ سَرْجُ سَابِحٍ   وَخَيْرُ جَلِيْسٍ فِيْ ٱلأَنَامِ كِتَابُ

ومِنها [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِٱلسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ   تَعَدَّدَتِ ٱلأَسْبَابُ وَٱلْمَوْتُ وَاحِدُ

ومِنها [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوْسِ فَإِنْ تَجِدْ   ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
ذُوْ ٱلْعَقْلِ يَشْقَىٰ بِٱلنَّعِيْمِ بِعَقْلِهِ   وَأَخُو ٱلْجَهَالَةِ فِيْ ٱلشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
وَٱلْهَمُّ يَخْتَرِمُ ٱلْجَسِيْمَ نَحَافَةً   وَيُشِيْبُ نَاصِيَةَ ٱلصَّغِيْرِ وَيُهْرِمُ

* * *

ترجمة مؤلف الكتاب(١)

السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف

رحمه الله تعالى

بقلم/ محمد بن أبي بكر باذيب

المسرد النسبي :

هو : عبد الرحمن بن عبيد الله بن محسن بن علوي بن سقاف بن محمد بن عمر بن طه بن عمر بن طه بن عمر الصافي ابن عبد الرحمن بن محمد بن علي ابن الشيخ الكبير عبد الرحمن السقاف بن محمد (مولىٰ الدويلة) ابن علي بن علوي ابن الإمام الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد (صاحب مرباط) ابن علي (خالع قسم) ابن علوي (صاحب بيت جبير) ابن محمد (مولىٰ الصومعة) ابن علوي (صاحب سمل) ابن عبيد الله ابن المهاجر إلىٰ الله أحمد بن عيسىٰ بن محمد (النقيب) ابن علي (العريضي) ابن جعفر (الصادق) ابن محمد (الباقر) ابن علي (زين العابدين) ابن الإمام الشهيد السبط الحسين ابن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وابن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء البتول ابنة سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ .

نسبٌ تحسب العلا بحلاه   قلدتها نجومها الجوزاءُ(٢)

المولد والمنشأ :

كان مولد نابغة حضرموت في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٠٠هـ في

---

(١) هذه الترجمة اقتطفت من ترجمة حافلة موسعة للسيد السقاف . . هي قيد الإعداد والجمع والمراجعة وستصدر في كتاب مستقل إن شاء الله تعالىٰ . .

(٢) البيت مِنَ الخفيف .

المحل المسمىٰ (عَلَمْ بَدْر)[1] بمدينة سيؤن إحدىٰ أشهر المدن الحضرمية .

ونشأ مترجَمُنا نشأة صالحة في كنف أسرته . . وهي إحدىٰ الأسر المرموقة المشهورة بالعلم والكرم . . وظهر منها علماء كبار وأعلام أفذاذ كانوا ولا زالوا بهجة العصر وزينة الوقت . . فاجتمع للمتَرْجَم طِيبُ النِّجار وشَرَفُ الدار . . فوالده العابد الصالح العالم الآتي ذكره لاحقاً وجده السيد الجليل الزعيم المصلح الحبيب محسن بن علوي السقاف المتوفىٰ سنة ١٢٩١هـ . . الرجل الذي ملأت شهرته ربوع الوادي في عصره وكانت له مواقف سياسية واجتماعية مشهورة . . إلىٰ جانب زعامته الدينية والروحية . .

شيوخه :

أولهم والده السيد عبيد الله الرجل الصالح العابد الزاهد الورع كانت ولادته في ١٢٦١هـ ووفاته في ١٣٢٤هـ وكان والده يصطحبه إلىٰ رحاب شيخه الإمام الرباني العلامة عيدروس بن عمر الحبشي صاحب الغرفة المتوفىٰ بها سنة ١٣١٤هـ فأخذ عنه أخذاً تاماً وهو دون سن البلوغ وكان تأثره وتعلقه به قوياً للغاية . .

وكان ابتدأ تعلمه القرآن الكريم وقراءته علىٰ يد المعلم الصالح الشيخ عبد القادر بن عبد الله باحميد ، وقرأ النحو وما تعلق به علىٰ العلامة المتفنن الشيخ محمد بن محمد باكثير (ت١٣٥٥هـ) ، وقرأ الفقه وحقق مسائله علىٰ شيخه العلامة الفقيه مفتي سيؤن السيد علوي بن عبد الرحمن بن علوي السقاف (ت١٣٢٨هـ) .

وله جمع كبير من الشيوخ لا تتسع هذه العجالة لذكرهم . .

ولقد كانت الاستعدادات الفطرية والمواهب الذاتية لدىٰ المترجم له كبيرة جداً . . فقد رزقه الله عقلاً صافياً وفكراً نيراً وقريحة وقادة . .

وكان قوي الذاكرة سريع الاستحضار والبديهة . . يغوص في العلم ومسائله حتىٰ يستخرج اللآلي والدرر . . وما مصنفاته إلا شاهدة علىٰ صحة هذا القول وهذه

---

(١) أصل هذه الكلمة أو المسمىٰ هو (علي بن بدر) وإنما حرِّفت عن أصلها لكثرة تداولها . . ويبدوا أنه كان مسمىٰ لأحد أمراء آل كثير في الماضي .

الدعوىٰ . . فنظرة علىٰ « صوب الركام » أو « العود الهندي » ترد طَرْف الناظر حسيراً مملوءاً بالإعجاب والإكبار . .

حتىٰ إنه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يقول : كنت أيام شبابي أحياناً أضع يدي علىٰ الصفحة اليسرىٰ خوفاً من أن تقع عيني عليها ويسبق حفظي لها . . !

وقد قال عنه الشيخ حمد الجاسر :

ففضلًا عما لأسرته في (حضرموت) من المكانة وعلو المنزلة في نفوس أهل تلك البلاد . . بلغ مرتبةً من العلم أهّلته بينهم لأَنْ يحل أرفع المقامات ، فعُرف بعالم (حضرموت) ومفتي الديار الحضرمية وكان ذا نفوذ قوي في الشؤون العامة في تلك البلاد ، وصلة قوية بحكام أقاليمها ، وإسهام بارز في السعي لتوحيد أجزائها واستقلالها ، ورفع كابوس الاحتلال البريطاني الذي كان جاثماً عليها . كما كان قوي الصلة بإمام (اليمن) يحيىٰ حميد الدين ، بحيث كان يرجع إليه في معالجة بعض القضايا العامة المتعلقة بالخلافات التي تقع بين حكام تلك البلاد ، كما يتضح من إشارات وردت في بعض كتبه . انتهى[1] .

بهذه العبارات التي أوردها الشيخ الجاسر رحمه الله تعالىٰ فقد لخص لنا صفحات وصفحات من سيرة هذا الرجل . . فلقد كان له المواقف المذكورة والجهود المشكورة . . وصولات وجولات تركنا التوسع فيها للترجمة الموسعة التي ستصدر عنه إن شاء الله تعالىٰ . .

ولابأس أن نذكر في هذه اللمعة موقفاً له مع الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالىٰ . .

فلقد كانت له مواقف رجولية وبطولية كان فيها المتحدثَ الناصح والخبير بالشؤون السياسية وأمور الإصلاح فمما دار بينهما في مجلس عقد في موسم حج عام ١٣٥٢هـ . . ما حكاه ابن عبيد الله بنفسه حيث يقول :

---

(١) مجلة العرب العددان ٥/٦ ، السنة ٢٦ تاريخ ذي القعدة وذي الحجة ١٤١١هـ .

(. . ولما اجتمعت أنا بابن السّعود في ذلك العام ، بدأني بالحديث عن قضية الصلح بينه وبين إمام اليمن ، فكان موافقاً لما تحدث به إليَّ ابن الوزير سواءً بسواءٍ ، وقال لي الملك عبد العزيز : إنني لما أبرقت إلىٰ ولدي فيصل بالجلاء عن الحديدة أجابني : بأن الانتحار أهون عليه من ذلك ، فأجبته : بأن انتحارك لا يقلل من عدد أبنائي وقد نيّفوا علىٰ الأربعين ، ثم هو هيّن عليَّ في سبيل حقن دماء المسلمين . . هذا نص كلامه لي بمرأىٰ من ولده فيصل ومسمع)[1] .

وهكذا كانت تحركاته الواسعة داخل هذه الدائرة ، علت به إليها همته ، وحملته عزيمته ونيته . . وهنا يبرز لنا سؤال يفرض نفسه في هذا المقام : وهو بأي صفة كان يتكلم هذا الإمام مع الملوك والزعماء في السياسة والحروب وكأنه واحد منهم ؟ وكيف يتبادلون معه الأحاديث السياسية وكأنه خبير أو مستشار وهو لا يمثل دولة ؟ وليس له صفة سياسية ؟! إنه ولا شك يمثل دولة العلم ، إنها قوة الشخصية الممتلئة بالعلم والإيمان ، وبالحيوية والروح النورانية المكتسبة منذ الصغر من نظرات شيوخه العارفين[2] .

مؤلفاته :

صنف ابن عبيد الله مصنفات تشهد له بالبراعة وعلو الكعب . . وسنتحدث عن هذه المصنفات كدلائل وشواهد للجوانب العلمية التي حظي بها مترجمنا . . وكذلك لننفض الغبار عن الكنوز العظيمة التي خلفها الرجل . . عسىٰ ولعل أن تتاح الفرصة لنشرها وإظهارها . . ليعم النفع والانتفاع بها . .

أولاً ـ مصنفاته الفقهية :

١ ـ كتاب (صوب الركام في شؤون القضاء والأحكام) مجلدان وهو مطبوع .

٢ ـ حاشية علىٰ كتاب (فتح الجواد بشرح الإرشاد) .

---

(١) السيد عبد القادر الخرد من مقدمته علىٰ كتابه (صوب الركام) .

(٢) المصدر السابق .

٣ـ حاشية علىٰ كتاب (منهاج الطالبين) للإمام محيي الدين النووي رحمه الله .

٤ـ حاشية علىٰ التحفة . . أي تحفة المحتاج بشرح المنهاج .

ثانياً ـ مصنفاته في الحديث :

١ـ (بلابل التغريد فيما أفدناه أيام التجريد) ـ يقع في ثلاث مجلدات .

قال عنه الأستاذ الزركلي : هو أشبه بكتب الأمالي في ثلاثة أجزاء .

وقد صنفه أيام تدريسه للتجريد الصريح للجامع الصحيح (مختصر صحيح البخاري) للإمام العلامة الزبيدي الشرجي .

٢ـ حاشية علىٰ الشمائل النبوية للإمام الترمذي .

ثالثاً ـ مصنفاته التاريخية :

١ـ كتاب (بضائع التابوت في نتف من تاريخ حضرموت) يقع في ثلاث مجلدات ضخام قال عنه الزركلي مثنياً علىٰ كتاب (البضائع) المذكور : وأتىٰ فيه بعلم غزير في تاريخ حضرموت وبيوتها وحكامها وأعلامها إلىٰ استطرادات في فنون مختلفة من أدب وحديث وفقه ، إلىٰ وثائق سياسية ومعاهدات وملحوظات[١] .

٢ـ « إدام القوت » أو « معجم بلدان حضرموت » :

وهو الكتاب الذي قام الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ بنشره في مجلة « العرب » طوال خمس سنوات . . وهو كتاب يعنىٰ بتاريخ بلدان حضرموت مع ذكر لبعض أعيانها وقد اختصره من كتاب (بضائع التابوت) .

رابعاً ـ مؤلفاته الأدبية والنقدية :

الحديث عن الجانب الأدبي النقدي عند ابن عبيد الله حديث يطول ويطول . . فمن ذا يطاول قريع البلغاء وكبير الأدباء . . وحسبنا قبل أن ندلج إلىٰ وصف وذكر

---

(١) الأعلام : ٣/ ٣١٥ .

مصنفاته الأدبية التي أحدها كتابنا هذا (العود الهندي) الذي نتشرف بنشره. . أن نبين إن استطعنا أننا أمام رجل غير عادي. . رجل صاحب فكر حر وذهن صافي وفهم صحيح وذكاء وقاد إلىٰ غير ذلك من الصفات التي قلما تجتمع في رجل. . انظر معي إلىٰ حسن استنباطاته ودقة فهمه ما جاء في مقدمة ديوانه حيث أنه فهم من قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أنها تدل علىٰ فضيلة الشعر وعلو مقامه بعكس مفهوم المفسرين فيها. .

قال رضي الله عنه : ومن أنصع الأدلة علىٰ تفضيله ـ أي : الشعر ـ صرف سيد البشر ﷺ عن سبيله ، لأنه وإن كان الذكر علياً والفكر جلياً ، ويستحيل أن يشبه بلاغة القرآن غيره ، فإنه لا يمكن التشكيك إلا به. . عند من قل خيره ، فلو كان عليه السلام شاعراً لكان للشبهة مجاز ، فكونه أمياً لا يقرضه أبلغ في الإعجاز ، وأما ما ينسب إلىٰ الشعر من المذام ، فراجع إلىٰ العلة التي انتشرت بأهله كالجذام ، وهي التكسب القبيح بالغلو في المديح ، وقد صاننا الله عن ذلك فالساحة براء. . وبيننا وبين الذل ـ إلا الله وحده ـ سبل وعرة وأرض عراء. . إلخ .

كذلك تأمل معي المجلس الأول من كتابنا هذا والذي يدور حول بيتي المتنبي [مِنَ ٱلخفيف] :

بأبي من وددته فافترقنا	وقضىٰ الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولًا ولما التقينا	كان تسليمه عليّ وداعا

فيا ترىٰ. . ما السبب الداعي للبدء بالكلام علىٰ هذين البيتين ؟! ولِمَ شِعرُ الفراق هو المقدم عند ابن عبيد الله. . إن لذلك سبباً يرجع إلىٰ حسن استنباطه أيضاً. . إنه الاستنباط الذي انطلق من قاعدة قوية هي هذه الشخصية الفذة لتحلق في أفق عالية لم يصل إليها أحد. . ولتوضيح ذلك لننظر إلىٰ هذا الحوار الذي دار بين ابن عبيد الله وشيخه العلامة النابغة السيد أبي بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين رحمه الله. .

لقد دار ذلك الحوار بين الشيخ وتلميذه ، وكان مداره حول اختيار أحسن مواضيع الشعر وأيها أبلغ تأثيراً في النفوس .

(قال الشيخ « ابن شهاب » : أحسنها الغزل والنسيب ، ولهذا كان شعراء العرب يقدمون النسيب والغزل في قصائدهم. .

فاستوقفه تلميذه « ابن عبيد الله السقاف » قائلًا :

أما أنا. . فالذي أراه أن أحسن مواضيعه المؤثرة : شكوىٰ الفراق. . ولي دليل علىٰ ذلك من كتاب الله تعالىٰ .

فسأله شيخه : ما هو دليلك ؟

فأجابه : دليلي عليه من سورة يوسف ، قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ. . ﴾ وسورة يوسف كلها محتوية علىٰ شكوىٰ الفراق .

فاستحسن الشيخ « ابن شهاب » هذا الجواب من تلميذه النجيب النابغة وقبّل بين عينيه) .

أعتقد أن الحوار لا يحتاج إلىٰ أي تعليق. . فلقد قطعت جهيزة قول كل خطيب. . وإنما أردنا بإيرادنا لهذين الاستنباطين التمهيد للقارىء الكريم. . للانطلاق والتحليق في أجواء كتابنا هذا. . نعود إلىٰ متابعة ذكر مؤلفاته الأدبية والنقدية :

١ـ « العود الهندي عن أماليَّ في ديوان الكندي » .

وهو كتابنا الذي نقدمه للقارىء الكريم. . قال عنه الشيخ حمد الجاسر :

(يعد كتاب « العود الهندي » من أحفل كتب الأدب بالفوائد والفرائد من الأشعار والأخبار ، مما يدل علىٰ ما يتصف به مؤلفه من سعة الاطلاع ، مع رحابة الصدر في إيراد ما قد يتحاشىٰ البعض من إيراده من النكت والنوادر ، وقد يسوق بعد ما يورد من الشواهد طرائف من الشعر أو القصص الحديثة). .

وقال الشيخ الجاسر أيضاً في موضع آخر :

(ومع أن السيد السقاف لم يتلق العلم ـ فيما علمت عنه ـ خارج الجزيرة ، إلا أن المرء حين يطالع أحد مؤلفاته ككتابه عن المتنبي. . يعجب من سعة اطلاعه ، وقوة استحضاره للشواهد والنصوص عند الحاجة ، وسرعة بديهته) .

لقد اختار المؤلف تسمية كتابه هذا بـ « العود الهندي » ذلك المندل الزكي الرائحة ليتناسب مع كلمة (الطيّب) في كنيته المتنبي ، وكأنه يستنشق أريج أشعاره .

كما جعل لهذا الكتاب « مجالس » بدل « أبواب » أو « فصول » لأن الأشعار تتناسب معها مجالس الأدب والشعر ، وكأنه تخيل نفسه في مجالس مع المتنبي يستوحي ويستلهم من أشعاره الخالدة التي لا زالت الأقلام تأتي بالجديد والمفيد في فهمها وتحليلها ، لأنها أشعار في غاية البلاغة والجزالة وقوة السبك في صياغة شعرية لم يأت أحد بمثلها إلىٰ المعاني التي تفرد بالكثير منها .

فتناول في مجالسه ـ هذه ـ جل مواضيع شعر المتنبي من : غزل ، ومديح ، وفخر ، ورثاء وفراق ووفاق وغيرها .

وما دمنا نتكلم علىٰ اسم الكتاب فلا بأس أن نعرج إلىٰ نسبة المتنبي إلىٰ كندة :

أطلق ابن عبيد الله علىٰ كتابه الذي تذوق فيه ونقد بعض أبيات شاعر العربية الكبير المتنبي اسم « العود الهندي » ليوافق سجعة اللقب الذي أطلقه علىٰ المتنبي وهو « الكندي » . إن الذين ترجموا للمتنبي أجمعوا أنه ولد بمحلة بالكوفة تسمىٰ « محلة كندة » وهذه المحلة كانت خطة من خطط الكوفة نزلها في الصدر الأول جماعة من بطون كندة فسميت بهم .

فقد كان أهل اليمن وحضرموت يشكلون تعداداً قدره ستة آلاف دار في سنة ٣١٤هـ نصيب كندة منها ثلاثة آلاف بيت[1] .

وقد تحدث الشيخ محمود شاكر عن هذه المحلة وتطرق إلىٰ الحديث عن نسب أبي الطيب المتنبي في كتابه (المتنبي) فليرجع إليه من أراد التوسع في الأمر . .

٢ـ ديوان ابن عبيد الله :

ديوان حافل بأصناف وألوان القصائد وأرقها وأعذبها وأجزلها . .

---

(١) المتنبي : محمود شاكر ص١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

طبع الديوان في رمضان ١٣٧٨هـ تحت نظر وتصحيح الشيخ حسنين مخلوف ومراجعة السيد حسن بن عبد الرحمن ابن المؤلف ـ رحمهما الله ـ وجاء مع فهارسه في ٥٥٢ صفحة . وتوجد مجموعة أخرىٰ من شعره لم تأخذ طريقها للنشر بعد. . وتقع في حوالي ٥٠٠ صفحة وهو يعد الجزء الثاني لا يزال مخطوطاً . .

وهو فعلًا كما قال عنه الشيخ حسنين مخلوف : ديوان شعر وعلم وأدب وتاريخ وسِيَر ودين وأخلاق .

٣ـ « معارضة البردة » : طبعت بعدن سنة ١٣٦٧هـ .

٤ـ « الرحلة الدوعنية » : وهي عبارة عن رحلة منظومة. . وقد قام ابن عبيد الله بهذه الرحلة سنة ١٣٦٠هـ. . وهي تعد من روائع أدب الرحلات .

٥ـ « النجم المضي في نقد عبقرية الشريف الرضي » ، ويسمىٰ « مفتاح الثقافة » : اطلع عليه الزركلي فوصفه قائلًا : « انتقد به بعض ما جاء في « عبقرية الرضي » للدكتور زكي مبارك في جزء لطيف » . وهو مخطوط ويقع في مجلد متوسط .

٦ـ « النقد العلمي الذوقي في الجواب عن أبيات شوقي » :

وهو جزء لطيف يقع مخطوطاً في ٣٢ صفحة ومطبوعاً في ٢٢ صفحة .

خامساًـ محاضراته وخطبه :

كان ابن عبيد الله السقاف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ خطيباً بارعاً مفوهاً مصقعاً. . ومع ما ترىٰ له من المؤلفات إلا أنه يُذْكَر أنه في الخطابة أعظم منه في الكتابة. . فسبحان المعطي الوهاب. . وله مجموعة لابأس بها من الخطب الجُمَعية أو في مناسبات أخرىٰ قيل إنها جمعت في مجلد . ولنذكر في هذه العجالة بعض محاضراته :

١ـ محاضرة « تحقيق الفرق بين العامل بعلمه وغيره وما يتصل بذلك من حد الولاية وحكم الإلهام » . طبعَهُ بمصر سنة ١٣٥٥هـ في ٣٢ صفحة بتقريظ العلامة أحمد المطاع الصنعاني .

٢ـ كلمة عن العدالة والمساواة :

ألقاها في درسه بسيؤن في ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٧٢هـ . . بعد أن سئل عن حكم الإسلام في ذلك ، وكانت علىٰ البديهة ارتجالاً بدون تحضير سابق!!

٣ـ كلمة حول « تحديد الملكية » :

وهي رد علىٰ مقال للشيخ محمد عرفة نشر بمجلة الأزهر . . وتاريخها ١٦ ربيع الثاني ١٣٧٢هـ .

سادساً ـ الردود :

نذكر منها :

١ـ « النجم الدري في الرد علىٰ السيد سالم الجفري » .

٢ـ « نسيم حاجر في تأكيد قولي عن مذهب المهاجر » .

٣ـ « السيف الحاد لقطع الإلحاد » : طبع بعدن في شعبان ١٣٦٩هـ في ١٣٨ صفحة . وهو رد علىٰ كتاب « توحيد الأديان » للأستاذ حسين الصافي من أهالي جيزان ، وقد رجع الصافي عن كتابه بعد ذلك[1] .

تلاميذه :

سنذكر منهم ما تسمح بهم هذه العجالة فمنهم :

١ـ ابنه السيد الأديب الشاعر الأستاذ حسن بن عبد الرحمن . . المولود سنة: (١٣٣٥هـ) والمتوفىٰ سنة: (١٤٠٦هـ) . كان والده شديد العناية به وكتب معظم مصنفاته ومنها هـٰذا الكتاب « العود الهندي » من أجله كما في مقدمته . وللسيد حسن ديوان شعر حكمي طبع مؤخراً .

٢ـ ابنه الآخر السيد عبد القادر (قيدان) بن عبد الرحمـٰن . . ولد بسيون وتوفي

---

(١) أخبرني بهـٰذا تلميذ المترجم السيد جعفر بن محمد السقاف .

مهاجراً في سورابايا سنة: (١٣٩٩هـ) وهو أكبر أبنائه ، كان فاضلاً أديباً ، درس في مدرسة النهضة بسيون وكان له نشاط أدبي في مهجره. . رحمهما الله .

٣ـ السيد علوي بن عبد الله بن حسين بن محسن بن علوي السقاف [١٣١٥هـ ـ١٣٩١هـ] عالم نحرير فقيه محقق. . أجمع عليه أهل عصره واعتبروه زعيماً مخلصاً كما أجمعوا علىٰ أنه الثاني في الفقه بعد شيخه العلامة ابن عبيد الله . .

٤ـ السيد محمد بن شيخ المساوىٰ المتوفىٰ سنة ١٤٠٥هـ بسيؤن .

كان من تلامذة ابن عبيد الله النجباء النوابغ ، نشأ مجداً في الطلب حتىٰ بزَّ الأقران ، وشغل وظيفة كبرىٰ بمدرسة النهضة العلمية بسيؤن وكان يقوم ببعض الدروس العلمية بمسجد طه .

٥ـ السيد سالم بن علوي بن عبد الرحمن خرد المتوفىٰ بجدة سنة ١٣٩٨هـ . وهو العالم الشاعر الحافظ لكتاب الله الخطيب المصقع الكثير السعي لخير الناس الصريح في آرائه الجريء في إبداء معلوماته مع رحابة صدر ولطف معشر وقد أفرده بالترجمة ابنه السيد عبد القادر خرد في كتاب سماه (هذا أبي) .

٦ـ السيد العلامة محمد بن سالم بن حفيظ

المولود في ١٣٣١هـ والذي اختطفه الشيوعيون الملاحدة في ذي الحجة ١٣٩١هـ .

كان عالماً نزيهاً صادعاً بالحق. . كان يتردد علىٰ ابن عبيد الله واستفاد منه. .

٧ـ السيد عبد القادر بن سالم « الروش » السقاف المتوفىٰ بسيؤن في ١٤١٥هـ .

دَرَس في مدرسة النهضة العلمية بسيؤن وتخرج منها ثم درّس فيها ، وكان مواظباً علىٰ حضور مجالس شيوخه عظيم الرغبة في الطلب والتحصيل والبحث والمطالعة رحل في شبابه إلىٰ مكة المكرمة وأقام بها مدة لازم فيها شيخه السيد العالم الرباني عيدروس بن سالم البار وأخاه أبا بكر بن سالم .

٨ـ ومنهم خاتمة العقد ومسك الختام الإمام الجليل والحبر النبيل السيد الخليفة السند إمام العصر الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف. . وكان من المترددين علىٰ

مجالس ابن عبيد الله وأفاد من علمه وأدبه شيئاً جماً. . وكان يقول دائماً : إن النساء عجزن أن يلدن مثل ابن عبيد الله .

وهناك كثيرون وكثيرون جداً. . ونذكر منهم :

٨ـ العلامة القاضي مبارك باحريش التريمي .

٩ـ السيد جعفر بن محمد السقاف .

ـ السيد الداعية الإمام أحمد مشهور الحداد [١٣٢٥هـ ـ ١٤١٦هـ] .

ـ السيد علي بن عبد الله بن حسين « القاضي » السقاف .

ـ السيد محسن بن علوي السقاف .

ـ السيد الشاعر صالح بن علي الحامد .

وليعذرنا من لم تتسع هذه النبذة المختصرة لذكرهم. . وإن شاء الله تعالىٰ في ترجمة ابن عبيد الله الموسعة سنذكر الكثير والكثير الطيب عن ذلك وعن غيره .

وفاته :

لم يزل علىٰ حالة مرضية ، وطريقة سوية ، شعلةً بل شمساً تضيء وتنير في ظلمات الجهل. . فلقد كان رحمه الله جبلًا من جبال العِلْم. . حتىٰ توفي صباح الأربعاء ٢٦ جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٧٥هـ فأصيب الناس بالذهول الشديد والحيرة والارتباك لوفاة هذا العَلَم. .

وما كان قيس هَلْكُه هَلْكُ واحدٍ ... ولكنه بنيان قومٍ تهدّما[١]

وقد أقيمت بعد وفاته مجالس العزاء في حضرموت وأندونيسيا وكينيا وغيرها من بلدان العالم الإسلامي وقد رُثِيَ بقصائد شعرية نكتفي منها بأبيات من مرثاة تلميذه الشاعر صالح بن علي الحامد [مِنَ ٱلكاملِ] :

بكت الطروس عليك والأقلام ... والشرق ناح عليك والإسلام
نعت المكارمُ حظَّها وتنكست ... من أجل رزئك للعلا أعلام

(١) البيت من الطويلِ .

وغـدا نهـارك للفجيعـة قـاتمـاً فكـأنمـا أغشـىٰ عليـه ظـلامُ
والشمـس عبرىٰ فـي السمـاء كـأنمـا غطـىٰ محيـاهـا الحـزيـن لثـامُ
ويكـىٰ عليـك العلـم والعليـاء والـ ـشِّيَـمُ العلـىٰ والنقـض والإبـرام
ورثـاك رواد المعـارف والهـدىٰ فـاليـوم بعـدك كلهـم أيتـام
قـدر المصيبـة عنـد قـدر مصـابهـا ولـذاك أرزاءُ العظـامِ عظـام
كم مـوقـف لـك في الخطـابة خـالـد حمـدت بـراعتـه لـك الأقـوام
لهفي علىٰ الروح الخفيفة كم ورت فينـا المسـرة والـزمـان غـلام
تغـذو المجـالـسَ بهجـةً وفكـاهـة فكـأن بهجتهـا عليـك لـزام
لا يعجـب الأقـران كيـف سبقتهـم فـي كـل مـا قعـدوا إليـه وراموا
أسرعتَ في كسب الجميل وأبطؤوا وسهـرتَ فـي طلـب الكمـال ونـامـوا
فجمعـتَ أوصـاف الكمـال وإنمـا يغشـىٰ الخسـوفُ البـدْرَ وهـو تمـام
فعلـىٰ الخطـابـة والبـلاغـة بعـده وعلـىٰ النبـوغ تحيـة وسـلام
فـاذهـب فـإنـك خـالـد بـالـذكـر مـا مضـت القـرون وكـرت الأعـوام

وإلىٰ هنا يقف القلم في ترجمة هذا العلم. . والمقصود أن نذكر تعريفاً ميسراً ، والمعروف كما قيل لا يعرَّف. . وحسب الإنسان أن ينظر في كتاب الأعلام للزركلي هذا الكتاب المشهور في التراجم. . فإننا نجد أن ترجمة أي علم فيه لا تتجاوز سطوراً وعندما أراد أن يذكره الزركلي في كتابه وكان الزركلي رحمه الله قد اجتمع بابن عبيد الله وعرفه واتصل به. . فإنه قد ذكره في عمودين[1] . . وما ذاك إلا لأهمية الرجل. . والخواطر تتدافع. . ونسأل الله أن يتقبل منا. . وأن يغفر لنا ما شط به القلم. . والله أعلم.

* * *

---

(١) « الأعلام » : ٣/ ٣١٥ـ٣١٦ ، وتقع الترجمة في (٤٣) سطراً ، في عمود ونصف ، وهي طويلة جداً بالنسبة لغيرها من تراجم كبار الأعلام .

وصف النسخة الخطية

اعتمدنا في تحقيقِ هٰذا الكتابِ علىٰ نسخةٍ خَطِّيَّةٍ نفيسةٍ ، بخطِّ المؤَلِّفِ رحمه الله تعالىٰ .

وهي مسوَّدةُ الكتابِ الأَصليَّة ، كانَ رحمَهُ ٱللهُ قد بيَّضَ الكتاب وأَرسله إلىٰ (مصرَ) ليُطبع هناك . . فلم يُطبَع ولم تُرجع له المبيَّضةُ ، فاضطرَّ رحمه الله تعالىٰ لإِعادةِ النَّظر في المسَوَّدة ـ التي بين أيدينا ـ وإِضافة ما قد فاته ، وتصحيحِ ما أَخطأَ فيه .

وقد ظهر ذلكَ جليّاً بحيثُ كُتِبَتِ ٱلإِضافاتُ بلونٍ مُغايرٍ ، ونجدُه في بعضِ الأَماكنِ قد حكَّ وشطب .

تقع هٰذه النُّسخةُ في (٥١٦) صفحة ، وسطورها بين (٢٨) و(٣٠) سطراً ، وكلماتُ السَّطرِ بين (١٠) و(١٣) كلمة .

خطها نَسْخي مستعجل ، وضعت أَبيات المتنبِّي الَّتي تخصُّ موضوعاً معيناً يُبنىٰ عليه البحثُ بلونٍ أَحمر .

وقد فَرَغَ من كتابتها في (١٧) جمادى الأُولىٰ (١٣٥٢ هـ) .

وهٰذه النُّسخة من مقتنيات زوج ٱبنة المؤلِّف السَّيِّدِ محسن بن علويٍّ السَّقَّافِ حفظه الله تعالىٰ .

* * *

منهج تحقيق الكتاب

ـ نسخُ المخطوطِ .

ـ مقابلةُ المنسوخِ على المخطوطِ .

ـ ترقيمُ الكتابِ ، وترصيعُ أحرُفِهِ بالحركاتِ الإعرابيّةِ ، وضبطُ القافيةِ المشدَّدةِ بشدَّةٍ وسكونٍ (ـّْ) ؛ لتدُلَّ على أنَّ الحرفَ مشدَّدٌ ، مثل : (نبيّْ) .

ـ عدمُ فكِّ إدغامَ الحرفِ المشدَّدِ إذا كانَ مِنَ البحرِ المدوَّرِ ؛ الَّذي يكونُ مشترَكاً بينَ آخِرِ الصَّدرِ وأوَّلِ العَجُزِ ، وجعلُ الحرفَ المشدَّد تارةً بآخِرِ الصَّدرِ وتارةً بأوَّلِ العجُزِ .

ـ تقسيمُ الكتابِ إلى فقراتٍ لتسهُلَ مطالعتُهُ .

ـ عنونةُ الكتابَ بعنواناتٍ مناسبةٍ ، وجعلُها على هامشِ الكتابِ .

ـ تخريجُ الآياتِ القرآنيّةَ .

ـ تخريجُ أكثرِ الأحاديثِ النَّبويَّةِ القوليّةِ والفعليّةِ .

ـ ردُّ معظمِ الآثارِ والأخبارِ والقصصِ إلى مظانِّها مِنْ كتبِ الأدبِ والعربيّةِ والتَّاريخِ .

ـ تخريجُ الأشعارِ وإحالتُها إلى دواوينِ قائليها إنْ كانَ الدِّيوانُ متوفِّراً لدينا ، وإنْ لَمْ يكُنْ متوفِّراً . أحلنا إلى أُمَّاتِ كتبِ الأدبِ والعربيّةِ .

ـ جعلنا التَّخريجَ ضمنَ متنِ الكتابِ بينَ معكوفتينِ [] ؛ وذلكَ تخفيفاً للكتابِ مِنَ ثِقَلِ الحواشي .

ـ بحّرنا ٱلأبياتَ ٱلشِّعريَّةَ عقِبَ تخريجها ضمنَ ٱلمعكوفتين .

ـ خرَّجنا أَبياتَ ٱلمتنبِّي مِنْ شرحِ ٱلعُكبَرِيِّ بذكرِ رقمِ ٱلجزءِ وٱلصَّفحةِ .

ـ جعلنا ٱلأَبياتَ ٱلَّتي جعلَها ٱلمصنِّفُ مطلَعاً لبحثٍ معيَّنٍ في رأسِ صفحةٍ بخطٍّ مغايرٍ .

ـ ميَّزنا كلمَتَي (قالَ النَّاظِمُ) و(قولُهُ) حيثُ أَرادَ بها ٱلمتنبِّي بحرفٍ مغايرٍ ، تمييزاً لأَشعارِ ٱلمتنبِّي عَنْ أَشعارِ غيرِهِ .

ـ شرحنا ٱلكلماتِ ٱلغامضةَ وٱلمبهمةَ شرحَ مفرداتٍ ، وفي بعضِ الأَحيانِ ذكرنا ٱلمعنىٰ ٱلعامَّ للبيتِ إِذا كانَ مبهماً .

ـ أَخذنا مِنْ كتبِ ٱلأَدبِ فنقلنا عنها بعضَ ٱلقصصِ وٱلأَخبارِ ٱلَّتي أَشار إِليها ٱلمؤَلِّفُ ولَمْ يذكُرْها ، أَو ذَكَرَها بٱختصارٍ فكمَّلْناها .

ـ قمنا بإِتمامِ بعضِ ٱلقصائدِ ٱلعذبةِ .

ـ أَضفنا في بعضِ ٱلمواضعِ ما ٱرتأَينا أَنَّ ٱلنَّصَّ لا يقومُ إِلَّا بهِ ، وجعلناهُ بينَ معكوفتينِ [] .

* * *

خاتمة

ومعَ ٱلانتهاءِ مِنَ ٱلعملِ ٱلدَّؤوبِ في هٰذا ٱلكتابِ. . لا بُدَّ للإنسانِ مِنْ أَنْ يقفَ وقفتينِ بسيطتينِ :

أمّا ٱلأولىٰ :

فمَعَ ٱللهِ عزَّ وجلَّ : فأقولُ :

يا ربِّ. . عقلي عاجزٌ عنِ ٱلتَّفكيرِ. . ولساني عاجزٌ عنِ ٱلتَّعبيرِ. . وقلمي عاجزٌ عنِ ٱلتَّسطيرِ .

فيا إلٰهي وسيِّدي ومولاي. . لكَ ٱلحمدُ علىٰ ما أنعمتَ بِهِ عليَّ .

أَينَ كانت قُدرتي عندما كنتُ في ٱلحشا ، تطعمني أَنتَ وتسقيني؟!

أَم أَينَ كنتُ عندما تفضَّلتَ عليَّ وهديتني إلىٰ ٱلطَّريقِ ٱلَّذي أَسلكُهُ للوصولِ إليكَ؟!

أَم أَينَ كنتُ عندما تفضَّلتَ وتكرَّمتَ عليَّ وجعلتني مُسلماً؟!

أَم أَينَ كنتُ عندما نوَّرتَ قلبي وهديتني عقلاً أُميِّزُ بهِ بينَ ٱلخيرِ وٱلشَّرِّ؟!

ما ٱلفضل ٱلَّذي لي علىٰ غيري حتَّىٰ وهبتني كلَّ هٰذهِ ٱلنِّعمِ؟!

لا فضلَ لي ، لا حول لي!!

ولٰكنَّهُ كرمُكَ وجودُكَ ومَنُّكَ ، فيا ربِّ تمِّم وأَدِمْ كرمَكَ وجودَكَ وفضلَكَ .

ويا ربِّ. . عرِّفنا نعمكَ بدوامِها ، ولا تعرِّفنا ٱلنِّعمَ بزوالها .

لك ٱلحمد وٱلشُّكرُ علىٰ ذلكَ يا ربَّ ٱلعالمين .

وأمّا ٱلوقفةُ ٱلثانيةُ :

فمَعَ حديثِ سيِّدي رسولِ ٱللهِ ﷺ حيثُ يقولُ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ ٱلنَّاسَ. . لَمْ يشْكُرِ ٱللهَ » .

وعليهِ : أَتقدَّمُ بٱلشُّكرِ لكلِّ مَنْ ساهمَ في إِنجازِ هٰذا ٱلعملِ ٱلضَّخمِ ، سواءٌ كانَ مِنْ قريبٍ أَو مِنْ بعيدٍ .

فأَتقدَّم بٱلشُّكرِ لوالديَّ ٱللَّذينِ يسَّرا لي سبيلَ طلبِ ٱلعلمِ ، وسهِرا عليَّ ٱللَّياليَ حتَّىٰ وصلتُ إِلىٰ ما وصلتُ إِليه .

وأَتقدَّمُ بٱلشُّكرِ لشيوخي ٱلَّذينَ ربَّوني وأَدَّبوني بأَدبِ ٱلإِسلامِ ، جزاهُمُ ٱللهُ عنِّي كلَّ خيرٍ .

وكذلكَ أَتقدَّمُ بٱلشُّكرِ للإِخوةِ ٱلَّذينَ بذَلوا قُصارىٰ جهدهم لإِنجاح هذا ٱلعملِ . . ليخرُجَ ٱلكتابُ بأَبهىٰ حُلَّةٍ ، وأَبهجِ مظهرٍ .

وكذلكَ أَتقدَّمُ بٱلشُّكرِ للجنودِ ٱلمجهولينَ ٱلَّذين تعبوا في هٰذا ٱلعملِ ، ولا أَخصُّ منهُم أَحداً وأَجرُهُم علىٰ ٱللهِ .

وفي ٱلختامِ :

إِنْ يكُنْ مِنْ خيرٍ . . فمِنَ ٱللهِ ، وإِنْ يكُنْ مِنْ سوءٍ . . فمِنْ نفسي .

ورحمَ ٱللهُ مَنْ أَهدىٰ إِليَّ عيوبي ؛ فٱلإِنسانُ ضعيفٌ ، وٱلمرءُ قويٌّ بأَخيهِ .

وصلواتُ ربِّي وسلامُهُ علىٰ مَنْ قالَ : « كُلُّ ٱبْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ ٱلخَطَّائِيْنَ . . ٱلتَّوَّابُوْنَ » .

ورحمَ ٱللهُ مَنْ قالَ [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

فَـلَا بُـدَّ مِـنْ عَيْـبٍ فَـإِنْ تَجِـدَنَّـهُ فَسَامِحْ وَكُنْ بِٱلسَّتْرِ أَعْظَمَ مُفْضِلِ
فَمَنْ ذَا ٱلَّذِيْ مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ ٱلْـ ـمَحَاسِنُ قَدْ تَمَّتْ . . سِوَىٰ خَيْرِ مُرْسَلِ

* * *

كلمة شكر

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان. . والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. .

وبعد :

ومع الانتهاء من خدمة هـٰذا الكتاب. . فهناك مواقف يشعر فيها المرء بأن السكوت كلام وعدم الكتابة كتابة. . فما عسىٰ أن يكتب مثلي بين يدي هذا الكتاب .

وما دفعني للكتابة الآن. . إلَّا تسطير الشكر إلى من شارك في إخراج هـٰذا الكتاب وخصوصاً من تفضلوا بقراءة الكتاب قبل الطبع وأفادوا الكتاب بقراءتهم كثيراً تصحيحاً وتعليقاً أَخُصُّ منهم :

الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل الذي قرأ الكتاب كاملًا جزاه الله خيراً وأخيراً أتحفنا بكلمة قيمة وضعناها أول الكتاب. .

وكذلك الدكتور بكري شيخ أمين الذي تفضل بقراءة بعض أجزاء متفرقة من الكتاب جزاه الله خير الجزاء. .

وأخيراً. . فإننا نرحب بآراء القراء الكرام وانطباعاتهم. . وحتى انتقاداتهم. . فنحن نريد الخير لأمتنا. . من خلال ما يوفقنا الله لنشره وإظهاره. . ورحم الله من أهدىٰ إلينا عيوبنا. . ونسأل الله أن يتقبلنا وأن يتقبل أعمالنا وأن يجعلها شاهدة لنا لا شاهدة علينا .

وإلى صفحات الكتاب. .

الناشر

صورة المخطوطة المستعان بها

(١)

العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي [illegible] السقاف

تأليف وخط العلامة مفتي الديار الحضرمية الحبيب عبد الرحمن بن عبيد الله

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد

حمداً لمستحق الحمد، والصلاة والسلام على نبيه وآله من بعد؛
فهذه مجالس في ديوان المتنبي كتبناها من عفو الخاطر
وليان القلم بلا إعانة روية، ولا إرهاق فكرة،
ولا كد قريحة، ولا إتعاب خاطر، ولا جناية على العقل؛
أردنا بها الإحماض وإجمام الفكر من معاناة الفقه
لم نقصد بها التأليف، ولم نسلك بها سبيل التصنيف،
وإنما نعمد لما بين أيدينا من شرح العكبري فنلم به
ولا يحضرنا ساعة القراءة كتاب سواه، ثم نعوج على
خزانة الحفظ بما علق بها من مسائل النظر في الأدب
فنضيفه إليه بلا تنسيق ولا ترصيف، ولا ترتيب
ولا تصنيف، ومتى مر بنا شيء أو تذكرناه [illegible]
[illegible] منها [illegible] بها مثل [illegible]
وكان العزم قريباً على مواصلة العمل غير أن [illegible]
فانعكس الأمل واستوثق الجمل [illegible] بما ذكرناه [illegible]
للنقص والزيادة، والتحريف في الرواية، ولا بدع إن
كثر الغلط لأنا لم نعتمد المراجعة [illegible] التبييض
في بعض نقطه ولا [illegible] إن فاتت [illegible]
ولا أبرأ ذلك إن لم [illegible] إذ التصنيف [illegible]
المخصوص بالنيقة، لا ما كان على [illegible]

راموز الورقة الأولى من النسخة الخطية

٤١٦

فيما يكون من نظر عندنا [illegible] خاصها
في السبت [illegible] الليلة ١٧ من جمادى الأولى [illegible]
كما هي العادة [illegible] القراءة والكلام عليها [illegible]
ثم اخلو بنفسي ساعة من الساعات منها ما يكون
وحينئذ وقد قرأت وردي واخذت مضجعي ووجهت نظري
في السماء وزينتها بالنجوم الزاهرة وما فيها من الآيات
الباهرة استغرق فكري واستجمع ذكري وانطلقت لساني
ببيت مر ذكره في المجلس للشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله

والفقر لي وصف ذات لازم ابدا   كما الغنى ابدا وصف له ذاتي

واحسست من الوقت بطيب ومن الالهام بخطيب فاستكان
القلب وانشرح الصدر [illegible] واقشعر البدن وانبسطت
الروح [illegible] واتسمت [illegible]
والسماء وجاءت في الاثناء ابيات [illegible]
موضعها من الديوان [illegible] واحلولت
ساعة ثم انصرفت والحمد لله اولا وآخرا [illegible] وعلى آله
وصحبه وسلم [illegible]

راموز الورقة الأخيرة من النسخة الخطية



العُودُ الهِنْدِيّ

عَنْ أمَاليَّ في ديوان الكِنْدِيّ

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف
علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف
رحمه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلف]

أمَّا بعدُ :

حمداً للهِ مستحِقِّ الحمدِ ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ نبيِّهِ وآلِهِ مِنْ بعدِ .

فهٰذهِ مجالسُ في « ديوانِ المتنبِّي » ، كتبناها مِنْ عفوِ الخاطِرِ ، ولسانِ القلمِ ، بلا إعناتِ رويَّةٍ ، ولا إرهاقِ فِكْرٍ ، ولا كَدِّ قريحةٍ ، ولا إتعابِ خاطِرٍ ، ولا جنايةٍ علىٰ العينِ ، أردنا بها الإحماضَ[1] وإجمامَ الفِكْرِ[2] مِنْ معاناةِ الفقهِ ، لَمْ نقصِد بها التأليفَ ، ولَمْ نسلُكْ بها سبيلَ التصنيفِ ، وإنَّما نعمِدُ لِمَا بينَ أَيدينا مِنْ « شَرح العُكْبَريِّ »[3] ، فنُلِمُّ بهِ ، ولا يحضرُنا ساعةَ القراءةِ كتابٌ سواهُ ، ثمَّ

---

(١) الإحماضُ : الإفاضةُ فيما يُؤنِسُ منَ الكلامِ والأخبار لما فيها من مُلَحٍ وحكايات .

(٢) إجمام الفكر : إراحتهُ وصلاحهُ ونشاطهُ .

(٣) العُكْبَريُّ : هو أبو البقاء عبد الله بن الحسين ، العُكْبَريُّ الأصلِ ، البغداديُّ المولد والدار النحوي الضرير . و(عُكْبَرا) التي ينسب إليها بُليدة على (دجلة) . . ولد سنة(٥٣٨ هـ) ، وتوفي سنة (٦١٦ هـ) بـ(بغداد) .

قرأ علوم الدين والعربية على كبار مشيخة عصره بـ(بغداد) . . حتى حاز السبق في العربية والفقه الحنبلي والحساب والفرائض وصار فيها من الرؤساء المتقدمين ، كان ثقة صدوقاً ، غزير الفضل ، كثير المحفوظ ، حسن الخلق ، متواضعاً ، رقيق القلب ، ومؤلفاته زادت على الأربعين منها : «إملاء ما من به الرحمن في إعراب وجوه القراءات في القرآن» و«إعراب الحديث» و«شرح =

نَعُوجُ لِمَا بقِيَ بِخزانةِ الحِفظِ ، ممَّا عَلِقَ بها مِنْ سالفِ النظرِ في الأَدبِ، فنضيفُهُ إِليهِ بلا تنسيقٍ ولا ترصيفٍ، ولا ترتيبٍ ولا تصفيفٍ، ومتىٰ مرَّ بنا شيءٌ أَو تذكَّرناهُ ـ وهوَ يُناسِبُ موضعاً منها ـ أَلحقناهُ بهامشِ المسوَّدَةِ[1].

مِنْ أَمثلةِ ذلكَ : ما ذكرناهُ في أَثناءِ المجلسِ السادسِ ، ممَّا ٱتَّفقَ لنا بـ(مِنىً) ، سنةَ (١٣٥٤هـ) ، وكانَ العزمُ قويّاً علىٰ مواصلةِ العملِ ، غيرَ أَنَّ القارىءَ ملَّ ، فـٱنعكسَ الأَملُ ، وٱستنوقَ الجَمَلُ[2] ، وممَّا ذكرناهُ يتمهَّدُ العذرُ للنقصِ والزيادةِ ، والتحريفِ في الروايةِ[3] ، ولا بدعَ إِنْ كثُرَ الغلطُ ؛ لأَنَّا لَمْ نعتمدِ ٱلمراجعةَ لَهُ قطُّ ، إِلاَّ معَ التبييضِ في بعضِ نقطٍ ، ولا محاسبةَ إِنْ قلَّتِ ٱلمناسبةُ ، ولا إِيرادَ إِنْ لَمْ يعذُبِ ٱلاستطرادُ ؛ إِذِ ٱلتصنيفُ هوَ

= ديوان المتنبي» المسمىٰ : «التبيان في شرح الديوان»، وهي المعتمدة من المؤلِّف ومن فريق التحقيق في ضبط شعر المتنبي . . وبالله التوفيق .

(١) المُسوَّدةُ: الصحيفةُ تكتبُ أَوَّلَ كتابةٍ، ثُمَّ تُنَقَّحُ وتُحرَّرُ وتُبيَّض، وسُمِّيت : مسوَّدةً؛ لأَنَّ الكاتبَ يُسوِّدُها بالشطبِ هنا مرَّةً وهناكَ مرَّةً أُخرىٰ إِلى أن يستقرَّ بهِ الأَمرُ فينقلُها علىٰ صحيفةٍ أُخرىٰ تسمَّىٰ : (المُبيَّضَةَ).

(٢) ٱستنوقَ الجملُ : أَي صارَ كالناقةِ ، مثلٌ يُضربُ للرجلِ يكونُ في حديثٍ أَو صفةِ شيءٍ ثمَّ يَخلِطُهُ بغيرِه وينتقلُ إِليه .
وأَصلُهُ : أَنَّ طرفةَ بنَ العبدِ كانَ عندَ بعضِ الملوكِ ، والمُسَيَّبُ بنُ عَلَسٍ ينشدُهُ شعراً في وصفِ جَمَلٍ ، ثمَّ حوَّلَهُ إِلى وصفِ ناقةٍ ، فقالَ طرفةُ : (قد ٱستنوقَ الجملُ) .

(٣) وبتوفيق الله تعالىٰ فقد عدنا إِلىٰ غالب المصادر، وضبطنا النُّصوص ما أَمكنَ، وإِذا ٱقتضىٰ الحال أَوردنا من المصدر ما يُحقِّق به قصد القصَّةِ، أَو الأَبيات، أَو المناسبة . . وسيرىٰ القارىء الكريم ذلك في ثنايا الكتاب . اهـ الناشر .

المخصوصُ بالنِّيْقَةِ[1] ، لا ما كانَ علىٰ هٰذِهِ الطريقةِ ، وإِنَّها معَ الارتجالِ ، وعدمِ الاتِّساعِ في المجالِ . . لَوِعاءُ طُرَفٍ وأَدبٍ ، ونُكَتٍ ونُخَبٍ ، وجِدٍّ وهَزَلٍ ، ووقشٍ وجَزلٍ[2] ، وما ذاك بقليلٍ مِنْ مثلي علىٰ كثرةِ إِضاعتِهِ ، وقلَّةِ بضاعتِهِ[3] .

وقد بيَّضتُها لولدي حَسَنٍ ـ باركَ اللهُ فيهِ ، وفي إِخوانِهِ وأَبيهِ ـ رجاءَ أَنْ تكونَ لَهُ فاتحةَ تهذيبٍ ، ولائحةَ تأديبٍ ، وسميراً وجليساً ، وخليطاً وأَنيساً ، ولئنِ ٱتَّخذَها نجيّاً . . فلن يكونَ بها شقيّاً ؛ إِذْ هيَ أَيسرُ مؤونةً ، وأَكثرُ معونةً ، وأَخفُّ روحاً ، وأَكثرُ فتوحاً ، وأَجملُ قشرةً ، وأَحسنُ عِشرةً مِنْ أُولـٰئكَ الخُلطاءِ ، الذينَ ما منهم إِلاَّ مَنْ غُذِيَ مِنَ ٱللُّؤْمِ بِلَبَانٍ ، وحضرَ شرُّهُ في كلِّ إِبَّانٍ[4] ، واللهُ الموفِّقُ والمستعانُ[5] .

* * *

---

(١) النِّيْقَةُ ، يقالُ : تَنَوَّق فلانٌ في مَطعمِهِ وملبسِهِ وأُمورِهِ : إِذا تجوَّدَ وبالغَ ، والنِّيْقُ : أَرفعُ موضعٍ في الجبل .

(٢) الوَقْشُ : صغارُ الحطبِ الذي تُشَيَّعُ بهِ النارُ ، والجزلُ : ما عَظُمَ مِنَ الحطبِ ويَبِسَ . والمرادُ : أَنَّها حوت من أَنواعِ الكلامِ سَهْلِهِ وصَعْبِهِ .

(٣) هذا من تواضعه رحمه الله تعالى ، وإلا فإنه قلَّ في المتأخرين مثله جمعاً وحفظاً .

(٤) إِبَّانٌ : إِبَّانُ الشيءِ ـ بالكسرِ والتشديدِ ـ : وَقْتُهُ .

(٥) وردَ في ذيل صفحة المخطوطِ : (تنبيهٌ : كنتُ بيضتُ هٰذِهِ « الأمالي » ، حَسَبَما ذكرتُ في الخُطبةِ ، ثمَّ بعثتُ بها إِلىٰ (مصرَ) ؛ لتطبعَ بمعرفةِ الفاضلَينِ الشيخينِ : أَحمدَ باغفَّارٍ ، وعليٍّ باكثيرٍ ، فلم يتيسَّرِ ٱلطبعُ ، ولم يرجعِ ٱلكتابُ ، فٱحتجتُ إِلىٰ ٱستئنافِ العنايةِ ، معَ إِعادةِ النظرِ في المراجعِ ؛ إِذْ كانتْ حاضرةً بخلافِها عندَ الأوَّلِ ، فجاءَ وفيهِ نقصٌ وفضلٌ ، وصحَّةُ روايةٍ ونضلٌ ـ أي : ضعف ـ فليُعلَمْ ذلِكَ ، وباللهِ التوفيقُ) .

المجلس الأوّل

[قالَ أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَريِّ » ٢/ ٢٧٩ مِنَ الخَفيفِ] :

بِأَبِيْ مَنْ وَدِدْتُهُ فَٱفْتَرَقْنَا ... وَقَضَىٰ ٱللهُ بَعْدَ ذَاكَ ٱجْتِمَاعَا

فَٱفْتَرَقْنَا حَوْلاً وَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا ... كَانَ تَسْلِيْمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

حلاوة اللقاء كمر النسيم

يقولُ : أَفدي بوالدِي الحبيبَ الذي ودِدْتُهُ فَٱفترقنا ، وقضىٰ اللهُ الاجتماعَ بعدَ ذلكَ الافتراقِ ، غيرَ أنَّها لَمْ تطُلْ مدَّةُ الاجتماعِ الثاني ، بل كانت متَّصلةً بالوداعِ .

دفع العتاب عن المتنبي

ولا معابةَ عليهِ في الاقتصارِ علىٰ أبيهِ لتفديةِ محبوبهِ ؛ لأنَّ ٱلعذرَ ممهَّدٌ بضيقِ الوزنِ ، وإلاَّ فقد جمعَ رسولُ اللهِ ﷺ لسعدٍ ما بينَ أبويهِ الشريفينِ في يومِ أُحُدٍ ، فقالَ لهُ : « ٱرْمِ فِدَاكَ أَبِيْ وَأُمِّيْ »[1] .

جواز التفدية

ومنهُ أخَذَ النواويُّ في « أذكارِهِ » [ص/ ٥٨٧] أنْ لا بأسَ أنْ يقولَ الإنسانُ لآخَرَ : جُعِلتُ فِداكَ ، أو فِداكَ أبي وأُمِّي ، ولولا كثرةُ الأدلَّةِ فيهِ.. لكانَ قياساً معَ الفارقِ ، غيرَ أنَّ الأصلَ عدمُ الخصوصيَّةِ ، كما في « الفتح » [١٠/ ٥٦٩] ، وقدِ ٱستوعبَ ما فيهِ مِنَ

---

(١) أخرجَهُ البخاريُّ (٢٩٠٥) ، ومسلمٌ (٢٤١١) .

ٱلأدلَّةِ ٱبنُ أَبي عاصمٍ[1] في أَوَّلِ كتابِهِ : « آدابُ الحكماءِ »[2] وجزمَ بجوازِ ذلكَ .

رد دليل منع التفدية

ولا حجَّةَ علىٰ المنعِ ، فيما رواهُ مباركُ بنُ فَضَالةَ[3] : أَنَّ ٱلزبيرَ دخلَ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وهوَ شاكٍ ، فقالَ : كيفَ تجدُكَ جَعلَني اللهُ فِداكَ؟ فقالَ : « مَا تَرَكْتَ أَعْرَابِيَّتَكَ بَعْدُ »[4] ؛ لأَنَّهُ لا يقاومُ الأَحاديثَ الصحيحةَ[5] ، ولأَنَّهُ ليسَ فيهِ تصريحٌ بٱلمنعِ . وغايةُ ما فيهِ الإِشارةُ إِلىٰ تركِ الأَولىٰ فيما يليقُ بمخاطبةِ المريضِ .

وقدْ ترجمَ البخاريُّ باباً للتفديةِ[6] .

وقـوع العتـاب علـى المتنبي

وإِنَّما المعتبَةُ علىٰ الناظمِ مِنْ حيثُ اللفظُ :

كراهة التكرار

أَوَّلاً : في تكريرِهِ (ٱفترقنا) في البيتينِ بصيغةٍ واحدةٍ مِنْ غيرِ كبيرِ فائدةٍ ، فإِنَّهُ لا يَسلَمُ مِنَ ٱلاستثقالِ والكراهةِ .

متـى يكـون العطـف قبيحاً

وثانياً : في عطفِهِ لفظةَ (ٱفترقنا) مِنَ ٱلبيتِ الثاني علىٰ ما قبلَها ، معَ أَنَّها مسوقةٌ للتفسيرِ ، والواجبُ الفصلُ حينئذٍ ، كما

---

(١) هو أحمد بن عمرو بن الضحاك الحافظ الكبير المتوفى سنة : (٢٨٧ هـ) .

(٢) أحد مصنفاته التي تزيد على الثلاث مئة .

(٣) أي : عن الحسن كما في «الفتح».

(٤) « فتح الباري » (١٠/٥٦٩) .

(٥) كقولِ سيِّدِنا أَبي طلحة عندما عثَرتْ بالنبيِّ ﷺ ناقتُهُ : (يا نبيَّ اللهِ ، جعلني اللهُ فداكَ ، هَلْ أَصابَكَ مِنْ شيءٍ) عند البخاريِّ (٦١٨٥) ، وكقولِ سيِّدِنا أَبي بكر للنبيِّ ﷺ : (بِأَبي أَنتَ وأُمِّي طِبْتَ حيّاً وميْتاً) عند البخاريِّ (٣٦٦٧) وغيرِه ممّا يصعبُ حصرُهُ .

(٦) انظر «صحيح البخاريِّ» ، كتابَ الأَدبِ ، ١ـ بابُ قولِ الرجلِ : فِداكَ أَبي وأُمِّي (١٠٣) . ٢ـ بابُ قولِ الرجلِ : جعلني اللهُ فِداكَ (١٠٤) .

في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه : ١٢٠] .

أَو قولِهِ ـ تقدَّستْ أَسماؤُهُ ـ : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس : ٢٠ـ٢١] .

وإِنَّما وَجَبَ الفصلُ ؛ لأَنَّ العطفَ يقتضي التغايُرَ الكُلِّيَّ بينَ المُتعاطفَينِ ، وليسَ بٱلموجودِ .

روعة التكرار في مكانه

وقد وقعَ في نظيرِهِ مِنَ ٱلتَّكرارِ ٱمرؤُ ٱلقيسِ ، لكنْ معَ السلامةِ مِنْ مذمَّةِ الوصلِ في غيرِ محلِّهِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانه » ٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَقَطَّعُ أَسْبَابُ ٱللُّبَانَةِ وَٱلْهَوَىٰ ... عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حَمَاةَ وَشَيْزَرَا[1]
عَشِيَّـةَ جَـاوَزْنَـا حَمَـاةَ وَشَيْـزَرَا ... أَخُوْ ٱلْجَهْدِ لاَ يَلْوِيْ عَلَىٰ مَنْ تَعَذَّرَا

كثرة التفدية عند المتنبي

وقدْ أَكثرَ الناظمُ في « ديوانِهِ » مِنَ التفديةِ ؛ فمنها قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٠ مِنَ البسيطِ] :

[لَبَّيْ نَدَاكَ لَقَدْ نَادَىٰ فَأَسْمَعَنِيْ] ... يَفْدِيْكَ مِنْ رَجُلٍ صَحْبِيْ وَأَفْدِيْكَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٥ مِنَ الوافِرِ] :

فِدىً لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَا ... فَـلاَ مَلِـكٌ إِذَنْ إِلاَّ فَـدَاكَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٠٨ مِنَ الطويلِ] :

فَدَتْكَ مُلُوْكٌ لَمْ تُسَمَّ مَوَاضِياً ... فَإِنَّكَ مَاضِيْ ٱلشَّفْرَتَيْنِ صَقِيْلُ[2]

---

(١) اللُّبَانَةُ : الحاجة من غير فاقة ، ولكن من نهمة . حماة وشيزر : بلدان معروفان في بلاد الشام .

(٢) المعنىٰ : فدتكَ ملوكٌ ، ترومُ مشابهتَكَ ، ولم تسمَّ سُيوفاً مَواضِيَ ، فتماثلَكَ =

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣١٨ مِنَ الخفيفِ] :

فَاسْقِنِيهَا فِدىً لِعَيْنَيْكَ نَفْسِيْ   مِنْ غَزَالٍ وَطَارِفِيْ وَتَلِيْدِيْ(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٣٨ مِنَ البسيطِ] :

رُوَيْدَ حُكْمَكِ فِيْنَا غَيْرَ مُنْصِفَةٍ   بِالنَّاسِ كُلِّهِمِ أَفْدِيْكِ مِنْ حَكَمِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٥٥ مِنَ الطويلِ] :

مُفَدّىً بِآبَاءِ الرِّجَالِ سَمَيْدَعاً   هُوَ الكَرَمُ المَدُّ الَّذِيْ مَا لَهُ جَزْرُ(٢)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٨٦ مِنَ الطويلِ] :

يُفَدُّوْنَهُ حَتَّىٰ كَأَنَّ دِمَاءَهُمْ   لِجَارِيْ هَوَاهُ فِيْ عُرُوْقِهِمُ تَقْفُوْ(٣)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٦ مِنَ الطويلِ] :

وَأَيُّ قَبِيْلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ   مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانٍ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٥٥ مِنَ الطويلِ] :

فِدىً مَنْ عَلَىٰ الغَبْرَاءِ أَوَّلُهُمْ أَنَا   لِهَـٰذَا الأَبِيِّ المَاجِدِ الجَائِدِ القَرْمِ(٤)

= في اسمكَ ، وتعادلَكَ في قدرتِكَ ؛ فإنَّكَ السيفُ اسماً وحقيقةً وتلقُّباً ، وحدُّكَ ماضي الشفرتينِ ، صقيلُ الصفحتينِ .

(١) الطريفُ : ما استُحدثَ عندكَ مِنْ مالٍ . والتليدُ : ما كان عن إرث من الآباء . وبينهما طباق .

(٢) السَّمَيْدَعُ : السيدُ الكريمُ ، والجمعُ : سَمَادعُ . المدُّ : زيادةُ الماءِ . الجزرُ: نقصانُهُ .

(٣) والمعنى: أنّهم من محبَّتهم لهُ يُفدُّونَهُ، فكأنَّ هواهُ جرىٰ أوّلاً في عروقِهم قبلَ الدم، ثمَّ تبِعَهُ الدَّمُ .

(٤) الجائدُ : الفاعلُ ، مِنْ جادَ يجودُ . القرمُ : السَّيِّدُ .

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/ ٩١ مِنَ الطويلِ]:

فَعِشْ لَوْ فَدَىٰ ٱلْمَمْلُوْكُ رَبًّا بِنَفْسِهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ لَمْ تُفْقَدْ وَفِيْ ٱلأَرْضِ مُسْلِمُ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/ ١٣٧ مِنَ الطويلِ]:

فِدىً لأَبِيْ ٱلْمِسْكِ ٱلْكِرَامُ فَإِنَّهَا سَوَابِقُ خَيْلٍ يَهْتَدِيْنَ بِأَدْهَمِ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٥٦ مِنَ الطويلِ]:

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتنَا كَرْبًا [فَإِنَّكَ كُنْتَ ٱلشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَٱلْغَرْبَا]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٤٧ مِنَ الطويلِ]:

فَدَيْنَاكَ أَهْدَىٰ ٱلنَّاسِ سَهْماً إِلَىٰ قَلْبِيْ وَأَقْتَلَهُـمْ لِلـدَّارِعِيْـنَ بِـلاَ حَـرْبِ[1]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٧٠ مِنَ الطويلِ]:

أَلاَ مَا لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْيَوْمَ غَاضِبَا فَدَاهُ ٱلْوَرَىٰ أَمْضَىٰ ٱلسُّيُوْفِ مَضَارِبَا

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٩١ مِنَ البسيطِ]:

وَلَيْتَ عَيْنَ ٱلَّتِيْ آبَ ٱلنَّهَارُ بِهَا فِدَاءُ عَيْنِ ٱلَّتِيْ آبَتْ وَلَمْ تَغِبِ[2]

---

(١) المعنى: فديتك يا أقصد العالمين سهماً إلى قلبي، يا من عينه تصيب بلحظها ولا تخطىء، ويا أقتل الناس لأهل الدروع من غير حرب.

(٢) هكذا في «المخطوطِ»، ويكونُ المعنى على هذهِ الروايةِ: ليتَ عينَ الشَّمسِ فداءُ عينِ هذهِ المرأةِ الَّتي رَجعت ولم تَغِبْ.

ولكن في «الديوانِ»:

وَلَيْـتَ عَيْـنَ ٱلَّتِـيْ آبَ ٱلنَّهَـارُ بِهَـا فِدَاءُ عَيْنِ ٱلَّتِيْ زَالَتْ وَلَمْ تَؤُبِ

فيكونُ المعنى على هذهِ الروايةِ: ليتَ عينَ الشَّمسِ فداءُ عينِ هذهِ المرأةِ التي فارقت ولم تَعُدْ.

ولعلَّهُ هوَ الصوابُ؛ لأنَّ القصيدةَ قالها المتنبيُّ في رثاءِ أُختِ سيفِ الدولةِ عندما توفِّيت. واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٢٢ مِنَ الكاملِ] :

بِأَبِيْ ٱلشُّمُوْسُ ٱلْجَانِحَاتُ غَوَارِبَا   ٱللاَّبِسَاتُ مِنَ ٱلْحَرِيْرِ جَلاَبِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٦٩ مِنَ الطويلِ] :

أَفَدِيْ ظِبَاءَ فَلاَةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا   مَضْغَ ٱلْكَلاَمِ وَلاَ صَبْغَ ٱلْحَوَاجِبِ(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٨٨ مِنَ البسيطِ] :

يَفْدِيْ بَنِيْكَ ـ عُبَيْدَ ٱللهِ ـ حَاسِدُهُمْ   بِجَبْهَةِ ٱلْعَيْرِ يُفْدَىٰ حَافِرُ ٱلْفَرَسِ(٢)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٠٢ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ جَادَتِ ٱلدُّنْيَا فَدَتْكَ بِأَهْلِهَا   [أَوْ جَاهَدَتْ كُتِبَتْ عَلَيْكَ حَبِيْسَا](٣)

وغيرُ ذلكَ .

التفدية عند البحتري

ويعجبُني قولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٤ مِن مجزوءِ الكاملِ] :

نَفْسِيْ فِدَاؤُكَ إِنَّ حَظِّيَ كَوْنُ نَفْسِيَ فِيْ فِدَائِكْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٥٦ مِنَ الطويلِ] :

بِأَنْفُسِنَا ، لاَ بِٱلطَّوَارِفِ وَٱلتُّلْدِ   نَقِيْكَ ٱلَّذِيْ تُخْفِيْ مِنَ ٱلشَّكْوِ أَوْ تُبْدِيْ

بِنَا ـ مَعْشَرَ ٱلْعَافِيْنَ ـ مَا بِكَ مِنْ أَذىً   فَإِنْ أَشْفَقُوْا مِمَّا أَقُوْلُ فَبِيْ وَحْدِيْ

---

(١) يريدُ : تفضيلَ العربيّاتِ ، وأَنَّهُنَّ فصيحاتٌ لا يمضغنَ الكلامَ ، ولا يصبِغْنَ حواجبهنَّ كعادةِ نساءِ الحَضَرِ .

(٢) العَيْرُ : الحمار .

(٣) المعنىٰ: لو كانتِ الدُّنيا ذاتَ جودٍ وكرمٍ . . لفدتكَ بأَهلِها، وأَبقتكَ خالداً. ولو كانَت غازيةً مجاهدةً . . لكانت وَقفاً عليكَ.

فداء كثير لعبد العزيز بن مروان

ودخلَ كُثيِّرُ عزَّةَ يعودُ عبدَ العزيزِ بنَ مروانَ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٣١١ مِنَ الكاملِ] :

وَنَعُودُ سَيِّدَنَا وَسَيِّدَ غَيْرِنَا   لَيْتَ ٱلتَّشَكِّي كَانَ بِٱلْعُوَّادِ
لَوْ كَانَ يُقْبَلُ فِدْيَةٌ لَفَدَيْتُهُ   بِٱلْمُصْطَفَىٰ مِنْ طَارِفِي وَتِلَادِي(١)

فداء قس بن ساعدة لأخويه

وقبلَ ذلكَ يقولُ قُسُّ بنُ ساعدةَ في رثاءِ أخويهِ ـ اللَّذينِ بُنيَ لهُ مسجدٌ بجوارِ قبريهِما يترهَّبُ فيهِ ـ مِنْ جملةِ أبياتٍ [كما في « الأغاني » ٢٣٨/١٥ مِنَ الطويلِ] :

فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وِقَايَةً   لَجُدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُوْنَ فِدَاكُمَا(٢)

فداء متمم لأخيه

وقالَ متمِّمٌ [مِنَ الطويلِ] :

فَلَوْ أَخَذَتْ مِنِّي ٱلْمَنِيَّةُ أَنْفُسِي   فَدَيْتُكَ مِنْهَا بِٱلسَّوَامِ وَبِٱلأَهْلِ(٣)

---

(١) المصطفىٰ : المختار والمصفَّىٰ .

(٢) قالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ، لقد رأيتُ مِن قسٍّ عجباً ، قالَ : « وَمَا رَأَيْتَ ؟ » قالَ : بينا أنا بجبلٍ يقالُ لهُ : سِمعانُ في يومٍ شديدِ الحرِّ . . إذا أنا بقسِّ بنِ ساعدةَ تحتَ ظلِّ شجرةٍ عندَ عينِ ماءٍ ، وعندهُ سباعٌ ، كلَّما زأرَ سبعٌ مِنها علىٰ صاحبهِ . . ضربَهُ بيدهِ ، وقالَ : كُفَّ حتَّىٰ يشربَ الذي وردَ قبلكَ ، قالَ : ففزعتُ ، فقالَ : لا تخف .

وإذا أنا بقبرينِ بينَهما مسجدٌ ، فقلتُ لهُ : ما هـٰذانِ القبرانِ ؟ قالَ : هـٰذانِ قَبرا أخوَينِ كانا لي فماتا ، فاتَّخذتُ بينَهما مسجداً أَعبدُ اللهَ جلَّ وعزَّ فيهِ حتَّىٰ أَلحقَ بِهما ، ثمَّ ذكرَ أيَّامَهما ، فبكىٰ عليهما ، ثم أنشأَ يقولُ :

خَلِيْلَيَّ هُبَّا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا   أَجِدَّكُمَا لاَ تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسِمْعَانَ مُفْرَدٌ   وَمَا لِيَ فِيْهِ مِنْ حَبِيْبٍ سِوَاكُمَا

القصيدةَ . فقالَ النبيُّ ﷺ : «يَرْحَمُ ٱللهُ قُسّاً، إِنِّيْ لأَرْجُوْ أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ» . أخرجه ضمن حديث طويل ابن شاهين عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ في ترجمة قسّ من «الإصابة» (٢٨٦/٥) .

(٣) السَّوَامُ والسَّائِمُ بمعنىً : وهوَ المالُ الراعي اهـ .

التفدية عند الصوفية

وكم في التفديةِ الواقعيةِ مِنْ حكاياتٍ جاءَتْ عنِ السادةِ الصوفيَّةِ بسلاسلِ الذهبِ مِنَ ٱلأسانيدِ ، لا أُطيلُ بذكرِها ، معَ إيماني بها وللهِ الحمدُ .

فداء آدم لداوود

ويزيدُني طُمأنينةً ما أخرجَهُ الحاكمُ [في « المستدركِ » ٢/٣٢٥] علىٰ شرطِ مُسلمٍ ، وصحَّحهُ ، وأقرَّهُ الذهبيُّ : (أنَّهُ لَمَّا عُرِضتْ علىٰ آدمَ ذرِّيَّتُهُ . . أعجبَهُ وبيصٌ[١] ما بينَ عَينَي داوودَ ، فسأَلَ عن عُمُرِهِ ، فقيلَ : ستُّونَ سنةً ، فقالَ : يا ربِّ ، زدهُ مِنْ عُمُري أربعينَ ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذاً يُكتَبُ ويُختَمُ ، فلا يُبدَّلُ ، فلمَّا ٱنقضىٰ عُمُرُ آدمَ . . جاءَهُ مَلَكُ الموتِ يقبِضُ روحَهُ ، فقالَ : أوَلَمْ يبقَ مِنْ عُمُري أربعونَ ؟ فقالَ لهُ : أوَلَمْ تجعَلْها لابنِكَ داوودَ ؟! قالَ : فَجَحَدَ . . فجحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، ونسيَ . . فنسيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وخَطِىءَ . . فخطِئَتْ ذرِّيَّتُهُ) .

فداء زيد بن الدثنة للنبي ﷺ

وممَّا يتَّصلُ بهِ : أنَّ قريشاً لَمَّا قَدِمَتْ بزيدِ بنِ الدَّثِنَّةِ للقتلِ . . قالَ لهُ أبو سفيانَ : أنشُدُكَ اللهَ يا زيدُ ، أتحبُّ أنَّ مُحمَّداً عندَنا الآنَ تُضرَبُ عنقُهُ مكانَكَ ، وأنتَ في أهلِكَ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ما أُحبُّ أنَّ مُحمَّداً في مكانِهِ تصيبُهُ شوكةٌ تؤذيهِ ، وإنِّي جالسٌ في أهلي ، ثمَّ قتلوهُ[٢] .

---

(١) وَبيصٌ : بريقٌ .

(٢) قصَّةُ سيِّدنا زيدِ بنِ الدَّثِنَّةِ معَ قريشٍ يومَ الرجيعِ أخرجها البخاريُّ في « صحيحه » (٣٠٤٥) ، أمَّا سؤالُ أبي سفيانَ لزيدٍ وجوابُهُ لهُ . . فأخرجهُ ٱبن إسحاقَ في « المغازي » ، كما في « سيرة ٱبن هشامٍ » (٣/ ١٧١) .

نماذج من فداء الصحابة له

وقد وقاهُ ﷺ سبعةٌ مِنَ ٱلأنصارِ يومَ أُحُدٍ ، حتَّىٰ رُزِقُوا الشهادَةَ أَجمعينَ[1] .

ووقاهُ أَيضاً عليهِ [الصَّلاةُ] والسَّلامُ طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ يومئذٍ ، حتَّىٰ شَلَّتْ يدُهُ[2] .

وما زالتِ ٱلصحابةُ ـ رضوانُ ٱللهِ عليهم ـ تقولُ لهُ عليهِ السلامُ : نحورُنا دونَ نحرِكَ ، وصدورُنا دونَ صدرِكَ[3] .

وفداهُ عليُّ ٱبنُ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ بنفسِهِ ليلةَ الهجرةِ ، وباتَ معَ ذلكَ رخيَّ البالِ ، متلفِّعاً ببُردِهِ علىٰ فراشِهِ ، حتَّىٰ يُروىٰ أَنَّ اللهَ جَلَّ شأنُهُ باهىٰ بهِ الملائكةَ .

وقدْ أَخذَ مِنْ هٰذا الفضلِ بالنصيبِ الأَوفىٰ الصِّدِّيقُ ، لياليَ الهجرةِ والغارِ .

وكانَ أَبو طالبٍ يفديهِ ببنيهِ ، كلَّما نامَ بادلهُ بأَحدِ أَبنائِهِ في مرقدِهِ ، طيلةَ ليالي الشِّعبِ .

الأيام الحلوة تمر مسرعة عند المتنبي

ثُمَّ إِنَّ معنىٰ الشطرِ الأَخيرِ مِنَ البيتينِ متكرِّرٌ في « ديوانِ الناظمِ » ، فمنهُ قولُهُ [في « العُكْبَريِّ » ٢/٢٣٨ مِنَ الطويلِ] :

فَمَا جَلَسَتْ حَتَّىٰ ٱنْثَنَتْ تُوسِعُ ٱلْخُطَا ... كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعِ[4]

---

(١) ذكرَ ٱبنُ سعدٍ في « الطبقات » (٢/ ٤٢) بإسنادِهِ أَنَّ العصابةَ التي ثبتَتْ مع النبيِّ أَربعةَ عشرَ رجلاً ؛ سبعةٌ مِنَ المهاجرينَ فيهم أَبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ ، وسبعةٌ منَ الأَنصارِ .

(٢) أخرجَ الخبرَ البخاريُّ (٣٨١١) .

(٣) ذكرَ ذلكَ البخاريُّ (٣٨١٢) .

(٤) أي : هي في سرعةِ توديعها كَمَن فطمت ولدَها قبلَ أَنْ تُرضعَهُ .

ولا يبعدُ عنهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٦٩ مِنَ الطويلِ] :

تَفَضَّلَتِ ٱلأيَّامُ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَنَا ... فَلَمَّا حَمِدْنَا لَمْ تُدِمْنَا عَلَىٰ ٱلْحَمْدِ

وهوَ مشتَرَكٌ بينَ الشعراءِ .

وكذلك عند الشعراء كل شيء يهون من أجل الحبيب

قالَ العَكَوَّكُ [في « ديوانهِ » ٧٦ مِنَ الرَّمَلِ] :

كَـابَـدَ ٱلأَهْـوَالَ فِـيْ زَوْرَتِـهِ ... ثُـمَّ مَـا سَلَّـمَ حَتَّـىٰ وَدَّعَـا[١]

وقالَ كُشَاجِمٌ [في « ديوانهِ » ٢٦٧ مِنَ الكاملِ] :

لَـمْ أَسْتَتِـمَّ عِنَـاقَـهُ لِقُـدُوْمِـهِ ... حَتَّـىٰ ٱبْتَـدَأْتُ عِنَـاقَـهُ لِـوَدَاعِـهِ

وقالَ ٱبنُ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٣١ مِنَ الخفيفِ] :

سَأَلُوْنَا عَنْ حَالِنَا كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ ... فَقَـرَنَّـا وَدَاعَنَـا بِـٱلسُّـؤَالِ

مَا حَلَلْنَا حَتَّىٰ ٱفْتَرَقْنَا فَمَا نَفْـ ... ـرِقُ بَيْـنَ ٱلنُّـزُوْلِ وَٱلارْتِحَـالِ

وقالَ أَبو الشِّيْصِ [في « ديوانهِ » ٥٣ مِنَ السَّريعِ] :

يَـا حَبَّـذَا ٱلـزَّوْرُ ٱلَّـذِيْ زَارَا ... كَـأَنَّـهُ مُقْتَبِـسٌ نَـارَا

نَفْسِـيْ فِـدَاءٌ لَـكَ مِـنْ زَائِـرٍ ... مَـا حَـلَّ حَتَّـىٰ قِيْـلَ قَـدْ سَـارَا

ولا يخرجُ عنهُ قولُ أَبي عبادةَ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٢٩ مِنَ الطويلِ] :

كَفَىٰ حَزَناً أَنَّا عَلَىٰ ٱلْوَصْلِ نَلْتَقِيْ ... فُوَاقاً فَتَثْنِيْنَا ٱلْعُيُوْنُ إِلَىٰ ٱلصَّدِّ[٢]

فَلَوْ تُمْكِنُ ٱلشَّكْوَىٰ لَخَبَّرَكَ ٱلْبُكَا ... حَقِيْقَةَ مَا عِنْدِيْ وَإِنْ جَلَّ مَا عِنْدِيْ

---

(١) المكابدةُ: المعاناةُ والمقاساةُ.

(٢) الفواقُ : الفترةُ بين وقتي الحلاب ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [صَ : ١٥] .

وكلُّهُ مِنْ صُنعِ الخليلِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ، فإنَّهُ يطوي ٱلبيدَ ـ كما في « الصحيح » [البخاري (٣٣٦٤)] ـ مِنْ (فلسطينَ) إلىٰ (الحجازِ) ؛ ليُطالعَ تَرِكَتَهُ[1] ، ثُمَّ لا يلبثُ أَنْ يعودَ مِنْ فورِهِ .

سيدنا إبراهيم الخليل الإمام في ذلك

وفي « طبقاتِ ٱبنِ السبكيِّ » [٤/٣٢١] : أَنَّ نظامَ المُلْكِ ٱستقبلَ ولدَهُ ، وفِلْذَةَ كبدِهِ غَداةَ يوم مرجعِهِ مِنْ سفرِ دراستِهِ ، وودَّعَهُ مِنَ ٱلعشيِّ إلىٰ موضعِ عملِهِ ، ثُمَّ بَكىٰ ، ورأىٰ أَنَّ البستانيَّ أَسعدُ حالاً منهُ ، يأكلُ مِنْ عملِ يدِهِ ، ويتمتَّعُ بأَهلِهِ وولدِهِ .

أيهما الأسعد نظام الملك أم البستاني؟!

وممَّا ينخرِطُ مِنَ النوادرِ في هٰذا السلكِ : أَنَّ بعضَ الأُمراءِ قلَّدَ ٱبنَ حجَّاجٍ عملاً ، خرجَ إليهِ يومَ الخميسِ ، فتبعَهُ كتابُ العزلِ في يومِ الأَحدِ ، فقالَ [في « يتيمةِ الدهرِ » ٣/ ٩٤ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

ابن حجاج وسرعة عزله عن عمله

يَـا مَـنْ إِذَا نَظَـرَ ٱلْهِلاَ	لُ إِلَـىٰ مَحَـاسِنِـهِ سَجَـدْ
وَإِذَا رَأَتْـهُ ٱلشَّمْـسُ كَـا	دَتْ أَنْ تَمُـوْتَ مِـنَ ٱلْحَسَـدْ
يَـوْمَ ٱلْخَمِيْـسِ بَعَثْتَنِـي	وَصَـرَفْتَنِـي يَـوْمَ ٱلأَحَـدْ
مَـا قَـامَ عَمْـرٌو فِـيْ ٱلْـوِلاَ	يَـةِ قَـائِمـاً حَتَّـىٰ قَعَـدْ

وقبلَ ذلكَ ، الرشيدُ عقدَ لجعفرِ بنِ يحيىٰ علىٰ (خُراسانَ) ، فهنَّأَتْهُ الشعراءُ ، ومنهم أَشْجَعُ بقولِهِ [في « ديوانِهِ » ٨٠ و ٢٢٩ مِنَ المتقاربِ] :

تولية الرشيد لجعفر بن يحيى وعزله

تُـرِيْـدُ ٱلْمُلُـوْكُ مَـدَىٰ جَعْفَـرٍ	وَلاَ يَصْنَعُـوْنَ كَمَـا يَصْنَـعُ
وَلَيْـس بِـأَوْسَعِهِـمْ فِـيْ ٱلْغِنَـىٰ	وَلَٰكِـنَّ مَعْـرُوْفَـهُ أَوْسَـعُ

(١) تَرِكَتُهُ : ابنهُ إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر . كما جاء في القرآن : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

فَقُـلْ لِخُـرَاسَـانَ تَحْيَـا فَقَـدْ   أَتَاهَا ٱبْنُ يَحْيَىٰ ٱلْفَتَىٰ ٱلأَرْوَعُ

ثُمَّ بدا للرشيدِ ، فعزلَهُ عنها ، فوَجَمَ جعفرٌ ، فقالَ أَشجعُ [في « ديوانهِ » ١٩٦ مِنَ السَّريعِ] :

أَضْحَتْ خُرَاسَانُ تُعَزَّىٰ بِمَا   أَخْطَأَهَا مِنْ جَعْفَرِ ٱلْمُرْتَجَىٰ

كَـانَ ٱلـرَّشِيْـدُ ٱلْمُعْتَلِي أَمْـرُهُ   وَلَّـىٰ عَلَـىٰ مَشْـرِقِهَـا ٱلأَبْلَجَـا

ثُـمَّ أَرَاهُ رَأْيُـهُ أَنَّـهُ   أَمْسَىٰ إِلَيْـهِ مِنْهُـمُ أَحْـوَجَـا[1]

تَوليته ﷺ لسعد وعزله يوم الفتح

ولا ننسىٰ معَ هـٰذا ما كانَ مِنْ سرعةِ عزلِهِ ﷺ لسعدِ بنِ عبادةَ عن الرايةِ يومَ الفتحِ ، وجعلِ اللواءِ إِلىٰ ٱبنهِ قيسِ بنِ سعدِ بنِ عبادةَ[2] .

ما القول الفصل في هذه المسألة

وبعدُ : فما يذكرُهُ الشعراءُ مِنْ تقليلِ وقتِ الوصالِ ، وتقارُبِ حينِ النزولِ مِنْ حينِ الارتحالِ :

ـ إِمَّا أَنْ يكونَ حقيقةً ، كما ذكرنا عنِ ٱلخليلِ عليهِ السلامُ .

ـ وإِمَّا أَنْ يكونَ علىٰ سبيلِ المجازِ ؛ لأَنَّ مدَّةَ الوصلِ قصيرةٌ عندَ المُحِبِّ ، علىٰ حدِّ قولِ الناظمِ [في « العُكْبَريِّ » ٢/٥٩ مِنَ الطويلِ] :

نَسِيْتُ وَمَا أَنْسَىٰ عِتَاباً عَلَىٰ ٱلصَّدِّ   وَلاَ خَفَراً زَادَتْ بِهِ حُمْرَةُ ٱلْخَدِّ[3]

وَلاَ لَيْلَـةً قَصَّـرْتُهَـا بِقَصُـوْرَةٍ   أَطَالَتْ يَدِيْ فِي جِيْدِهَا صُحْبَةَ ٱلْعِقْدِ

والبيتُ الثاني هوَ الذي أُريدَ ، وهوَ مِنْ قولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٢٩٢ مِنَ الطويلِ] :

---

(١) القصة في « الأغاني » (١٨/ ٢٣٤) .

(٢) الخبر عند ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٣٥) ، وكذا عند ابن سيد الناس في « عيون الأثر » (٢/ ١٧١) .

(٣) الخَفَرُ : الحياءُ .

وَيَوْمٍ كَظِلِّ ٱلرُّمْحِ قَصَّرْتُ ظِلَّهُ بِلَيْلَىٰ فَلَهَّانِي وَمَا كُنْتُ لَاهِيَا

معاني القصيرة والمقصورة

والقصيرةُ والقصورةُ تحتملُ عدَّةَ معانٍ ؛ لأَنَّهُ :

١ـ قصر الخطو

ـ إمَّا أَنْ يكونَ المرادُ منها : قِصَرَ الخطوِ ، ومنهُ قولُ القُحَيفِ العُقيليِّ [مِنَ الطويلِ] :

سَقَىٰ وَرَعَىٰ ٱللهُ ٱلأَوَانِسَ كَالدُّمَىٰ إِذَا قُمْنَ جُنْحَ ٱللَّيْلِ مُعْتَجِرَاتِ
إِذَا مِسْنَ قُدَّامَ ٱلْبُيُوتِ عَشِيَّةً قِصَارَ ٱلْخُطَىٰ يَرْفُلْنَ فِيْ ٱلْحِبَرَاتِ[1]
دَعَوْنَ بِحَبَّاتِ ٱلْقُلُوبِ فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِنَّ بِٱلأَهْوَاءِ مُبْتَدِرَاتِ

وقولُ أَبي العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦١٢ مِنَ المتقاربِ] :

بَدَتْ بَيْنَ حُوْرٍ قِصَارِ ٱلْخُطَىٰ تُجَاهِدُ بِٱلْمَشْيِ أَكْفَالَهَا

ويدخلُ فيهِ كلُّ ما يأتي في ثِقَلِ الروادفِ ، وعِظَمِ المآكمِ ، عندَما تنتهي إِليهِ النوبةُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

قصر الخطو مذموم في الرجال

وعلىٰ ٱستحسانِهِ في النساءِ ، فهوَ مذمومٌ في الرجالِ ، إِذا جاوزَ الحدَّ الذي رسمَهُ لقمانُ في قولِهِ لِولدِهِ : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ [لقمان : ١٩] ، ولا سيَّما إِذا ٱنتهىٰ إِلىٰ ٱلتماوتِ الممقوتِ فاعلُهُ .

٢ـ قصر النظر

ـ وإِمَّا أَنْ يكونَ المرادُ منها : قَصْرَ النظرِ ، علىٰ حدِّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ [صٓ : ٥٢] .

ومنهُ قولُ قيسِ بنِ ذَرِيحٍ [في « ديوانهِ » ٨٨ مِنَ الطويلِ] :

أَذُوْدُ سَوَامَ ٱلطَّرْفِ عَنْكِ وَمَا لَهُ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلاَّ عَلَيْكِ طَرِيْقُ[2]

---

(١) مِسْنَ : تبخترْنَ ، وكذلك : يَرْفُلْنَ . الحِبَرات ـ جمعُ حِبرةٍ ـ : وهوَ ثوبٌ من قطنٍ أَو كِتَّانٍ أَو حريرٍ مخططٌ ، يُصنَعُ بـ(اليمنِ) ، ترتديه النِّساءُ .

(٢) أذودُ : أمنعُ وأدفعُ . أسامَ إِليه ببصرِهِ : رماهُ به .

٣ـ لزام الخدور

ـ وإمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : لِزامَ الخُدورِ ، ومنهُ قولُهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمٰن : ٧٢] .

وقالَ كُثيِّرٌ [في « ديوانه » ٣٦٩ مِنَ الطويلِ] :

وَأَنْتِ ٱلَّتِي حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيْرَةٍ   إِلَيَّ وَلَمْ تَشْعُرْ بِذَاكَ ٱلْقَصَائِرُ
عَنَيْتُ قَصِيْرَاتِ ٱلْحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ   قِصَارَ ٱلْخُطَىٰ ، شَرُّ ٱلنِّسَاءِ ٱلْبَحَاتِرُ(١)

وهٰذا لا يُخالِفُ ما سبقَ عنِ ٱلقُحَيفِ ؛ لِفَرْقِ ما بينَ البابينِ ؛ إِذِ ٱلمرادُ قِصَرُها ثَمَّ مِنَ ٱلروادِفِ ، وهنا المذمومُ قِصَرُها مِنَ ٱلقماءَةِ(٢) .

وقالَ أَبو قيسِ بنُ الأَسْلتِ [كما في «الأغاني» ١٧/ ١٣٣ مِنَ الطويلِ] :

وَيُكْرِمُنَهَا جَارَاتُهَا فَيَزُرْنَهَا   وَتَعْتَلُّ عَنْ إِتْيَانِهِنَّ فَتُعْذَرُ
وَلَيْسَ بِهَا أَنْ تَسْتَهِيْنَ بِجَارَةٍ   وَلَٰكِنَّهَا مِنْ ذَاكَ تَحْيَا وَتَخْفَرُ
وَإِنْ هِيَ لَمْ تَبْرُزْ لَهُنَّ أَتَيْنَهَا   نَوَاعِمَ بِيْضاً مَشْيُهُنَّ التَّأَطُّرُ(٣)

أنشدونا بيتاً خفِراً

وعنِ ٱلهيثمِ بنِ عديٍّ ، قالَ : كُنَّا جلوساً عندَ صالحِ بنِ حسَّانَ ،

---

(١) القصائرُ ـ جمعُ قصيرةٍ ـ: وهيَ المرأةُ المحبوسةُ المحجوبةُ المصونةُ في البيتِ لا تُتركُ أَن تَخرُجَ . قصيراتُ الحجالِ : الحَجَلةُ ، مثلُ القبَّةِ تُزيَّنُ بالثياب والأسرةِ والستورِ . البحاترُ ـ جمعُ بُحتُرةٍ ـ : وهي المرأةُ القصيرةُ المجتمعةُ الخَلْقِ . والمراد : أنها حبَّبت إليهِ كلَّ ٱمرأةٍ مقصورةٍ في خِدرها لا القصيرةَ في خَلْقِها .

(٢) القماءَةُ ، يقال : قَمَأَتِ الماشيةُ : سَمِنَت . قال الشاعر[من الطَّويل]:

تبينَ لي أنَّ القماءةَ ذِلَّةٌ   وأنَّ أعِزّاءَ الرجالِ طِيالُها

(٣) تخفَر ـ من الخَفَرِ بالتحريك وسلف ـ : شدَّةُ الحياءِ . التأَطُّرُ : التثنّي في المشي .

فقالَ : أَنشِدونا بيتاً خَفِراً في آمرأةٍ خَفِرَةٍ ، فقلنا قولَ الأعشىٰ [في « ديوانه » ٣٠٠ مِنَ البسيط] :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ ٱلسَّحَابَةِ لاَ رَيْثٌ وَلاَ عَجَلُ

فقالَ : هـٰذِهِ خرَّاجَةٌ ولأَّجَةٌ ، لـٰكنَّ المقبولَ قولُ ابن الأَسْلتِ ، وأنشدَ الأبياتَ[1] .

العتبي والنساء الأعرابيات

وقالَ العتبيُّ : خرجتُ إلىٰ (ٱلمِرْبَدِ)[2] ، فإذا بأعرابيٍّ غَزِلٍ ، فمِلْتُ إليهِ ، وذكرتُ النساءَ ، فتنفَّسَ ، ثُمَّ قالَ : يا آبنَ أَخي ، إنَّ مِنْ كلامهِنَّ لَمَا يقومُ مَقامَ العذبِ علىٰ الظمأ ، فقلتُ : كيفَ نساؤُكم ؟ فقالَ [مِنَ الكامل] :

رُجُحٌ وَلَسْنَ مِنَ ٱللَّوَاتِيْ بِٱلضُّحَىٰ لِـذُيُـوْلِهِـنَّ عَلَـىٰ ٱلطَّـرِيـقِ غُبَـارُ
يَأْنَسْنَ عِنْدَ بُعُوْلِهِنَّ إذَا خَلَوْا وَإِذَا هُمُوْا خَرَجُوْا فَهُنَّ خِفَارُ

نفي المحكوم عليه بانتفاء صفته

وقولُهُ : (لَسْنَ . . . لِذُيُوْلِهِنَّ عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقِ غُبَارُ) كنايةٌ عن ملازمةِ البيوتِ ؛ لأَنَّهُم كثيراً ما يَقصِدونَ نفيَ المحكومِ عليهِ بٱنتفاءِ صفتِهِ ، كما دلَّ عليهِ سياقُ البيتِ .

مثاله من القرآن

وكما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، فإنَّهُ ليسَ المعنىٰ إثباتَ السؤالِ ، ونفيَ الإلحافِ عنهُ ، وإنَّما ٱلغَرَضُ نفيُ السؤالِ مِنْ أَصلِهِ .

---

(١) كما في « الأغاني » (١٧/ ١٣٠) وهي :

وَيكـرمُهـا جـاراتهـا فيـزرْنَهـا وتعتـلُّ عـن إتيـانهـنَّ فتُعـذَرُ
وليـس لهـا أن تستهيـن بجـارةٍ ولكنهـا منهـنَّ تَحيـا وتخفَـرُ

(٢) المِربد : قالَ الأصمعيُّ : كلُّ شيءٍ جلست بهِ الإبلُ والغنمُ ؛ ولهذا قيلَ : مِربَدُ النَّعَمِ الذي بـ(المدينةِ) ، وبهِ سُمِّيَ مِربدُ (البصرة) ، وهوَ المقصودُ هنا .

مثاله من السنة

وكما في قولِهِم عن مجلسِهِ عليه السلام : (لا تُنْثَىٰ فَلَتاتُهُ)[1] ، فلا يُفهَمُ منهُ أَنَّ هناكَ فَلَتاتٍ تُطوىٰ ولا تروىٰ ، ولٰكنَّ المرادَ أَنْ لا فَلَتاتَ أَصلاً .

مثاله من الشعر

ومنهُ قولُ كعبِ بنِ سعدٍ الغنويِّ [في « خزانةِ الأدبِ » ١٠/٤٣٥ مِنَ الطويلِ] :

أَخِيْ مَا أَخِيْ لاَ فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ ... وَلاَ وَرِعٌ عِنْـدَ ٱللِّقَـاءِ هَيُـوْبُ

فقد قصدَ فيهِ إِلىٰ نفيِ الفُحْشِ بتّاً ، لا بقيدِ ما كانَ منهُ عندَ بيتِهِ .

قول ابن الأثير في هذه المسألة

ولقد أَسرفَ علىٰ نفسِهِ أَبو الفتحِ ٱبنُ الأَثيرِ [الجزري] ؛ إِذ قالَ في مثلِ هٰذا ٱلمبحثِ[2] : مكثتُ زمناً أَطوفُ علىٰ أَقوالِ الشعراءِ ؛ لأَظفرَ بما يجري هٰذا ٱلمجرىٰ ، فلَم أَجد إِلاَّ قولَ ٱمرىءِ القيسِ [مِنَ الطويلِ] :

عَلَـىٰ لاَحِـبٍ لاَ يَهْتَـدِيْ بِمَنَـارِهِ ... [إِذَا سَافَهُ ٱلْعَوْدُ ٱلنُّبَاطِيُّ جَرْجَرَا][3]

وَلِي فيهِ بيتٌ مِنَ ٱلشِّعرِ ، وهوَ [في « المثل السائر » ٢/ ٦٢ مِنَ الكاملِ] :

أَدْنَيْنَ جِلْبَابَ ٱلْحَيَاءِ فَلاَ يُرَىٰ ... لِذُيُوْلِهِنَّ عَلَىٰ ٱلطَّرِيْقِ غُبَارُ

رد المؤلف عليه

إِذْ لَم يَزِدْ بهٰذا الانتحالِ علىٰ أَنْ فضَحَ نفسَهُ بما يضيقُ عنهُ ذَرعاً ، بشهادةِ التنافُرِ بينَ القسمينِ في بيتِهِ ، وتناسُبِهِما في بيتِ الأَعرابيِّ .

---

(١) أخرجهُ الطبرانيُّ في « الكبير » (٢٢/ ١٥٤) . وقوله : (لا تُنثىٰ فلتاته) . الفَلَتاتُ ـ جمعُ فَلْتَةٍ ـ : الزلاَّتُ ؛ أي : لم يكُن في مجلسهِ زلاَّتٌ فتُحفظَ وتُحكىٰ .

(٢) في «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» ٢/ ٦٢ .

(٣) لاَحِبٌ : طريقٌ واضح .

أمَّا الشواهدُ الشعريَّةُ عليهِ : فستأتي أوَّلَ المجلسِ الثالثِ ، بمناسبةِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٠٤ مِنَ المنسَرِح] :

يُعْطِـيْ فَـلاَ مَطْلُـهُ يُكَـدِّرُهَـا بِهَـا وَلاَ مَنُّـهُ يُنَكِّـدُهَـا

ثُمَّ ما زالَ الشعراءُ يُشبِّهونَ ليلةَ القُربِ بفِترِ الضبِّ ، وإبهامِ القَطاةِ[1] ، كما يَستعيرونَ لِلَيلِ الصدِّ ظلَّ الرُّمحِ ، وما أشبهَ ذلكَ .

تشبيه ليلة القرب وليل الصد وكثرته عند الشعراء

قالَ جريرٌ [في « ديوانه » ٢/ ٩٦٤ مِنَ الطويلِ] :

وَيَـوْمٍ كَـإِبْهَـامِ ٱلْقَطَـاةِ مُـزَيَّـنٍ لَدَيَّ صِبَاهُ غَالِبٍ لِيَ بَاطِلُهُ

وقالَ الوليدُ بنُ يزيدَ [في « ديوانه » مِنَ البسيطِ] :

لاَ أَسْأَلُ ٱللهَ تَغْيِيْراً لِمَا صَنَعَتْ نَامَتْ وَقَدْ أَسْهَرَتْ عَيْنَيَّ عَيْنَاهَا

فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِيْنَ أَفْقِدُهَا وَٱللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِيْنَ أَلْقَاهَا

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

لَيْلَـةٌ كَـادَ يَلْتَقِـيْ طَـرَفَـاهَـا قِصَـراً وَهِـيَ لَيْلَـةُ ٱلإِجْتِمَـاعِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الوافرِ] :

ظَلَلْنَـا عِنْـدَ دَارِ أَبِـيْ نُعَيْـمٍ بِيَـوْمٍ مِثْـلَ سَـالِفَـةِ ٱلـذُّبَـابِ[2]

وقالَ ٱبنُ الأحنفِ [في « ديوانه » ١٢٠ مِنَ السّريعِ] :

ٱلْيَـوْمُ مِثْـلُ ٱلْحَـوْلِ حَتَّـىٰ أَرَىٰ وَجْهَـكِ وَٱلسَّـاعَـةُ كَـٱلشَّهْـرِ

---

(١) يُضرَبُ المثَلُ في الأشياءِ القصيرةِ التي هي كالخيالِ بفِتْرِ ـ شِبْرِ ـ الضَّبِّ ، وإبهامِ القطاةِ؛ لأنَّها لا فِتْرَ له ، ولا إبهامَ لها أصلاً .

(٢) سالفةُ الذبابِ : عُنقُ السيفِ ، والمعنى : يومهم قصير كقصر عنق السيف .

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عَبدِ اللهِ [في « ديوانه » ٧٩ مِنَ الوافر] :

شُهُورٌ يَنقَضِيْنَ وَمَا شَعَرْنَا ... بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلاَ سِرَارِ[١]

فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ ... وَأَقْصَرُ مَا يَكُوْنُ مِنَ ٱلنَّهَارِ

وقدْ يشبِهُهُ قولُ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانه » ٤/١٤٧٣ مِنَ الطويل] :

سَقَىٰ ٱللهُ أَوْطَاراً لَنَا وَمَآرِباً ... تَقَطَّعَ مِنْ أَقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا

لَيَالِيَ أَنسَتْنِيْ حِسَابَ زَمَانِهَا ... بُلَهْنِيَةٌ أَقْضِيْ بِهَا ٱلْحَوْلَ أَجْمَعَا[٢]

وقالَ الفقيهُ الشافعيُّ أَسعدُ بنُ يحيىٰ السِّنجاريُّ [في « وفيات الأعيان » ١/٢١٦ مِنَ السَّريع] :

للهِ أَيَّامِيْ عَلَىٰ رَامَةٍ ... وَطِيْبُ أَوْقَاتِيْ عَلَىٰ حَاجِرِ

تَكَادُ بِٱلسُّرْعَةِ فِيْ مَرِّهَا ... أَوَّلُهَا يَعْثُرُ بِٱلآخِرِ

تمثل السيدة عائشة بشعر متمم بن نويرة

ولا يخرجُ عنهُ قولُ مُتمِّمِ بنِ نويرةَ [في « المفضَّليَّاتِ » ٣/١١٧٧ مِنَ الطويل] ـ وقد تمثَّلتْ بهِ عائشةُ عندَ قبرِ أَخٍ لها[٣] ـ :

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيْمَةَ حِقْبَةً ... مِنَ ٱلدَّهْرِ حَتَّىٰ قِيْلَ لَنْ نَتَصَدَّعَا[٤]

---

(١) السرار ـ سَرَرُ الشهر ، بالتحريك ـ : آخرُ ليلةٍ منه .

(٢) البُلَهْنِيَةُ : الرَّخاءُ وسَعَةُ العيش .

(٣) تمثلت بهما السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عند قبر أخيها عبد الرحمن ٱبن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم . انظر : « الأغاني » (١٧/ ٣٦١) .

(٤) نَدماني جَذيمة : هما عقيل ومالك ابنا فالج ، وجَذِيمة : هو ابن مالك الأسدي أول ملوك الحيرة ، ولهما معه قصة حاصلها كما في « الأغاني » (١٥/ ٣٠٢) :

أنَّ جَذِيمةَ قالَ يوماً لجلسائه : قد ذُكِرَ لِي غلامٌ لخميٌّ مقيمٌ في أَخوالِهِ مِنْ =

فَلَمَّـا تفـرَّقْنَـا كَـأَنِّـيْ وَمَـالِكـاً   لِطُوْلِ ٱجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

وهُما مِنْ قصيدةٍ لهُ شاعرةٍ محرِّكةٍ ، يقولُ فيها [في «المفضّليّاتِ» ٣/ ١١٨٧ـ١١٨٨ من الطويل] :

وَمَا وَجْـدُ أَظْـآرٍ ثَـلاَثٍ رَوَائِـمٍ   رَأَيْنَ مَجَرّاً مِنْ حُوَارٍ وَمَصْرَعَا[1]

= إيادٍ ، لَهُ ظَرْفٌ ولبٌّ ، فلو بعثتُ إليه يكونُ في نُدمائي ، ووليّتُهُ كأسي والقيام بمجلسي . . كانَ الرأيَ ؟ فأيّدوهُ ، فبعثَ إليه ومكثَ عندَهُ مدّةً طويلةً ، ثمَّ أشرفَتْ عليهِ يوماً رَقاشِ أختُ جَذِيمةَ ، فلم تزلْ تُراسلهُ حتَّىٰ ٱتّصلَ بينَهُما ، ثمَّ قالت لهُ : يا عدي ، إذا سقيتَ القومَ . . فٱمزِج لهُم ، وٱسقِ أخي صِرفاً ، فإذا أخذتْ منهُ الخمرُ فٱخطِبني إليه ، فإنّهُ يزوِّجكَ ، وأَشهدِ القومَ عليهِ إنْ هوَ فعلَ ، ففعلَ الغلامُ ذلكَ وٱنصرفَ إليها بٱلخبر ، فقالت : عرِّسْ بأهلكَ ، ففعلَ ، فلمَّا أصبحَ . . غدا مُضرَّجاً بِالخَلوق ، فقالَ لهُ جَذِيمةُ : ما هـٰذه الآثارُ يا عدي ؟! قالَ : آثارُ العُرسِ ، قالَ : أيُّ عُرسٍ ؟!! قالَ : عرسُ رَقاشِ ، فغضِبَ جَذِيمةُ ، وهَرَبَ عديٌّ ، فطلبه جَذِيمةُ فلم يدركهُ ، وسجنَ أُختَهُ في قصرِهِ ، وٱشتملت على حملٍ فولدت غلاماً وسمَّتهُ عمراً ، وربَّتْهُ حتَّىٰ كَبِرَ ، ثمَّ دخلَ على خالهِ الملكِ بأبهىٰ حُلّةٍ ، فأَحبَّهُ حبّاً شديداً ، وقرَّبَهُ إليه . ثمَّ إنَّ الجنَّ ٱختطفتهُ ، فلَمْ يزل جَذِيمةُ يبحثُ عنهُ فلم يسمَع لهُ بخبرٍ .

ثمَّ أقبلَ رجُلانِ ـ هما عقيل ومالك ابنا فالج ـ يريدانِ الملكَ بهديةٍ ، فنزلا علىٰ ماءٍ فبينا هما يأكلانِ إذ أقبلَ رجلٌ أشعثُ أغبرُ فناولاهُ شيئاً فأكلَهُ ، ثمَّ سألاهُ عَنِ ٱسمهِ ، فقالَ : إنْ تُنكراني أو تُنكرا نسبي فإنَّني عَمروٌ وعديٌّ أبي ، فقاما إليه ، فحسَّنا هيئتَهُ ، وقالا : ما كُنَّا لنهدي إلىٰ الملكِ هديةً أنفسَ عندَهُ مِنِ ٱبنِ أُختهِ ، فبشَّرا ٱلملكَ بهِ ، فسُرَّ سروراً عظيماً ، وقالَ لهُما : ٱحكُما ، فلكُما حُكمُكُما ، قالا : منادمتُكَ ما بقيتَ وبقينا ، فمكثا عندَهُ أربعينَ سنةً علىٰ تلكَ الحالِ ، حتَّىٰ قُتِلَ الملكُ علىٰ يدِ الزَّبَّاءِ في قصَّةٍ لا حاجة لذكرِها .

(١) أظْآر ـ جمعُ ظِئْرٍ ـ : وهي المرضعةُ لغير ولدها من الناس والإبلِ . الروائمُ ـ جمع رائِمٍ ـ : وهي الناقةُ العاطفةُ على ولدِها . المجرُّ : أحشاءُ الحوارِ . والحُوارُ : ولد الناقةِ من حينِ يرضعُ إلى أن يفطمَ ويفصلَ .

إِذَا حَنَّتِ ٱلأُولَىٰ سَجَعْنَ لَهَا مَعَا ... يُذَكِّرْنَ ذَا ٱلْبَثِّ ٱلْحَزِيْنَ بِبَثِّهِ

وَقَامَ بِهِ ٱلنَّاعِيْ ٱلرَّفِيْعُ فَأَسْمَعَا ... بِأَوْجَعَ مِنِّيْ يَوْمَ فَارَقْتُ مَالِكاً

وبعدَها البيتانِ ، ثُمَّ قالَ [في « المفضّليّاتِ » ٣/١١٧٨] :

فَقَدْ بَانَ مَحْمُوْداً أَخِيْ حِيْنَ وَدَّعَا ... وَإِنْ تَكُـنِ ٱلأَيَّـامُ فَـرَّقْـنَ بَيْنَنَـا

فَتَىً غَيْرَ مِبْطَانِ ٱلْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا ... لَقَدْ كَفَّنَ ٱلْمِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ

ويأتي ما يشبِهُها في تحريكِ الأشجانِ ، وإثارةِ البلابلِ ، عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٢٣٦ مِنَ الطويل] :

[غَدَاةَ ٱفْتَرَقْنَا أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ] ... وَلَوْ حُمِّلَتْ صُمُّ ٱلْجِبَالِ ٱلَّذِيْ بِنَا

مِنْ آخرِ المجلسِ الخامسَ عشرَ إِنْ شاءَ ٱللهُ تعالىٰ .

وقالَ ٱبنُ ميَّادةَ [في « ديوانه » ٢٠٦ مِنَ الطويل] :

كن صياد فرص

رَهِيْنٌ بِأَيَّامِ ٱلدُّهُوْرِ ٱلأَطَاوِلِ ... تَمَتَّـعْ بِـذَا ٱلْيَـوْمِ ٱلْقَصِيْـرِ فَـإِنَّـهُ

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ٣/ ١٥١-١٥٢ مِنَ الكامل] :

فَكَـأَنَّهَـا مِـنْ قُصْـرِهَـا أَيَّـامُ ... مَرَّتْ لَنَا أَعْوَامُ وَصْلٍ بِٱلْحِمَىٰ

فَكَـأَنَّهَـا مِـنْ طُـوْلِهَـا أَعْـوَامُ ... ثُـمَّ ٱنْثَنَـتْ أَيَّامُ هَجْرٍ بَعْـدَهَـا

فَكَـأَنَّهَـا وَكَـأَنَّهُـمْ أَحْـلاَمُ ... ثُمَّ ٱنْقَضَتْ تِلْكَ ٱلسُّنُوْنَ وَأَهْلُهَا

وأَصلُ المعنىٰ مِنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانه » ١٥١-١٥٢ مِنَ الطويل] :

عَلَـيَّ بِـأَنْـوَاعِ ٱلْهُمُـوْمِ لِيَبْتَلِـيْ ... وَلَيْلٍ كَمَوْجِ ٱلْبَحْرِ أَرْخَىٰ سُدُوْلَهُ

وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ[1] ... فَقُلْـتُ لَـهُ لَمَّـا تَمَطَّـىٰ بِصُلْبِـهِ

---

(١) ناءَ : حَطَّ . الكلكلُ : الصدرُ من كل شيءٍ .

أَلاَ أَيُّهَا ٱللَّيْلُ ٱلطَّوِيلُ أَلاَ ٱنْجَلِ ... بِصُبْحٍ وَمَا ٱلإِصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ... بِكُلِّ مُغَارِ ٱلْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ(١)

والأخيرُ مِنْ قولِ خالِهِ مُهَلْهِلٍ [مِنَ الوافرِ] :

فَإِنْ يَكُ بِٱلذَّنَائِبِ طَالَ لَيْلِيْ ... فَقَدْ أَبْكِيْ مِنَ ٱللَّيْلِ ٱلْقَصِيرِ(٢)
كَأَنَّ ٱلْجَدْيَ فِيْ مَثْنَاةِ رَبْقٍ ... أَسِيرٌ أَوْ بِمَنْزِلَةِ ٱلأَسِيرِ(٣)

والثاني هوَ ٱلَّذِي أَعني .

وقالَ حُنْدُجٌ ٱلْمُرِّيُّ [في « ديوانه » مِنَ البسيطِ] :

لَيْلٌ تَحَيَّرَ مَا يَنحطُّ فِيْ جِهَةٍ ... كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ ٱلأَرْضِ مَشْكُوْلُ
نُجُوْمُهُ رُكَّدٌ لَيْسَتْ بِزَائِلَةٍ ... كَأَنَّمَا هُنَّ فِيْ ٱلْجَوِّ ٱلْقَنَادِيْلُ(٤)
مَا أَقْدَرَ ٱللهَ أَنْ يُدْنِيْ عَلَىٰ شَحَطٍ ... مَنْ دَارُهُ ٱلْحَزْنُ مِمَّنْ دَارُهُ صُوْلُ(٥)

تنوع المتأخرين في هذا الموضوع

ثُمَّ تعاورتهُ أَيدي المتأخِّرينَ ، فتنوَّعوا فيهِ ، وكانَ الإمامُ ٱلرافعيُّ كثيراً ما يُنشِدُ لغيرِهِ [مِنَ البسيطِ] :

وَٱللهِ مَا سَهَرِيْ إِلاَّ لِبُعْدِهِمِ ... وَلَوْ أَقَامُوْا لَمَا عُذِّبْتُ بِٱلسَّهَرِ
عَهْدِيْ بِهِمْ وَرِدَاءُ ٱلْوَصْلِ يَجْمَعُنَا ... وَٱللَّيْلُ أَطْوَلُهُ كَٱللَّمْحِ بِٱلْبَصَرِ
وَٱلآنَ لَيْلِيَ إِذْ ضَنُّوْا بِزَوْرَتِهِمْ ... لَيْلُ ٱلضَّرِيْرِ فَنَوْمِيْ غَيْرُ مُنْتَظَرِ

---

(١) مُغارُ الفتل : الحبلُ المفتولُ جيِّداً . يذبُل : جبلٌ في بلادِ نجدٍ .
(٢) الذَّنائِبُ : موضعٌ بنجدٍ ، قال ابن بري : هو على يسار طريق مكَّة .
(٣) مَثْناةُ ربقٍ : حبل تربط به صغار الغنم والمعز .
(٤) رُكَّد ـ جمعُ راكدٍ ـ : وهُوَ الثابتُ الذي لا يتحرَّكُ .
(٥) الحَزْنُ : طريق بين المدينة وخيبر . صُولُ : مدينة في بلاد الخزر ، في نواحي باب الأبواب .

وقالَ بعضُ أَهلِ الأَندلسِ[1] :

وَمُرْتَجَّةِ ٱلأَعْطَافِ أَمَّا قَوَامُهَا   فَلَدْنٌ وَأَمَّا رِدْفُهَا فَرَدَاحُ[2]

أَلَمَّتْ فَصَارَ ٱللَّيْلُ مِنْ قِصَرٍ بِهِ   يَطِيْرُ وَمَا غَيْرُ ٱلسُّرُوْرِ جَنَاحُ

وَبِتُّ وَقَدْ زَارَتْ بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ   تُعَانِقُنِي حَتَّىٰ ٱلصَّبَاحِ صَبَاحُ

عَلَىٰ عَاتِقِي مِنْ سَاعِدَيْهَا حَمَائِلٌ   وَفِيْ خَصْرِهَا مِنْ سَاعِدَيَّ وِشَاحُ

وقالَ ٱبنُ زيدونَ ـ مِنْ أَبياتٍ يودِّعُ بها وَلَّادةَ مطلعَ الفجرِ مِنْ ليلةِ وصلٍ ـ [في « ديوانه » ١٢ مِنَ الرَّمَل] :

إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ   بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ ٱللَّيْلِ مَعَكْ

وقالَ [في « ديوانه » ٥ مِنَ البسيط] :

حَالَتْ لِبَيْنِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ   سُوْداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيْضاً لَيَالِيْنَا

وقالَ أَبو عبادةَ [البُحتريُّ في « ديوانه » ٢/ ١٢٥٧ مِنَ السّريع] :

طَوَّلَ هَـٰذَا ٱللَّيْلَ أَنْ لاَ كَرَىٰ   يُرِيْكَ مَنْ تَهْوَىٰ وَأَنْ لاَ هُجُوْعْ

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٤٩٠ مِنَ الطويل] :

لَقَاسَيْنَ لَيْلاً دُوْنَ (قَاسَانَ) لَمْ تَكَدْ   أَوَاخِرُهُ مِنْ بُعْدِ قُطْرَيْهِ تُلْحَقُ[3]

وقالَ ٱلمعرِّيُّ [في « سَقْطِ الزَّنْدِ » ٢٣٠ـ٢٣١ مِنَ الطَّويل] :

وَلَيْلَيْنِ : حَالٍ بِٱلْكَوَاكِبِ جَوْزُهُ   وَآخَرُ مِنْ حَلْيِ ٱلْكَوَاكِبِ عَاطِلُ

---

(١) وهو ابن الزقاق كما في «نفح الطيب» (٤/ ٢٩٨) مِنَ الطويل .

(٢) اللَّدْنُ : اللَّيِّنُ من كلِّ شيءٍ ، والأُنثىٰ لَدْنةٌ : ريّةُ الشباب ناعمةٌ . وامرأةٌ رداحٌ : عجزاءُ ثقيلةُ الأَوراكِ تامَّةُ الخَلْقِ .

(٣) قاسان ـ ويقالُ : قاشان وكاشان ـ : بلدٌ في (إيران) ، بينَ (قُمَّ) و(أَصفهانَ) .

كَأَنَّ دُجَاهُ ٱلْهَجْرُ وَٱلْفَجْرُ مَوْعِدٌ بِوَصْلٍ وَضَوْءُ ٱلصُّبْحِ حِبٌّ مُمَاطِلُ
قَطَعْتُ بِهِ بَحْراً يَعُبُّ عُبَابُهُ وَلَيْسَ لَهُ إِلاَّ ٱلتَّبَلُّجُ سَاحِلُ(١)

وقالَ ٱلوأْواءُ الدِّمشقيُّ [في « ديوانه » ٧٦ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَيْلٍ مِثْلِ يَوْمِ ٱلْبَيْنِ طُوْلاً إِذَا أَفَلَتْ كَوَاكِبُهُ تَعُوْدُ
بَدَائِعُ نَوْمِهَا فِيْهِ ٱنْتِبَاهٌ فَأَعْيُنُهَا مُفَتَّحَةٌ رُقُوْدُ(٢)

وقالَ أَيضاً [في « ديوانهِ » ٨٦ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلَيْلٍ مِثْلِ يَوْمِ ٱلْحَشْرِ طُوْلاً كَأَنَّ ظَلاَمَهُ لَوْنُ ٱلصُّدُوْدِ
بَيَاضُ هِلاَلِهِ فِيْهِ سَوَادٌ كَإِثْرِ ٱللَّطْمِ فِيْ بِيْضِ ٱلْخُدُوْدِ(٣)

وقالَ عليُّ بنُ ٱلخليلِ [مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ طَالَ ٱللَّيْلُ وَٱللَّيْلُ لَمْ يَطُلْ وَلَكِنَّ مَنْ يَهْوَىٰ مِنَ ٱلشَّوْقِ يَسْهَرُ
أَنَامُ إِذَا مَا ٱللَّيْلُ مَهَّدَ مَضْجَعِيْ وَأَفْقِدُ نَوْمِيْ حِيْنَ أُجْفَىٰ وَأُهْجَرُ
فَكَمْ لَيْلَةٍ طَالَتْ عَلَيَّ لِصَدِّهَا وَأُخْرَىٰ أُلاَقِيْهَا بِوَصْلٍ فَتَقْصُرُ

وقالَ آخرُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

سَهِرْتُ لَيْلاَتِ وَصْلٍ فَرْحَةً بِهِمُ وَلَيْلَةَ ٱلْهَجْرِ كَمْ قَضَّيْتُهَا سَهَرَا
إِذَا تَقَضَّىٰ زَمَانِيْ كُلُّهُ سَهَراً فَمَا أُبَالِيْ أَطَالَ ٱللَّيْلُ أَمْ قَصُرَا

---

(١) الليلان : هما الليلُ وفرسهُ الأدهمُ الذي يشبهُ الليلَ بسوادِهِ . حالٍ : أي ليلٍ حالٍ من الحلية ، وحليةُ الليل : نجومُها . جوزةُ : وسطهُ . عاطلٌ : ليسَ حالياً ، وهو فرسهُ الأدهم . التبلُّجُ : إشراقُ الصبح .

(٢) في « الديوان » : (يدافعُ نومَها) بدل (بدائع نومها) .

(٣) في « الديوان » : (يَقَقِ الخدود) بدل (بيض الخدود) . واليَقَقُ : شديد البياضِ ناصعهُ .

تفنن المتنبي في هذا الموضوع وكثرته عنده

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ بكثْرةٍ ؛ فمنهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٦٤ مِنَ الخفيفِ] :

قَصَّرَتْ مُدَّةَ ٱللَّيَالِيْ ٱلْمَوَاضِيْ   فَأَطَالَتْ بِهَا ٱللَّيَالِيْ ٱلْبَوَاقِيْ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَأَنْ لَمْ أَفُزْ بِهِ   وَعَيْشاً كَأَنِّيْ كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثْبَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٤٠ مِنَ الوافرِ] :

وَمَا لَيْلٌ بِأَطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ   يَظَلُّ بِلَحْظِ حُسَّادِيْ مَشُوْبَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

لَيَالِيَّ بَعْدَ ٱلظَّاعِنِيْنَ شُكُوْلُ   طِوَالٌ وَلَيْلُ ٱلْعَاشِقِيْنَ طَوِيْلُ[1]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٦٨ مِنَ الكاملِ] :

اَلنَّوْمُ بَعْدَ أَبِيْ شُجَاعٍ نَافِرٌ   وَٱللَّيْلُ مُعْيٍ وَٱلْكَوَاكِبُ ظُلَّعُ[2]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٧٢ مِنَ المنسَرِحِ] :

مَا بَالُ هَـٰذِيْ ٱلنُّجُوْمِ حَائِرَةً   كَأَنَّهَا ٱلْعُمْيُ مَا لَهَا قَائِدْ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١١٨ مِنَ البسيطِ] :

مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ لَيْلِيْ لاَ صَبَاحَ لَهُ   كَأَنَّ أَوَّلَ يَوْمِ ٱلْحَشْرِ آخِرُهُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٣٥ مِنَ الكاملِ] :

تُدْمِيْ خُدُوْدَهُمُ ٱلدُّمُوْعُ وَتَنْقَضِيْ   سَاعَاتُ لَيْلِهِمُ وَهُنَّ دُهُوْرُ

---

(١) الشُّكولُ ـ جمعُ شكلٍ ـ : وشكلُ الشيءِ مثلُهُ . وجمعُ القلَّةِ : أشكال . وأتىٰ هاهنا بجمعِ الكثرةِ ؛ لأنَّهُ أبلغُ في شكوىٰ الحالِ .

(٢) الظُّلَّعُ : العرجُ ، وقصدَ : أنَّ النجومَ بطيئةُ السيرِ .

وقدْ غَبَّرَ أَبو نُوَاسٍ في وجوهِ الشُّعراءِ ٱلقائلينَ في ٱلموضُوعِ بقولِهِ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

لَسْتُ أَدْرِي أَطَالَ لَيْلِيَ أَمْ لاَ كَيْفَ يَدْرِي بِذَاكَ مَنْ يَتَقَلَّىٰ

إِنْ تَفَرَّغْتُ لِاسْتِطَالَةِ لَيْلِي وَلِرَعْيِ ٱلنُّجُومِ كُنْتُ مُخِلاَّ

المعتمد وإحدى حظاياه

ومصداقُهُ ما حُكيَ : أَنَّ ٱلمعتمدَ بنَ عبَّادٍ ودَّعَ حظاياهُ مِنْ (قُرْطُبَةَ) ، لمَّا عزمَ بهنَّ إِلىٰ (إِشبيليَّةَ) ، وما زالَ يسايرُهُنَّ ، وهوَ مذهوبُ العقلِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ ، حَتَّىٰ برقَ الفجرُ ، فأَفاقَ مِنْ غشيتِهِ ، ورجعَ ، وقالَ في ذلكَ [كما في « ديوانه » ٣٦ مِنَ الكامل] :

سَايَرْتُهُمْ وَٱللَّيْلُ أَغْفَلَ ثَوْبَهُ حَتَّىٰ تَبَدَّىٰ لِلنَّوَاظِرِ مُعْلِمَا

فَوَقَفْتُ ثَمَّ مُوَدِّعَاً وَتَسَلَّمَتْ مِنِّيْ يَدَا ٱلإِصْبَاحِ تِلْكَ ٱلأَنْجُمَا

وقدْ سَنَحَ لي بمناسبةِ ذِكْرِ الوداعِ أَنْ أَتكلَّمَ علىٰ بعضِ ما جاءَ فيهِ ، ثُمَّ رَأَيتُ في الفرصِ الآتيةِ ما هوَ بهِ أَمسُّ ، فأَخَّرْتُهُ إِليها .

* * *

ولنختمِ المجلسَ بأَبياتٍ ثلاثةٍ للناظمِ تتَّصلُ بما نحنُ فيه ، وهيَ ممَّا قالَ في أَيَّامِ صِباهُ[١] :

---

(١) وهي مطالع الأبيات الثلاثة الآتية .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَريِّ » ٤/ ١٨٥ مِنَ البسيط]

أَبْلَىٰ ٱلْهَوَىٰ أَسَفاً يَوْمَ ٱلنَّوَىٰ بَدَنِيْ وَفَرَّقَ ٱلْهَجْرُ بَيْنَ ٱلْجَفْنِ وَٱلْوَسَنِ

الهوى المتلف

يقولُ : إِنَّ الهوىٰ أَتلفَ بَدَنَهُ يومَ الفراقِ ، مِنْ شدَّةِ الأَسفِ ، وأَكثرُ الشعراءِ يدَّعونَ ذلكَ ، وهوَ مقبولٌ ؛ إِذْ قَلَّ مَنْ سَلِمَ مِنَ البَيْنِ ومرارتِهِ ، ولم يَشْكُ مِنَ ٱلبُعدِ وحرارتِهِ ، وأَيُّ عينٍ لم تذرِفْ ؟! بل كلُّ نفسٍ مفارِقةٌ ، وإِنْ لم تعرِفْ .

[قالَ أَبو الطيِّبِ في « العُكْبَريِّ » ١/ ٣٤٢ مِنَ المتقارِب] :

فَـوَاحَسْـرَتَـا مَـا أَمَـرَّ ٱلْفِـرَاقَ وَأَعْلَـقَ نِيْـرَانَـهُ بِـالْكُبُـوْدِ

هوَ الذي ينطوي بهِ مِنَ الأَفراحِ بساطُها ، ويتقطعُ مِنَ ٱلقلوبِ نياطُها ، ويكثُرُ مِنَ ٱلعقولِ ٱختلاطُها ، فلا كَبِدَ إِلاَّ تفتَّتَ علىٰ ذاهبٍ ، غيرَ أَنَّ للناسِ فيما يعشقونَ مذاهبَ [كما قيل مِنَ الطويل] :

وَأَيُّ ٱمْرِىءٍ يَخلُوْ مِنَ ٱلحُبِّ قَلْبُهُ أَلَمْ تَرَهُ حَتَّىٰ ٱلْجَمَادُ بِهِ ٱهْتَزَّا
وَلَـٰكِنَّهُـمْ شَتَّـىٰ فَمِـنْ هَـابِطٍ بِـهِ إِلَىٰ ٱلدَّرَكِ ٱلأَدْنَىٰ وَمِنْ صَاعِدٍ عِزَّا
وَلاَ عِزَّ إِلاَّ فِيْ هَوَىٰ ٱللهِ وَحْدَهُ وَحُبِّ ٱلَّذِيْ هَانَتْ بِهِ ٱللاَّتُ وَٱلْعُزَّىٰ

حقيقة العشق

وقدِ ٱختلفوا في تعريفِ الهوىٰ ، وٱختلفتْ عباراتُهُم ، وتفاوتَتْ إِشاراتُهُم ، وكلٌّ يشيرُ إِلىٰ ذلكَ الجمالِ ، وحَسْبُكَ أَنَّهُ ٱجتمعَ بحضرةِ يحيىٰ بنِ خالدٍ ثلاثةَ عشرَ حكيماً ، فسأَلهُم عن حقيقةِ العشقِ ، فكُلٌّ أَتىٰ بما عندَهُ ، وكانَ فيهِم أَبو الهُذيلِ ، فقالَ :

أَيُّها الوزيرُ ، العشقُ يختِمُ علىٰ النواظرِ ، ويطبعُ علىٰ الأفئدةِ ، مرتعُهُ الأَجسامُ ، ومشرعُهُ في الأَكبادِ ، وصاحبهُ متصرِّفُ الظنونِ ، متفنِّنُ الأَوهامِ ، لا يصفو لهُ مرجوٌّ ، ولا يسلَمُ لهُ مدعوٌّ ، تُسرعُ إِليهِ النوائبُ ، وتحلو لهُ المصائبُ ، وهوَ جُرعةٌ مِنْ نقيعِ الموتِ ، ونَقعَةٌ مِنْ حِياضِ الثُّكلِ ، غيرَ أَنَّهُ مِنْ أَريحيَّةٍ تكونُ في الطبعِ ، وطلاوةٍ توجدُ في الشمائِلِ . اهـ .

العشق أوله لعب وآخره عطب

وهوَ ـ بالحقيقةِ ـ وصفٌ لبعضِ أَعراضِهِ ، لا لهُ ، وإِنَّما أَشارتْ إِلىٰ وصفِهِ الأَعرابيَّةُ بقولِهَا [كما في «مصارع العشاق» ١/ ١٧٥] : جَلَّ عن أَنْ يخفىٰ ، وخفيَ عن أَنْ يُرىٰ ، فهوَ كامنٌ في الأَحشاءِ ، كمونَ النارِ في الزنادِ ، إِنْ قدحتَهُ . . ورىٰ[1] ، وإِنْ تركتَهُ . . توارىٰ .

كمون الحب في الحشا

وسيعادُ هٰذا أَوائِلَ المجلسِ التاسعِ قُبيلَ قولِهِ [في «العُكبَرِيِّ» ١/ ٣١٥ مِنَ الخفيف] :

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ ... هُنَّ فِيهِ أَحْلَىٰ مِنَ ٱلتَّوْحِيدِ[2]

وقولُهُ : (وَفَرَّقَ ٱلْهَجْرُ بَيْنَ ٱلْجَفْنِ وَٱلْوَسَنِ) كذلكَ مِنَ ٱلإِغراقِ الذي لا بأسَ لهُ ، وهوَ متداولٌ كسابقِهِ ، إِلاَّ أَنَّهُ أَقلُّ ابتذالاً ، وأَحسنُ منالاً منهُ قولُ الوزيرِ المُهلَّبيِّ [مِنَ الطويل] :

الهجر ينفي النوم من العيون

تَصارَمَتِ ٱلأَجْفَانُ لَمَّا صَرَمْتَنِي ... فَمَا تَلْتَقِي إِلاَّ عَلَىٰ عَبْرَةٍ تَجْرِي

---

(١) ورىٰ الزَّنْدُ : خرجت نارُهُ .

(٢) وللبيتِ روايةٌ أُخرىٰ هي في «الديوانِ» :

. . . . هُنَّ فِيهِ حلاَوَةُ ٱلتَّوْحِيدِ

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٣/ ٢٤٩ مِنَ الوافر] :

جَفَتْ عَيْنِيْ عَنِ ٱلتَّغْمِيْضِ حَتَّىٰ ... كَـأَنَّ جُفُـوْنَهَـا عَنْهَـا قِصَـارُ

وأَخذَهُ التِّهاميُّ ، فقالَ [في « ديوانه » ٤٧٠ مِنَ الكامل] :

قَصُرَتْ جُفُوْنِيْ أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنُهَا ... أَمْ مُقْلَتِـيْ خُلِقَـتْ بِـلاَ أَشْفَـارِ

وممَّا يُنظَرُ إِليهِ مِنْ بعيدٍ : ما تغنَّتْ بهِ جاريةُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ بنِ أَبي طالبٍ ، لابنِ أَبي عتيقٍ ـ رضوانُ اللهِ عليهم ـ وهوَ [مِنَ الكامل] :

بِهَوَاكَ صَيَّرَنِيْ ٱلْعَذُوْلُ نَكَالاَ ... وَرَأَىٰ ٱلسَّبِيْلَ إِلَىٰ ٱلْمَقَالِ فَقَالاَ

وَنَهَيْتَ نَوْمِيْ عَنْ جُفُوْنِيْ فَٱنْتَهَىٰ ... وَأَمَرْتَ لَيْلِيْ أَنْ يَطُوْلَ فَطَالاَ

تكرار هٰذا المعنى عند المتنبي

والمعنىٰ متكرِّرٌ في « دِيوانِ » الناظمِ ؛ منهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٣ مِنَ المتقارب] :

كَـأَنَّ ٱلْجُفُـوْنَ عَلَـىٰ مُقْلَتِـيْ ... ثِيَـابٌ شُقِقْـنَ عَلَـىٰ ثَـاكِـلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٢٠ مِنَ البسيط] :

قَدْ عَلَّمَ ٱلْبَيْنُ مِنَّا ٱلْبَيْنَ أَجْفَانَا ... تَدْمَىٰ وَأَلَّفَ فِيْ ذَا ٱلْقَلْبِ نِيْرَانَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٤٨ مِنَ الطويل] :

فَـإِنَّ نَهَـارِيْ لَيْلَـةٌ مُـدْلَهِمَّـةٌ ... عَلَىٰ مُقْلَةٍ مِنْ بَعْدِكُمْ فِيْ غَيَاهِبِ

بَعِيْدَةِ مَا بَيْنَ ٱلْجُفُوْنِ كَـأَنَّمَـا ... عَقَدْتُمْ أَعَالِيْ كُلِّ جَفْنٍ بِحَاجِبِ

المحب لا يعرف الراحة

وصدقَ واللهِ ، فمَنْ نالَهُ مِنَ ٱلحبيبِ شفونُهُ[1] . . يستحيلُ أَنْ تصطلحَ جفونُهُ ، ومَنْ ظهرَ لدىٰ ٱلمعشوقِ ذنبُهُ . . فلنْ يستقرَّ بهِ

(١) شَفِنَهُ : نظر إليه بمؤخِرِ عينيهِ بُغْضَةً أو تعجُّباً . وقيل : نظره نظراً فيه اعتراض .

جنبُهُ ، ومَنْ بَعُدَ عنهُ ريحانُهُ . . فلا بِدعَ أَنْ يطولَ ٱمتحانُهُ[١] .

هُوَ ٱلْحُبُّ فَٱسْلَمْ بِٱلْحَشَا مَا ٱلْهَوىٰ سَهْلُ ... فَمَـا ٱخْتَـارَهُ مُضْنـىً بِـهِ وَلَـهُ عَقْـلُ

نَصَحْتُكَ عِلْماً بِٱلْهَوىٰ وَٱلَّذِيْ أَرىٰ ... مُخَالَفَتِيْ فَٱخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا يَحْلُوْ

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيْداً فَمُتْ بِهِ ... شَهِيْداً وَإِلاَّ فَٱلْغَرَامُ لَهُ أَهْلُ[٢]

* * *

---

(١) الهوىٰ : مَقامٌ مِنْ مقاماتِ الحُبِّ ، ودرجةٌ أَعلى في سُلَّمِ ٱرتقائِه ، فإذا وقعَ فيه المرءُ . . فلا مهربَ لهُ ، ولا منجاةَ ولا مخرجَ ، فالهوىٰ كلمةٌ نلمحُ فيها معنىٰ السقوط (هوىٰ يهوي) ، والذي يهوي : ٱمرؤٌ سقطَ الزمامُ مِنْ يدِهِ ، فأصبحتْ نفسُه مطيّةً جامحةً ؛ لذلكَ لا بدَّ للعقلِ أَن يسودَ العاطفةَ ، ويلجِمَ النفسَ لتقفَ عندَ حدودِ اللهِ سبحانهُ وتعالى ، حينئذٍ تَنعَم النفسُ بهدأَةِ الطمأنينةِ وراحةِ السكينة . ويرحم الله القائل [من البسيط] :

دَعِ ٱلتَّغَـزُّلَ فِـيْ دَعْـدٍ فَكُـلُّ هَـوَىً ... يَهْوِيْ بِصَاحِبِهِ فِيْ بُؤْرَةِ ٱلنَّدَمِ

(٢) الأبياتُ لابنِ الفارضِ في « ديوانه » مِنَ الطويل .

[قالَ أَبو الطيِّبِ في « العُكْبَريِّ » ٤/ ١٨٦ مِنَ البسيط] :

رُوْحٌ تَـرَدَّدُ فِـيْ مِثْـلِ ٱلْخِـلاَلِ إِذَا	أَطَارَتِ ٱلرِّيْحُ عَنْهُ ٱلثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ[1]
كَفَىٰ بِجِسْمِي نُحُوْلاً أَنَّنِيْ رَجُلٌ	لَـوْلاَ مُخَـاطَبَتِيْ إِيَّاكَ لَـمْ تَـرَنِـيْ

في البيت سؤالان

في البيتِ الثاني سؤالانِ :

الأول: ما هو المصدر المؤول؟

أَحدُهُما : أَنَّ (أَنَّ) المفتوحةَ مِنْ قولِهِ : (أَنَّنِيْ رَجُلٌ) تحتاجُ إِلىٰ أنْ تُسْبَكَ بمصدرٍ ، فما تقديرهُ ؟

وقد أَجابَ الشارحُ [العُكبَريُّ] : بأَنَّهُ كفىٰ بجسمي نحولاً ٱنتفاءُ رؤيتي لولا مُخاطبتي .

الثاني: الاسم الظاهر بمثابة الغائب فكيف الضمير

والثاني : أَنَّ الأَسماءَ الظاهرةَ مِنْ قبيلِ الغائبِ ، فكانَ الأَوفقَ أَنْ يقولَ : (أَنَّنِيْ رَجُلٌ لولا مخاطبتهُ إِيَّاكَ لم ترهُ) .

وأَطالَ الشارحُ في الجوابِ ، والحاصلُ : أَنَّهُ مِنْ جنسِ قولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : ٥٥] ، فالخطابُ في ﴿تجهلونَ﴾ غيرُ مناسبٍ لقومٍ ، وإِنَّما هوَ أَنيسٌ بقولِهِ : ﴿أَنتم﴾ .

الشواهد عليه

ومثلُهُ قولُ الشاعرِ [مِنَ الطويل] :

أَأَكْـرَمُ مِـنْ لَيْلَـىٰ عَلَـيَّ فَتَبْتَغِـيْ	بِهِ ٱلْجَاهَ أَمْ كُنْتُ ٱمْرَأً لاَ أُطِيْعُهَا

فقدْ أَعادَ مِنْ (أُطِيعُها) ضميرَ متكلِّمٍ وِفاقاً لـ(كنتُ)، ولم يُعِدْ

---

(١) الخِلالُ : العودُ الدقيقُ الذي لا يُرى .

ضميرَ غائبٍ وِفاقاً (لامرئٍ) ، والبيتُ لقيسِ بنِ المُلَوَّحِ [في « شرحِ شواهدِ المُغني » ١/ ٢٢١] ، أَو لابنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانه » ٢٠٦] ، أَو للصِّمَّةِ بنِ عبدِ اللهِ القشيريِّ [في « ديوانهِ » ١١٣] ، علىٰ ٱختلافِ الرواةِ في ذلكَ ، وقدْ أَوردهُ ٱبنُ هشامٍ شاهداً علىٰ ٱشتراطِ ٱلصفةِ لِمَا وُطِّىءَ بهِ مِنْ خبرٍ ، أَو ، صفةٍ ، أَو حالٍ ، وقبلَهُ [في « ديوان الصِّمَّة » ١١٣] :

وَنُبِّئْتُ لَيْلَىٰ أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةٍ إِلَيَّ فَهَلاَّ نَفْسُ لَيْلَىٰ شَفِيْعُهَا

قصة الصمة وريا

وكانَ مِنْ خَبرِها [كما في «الأغاني» ٦/ ١٢] : أَنَّ الصِّمَّةَ بنَ عبدِ اللهِ ـ علىٰ روايةٍ أَنَّها لهُ ـ كانَ يهوىٰ ٱبنةَ عمٍّ لهُ تسمَّىٰ رَيَّا ، فخطبَها إِلىٰ عمِّهِ ، فزوَّجَهُ علىٰ خمسينَ مِنَ ٱلإِبلِ ، فجاءَ إِلىٰ أَبيهِ ، فسأَلَهُ ، فساقَ عنهُ تسعاً وأَربعينَ ، فقالَ : أَكمِلْها ، فقالَ : هوَ عمُّكَ ، وما يناظرُكَ في ناقةٍ ، فقالَ : واللهِ ما قالَ هـٰذا إِلاَّ ٱستخفافاً بٱبنتي ، واللهِ لا أَقبلُها إِلاَّ كُمَّلاً ، فلجَّ عمُّهُ ، ولجَّ أَبوهُ ، فقالَ : واللهِ ما رأَيتُ ٱلأَمَ منكُما ، وأَنا ٱلأَمُ منكُما إِنْ أَقمتُ معكُما ، فرحلَ إِلىٰ (الشامِ) ، فلقيَ الخليفةَ ، فأُعجبَ بهِ ، وفرضَ لهُ ، وأَلحقَهُ بالفرسانِ ، فكانَ يتشوَّقُ إِلىٰ (نجدٍ) ، ويحِنُّ إِليها ، وكانَ هـٰذا ٱلشعرُ فيما قالَهُ . كذا رأَيْتُهُ ، وهو لا يلتئِمُ معَ البيتينِ ، وإِنَّمَا يلتئِمُ معَ ما سيأَتِي عنهُ في المجلسِ الثاني .

رد المؤلف على الشارح

إِذنْ : ففي البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ نوعٌ مِنَ ٱلالتفاتِ البديعِ ، ثُمَّ قالَ الشارحُ : إِنَّهُ مِنْ قولِ الأَخطلِ [في « ديوانه » ١٥٤ مِنَ الطويل] :

ضَفَادِعُ فِيْ ظَلْمَاءِ لَيْلٍ تَجَاوَبَتْ فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ ٱلْبَحْرِ

وليسَ كذلكَ .

وإنَّما أَصلُهُ قولُ الأَعشىٰ [في « ديوانه » مِنَ الطويل] :

فَلَـوْ أَنَّ مَـا أَبْقَيْـنَ مِنِّـيْ مُعَلَّـقٌ بِعُوْدِ ثُمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُوْدُهَا[1]

وقدْ تلاعبَ بهِ الناظمُ حتَّىٰ أذالَهُ ، فمِنْ ذلِكَ قولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/٢٨ مِنَ الكامل] :

وَخَيَالُ جِسْمٍ لَمْ يُخَلِّ لَهُ ٱلْهَوَىٰ جِسْماً فَيُنْحِلَهُ ٱلسَّقَامُ وَلاَ دَمَا[2]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/١٤٩ مِنَ الطويل] :

وَلَوْ قَلَمٌ أُلْقِيْتُ فِيْ شَقِّ رَأْسِهِ مِنَ ٱلسُّقْمِ مَا غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٥١ مِنَ الطويل] :

بَرَانِيْ ٱلسُّرَىٰ بَرْيَ ٱلْمُدَىٰ فَرَدَدْنَنِيْ أَخَفَّ عَلَىٰ ٱلْمَرْكُوْبِ مِنْ نَفَسِيْ جِرْمِيْ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٢٣ مِنَ الوافر] :

بِجِسْمِيْ مَنْ بَرَتْهُ فَلَوْ أَصَارَتْ وِشَـاحِيْ ثَقْـبَ لُـؤْلُـؤَةٍ لَجَـالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٦٣ مِنَ الخفيف] :

حُلْتِ دُوْنَ ٱلْمَزَارِ فَٱلْيَوْمَ لَوْ زُرْ تِ لَحَالَ ٱلنُّحُوْلُ دُوْنَ ٱلْعِنَاقِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٥٢ مِنَ الكامل] :

دُوْنَ ٱلتَّعَـانُقِ نَـاحِلَيْنِ كَشَكْلَتَـيْ نَصْبٍ ، أَدَقَّهُمَا وَضَمَّ ٱلشَّاكِلُ[3]

---

(١) الثُّمامُ : نبتٌ معروفٌ في البادية ، ولا تأكلهُ النَّعَمُ إلا في الجُدُوبةِ . تأَوَّدَ عودُها تأوُّداً : إذا تثنىٰ .

(٢) في «العكبري» : (لَحْمَا) بدل (جِسْمَا) ، ولعله الصواب.

(٣) الشَّكلةُ : أَرادَ هنا التي تكونُ في الإعرابِ وهيَ الفتحةُ ، وهيَ من قولِهِم : شَكَلْتُ الدابَّةَ ؛ أي : ضبطتُها ، والشكلةُ تضبطُ الحروفَ ، وضمَّ الشاكلُ : =

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ١٤ مِنَ الكامل] :

وَشَكِيَّتِي فَقْدُ ٱلسَّقَامِ لأَنَّـهُ ... قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِيْ أَعْضَاءُ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ١٩٢ مِنَ البسيط] :

كَتَمْتُ حُبَّكِ حَتَّىٰ مِنكِ تَكْرِمَةً ... ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ فِيْكِ إِسْرَارِيْ وَإِعْلاَنِيْ

لأَنَّهُ زَادَ حَتَّىٰ فَاضَ عَنْ جَسَدِيْ ... فَصَارَ سُقْمِيْ بِهِ فِيْ جِسْمِ كِتْمَانِيْ(١)

وقدْ أَلَمَّ في هٰذا بقولِ قيسِ بنِ المُلَوَّحِ [في «ديوانه» ٢٩٤ مِنَ الطويل] :

لَقَدْ كُنْتُ أَعْلُوْ حُبَّ لَيْلَىٰ فَلَمْ يَزَلْ ... بِيَ ٱلنَّقْضُ وَٱلإِبْرَامُ حَتَّىٰ عَلاَنِيَا

ذوبان النفس في العشق ليس حكراً على أحد

وهوَ مِنَ ٱلمعاني المشترَكةِ ، وقد تداولَهُ المولَّدونَ ، فمنهُ قولُ المجنونِ [في «ديوانه» ٨٠ مِنَ الطويل] :

أَلاَ إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... صَدَىً أَيْنَمَا تَذهَبْ بِهِ ٱلرِّيْحُ يَذْهَبِ

وقولُ المُؤَمَّلِ [مِنَ السّريع] :

يَكَادُ جِسْمِيْ مِنْ نُحُوْلِ ٱلْـ ... ـضَّنَا تَحْمِلُهُ أَنْفَاسُ عُوَّادِيْ

وقولُ خالدِ الكاتبِ [مِنَ البسيط] :

غَدَا خَلِيْلُكِ نِضْواً لاَ حَرَاكَ بِهِ ... لَمْ يَبْقَ مِنْ جِسْمِهِ إِلاَّ تَوَهُّمُهُ(٢)

= الكاتبُ ، يريد بالضمِّ : القربَ ، ولم يُرِدِ الضم الذي في الإعراب الذي يسمى رفعاً .

(١) في «العكبري» : (كَأَنَّهُ) بدل (لأَنَّهُ) .

(٢) النِّضْوُ : البعيرُ المهزولُ ، وقد يستعملُ في الإنسانِ .

وقولُ ٱبنِ المعتزِّ [مِنَ البسيط] :

مُسَهَّدٌ خَانَهُ ٱلتَّفْرِيْقُ فِيْ أَمَلِهْ ... أَضْنَاهُ سَيِّدُهُ ظُلْماً بِمُرْتَحِلِهْ
فَرَقَّ حَتَّىٰ لَوَ ٱنَّ ٱلدَّهْرَ قَادَ لَهُ ... حَتْفَاً لَمَا أَبْصَرَتْهُ مُقْلَتَا أَجَلِهْ

وقولُ ٱبنِ دُريدٍ [مِنَ السّريع] :

إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ أَبْقَيْتَ مِنْ جِسْمِهِ ... يَا مُتْلِفَ ٱلصَّبِّ وَلَمْ يَشْعُرِ
صَبَابَةً لَوْ أَنَّهَا قَطْرَةٌ ... تَجُوْلُ فِيْ عَيْنَيْكَ لَمْ تَقْطُرِ

وما أَحسنَ قولَهُ : (لَوْ أَنَّهَا قَطْرَةٌ) إلخ ، كما لا أَقبحَ مِنْ تعليقِهِ البيتَ الثاني بالأَوَّلِ ، وحشوِهِ بقولِهِ : (يَا مُتْلِفَ الصَّبِّ) ؛ فإِنَّهَا ظُلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، لولا ما تتنفَّسُ بِهِ مِنْ ذلكَ الفجرِ الصادقِ.

ما هذه الخفة؟!

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطويل] :

وَلَوْ شِئْتُ فِيْ طَيِّ ٱلْكِتَابِ لَزُرْتُكُمْ ... وَمَا شَعَرَتْ بِيْ أَحْرُفٌ وَسُطُوْرُ

وقالَ ٱبنُ العميدِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

القذى الذي لا يؤذي

لَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتِ مِنْ جِسْمِيْ قَذىً ... فِيْ ٱلْعَيْنِ لَمْ يَمْنَعْ مِنَ ٱلإِغْفَاءِ

وأَغارَ الوأواءُ الدمشقيُّ علىٰ أَوَّلِ البيتينِ اللَّذينِ نحنُ بسبيلِهِما ، فقالَ [في « ديوانه » ١٨٩ مِنَ الوافر] :

وَمَا أَبْقَىٰ ٱلْهَوَىٰ وَٱلشَّوْقُ مِنِّيْ ... سِوَىٰ رُوْحٍ تَرَدَّدُ فِيْ خَيَالِ
خَفِيْتُ عَلَىٰ ٱلنَّوَائِبِ أَنْ تَرَانِيْ ... كَأَنَّ ٱلرُّوْحَ مِنِّيْ فِيْ مَحَالِ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطويل] :

بَرَانِيْ ٱلْهَوَىٰ بَرْيَ ٱلْمُدَىٰ وَأَذَابَنِيْ ... صُدُوْدُكَ حَتَّىٰ صِرْتُ أَنْحَلَ مِنْ أَمْسِ
فَلَسْتُ أُرَىٰ حَتَّىٰ أَرَاكَ وَإِنَّمَا ... يَبِيْنُ هَبَاءُ ٱلذَّرِّ فِيْ أَلَقِ ٱلشَّمْسِ

وقدْ قضىٰ الشارحُ بالتفضيلِ لهٰذينِ البيتينِ ، وحكمُهُ مقبولٌ بالنسبةِ للثاني ، ومردودٌ بالنسبةِ للأوَّلِ .

تأييد المؤلف للشارح في بعض ورده لبعض

وقالَ الصنوبريُّ [مِنَ الخفيف] :

ذُبْتُ حَتَّىٰ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ أَنْـ ـيَ حَيٌّ إلاَّ بِبَعْضِ كَلاَمِيْ

وقالَ الخابزأَرُزِّي [مِنَ السريع] :

ذُبْتُ مِنَ ٱلشَّوْقِ فَلَوْ زُجَّ بِيْ فِيْ مُقْلَةِ ٱلنَّائِمِ لَمْ يَنْتَبِهْ

قَدْ كَانَ لِيْ فِيْمَا مَضَىٰ خَاتَمٌ وَٱلْيَوْمَ لَوْ شِئْتُ تَمَنْطَقْتُ بِهْ

أعذب الشعر أكذبه

وهوَ مِنْ معاصري الناظمِ ، وبينَ بيتيهِ مِنَ التفاوتِ ما لا يخفىٰ ؛ إذْ كيفَ يتمنطقُ مَنْ يكونُ القذىٰ أكبرَ منهُ .

وقدْ أغارَ الوالدُ أبو بكرِ بنُ شهابٍ ـ رحمه اللهُ ـ علىٰ الثاني منهُما ، ولٰكنَّهُ أحسنَ الاتباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [مِنَ البسيط] :

لَدْنُ ٱلْقِوَامِ دَقِيْقُ ٱلْخَصْرِ خَاتَمُهُ لَوْ شَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْلِيْفٍ يُمَنْطِقُهُ

وقدْ سبقَ إِلىٰ أَصلِ المعنىٰ ، حبيبُ بنُ أَوسٍ ، في قولِهِ [في « ديوانه » ٣/ ١١٥ مِنَ الطويل] :

السابق في المعنى أبو تمام

مِنَ ٱلْهِيْفِ لَوْ أَنَّ ٱلْخَلاَخِيْلَ صُيِّرَتْ لَهَا وُشُحاً جَالَتْ عَلَيْهَا ٱلْخَلاَخِلُ

وقدْ تفوَّقَ في المعنىٰ سلطانُ العاشقينَ ، وأَفرغَهُ في عِدَّةِ قوالبَ ، منها قولُهُ [في « ديوانه » ٨ مِنَ الرَّمَل] :

سلطان العاشقين وإبداعه في هذه المسألة

كَهِلاَلِ ٱلشَّكِّ لَوْلاَ أَنَّهُ أَنَّ ، عَيْنِيْ عَيْنَهُ لَمْ تَتَأَيْ[1]

---

(١) هلالُ الشكِّ : الذي لم تَثبت رؤيتُهُ . أَنَّ : مِنَ الأَنينِ . عيني : باصِرَتي . عينُهُ : ذاتُهُ . لم تتأَي : لم تقصدْ . =

وقولُهُ [في « ديوانه » ٣٧ مِنَ الطويل] :

كَأَنِّيْ هِلاَلُ ٱلشَّكِّ لَوْلاَ تَأَوُّهِيْ ... خَفِيْتُ فَلَمْ تُهْدَ ٱلْعُيُوْنُ لِرُؤْيَتِيْ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٣٧ مِنَ الطويل] :

خَفِيْتُ ضَنىً حَتَّىٰ لَقَدْ ضَلَّ عَائِدِيْ ... وَكَيْفَ تَرَىٰ ٱلْعُوَّادُ مَنْ لاَ لَهُ ظِلُّ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٧٣ مِنَ الطويل] :

تَحَكَّمَ فِيْ جِسْمِيْ ٱلنُّحُوْلُ فَلَوْ أَتَىٰ ... لِقَبْضِيْ رَسُوْلٌ ضَلَّ فِيْ مَوْضِعٍ خَالِيْ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٤٤ مِنَ البسيط] :

وَحَبَّذَا فِيْكَ أَسْقَامٌ خَفِيْتَ بِهَا ... عَنِّيْ ، تَقُوْمُ بِهَا عِنْدَ ٱلْهَوَىٰ حُجَجِيْ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٦٤ مِنَ الطويل] :

خَفِيْتُ ضَنىً حَتَّىٰ خَفِيْتُ عَنِ ٱلضَّنَىٰ ... وَعَنْ بُرْءِ أَسْقَامِيْ وَبَرْدِ أُوَامِيْ[1]

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٥٢ مِنَ الكامل] :

أَخْفَيْتُ حُبَّكُمُ فَأَخْفَانِيْ أَسَىً ... حَتَّىٰ لَعَمْرِيْ كِدْتُ عَنِّيْ أَخْتَفِيْ

وقولُهُ [في « ديوانه » ٤٩ مِنَ الطويل] :

فَلَوْ هَمَّ مَكْرُوْهُ ٱلرَّدَىٰ بِيْ لَمَا دَرَىٰ ... مَكَانِيْ وَمِنْ إِخْفَاءِ حُبِّكِ خُفْيَتِيْ

ويعجبني قولُ ٱبنِ زيدونَ [في « ديوانه » ٢٥٨ مِنَ البسيط] :

لَوْ شَاءَ حَمْلِيْ نَسِيْمُ ٱلصُّبْحِ حِيْنَ جَرَىٰ ... وَافَاكُمُ بِفَتىً أَضْنَاهُ مَا لاَقَىٰ

= والمعنىٰ : أنهُ صارَ في خفائهِ كهلالِ الشكِّ ، فلولا أنينُهُ لم يهتدَ إليهِ .

(١) الأُوَامُ : شدَّةُ العطشِ وحرارتُهُ ، وقيل : أن يَضِجَّ العطشانُ .

وقولُ الآخرِ [مِنَ الخفيفِ] :

قَـدْ سَمِعْتُـمْ أَنِينَـهُ مِـنْ بَعِيْـدٍ ... فَاطْلُبُوْا الشَّخصَ حَيْثُ كَانَ الأَنِيْنُ

وقولُ لسانِ الدين ٱبنِ الخطيبِ [في « ديوانه » ١/ ٣٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْلاَ أَنِيْنِيْ مَا ٱهْتَدَىٰ نَحْوَ مَضْجَعِيْ ... خَيَـالُكُـمُ بِـاللَّيْـلِ حِيْـنَ يَـزُوْرُ

المقبول من الغلو هو الذي يصدره الصوفية

وجُلُّ ما في الموضوعِ مِنَ ٱلغُلُوِّ ٱلذي ينبو عنهُ السمعُ ، ولا يقبلُهُ الخاطرُ ، إلاَّ ما كانَ عنِ ٱلسادةِ الصوفيَّةِ ؛ فإنَّهُ لا بأسَ بهِ ، ووجهُهُ أنَّها تتلاشىٰ جِسمانيَّتُهُم ، وتتغلَّبُ عليهِمِ ٱلروحانيَّةُ ، وينفكُّونَ عن قيودِ المادَّةِ ، ويطيرونَ بنفوسِهِم إلىٰ حيثُ شاؤوا ، ممَّا قُسِمَ لهُم أَنْ يدخلوهُ مِنْ عوالمِ القُدْسِ، علىٰ حَسَبِ مراتِبِهِم، وتفاوتِ درجاتِهِم .

وقدْ قالَ بعضُهم [مِنَ الطويل] :

نَحَلْتُ فَلَوْ عُلِّقْتُ فِيْ رِجْلِ ذَرَّةٍ ... لَطَارَتْ وَلَمْ تَشْعُرْ بِأَنِّي تَعَلَّقْتُ

سماع الصوفية

ولهـٰذا قصَّةٌ ، حاصلُها : أَنَّ جماعةً مِنَ ٱلصوفيَّةِ كانوا علىٰ سماعِ ليلةً ، فطرقَهُم شخصٌ عظيمُ الهامةِ ، طويلُ القامةِ ، عليهِ هيئةُ السفرِ ، فقالَ : ما هـٰذا ؟ قالوا : سماعٌ ٱجتمعَ عليهِ الإخوانُ ، فقالَ : إنْ أَذنتُم لي . . دخلتُ ، فألفىٰ الحاديَ يقولُ [مِنَ الطويل] :

خَلِيْلَيَّ لاَ وَٱللهِ مَا ٱلْقَلْبُ سَالِمٌ ... وَإِنْ ظَهَرَتْ مِنِّيْ شَمَائِلُ صَاحِ

وَإِلاَّ فَمَا بَالِيْ وَلَمْ أَشْهَدِ ٱلْوَغَىٰ ... أَبِيْـتُ كَـأَنِّـيْ مُثْخَـنٌ بِجِـرَاحِ

فطَرِبَ ، وركضَ برجلِهِ الأَرضَ ، ورمىٰ للحادي ما كانَ علىٰ رأسِهِ ، ثُمَّ ٱندفعَ الحادي يقولُ [مِنَ البسيط] :

يَا بَانَةَ ٱلجِزْعِ لَوْلاَ رَنَّةُ ٱلْحَادِيْ ... لَمَـا تَنَقَّلْـتُ مِـنْ وَادٍ إِلَـىٰ وَادِ

وَلاَ سَلَكْتُ بِنَعْمَانِ ٱلأَرَاكِ وَلاَ ... شَرِبْتُ مِنْ مَائِهِ مَا يُنْعِشُ ٱلصَّادِيْ

فصَعِقَ الشيخُ ، وتَدَلَّهَ[1] ، ورمىٰ جميعَ ما كانَ عليهِ مِنَ ٱلثيابِ ، وبقيَ عُرياناً ، ثُمَّ غنَّىٰ ٱلحادي بالبيتِ المُشارِ إليهِ ، في جملةِ أَبياتٍ ذهبتْ عن حِفظي ، فصاحَ الشيخُ صيحةً خرجتْ فيها رُوْحُهُ .

ومن العشق ما قتل

ونظيرُها ما حكاهُ ٱبنُ دقيقِ العيدِ في مجلسِ درسِهِ بجامعِ ٱبنِ طولونَ : أَنَّهُ حضرَ سماعاً غنَّىٰ فيهِ مُغنٍّ بقولِ ٱبنِ الخيَّاطِ [في « ديوانه » ١٧٠-١٧١ مِنَ الطويل] :

خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَاناً لِقَلْبِهِ ... فَقَدْ كَادَ رَيَّاهَا يَطِيْرُ بِلُبِّهِ

وَإِيَّاكُمَا ذَاكَ ٱلنَّسِيْمَ فَإِنَّهُ ... إِذَا هَبَّ كَانَ ٱلْمَوْتُ أَيْسَرَ خَطْبِهِ

وَفِيْ ٱلرَّكْبِ مَطْوِيُّ ٱلضُّلُوْعِ عَلَىٰ جَوىً ... مَتَىٰ يَدْعُهُ دَاعِ ٱلْغَرَامِ يُلَبِّهِ

قالَ : وفي القوم فقيرٌ أَخذَ يقولُ : لبيكَ ، لبيكَ ، ويصيح ، ورفعَ رأسَهُ ، فإذا هوَ مَيْتٌ .

حكم ابن الأثير على بيت

قالَ ٱبنُ ٱلأَثيرِ [في «المثلِ السَّائرِ في أدبِ الكاتبِ والشَّاعرِ»: ٣٤٦/٢] : وفي هٰذهِ ٱلقصيدةِ بيتٌ يزعمونَ أَنَّهُ مخترَعٌ، وهوَ [في « ديوانِ ٱبنِ الخيَّاطِ » ١٧١]:

أَغَارُ إِذَا آنَسْتُ فِيْ ٱلْحَيِّ أَنَّةً ... حِذَاراً عَلَيْهِ أَنْ تَكُوْنَ لِحِبِّهِ

والحالُ أَنَّهُ مِنْ قولِ ٱلمتنبِّي [في « العُكْبَرِيّ » ٦/١ مِنَ الكامِلِ] :

لَوْ قُلْتَ لِلدَّنِفِ ٱلْمَشُوْقِ فَدَيْتُهُ ... مِمَّا بِهِ . لأَغَرْتَهُ بِفِدَائِهِ[2]

---

(١) تدلّهَ: ذهب فؤاده من العشق أو نحوه .

(٢) الدَّنِف : الذي ٱشتدَّ مرضهُ وأشرف على الموتِ . وأغرته : من الغَيرة. وفي=

أقولُ : وقدْ سبقَ إليهِ ٱلعبَّاسُ بنُ ٱلأحنفِ في قولِهِ [في « ديوانه » ٣٤ مِنَ ٱلكامِلِ] :

لَمْ أَلْقَ ذَا شَجَنٍ يَبُوْحُ بِحُبِّهِ … إِلاَّ حَسِبْتُكِ ذَلِكَ ٱلْمَحْبُوْبَا

حَذَراً عَلَيْكِ وَإِنَّنِيْ بِكِ وَاثِقٌ … أَنْ لاَ يَنَالَ سِوَايَ مِنْكِ نَصِيْبَا

لماذا لم يصعق الصحابة من السماع؟

فإنْ قالَ قائلٌ : إذا كانَ ٱلموتُ علىٰ مثلِ تلكَ ٱلحالِ كمالاً . . فهلاَّ كانَ هناكَ أصحابُ رسولِ ٱللهِ صلَّىٰ ٱللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ، ورضيَ عنهُم ، وهُم خيرُ ٱلقرونِ[1] ؟

= «الديوان» : (ٱلْحَزِيْنِ) بدلَ (ٱلْمَشُوْقِ) . ولكن ابن الأثير قال :

(دخلت مدينة دمشق فوجدت جماعة من أدَبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط في قصيدة له أولها: خذا من صبا نجد أماناً لقلبه ، ويزعمون أنه من المعاني الغريبة وهو :

أَغار إذا آنست في الحي أَنَّةً … حذاراً عَلَيْهِ أَنْ تَكُوْنَ لِحُبِّهِ

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبي الطيب في قوله :

و قلت للدنف المشوق فديته … مما به لأغرته بفدائه

وقول أبي الطيب أدق معنى ، وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظاً ، ثم إني أوقفتهم على مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبي) .

« المثل السائر » (٢/ ٣٤٦) .

(١) إنَّ للهِ في خلقِهِ وعبادِهِ مقاماتٍ وأحوالاً تختلفُ مِن عبدٍ لآخرَ ، فالعبدُ صاحبُ الحالِ يتقلَّبُ حالُهُ حَسَبَمَا يشاهدُ وحَسَبَمَا يفتحُ اللهُ عليهِ .

وأمَّا صاحبُ المقام: فإنَّهُ ثابتٌ كالأوتادِ ، راسخٌ كالجبالِ ، لاَ يتزعزعُ ولاَ يتغيَّرُ حالُهُ أبداً مهما رأى وشاهدَ ، وفي النهايةِ يتغير الحالُ ويبقى المقامُ ، وهؤلاءِ هُمُ الجَمُّ الغفيرُ مِنَ الصحابةِ رِضوانُ اللهِ عليهِم ، وهم كما قالَ الشاعرُ [من الخفيف] :

تِـهْ غَـرَامـاً فَلِلْغَـرَامِ رِجَـالُ … وَأَبْكِ مَا شِئْتَ يَوْمَ قَوْمُكَ شَالُوا=

بل صعق بعضهم عند سماع سورة الإنسان

قلنا : أخرجَ الطَّبرانيُّ [في «الأوسط» ٢/ ١٦١] ، وابنُ مردويهِ ، وابنُ عساكرَ : (أنَّ بعضَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ قضىٰ عندَ سماعِ سورةِ الإنسانِ ساعةَ نزولِها) .

وأخرجهُ أحمدُ أيضاً بصورةٍ لا تبعُدُ عنها .

قوا أنفسكم ناراً

وصحَّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ : أنَّهُ لمَّا نزلتْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم : ٦] . . تلاها رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ ، أو يومٍ ، فخرَّ فتىً مغشياً عليهِ ، فوضعَ النبيُّ صلى الله عليهِ وآلهِ

=

وتَمَلْمَلْ يَوْمَ ٱلْوَدَاعِ كَئِيباً	رُبَّمَا عَهْدَهُمْ عَلَيْكَ أَطَالُوا
وتَجَرَّدْ عَنْ طَوْرِ كَوْنِكَ فِيهِمْ	ربَّ قَوْلٍ تَرُدُّهُ ٱلأَفْعَالُ
لا تَكُنْ فِيْ ٱلْغَرَامِ رَبَّ لِسَانٍ	دُوْنَ قَلْبٍ فَلِلْهَوىٰ أَهْوَالُ
عَرْبَدَ ٱلْقَومُ عنْدَ نَهْلَةِ كَأْسٍ	واسْتُمِيلُوا مَعَ ٱلشَّرَابِ فَمَالُوا
وشَرِبْنَا ٱلْكُؤُوْسَ حَتَّىٰ تَنَاهَتْ	وَكَأَنَّ ٱلشَّرابَ مَاءٌ زُلاَلُ
إنَّ فِيْ ٱلْعَاشِقِيْنَ مِنَّا رِجَالاً	هُمْ رِجَالٌ شَكْلاً وَمَعْنىً جِبَالُ
صَارَعَتْهُمْ أَحْوَالُهُمْ فَٱسْتَقَرُّوا	بِثَبَاتٍ وَزَالَتِ ٱلأَحْوَالُ

ومِنَ الصحابةِ مَن يكونُ صاحبَ حالٍ : فتراهُ حيناً يهيمُ في محبوبهِ عزَّ وجلَّ ، فيطلبُ مِنْهُ ـ سبحانَهُ ـ دوامَ الوِصالِ معَ دوامِ الحياةِ . بينَما نراهُ في الحينِ الآخرِ يشتدُّ عليهِ الحالُ ، فيفضِّلُ الموتَ على الحياةِ ، وربَّما صُعِقَ وهوَ على تلكَ الحالِ ، لشدَّةِ ما يشاهدُ مِنَ الأنوارِ الربَّانيَّةِ والحضرةِ القدسيَّةِ الرحمانيَّةِ .

ومِنْ أبرزِ المظاهرِ التي تدلُّنا علىٰ تبدُّلِ الأحوالِ . . ذلكَ العارفُ باللهِ سلطانُ العاشقينَ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ فنراهُ حيناً يقولُ :

عَذِّبْ بِمَا شِئْتَ غَيْرَ ٱلْبُعْدِ عَنْكَ تَجِدْ	أَوْفَىٰ مُحِبٍّ بِمَا يُرْضِيْكَ مُبْتَهِجِ
وخُذْ بَقِيَّةَ مَا أَبْقَيْتَ مِنْ رَمَقٍ	لاَ خَيْرَ فِيْ ٱلْحُبِّ إِنْ أَبْقَىٰ عَلَىٰ ٱلْمُهَجِ

ثمَّ نراهُ ماشياً في السوقِ وهوَ يعطي الأطفالَ الصغارَ قِطَعاً مِنَ الحلوىٰ ، ويقولُ : ادعوا لعمِّكُمُ الكذَّابِ .

وسلَّم يدَهُ علىٰ فؤادِهِ ، فإذا هو يتحرَّكُ ، فقالَ : « يَا فَتَىٰ ، قُلْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ » ، فقالَها ، فبشَّرَهُ بالجنَّةِ ، وماتَ مِنْ ذلكَ[1] .

الأول يتلو والثاني يموت

وصحَّ : أَنَّ منصورَ بنَ عمَّارٍ تلاَ هـٰذِهِ ٱلآيَةَ ، فسمعَها فتىً يصلِّي ، فتفطَّرتْ مرارتُهُ ، ووقعَ ميِّتاً[2] .

باح للنبي ﷺ ومات

وأَخرجَ الحاكمُ في « المستدرك » [٢/٥٣٦] ، وٱبنُ أَبي الدنيا [في «الخائفين»] ، عن سهلِ بنِ سعدٍ : (أَنَّ فتىً مِنَ ٱلأنصارِ دخلتْهُ خشيةٌ مِنَ ٱلنارِ ، فكانَ يبكي مِنْ ذِكْرِها ، فذُكِرَ للنبيِّ صلى الله عليهِ وآلهِ وسلَّم ، فجاءَهُ إِلىٰ بيتِهِ ، فلمَّا دخلَ عليهِ . ٱعتنقَهُ ، وخرَّ مَيْتاً) .

وأكثرهم راسخون كالجبال

ثُمَّ لا يُؤثِّرُ السماعُ ذلكَ التأثيرَ ، فيمَنْ بلغَ وقارَ الجبالِ مِنَ ٱلصحابةِ ، وإِنْ غلبَهُمُ ٱلخشوعُ ، وٱستولىٰ عليهِمُ ٱلخضوعُ ، وفاضتْ مِنْ محاجِرِهِمُ ٱلدموعُ ، وإِنَّما يبلغُ ذلكَ الحدَّ فيمَنْ خفَّ نسيمُهُ ، ولم يَصِلْ إِلىٰ ما كانَ عليهِ سيِّدُ البشرِ ، وكُمَّلُ أَصحابِهِ ، مِنْ نهايةِ الثباتِ والوقارِ .

رفقاً بالقوارير

ومنهُ تعرفُ سِرَّ قولِهِ ﷺ لأَنجشةَ : « رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ ، رِفْقاً بِٱلْقَوَارِيرِ »[3] ، فإِنَّما أَمرَهُ بالرفقِ بالنساءِ لِضَعفِهِنَّ ، معَ رقَّةِ عواطفِهِنَّ ، وصفاءِ قلوبِهِنَّ .

الرجل أقوى

أَمَّا الرجالُ : فقدْ وَكَلَهُم إِلىٰ ما أَعطاهُمُ ٱللهُ مِنَ ٱلقوَّةِ والجلادَةِ ، وكم ٱنشقَّتْ بِالوَجْدِ جيوبٌ ، وذابَتْ قلوبٌ ، وسالَتْ نفوسٌ .

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٨٢) .

(٢) ذكرَها الذهبيُّ في « السيرِ » (٩/ ٩٧) مطوَّلةً ، وكذلكَ أبو نُعيم في « الحليةِ » (١/ ٣٢٨ـ٣٢٩) .

(٣) ذكره الحافظ في « فتح الباري » (١٠/ ٥٩٤) .

همَّـام والإمـام عليـه السلام

وقَدْ صَعِقَ همَّامٌ مِنْ خطبةِ أَميرِ المؤمنينَ في وصفِ المتقينَ ، حتَّىٰ فاضَتْ روحُهُ ، فقالَ لهُ قائلٌ : ما بالُكَ يا أَميرَ المؤمنينَ ؟ فقالَ ـ كـرَّمَ اللهُ وجهَـهُ ـ : (إِنَّ لِكُـلٍّ أَجـلٍ وقتـاً لا يعـدوهُ ، وسبباً لا يتجاوزُهُ ، فمهلاً لا تَعُدْ لمثلِها ، فإِنَّما نَفَثَ الشيطانُ علىٰ لسانِكَ)[1] .

السبب في الموت عشقاً

وإِنَّما زجرَهُ عن ذلكَ ؛ لأَنَّهُ لا يلزمُ مِنْ موتِ العاميِّ بوعظِ العالِمِ أَنْ يموتَ ذلكَ العالمُ لوعظِ نفسِهِ ؛ لأَنَّ ٱنفعالَ الأَوَّلِ بضعفِ نفسِهِ ، وضيقِ حَوْصَلَتِهِ . أَشدُّ بكثيرٍ مِنِ ٱنفعالِ العارفِ الذي لا تحرِّكُهُ العواصفُ ، ولا تزعزعُهُ القواصفُ ، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] .

---

(١) ذكره في « نهج البلاغة » (٢٢٧) .

ونذكرُ مقطعاً مِنَ الخطبةِ التي نوَّهَ عَنها الشيخُ المؤلِّفُ فنقولُ : قالَ الإمامُ رَضيَ اللهُ عنه ـ وهوَ يصفُ عبادَ اللهِ المتقينَ ـ :

يعفو عمَّنْ ظَلَمَهُ ، ويعطي مَن حرمهُ ، ويصلُ مَن قطعهُ ، بعيداً فحشُهُ ، ليِّناً قولُهُ ، غائباً منكرُهُ ، حاضراً معروفُهُ ، مقبلاً خيرُهُ ، مُدْبراً شرُّهُ ، في الزَّلازلِ وَقورٌ ، وفي المكارهِ صَبورٌ ، وفي الرخاءِ شَكورٌ ، لا يحيفُ علىٰ مَن يُبْغِضُ ، ولا يأْثمُ فيمن يحبُّ ، يعترفُ بالحقِّ قبلَ أن يُشْهَد عليهِ ، لا يضيعُ ما ٱستُحفِظَ ، ولا ينسىٰ ما ذكرَ ، ولا ينابزُ بالألقابِ ، ولا يضارُّ بالجارِ ، ولا يشمتُ بالمصائِبِ ، ولا يدخلُ في الباطلِ ، ولا يخرجُ مِنَ الحقِّ .

إِنْ صمتَ لَم يغمَّهُ صمتُهُ ، وإِن ضحكَ لَم يَعْلُ صوتُهُ ، وإِنْ بُغِيَ عليهِ صبرَ حتَّىٰ يكونَ اللهُ هوَ الذي ينتقمُ لهُ ، نفسهُ منهُ في عناءٍ ، والناسُ منهُ في راحةٍ ، أَتعبَ نفسَهُ لآخرتِهِ ، وأَراحَ الناسَ مِن نفسهِ ، بُعْدُهُ عمَّن تباعدَ عنهُ زهدٌ ونزاهةٌ ، ودنوُّهُ ممَّن دَنا منهُ لينٌ ورحمةٌ ، ليسَ تباعدُهُ بكبرٍ وعظمةٍ ، ولا دنوُّهُ بمكرٍ وخديعةٍ . فَصَعِقَ همَّامٌ عندها صعقةً كانَت فيها نفسُهُ .

الأكوع: والبادي أظلم

ويُذكرُ: أَنَّ واعظاً يقالُ لَهُ: الأكوعُ ، كانَ يلحقُهُ في ٱلوعظِ حالٌ ، وتُحمَلُ بينَ يديهِ ٱلجنائزُ ، وكانَ لامرأَةٍ شابَّةٍ ولدٌ أَبيضُ السَّريرةِ ، منوَّرُ ٱلقلبِ، فكانتْ تحميهِ عن حضورِ مجلسِهِ، حتَّىٰ ٱنفلتَ عليها ذاتَ مرَّةٍ، فشهدَهُ، فماتَ، فما كانَ منها إلاَّ أَنْ أَمهلَتْهُ، ثُمَّ ٱستقبلَتْهُ في يومِ حفلةٍ، وقالَتْ [مِنَ ٱلمتقارِبِ]:

أَتَهْـدِيْ ٱلأَنَـامَ وَلاَ تَهْتَـدِيْ ... أَلاَ إِنَّ ذَلِـكَ لاَ يَنْفَـعُ

فَيَا حَجَرَ ٱلشَّحْذِ حَتَّىٰ مَتَىٰ ... تَسُنُّ ٱلْحَدِيْدَ وَلاَ تَقْطَعُ

أَمَا تَسْتَحِيْ مِنْ خُشُوْعِ ٱلْقُلُوْ ... بِ وَقَسْوَةِ قَلْبِكَ يَا أَكْوَعُ

فمَا كانَ مِنَ الشَّيخِ إلاَّ أَنْ لبَّىٰ مُطيعاً ، وخرَّ عن كُرْسيِّهِ صريعاً ، فقالتْ : هٰذِهِ بتلكَ ، وٱلبادي أَظلَمُ ، أَو ما يُشبِهُ ذلكَ ؛ فالرِّوايةُ بٱلمعنىٰ ، وٱلعهدُ بٱلقصَّةِ - مِنْ شرحِ ٱلقصيدةِ للعلاَّمةِ ٱبنِ ٱلأَميرِ - بعيدٌ .

موت ابن وهب

وأَخرجَ ٱلحاكمُ : أَنَّ ٱبنَ وهبٍ ماتَ مِنْ سماعِ حديثٍ في ٱلأَهوالِ[1] .

موت النوري

ولمَّا سمعَ النُّوريُّ حادياً يقولُ [في «الرسالة القشيرية» (٣٣٨) مِنَ ٱلكامِلِ] :

ما زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وِدَادِكَ مَنْزِلاً ... تَتَحَيَّـرُ ٱلأَلْبَـابُ دُوْنَ نُـزُوْلِـهِ

.. ٱندهشَ وغابَ ، وسكِرَ وطابَ ، ووقعَ في أَجَمَةِ قَصَبٍ

(١) أخرجه ابن رجب الحنبلي في « التخويف من النار » (١/ ٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٢٤) .

جُذَّ[1] ، وبقيتْ أُصولُهُ مثلَ ٱلمُدىٰ ، أخذَ يجيءُ فيها ويروحُ ، ويكرِّرُ ٱلبيتَ ، والدَّمُ يسيلُ منهُ ، حتَّىٰ ماتَ رحمةُ ٱللهِ عليهِ .

عبد الله بن طاهر والجارية الشاعرة

ويُحكىٰ : أَنَّ عبدَ ٱللهِ بنَ طاهرٍ ٱستعرضَ جاريةً أَعجبَتْهُ ، فٱستنطقَها ، فإِذا هيَ شاعرةٌ ، فقالَ لها : أَجيزي[2] [مِنْ مُخلَّعِ ٱلبسيطِ] :

بَعِيْدَ وَصْلٍ طَوِيْلَ هَجْرٍ   جَعَلْتُهُ فِيْ ٱلْهَوَىٰ مَلاَذَا

فقالتْ مُسرعةً :

فَعَاتَبُوْهُ فَزَادَ شَوْقاً   فَمَاتَ عِشْقاً فَكَانَ مَاذَا

فٱشتراها ، فماتتْ مِنَ ٱلغدِ .

الجاحظ وغريقي العشق

والحوادثُ في مثلِ هٰذا وراءَ ٱلعَدِّ ، ومِنْ أَلطفِها : ما ذكرَهُ أَبو عُثمانَ ٱلجاحظُ ، قالَ : أَرادني ٱلمتوكِّلُ ٱلعبَّاسيُّ لتأديبِ بعضِ ولدِهِ ، فلمَّا رآني . . ٱستبشعَ منظري ، فصرفَني بعشَرَةِ آلافِ درهمٍ ، فركبتُ معَ محمَّدِ بنِ إِبراهيمَ في حَرَّاقتِهِ[3] ، فأَمرَ بٱلغناءِ ، فغنَّتْ عوَّادةٌ ، وقالتْ [مِنَ الخفيفِ] :

كُلَّ يَوْمٍ قَطِيْعَةٌ وَعِتَابُ   يَنْقَضِيْ دَهْرُنَا وَنَحْنُ غِضَابُ
لَيْتَ شِعْرِيْ أَنَا خُصِصْتُ بِهٰذَا   دُوْنَ ذَا ٱلْخَلْقِ أَمْ كَذَا ٱلأَحْبَابُ

---

(1) جُذَّ : قُطِعَ .
(2) الإِجازةُ في الشعرِ : أَنْ يأتيَ شاعرٌ بشطرِ بيتٍ أَو بيتٍ تامٍ فينظِمَ شاعرٌ آخرُ في وزنِهِ ومعناهُ ما يكونُ بهِ تمامُهُ .
(3) الحَرَّاقةُ : ضربٌ مِنَ السُّفنِ ، فيها مرامي نيرانَ .

ثُمَّ غنَّتِ الطُّنبوريَّةُ بإشارتِهِ ، وقالتْ [مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

وَارَحْمَتَا لِلْعَاشِقِيْنَا ... مَا إِنْ أَرَىٰ لَهُمُ مُعِيْنَا

كَمْ يُهْجَرُوْنَ وَيُصْرَمُوْ ... نَ وَيُقْطَعُوْنَ فَيَصْبِرُوْنَا

قالتِ العوَّادةُ : فيصنعونَ ماذا ، فهتكَتِ الطُّنبوريَّةُ السِّتْرَ ، وبرزَتْ كأنَّهَا فلقةُ قمرٍ ، وقالتْ : يصنعونَ هٰكذا ، وألقتْ بنفسِها في الماءِ ، وعلىٰ رأسِ محمَّدٍ غلامٌ لا ينقصُ عنها جَمالاً ، فنظرَ إليها تتدافعُها الأمواجُ ، وقالَ :

أَنْتِ الَّتِيْ أَغْرَقْتِنِيْ ... بَعْدَ القَضَا لَوْ تَعْلَمِيْنَا

وألقىٰ نفسَهُ علىٰ إثْرِها ، فرأيناهُما علىٰ بُعدٍ متعانقينِ ، ثمَّ غاصا ، وكانَ آخرَ العهدِ بهِما ، فانكسَفَ محمَّدٌ ، وهالَهُ الأمرُ ، وعظُمَتْ عليهِ الرَّزيَّةُ ، وقالَ : لتُحدِّثَنِّي بما يُسلِّيني ، أو لأُلحِقنَّكَ بهِما ، فذكرتُ يزيدَ بنَ عبدِ المَلكِ ، وقدْ قعدَ للمظالمِ ، ومرَّتْ عليهِ بينَ القِصصِ رُقعةٌ فيها : إنْ رأىٰ أميرُ المؤمنينَ أنْ يُخرِجَ إليَّ جاريتَهُ (نَعمىٰ) حتَّىٰ تُغنيني ثلاثةَ أصواتٍ . . فعَلَ ، فاغتاظَ ، وأمرَ بقتلِهِ ، ثُمَّ انثنىٰ ، وأمرَ بإدخالِهِ ، فقالَ لهُ : ما حملَكَ ؟ قالَ : الثِّقةُ بحِلمِكَ ، والاتِّكالُ علىٰ عفوكَ ، فأجلسَهُ ، حتَّىٰ خرَجَ النَّاسُ ، فأمرَ بالجاريةِ ، فأُخرِجتْ ، ومعها عُودُها ، فقالَ لها الفتىٰ : غنِّي بهٰذا [مِنْ شعرِ امرىءِ القيسِ في « ديوانهِ » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

لا خير في عشق بلا موت

أَفَاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هَـٰذَا التَّدَلُّلِ ... وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِيْ فَأَجْمِلِي

فغنَّتْهُ ، ثُمَّ قالَ لهُ يزيدُ : اقترحْ ، فقالَ : غنِّي بهٰذا [مِنَ البسيط] :

تَأَلَّقَ البَرْقُ نَجْدِيًّا فَقُلْتُ لَهُ ... يَا أَيُّهَا البَرْقُ إِنِّيْ عَنْكَ مَشْغُوْلُ

فغنَّتْهُ ، فقالَ لهُ يزيدُ : قُلْ ، قالَ : تأمرُ لي برِطلٍ مِنَ ٱلشرابِ ، فما ٱستتمَّ شربَهُ حتَّىٰ قامَ إلىٰ أعلىٰ قُبَّةٍ ليزيدَ ، ورمىٰ بنفسِهِ ، فٱنتثرَ دماغُهُ ، فقالَ يزيدُ : إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، أَوَظَنَّ الأحمقُ أنِّي أُخرِجُ إليهِ جاريَتي ، ثُمَّ أَرُدُّها ، خُذوا يا غلمانُ بيدِها ، وٱحملوها إلىٰ أهْلِهِ ، معَ ما يُعَزِّيهم عنهُ مِنَ ٱلمالِ ، فلمَّا توسَّطتِ ٱلدارَ . . نظرتْ إلىٰ بئرٍ هناكَ ، فجذبتْ يدَها منهُم ، وقالتْ [مِنَ السّريع] :

مَنْ مَاتَ عِشْقاً فَلْيَمُتْ هٰكَذَا لاَ خَيْرَ فِيْ عِشْقٍ بِلاَ مَوْتِ

قالَ أبو عثمانَ [الجاحظ] : فسُرِّيَ عن محمَّدٍ ، وأجزلَ صِلتي ، ولهٰذهِ القصَّةِ تمامٌ يأتي أوَّلَ المجلسِ السابعِ .

أقولُ : وفي هٰذا تصديقٌ للخنساءِ في قولِها [من « ديوانها » ٥٠ مِنَ الوافر] :

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ ٱلْبَاكِيْنَ حَوْلِي عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِيْ

وتكذيبٌ لابنِ الروميِّ في قولِهِ [مِنَ الخفيف] :

لَيْسَ تَأْسُوْ جُرُوْحُ غَيْرِيْ جُرُوْحِيْ مَا بِهِم مَا بِهِمْ وَمَا بِيَ مَا بِيْ

وفي « تزيينِ ٱلأسواقِ »[١] العجبُ العُجابُ مِنْ ذلكَ ، وفي تراجمِ الصوفيَّةِ الكثيرُ الطيِّبُ منهُ .

لا تستعجل ما هو لك

وبقولِ العوَّادةِ ٱلسالفِ ، وهو : (كُلُّ يَوْمٍ قَطِيْعَةٌ وَعِتَابُ) إلىٰ آخرِهِ ، تذكَّرتُ قولَ الأوَّلِ [مِنَ الكامل] :

وَلَقَدْ عَلِمْتَ فَلاَ تَكُنْ مُتَجَنِّياً أَنَّ ٱلصُّدُوْدَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلأَوَّلُ

---

(١) لداود الأنطاكي، متداول.

حَسْبُ ٱلأَحِبَّةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ   رَيْبُ ٱلْمَنُوْنِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

وقولَ سعيدِ بنِ حميدٍ [في « ديوانه » مِنَ الكامل] :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَٱلْبَقَاءُ قَلِيْلُ   وَٱلدَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً وَيَمِيْلُ

وَلَعَلَّ أَيَّامَ ٱلْحَيَاةِ قَصِيْرَةٌ   فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُوْلُ ؟!

وقولَ معنِ بنِ أَوسٍ [في « ديوانه » مِنَ الطويل] :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِيْ وَإِنِّيْ لأَوْجَلُ   عَلَىٰ أَيِّنَا تَغْدُو ٱلْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

وَإِنِّي أَخُوْكَ ٱلدَّائِمُ ٱلْعَهْدِ لَمْ أَحُلْ   أَبَارَاكَ خَصْمٌ أَوْ نَبَا بِكَ مَنْزِلُ ؟

وقولَ الأعرابيِّ [مِنَ الطويل] :

فَأَكْرِمْ أَخَاكَ ٱلدَّهْرَ مَا عِشْتُمَا مَعاً   كَفَىٰ بِٱلْمَمَاتِ فُرْقَةً وَتَنَائِيَا

وقولَ الطُّغرَّائيِّ [مِنَ الطويل] :

رُوَيْدَكُمُ لاَ تَسْبِقُوْا بِقَطِيْعَتِيْ   صُرُوْفَ ٱللَّيَالِيْ إِنَّ فِيْ ٱلدَّهْرِ كَافِيَا

كتاب سليمان بن عبد الملك إلى أخيه

وقولَ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ في كتابِ شفاعةٍ إِلىٰ أخيهِ الوليدِ ، بشأنِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ : فواللهِ يا أَميرَ المؤمنينَ ، ما تدري ما بقائي وبقاؤُكَ ، ولا متَىٰ يُفرِّقُ الموتُ بيني وبينَكَ ، فإنِ ٱستطاعَ أَميرُ المؤمنينَ ـ أَدامَ اللهُ سرورَهُ ـ أَنْ لا يأْتيَ علينا أَجلُ الوفاةِ إِلاَّ وهوَ لي واصلٌ ، ولحقِّي مُؤَدٍّ ، وعن مَساءَتِي نازعٌ . فليفعلْ ، إِلىٰ آخرِ الكتابِ .

وقولَ الناظمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/١٤٨ مِنَ الطويل] :

ذَرِ ٱلنَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا   فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا ٱلْعُمْرُ[1]

---

(١) بينِها : بُعدِها . جارانِ : الروحُ والجَسَدُ .

وقولَهُ [في « العُكبَريّ » ١٤٩/٣ مِنَ الخفيف] :

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِيْ هَـٰذِهِ ٱلدُّنْـ ـيَـا فَـإِنَّ ٱلْمُقَـامَ فِيْهَـا قَلِيْـلُ

إذ لا تشرب تظماً

وقالَ بشَّارٌ شيخُ ٱلمتأخِّرينَ [في « ديوانه » ٣٠٩/١ مِنَ الطويل] :

إِذَا كُنْتَ فِيْ كُلِّ ٱلأُمُورِ مُعَاتِبَاً صَدِيْقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لاَ تُعَاتِبُهْ

فَعِشْ وَاحِداً أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَـارِفُ ذَنْـبٍ مَـرَّةً وَمُجَـانِبُـهْ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَىٰ ٱلْقَذَىٰ ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُوْ مَشَارِبُهْ ؟

وقالَ الرَّضيُّ [في « ديوانه » ٧٦٩ـ٧٧٠ مِنَ الطويل] :

وَكَمْ صَاحِبٍ كَٱلرُّمْحِ زَاغَتْ كُعُوْبُهُ أَبَىٰ بَعْدَ طُوْلِ ٱلْغَمْزِ أَنْ يَتَقَوَّمَا[1]

كَعُضْوٍ رَمَتْ فِيْهِ ٱللَّيَالِيْ بِفَادِحٍ وَمَنْ حَمَلَ ٱلْعُضْوَ ٱلأَلِيْمَ . . تَأَلَّمَا

صَبَرْتُ عَلَىٰ إِيْلاَمِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ وَمَنْ لاَمَ مَنْ لاَ يَرْعَوِيْ كَانَ ٱلْوَمَا

أَرَاكَ عَلَىٰ قَلْبِيْ وَإِنْ كُنْتَ عَاصِيَاً أَعَزَّ مِنَ ٱلْقَلْبِ ٱلْمُطِيْعِ وَأَكْرَمَا

حَمَلْتُكَ حَمْلَ ٱلْعَيْنِ لَجَّ بِهَا ٱلْقَذَىٰ فَلاَ تَنْجَلِيْ يَوْماً وَلاَ تَبْلُغُ ٱلْعَمَىٰ

إِذَا ٱلْعُضْوُ لَمْ يُؤْلِمْكَ إِلاَّ قَطَعْتَهُ عَلَىٰ مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْماً وَلاَ دَمَا

والكلامُ في الاستصلاحِ يَطلُبُ تفصيلاً مُقنِعاً نوفيهِ حقَّهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ في أَصلحِ المواطنِ لهُ .

صعقة أمير المؤمنين عمر لسماع القرآن

ولئِنْ قَلَّ بالوجدِ الموتُ في الصدرِ الأَوَّلِ . . فكثيرٌ مَنْ يَصعقُ لسماعِ القرآنِ ؛ منهُم عمرُ بنُ الخطَّابِ ، فلقدْ يَمرضُ مِنَ الآيةِ ، حتَّىٰ يُعادَ .

---

(١) الغَمْزُ : العصر باليدِ ؛ أي : التليين .

المحسن بن علوي ورقة قلبه

ولقدْ كانَ جَدِّي المُحسنُ بنُ علويٍّ مِنْ أَرقِّ الناسِ عاطفةً ، وأَسلمِهم ذوقاً ، وإنْ كانَ لَيقومُ بالآيةِ مِنَ القرآنِ يُكرِّرُها ، حتَّىٰ يصبحَ بينَ القلبِ الواجفِ ، والدمعِ الذارفِ ، وسمعَهُ الفاضلُ الأَريبُ السيِّدُ شيخُ بنُ محمَّدٍ الحبشيُّ ـ كما أَخبرني ـ يترنَّحُ ليلةً بقولِ الحدَّادِ [في « ديوانه » ٤٧٤ مِنَ الكامل] :

وَلَّىٰ ٱلزَّمَانُ وَوَلَّتِ ٱلأَيَّامُ فَعَلَىٰ ٱلْمَنَازِلِ وَٱلنَّزِيلِ سَلاَمُ

ويردِّدُهُ إلىٰ أَنْ كادَ يُغشىٰ عليهِ ، وبينا هوَ سائرٌ في بعضِ الأَزقَّةِ ، إذ سمعَ منشداً ينشدُ قصيدةَ القطبِ الحدَّادِ ، المستهَلَّةَ بقولِهِ [في « ديوانه » مِنَ الطويل] :

تَفِيضُ عُيُوْنِيْ بِٱلدُّمُوْعِ ٱلسَّوَاكِبِ وَمَا لِيَ لاَ أَبْكِيْ عَلَىٰ خَيْرِ ذَاهِبِ

فألقىٰ عصاهُ تحتَ جبهتِهِ ، ولم يزلْ يُذري الدموعَ ، حتَّىٰ سقطَ مغشيّاً عليهِ .

مواراة عبد الله بن عمر

وحدَّثني الفاضلُ الوجيهُ السيِّدُ حسنُ بنُ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ بلفقيهِ ، عمَّنْ حضرَ مواراةَ سيِّدِنا عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ يحيىٰ ، وكانَ يوماً مشهوداً ، لم يتأخَّرْ عنهُ أَحدٌ مِن رجالاتِ (حضرموتَ) ، وهيَ إذْ ذاكَ بهِم ملآنةٌ ، قالَ : إنَّهُم لَمَّا انصرفوا مِنْ دفنِهِ . اجتمعوا في بيتِهِ ، فأنشدَهُم بعضُ الحُداةِ بقصيدةِ الحدَّادِ المشارِ إليها ، فلا تَسَلْ عمَّا حَصَلَ مِنَ النشيجِ ، وارتفعَ مِنَ الضجيجِ ، وسالَ مِنَ العَبَراتِ ، وتصاعدَ مِنَ الزفراتِ ، حتَّىٰ لقدْ كادتْ تُحملُ الجنائزُ .

عبيد الله بن محسن

وكذلكَ كانَ والدي المغفورُ لهُ عبيدُ اللهِ بنُ محسنٍ صحيحَ الشوقِ ، سليمَ الذوقِ ، غزيرَ الدمعةِ ، طويلَ الفكرةِ ، كلُّ آيةٍ

تهزُّهُ ، وكلُّ صادحةٍ تُطرِبُهُ ، وكثيراً ما يمرُّ في مجالسِهِ مرورَ السهمِ ، ولا سيَّما في إشاراتِ القومِ ، فأَتمثَّلُ لهُ بالبيتِ يصيبُ محزَّهُ ، فيَذوبُ وَجْداً ، ويأخذُهُ حالٌ شديدٌ جِدّاً .

الحداد وقوله: ولى الزمان

وعلىٰ ذكرِ قولِ القطبِ الحدَّادِ : (وَلَّىٰ الزَّمَانُ) إلىٰ آخرِهِ . . . أَقولُ : إِنَّهُ بيتٌ يكادُ يضيءُ مِنْ غيرِ زيتٍ ، ذكرتُ بهِ مطلعَ قصيدتينِ لفحلينِ مِنْ أُمراءِ القريضِ(١) :

أَحدُهُما : أَبو نُوَاسٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٢١ مِنَ الكامل] :

يَا دَارُ مَا فَعَلَتْ بِكِ ٱلأَيَّامُ ؟! لَـمْ تُبْـقِ فيـكِ بَشَـاشَـةً تُسْتَـامُ

والثاني : هوَ الباروديُّ في قولِهِ [في « ديوانه » ٥٣٧ مِنَ الكامل] :

ذَهَـبَ ٱلصِّبَـا وَتَـوَلَّـتِ ٱلأَيَّـامُ فَعَلَىٰ ٱلصِّبَا وَعَلَىٰ ٱلزَّمَانِ سَلاَمُ

ولنْ تنظرَ فيهما مليّاً ، حتَّىٰ يتبيَّنَ لكَ الفرقُ جليّاً ؛ إِذْ بيتُ الحدَّادِ أَجملُ شارةً ، وأَعذبُ إِشارةً ، وأَصفىٰ زُجاجةً ، وأَنصعُ دِيباجةً ، وأَرقُّ طبعاً ، وأَعذبُ وضعاً ، أَوَلا ترىٰ عَروضَهُ آستوفىٰ مدحَ الماضي ، وذمَّ الحاضرِ ، بما لا تضبطُهُ العبارةُ ، ولا يدخُلُ تحتَ الحدِّ ؟! وإِنَّما هوَ مِنْ جنسِ قولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٨] .

وقولِ الشاعرِ [مِنَ الرَّجَز] :

يَحْمِلْـنَ كُـلَّ سُـؤْدَدٍ وَفَخْـرِ يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِيْ وَمَا لاَ نَدْرِي

(١) القريضُ : الشِّعْر .

وذاكَ ما عجزَ عن أَقلِّهِ حكيمُ الشعراءِ ، صاحبُ (المعرَّةِ) ، بشهادةِ قولِهِ [مِنَ الخفيف] :

كَمْ أَرَدْنَا ذَاكَ ٱلزَّمَانَ بِمَدْحٍ فَشُغِلْنَا بِذَمِّ هَـٰذَا ٱلزَّمَانِ

ولٰكنَّ الحدَّادَ لم يشغلْهُ هٰذا عنِ ٱلآخرِ ، بلْ أَصابَ الغَرَضينِ بسهمٍ واحدٍ ، وما زالتِ ٱلأُدباءُ رافعةَ العقيرةِ بٱلثناءِ علىٰ قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/١٦٦ مِنَ الكامل] :

لاَ أَنْتِ أَنْتِ وَلاَ ٱلدِّيَارُ دِيَارُ خَفَّ ٱلْهَوَىٰ وَتَقَضَّتِ ٱلأَوْطَارُ

وإِنَّما هوَ بعضُ معنىٰ قولِ الحدَّادِ : (وَلَّىٰ ٱلزَّمَانُ وَوَلَّتِ ٱلأَيَّامُ) ؛ لأَنَّهُ إِذا ولَّىٰ ٱلزمانُ الطيِّبُ بعمومِهِ ، ووَلَّتْ أَيَّامُ الأَحبابِ بخصوصِها ـ المرادُ كلُّ هٰذا مِنْ شطرِ البيتِ . . فقدِ ٱنقضىٰ ٱلهوىٰ ، وخفَّتِ ٱلأَوطارُ ، ولم يبقَ ما يقتضي لُزومَ الديارِ ، وموافقةَ الآثارِ ؛ إِذْ لا هيَ ديارُ الأَحبابِ ، ولا هُم سكَّانُها ، فالميزانُ راجحٌ ، والفضلُ في بيت الحدَّادِ واضحٌ ؛ إِذْ ليسَ في بيتِ الحَكَميِّ[1] سوىٰ دارٍ واحدٍ ، يسأَلُهُ سؤالاً تقريريَّاً ، ينحصِرُ معناهُ في أَنَّ ٱلأَيَّامَ مَحَتْ بشاشتَهُ بأَسرِها ، إِنْ تأَوَّلنا بأَنَّهُ مِنْ نفيِ الشيءِ بإِيجابِهِ ، أَو إِلاَّ ٱلنزرَ الذي لا يُستامُ منها ، إِنْ لم نجعلْهُ منهُ ، وهوَ معنىً ضئيلٌ ، إِلىٰ ما لا يخفىٰ مِنِ ٱستثقالِ لفظةِ : (تُستامُ) ، وعدمِ الحاجةِ إِليها .

وأَمَّا بيتُ ٱلباروديِّ : فصورةٌ مصغَّرةٌ مِنْ بيتِ ٱلحدَّادِ ، وكأَنَّما هوَ مأْخوذٌ منهُ معَ التَّقصيرِ ، فهوَ دونَهُ بتفاوتٍ كبيرٍ في ٱلمعنىٰ ؛ إِذِ ٱلباروديُّ لا يَحِنُّ إِلاَّ إِلىٰ نزواتِ الصِّبا وخطواتِهِ ، بقرينةِ ذِكرِهِ لهُ في

---

(١) أَي : أَبي نواسٍ الشاعر .

ٱلقسمينِ ، وأَتفِهْ بذلكَ مِنْ مَبكيٍّ عليهِ في جانبِ بيتِ ٱلحدَّادِ ، ثُمَّ هل تجدُ لأَحدِ ٱلبيتينِ شيئاً ممَّا لبيتِ ٱلحدَّادِ ـ فوقَ ٱتِّساعِ ٱلمعنىٰ ، وبُعدِ ٱلمرمىٰ ـ مِنْ هيبةِ ٱلنَّسجِ ، وروعةِ ٱللَّفظِ ، ومائيَّةِ ٱلأُسلوبِ ، فإِنَّهُ يكادُ يَقطُرُ ماءً ، وينصَعُ رُواءً[1] ، ويَستحلبُ ٱلدَّمعَ ، ويَدخُلُ علىٰ ٱلقلبِ قبلَ ٱلسَّمعِ ، إِلىٰ بُعدٍ عنِ ٱلتَّعمُّلِ ، وبراءَةٍ عنِ ٱلتَّكلُّفِ ، وتناسُبٍ ظاهرٍ بينَ ٱلأَيَّامِ والزَّمانِ ، وٱلمنازلِ والنَّزيلِ ، فهٰذا هوَ ٱلسِّحرُ ٱلحلالُ ، وٱلعذبُ ٱلزُّلالُ ، وٱلمَطمعُ ٱلمؤنِسُ ، والسَّهلُ ٱلممتنِعُ ، ثُمَّ إِنَّ ٱلبارودِيَّ لَمْ يأخُذْ بيتَهُ إِلاَّ مِنْ قولِ ٱبنِ ٱلمعتزِّ [في « ديوانِهِ » مِنَ ٱلخفيفِ] :

أَخَـذَتْ مِـنْ شَبَـابِـيَ ٱلأَيَّـامُ وَتَـوَلَّـىٰ ٱلصِّبَـا عَلَيْـهِ ٱلسَّـلاَمُ

ومعَ ذلكَ ، فلَمْ يُحسِنِ ٱلاتِّباعَ ، وبيتُ ٱلحدَّادِ هوَ ٱلرَّاجحُ علىٰ ٱلجميعِ ، ولا نِزاعَ .

حديث الشوق في الآخرين

وإِذِ ٱنتهىٰ بنا حديثُ ٱلشَّوقِ إِلىٰ هُنا . . فلا نُدحَةَ لنا عن ذِكْرِ أَمثلةٍ سمعتُ بها في ٱلأَخيرِ ؛ لنُلحِقَ ٱلتَّالِدَ بِالطَّارِفِ :

يا قرة العين

منها : أَنَّ بعضَ ٱلأَئمَّةِ زوَّجَ ٱبنَهُ مِنِ ٱبنةِ أَخيهِ ، فٱنتسجَ بينَهُما مِنْ صادقِ ٱلحبِّ ، ما لا يتَّسعُ للمزيدِ ، غيرَ أَنَّ ٱلإِمامَ سيَّرَ ٱبنَهُ بإِثرِ ذلكَ إِلىٰ موضعِ عملِهِ ، وبقيتِ ٱلمرأةُ بقاعدةِ ٱلمَلِكِ ، فكانَ يُطالِعُها بأَشواقِهِ ، وتجيبُهُ بمثلِ ذلكَ ، وكانَ مِنْ عادةِ ٱلإِمامِ أَنْ يَقيلَ يومَ ٱلجُمُعةِ بمنزلِ ولدِهِ ، فعثرَ منهُ مرَّةً علىٰ قصيدةٍ ، يشتكي لزوجِهِ

---

(١) الرُّواءُ : المنظرُ الحسنُ .

ٱلبُعدَ ، ويتوجَّعُ مِنَ ٱلفِراقِ ، ويصفُ ما عندَهُ مِنَ ٱلاحتراقِ ، يقولُ فيها [مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَا قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ يَا نُوْرَ ٱلْبَصِيْرَةِ يَا ... شَقِيْقَةَ ٱلرُّوْحِ يَا مَنْ لاَ أُسَمِّيْهَا

فرَقَّ لَهُ أَبوهُ ، ورسمَ بوصولِهِ ، ولـٰكنْ بعدَ ما سبقَ السَّيفُ ٱلعَذَلَ ، ولَمْ يُبقِ ٱلحبُّ علىٰ الرَّمقِ ، فلمَّا كانَ ليلةَ وصولِهِ . . ٱشتدَّ الشَّوقُ ، فطارتِ ٱلروحُ إِلىٰ فوقٍ ـ وللهِ درُّ الَّذي يقولُ [مِنَ ٱلوافرِ] :

ابرح الشوق

وَأَبْرَحُ مَا يَكُوْنُ ٱلشَّوْقُ يَوْماً ... إِذَا دَنَتِ ٱلدِّيَارُ مِنَ ٱلدِّيَارِ

وقالَ التِّهاميُّ [في « ديوانِهِ » ٢٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

بَكَيْتُ فَحَنَّتْ نَاقَتِي فَأَجَابَهَا ... صَهِيْلُ جَوَادِيْ حِيْنَ لاَحَتْ دِيَارُهَا

و(كانَ ﷺ إذا أَبصرَ درجاتِ ٱلمدينةِ . . حرَّكَ دابَّتَهُ مِنْ حُبِّها)[1] ، فهوَ أَصلُ ٱلمعنىٰ في ذلكَ ـ ولم يدخُلِ ٱلأَميرُ بلَدَهُ إِلاَّ وروحُهُ خامدةٌ ، وجُثَّتُهُ هامدةٌ ، ولمَّا ٱتَّصلَ بٱلمرأَةِ نعيُهُ . . شخصَ بصرُها وبرقَ ، وٱصفرَّ جبينُها وعرقَ ، وكانتِ ٱلقاضيةُ .

الشيخ حسين زايد وصنَّاعة القهوة

ومنها : أَنَّ الشَّيخَ حُسينَ زايدِ الشَّاعرَ ، ٱليافعيَّ ، ٱلمشهورَ ، ٱلقريبَ ٱلعهدِ بـ(حضرموتَ) . . كانَتْ لَهُ ٱمرأَةٌ مَلَكَتْ عقلَهُ ، وغلَبَتْ هواهُ ، وملأَتْ رِضاهُ ، فبينَا هوَ معها يوماً علىٰ قهوةٍ . . قالَ : أَتمنَّىٰ عليكِ أُمنيَّةً ، أُحبُّ أَنْ توافقيني عليها ، قالتْ : نَعَمْ ، قالَ : كائنةً ما كانَتْ ؟ قالتْ : نَعَمْ ، وأَخذَ عهدَها بذلكَ ، فقالَ : ٱصنعي ٱلقهوةَ عُريانةً ، فٱستقالَتْهُ ، فلَمْ يَقبلْ ، ففعلَتْ ، ولمَّا أَدَّتِ

---

(١) أورده الحافظ في « فتح الباري » (٣/ ٦٣٠) .

ٱلوظيفةَ . . قالَتْ : وأَنا أَتمنَّىٰ عليكَ أَمراً ، أَفتُعطِينيهِ ؟ قالَ : نَعَمْ . قالَتْ : كائناً ما كانَ ؟ قالَ : نَعَمْ ، وأَخذتْ عليهِ ميثاقاً غليظاً ، قالَتْ : تُطلِّقُني بالثَّلاثِ في ٱلحالِ ، ولَمَّا فشِلَ في ٱلمراجعةِ ، ولَجَّتْ في التَّصميمِ . . لَمْ يَسعْهُ إلاَّ ٱلوفاءُ بما ٱقتطعَهُ علىٰ نفسِهِ ، وإنْ كانَ فيهِ حتفُهُ ، ثُمَّ خرجَ هائِماً علىٰ وجهِهِ ، وأَشارَ علىٰ أَخيهِ أَنْ يتزوَّجَها إِذا حلَّت ، فٱمتثلَ ، وبعقبِ ذَلكَ جاءَ لتهنئةِ أَخيهِ ، فدخلَتْ هيَ ، وأَلقتْ جانبَ السِّتْرِ ، فأَنشدَها أَبياتاً مِنْ شعرِهِ ٱلحُمينيِّ ، يزعُمُ فيهِ : أَنَّهُ رآها وإِيَّاهُ مجتمعَيْنِ علىٰ شربِ قهوةٍ في فراشٍ واحدٍ ، فأَجابتهُ مِنْ بحرِهِ وقافيتِهِ بما يقطعُ أَمَلَهُ ، ويخيِّبُ رجاءَهُ ، وكانَ ذلكَ في حينِ ذهابِ أَخيهِ لبعضِ شغلِهِ ، ومُذْ زوَّدتْهُ ٱليأسَ ٱلحاضرَ . . ٱستولاَهُ الضَّعفُ ، وزارَهُ السَّقامُ ، ولزمتْهُ ٱلعِلَلُ ، وٱشتملَ عليهِ ٱلفراشُ ، ولمَّا ٱستعرَ بهِ ٱلأَلمُ ، وٱستحرَّ بهِ ٱلوجْدُ ، ونهكَهُ ٱلمرضُ . . طلبَ مِنْ أَخيهِ وصولَ ٱلمرأَةِ ؛ ليستحلَّها ، ويطلبَ ٱلعفوَ منها ، ورُبَّما خطرَ ببالِهِ ما خطرَ ببالِ مجنونِ عامرٍ في قولِهِ [مِنْ « ديوانِهِ » ٢٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ شَهِدَتْنِيْ حِيْنَ تَأْتِيْ مَنِيَّتِي ... جَلاَ سَكَرَاتِ ٱلْمَوْتِ عَنِّيْ ٱبْتِسَامُهَا

أَو قولِ ٱلأَعْشىٰ [في « ديوانِهِ » ١٥٢ مِنَ السَّريعِ] :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَىٰ نَحْرِهَا ... عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَىٰ قَابِرِ

فَأَشارَ عليها أَخوهُ بالذَّهابِ ، فٱمتنعتْ ، وقالَت لَهُ : أَولىٰ لكَ أَنْ لاَ تفعلْ ، فأَلَحَّ عليها ، وبمجرَّدِ دخولِها علىٰ حُسينٍ . . ٱزدهرتْ عيناهُ ، كأَنَّهُما سِراجانِ ، وٱستأْذنَها أَنْ يضعَ رأسَهُ علىٰ فخِذِها ،

فَأَذِنَتْ ، ولِحينِ ما وضعَهُ فاضتْ نفسُهُ ، ولم ينفعْهُ ما سبقَ عنِ ٱلأعشىٰ والمجنونِ ، بلْ كانَ ٱلأمرُ كما قالَ غيرُهُما [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا رَأَتْنِيَ فِيْ ٱلسِّيَاقِ تَعَطَّفَتْ　　　عَلَيَّ وَعِنْدِيْ مِنْ تَعَطُّفِهَا شُغُلُ
أَتَتْ وَحِيَاضُ ٱلْمَوْتِ بَيْنِيْ وَبَيْنَهَا　　　وَمَنَّتْ بِوَصْلٍ حِيْنَ لاَ يَنْفَعُ ٱلْوَصْلُ

وقالَ جريرٌ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٦١ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا رَجَا ٱلظَّمْآنُ وِرْدَ شَرِيْعَةٍ　　　ضَرَبْنَ حِيَالَ ٱلْمَوْتِ دُوْنَ ٱلشَّرَائِعِ

ثُمَّ حرَّكوها ، فإذا هيَ يابسةٌ .

ربما قتل الشيخ ابن زامل في هذا الطريق

وٱختلفتِ ٱلروايةُ عَنِ ٱلشيخِ عليِّ بنِ زاملٍ باجَرِيٍّ : فقدْ ذُكِرَ موتُهُ وموتُ محبوبتِهِ في تلكَ السبيلِ . والأُخرىٰ : أَنَّ العوامرَ قتلوهُ ، ولمَّا لُفَّ في مِلحفتِهِ . . أَصابتْها شرارةٌ ، فٱشتعلتْ ناراً ، وٱحترقَ ، ومِنَ ٱلقصَّةِ تَعرفُ ما كانَ عليهِ القومُ مِنَ ٱلشهامةِ ، وكرمِ الطباعِ .

عاشقة ابن عمها كيف تموت

وبها ذكرتُ ما رويَ عن سعيدِ بنِ عبدِ اللهِ : أَنَّ فتاةً مِنَ ٱلعربِ عَلِقَتْ بٱبنِ عمٍّ لها عاقلٍ ، أَديبٍ ، فجعلتْ تُكثِرُ الاختلافَ عليهِ ، حَتَّىٰ خَلا لها وجهُهُ ، فتعرَّضتَ لهُ ، فصرفَها ، فتغيَّرَ حالُها ، وٱعتلَّتْ ، ولم يزلْ بها المرضُ حتَّىٰ سقطَتْ علىٰ الفراشِ ، فأَخبرتهُ أُمُّهُ بِشأْنِها ، فقالَ : عُوديها ، وقُولي لها : ما شأْنُكِ ؟ فقالتْ : وَجَعٌ في فؤادي ، هوَ أَصلُ العلَّةِ ، قالتْ : فإِنَّ ٱبني يسأَلُكِ عنها ، فتنفَّستْ ، وقالتْ [مِنَ الطويلِ] :

يُسَائِلُنِيْ عَنْ عِلَّتِيْ وَهْوَ عِلَّتِيْ　　　عَجِيْبٌ مِنَ ٱلأَنْبَاءِ جَاءَ بِهِ ٱلدَّهْرُ

فأَخبرتهُ بحالِها ومقالِها ، فقالَ : أَتحبُّ أَنْ أَصيرَ إِليها ، أَو تصيرَ

إِليَّ ، فعرضتْ عليها ذلكَ أُمُّهُ ، فقالتْ [مِنَ الطويل] :

وَيُبْعِـدُنِـيْ عَـنْ قُـرْبِـهِ وَلِقَـائِـهِ فَلَمَّا أَذَابَ ٱلْجِسْمَ مِنِّيْ تَعَطَّفَا
فَلَسْتُ بِآتٍ مَوْضِعاً فِيْهِ قَاتِلِيْ بِحَسْبِيْ سِقَاماً أَنْ أَمُوْتَ تَلَهُّفَا

ولمْ تزلْ لِما بها حتَّىٰ ماتتْ .

يخرج روحه من نفسه ليعطيها لصديقه

ومنها : ما بلغني أَنَّ ٱثنينِ مِنَ ٱلحُموم[1] ، كانَ بينَهُما وِدٌّ وإِخاءٌ ، فزارَ أَحدُهُما ٱلآخرَ مرَّةً علىٰ بُعدِ الدارِ ، وشَحْطِ المزارِ ، وعليهِ آثارُ الضنىٰ ، فسألَهُ عمَّا بهِ فكتمَ ، حتَّىٰ أَلحَّ عليهِ ، فقالَ : إِنِّي ٱستعرضتُ النساءَ في قَدمتي ٱلأُولىٰ عليكَ ، فٱفتتنتُ بواحدةٍ منهنَّ ، صيَّرني هواها إِلىٰ ما رأَيتَ ، قالَ : هلْ تعرفُها لو رأَيتَها ؟ قالَ : نَعَمْ ، فمرَّ بهِ علىٰ ٱلنساءِ ، فأَشارَ إِليها ، فقالَ لهُ : طِبْ نفساً عنها ، وقَرَّ عيناً بزواجِها ، ولم يزلْ يُعلِّلُهُ ، ويستمهِلُهُ ، حتَّىٰ أَعرسَ لهُ بها ، وزفَّها إِليهِ ، ولمَّا ٱحتملَها إِلىٰ قومِهِ . . أَخبرتْهُ أَنَّها كانتْ زوجةَ صاحِبِهِ ، وأَنَّهُ كانَ مُحبّاً لها ، ولم يطلِّقها إِلاَّ إِيثاراً لهواهُ ، فسُقِطَ في يدِهِ[2] ، وأَعظمَ ٱلأَمرَ ، وشاءَ أَنْ يطلِّقها ، لولا أَنَّها ٱشتملَتْ منهُ علىٰ ولدٍ ، وأَيقنَ بالهلاكِ إِنْ هوَ فارقَها ، ثُمَّ زارَ صاحبَهُ بإِثرِ ذلكَ ، فأَلفاهُ رهينَ ٱلفراشِ ، فسأَلَهُ عَن علَّتِهِ ، وهلْ لها مِن دواءٍ ؟! فقالَ : لقدِ ٱستوصفتُ الأَطباءَ مِنْ أَهلِ باديتِنا ، وكلُّهم أَشارَ عليَّ بما لا يمكنُ وجودُهُ ، قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : دمُ طفلٍ يكونُ وحيدَ أَبويهِ يذبحانِهِ بأَيديهما ، فلمَّا رجعَ إِلىٰ ٱمرأَتِهِ . . قالَ لها : قدْ

(١) قبيلةٌ مِنْ قبائلِ (حضرموتَ) .
(٢) سُقِطَ في يدِهِ : ندمَ .

علمتِ ما أثقلنِي بهِ صاحبي مِنَ ٱلمِنَّةِ ، وأقدرني ٱللهُ علىٰ مكافأتِهِ ، وشرحَ لها الحديثَ ، فذهبا بالولدِ ، ولمَّا قابلا الرجلَ . . ذبحاهُ ، وأفرغا عليهِ دمَهُ ، كما وصفَ لهُ ٱلأطباءُ في العلاجِ ، فتماثلَ ، ثُمَّ برأ .

هٰذا ما حدَّثني بهِ جماعةٌ مِنَ ٱلعوامرِ والحمومِ ، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الحالِ . ولا شكَّ أنَّهُ مِنَ ٱلنكارةِ والأشنوعةِ والفظاعةِ بالدرجةِ الفاحشةِ ، ولٰكنْ للوفاءِ هِزَّةٌ مِنْ حيثُ كانَ ، فلا حرجَ أنْ أُعجبنا بهِ مِنْ هٰذهِ الجهةِ ، كما قرَّرناهُ عندَ ذكرِ مقتلِ أبي جهلِ بنِ هشامٍ ، مِنْ كتابِنا : « بلابلُ التغريدِ » .

وشبيهٌ بهٰذهِ مِنْ ناحيةٍ : ما رأيتُهُ في بعضِ الكتبِ : أنَّ ملكاً ظهرَ فيهِ خُرَّاجٌ أعيىٰ ٱلأطباءَ علاجُهُ ، حتَّىٰ جاءَهُ أحدُ النصَّابينَ منهُم ، فقالَ : لا يفيدُ فيهِ إلاَّ دمُ صبيٍّ بلغَ العاشرةَ ، يذبحُهُ أبواهُ بينَ يديكَ ، بحيثُ يقعُ دمُهُ علىٰ ٱلخُرَّاجِ ، واتَّفقَ أنَّ رجلاً كلَّما بلغَ أحدُ أبنائِهِ العاشرةَ . . هلكَ ، وكانَ لهُ ابنٌ علىٰ رأسِها ، فلمَّا سمعَ بما جعلَهُ الملكُ مِنَ ٱلمالَ الجزيلِ لِمَنْ يبذُلُ ولدَهُ في هٰذي ٱلسبيلِ . . قالَ لامرأتِهِ : قدْ علمتِ مِنَ ٱلعادةِ التي لا تتخلَّفُ أنَّ هٰذا ٱلولدَ لا بُدَّ أنْ يموتَ عمَّا قليلٍ ، فلأنْ نربحَ بهِ هٰذهِ الثروةَ الضخمةَ . . خيرٌ لنا مِنْ أنْ يذهبَ ضياعاً ، فوافقتهُ ، وتقدَّما بهِ إلىٰ الملكِ ، ولمَّا اعتزما ذبحَهُ بينَ يديهِ . . ضحِكَ الصبيُّ ، فقالَ لهُ المَلِكُ : ممَّ تضحَكُ علىٰ ما أنتَ فيهِ ؟ فقالَ : إنَّ أحنَّ الناسِ علىٰ ٱلصبيِّ أبوهُ وأُمُّهُ وسلطانُهُ ، وإذا كانَ الثلاثةُ يرتكبونَ منِّي هٰذا ٱلأمرَ الذي تقشعرُّ منهُ الأبدانُ . . فكيفَ يرحمُهُم جبَّارُ ٱلسماءِ ؟! فارتاعَ الملكُ لقولِهِ ، وانفجرَ جرحُهُ ، وأمرَ بالكفِّ عنهُ ، ودفَعَ لهُمُ المالَ ، وعاشَ

هل انت تذبح ابنك لتشفي خراج الملك؟!!

الولدُ ، وعوفيَ الملكُ ، والعهدةُ علىٰ الراوي .

أرى جسداً عليلاً وعينين صحيحتين

ويتَّصلُ بحديثِ الحُموميِّ : ما ذكرَهُ عبدُ الملكِ بنُ عُميرٍ ، قالَ : كانَ أخوانِ في ثقيفٍ مِنْ بني كُنَّةَ ، بينَهُما مِنَ ٱلوُدِّ ما لا يعلمُهُ إلاَّ ٱللهُ ، كلٌّ منهُما يرىٰ ٱلآخرَ عِدْلَ نفسِهِ ، فٱتَّفقَ أنْ سافرَ الأكبرُ ، وٱعتمدَ علىٰ ٱلأصغرِ في حفظِ تركتِهِ ، وقضاءِ حاجةِ أهلِهِ ، فبينا هوَ في دارِ أخيهِ . . إذ مرَّتْ زوجُهُ ـ وكانتْ مِنْ أجملِ البشرِ ـ فوقعَ في قلبِهِ حبُّها ، وجعلَ لونُهُ يتغيَّرُ ، وجسمُهُ يذوبُ ، حتَّىٰ قدِمَ أخوهُ ، فسألَهُ عن حالِهِ ، فقالَ : لا شيءَ ، فدعا لهُ الأطباءَ ، فعَيَوا بأمرِهِ ، ما سِوىٰ الحارثِ بنِ كَلَدَةَ ؛ فإنَّهُ قالَ : أرىٰ عينينِ صحيحتينِ ، وما أرىٰ ما بهِ إلاَّ مِنَ ٱلعشقِ ، وسأسقيهِ شراباً ، وسَيبِينُ إنْ كانَ عاشقاً ، فجعلَ يسقيهِ ، فلمَّا أخذَهُ الشرابُ . . ٱهتاجَ ، وٱستهلَّ بأبياتٍ تدُلُّ علىٰ صدقِ ما تفرَّسَهُ الحارثُ ، غيرَ أنَّهُ أجملَ ، ولم يعيِّنْ ، فقالَ لهُ الأخُ : أنتَ طبيبُ العربِ ، فما الحيلةُ في التعيينِ ، حتَّىٰ نقضيَ غرضَهُ ؟ قالَ : سَأُعيدُ عليهِ الشرابَ ، حتَّىٰ يُسَمِّيَ ، فلمْ يزلْ يكرِّرُهُ عليهِ ، حتَّىٰ سمَّىٰ المرأةَ ، فطلَّقَها أخوهُ ليتزوَّجَها ، فقالَ المريضُ : عليَّ كذا وكذا إنْ تزوَّجتُها ، ولم يزلْ حتَّىٰ قضىٰ قتيلَ الغرامِ[1] .

المتنبي والرمادي

وخاتمةُ المجلسِ : أنَّ لبيتِ الناظمِ الذي نحنُ بسبيلِهِ . . قصَّةً **حاصلُها** : أنَّهُ لمَّا سمعَ بقولِ الرماديِّ يمدحُ أبا عليٍّ القاليَّ [في «ديوانه» ١١١ مِنَ الكامل] :

فِيْ أَيِّ جَارِحَةٍ أَصُوْنُ مُعَذِّبِيْ ... سَلِمَتْ عَنِ ٱلتَّعْذِيْبِ وَٱلتَّنْكِيْلِ

---

(١) « المستقصىٰ في أمثال العرب » (١ / ٣٩) .

.. قالَ : إنْ سلمَ منْ داءِ الحَلاَقِ[1] .. فليجعلْهُ في ٱستِهِ .
فٱنتهتْ مقالتُهُ للرماديِّ ، وكانَ قد سمعَ بقولِهِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَفَىٰ بِجِسْمِيْ نُحُوْلاً أَنَّنِي رَجُلٌ [لَوْلاَ مُخَاطَبَتِيْ إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِيْ]

فقالَ : ما أَشبهَهُ حينئذٍ بالضرطةِ ، فإِنَّها تُسمعُ ولا تُرىٰ ، والبيتانِ صحيحانِ ، غيرَ أَنَّ مَنْ تكلَّفَ الانتقادَ .. لم يَعْوَزْ إِليهِ الطريقَ ، إِمَّا سهلاً وإِمَّا وَعْراً ، إِمَّا سَميناً وإِمَّا غثّاً ، كصنيعِ الرَّجُلينِ في البيتينِ ، وقدْ يكونُ الرماديُّ إِنَّما ٱنتقدَ قولَ الناظمِ الآتي عن قريبٍ وهوَ [مِنَ البسيطِ] :

وَضَاقَتِ ٱلأَرْضُ حَتَّىٰ صَارَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَىٰ غَيْـرَ شَـيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلاً

والأَوَّلُ أَشبَهُ ، والحفظُ يخونُ ، واللَّفظُ يزيدُ وينقصُ .

واللهُ أَعلمُ

* * *

---

(١) الحَلاقُ : المنيَّةُ ، والمعنىٰ : أَنَّهُ إن بقيَ علىٰ قيدِ الحياةِ بَعدَما أَصابهُ مِنَ العذابِ .. فَليجعلْ حبيبَهُ في ٱستِهِ .

المجلس الثاني

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٤ مِنَ المنْسَرِح]:

أَهْلاً بِدَارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا   أَبْعَدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا[1]

عادة الشعراء البكاء على الأطلال

جرتْ عادةُ الشعراءِ بالسلامِ علىٰ ديارِ الأَحبابِ ، والدعاءِ لآثارِهِم بالسُّقيا ، وما أَشبهَ ذلِكَ ، فقالَ ٱمرؤُ القيسِ [في « ديوانه » مِنَ الطويل] :

أَلاَ عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي   [وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي ٱلْعُصُرِ ٱلْخَالِي]

وقالَ القُطاميُّ [في « ديوانه » ٢٣ مِنَ البسيط] :

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ   وَإِنْ بَلِيتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ ٱلطِّيَلُ

اقتداء المتنبي بهم

وقدْ أَحبَّ الناظِمُ أَنْ يَتسمَّتَ آثارَهُم، كما في قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٥٦ مِنَ الطويل] :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا   فَإِنَّكَ كُنْتَ ٱلشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَٱلْغَرْبَا

---

(١) الأغيَدُ : الناعم .

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٧٧ مِنَ البسيط] :

فَعِمْ صَبَاحاً لَقَدْ هَيَّجْتَ لِيْ شَجَناً وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَا إِنَّا مُحَيُّوْكَا[١]

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٣٦ مِنَ البسيط] :

فَمَا أَمُرُّ بِرَسْمٍ لاَ أُسَائِلُهُ وَلاَ بِذَاتِ خِمَارٍ لاَ تُرِيْقُ دَمِي

مخالفته لهم

غيرَ أَنَّهُ غايرَهُم في قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٤٩-٢٥٠ مِنَ الوافر] :

مُلِثَّ ٱلْقَطْرِ أَعْطِشْهَا رُبُوْعَا وَإِلاَّ فَاسْقِهَا ٱلسُّمَّ ٱلنَّجِيْعَا[٢]

أُسَائِلُهَا عَنِ ٱلْمُتَدَيِّرِيْهَا فَلاَ تَدْرِيْ وَلاَ تُذْرِيْ دُمُوْعَا[٣]

ولقد بالغَ المعرّيُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٩٦ مِنَ الطويل] :

تَحِيَّةُ كِسْرَىٰ فِي ٱلسَّنَاءِ وَتُبَّعٍ لِرَبْعِكَ لاَ أَرْضَىٰ تَحِيَّةَ أَرْبُعِ[٤]

شرح المطلع

والناظِمُ في البيتِ ٱلذي نتكلَّمُ عليهِ يدعو للدارِ بأَنْ تكونَ مأهولةً ، وكانَ الواجبُ أَنْ يقولَ : (أَهْلاً لِدَارٍ) ؛ لِيَتَّضِحَ معنىٰ الدعاءِ للدارِ ؛ لأَنَّ مِنْ معاني (اللامِ) بيانَ المدعوِّ لهُ ، كما في قولِهِم : (سَقْياً لَهُ) .

---

(١) عِم صباحاً : كلمةُ تحيَّةٍ . وفي «الديوان» : (طَرَباً) : بدل (شَجَناً) .

(٢) في «الديوان» و«العكبري» : (السُّمَّ ٱلنَّقِيْعَا) بدل (السُّمَ النَّجِيْعَا) . المُلِثُّ : الدائم المقيم . النجيعُ ، يُقالُ : نَجَعَ فيه الدواءُ وأَنجعَ : إذا عَمِلَ .

(٣) المُتَدَيِّرِيْها : أي متَّخذِيْها داراً ، والأَصلُ : المتديرينَ فيها ، فأَضافَ إلى الضميرِ .

(٤) السناءُ : الرفعةُ . تُبَّعُ : مِنْ ملوكِ اليمنِ ، جمعُهُ تَبَابِعَةٌ : سُمُّوا بذلِكَ ؛ لأَنَّهُ يتبعُ بعضُهم بعضاً ، كلَّما هلكَ واحدٌ . . قامَ مَقامَهُ آخر متابعاً لَهُ على مثلِ سيرتِهِ . وتُبَّعٍ معطوفٌ على كسرىٰ ، أي تحيةُ كسرى وتُبَّعٍ . . لِرَبْعِكَ .

أمَّا (ٱلباءُ) : فلا معنىٰ لها ، وإنْ تكلَّفَ الشارحُ في تأويلِها .

وأمَّا قولُهُ : (أَبْعَدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا) . . فـ (الخُرَّدُ) : جمع خَريدةٍ ، وهيَ البِكرُ التي لَمْ تُمَسَّ . و (أَبْعَدَ) : أَفعَلُ تفضيلٍ .

ومعناه : أَنَّ أَهلَ ٱلدارِ قد بَعُدوا كلُّهم ، غيرَ أَنَّ ٱلخُرَّدَ أَبعَدُ . ثُمَّ لا يخلو أَنْ يُريدَ وصفَهُم بٱلبُعدِ حالَ الإقامةِ ، وفيهِ نظرٌ ؛ لأَنَّ وصفَ الرجالِ بٱلبُعدِ قد يُفهَمُ منهُ الإشارةُ إِلىٰ تَحِلَّهم[1] ، أَو حالَ ٱلارتحالِ ، وهوَ حينئذٍ ظاهِرٌ ؛ لأَنَّهُم وإِنْ تحمَّلوا معاً ، فأَوَّلُ مَنْ يُقدَّمُ النساءُ ، ثُمَّ يزددنَ بُعداً بالغَيرةِ والصيانةِ ، وكثيراً ما يوجدُ ذِكرُ بُعدِهِنَّ في أَفانينِ القولِ ، كما هوَ مُكرَّرٌ في « ديوانِهِ » منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٢٥ مِنَ الكامل] :

صيانة المرأة عند العرب

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا ... دَانِي ٱلصِّفَاتِ بَعِيْدُ مَوْصُوفَاتِهَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١١ مِنَ الطويل] :

دِيَارُ ٱللَّوَاتِي دَارُهُنَّ عَزِيْزَةٌ ... بِطُوْلِ ٱلْقَنَا يُحْفَظْنَ لاَ بِٱلتَّمَائِمِ[2]

وهوَ مِنْ قولِ الطِّرِمَّاحِ [في « ديوانِه » ٣٥٠ مِنَ الطويل] :

وَمَا مُنِعَتْ دَارٌ وَلاَ عَزَّ أَهْلُهَا ... مِنَ ٱلنَّاسِ إِلاَّ بِٱلْقَنَا وَٱلْقَنَابِلِ[3]

قريب المرأى بعيد المنال

وقولُهُ ـ أَعني الناظِمَ ـ [في « العُكبَريّ » ١/ ١١١ مِنَ البسيط] :

---

(١) التَّحِلَّةُ : الإقامة .

(٢) في «الديوان» : (بِطُوْلىٰ) بدل (بطُوْلِ)، وهو مؤنث أطول، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

(٣) القنابلُ ـ جمعُ قَنْبَلةٍ ـ : وهي الطائفةُ مِنَ الناسِ ومِنَ الخيلِ ، قيلَ : ما بينَ الثلاثينَ إلىٰ الأربعينَ .

بَيْضَاءَ تُطْمِعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا   وَعَـزَّ ذَلِـكَ مَطْلُـوبـاً إِذَا طُلِبَـا
كَأَنَّهَا ٱلشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهِ   شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ ٱلطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٧٥ مِنَ البسيط] :

تكرار هذا المعنى عند الشعراء

مَتَىٰ تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوَىٰ زِيَارَتَهَا   لاَ يُتْحِفُوكَ بِغَيْرِ ٱلْبِيْضِ وَٱلأَسَلِ[1]

وقالَ كُثَيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٩٧ مِنَ الطويل] :

كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حِيْنَ أَعْرَضَتْ   مِنَ ٱلصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا ٱلْعُصْمُ زَلَّتِ[2]

وقالَ الطِّرِمَّاحُ [في « ديوانهِ » ٤٣٥ مِنَ الطويل] :

تَرَاهَا عُيُوْنُ ٱلنَّاظِرِيْنَ إِذَا بَدَتْ   قَرِيْباً وَلاَ يَسْطِيْعُهَا مَنْ يَرُوْمُهَا

وقالَ ٱبنُ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٢١ مِنَ المتقاربِ] :

هِيَ ٱلشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِيْ ٱلسَّمَا   فَعَـزِّ ٱلْفُـؤَادَ عَـزَاءً جَمِيْـلاً

وقالَ ٱبنُ عُيينةَ [مِنَ الطويل] :

فَقُلْتُ لأَصْحَابِيْ: هِيَ ٱلشَّمْسُ ضَوْؤُهَا   قَـرِيْـبٌ وَلَكِـنْ فِـي تَنَـاوُلِهَـا بُعْـدُ

ولا يخرجُ عنهُ قولُ جريرٍ [مِنَ الكامل] :

حُوْرٌ حَرَائِرُ مَا هَمَمْنَ بِرِيْبَةٍ   كَظِبَـاءِ مَكَّـةَ صَيْـدُهُـنَّ حَـرَامُ
يُحْسَبْنَ مِنْ لِيْنِ ٱلْحَدِيْثِ زَوَانِياً   وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ ٱلْخَنَا ٱلإِسْلاَمُ

---

(١) البيضُ : السيوفُ . والأَسَلُ : الرماحُ . قال الشاعر :
نَخْنَـحَ زَيْـدٌ وَسَعَـلْ   لَـمَّ رَأَىٰ وَقْـعَ ٱلأَسَـلْ

(٢) الصُّمُّ ـ جمعُ صَمَّاءَ ـ : وهيَ الصخرةُ الصلبةُ . العُصْمُ ـ جمعُ أَعصمَ ـ : والأَعصمُ مِنَ الظباءِ والوعولِ : الذي في ذراعيهِ بياضٌ .

وما أحسنَ قولَهُ معَ نظرِهِ إلىٰ ما نحنُ فيهِ مِنْ قريبٍ [مِنَ الطويل] :

وَأَدْنَيْتِنِي حَتَّىٰ إِذَا مَا سَبَيْتِنِي   بِقَوْلٍ يُحِلُّ ٱلْعُصْمَ سَهْلَ ٱلأَبَاطِحِ
تَجَافَيْتِ عَنِّي حِيْنَ لاَ لِيَ حِيْلَةٌ   وَخَلَّفْتِ مَا خَلَّفْتِ بَيْنَ ٱلْجَوَانِحِ

وفيهِ نَظَرَ إلىٰ قولِهِ جَلَّ شأنُهُ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر : ١٦] .

وفي معناهُ قولُ ٱمرأةِ ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانه » ٤٢ مِنَ الطويل] :

وَأَنْتَ ٱلَّذِي أَخْلَفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي   وَأَشْمَتَّ بِي مَنْ كَانَ فِيْكَ يَلُوْمُ
وَأَبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ ثُمَّ تَرَكْتَنِي   لَهُمْ غَرَضاً أُرْمَىٰ وَأَنْتَ سَلِيْمُ
فَلَوْ أَنَّ قَوْلاً يَكْلِمُ ٱلْجِسْمَ قَدْ بَدَا   بِجِسْمِيَ مِنْ قَوْلِ ٱلْوُشَاةِ كُلُوْمُ

وقالَ ٱلعبَّاسُ بنُ ٱلأحنفِ [في « ديوانهِ » ٨٤ مِنَ البسيط] :

أَبْكِي ٱلَّذِيْنَ أَذَاقُوْنِي مَوَدَّتَهُمْ   حَتَّىٰ إِذَا أَيْقَظُوْنِي لِلْهَوَىٰ رَقَدُوْا
وَٱسْتَنْهَضُوْنِي فَلَمَّا قُمْتُ مُنْتَصِباً   بِثِقْلِ مَا حَمَّلُوْنِي عَنْهُمُ قَعَدُوْا

لقاءٌ وعتاب

وقالَ بعضُهُم [في «الأغاني» ٢/٥٣] : بينا أنا وصديقٌ لي مِنْ قريشٍ . . إذا بظِلِّ نسوةٍ في القمرِ ، فسمعتُ واحدةً تقولُ : أَهوَ هوَ ؟ فقالتِ ٱلأُخرىٰ : نَعَم ، فدنت منِّي ، وقالت : قُل لصاحبِكَ [مِنَ البسيط] :

لَيسَتْ لَيَالِيْكَ فِيْ خَاخٍ بِعَائِدَةٍ   كَمَا عَهِدْتَ وَلاَ أَيَّامُ ذِيْ سَلَمِ (١)

(١) خاخٌ : ٱسمُ مَوْضِعٍ بينَ الحرمينِ ، وقد ورد ذكره في حديث علي عند البخاري (٤٨٩٠) وغيره : أنَّ النبي ﷺ أرسله والزبير والمقداد وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ فإن بها ظعينة . . . » الحديث.

فلم يَحِرْ جواباً ، فقلتُ عنهُ [مِنَ الطويل] :

فَقُلْتُ لَهَا : يَا عَزُّ كُلُّ مُصِيبَةٍ إِذَا وُطِّنَتْ يَوْماً لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ

فدعتنِي إِلىٰ بيتِها ، وقالت : ما أَفظَّ جوابَكَ ، وبكت ، وشكت ما أَضرَّ بها مِنْ هوىٰ صاحبي ، فدعوتُهُ لها ، فعاتبَتْهُ طويلاً ، ثُمَّ تمثَّلَت بأَبياتِ ٱمرأَةِ ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ ، ثُمَّ سكتت ، فقالَ الفتىٰ [مِنَ الطويل] :

غَدَرْتِ وَلَمْ أَغْدُرْ وَخُنْتِ وَلَمْ أَخُنْ وَفِـيْ دُوْنِ هَـٰـذَا لِلْمُحِـبِّ عَـزَاءُ
جَزَيْتُكِ ضِعْفَ ٱلْوُدِّ ثُمَّ صَرَمْتِنِيْ فَحُبُّـكِ فِـيْ قَلْبِـيْ أَذىً وَشَقَـاءُ

فقالَتْ [مِنَ الطويل] :

تَجَاهَلْتَ وَصْلِيْ حِيْنَ لَجَّتْ عَمَايَتِيْ فَهَلاَّ صَرَمْتَ ٱلْحَبْلَ إِذْ أَنَا مُبْصِرُ
وَلِيْ مِنْ قُوَىٰ ٱلْحَبْلِ ٱلَّذِيْ قَدْ قَطَعْتَهُ نَصِيْـبٌ وَإِذْ رَأْيِـيْ جَمِيْـعٌ مُـوَفَّـرُ
وَلَـٰكِنَّمَـا آذَنْـتَ بِـٱلْهَجْـرِ بَغْتَـةً وَلَسْتُ عَلَىٰ مِثْلِ ٱلَّذِيْ جِئْتَ أَقْدِرُ

فقالَ ٱلفتى [مِنَ الطويل] :

لَقَدْ جَعَلَتْ نَفْسِيْ ـ وَأَنْتِ ٱجْتَرَمْتِهِ وَكُنْتِ أَحَبَّ ٱلنَّاسِ ـ عَنْكِ تَطِيْبُ[1]

فبكت ، ثُمَّ قالت : أَما وقد جعلتْ نفسُكَ تطيبُ . . فما فيكَ بعدَها خيرٌ ، وٱلسلامُ .

وقالَ قيسُ بنُ المُلَوَّحِ [في « ديوانِه » مِنَ الطويل] :

وَمَنَّيْتِنِـيْ حَتَّـىٰ إِذَا مَـا رَأَيْتِنِـيْ عَلَىٰ شَرَفٍ لِلنَّاظِرِيْنَ قَرِيْبِ
صَدَدْتِ وَأَشْمَتِّ ٱلْعَدُوَّ بِقُرْبِنَا أَثَابَكِ يَا لَيْلَىٰ ٱلْجَزَاءَ مُثِيْبِي

---

(١) اْجترمَ : قطعَ .

ما أصعب الفطام بعد الرضاع

وممّا يُنسَبُ إلىٰ سيفِ الدولةِ قولُهُ [« في ديوانهِ » مِنَ الطويل] :

تَجَنَّىٰ عَلَيَّ ٱلذَّنبَ وَٱلذَّنبُ ذَنبُهُ وَعَاتَبَنِي ظُلْماً وَفِيْ شِقِّهِ ٱلْعَتْبُ

وَأَعْرَضَ لَمَّا صَارَ قَلْبِيْ بِكَفِّهِ فَهَلاَّ جَفَانِي حِيْنَ كَانَ لِيَ ٱلْقَلْبُ

الباذلات المانعات

وَأَنشدَ الأَصمعيُّ لِبعضِ الأَعرابِ [مِنَ الطويل] :

ومُسْتَخْفِيَاتٍ لَيْسَ يَخْفَيْنَ زُرْنَنَا يُسَحِّبْنَ أَذْيَالَ ٱلصَّبَابَةِ وَٱلدَّلِّ

جَمَعْنَ ٱلْهَوَىٰ حَتَّىٰ إِذَا مَا مَلَكْنَهُ نَزَعْنَ وَقَدْ أَكْثَرْنَ فِيْنَا مِنَ ٱلْقَتْلِ

مَرِيْضَاتِ رَجْعِ ٱلطَّرْفِ خُرْسٍ عَنِ ٱلْخَنَا تَـأَلَّفْـنَ أَهْـوَاءَ ٱلْقُلُـوْبِ بِـلاَ بَـذْلِ

مَوَارِقَ مِنْ خَتْلِ ٱلْمُحِبِّ عَوَاطِفٍ بِقَتْلِ أُوْلِيْ ٱلأَلْبَابِ بِٱلْجِدِّ وَٱلْهَزْلِ(١)

يُعَنِّفُنِـيْ ٱلْعُـذَّالُ فِيهِـنَّ ، وَٱلْهَـوَىٰ يُحَذِّرُنِيْ مِنْ أَنْ أُطِيْعَ ذَوِيْ ٱلْعَذْلِ

وقالَ المجنونُ [في « ديوانهِ » ١٨٣ مِنَ الطويل] :

يُعَرِّضْنَ بِٱلدَّلِّ ٱلْمَلِيْحِ وَإِنْ يُرِدْ جَنَاهُنَّ مَشْغُوْفٌ فَهُنَّ مَوَانِعُ

وقالَ ٱبنُ ميَّادةَ [في « ديوانه » ١٦٣ـ١٦٤ مِنَ الطويل] :

مَـوَانِـعُ لاَ يُعْطِيْـنَ حَبَّةَ خَـرْدَلٍ وَهُنَّ دَوَانٍ فِيْ ٱلْحَدِيْثِ أَوَانِسُ

وَيَكْرَهْنَ أَنْ يَسْمَعْنَ فِيْ ٱللَّهْوِ رِيْبَةً كَمَا كَرِهَتْ صَوْتَ ٱللِّجَامِ ٱلشَّوَامِسُ(٢)

الكانزات الباخلات

وأَملىٰ أبو بكرٍ الأَنباريُّ في بعضِ مجالِسهِ أبياتاً في بحرِها ، وقافيتِها ، وبعضِ معناها ، وهيَ :

وَبِٱلْقَرْيَةِ ٱلْبَيْضَاءِ إِنْ زُرْتَ أَهْلَهَا مَهاً مُهْمَلاَتٍ مَا عَلَيْهِنَّ سَائِسُ

خَرَجْنَ لِحُبِّ ٱلرَّيْبِ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ عَفَائِفُ بَاغِيْ ٱللَّهْوِ مِنْهُنَّ آيِسُ

---

(١) يقال : مرقَ السهمُ من الرميةِ : إذا نفذَ إلىٰ الجانبِ الآخرِ .

(٢) الشوامس : من شَمَسَ الفرس : إذا منع ظهرهُ .

عمر بن أبي ربيعة وعبد الملك بن مروان

ويروىٰ : أَنَّ عبدَ المَلِكِ بنَ مروانَ ٱستقبلَ عُمرَ بنَ أَبي ربيعةَ ، فقالَ لهُ : لقد عَلِمَتْ قريشٌ أَنَّكَ أَطولُها صبوةً ، وأَبعدُها توبةً ، أَمَا لَكَ في نساءِ قريشٍ ما يكفيكَ عن نساءِ بني عبدِ مَنافٍ ؟ أَلستَ القائِلَ [كما في « ديوانهِ » ٢٠٧ـ٢٠٨ مِنَ الطويل] :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِٱلْمُحَصَّبِ مِنْ مِنىً ... وَلِيْ نَظَرٌ ـ لَوْلاَ ٱلتَّحَرُّجُ ـ عَارِمُ[1]

فَقُلْتُ : أَصُبْحٌ أَمْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ ... بَدَتْ لَكَ خَلْفَ ٱلسَّجْفِ أَمْ أَنْتَ حَالِمُ[2]

بَعِيْـدَةُ مَهْـوَىٰ ٱلْقُـرْطِ إِمَّـا لِنَـوْفَـلٍ ... أَبُوْهَا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمُ[3]

فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، إِنَّ بعدَ هـٰذا قولي [كما في « ديوانهِ » ٢٠٩] :

طَلَبْنَ ٱلْهَوَىٰ حَتَّىٰ إِذَا مَا وَجَدْنَهُ ... صَدَرْنَ وَهُنَّ ٱلْمُسْلِمَاتُ ٱلْكَرَائِمُ

فٱستحيا منهُ عبدُ المَلِكِ ، ووصلَهُ ، وقضىٰ حوائجَهُ .

الكاسيات العاريات

وقالَ آخرُ في ٱلمعنىٰ [مِنَ الطويل] :

تَعَطَّلْـنَ إِلاَّ مِـنْ مَحَـاسِـنِ أَوْجُـهٍ ... فَهُنَّ حَوَالٍ فِيْ ٱلصِّفَاتِ عَوَاطِلُ[4]

كَوَاسٍ عَوَارٍ صَامِتَاتٌ نَوَاطِقٌ ... بِعِـفٍّ كَـلاَمٍ بَـاخِـلاَتٌ بَـوَاذِلُ

بَـرَزْنَ عَفَـافـاً وَٱحْتَجَبْـنَ تَسَتُّـراً ... وَشِيْبَ بِحَقِّ ٱلْقَوْلِ مِنْهُنَّ بَاطِلُ

فَذُو ٱلْحِلْمِ مُرْتَادٌ وَذُوْ ٱلْجَهْلِ طَامِعٌ ... وَهُـنَّ عَـنِ ٱلْفَحْشَـاءِ حِيْـدٌ نَـوَاكِـلُ

---

(١) عارمٌ : خارجٌ عن القصد .

(٢) السِّجْفُ والسَّجْفُ : السترُ .

(٣) بعيدة مهوى القُرط : كناية عن طول عنقها .

(٤) حَوَالٍ : صاحباتُ حليةٍ . عواطلُ : خالياتٍ مِنَ الحلي .

ولَمْ ينسَ حظَّهُ البُحتريُّ مِنْ هـٰذا ٱلمعنىٰ ، في مثلِ قولِهِ [في «ديوانهِ» ١١٥٠ مِنَ الكامل] :

مِنْ كُلِّ مُرْهَفَةِ ٱلْقَوَامِ غَرِيْرَةٍ ... جُعِلَتْ مَحَاسِنُهَا هَوىً لِلأَنْفُسِ

تَبْـدُوْ بِعَطْفَـةِ مُطْمِـعٍ حَتَّـىٰ إِذَا ... شُغِلَ ٱلْخَلِيُّ ثَنَتْ بِصَدَّةِ مُؤْيِسِ

الكلام الحق

ولـٰكنَّ الباري عزَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

إذا كنت ريحاً فقد واجهت إعصاراً

وبَصُرَ بعضُهُم بأمرأَةٍ فتَّانةٍ علىٰ ضفَّةِ (الرُّصَافةِ) ، فقالَ : يَرحمُ اللهُ أَبا ٱلجَهْمِ ، فقالت لَهُ : يَرْحمُ اللهُ أَبا ٱلعلاءِ .

أَرادَ : قولَ عليِّ بنِ ٱلجَهْمِ [في «ديوانهِ» ٢٢٠ مِنَ الطويل] :

عُيُوْنُ ٱلْمَهَا بَيْنَ ٱلرُّصَافَةِ وَٱلْجِسْرِ ... جَلَبْنَ ٱلْهَوَىٰ مِنْ حَيْثُ أَدْرِيْ وَلاَ أَدْرِيْ

وَأَرادتْ : قولَ أَبي العلاءِ ـ وهوَ موضعُ المناسبةِ ـ [مِنَ الطويل] :

فَيَا دَارَهَا بِٱلْخَيْفِ إِنَّ مَزَارَهَا ... قَرِيْبٌ وَلَـٰكِنْ دُوْنَ ذَلِكَ أَهْوَالُ

أبو نواس يأكل الفتاة بعينيه ووقوعه في شر أعماله

وذكرَ أَبو نُوَاسٍ : أَنَّ سماءً[1] أَصابتهُم في طريقِ الحجِّ ، فخرجَ يتنزَّهُ في بعضِ غياضِ العربِ ، حَتَّىٰ رُفِعَ لَهُ بيتٌ ، فإذا فيهِ عجوزٌ عندَها فتاةٌ مبرقعةٌ ، سحرَتْهُ بعينَيها ٱلنجلاوينِ[2] ، فٱستسقاها الماءَ مرَّتينِ ، فقالتِ ٱلعجوزُ [مِنَ الطويل] :

هُمَا ٱسْتَسْقَيَا مَاءً عَلَىٰ غَيْرِ ظَمْأَةٍ ... لِيَسْتَمْتِعَا بِٱللَّحْظِ مِمَّنْ سَقَاهُمَا

---

(١) السماءُ : المطرُ .

(٢) النَّجَلُ : سعةُ شَقِّ العينِ .

ـ ومِنْ هٰذا أَخذَ البُرَعيُّ قولَهُ [في « ديوانه » ١٢٢ مِنَ الكامل] :

مَا ٱلْمَاءُ مِنْ طَلَبِيْ وَلٰكِنْ رُبَّمَا مَدَّتْ بِهِ فَتَنَالُ مِنْ يَدِهَا يَدِيْ ـ

فلمَّا رأَتْهُ العجوزُ يكادُ يأكلُ بعينِهِ ٱلفتاةَ . . قالت [مِنَ الطويل] :

فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرَ أَنَّكَ نَاكِحٌ بِعَيْنَيْكَ عَيْنَيْهَا ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُ ؟

فقالَ [مِنَ الطويل] :

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ تَعَلُّلُ سَاعَةٍ قَلِيْلاً فَإِنِّيْ نَافِعٌ لِيْ قَلِيْلُهَا

ولمَّا ٱستباهُ لحظُها ، وٱستهواهُ لفظُها . . قالَ ـ يستطعمُها السُّفُورَ ـ [مِنَ المتقارب] :

إِذَا بَارَكَ ٱللهُ فِيْ مَلْبَسٍ فَلاَ بَارَكَ ٱللهُ فِيْ ٱلْبُرْقُعِ

يُرِيْكَ وُجُوْهَ ٱلدُّمَىٰ غِرَّةً وَيَكْشِفُ عَنْ مَنْظَرٍ أَفْظَعِ

فنزعتْ بُرقُعَها ، فإِذا وجهٌ يستحي ٱلقمرُ مِنْ جمالِهِ ، ذَكَرَ مِنْ حُسْنِهِ ما لا يحضرُني لفظُهُ ، فقالَ عندَ ذلِكَ [مِنَ الطويل] :

عَلَىٰ وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاَحَةٍ وَتَحْتَ ٱلثِّيَابِ ٱلْعَارُ لَوْ كَانَ بَادِيَا

فما كانَ منها إِلاَّ أَنْ أَخذَتْها هِزَّةٌ ، وخلَعتْ ما كانَ عليها مِنَ ٱلثياب ، ووقفتْ عُريانةً ، قالَ : فإِذا صدرٌ كأَنَّهُ صفيحةُ مَرمَرٍ ، فيهِ نَهدانِ كأَنَّهُما حُقَّا عاجٍ[1] ، ثُمَّ أَتىٰ في وصفِ أَعضائِها ، بما ذهبَ

---

(١) الحُقُّ والحُقَّةُ ـ بالضم ـ : وعاءٌ منحوتٌ مِنَ الخشبِ والعاجِ وغيرِ ذلكَ ، ممَّا يصلحُ أَنْ ينحتَ منهُ . قال الشاعر :

وَصَدْرٍ مُشْرِقِ ٱللَّوْنِ كَأَنَّ ثَدْيَاهُ حُقَّانِ

عن حفظي أكثرُهُ ـ وهوَ موجودٌ في « ديوانه » ـ عندَ ذلِكَ قالَ [مِنَ الطويل] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ وَإِنْ كَانَ لَوْنُ ٱلْمَاءِ أَبْيَضَ صَافِيَا

فما كانَ منها إلاَّ أَنْ قطعَتْ أَملَهُ ، وزوَّدَتْهُ اليأسَ .

وبعقِبِ رجوعِهِم تعرَّضَ لها ، فألفاها بينَ أَربعٍ لا تنقصُ عنها واحدةٌ منهُنَّ في ٱلحُسْنِ والجَمالِ ، فبقرَت لهُنَّ حديثها معهُ علىٰ مسمَعٍ منهُ ، فعاتبنَها في إعراضِها عنهُ ، معَ تعلُّقِهِ بهواها ، وقُلْنَ لها : ما يَضرُّكِ أَنْ تُنَوِّليهِ ، وما معكِ إلاَّ مَنْ يسترُ عليكِ ؟! ولو أَنَّهُ عَلِقَ بإحدانا هواهُ . لَما كانَ لها أَنْ تُخيِّبَ رجاءَهُ ، فطمعَ فيها ، وواعدتْهُ إلىٰ غارٍ ، دلَّتْهُ عليهِ ، فما هيَ إلاَّ ساعةٌ ، ودخلَ عليهِ عبدٌ أَسودُ ينعظُ بمثلِ ذراعِ البَكرِ[1] ، فولَّىٰ هارباً ، وما نجا فيما يقولُ إلاَّ بنفسِهِ بعدَ لأْيٍ ما ، وما أَحسبُهُ صادقاً في دعوىٰ السلامةِ ، بلْ صرَّحَ ٱبنُ عبدِ ربِّهِ في « عِقْدِهِ »[2] بِعدَمِها ، وما كانَ إلاَّ عُرضةَ ذلك ، ويا طالَما شَهَرَتْهُ عِنَانُ وغيرُها بمثلِ ذلِكَ .

قصة ذي الرمة ومي

وبما أَنَّ جُلَّ أَشعارِ الحكايةِ مِنْ كلامِ ذِي ٱلرُّمَّةِ . . فلا بُدَّ أَنَّ لَهُ قضيَّةً مِنْ نوعِها ، ثُمَّ رأَيتُ ٱبنَ خَلِّكانَ ذكرَها بٱختصارٍ[3] ، وذكرَ

---

(١) ينعظُ بمثل ذراع البكر : يُحركُ بِذَكَرٍ كأنهُ من طولهِ ذراعُ الفتيِّ منَ الإبلِ .

(٢) وهو الكتاب الشهير : «العقد الفريد».

(٣) ذكرَ ٱبنُ خلكانَ في « وفياتِ الأعيانِ » (٤/ ١٢) : أَنَّ ذَا الرُّمَّةَ لمْ يرَ ميَّةَ قطُّ إلاَّ في برقعٍ فأَحبَّ أَن ينظرَ إلىٰ وجهِهَا فقالَ [من الوافر] :

جَـزَىٰ ٱللهُ ٱلْبَـرَاقِـعَ مِـنْ ثِيَـابٍ عَـنِ ٱلْفِتْيَـانِ شَـرّاً مَـا بَقِيْنَـا
يُـوَارِيْـنَ ٱلْمِـلاَحَ فَـلاَ نَـرَاهَـا وَيخْفِيْـنَ ٱلْقِبَـاحَ فَيَـزْدَهِيْنَـا=

قولَهُ في ٱلبُرقعِ [مِنَ الوافر] :

جَـزَىٰ ٱللهُ ٱلْبَـرَاقِـعَ مِـنْ ثِيَـابٍ　　عَـنِ ٱلْفِتْيَـانِ شَـرّاً مَـا بَقِيْنَـا

يُـوَارِيْـنَ ٱلْمِـلاَحَ فَـلاَ نَـرَاهَـا　　وَيُخْفِيْـنَ ٱلْقِبَـاحَ فَيَـزْدَهِيْنَـا

وائل بن قاسط ووادي السباع

وبينا وائلُ بنُ قاسطٍ بوادٍ في طريقِهِ إلىٰ (ٱلرَّقَّةِ) . . إذْ بَصُرَ بأَسماءَ بنتِ دريمٍ ٱلقضاعيَّةِ ، وكانتِ ٱمرأَةً حَسَّانةً ، فيها بقيَّةٌ مِنَ ٱلشبابِ ، فهمَّ بها حينَ رآها مسفرةً ، فقالت : واللهِ ، لئنْ قصدتَني بسوءٍ . . لأَدعونَّ أَسبُعِي ، فقالَ : ما أَرىٰ في الوادي أَحداً ، فصاحتْ ببنيها : يا كلبُ ، يا ذيبُ ، يا فهدُ ، يا سرحانُ ، يا نَمِرُ ، يا حمارُ ، يا ضَبُعُ . . . إلىٰ آخرِها ، فسالَ الوادي رجالاً عِشرينَ ، جاؤوا يتعادَونَ بالسيوفِ ، كما قيلَ [مِنَ البسيط] :

سَالَتْ عَلَيْهَا شِعَابُ ٱلْحَيِّ حِيْنَ دَعَتْ　　أَنْصَـارَهَـا بِـوُجُـوْهٍ كَـالـدَّنَـانِيْـرِ

فقالتْ لهُم : أَكرموا ضيفكُم ، ولم تكشفْ لهُمُ ٱلحديثَ ، وإلاَّ . . لتوزَّعوا لحمَهُ ، فعقروا ، وقالَ : ما أَرَىٰ هـٰذا الواديَ إلاَّ واديَ السباعِ ، فأُطلِقَ عليهِ مِنْ يومئذٍ .

= فَنزعتِ ٱلبرقعَ عَن وجهها ، وكانت باهرةَ الحسنِ ، فلمَّا رآها مسفرةً . . قالَ :

عَلَىٰ وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاَحَةٍ

البيتَ المتقدِّمَ ، فنزعتْ ثيابَهَا ، وقامَت عريانةً ، فقالَ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ

البيتَ المتقدمَ ، فقالتْ لهُ : أَتحبُّ أَنْ تذوقَ طعمَهُ ؟ قالَ : إي واللهِ ، فقالت لهُ : تذوقُ الموتَ قبلَ أَن تذوقَهُ .

وذكرَ الأصفهانيُّ في « الأغاني » (١٨/ ٣٠) : أَنَّ هذِهِ الأَبياتِ منحولةٌ عَلَىٰ ذي الرُّمَّةِ وليست لهُ . والله أعلم بالصواب.

وفيهِ كانَ قتلُ الزبيرِ بنِ العوّامِ مُنصَرفَهُ مِنْ حادثةِ الجَمَلِ ، وقدْ ذكرَهُ في شعرِهِ سُحَيمُ بنُ وَثيلٍ الرياحيُّ ، فقالَ [مِنَ الطويل] :

مَرَرْتُ عَلَىٰ وَادِي ٱلسِّبَاعِ وَلاَ أَرَىٰ   كَوَادِي ٱلسِّبَاعِ حِيْنَ يُظْلِمُ وَادِيَا

وجوب التحفظ والحيطة على النساء

وعلىٰ ذكرِ عِفَّةِ النساءِ وبُعدِهِنَّ نقولُ : إنَّهُ لا يمكنُ للإنسانِ أَنْ يَكِلَهُنَّ إلىٰ ما يثقُ بهِ فيهنَّ مِنْ ذلكَ ، فإنَّ البعيدَ يقرُبُ بٱلاحتيالِ ، والعُصْمَ تَسهُلُ بٱلاستنزالِ[1] ، وقد قالَ بعضُهُم [مِنَ الكامل] :

عُسْـرُ ٱلنِّسَـاءِ إِلَـىٰ مُيَـاسَـرَةٍ   وَٱلصَّعْبُ يَسْهُلُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

وقالَ أخو خثعمَ [مِنَ الطويل] :

وَآلَـتْ يَمِيْنـاً كَـالـزُّجَـاجِ رَقِيْقَـةً   وَمَا حَلَفَتْ إِلاَّ لِتَحْنَثَ مِنْ أَجْلِي

زوج الشهداء عاتكة بنت زيد

وبهـٰذا ذكرتُ قولَ عاتكةَ بنتِ زيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفيلٍ في رثائِها لبعضِ أزواجِها [كما في « خزانةِ الأدبِ » (١٠/ ٣٨٠) مِنَ الطويل] :

فَآلَيْتُ لاَ تَنفَكُّ عَيْنِيْ حَزِيْنَةً   وَآلَيْتُ لاَ يَنْفَكُّ جِلْدِيَ أَغْبَرَا

فٱستأذنَ عليها أميرُ المؤمنينَ عليُّ ٱبنُ أبي طالبٍ صبيحةَ بنائِها علىٰ أميرِ المؤمنينَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ ، وقالَ لها : أينَ قولُكِ : (فآلَيْتُ . . . إلىٰ آخرِهِ)؟ فقالتْ : مَا أكثرَ ما تنفسخُ عزائِمُ الرجالِ ، فضلاً عن عزائِمِ النساءِ ، أو ما يقرُبُ مِن هـٰذا المعنىٰ .

وكانتْ تحتَ عبدِ اللهِ ٱبنِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ ، فقُتلَ عنها مِنْ سهمٍ

---

(١) العصم، هو: الغزال، والمقصود : أن المرأة ينبغي التحفظ عليها، ويكفي في ذلك أن سيدنا زكريا لم يكل سيدتنا مريم وهي في المحراب عن السؤال ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ وهي من هي، من سيدات العالمين عفة وطهارة.

رُمِيَهُ في (الطائِفِ) فتزوَّجَها زيدُ بنُ الخطَّابِ ، فقُتلَ عنها بـ (اليمامةِ) ، ثُمَّ كانتْ تحتَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ ، فقُتلَ وهيَ عندَهُ ، ثُمَّ تزوَّجها الزبيرُ بنُ العوَّامِ ، فقتلَهُ ٱبنُ جرموزٍ ، وهيَ في عصمتِهِ ، ثُمَّ خطبَهَا عليٌّ ، فقالتْ : أَضِنُّ بِٱبنِ عمِّ رسولِ اللهِ عنِ ٱلقتلِ ، ولـٰكنَّها تزوَّجتْ بِٱبنِهِ الحسينِ ـ كما رُوِيَ ـ فقُتلَ عنها ، فكانَ أَهلُ ٱلمدينةِ يقولونَ بَعدُ [كما في «الطبقات» ٣/١١٢] : مَنْ أَرادَ الشهادةَ . . فليتزوَّجْ بعاتكةَ . وفي أَحاديثِها لطائِفُ ، وفي أَخبارِها نوادرُ ، وفي أَشعارِها بدائِعُ ، وبحسبِنا في هـٰذا ٱلموضعِ ما أَشرنا إِليهِ .

كما تدين تدان

وأَولىٰ ما يتوسَّلُ بهِ المرءُ لتحصينِ أَهلِهِ . . التَّلَزُّمُ بالعفافِ في نفسِهِ ، وللهِ دَرُّ الخزاعيِّ ، أَو مسكينِ الدَّارِميِّ في قولِهِ [مِنَ السّريع] :

مَـا أَحْسَـنَ ٱلْغَيْـرَةَ فِـيْ حِيْنِهَـا ... وَأَقْبَـحَ ٱلْغَيْـرَةَ فِـيْ كُـلِّ حِيْـنْ

حَسْبُـكَ مِـنْ تَحْصِيْنِهَـا ضَمُّهَـا ... مِنْـكَ إِلَـىٰ خُلْـقٍ كَـرِيْـمٍ وَدِيْـنْ

لاَ تَطَّلِـعْ مِنْـكَ عَلَـىٰ عَـوْرَةٍ ... فَيَتْبَـعَ ٱلْمَقْـرُوْنُ حَبْـلَ ٱلْقَـرِيْـنْ

وفي ٱلحديثِ : « عِفُّوْا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ »[1] .

وقالَ بعضُهُم [الشافعيُّ في « ديوانهِ » مِنَ الكامل] :

عِفُّوْا تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ فِيْ ٱلْمَحْرَمِ ... وَتَجَنَّبُـوْا مَـا لاَ يَلِيْـقُ بِمُسْلِـمِ

إِنَّ ٱلـزِّنَـا دَيْـنٌ إِذَا أَقْـرَضْتَـهُ ... كَانَ ٱلْوَفَاءُ مِنَ أَهْلِ بَيْتِكَ فَٱعْلَمِ

فالفسادُ دَينٌ يؤخذُ بهِ مِنْ أَهلِ الزاني وذرِّيَّتِهِ لا محالةَ ، ولو كانوا أَحمىٰ مِنْ جَبَهاتِ الأُسودِ ، وأَمنعَ مِنْ عُقبانِ الجوِّ ، والأَخبارُ في

---

(١) أخرجهُ عن عائشة الصديقة الطبرانيُّ في « الأوسط » (٢/ ٨) مطولاً .

ذلكَ كثيرةٌ ، والعِيانُ يؤكِّدُها ، واللهُ غيورٌ على عبادِهِ ، وهوَ العدلُ في أَحكامِهِ[١] .

العفة حتى في النوم

كانَ ٱبنُ سيرينَ يقولُ : ما غشيتُ ٱمرأةً قطُّ في نومٍ ولا يقظةٍ ، غيرَ أُمِّ عبدِ اللهِ ، وإنّي لأرىٰ المرأةَ لا تحِلُّ لي في المنامِ ، فأَصرفُ نظري .

الشعراء في هذا الموضوع

فألَمَّ بهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/٢٦٨ مِنَ الطويل] :

يَـرُدُّ يَـداً عَـنْ ثَـوْبِهَـا وَهْـوَ قَـادِرٌ وَيَعْصِيْ ٱلْهَوَىٰ فِيْ طَيْفِهَا وَهْوَ رَاقِدُ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٦٧ مِنَ الطويل] :

كَرِيْمٌ حَلِيْمُ ٱلْجَفْنِ وَٱلنَّفْسِ لاَ يَرَىٰ إِذَا هُوَ أَغْفَىٰ مَا يَرَىٰ ٱلنَّاسُ فِيْ ٱلْحُلْمِ

وقالَ [في « سقطِ الزندِ » ٥٩ مِنَ الطويل] :

مَضَىٰ طَاهِرَ ٱلْجُثْمَانِ وَٱلنَّفْسِ وَٱلْكَرَىٰ وَسُهْدِ ٱلْمُنَىٰ وَٱلْجَيْبِ وَٱلذَّيْلِ وَٱلرُّدْنِ[٢]

وقالَ ٱبنُ طَباطَبا [مِنَ الكامل] :

يَقظَـاتُـهُ وَمَنَـامُـهُ شِـرَعٌ كُـلٌّ بِكُـلٍّ مِنْـهُ مُشْتَبِـهُ
إِنْ هَـمَّ فِـيْ حُلُـمٍ بِفَـاحِشَـةٍ زَجَـرَتْـهُ عِفَّتُـهُ فَيَنْتَبِـهُ

ولٰكنَّ التِّهاميَّ خضعَ لبعضِ القولِ ؛ إِذْ يقولُ [في « ديوانِهِ » ٣٣٦ مِنَ البسيط] :

---

(١) لِما أخرج ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد» عن أنس : «من زنىٰ . . زني به ولو بحيطان داره» .

(٢) الكَرَىٰ : النومُ ، ونقيضُهُ : السُّهْدُ ، وقولُهُ : سُهْدِ المنىٰ : أَي أنَّه إذا سَهِرَ في أَمرٍ يتمناهُ . . لَمْ يسهر إلاَّ فيما لا تبعةَ لَهُ . الرُّدْنُ : ٱلكُمُّ .

إِنِّيْ لأَصْرِفُ نَفْسِيْ عَنْ مَحَاسِنِهَا تَكَرُّماً وَأَكُفُّ الْكَفَّ عَنْ لَمَمِ[1]
وَلاَ أَهِمُّ وَلِيْ نَفْسٌ تُنَازِعُنِيْ أَسْتَغْفِرُ اللهَ، إِلاَّ سَاعَةَ الْحُلُمِ

الضيف الأعمى

نزلَ خارجيٌّ علىٰ بعضِ إخوانِهِ منهُم مستتراً مِنَ الحَجَّاجِ ، فشخَصَ المنزولُ عليهِ لبعضِ شأنِهِ ، وقالَ لزوجِهِ : يا ظبيا ، استوصي بضيفي خيراً ، وكانتْ مِنْ أحسنِ الناسِ وجهاً ، ولمَّا عادَ بعدَ شهرٍ . قالَ لها : كيفَ كانَ ضيفُكِ؟ قالتْ : ما أشغلَهُ بالعمىٰ عنْ كلِّ شيءٍ ، وكانَ أطبقَ جفنيهِ حتَّىٰ لا يراها ، إلىٰ أَنْ عادَ زوجُها[2] .

* * *

(١) قال الشيخ عبد القادر القصاب الديرعطاني في مواعظه :
من كفَّ فكَّهْ ، وفكَّ كفَّهْ . . فذبابُ الشرِّ عنهُ كفَّهْ .
(٢) كذا في «المستطرف» (٢/ ٣٤٩) .

[قال أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٥ مِنَ المنسرح]:

ظَلْتَ بِهَا تَنْطَوِيْ عَلَىٰ كَبِدٍ	نَضِيْجَةٍ فَوْقَ خِلْبِهَا يَدُهَا

(الخِلبُ) : غشاءُ القلبِ[1] ، أَو الكبدِ .

شرح المطلع

قالَ الشارحُ : وجعلَ اليدَ نضيجةً ، وأَضافَها إِلىٰ ٱلكبدِ ؛ لأَنَّها دامَ وضعُها علىٰ الكبدِ ، فأَنضجَتْها بما فيها مِنَ ٱلحرارةِ ، فلهٰذا جازَ إِضافتُها إِليها ، والعربُ تسمِّي الشيءَ بٱسمِ غيرِهِ إِذا طالَتْ صحبتُهُ لهُ ، والإِضافةُ أَهونُ . اهـ .

رأي المؤلف

وأَقولُ : إِنَّهُ أَصابَ في بعضٍ ، وأَخطأَ في آخرَ ، أَمَّا ٱلذي أَصابَ فيهِ : فتوجيهُ إِضافةِ اليدِ إِلىٰ الكبدِ بطولِ الملابسةِ والصحبةِ .

وأَمَّا الذي أَخطأَ فيهِ : فزعمُهُ أَنَّ الناظمَ جعلَ اليدَ نضيجةً ، والحالُ أَنَّهُ لمْ يتعرَّضْ لها بنضجٍ ولا غيرِهِ ، وإِنَّما تعرَّضَ للكبدِ ، فجعلَها نضيجةً ، وهوَ المعقولُ ، والمحزونُ كثيراً ما يضعُ يدَهُ علىٰ كبدِهِ ؛ خَشيةَ الانفطارِ ممَّا يجدُهُ مِنْ حرارةِ الوجدِ ، ومثلُهُ كلُّ مَنْ فوجِىءَ بعظيمٍ يُهيلُ ، ولِما فيهِ مِنَ ٱلفوائدِ يقولُ جلَّ ٱسمُهُ لموسىٰ : ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص : ٣٢] .

اصطلام النار في الأكباد

وقالَ ٱبنُ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانهِ » مِنَ الطويل] :

عَشِيَّةَ أَثْنِيْ ٱلبُرْدَ ثُمَّ أَلُوْثُهُ	عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَقَطَّعَا

---

(١) وفي التنزيل : يسمَّى شَغَافاً، قال تعالى : ﴿قد شغفها حباً﴾ [يوسف : ٣٠].

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥ مِنَ الطويل] :

لِيَهْنِكِ إِمْسَاكِيْ بِكَفِّيْ عَلَىٰ ٱلْحَشَا وَرَقْرَاقِ دَمْعِيْ رَهْبَةً مِنْ مَطَالِكِ

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القشيريُّ [في « ديوانهِ » ٩٦ مِنَ الطويل] :

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ ٱلْحِمَىٰ ثُمَّ أَنْثَنِيْ عَلَىٰ كَبِدِيْ مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَقَطَّعَا

وقالَ عمرُ ٱبنُ أَبي ربيعةَ في كتابٍ منهُ إلىٰ الثريَّا [في « ديوانهِ » ٤٩٠ مِن مَجْزوءِ الوافر] :

فَيُمْسِكُ قَلْبَهُ بِيَدٍ وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدِ

وقالَ معاذُ بنُ كُليبٍ [مِنَ الطويل] :

فَقَدْ طَالَ إِمْسَاكِيْ عَلَىٰ ٱلْكَبِدِ ٱلَّتِيْ بِهَا مِنْ هَوَىٰ لَيْلَىٰ ٱلْغَدَاةَ صُدُوْعُ

وقالَ ٱبنُ ميَّادةَ [في « ديوانهِ » ١٣٣ مِنَ الطويل] :

عَشِيَّةَ أَثْنِيْ بِٱلرِّدَاءِ عَلَىٰ ٱلْحَشَا كَأَنَّ ٱلْحَشَا مِنْ دُوْنِهِ أُسْعِرَتْ جَمْرَا

وغنَّىٰ ٱلمهديَّ في قصَّةِ تطفُّلِهِ بقطعةٍ يقولُ فيها [مِنَ البسيط] :

لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ ٱلرَّحْمَـٰنَ عَافِيَةً مِمَّا بِهِ وَيَدٌ أُخْرَىٰ عَلَىٰ كَبِدِهْ

وقالَ عبدُ الصمدِ بنُ المُعَذَّلِ [مِنَ السَّريع] :

مُكْتَئِبٌ ذُوْ كَبِدٍ حَرَّىٰ تَبْكِيْ عَلَيْهِ مُقْلَةٌ عَبْرَىٰ
يَرْفَعُ يُمْنَاهُ إِلَىٰ رَبِّهِ يَدْعُوْ وَفَوْقَ ٱلْكَبِدِ ٱلْيُسْرَىٰ

وقالَ بعضُ الفقهاءِ عندَ خروجِهِ إلىٰ ٱلحجِّ مِنْ (بغدادَ) ، كما ذكرَهُ ٱبنُ خلِّكانَ [في «وفيات الأعيان» ٣/ ٢٦٠ مِنَ الطويل] :

مَدَدْتُ إِلَىٰ ٱلتَّوْدِيْعِ كَفًّا مَرِيْضَةً وَأُخْرَىٰ عَلَىٰ ٱلرَّمْضَاءِ فَوْقَ فُؤَادِيْ

فَلاَ كَانَ هَـٰذَا ٱلْيَوْمُ آخِرَ عَهْدِنَا وَلاَ كَانَ ذَا ٱلتَّوْدِيعُ آخِرَ زَادِي

تكرار هذا المعنى عند المتنبي

وقدْ تكرَّرَ المعنىٰ في « ديوانِ الناظمِ » غيرَ أنِّي لا أذكرُ منهُ إلاَّ ما أَشارَ إليهِ الشارحُ ، وهوَ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٣٦ مِنَ الخفيف] :

فِيهِ أَيْدِيكُمَا عَلَىٰ ٱلظَّفَرِ ٱلْحُلْـ ـوِ وَأَيْـدِي قَـوْمٍ عَلَـىٰ ٱلأَكْبَـادِ

بيت للمؤلف في الموضوع

وممَّا أَبرَّ في الموضوعِ قولي مِنْ قصيدةٍ [في « ديوان المؤلف » ق ٤٢ مِنَ الطويل] :

وَيَهْفُوْ بِقَلْبِيْ ٱلْوَجْدُ لَوْلاَ تَدَاوَلَتْ يَمِيْنِـيَ فِـيْ إِمْسَـاكِـهِ وَشِمَـالِـيْ

اختلاف الإشارات في التعبير

ورُبَّما وضعتِ ٱلمرأَةُ يدَها علىٰ رَأْسِها ، أَو علىٰ وجهِها مِنَ ٱلخجَلِ ، أَوِ ٱلوجلِ ، ومنهُ قولهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : ٢٩] .

الملك المتواضع

وقالَ رجلٌ مِنْ بني العنبرِ، وكانَ مملَّكاً ، ورأَتْهُ زوجُهُ يطحَنُ لضيفِهِ [مِنَ الطويل] :

تَقُـوْلُ وَصَكَّـتْ وَجْهَهَـا بِيَمِيْنِهَـا أَبَعْلِيَ هَـٰذَا بِٱلرَّحَا ٱلْمُتَقَاعِسِ ؟!

لا حياء في تعلم أمور الدين

وفي « الصحيحِ » : أَنَّ ٱمرأَةً سَأَلَتْ رسولَ اللهِ ﷺ : هَلْ علىٰ المرأَةِ مِنْ غُسلٍ إذا هيَ ٱحتلَمتْ ؟ فغطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ وجهَها ، وقالتْ : أَوَتحتلمُ المرأَةُ ؟ فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ : « تَرِبَتْ يَمِينُكِ ، وَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا ؟! » ، ثُمَّ قالَ للسائِلةِ : « نَعَمْ ، إِذَا رَأَتِ ٱلْمَاءَ »[1] . أَو ما يقرُبُ مِنْ هـٰذا السياقِ .

والكلامُ في ماءِ المرأةِ إيجاباً وسلْباً وصفةً . . لا يليقُ بالاستطرادِ

(١) رواه عن أم سلمة البخاري (٢٨٢) في الغسل، ومسلم (٣١٣) في الحيض .

في هـٰذا المجلسِ لاقتضائِهِ التطويلَ ، فلهُ مكانُهُ ، ورأَيتُ فيهِ مِنْ زمانٍ تأليفاً للسيِّدِ أحمدَ الحُسينيِّ المصريِّ .

النساء واختلاف التعبير عند الفزع

ويروىٰ : أَنَّ فزَعاً أَدركَ نساءً ثلاثاً ، فوضعتْ يدَها إِحداهُنَّ علىٰ ثديها ، والأُخرىٰ علىٰ بطنِها ، والثالثةُ علىٰ رَكَبِها[1] ، فقالَ بعضُ أَهلِ الأزكانِ[2] : أَمَّا الأُولىٰ : فمرضعٌ ، وأَمَّا الثانيةُ : فحُبلىٰ ، وأَمَّا الثالثةُ : فبِكرٌ . فكانَ كما قالَ .

* * *

(١) الرَّكَبُ ـ بالتحريكِ ـ : العانةُ ، وقيلَ : منبِتُها ، وقيلَ : هو ما انحدرَ عَنِ البطنِ فكانَ تحتَ الثُّنَّةِ ، وفوقَ الفَرْجِ .
(٢) أَهلُ الأزكانِ : أَهلُ الفِراسةِ .

[قال أبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٦ منَ المنْسرِح]:

يَا حَادِيَيْ عِيسِهَا وَأَحْسَبُنِيْ ... أُوْجَدُ مَيْتاً قُبَيْلَ أَفْقِدُهَا

قِفَا قلِيْلاً بِهَا عَلَيَّ فَمَا ... أَقَلَّ مِنْ نَظْرَةٍ أُزَوَّدُهَا

شرح المطلع

يقولُ لحُداةِ عيسِها : قفوا بها عليَّ قليلاً ؛ لأَتزوَّدَ منها نظرةً ، وقدِ اعترضَ بينَ النداءِ والمنادىٰ بقولِهِ : (وأَحسبُني أموتُ قُبيلَ تحرُّكِكُمْ بها) ، وهٰذا يُؤيِّدُ احتمالَ وصفِهِ حينَ الارتحالِ ، والجملةُ المعترضةُ المذكورةُ مأخوذةٌ مِنْ قولِ العربيِّ [منَ الخفيف] :

لَيْسَ بَيْنَ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ إِلاَّ ... أَنْ يَـرُدُّوا جِمَـالَهُـمْ فَتُـزَمَّـا[١]

لِمَ العجلة؟

وقدْ سمعَهُ عليُّ بنُ جعفرٍ مِنْ جاريتهِ الشطباءِ ، فطرِبَ ، وصاحَ ، وقالَ : يا سبحانَ اللهِ! ما هٰذهِ العجلةُ ؟ أَلا يُوكونَ قِربةً[٢] ، أَلاَ يعلِّقونَ سُفْرَةً[٣] ، أَلاَ يسلِّمونَ علىٰ جارٍ[٤] ؟!

الشعراء والموت من الفراق

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ؛ منه قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢٧-٣٢٨ منَ الكامِل] :

أَلْيَوْمَ عَهْدُكُمُ فَأَيْنَ ٱلْمَوْعِدُ؟ ... هَيْهَاتَ لَيْسَ لِيَوْمِ عَهْدِكُمُ غَدُ

---

(١) زَمَّ البعيرَ : إذا أَلبَسَهُ الزمام ، وهوَ اللجامُ .

(٢) الوكاء : الخيط الذي يشد به الكيس وغيره .

(٣) السُّفْرَةُ : طعامٌ يُتخذُ للمُسافرِ ومنهُ سُمِّيَتِ السفرةُ التي يوعىٰ فيها الطعام مجازاً .

(٤) كذا في « الأغاني » (٢٤/ ٣٥٨) .

اَلْمَوْتُ أَقْرَبُ مِخلَباً مِنْ بَيْنِكُمْ وَٱلْعَيْشُ أَبْعَدُ بَعْدَكُمْ لاَ تَبْعَدُوْا[1]

ولقدْ أَجادَ الحِلِّيُّ في قولِهِ [في «ديوانِهِ» ٦١٧ منَ الطويل] :

قِفِيْ وَدِّعِيْنَا قَبْلَ وَشْكِ ٱلتَّفَرُّقِ فَمَا أَنَا مَنْ يَحْيَا إِلَىٰ حِيْنِ نَلْتَقِيْ

وَأَلَمَّ بِهِ البُرَعِيُّ في قولِهِ [في «ديوانِهِ» ١٤١ منَ الكامل] :

أَعِـدِ ٱلْـوَدَاعَ فَمَـا أَرَاكَ تَـرَانِـيْ [وَأَطِلْ بُكَاكَ لِبَيْنِ أَهْلِ ٱلْبَانِ]

استيقاف العيس عند الشعراء

وما أَكثرَ ٱستيقافَ العيسِ للتزوُّدِ بالنظرِ حينَ الوداعِ في أَشعارِ العربِ ، منهُ قولُ عمرِو بنِ كُلثومٍ [في «ديوانِهِ» ٧٨ منَ الوافر] :

قِفِـيْ قَبْـلَ ٱلتَّفَـرُّقِ يَـا ظَعِيْنَـا نُخَبِّـرْكِ ٱلْيَقِيْـنَ وَتُخْبِـرِيْنَـا

وقولُ القُطاميِّ [في «ديوانِهِ» ٣١ منَ الوافر] :

[قِفِيْ] قَبْلَ ٱلتَّفَرُّقِ يَا ضُبَاعَا وَلاَ يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكِ ٱلْوَدَاعَا

قِفِـيْ فَـادِيْ أَسِيْـرَكِ إِنَّ قَـوْمِـيْ وَقَوْمَكِ لاَ أَرَىٰ لَهُمُ ٱجْتِمَاعَا

وقولُ قيسِ بنِ الخَطيمِ [في «ديوانِهِ» ٥٣ـ٥٤ منَ المنسرِح] :

رَدَّ ٱلْجِمَالَ ٱلْخَلِيْطُ فَٱنْصَرَفُوْا مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوَ ٱنَّهُمْ وَقَفُوْا[2]

لَـوْ وَقَفُـوا سَـاعَـةً نُسَـائِلُهُـمْ رَيْثَ يُضَحِّيْ جِمَالَهُ ٱلسَّلَفُ[3]

أول مـن قـال لفظـة (السلف)

وأَوَّلُ ما سُمِعَتْ لفظةُ (السَّلفِ) ٱلتي أَكثرَ الناسُ منها الآنَ مِنْ

---

(١) في «الديوانِ» و«العُكبَريِّ» : (أَبْعَدُ مِنْكُمْ) بدلَ (أَبْعَدُ بَعْدَكُمْ) .

(٢) الخليط : المخالطُ لهم في الدارِ .

(٣) يضحّي : من الضحَاء وهو أن ترعى الإبل ضحىً . السَّلَفُ : القومُ الذين يتقدّمونَ الظُّعُنَ في السيرِ .

هـٰذا الشعرِ ، ثُمَّ من قولِهِ ﷺ بعدَ مُواراةِ عثمانَ بنِ مظعونٍ : « نِعْمَ ٱلسَّلَفُ »[1] .

تفسير السلف

وفي بابِ الأذانِ مِنْ « حاشيةِ البجيرميِّ علىٰ فتحِ الوهَّابِ » تفسيرُ السَّلَفِ بالصحابةِ ، والخَلَفِ بمَنْ بعدَهُمْ ، وقالَ بعضُهُم : السلفُ مَنْ قبلَ الأَربعِ مئةٍ ، والخَلَفُ مَنْ بَعدَهُمْ .

وفي بابِ الجماعةِ منها : أَنَّ السلفَ هُم أَهلُ القرونِ الثلاثةِ الأُوَلِ ، والخَلَفُ مَنْ بعدَهُم .

والبيتانِ مِنْ كلمةٍ شاعرةٍ لقيسٍ ، وكانَ رجلاً شجاعاً ، جميلَ المنظرِ ، برَّاقَ الثنايا ، ما رأَتْهُ حليلةُ رجلٍ قطُّ إِلاَّ ذهبَ عقلُها ، وتمنَّتْ أَنْ يكونَ لها قِياضاً عن صاحبِها ، وكانَ يقسِمُ أَيَّامَهُ ثلاثاً ، يوماً : يحكُمُ بينَ قومِهِ ، ويوماً : ينشدُ شعرَهُ ، ويوماً : ينظرُ في المرآةِ إِلىٰ جمالِهِ .

وقالَ ٱبنُ الدُّمَيْنَةِ فيما نحنُ بسبيلِهِ [في « ديوانهِ » ١٣ منَ الطويل] :

قِفِي قَبْلَ وَشْكِ ٱلْبَيْنِ يَا ٱبْنَةَ مَالِكِ ... وَلاَ تَحْرِمِينَا نَظْرَةً مِنْ جَمَالِكِ
قِفِي يَا أُمَيْمَ ٱلْقَلْبِ نَقْضِيْ لُبَانَةً ... وَنَشْكُو ٱلْهَوَىٰ ثُمَّ ٱفْعَلِيْ مَا بَدَا لَكِ[2]

طلبُ وجيه

قالَ حبيبٌ [أبو تمّام في « ديوانهِ » ٢٤٢ منَ الكامل] :

مَا فِيْ وُقُوْفِكِ سَاعَةً مِنْ بَاسِ ... تَقْضِـيْ ذِمَـامَ ٱلأَرْبُـعِ ٱلأَدْرَاسِ

قالَ أَبو عبادةَ [منَ الخفيف] :

مَا عَلَىٰ ٱلرَّكْبِ مِنْ وُقُوْفِ ٱلرِّكَابِ ... فِيْ مَغَانِيْ ٱلصِّبَا وَرَسْمِ ٱلتَّصَابِيْ

(١) ومثله في دعاء الميت: «واجعله لنا سلفاً» قيل: هو من سلف المال، كأنه قد أسلفه وجعله ثمناً للأجر والثواب الذي يجازى على الصبر عليه.
(٢) اللُّبَانَةُ : الحاجةُ .

ولئنْ خرجَ هذان عنْ خصوصِ الاستيقافِ يومَ الرحيلِ . . فقد دخلا في عمومِهِ الشاملِ ؛ لقولِ ذِي الرُّمَّةِ [منَ الوافر] :

تَمَامُ ٱلْحَجِّ أَنْ تَقِفَ ٱلْمَطَايَا   عَلَىٰ خَرْقَاءَ وَاضِعَةَ ٱللِّثَامِ

نرجو من الله تعالى

وقالَ البغداديُّ [ابن زريقٍ في « ديوانه » منَ البسيط] :

وَأَعْطِفْ عَلَيَّ ٱلْمَطَايَا سَاعَةً فَعَسَىٰ   مَنْ شَتَّ شَمْلَ ٱلْهَوَىٰ بِٱلْبَيْنِ يَجْمَعُهُ

وقالَ الأندلسيُّ [إسماعيل بن محمد الشقندي في «نفح الطيب» ٣/ ٢٣٣ منَ البسيط] :

اسْتَوْقِفِ ٱلرَّكْبَ قَدْ لاَحَتْ لَكَ ٱلدَّارُ   وَٱسْأَلْ بِرَبْعٍ تَنَاءَتْ عَنْهُ أَقْمَارُ

لاَ خَفَّفَ ٱللهُ عَنِّيْ بَعْدَ بُعْدِهِمُ   فَإِنَّنِيْ سِرْتُ وَٱلأَحْبَابُ مَا سَارُوْا

ما سبب التفات المسافر العربي؟

ومِنْ مذاهبِ العربِ : ٱلتفاتُ المسافرِ رجاءَ العودِ .

قالَ شاعرُهُم [منَ الطويل] :

تَلَفَّتُّ أَرْجُوْ رَجْعَةً بَعْدَ نِيَّةٍ   فَكَانَ ٱلْتِفَاتِيْ زَائِداً فِيْ بَلاَئِيَا

ومنهُ قولُ الشريفِ الرضيِّ [في « ديوانهِ » منَ الكامل] :

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَىٰ طُلُوْلِهِمُ   وَرُسُوْمُهَا بِيَدِ ٱلْبِلَىٰ نُهْبُ

فَوَقَفْتُ حَتَّىٰ ضَجَّ مِنْ لَغَبٍ   نِضْوِيْ وَلَجَّ بِعَذْلِيَ ٱلرَّكْبُ

وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِيْ وَمُذْ خَفِيَتْ   عَنِّيْ ٱلطُّلُوْلُ تَلَفَّتَ ٱلْقَلْبُ

وقيلَ : إِنَّهُ لم يقصدِ ٱلتفاؤُلَ للرجوعِ ؛ إِذْ لا فائدةَ فيهِ ، وقدْ صارتْ نُهْباً بيدِ البِلىٰ ، وإِنَّما حملَهُ عليهِ فَرْطُ الوجْدِ ، وأَلَمُ التحسُّرِ .

من بدائع الاتفاق

وقد مرَّ بعضُهم بديارِ الشريفِ الرضيِّ ، فتمثَّلَ بالأبياتِ ؛ إِذْ رآها خاويةً علىٰ عُروشِها ، وعليها سِمَةُ الشرَفِ ، وأثارَةُ العِزِّ ، وهوَ لا يدري بصاحبِ الديارِ ، ولا بأنَّهُ قائلُ الأبياتِ ، فكانَ مِنْ بدائعِ الاتِّفاقِ .

أنت مسكين يا صمة

وقالَ الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القشيريُّ [في « ديوانه » ٩٤ منَ الطويل] :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ ٱلْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِي ... وَجِعْتُ مِنَ ٱلإِصْغَاءِ لِيْتاً وَأَخْدَعَا[1]

مِنْ قصيدةٍ لهُ فخمةِ اللفظِ ، منقَّحَةِ المعنىٰ ، قالَها حينَ تعنَّتَ عليهِ عمُّهُ وردَّهُ عن بنتِهِ ريَّا ، وكانَ قدْ جمعَ الإبلَ المعَيَّنَةَ لجَهازِها ، فلمَّا آيسَهُ عمُّهُ . . أطلقَ عُقُلَها ، وضرَبَها ، فعادَ كلُّ بعيرٍ إِلىٰ أَهلِهِ ، فقالتْ مخطوبَتُهُ : ما رأيتُ كاليومِ رجلاً ضيَّعَهُ قومُهُ[2] !

ومطلعُ القصيدةِ [في « ديوانهِ » ٩٤ منَ الطويل] :

حَنَنْتَ إِلَىٰ رَيَّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ ... مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا

ويأتي بعضُها في غضونِ هٰذهِ المجالسِ بحَسَبِ المناسباتِ ، وهيَ مِنْ أعذبِ الشعرِ وأشجاهُ ، وقد مرَّ في المجلسِ الأوَّلِ ما يشيرُ إِلىٰ بعضِ هٰذا .

وقالَ آخرُ [منَ الطويل] :

لَحَظْنَاهُمُ حَتَّىٰ كَأَنَّ عُيُونَنَا ... بِهَا لَقْوَةٌ مِنْ شِدَّةِ ٱللَّحَظَانِ[3]

---

(١) اللِّيْتُ : صفحةُ العنقِ . الأخدعانِ : عرقانِ خفيَّانِ في موضعِ الحجامةِ مِنَ العنقِ .

(٢) « ديوان الحماسة » (٢/ ٦٢) .

(٣) اللَّقْوَةُ : داءٌ يكونُ في الوجهِ يَعْوَجُّ منهُ الشِّدْقُ .

الألم ساعة الوداع عند الشعراء

وأمَّا ٱلشكايةُ مِنْ أَلَمِ النوىٰ ساعةَ الوداعِ : فممَّا لا يُحصىٰ كثْرَةً في أَشعارِهِم ، ومنهُ قولُ ٱمرئِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٤٤ منَ الطويل] :

كَـأَنِّـيْ غَـدَاةَ ٱلْبَيْـنِ يَـوْمَ تَحَمَّلُـوْا ... لَدَىٰ سَمُرَاتِ ٱلْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ[١]

وهوَ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ؛ منهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ منَ الطويل] :

حُشَاشَةَ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوْا ... فَلَـمْ أَدْرِ أَيَّ ٱلظَّـاعِنَيْـنِ أُشَيِّـعُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٧ـ٨ منَ الكامل] :

قَدْ كُنْتَ تَهْزَأُ بِٱلْفِرَاقِ مَجَانَةً ... وَتَجُـرُّ ذَيْلَـيْ شِـرَّةٍ وَعُـرَامِ[٢]

لَيْسَ ٱلْقِبَابُ عَلَىٰ ٱلرِّكَابِ وَإِنَّمَا ... هُنَّ ٱلْحَيَاةُ تَرَحَّلَتْ بِسَلَامِ[٣]

مُتَلَاحِظِيْنَ نَسُحُّ مَاءَ شُؤُوْنِنَا ... حَذَراً مِنَ ٱلرُّقَبَاءِ فِيْ ٱلآكَامِ[٤]

أَرْوَاحُنَا ٱنْهَمَلَتْ وَعِشْنَا بَعْدَهَا ... مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَىٰ ٱلأَقْدَامِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٥٩ منَ الكامل] :

أَرَكَـائِـبَ ٱلأَحْبَـابِ إِنَّ ٱلأَدْمُعَـا ... تَطِسُ ٱلْخُدُوْدَ كَمَا تَطِسْنَ ٱلْيَرْمَعَا[٥]

---

(١) غداةَ البينِ : صبيحةَ الفراقِ . السَّمُرَاتِ : شجرٌ في الحي ، جمع سَمُرة . ناقف الحنظل : أشقُّ الحنظل فتَدمعُ عينايَ ؛ لشدةِ مرارتهِ ؛ لأنَّ مَن يَشُقُّهُ يَجدُ أثرَ مرارتهِ في حلقهِ وأنفهِ وعينيهِ .

(٢) المَجَانةُ: الخلاعةُ. الشِّرَّةُ : الحدَّةُ والنشاطُ . العُرَامُ : الشدَّةُ والقوَّةُ والشراسةُ .

(٣) القبابُ : الهوادجُ . الركابُ : الإبلُ .

(٤) السَّحُّ : السكبُ المتتابع . الشؤونُ ـ جمعُ شَأْنٍ ـ : وهو مجرىٰ الدمعِ . الآكامُ ـ جمعُ أَكَمةٍ ـ : وهي القُفُّ مِنْ حجارةٍ واحدةٍ ، وقيلَ : هو دونَ الجبالِ ، وفي «الديوان» : (نَسُحُّ) بدل (نَسُح) ، و(ٱلأَكْمَامِ) بدل (ٱلآكَام) .

(٥) وَطَسَ الشيءَ : كسرَهُ ودقَّهُ . اليَرْمَعُ : حجارةٌ بيضٌ صغارٌ رخوةٌ .

فَاعْرِفْنَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَيْكُنَّ ٱلنَّوَىٰ ... وَٱمْشِيْنَ هَوْناً فِي ٱلأَزِمَّةِ خُضَّعَا[1]

قَدْ كَانَ يَمْنَعُنِيَ ٱلْحَيَاءُ مِنَ ٱلْبُكَا ... فَـالْيَـوْمَ يَمْنَعُـهُ ٱلْبُكَـا أَنْ يَمْنَعَـا

والأخيرُ مِنْ خالصِ الشعرِ ، ومختارِ الكلامِ ، وكنتُ أظنُّهُ مِنْ مخترعاتِهِ ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ أَبا ذؤيبٍ الهُذليَّ سبقَهُ إِلَىٰ بعضِهِ في قولِهِ [في «ديوانه» ١٤٦ منَ الكامل] :

وَلَقَـدْ أَرَىٰ أَنَّ ٱلْبُكَـاءَ سَفَـاهَـةٌ ... وَلَسَوْفَ يُوْلَعُ بِٱلْبُكَا مَنْ يُفْجَعُ

واقتفاهُ ابنُ مُطَيرٍ ، حيثُ يقولُ ـ مِنْ كلمةٍ لهُ مؤنَّقةٍ ـ [في «ديوانه» ٤٩ منَ الطويل] :

وَكُنْتُ أَذُوْدُ ٱلْعَيْنَ أَنْ تَرِدَ ٱلْبُكَا ... فَقَدْ وَرَدَتْ مَا كُنْتُ عَنْهُ أَذُوْدُهَا

ولا يبعدُ عنهُ قولُ كُثيِّرٍ [في «ديوانه» ٩٥ منَ الطويل] :

وَمَا كُنْتُ أَدْرِيْ قَبْلَ عَزَّةَ مَا ٱلْبُكَا ... وَلاَ مُوْجِعَاتِ ٱلدَّهْرِ حَتَّىٰ تَوَلَّتِ

وقولُ المجنونِ [منَ الطويل] :

وَأَبْكَيْتُمَانِيْ وَسْطَ صَحْبِيْ وَلَمْ أَكُنْ ... أُبَالِيْ دُمُوْعَ ٱلْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا

ويأتي بعضُ ما يشبِهُهُ في شرحِ قولِهِ [في «العُكبَريّ» ١/٣٠٨ منَ المنسرح] :

أَصْبَـحَ حُسَّـادُهُ وَأَنْفُسُهُـمْ ... يُحْـدِرُهَـا خَـوْفُـهُ وَيُصْعِـدُهَـا

وقُبَيلَ قولِهِ [في «العُكبَريّ» ٤/ ٣٤ منَ الطويل] :

فَثِبْ ـ وَاثِقـاً بِـاللهِ ـ وِثْبَـةَ مَـاجِـدٍ ... يَرَىٰ ٱلْمَوْتَ فِي ٱلْهَيْجَا جَنَىٰ ٱلنَّحْلِ فِيْ ٱلْفَمِ

---

(١) الأَزِمَّةُ ـ جمعُ الزِّمام ـ : وهو الحبلُ الذي يجعلُ في البُرَةِ والخشبةِ ، وفي عنقِ البعيرِ .

وفي الموضوعِ قولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٢٢٥ منَ الكامل] :

يَشْتَاقُ عِيسَهُـمُ أَنِينِـيْ خَلْفَهَـا ... تَتَوَهَّمُ الزَّفَرَاتِ رَجْعَ حُدَاتِهَا(١)

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ٢٤٦ منَ الكامل] :

لَمَّا تَقَطَّعَتِ ٱلْحُمُوْلُ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسِيْ أَسىً وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوْحُ(٢)

وَجَلاَ ٱلْوَدَاعُ مِنَ ٱلْحَبِيْبِ مَحَاسِناً ... حُسْـنُ ٱلْعِـزَاءِ وَقَـدْ جُلِيْـنَ قَبِيْحُ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ١١٥ منَ البسيط] :

وَكَـاتِـمُ ٱلْحُـبِّ يَـوْمَ ٱلْبَيْـنِ مُنْهَتِـكٌ ... وَصَاحِبُ ٱلدَّمْعِ لاَ تَخْفَىٰ سَرَائِرُهُ

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ١٦٢ منَ الكامل] :

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ ... لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِناً أَنْ يَحْذَرَا(٣)

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ١٩٤ منَ الكامل] :

إِنْ كُنْـتِ ظَـاعِنَـةً فَـإِنَّ مَـدَامِعِـيْ ... تَكْفِيْ مَزَاوِدَكُمْ وَتُرْوِيْ ٱلْعِيْسَا(٤)

---

(١) في «الديوان» : (زَجْرَ) بدل (رَجْعَ) . الحُداة : هم المغنُّونَ خلفَ الإبلِ .

(٢) الطُّلُوحُ ـ جمعُ طَلْح ـ : وهي شجرةٌ حجازيَّةٌ ، جَناتُها كجناةِ السَّمُرَةِ ، ولها شوكٌ أَحْجَنُ ، ومنابِتُها بطونُ الأوديةِ ، وهيَ أَعظمُ العِضَاهِ شوكاً ، وأصلبُها عوداً ، وأجودُها صَمْغاً ، والطلح أيضاً : الموز .

(٣) المعنى : كنت أحذر فراقهم قبل وقوعه ولكن الهالك لا ينفعه الحذر ، وفي «الديوان» : (خَائِفًا) بدل (حَائِنًا) والصواب ما هو مثبت .

(٤) مَزَاوِدَكم ـ جمع مِزْوَدٍ ـ : وهو وعاءٌ يجعلُ فيهِ الزادُ ، أو وعاءُ الماءِ الذي يُتزوَّدُ للسفرِ ، وهو المرادُ هنا . وفي «الديوان» و«العكبري» : (مَزَادَكُمْ) بدل (مَزَاوِدَكُمْ) .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٥ منَ الوافر] :

نَظَرْتُ إِلَيْهِمُ وَٱلْعَيْنُ شَكْرَىٰ ... فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٠٧ـ٣٠٨ منَ الطويل] :

وَلَمْ أَرَ كَٱلأَلْحَاظِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ ... بَعَثْنَ بِكُلِّ ٱلْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ
أَدَرْنَ عُيُوناً حَائِرَاتٍ كَأَنَّهَا ... مُرَكَّبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زِئْبَقِ
عَشِيَّةَ يَعْدُونَا عَنِ ٱلنَّظَرِ ٱلْبُكَا ... وَعَنْ لَذَّةِ ٱلتَّوْدِيعِ خَوْفُ ٱلتَّفَرُّقِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٤١ منَ الطويل] :

هُوَ ٱلْبَيْنُ حَتَّىٰ مَا تَأَنَّىٰ ٱلْحَزَائِقُ ... وَيَا قَلْبُ حَتَّىٰ أَنْتَ مِمَّنْ أُفَارِقُ[2]
وَقَفْنَا ومِمَّا زَادَ بَثّاً وُقُوفُنَا ... فَرِيقَيْ هَوىً: مِنَّا مَشُوقٌ وَشَائِقُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢١ـ٢٢٢ منَ الوافر] :

بِقَائِي شَاءَ لَيسَ هُمُ ٱرْتِحَالاَ ... وَحُسْنَ ٱلصَّبْرِ زَمُّوا لاَ ٱلْجِمَالاَ
تَوَلَّوْا بَغْتَةً فَكَأَنَّ بَيْناً ... تَهَيَّبَنِي فَفَاجَأَنِي ٱغْتِيَالاَ
كَأَنَّ ٱلْعِيسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِي ... مُنَاخَاتٍ فَلَمَّا ثُرْنَ سَالاَ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٣٤ منَ الكامل] :

حِدَقُ ٱلْحِسَانِ مِنَ ٱلْغَوَانِي هِجْنَ لِي ... يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ صَبَابَةً وَغَلِيلاَ[3]

---

(١) العينُ الشكرىٰ : الممتلئةُ بالدمعِ . المَاقُ : طرفُ العينِ مِمَّا يلي الأنفَ وهو مخرجُ الدمعِ مِنَ العينِ .
(٢) تأنّىٰ : تمهَّلَ وترفَّقَ. الحَزَائقُ : الجماعةُ مِنَ الناسِ .
(٣) الغليلُ والغُلَّةُ : شدَّةُ العطشِ وحرارتُهُ .

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ٢٢٠ منَ البسيط] :

قَدْ عَلَّمَ ٱلْبَيْنُ مِنَّا ٱلْبَيْنَ أَجْفَانَا   تَدْمَىٰ وَأَلَّفَ فِيْ ذَا ٱلْقَلْبِ أَحْزَانَا

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/١٩٦ منَ الكامل] :

بِنَّا فَلَوْ حَلَّيْتَنَا لَمْ تَدْرِ مَا   أَلْوَانُنَا مِمَّا ٱمْتُقِعْنَ تَلَوُّنَا[1]
أَفْدِيْ ٱلْمُوَدِّعَةَ ٱلَّتِيْ أَتْبَعْتُهَا   نَظَراً فُرَادَىٰ بَيْنَ زَفَرَاتٍ ثُنَا

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٣٤٢ منَ المتقارب] :

فَوَاحَسْرَتَا مَا أَمَرَّ ٱلْفِرَاقَ   وَأَعْلَقَ نِيْرَانَهُ بِٱلْكُبُوْدِ

ويعجبُني قولُ بعضِهِم في شكوىٰ الفِراقِ [منَ الخفيف] :

إِنَّ يَوْمَ ٱلْوَدَاعِ قَطَّعَ قَلْبِيْ   قَطَّعَ ٱللهُ قَلْبَ يَوْمِ ٱلْوَدَاعِ

وقولُ الآخرِ [منَ الكامل] :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُمْ نَذَرُوْا دَمِيْ   أَوَلِيْ دَمٌ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ يُرَاقُ ؟!

وقولُ ٱبنِ الفارضِ [في «ديوانهِ» ١٥٢ منَ الكامل] :

وَبِمَا جَرَىٰ فِيْ مَوْقِفِ ٱلتَّوْدِيْعِ مِنْ   أَلَمِ ٱلنَّوَىٰ شَاهَدْتُ هَوْلَ ٱلْمَوْقِفِ

وقولُ ٱبنِ عبدِ ربِّهِ [في «ديوانهِ» ١٤٠ منَ الخفيف] :

وَدَّعَتْنِيْ بِزَفْرَةٍ وَٱعْتِنَاقِ   ثُمَّ قَالَتْ مَتَىٰ يَكُوْنُ ٱلتَّلاقِيْ؟
إِنَّ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ أَفْظَعُ يَوْمٍ   لَيْتَنِيْ مِتُّ قَبْلَ يَوْمِ ٱلْفِرَاقِ

---

(١) حلَّيتنا: وصفتنا. امتُقِعَ: تغيَّرَ لونُهُ مِنْ حُزنٍ أَو فزعٍ أَو حياءٍ . وفي «الديوان» : (بِتْنَا) بدل (بِنَّا) ، و(ٱستُفِعْنَ) بدل (ٱمْتُقِعْنَ). ومعنى البيت: تفرَّقنا، فلِعِظَم ما نالنا من ألم الفراق، لو أردت أن تصفنا . . ما قدرت؛ لتغيُّر أوصافنا، فكنت لا تدري بأي لون تصفنا.

ومِنْ أرقِّ ما فيهِ ، وأبعثِهِ للأشجانِ ، وتحريكِهِ للبلابلِ : قولُ [ٱبْنِ] اللَّبَّانَةِ في توديعِ المعتمدِ بنِ عبَّادٍ ، وهوَ [منَ البسيط] :

تودیع ابن اللبانة للمعتمد بن عباد

تَبْكِيْ ٱلسَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِيْ ... عَلَىٰ ٱلْبَهَالِيْلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ

عَلَىٰ ٱلْجِبَالِ ٱلَّتِيْ هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا ... وَكَانَتِ ٱلأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ

عِرِّيْسَةٌ دَخَلَتْهَا ٱلنَّائِبَاتُ عَلَىٰ ... أَسَاوِدٍ مِنْهُمُ فِيْهَا وَآسَادِ[١]

وَكَعْبَةٌ كَانَتِ ٱلآمَالُ تَخْدِمُهَا ... وَٱلْيَوْمَ لاَ عَاكِفٌ فِيْهَا وَلاَ بَادِيْ

يَا ضَيْفُ أَقْفَرَ بَيْتُ ٱلْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ ... فِيْ ضَمِّ شَمْلِكَ وَٱجْمَعْ فَضْلَةَ ٱلزَّادِ

لَمَّا دَنَا ٱلْوَقْتُ لَمْ تُخْلَفْ لَهُ عِدَةٌ ... وَكُلُّ شَيْءٍ بِمِيْقَاتٍ وَمِيْعَادِ

إِنْ يُغْلَبُوْا فَبَنُوْ ٱلْعَبَّاسِ قَدْ غُلِبُوْا ... وَقَدْ خَلَتْ قَبْلَ حِمْصٍ أَرْضُ بَغْدَادِ

نُسِيْتُ إِلاَّ غَدَاةَ ٱلنَّهْرِ يَوْمَ غَدَوْا ... فِيْ ٱلْمُنْشَآتِ كَأَمْوَاتٍ بِأَلْحَادِ

وَٱلنَّاسُ قَدْ مَلَؤُوْا ٱلْعِبْرَيْنِ وَٱعْتَبَرُوْا ... وَأَرْسَلُوْا ٱلدَّمْعَ حَتَّىٰ فَاضَ فِيْ ٱلْوَادِيْ[٢]

حَانَ ٱلْوَدَاعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ ... وَصَارِخٍ مِنْ مُفَدَّاتٍ وَمِنْ فَادِيْ

سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَٱلنَّوْحُ يَتْبَعُهَا ... كَأَنَّهَا إِبِلٌ يَحْدُوْ بِهَا ٱلْحَادِيْ

كَمْ سَالَ فِيْ ٱلْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ ... تِلْكَ ٱلْقَطَائِعُ مِنْ أَفْلاَذِ أَكْبَادِ

وفي وصفِ ذلِكَ اليومِ بعينِهِ يقولُ ٱبنُ حَمْدِيْسَ [في « ديوانهِ » ٢٦٩ منَ الطويل] :

وَلَمَّا رَحَلْتُمْ بِٱلنَّدَىٰ فِيْ أَكُفِّكُمْ ... وَقُلْقِلَ رَضْوَىٰ مِنْكُمُ وَثَبِيْرُ[٣]

---

(١) العِرِّيسَةُ : مأوى الأسد .

(٢) العِبرَين : طَرَفا النهر .

(٣) قلقلَ : اضطرب . رضوى : اسمُ جبلٍ بـ(المدينةِ) ، و ثبيرُ : اسمُ جبلٍ بين (مكةَ) و(منى)، ومنه قيل: أشرق ثبير كما نغير .

رَفَعْتُ لِسَانِيْ بِالْقِيَامَةِ قَدْ دَنَتْ فَهَـٰذِيْ ٱلْجِبَالُ ٱلرَّاسِيَاتُ تَسِيْرُ

وقد نظرَ فيهِ إلىٰ قولِ ٱبنِ المعتزِّ في رِثاءِ ٱبنِ الفراتِ [في « ديوانه » ٣٢٦ منَ السّريع] :

هَـٰذَا أَبُوْ ٱلْعَبَّاسِ فِيْ نَعْشِـهِ قُوْمُوْا ٱنْظُرُوْا كَيْفَ تَسِيْرُ ٱلْجِبَالْ

وأغارَ عليهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكْبَريّ » ١٢٩/٢ منَ الكامل] :

مَا كُنْتُ آمُلُ قَبْلَ نَعْشِكَ أَنْ أَرَىٰ رَضْوَىٰ عَلَىٰ أَيْدِيْ ٱلرِّجَالِ تَسِيْرُ

ابن درّاج وزوجته

ومَنِ ٱلذي لا تهيجُ أَشجانُهُ ، ولا تضطربُ أَحزانُهُ ، ولا تضطرمُ نيرانُهُ عندَما يسمعُ قولَ ٱبنِ درَّاجٍ ، وقد عزمَ علىٰ المسيرِ ، وخنقَهُ وزوجَهُ الشهيقُ والزفيرُ [في « ديوانِهِ » ٢٥٠ منَ الطويل] :

تُـرَاجِعُنِـيْ عَهْـدَ ٱلْمَـوَدَّةِ وَٱلْهَـوَىٰ وَفِيْ ٱلْمَهْدِ مَبْغُوْمُ ٱلنِّدَاءِ صَغِيْرُ[1]
عَيِـيٌّ بِمَـرْجُـوْعِ ٱلْخِطَـابِ وَإِنَّـهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ [ٱلنُّفُوْسِ] خَبِيْرُ

لله درك يا ابن زريق

وقولَ ٱبنِ زُريقٍ [البغداديّ في « ديوانِهِ » منَ البسيط] :

وَكَمْ تَشَبَّثَ بِيْ يَوْمَ ٱلرَّحِيْلِ ضُحىً وَأَدْمُعِـيْ مُسْتَهِـلاَّتٌ وَأَدْمُعُـهُ
وَكَـمْ تَشَفَّـعَ بِـيْ أَلاَّ أُفَـارِقَـهُ وَلِلضَّـرُوْرَاتِ حَـالٌ مَـا يُشَفِّعُـهُ

ولا نبخسُ الشيخَ البُرعيَّ حقَّهُ مِنَ الرقَّةِ والعذُوبَةِ في أَمثالِ قولِهِ [في « ديوانِهِ » ١١١ منَ الكامل] :

بِأَبِيْ مُوَدِّعَةٌ تَخَافَتَ صَوْتُهَا خَوْفَ ٱلرَّقِيْبِ وَعَيْنُهَا تَتَمَالاَ
قَالَتْ: تُوَدِّعُنَا ، فَقُلْتُ لَهَا: نَعَمْ قَالَتْ : فَتَنْسَانَا ، فَقُلْتُ لَهَا : لاَ

---

(١) البَغْمُ : الصوتُ الرخيمُ .

وقالَ شيخُنا العلاَّمةُ أبو بكرِ بنُ شهابٍ مِنْ قصيدةٍ تخلَّصَ فيها إلى مدحِ جدِّي ٱلمُحسنِ [منَ الوافر] :

وَلَمْ أَنسَ ٱلْوَدَاعَ وَمَا جَرَىٰ لِيْ ... غَـدَاةَ ٱلْبَيْـنِ إِذْ عَـزَّ ٱلْمَقَـامُ

بَكَتْ خَوْفَ ٱلنَّوَىٰ وَبَكَيْتُ قَهْراً ... دَمـاً فَبِهَـا وَبِـيْ لَعِـبَ ٱلْغَـرَامُ

تَبُثُّ إِلَـيَّ شَكْـوَاهَـا فَـأَشْكُـوْ ... إِلَيْهَـا وَٱلـدُّمُـوْعُ لَهَـا ٱنْسِجَـامُ

وَقَالَتْ لِيْ: أَتَرْجِعُ عَنْ قَرِيْبٍ ؟ ... فَقُلْـتُ : نَعَـمْ وَلِلـدَّهْـرِ ٱحْتِكَـامُ

وكمْ لي فيهِ مِنْ مثيرِ غرامٍ ، ومدجَّجِ ضرامٍ ، منهُ قولي [في « ديوان المؤلف » ٥٢٥ منَ الطويل] :

قصيدة للمؤلف في الموضوع

تَذَكَّرْتُ شَرْقِيَّ ٱلْحِمَىٰ مَنْبِتَ ٱلأَثْلِ ... وَمَا أَصْعَبَ ٱلذِّكْرَىٰ عَلَىٰ ذِيْ ٱلْوَفَا مِثْلِي[1]

مَشَـارِفُ مَـا فِيْهِـنَّ لِلْعَيْـنِ مَنْظَـرٌ ... يَرُوْقُ سِوَىٰ شَيْءٍ مِنَ ٱلسِّدْرِ وَٱلنَّخْلِ

فَمَا زَرْعُهَا زَاكٍ وَلاَ ثَمَّ قَاطِنٌ ... بِهَا غَيْرُ شَاكٍ قِلَّةَ ٱلأَمْنِ وَٱلْعَدْلِ

وَلَٰكِنَّ فِيْهَا نَشْأَتِيْ وَوِلاَدَتِيْ ... وَخَلَّفْتُ فِيْهَا صِبْيَتِيْ وَبِهَا أَهْلِي

فَمَـا فِـي بِـلاَدِ ٱللهِ أَرْضٌ كَمِثْلِهَـا ... لَدَيَّ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلأَزْلِ[2]

وَلَمْ أَنسَ فِيْ يَوْمِ ٱلْوَدَاعِ مَوَاقِفاً ... لَوَاعِجُهَا فِيْ ٱلْقَلْبِ أَشْوَىٰ مِنَ ٱلثُّكْلِ

تُـرَاجِعُنِـيْ فِيْهَـا ٱلْهَـوَىٰ أُمُّ شَـادِنٍ ... وَأَجْفَانُهَا تَجْرِيْ وَأَشْجَانُهَا تَغْلِي[3]

وَتَلْـوِيْ بِلِيْتَيْهَـا مَخَـافَـةَ طِفْلَـةٍ ... تَرَىٰ مَا بِهَا مِنْ حَسْرَةِ ٱلْبَيْنِ أَوْ طِفْلِ

تَصُـدُّ لإِيْهَـامِ ٱلأُطَيْفَـالِ تَـارَةً ... وَتُقْبِـلُ أَحْيَـانـاً بِفَـوَّارَتَـيْ وَبْـلِ[4]

---

(١) الأَثْلُ : نوعٌ من أجود الشجر .

(٢) الأَزْلُ : الضيقُ والشدَّةُ .

(٣) الشَّادنُ : من أولاد الظباء الذي قويَ وطلعَ قرناهُ واستغنىٰ عن أُمِّهِ .

(٤) فوَّارتا الويل : المراد بهما العيونُ الدَّامعَةُ .

وَيَمْنَعُهَا سَوْقَ ٱلْمَقَالِ نَشِيجُهَا سِوَىٰ كَلِمَاتٍ سَاقَطَتْهَا عَلَىٰ رِسْلِ
تَقُولُ إِلَىٰ أَيْنَ ٱلسُّرَىٰ بَعْدَمَا تَرَىٰ فَلَيْسَ لَنَا ذَرْعٌ عَلَىٰ فُرْقَةِ ٱلشَّمْلِ
فَقُلْتُ : قَرِيباً تَنْطَوِيْ شُقَّةُ ٱلنَّوَىٰ وَيُعْقِبُهَا مِنْ فَضْلِهِ ٱللهُ بِٱلْوَصْلِ

الخلاف في شأن التوديع

ثُمَّ إِنَّ الأدباءَ علىٰ ٱختلافٍ في شأنِ التوديعِ :

١ـ عصفور باليد أفضل من عشر على الشجر

فمنهُم : مَنْ أَحبَّهُ لتقريبهِ مِنَ ٱلعناقِ والاتِّصالِ ، كما قالَ الناظمُ [في « العُكْبَريِّ » ٢/ ٦٠ منَ الطويل] :

وَمَنْ لِيْ بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمٍ كَرِهْتُهُ قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ ٱلْوَدَاعِ مِنَ ٱلْبُعْدِ

وقالَ الأندلسيُّ [إبراهيم الحجاري في «نفح الطيب» ٣/ ٤١١ منَ الطويل] :

لَئِنْ كَرِهُوْا يَوْمَ ٱلْوَدَاعِ فَإِنَّنِيْ أَهِيمُ بِهِ وَجْداً لأَجْلِ عِنَاقِهِ
أُصَافِحُ مَنْ أَهْوَاهُ غَيْرَ مُرَاقَبٍ وَسِرُّ ٱلتَّلَاقِيْ مُوْدَعٌ فِيْ فِرَاقِهِ

وأَنشدَ ٱلمبرِّدُ [منَ الخفيف] :

مُتِّعَا بِٱلْفِرَاقِ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ مُسْتَجِيرَيْنِ بِٱلْبُكَا وَٱلْعِنَاقِ
وَأَظَلَّ ٱلْفِرَاقُ فَٱلْتَقَيَا فِيْـ ـهِ فِرَاقٌ أَتَاهُمَا بِٱتِّفَاقِ
كَيْفَ أَدْعُوْ عَلَىٰ ٱلْفِرَاقِ بِحَتْفٍ وَغَدَاةَ ٱلْفِرَاقِ كَانَ ٱلتَّلَاقِيْ

وهيَ أَبياتٌ باردةٌ متكلَّفةٌ .

٢ـ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح

ومنهُم : مَنْ كرهَهُ لإفضائِهِ إِلىٰ الاحتراقِ ، ومبلغِ الروحِ التَّراقِ ، وبسطُ ما فيهِ يُفضي إِلىٰ الإملالِ ، فلندعْهُ إِلىٰ فُرصةٍ أُخرىٰ .

المحب شقي على كل الأحوال

وقالَ الحماسيُّ [في «ديوان الحماسة» ٢/ ١٢٤ منَ الوافر] :

وَمَا فِيْ ٱلأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْ مُحِبٍّ وَإِنْ وَجَدَ ٱلْهَوَىٰ حُلْوَ ٱلْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِياً فِيْ كُلِّ وَقْتٍ مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لاشْتِيَاقِ

فَيَبْكِـيْ إِنْ نَـأَوْا شَـوْقـاً إِلَيْهِـمْ وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ ٱلْفِرَاقِ

وقدْ نظرَ إليهِ الناظمُ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٦٦ منَ المنسرح] :

وَاحَـرَبَـا مِنْـكِ يَـا جِـدَايَتَهَـا مُقِيمَةً فَاعْلَمِي وَمُرْتَحِلَهْ!(١)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٠٤ منَ الطويل] :

وَبَيْنَ ٱلرِّضَا وَٱلسُّخْطِ وَٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ مَجَالٌ لِدَمْعِ ٱلْعَاشِقِ ٱلْمُتَرَقْرِقِ(٢)

ويعجبُني قولُ بعضِهِم [منَ الطويل] :

حَبِيْبِيْ غَداً لاَ شَكَّ فِيْهِ مُوَدِّعُ فَوَٱللهِ مَا أَدْرِيْ بِهِ كَيْفَ أَصْنَعُ
فَيَا يَوْمُ لاَ أَدْبَرْتَ هَلْ لَكَ مَحْبِسٌ وَيَا غَدُ لاَ أَقْبَلْتَ هَلْ لَكَ مُدْفِعُ ؟
إِذَا لَـمْ أُشَيِّعْـهُ تَقَطَّعْـتُ حَسْـرَةً وَوَاكَبِـداً إِنْ كُنْـتُ مِمَّـنْ يُشَيِّـعُ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٤٨ منَ الوافر] :

وَفَـارَقْـتُ ٱلْحَبِيْـبَ بِـلاَ وَدَاعٍ وَوَدَّعْـتُ ٱلْبِـلاَدَ بِـلاَ سَـلاَمِ

وقالَ مِهْيَارٌ [منَ الكامل] :

صُلْبُ ٱلْحَصَاةِ يَثُوْرُ غَيْرَ مُزَوَّدٍ مِـنْ أَهْلِـهِ وَيَسِيْـرُ غَيْـرَ مُـوَدَّعِ

الاقتناع باليسير من المحبوب عند الشعراء

وأمَّا الاقتناعُ باليسيرِ مِنَ ٱلمحبوبِ : فإنَّهُ كثيرٌ في الأشعارِ ؛ منهُ قولُ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣ منَ الوافر] :

---

(١) الحَرَبُ: الهلاكُ . الجِدَايَةُ ـ بفتحِ الجيمِ وكسرِهَا ـ : الذَّكرُ والأُنثىٰ مِنْ أَولادِ الظِّباءِ . والمعنىٰ : أنَّهُ يندبُ حظَّهُ مِنْ ظبيةِ هـٰذهِ الدارِ ؛ لأنَّها إذا أقامتْ منعتْهُ مِنَ الوصولِ إليها ، والسفرُ حائلٌ بينهُ وبينها ، فقربُها وبعدُها سيانِ .

(٢) المترقرقِ : الذي يجولُ في العينِ ولا ينحدرُ . وفي «الديوان» : (ٱلْمُقْلَةِ) بدل (ٱلْعَاشِقِ) .

وَجُـوْدَكَ بِـالْمُقَـامِ وَلَـوْ قَلِيْـلاً   فَمَـا فِيْمَـا تَجُـوْدُ بِـهِ قَلِيْـلُ[1]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٣٤ منَ الكامل] :

وَقَنِعْـتُ بِـالْلُّقْيَـا وَأَوَّلِ نَظْـرَةٍ   إِنَّ الْقَلِيْـلَ مِـنَ الْحَبِيْـبِ كَثِيْـرُ

وقالَ ابنُ الطَّثْرِيَّةِ [في « ديوانهِ » ٩٧ منَ الطويل] :

أَلَيْـسَ قَلِيْـلاً نَظْـرَةٌ إِنْ نَظَـرْتُهَـا   إِلَيْكِ ؟ وَكَلاً لَيْسَ مِنْكِ قَلِيْلُ

وقالَ ابنُ أبي ربيعةَ [في « ديوانهِ » ٢٧٥ منَ الخفيف] :

لَيْتَ حَظِّيْ كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا   وَكَثِيْـرٌ مِنْهَـا الْقَلِيْـلُ الْمُهَنَّـا

أَوْ حَـدِيْـثٍ عَلَىٰ خَـلاَءٍ يُسَلِّـيْ   مَـا يُجَنِّـيْ الْفُـؤَادَ مِنْهَـا وَمِنَّـا

كَبُـرَتْ رُبَّ نِعْمَـةٍ مِنْـكِ يَـوْمـاً   أَنْ أَرَاهَـا قَبْـلَ الْمَمَـاتِ وَمِنَّـا

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ٢/ ٩١٣ منَ الطويل] :

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ تَعَلُّلُ سَاعَةٍ   قَلِيْـلاً فَـإِنِّـيْ نَـافِـعٌ لِـيْ قَلِيْلُهَـا

وقالَ ابنُ مُطَيْرٍ [في « ديوانه » ٥٤ منَ الطويل] :

كَلاَمُكِ ـ يَا سَلْمَىٰ ـ وَإِنْ قَلَّ نَافِعِيْ   فَلاَ تَحْسَبِيْ أَنِّيْ وَإِنْ قَلَّ حَاقِرُهْ

وقالَ إسحاقُ المَوْصِليُّ [في « معجم الأُدباءِ » ٦/ ٤٠ منَ الخفيف] :

إِنَّ مَـا قَـلَّ مِنْـكِ يَكْثُـرُ عِنْـدِيْ   وَكَثِيْـرٌ مِمَّـنْ تُحِـبُّ قَلِيْـلُ

وقالَ أبو نصرٍ الميكاليُّ [منَ الوافر] :

قَلِيْـلٌ مِنْـكِ يَكْفِيْنِـيْ وَلَكِـنْ   قَلِيْلُـكِ لاَ يُقَـالُ لَـهُ قَلِيـلُ

---

(١) أي : وجُدْ جودكَ .

وقد تنوَّقَ[1] فيهِ سلطانُ العاشقينَ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٤٧ منَ الطويل] :

عند سلطان العاشقين

أَرَاكِ فَمِـنْ قَبْلِـيْ لِغَيْـرِيَ لَـذَّتِ وَمُنِّيْ عَلَىٰ سَمْعِيْ بِـ(لَنْ) إِنْ مَنَعْتِ أَنْ[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥٧ منَ الخفيف] :

ذَابَ قَلْبِـيْ فَـأْذَنْ لَـهُ يَتَمَنَّـا كَ وَفِيْـهِ بَقِيَّـةٌ لِـرَجَـاكَـا

وَإِذَا لَـمْ تُنْعِشْ بِـرَوْحِ ٱلتَّمَنِّـيْ رَمَقِـيْ وَٱقْتَضَـىٰ فَنَائِـيْ بَقَـاكَـا

أَبْـقِ لِـي مُهْجَـةً لَعَلِّـيَ يَـوْمـاً قَبْلَ مَوْتِيْ أَرَىٰ بِهَا مَنْ رَآكَا

أَوْ مُرِ ٱلْغُمْضَ أَنْ يَمُرَّ بِجَفْنِي فَكَـأَنِّـيْ بِـهِ مُطِيْعـاً عَصَـاكَـا[3]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٦ منَ الطويل] :

وَلِيْ مِنْكِ كَافٍ إِنْ هَدَرْتِ دَمِيْ وَلَمْ أُعَـدَّ شَهِيْـداً عِلْـمُ دَاعِـيْ مَنِيَّتِـيْ

الروذباري والشاب الطريح

وفي ترجمةِ الرُّوذَباريِّ المتوفَّىٰ سنةَ : (٣٢٠ هـ) مِنْ « طبقاتِ ٱبنِ السبكيِّ » [٤٩/٣] : أَنَّهُ مرَّ بشابٍّ طريحٍ فقالوا : إِنَّهُ ٱجتازَ بهٰذا القصرِ وجاريةٌ تغنِّي وتقولُ [من مجزوء الرَّمَل] :

كَبُـرَتْ هِمَّـةُ عَبْـدِ طَمِعَـتْ فِـي أَنْ تَـرَاكَـا

أَوَمَـا يَكْفِـيْ لِعَيْنِـيْ أَنْ تَـرَىٰ مَـنْ قَـدْ رَآكَـا

---

(١) تنوَّق فلانٌ في أُمورِهِ : إذا تجوَّدَ وبالغَ وأَحكمَ .

(٢) للبيت نكتة لطيفة : وهي أن ابن الفارض طلب منها أن تقول له : لن تراني ؛ لأن هذا فيه وعد بأن يراها في المستقبل ، حيث إن النفي بـ (لن) يفيد النفي في الحال فقط ، وعكسه رأي المعتزلة : فإنها تفيد عندهم النفي على التأبيد . وهو مذهب باطل ، والله أعلم .

(٣) الغُمْضُ : النَّوْمُ .

وِمنَ ٱلغاياتِ في هٰذا الباب قَوْلُ ٱبنِ ٱلدُّمَيْنَةِ [في « ديوانه » منَ الطويل] :

رَضِيتُ بِسَعْيِ ٱلْوَهْمِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْوَصْلِ مِنْهُ نَصِيبُ

وقالَ آخرُ [منَ الطويل] :

قِفِي نَوِّلِينِي نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتُهَا إِلَىٰ ٱلْحَوْلِ تَكْفِينِي عَنِ ٱلْمَاءِ وَٱلزَّادِ

وهو مثلُ قولِ الناظمِ [في « العُكْبَريّ » ٢/٤٧ منَ الخفيف] :

هَٰذِهِ ٱلنَّظْرَةُ ٱلَّتِي نَالَهَا مِنْـ ـكَ إِلَىٰ مِثْلِهَا مِنَ ٱلْحَوْلِ زَادُهْ

امرأة في الطواف

وقالَ بعضُهُم [كما في « المستطرف » ١/٤٤٢] : رأيتُ ٱمرأةً مستقبلةً البيتَ في ٱلموسمِ ، وهيَ علىٰ غايةٍ مِنَ ٱلنحافةِ والضُّرِّ ، رافعةً يديها تدعو ، فقلتُ لها : هل لكِ مِنْ حاجةٍ ؟ قالت : حاجتي أَنْ تُنادي في الموقفِ بقولي [منَ الخفيف] :

تَزَوَّدَ كُلُّ ٱلنَّاسِ زَاداً يُقِيمُهُمْ وَمَالِيَ زَادٌ وَٱلسَّلَامُ عَلَىٰ نَفْسِي

ففعلتُ ، فَإِذَا أَنا بفتىً منهوكِ القوىٰ ، يقولُ : أَنا وٱللهِ الزادُ ، فمضيتُ بهِ إِليها ، فما زادوا علىٰ النظرِ والتباكي ، ثُمَّ قالتْ لهُ : ٱنصرفْ مصاحباً ، فقلتُ : ما علمتُ أَنَّ ٱلتقاءَكُما يكونُ قاصراً علىٰ هٰذا ، فقالتْ : أَمسكْ يا فتىٰ ، أَما علمتَ أَنَّ ركوبَ العارِ ودخولَ النارِ شديدٌ ؟! .

وقالَ بعضُهُم [منَ الطويل] :

أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي ٱلسَّمَاءِ تَرَدُّداً لَعَلِّي أَرَىٰ ٱلنَّجْمَ ٱلَّذِي أَنْتَ تَنْظُرُ

وَأَسْتَعْرِضُ ٱلرُّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ... لَعَلِّيْ بِمَنْ قَدْ شَمَّ عَرْفَكَ أَظْفَرُ[1]
وَأَسْتَقْبِلُ ٱلأَرْوَاحَ عِنْدَ هُبُوْبِهَا ... لَعَلَّ نَسِيْمَ ٱلرِّيْحِ عَنْكَ يُخَبِّرُ

وقالَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ [في «ديوانِهِ» ٤١٩ منَ الطويلِ] :

وَإِنِّيْ لأَرْضَىٰ مِنْكِ يَا عَزَّ بِالَّذِيْ ... لَوَ ٱبْصَرَهُ ٱلْوَاشِيْ لَقَرَّتْ بَلاَبِلُهْ[2]
بِلاَ ، وَبِأَنْ لاَ أَسْتَطِيْعُ ، وَبِالْمُنَىٰ ... وَبِالْوَعْدِ ، وَٱلتَّسْوِيْفِ قَدْ مَلَّ آمِلُهْ
وَبِالنَّظْرَةِ ٱلْعَجْلَىٰ ، وَبِالْحَوْلِ يَنْقَضِيْ ... أَوَاخِـرُهُ مَـا نَلْتَقِـيْ وَأَوَائِلُـهْ

وقالَ جَحْدَرٌ [في «خزانةِ الأدبِ» ١١/ ٢٠٩ منَ الوافرِ] :

أَلَيْسَ ٱللَّيْـلُ يَجْمَـعُ أُمَّ عَمْـرٍو ... وَإِيَّـانَـا فَـذَاكَ بِنَـا تَـدَانِـيْ ؟
نَعَمْ ، وَأَرَىٰ ٱلْهِلاَلَ كَمَا تَرَاهُ ... وَيَعْلُـوْهَـا ٱلنَّهَـارُ كَمَـا عَـلاَنِـيْ

ويأْتي ما يتعلَّقُ بهِ عندَ شرحِ قولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/ ١٦٤ منَ البسيطِ] :

يُجَـنُّ شَـوْقـاً فَلَـوْلاَ أَنَّ رَائِحَـةً ... تَزُوْرُهُ مِنْ رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

مِنَ ٱلمجلسِ السابعِ .

وعندَ قولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٣١٩ منَ الخفيفِ] :

أَيَّ يَـوْمٍ سَـرَرْتَنِـيْ بِـوِصَـالٍ ... لَـمْ تَـرُعْنِـيْ ثَـلاَثَـةً بِصُـدُوْدِ

أَواخرَ المجلسِ التاسعِ .

* * *

---

(١) العَرْفُ : الريحُ ، طيِّبةً كانتْ أَوْ خبيثةً ، يُقَالُ : ما أَطْيَبَ عَرْفَهُ .
(٢) الوَاشِي : النَّمَّامُ . البَلابِلُ : شدَّةُ الهمِّ والوَسْوَاسِ في الصُّدُورِ .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٧ منَ المنسرح]:

بَـانُـوْا بِخُـرْعُـوْبَـةٍ لَهَـا كَفَـلٌ يَكَادُ عِنْدَ ٱلْقِيَامِ يُقْعِدُهَا[1]

المرأة ممدوحة بكبر العجيزة

يقولُ : ذهبوا بشابَّةٍ بَضَّةٍ[2] لها كَفَلٌ ، يكادُ يُقعدُها ما عليهِ مِنْ كثرةِ اللحمِ ، وهـٰذا أَيضاً يُؤَيِّدُ الاحتمالَ الثاني ، وهوَ : وصفُهُم حالَ الارتحالِ ، والمرأَةُ ممدوحَةٌ بكِبَرِ العجيزةِ ، وقد تكرَّرَ عندَهُ ،

تكرر المعنى عند المتنبي

فمنهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢١٠ منَ المنسرح] :

يَجْذِبُهَا تَحْتَ خَصْرِهَا عَجُزٌ كَـأَنَّـهُ مِـنْ فِـرَاقِهَـا وَجِـلُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٣٤ منَ الكامل] :

تَشْكُـو رَوَادِفَـكِ ٱلْمَطِيَّـةُ فَـوْقَهَـا شَكْوَىٰ ٱلَّتِيْ وَجَدَتْ هَوَاكِ دَخِيْلَا[3]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١١٧ منَ البسيط] :

أَعَارَنِيْ سُقْمَ جَفْنَيْهِ وَحَمَّلَنِيْ مِنَ ٱلْهَوَىٰ ثِقْلَ مَا تَحْوِيْ مَآزِرُهُ

جزء من حديث أم زرع

وفـي حـديـثِ أُمِّ زرعٍ : (عُكُـومُهـا رَداحٌ)[4] ، وقـد فسَّـرَهُ

---

(١) الخُرْعُوبَةُ : الشَّابَّةُ الحسنَةُ الجسيمةُ في قَوَامٍ ، وقال اللِّحْيَانِي : هيَ الرقيقةُ العظمِ ، الكثيرةُ اللحمِ ، الناعمةُ .
(٢) البَضَّةُ ، يقالُ : امرأَةٌ باضَّةٌ وبَضَّةٌ كثيرةُ اللحمِ .
(٣) الرَّوَادِفُ ـ مفردُهُ الرِّدْفُ ـ : وهوَ الكَفَلُ والعَجُزُ ؛ لأَنَّهُ يردُفُ الإنسانَ ويكونُ خلفَهُ .
(٤) أخرجه عن عائشة البخاري (٥١٨٩) في النكاح .

بعضُهم : بانتفاجِ العجيزةِ[1] ، وفيهِ أيضاً : (فَوَجَدَ ٱمْرَأَةً لَهَا ٱبْنَانِ مِثْلُ ٱلصَّقْرَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِها بِرُمَّانَتَيْنِ)[2] ، وقد قيلَ : إِنَّ ٱلمرادَ بالرمَّانِ الحقيقةُ ، وأَنَّهُما يلعبانِ بِهما ، فلا يمسَّانِ ظهرَها ؛ لارتفاعِهِ بعِظَمِ المآكمِ .

حلم معاوية رضي الله عنه

وكانتْ هندُ ٱبنةُ عتبةَ مَضْرِبَ المثلِ في ذلكَ ، حتَّىٰ لقد جوعِلَ[3] بعضُهم علىٰ أَنْ يذكرَها لمعاويةَ ، فضربَ علىٰ عجيزتِهِ وهوَ يصلِّي ، وقالَ : ما أَشبهَها بعجيزةِ أُمِّكَ ، فلمَّا سلَّمَ.. قالَ لهُ : ما لكَ ولها ؟ إِنَّما كانَ يليها أَبو سفيانَ . وحملَهُ معَ ذلكَ ، وكساهُ ، ولٰكنْ ـ واللهُ أَعلمُ بصحَّةِ ذلكَ جميعِهِ ـ دسَّ مَنْ يحمِلُهُ علىٰ ٱلتحرُّشِ بزيادٍ ؛ ليشيطَ بدمِهِ ، فذهبَ إِلىٰ (العراقِ) ، وسأَلَ زياداً عنْ أُمِّهِ ، وهوَ يخطُبُ ، فقالَ لهُ : يخبرُكَ عنها هٰذا ، وأَشارَ إِلىٰ شرطيٍّ ، ذهبَ بهِ ، وٱحتزَّ الذي فيه عيناهُ .

الأحنف يقطع يد رجل بحلمه وذكائه

وبهٰذِهِ ذكرتُ ما رواهُ غيرُ واحدٍ : أَنَّ رجلاً جاءَ إِلىٰ الأَحنفِ بنِ قيسٍ ، فلطَمَ وجهَهُ ، فقالَ : ما شأْنُكَ يا ٱبنَ أَخي ؟ وما دعاكَ إِلىٰ هٰذا ؟! قالَ : آليتُ أَنْ أَلطِمَ سيِّدَ العربِ مِنْ بني تميمٍ . قالَ : لَمْ تَبَرَّ يمينُكَ ؛ فما أَنا بسيِّدِها ، إِنَّما ذلكَ حارثةُ بنُ قدامة ، فذهبَ ٱلرجلُ ، فلطَمَ حارثةَ ، فقامَ إِليهِ حارثةُ بالسيفِ ، فقطعَ يمينَهُ ، فبلغَ الأَحنفَ ، فقالَ : أَنا ـ وٱللهِ ـ قَطعتُها[4] .

---

(١) يقالُ ٱمرأَةٌ نُفُجٌ : إذا كانت ضخمةَ الأَردافِ والمآكِمِ .

(٢) طرف من حديث عائشة السالف.

(٣) جوعِلَ : أي أُعطيَ جُعلاً ، وهوَ المالُ المؤدَّىٰ للإنسانِ ليفعلَ شيئاً .

(٤) القصة في « المستطرف » (٢/ ٢٠٢) .

السبب في كون كبر العجيزة ممدوحاً

وأَرادَ معاويةُ أَنْ يعبثَ بإِحدىٰ فُضلياتِ العربِ ، وعيَّرَها بثديها وكَفَلِها ، فقالتْ : إِنَّما كانَ يُضربُ المثلُ في كِبَرِ هٰذين بأُمِّكَ ، فقالَ لها : إِنَّا لم نَقُلْ لكِ إِلاَّ خيراً[1] !! إِذا كَبُرَ ثديُ المرأَةِ . . رُوِيَ ولدُها ، واتَّسعَ صدرُها ، وإِذا انتفجَ كَفَلُها . . حَسُنَ مجلسُها . قالتْ : أَوَذَاكَ ؟!!

الثريا وانتفاج عجزها

وأَخرجَ الأَصفهانيُّ بسندِهِ [كما في « الأغاني » ١/٢٢٥] : أَنَّ الثريَّا كانتْ تصُبُّ جرَّةَ ماءٍ علىٰ بدَنِها ، وهيَ قائمةٌ ، فلا يُصيبُ ظاهرَ فخذَيها شيءٌ منهُ ؛ لارتفاعِ عجُزِها .

وفيها أَو في عائِشةَ بنتِ طلحةَ يقولُ ابنُ أَبي ربيعةَ [كما في « الأغاني » ١٧/ ١٣٣ منَ الطويل] :

تَنُوءُ بِـأُخْـرَاهَـا فَـلأْيـاً قِيَـامُهَـا ... وَتَمْشِي الْهُوَيْنَا عَنْ قَرِيبٍ فَتَبْهَرُ[2]

أخت الحجاج تنذر أن تعتمر ماشية

ويُروىٰ : أَنَّ زينبَ ابنةَ يوسفَ ، أُختَ الحجَّاجِ ، نذرتْ أَنْ تعتمرَ ماشيةً مِنَ (الطائفِ) إِنْ شُفِيَ أَبوها مِنْ شَكْوٍ أَلَمَّ بِهِ ، ثُمَّ لم تصل (مكَّةَ) [إِلاَّ] علىٰ شهرٍ ؛ مِنْ سِمَنِها وامتلائِها ، وتَجاذُبِ أَطرافِها وروادِفِها ، وفي وجهِها ذلكَ يقولُ النُّمَيريُّ [منَ الطويل] :

تَضَوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نَعْمَانَ إِنْ مَشَتْ ... بِـهِ زَيْنَـبُ فِـيْ نِسْـوَةٍ خَفِـرَاتِ[3]

---

(١) أي : كنّا نمزحُ معك ، ولم نتكلم لك الكلام الصحيح بكلامنا ذاك ، ولكنا سنقول لك الحقيقة والخير وهو : أن المرأة إذا كبر ثديها . . .

(٢) تَنُوءُ : نَاءَ بحملِهِ : نهضَ بجهدٍ ومشقَّةٍ ، والمرأةُ تَنُوءُ بها عَجيزَتُهَا ؛ أي : تُثْقِلُهَا ، وهي تنوءُ بعجيزتها ، أي تنهضُ بها مُثْقَلَةً . اللَّأْيُ : بُطْءُ القيامِ . البُهْرُ : الإِعْيَاءُ .

(٣) تضوَّعَ : فاحَ . خفراتٌ : حييَّاتٌ ، محفوظاتٌ من الفساد .

يُخَبِّئْنَ أَطْرَافَ ٱلْبَنَانِ مِنَ ٱلتُّقَىٰ ... وَيَخْرُجْنَ جُنْحَ ٱللَّيْلِ مُعْتَمِرَاتِ
وَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ ٱلنُّمَيْرِيِّ أَعْرَضَتْ ... وَكُنَّ مِنَ أَنْ يَلْقَيْنَهُ حَذِرَاتِ

وفي ذلكَ خبرٌ طويلٌ .

وممَّنْ ٱشتهرَ بذلكَ ضُباعةُ ٱبنةُ عامرِ بنِ صعصعةَ ، كما وصفَها بعضُ الصحابةِ ، وقد رآها وهوَ غلامٌ يافعٌ تطوفُ بالبيتِ عُريانةً .

وحديثُ ذلكَ : أنَّ عبدَ ٱللهِ بنَ جُدعانَ . . خطبَها ، وكانتْ عندَ رجلٍ مِنْ قُريشٍ ، فخببها عليهِ[1] ، وأشارَ عليها أَنْ تتجنَّىٰ وتطلُبَ منهُ ٱلطلاقَ ، فأجابَها علىٰ شرطٍ أَنْ لا تتزوَّجَ عبدَ ٱللهِ بنَ جُدعانَ ، فإنْ خانتْ . . فعليها أَنْ تنحرَ مئةَ بَدَنةٍ ، وتنسجَ لهُ ثوباً في طولِ ما بينَ ٱلأَخشبينِ ، وتطوفَ بٱلبيتِ ضحىً متجرِّدَةً عنِ ٱلثيابِ ، فقَبِلَتْ برأيٍ مِنْ عبدِ ٱللهِ بنِ جُدعانَ ، ولمَّا ٱنقضتْ عِدَّتُها . . تزوَّجَها ، وأعطاها البُدْنَ ، فنُحرتْ ، ونسجَ لها إماؤُهُ ثوباً في ذلكَ الطولِ ، بعثتْ بهِ لزوجِها الأَوَّلِ ، وطلبَ مِنْ قريشٍ أَنْ تُخَلِّيَ لهُ المطافَ ساعةً مِنْ نهارٍ ، فطافَتْ عُريانةً ، ولم يكُنْ للمسجدِ جدارٌ إِذْ ذاكَ . قالَ الراوي : فكنتُ فيمَنْ بقيَ حولَ الكعبةِ لصغرِ سِنِّي ، فلمْ أَرَ أَحسنَ منها مقبلةً ولا مدبرةً ، وإنَّ رَكَبَها وكَفَلَها لمرتفعانِ ، تقولُ في طوافِها [منَ الرَّجزِ] :

ٱلْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... أَخْثَمَ مِثْلَ ٱلْعَقْبِ بَادٍ ظِلُّهُ[2]

---

(١) خبَّبها : أفسدها، وفي الحديث عن أبي هريرة عند أبي داوود (٥١٧٠)، والحاكم (٢/١٩٦) وصححه: «من خبب على امرىء زوجته أو مملوكه فليس منا» .

(٢) الفرج الأخثمُ : منتفخٌ قصيرُ السَّمْكِ خنَّاقٌ ضَيِّقٌ، والشطر الآخر يروىٰ: =

إِنَّما قالتْ : (بَعْضُهُ) ؛ لأَنَّها سترتْ بيديها [بعضَهُ] ٱلآخرَ .

ومنهن نائلة الكلبية

وكانتْ نائلةُ الكلبيَّةُ ٱبنةُ ٱلفُرافِصةِ ممَّنْ تدخُلُ تحتَ الوصفِ .

ونقلَ ٱلسيوطيُّ ، عَنِ ٱلأَصمعيِّ ، وأَبِي عمرٍو ، وغيرِهِما : أَنَّهُ أَحسَنُ ما قيلَ في وصفِ ٱمرأةٍ عجزاءَ خميصةٍ قولُ أَبي وَجْزَةَ السعديِّ [منَ الكامل] :

الشعراء في هذا الموضوع

أَدْمَاءُ فِيْ وَضَحٍ يَكَادُ رِدَاؤُهَا   يَعْرَىٰ وَيَصْنَعُ مَا أَحَبَّ إِزَارُهَا[1]

وفي الموضوعِ يقولُ عَمرو بنُ كُلثومٍ [في « ديوانِهِ » ٨٠ منَ الوافر] :

وَمَـأْكَمَـةٍ يَضِيْـقُ ٱلْبَـابُ عَنْهَـا   وَكَشْحٍ قَدْ جُنِنْتُ بِهِ جُنُوْنَا[2]

وقالَ عروةُ بنُ الوردِ[3] [منَ الكامل] :

أَبَتِ ٱلرَّوَادِفُ وَٱلثُّدِيُّ لِقُمْصِهَا   مَسَّ ٱلْبُطُوْنِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُوْرَا

وقالَ النابغةُ الذُّبيانيُّ [في « ديوانهِ » ٢٣٥ منَ البسيط] :

تَلُوْثُ بَعْـدَ ٱفْتِضَـالِ ٱلْبُـرْدِ مِئْـزَرَهَـا   لَوْثاً عَلَىٰ مِثْلِ دِعْصِ الرَّمْلَةِ ٱلْهَارِي[4]

وقالَ حسَّانُ [في « ديوانهِ » ٢٩ منَ الكامل] :

وَتَكَادُ تَكْسَلُ أَنْ تَجِيءَ فِرَاشَهَا   فِيْ لِيْنِ خَرْعَبَةٍ وَحُسْنِ قَوَامِ

= ومـــا بـــدا منـــه فـــلا أُحِلُّـــهُ

(١) أدماء : سمراء .

(٢) الكَشْحُ : ما بينَ الخاصرةِ إلى الضِّلعِ الخلفيِّ .

(٣) البيت في « ديوان عمر ٱبن أبي ربيعة » (٤٩٢) .

(٤) تَلُوْثُ : تمشي ببطءٍ لسمنِها . الدِّعْصُ : كثيبٌ مِنَ الرملِ مجتمعٌ .

وقالَ هدبةُ بنُ الخشرمِ [في « ديوانهِ » ١١٧ منَ الطويل] :

خَرَجْنَ بِأَعْنَاقِ ٱلظِّبَاءِ وَأَعيُنِ ٱلْـ ـجَآذِرِ وَٱرْتَجَّتْ لَهُنَّ ٱلرَّوَادِفُ(١)

وقال توبةُ بنُ الحميرِ الخفاجيُّ [في « ديوانهِ » ٤٢ـ٤٣ منَ الطويل] :

أَمُخْتَرِمِي رَيْبُ ٱلْمَنُوْنِ وَلَـمْ أَزُرْ كَوَاعِبَ مِنْ هَمْدَانَ بِيْضاً نُحُوْرُهَا

تَنُـوْءُ بِـأَعْجَـازٍ ثِقَـالٍ وَأَسْـوُقٍ خِدَالٍ وَأَقْدَامٍ لِطَافٍ خُصُوْرُهَا(٢)

وقالَ نُصَيْبٌ [منَ البسيط] :

وَذِيْ رَوَادِفَ لاَ يُلْفَىٰ ٱلإِزَارُ بِهَا يُلْوَىٰ وَلَوْ كَانَ سَبْعاً حِيْنَ يَأْتَزِرُ

وقالَ ابنُ ميَّادَةَ [في « ديوانهِ » ١٧١ منَ الطويل] :

حَـرَامِيَّـةٌ أَمَّـا مَـلاَثُ إِزَارِهَـا فَوَعْثٌ وَأَمَّا خَصْرُهَا فَلَطِيْفُ(٣)

وقالَ العَرْجِيُّ ـ وَهُوَ عبدُ اللهِ بنُ [عمرَ بنِ] عمرِو بنِ عثمانَ بنِ عفَّانَ ـ [في « ديوانهِ » ١٥٥ـ١٥٦ منَ الطويل] :

أُسَائِلُ عَنْ أَسْمَاءَ فِيْ ٱلسِّجْنِ جَارَهَا لَعَمْـرُ أَبِيْهَـا إِنَّنِـيْ لَمُكَلَّـفُ

مِنَ ٱلْبِيْضِ ، أَمَّا مَا يُوَارِي إِزَارُهَا فَفَعْمٌ وَأَمَّا مَا عَلاَهُ فَمُرْهَفُ(٤)

وقالَ أَبو دُلامةَ [منَ الطويل] :

وَقَدْ حَاوَلَتْ نَحوِيْ ٱلْقِيَامَ لِحَاجَةٍ فَأَثْقَلَهَا عَنْ ذَلِكَ ٱلْكَفَلُ ٱلنَّهْدُ

---

(١) الجآذِرُ ـ جمعُ الجُؤْذُرِ ـ : وهي البقرةُ الوحشيَّةُ ، أو ولدُ البقرةِ .

(٢) الخَدْلُ : هوَ امتلاءُ الساقِ واستدارتُها كأنَّما طُويت طيّاً .

(٣) الحراميَّةُ : نسبة لبني حَرام . ملاثُ الإزار : الموقع الذي يشدُّ عليه الإزار وهو العجز والكفل . الوعثُ : العسرُ المرتفع .

(٤) الفَعْمُ والأفعمُ : الممتلىءُ ، وقيلَ : الفائضُ امتلاءً .

وقالَ أبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ٦١٢ منَ المتقارب] :

بَدَتْ بَيْنَ حُوْرٍ قِصَارِ ٱلْخُطَا   تُجَاهِدُ بِٱلْمَشْيِ أَكْفَالَهَا

وقالَ الحارثُ بنُ خالدٍ المخزوميُّ [في « ديوانهِ » ٦٨ منَ الكامل] :

غَرْثَانُ سِمْطُ وِشَاحِهَا قَلِقٌ   رَيَّانُ مِنْ أَرْدَافِهَا ٱلْمِرْطُ[1]

وما أَحسنَ قولَ القُطاميِّ لَوْ أَرادَ النساءَ [في « ديوانهِ » ٢٦ منَ البسيط] :

يَمْشِيْنَ هَوْناً فَلاَ ٱلأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ   وَلاَ ٱلصُّدُوْرُ عَلَىٰ ٱلأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[2]

مساجلة المؤلف مع رجل من (اليمن)

وقدْ نظرتُ أنا إلىٰ بيتِ عروةَ بنِ الوردِ السابقِ في قصيدةٍ ، سببُها أنَّهُ وردَ (حضرموتَ) رجلٌ يتشاعرُ مِنَ (ٱليمنِ) ، فهابَهُ الناسُ ، حتَّىٰ ضمَّنا وإيَّاهُ مجلسٌ ٱضطرُّونا فيه للمباراةِ ، وعيَّنوا البحرَ والقافيةَ والموضوعَ ، فجئتُ في نحوِ ساعةٍ وربعٍ بأَربعينَ بيتاً . قلتُ في (ريمِ صنعا) منها [في « ديوانِ المؤلف » ٥٠٦ منَ الطويل] :

يَسِرْنَ ٱلْهُوَيْنَا عَانَةً بَعْدَ عَانَةٍ   قِصَارَ ٱلْخُطَىٰ أَرْدَافُهُنَّ قُيُوْدُهَا[3]

تَدَاخَلُ مِنْ فَرْطِ ٱلْحَيَا فِيْ رِيَاطِهَا   فَتَأْبَىٰ لَهَا أَرْدَافُهَا وَنُهُوْدُهَا[4]

وجاءَ هوَ بأَربعةٍ وعشرينَ بيتاً لا تَسفُلُ ولا تَعلو ، غيرَ أنَّها ٱنعقدَتْ بعدَهُ مجالسُ نُدعىٰ فيها إلىٰ المباراةِ ، ويُقترحُ البحرُ

---

(١) غرثانُ : جوعان . ووشاحٌ غرثانُ : لا يملؤهُ الخصرُ . المِرْطُ ـ جمعُهُ مروطٌ ـ : وهو كساءٌ مِنْ خزٍّ أو صوفٍ أو كتانٍ أو غيرهِ يُؤتزرُ بهِ . والمرأةُ التي مرطُها ريَّانُ ـ أيْ ممتلىءٌ ـ كنايةٌ عَنْ ضخمِ روادِفها .

(٢) ومراد القطامي النوق .

(٣) العانةُ : الجماعة ، وأصلها القطعة من حمرِ الوحش .

(٤) رياطُها ـ جمعُ ريطةٍ ـ : وهيَ الملاءَةُ التي كلُّها قطعةٌ واحدةٌ ونسجٌ واحدٌ .

والقافيةُ ، وفي كُلِّها يُحيلُ ، ونقولُ ، ومَنْ رَنا بعينِ المَعدِلَةِ . . عرفَ أَنَّنِي أَحسنتُ ٱلاتِّباعَ ، فكانَ لي الحقُّ في ٱلأخذِ بخلافِ ٱلنَّاظمِ فقدْ أَغارَ علىٰ بيتِ ٱبنِ الوردِ ، فأَغثَّ ولَمْ يجىءْ إِلاَّ بٱلباردِ ٱلنَّاقصِ ٱلثّقيلِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٥١ منَ الوافر] :

تُـرَفِّـعُ ثَـوْبَهَـا ٱلأَرْدَافُ عَنْهَـا فَيَبْقَىٰ مِنْ وِشَاحَيْهَا شَسُوْعَا[1]

سؤال عبد الملك بن مروان للأخطل عن تمنيه قول قصيدة لأحد الشعراء

وعلىٰ ذكرِ بيتِ القُطاميِّ أَقولُ : إِنَّهُ مِنْ قصيدةٍ لهُ جزلةٍ بديعةٍ ، يُحكىٰ : [كما في « الأغاني » ١١/ ٢٦ و ٢٤/ ٤٩] أَنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ قالَ للأخطلِ : هلْ تُحبُّ أَنَّ لكَ شِعرَ أَحدٍ مِنَ ٱلعربِ قياضاً بشعرِكَ ، أَو تحبُّ أَنَّكَ قلتَهُ ؟ قالَ : لا واللهِ ، إِلاَّ أَنِّي وَدِدْتُ أَنِّي قلتُ أَبياتاً قالها رجلٌ مِنَّا ، كانَ مغدفَ القناعِ[2] ، قليلَ السماعِ ، قصيرَ الذراعِ ، قالَ وما هيَ ؟ فأَنشدَهُ [مِنْ قولِ القُطاميِّ في « ديوانِهِ » ٢٣ـ٢٤ منَ البسيط] :

إِنَّا مُحَيُّوْكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ وَإِنْ بَلِيْتَ وإِنْ طَالَتْ بِكَ ٱلطِّيَلُ

لَيْسَ ٱلْجَدِيْدُ بِهِ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ إِلاَّ قَلِيْـلاً وَلاَ ذُوْ خِلَّـةٍ يَصِـلُ

مِنها [في « ديوان القُطاميِّ » ٢٥ـ٢٦] :

يَمْشِينَ رَهْواً فَلاَ ٱلأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلاَ ٱلصُّدُوْرُ عَلَىٰ ٱلأَعْجَازِ تَتَّكِلُ

يَتْبَعْنَ سَامِيَةَ ٱلْعَيْنَيْنِ تَحْسَبُهَا مَجْنونَةً أَو تَرَىٰ مَا لاَ تَرَىٰ ٱلإِبِلُ

---

(١) الوشاحانِ : قلادتانِ تتوشحُ بهما المرأَةُ ، ترسلُ إِحداهما على الجانبِ الأَيمنِ ، والأُخرى على الأَيسرِ . والشَّسُوْعُ : البعيدُ .

(٢) أي : مُرسَلَ القناعِ . أَغدفَ عليهِ ستراً : أَرسلَهُ .

وَٱلنَّاسُ مَنْ يَلْقَ خَيْراً قَائِلُوْنَ لَهُ ... مَا يَشْتَهِيْ وَلأُمِّ ٱلْمُخْطِىءِ ٱلْهَبَلُ(1)
قَدْ يُدْرِكُ ٱلْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُوْنُ مَعَ ٱلْمُسْتَعْجِلِ ٱلزَّلَلُ

ومنها ـ وهوَ مِنْ حرِّ القولِ وخالصِ المدحِ ـ [كما في « ديوانِ القُطاميِّ » ٢٩ـ٣٠] :

أَهْلُ ٱلْمَدِيْنَةِ لاَ يَحْزُنْكَ حَالُهُمُ ... إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدَ ٱلْوَاحِدِ ٱلأَجَلُ
أَمَّا قُرَيْشٌ فَلَنْ تَلْقَاهُمُ أَبَداً ... إِلاَّ وَهُمْ خَيْرُ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ
مَنْ صَالَحُوْهُ رَأَىٰ فِيْ عَيْشِهِ سَعَةً ... وَلاَ أَرَىٰ مَنْ أَرَادُوْا ضَرَّهُ يَئِلُ(2)

وفيها بيتٌ يشبِّهُ فيهِ الآثارَ بٱلكِتَابِ مسَّهُ البلَلُ ، نظرَ فيهِ إِلىٰ قولِ لبيدٍ [في « ديوانهِ » ٢٩٩ منَ الكامل] :

وَجَلاَ ٱلسُّيُوْلُ عَنِ ٱلطُّلُوْلِ كَأَنَّهَا ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُوْنَهَا أَقْلاَمُهَا(3)

وإِلىٰ قولِ طَرَفَةَ [في « ديوانهِ » ٦ منَ الطويل] :

لِخَوْلَةَ أَطْلاَلٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ... تَلُوْحُ كَبَاقِيْ ٱلْوَشْمِ فِيْ ظَاهِرِ ٱلْيَدِ(4)

وكانَ الشعبيُّ حاضراً ، فقالَ : إِنَّ لِلقُطاميِّ أَحسنَ منها ، وأَنشدَ قولَهُ [في « ديوانهِ » ١٠٥ منَ الكامل] :

طَرَقَتْ جَنُوْبُ رِحَالَنَا مِنْ مُطْرِقِ ... مَا كُنْتُ أَحْسَبُهُ قَرِيْبَ ٱلْمُعْنِقِ

حتَّىٰ أَتىٰ إِلىٰ آخرِها ، فتحرَّكَ عبدُ الملكِ وٱهتزَّ ، وقالَ : هـٰذا

---

(١) الهَبَلُ : الثُّكل .
(٢) يَئِلُ : ينجو ، ومنه الموئل وهو الملجأ .
(٣) الزُّبُرُ : الكتب .
(٤) بُرْقَةُ ثَهْمَدِ : موضعٌ معروفٌ في بلادِ العربِ ، وقد ذكرهُ الشعراءُ .

ـ واللهِ ـ الشعرُ ، ثكلتِ ٱلقُطاميَّ أُمُّهُ ، فٱنكسرَ الأَخطلُ ، وقالَ للشعبيِّ : إِنَّ لكَ فنوناً في الكلامِ ، وإِنَّما لنا فنٌّ واحدٌ ، فإِنْ رأيتَ ألاَّ تحملَني علىٰ أَكتافِ قومِكَ . . فَأَدَعُهُمْ حَرَضاً[1] ، قالَ الشعبيُّ : لا أَعرضُ لكَ في شيءٍ مِنَ ٱلشعرِ بعدَ هٰذا .

وعندي : أَنَّ القصيدةَ ٱلَّتي ٱختارَها الأَخطلُ أَجزَلُ وأَفحلُ ، إِلاَّ أَنَّ فيها منْ صريحِ المدحِ لسائِرِ قريشٍ ما يثقلُ هضمُهُ علىٰ عبدِ المَلِكِ ، ويسهلُ غمطُهُ[2] علىٰ الشعبيِّ ، ولا حجَّةَ في سكوتِ الأَخطلِ ووقوفِهِ بموقفِ العاجزِ عَنِ ٱلانفصالِ ؛ لمكانِ الهيبةِ ، وإِيثارِ المصانعةِ ، وٱتِّباعِ مراضي السلطانِ .

تعليق المؤلف على القصة

وقولُ القُطاميِّ : (قَدْ يُدْرِكُ ٱلْمُتَأَنِّيْ . . الخ) ، مأْخوذٌ مِنْ قولِ عَدِيِّ بنِ زيدٍ العبّاديِّ [كما في « خزانةِ الأدبِ » ١/٣٥١ منَ السَّريع] :

قَـدْ يُـدْرِكُ ٱلْمُبْطِـىءُ مِـنْ حَظِّـهِ   وَٱلْخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ ٱلْحَرِيْصْ

وبيتُ عديٍّ مأْخوذٌ مِنْ قولِ جُمانَةَ الجُعْفِيِّ [كما في « خزانةِ الأدبِ » ١/٣٥١ منَ الطويل] :

وَمُسْتَعْجِلٍ وَٱلْمُكْثُ أَدْنَىٰ لِرُشْدِهِ   وَلَمْ يَدْرِ فِيْ ٱسْتِعْجَالِهِ مَا يُبَادِرُ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ في عكسِ المعنىٰ [كما في « ديوانهِ » ٣/١١٤٧ منَ البسيط] :

عَيْبُ ٱلأَنَاةِ ـ وَإِنْ سَرَّتْ عَوَاقِبُهَا ـ   أَنْ لاَ خُلُوْدَ وَأَنْ لَيْسَ ٱلْفَتَىٰ حَجَرَا

---

(١) الحَرَضُ : الهلاكُ والفسادُ . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ [يوسف : ٨٥] .

(٢) الغمطُ : الاستحقارُ .

رواية أخرى للقصة

وفي القصَّةِ روايةٌ غيرُ هٰذهِ ، وهيَ : أَنَّ القُطاميَّ وردَ (دمشقَ) في أَيَّامِ الوليدِ ، فقيلَ لهُ : إِنَّهُ بخيلٌ لا يُعطي الشعراءَ ، وقيلَ بلْ قَدِمَها في أَيَّامِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فقيلَ لهُ : إِنَّ الشعرَ لا يَنْفُقُ عندَهُ ، فٱمتدحَ عبدَ الواحدِ بنَ سليمانَ بقصيدتِهِ تلكَ ، فأَعطاهُ ثلاثينَ ناقةً موقَّرَةً بُرّاً وتمراً وثياباً ، فكانَ ذلكَ أَوَّلَ ما حرَّكَ مِنَ ٱلقُطاميِّ ، ورفعَ من ذِكرِهِ .

رواية أخرى في القصيدة المتمناة

ويروىٰ : أَنَّ الأَبياتَ ٱلَّتي تمنَّاها الأَخطلُ ليستْ مِنْ تلكَ ، وإِنَّما هيَ قولُهُ [كما في « ديوانِ القُطاميِّ » ٨ منَ البسيط] :

يَقْتُلْنَنَا بِحَدِيثٍ لَيْسَ يَعْلَمُهُ ... مَنْ يَتَّقِيْنَ وَلاَ مَكْنُوْنُهُ بَادِيْ

فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ ... مَوَاقِعَ ٱلْمَاءِ مِنْ ذِيْ ٱلْغُلَّةِ ٱلصَّادِيْ[1]

وإِنَّها لعرضةُ ذلكَ نصاعةً وفصاحةً وبلوغَ مَرمىً وإِصابةَ محزٍّ ، وهيَ مِنْ قصيدةٍ يمدحُ بها زُفَرَ بنَ الحارثِ ، وقد مَنَّ عليهِ وأَكرمَهُ يقولُ فيها [في « ديوانِ القُطاميِّ » ٨٤ـ٨٨] :

إِنِّيْ وَإِنْ كَانَ قَوْمِيْ لَيْسَ بَيْنَهُمُ ... وَبَيْنَ قَوْمِكَ إِلاَّ ضَرْبَةُ ٱلْهَادِيْ

مُثْنٍ عَلَيْكَ بِمَا ٱسْتَبْقَيْتَ مَعْرِفَتِيْ ... وَقَدْ تَعَرَّضَ مِنِّيْ مَقْتَلٌ بَادِيْ

فَلَنْ أُثِيبَكَ بِٱلنَّعْمَاءِ مَشْتَمَةً ... وَلَنْ أُكَافِىءَ إِصْلاَحِي بِإِفْسَادِ

وَمَا نَسِيْتَ مَقَامَ ٱلْوَرْدِ تَجْعَلُهُ ... بَيْنِيْ وَبَيْنَ حَفِيْفِ ٱلْغَابَةِ ٱلْعَادِيْ

إِذِ ٱلْفَوَارِسُ مِنْ قَيْسٍ بِشِكَّتِهِمْ ... حَوْلِيْ شُهُوْدٌ وَقَوْمِيْ غَيْرُ شُهَّادِ[2]

---

(١) ذو الغلة الصادي : العطشانُ شديدُ العطشِ .

(٢) الشِّكَّةُ : السلاحُ ، وقيلَ : ما يلبسُ مِنَ السلاحِ .

إِذْ يَعْتَرِيْكَ رِجَالٌ يَسْأَلُوْنَ دَمِيْ وَلَـوْ أَطَعْتَهُـمُ أَيْتَمْـتَ أَوْلَادِيْ

نَفْسِيْ فِدَاءُ بَنِيْ أُمِّيْ هُمُ خَلَطُوْا يَـوْمَ ٱلْعَـرُوْبَـةِ أَوْرَاداً بِـأَوْرَادِ[1]

فِيْ ٱلْمَجْدِ وَٱلشَّرَفِ ٱلْعَالِيْ ذَوِيْ أَمَلٍ وَفِـيْ ٱلْحَيَـاةِ وَفِـيْ ٱلأَمْـوَالِ زُهَّـادِ

مَارَيْتُ قَوْماً هُمُ شَرٌّ لإِخوَتِهِمْ مِنِّيْ عَشِيَّةَ يَجْرِيْ بِٱلدَّمِ ٱلْوَادِيْ

منها :

تَقْـرِيْهِـمُ لَهْـذَمِيَّـاتٌ تَقُـدُّ بِهَـا ما كَانَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَّادِ[2]

* * *

(١) يومُ العَروبةِ ـ بفتحِ العينِ وضمِّها ـ : الجمعةِ .

(٢) اللَّهذميَّاتُ ـ جمعُ لَهْذَمٍ ـ : ويقالُ سيفٌ لَهْذَمٌ : حادٌّ ، وكذلِك السنانُ والنابُ . تَقُدُّ : تقطعُ . الزَّرَّادُ : صانع الدروع .

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٩٨ منَ المنسرح]:

يَا عَاذِلَ ٱلْعَاشِقِيْنَ دَعْ فِئَةً	أَضَلَّهَا ٱللهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا
بِئْسَ ٱللَّيَالِيْ سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ	شَوْقاً إِلَىٰ مَنْ يَبِيْتُ يَرْقُدُهَا

نصيحة لمن يعذل العاشقين

يقولُ في البيتِ الأَوَّلِ : يا عاذلَ العاشقينَ علىٰ عشقِهم ، دَعْ عنكَ لومَهم ، فإِنَّكَ لا ترشدُهم ، وقد أَضلَّهمُ ٱللهُ ، وأَصلُ المعنىٰ موجودٌ بكثرةٍ ، ولا سيَّما في « ديوانِ سلطانِ العاشقينَ » ، فقدْ تصرَّفَ فيهِ ما شاءَ ، فمنهُ قولُهُ [في « ديوانهِ » ١٢٤ منَ الكامل] :

يَا عَاذِلَ ٱلْمُشْتَاقِ جَهْلاً بِٱلَّذِيْ	يَلْقَىٰ مَلِيّاً لاَ بَلَغْتَ نَجَاحَا
أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ فِيْ نَصِيحَةِ مَنْ يَرَىٰ	أَنْ لاَ يَرَىٰ ٱلإِقْبَالَ وَٱلإِفْلاَحَا
إِنْ رُمْتَ إِصْلاَحِيْ فَإِنِّيْ لَمْ أُرِدْ	لِفَسَادِ قَلْبِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ إِصْلاَحَا

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٣٧ منَ الطويل] :

وَفِيْ حُبِّها بِعْتُ ٱلسَّعَادَةَ بِٱلشَّقَا	ضَلاَلاً وَعَقْلِيْ عَنْ هُدَايَ بِهِ عَقْلُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٦٢ منَ الطويل] :

وَمِنْ أَجْلِهَا طَابَ ٱفْتِضَاحِيْ وَلَذَّ لِيْ	ٱطِّرَاحِيْ وَذُلِّيْ بَعْدَ عِزِّ مَقَامِيْ
وَفِيْهَا حَلاَ لِيْ بَعْدَ نُسْكِيْ تَهَتُّكِيْ	وَخَلْعُ عِذَارِيْ وَٱرْتِكَابُ أَثَامِيْ

شرح البيت الأول من المطلع

ثُمَّ إِنْ كانَ الناظمُ يتوهَّمُ أَنَّ العشقَ ضلالٌ بسائِرِ أَنواعِهِ . فقد أَخطأَ ؛ لأَنَّهُ لا يُذَمُّ ما لَمْ يُفضِ إِلىٰ الحرامِ ، بل ربَّما تدرَّجَ بهِ المرءُ

في السلوكِ إلىٰ سبيلِ السعادةِ ، كما قلتُ [في « ديوان المؤلف » ١٦٥ منَ البسيط] :

لِلّهِ فِـي ٱلْحُـبِّ سِـرٌّ لاَ يُكَيِّفُـهُ ٱلْـ ... إِنسَانُ مَا دَامَ فِيْ ذَا ٱلْقَالَبِ ٱلطِّيْنِيْ

وَفِيْـهِ لِلْمَـرْءِ بِـالتَّـوْفِيْـقِ مَـدْرَجَـةٌ ... إِلَىٰ ٱلسَّعَادَةِ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَفِيْ ٱلدِّيْنِ

«من عشق فعف» ومدى الاحتجاج به

ولولا ما أكثروا فيهِ مِنْ شأنِ سويدِ بن سعيدٍ . . لصحَّ ما يدورُ عليهِ مِنْ طُرُقِهِ ، وهوَ حديثُ : « مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَتَمَ فَمَاتَ . . فَهُوَ شَهِيْدٌ »[1] ، ولٰكنْ رواهُ الزبيرُ بنُ بكَّارٍ ، فقالَ : حدَّثنا عبدُ المَلِكِ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ المَاجِشُونِ ، عَن عبدِ العزيزِ بنِ أَبي حازمٍ ، عن أَبي نَجيحٍ ، عنْ مجاهدٍ ، عَنِ ٱبنِ عبَّاسٍ ، عَنِ ٱلنبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ : « مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ . . غَفَرَ ٱللهُ لَهُ ، وَأَدْخَلَهُ ٱلْجَنَّةَ »[2] ، وكذلكَ رواهُ لعائِذِيهِ محمَّدُ بنُ داوودَ ، لٰكن بسندٍ فيهِ

---

(١) أخرجه عن ابن عباس الخطيب في «تاريخ بغداد» في ترجمة محمد بن داوود الأصبهاني كما في «المقاصد الحسنة» (١١٥٣)، وقد أطنب في ذكر طرقه والكلام عليه وأجاد، وقد ألّف فيه جزءاً أبو الفيض الغماري سمّاه: «درء الضعف عن حديث من عشق فعفّ». وأما سويد بن سعيد فقيل فيه: متروك، منكر الحديث؛ فلذلك ضعفوه.

(٢) قال المناوي عن سنده في «فيض القدير» (٨٨٥٣): إسناده صحيح وقد ذكره ابن حزم في معرض الاحتجاج وقال: رواته ثقات ـ وسيعرج المصنف على ذلك ـ. وقد غلط في هذا الطريق بعض الرواة فأدخل إسناداً في إسناد، وقال ابن القيم: هذا الحديث والذي قبله كل منهما موضوع ولا يجوز كونه من كلام المصطفى ﷺ وأطال، لكن انتصر الزركشي لتقويته فقال: أنكره ابن معين وغيره على سويد لكنه لم ينفرد به وساق سند المؤلف. ويقال إن أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى نظم فيه [من الوافر]:

إذا مـات المحـبُّ جـوىً وعشقـا ... فتلـك شهـادة يـا صـاح حقّـا =

سويدُ بنُ سعيدٍ ، ثُمَّ أَنشدَهُم لنفسِهِ بعدَ أَنْ رواهُ لهُم قولَهُ [منَ البسيط] :

أُنْظُرْ إِلَىٰ ٱلسِّحْرِ يَجْرِيْ فِيْ لَوَاحِظِهِ وَٱنْظُرْ إِلَىٰ دَعَجٍ فِيْ طَرْفِهِ ٱلسَّاجِيْ[1]

وَٱنْظُرْ إِلَىٰ شَعَرَاتٍ فَوْقَ عَارِضِهِ كَـأَنَّهُـنَّ نِمَـالٌ دَبَّ فِـيْ عَـاجِ

وأَنشدَ أَيضاً لنفسِهِ [منَ الخفيف] :

مَا لَهُمْ أَنْكَـرُوْا سَـوَاداً بِخَـدَّيْـ ـهِ وَلاَ يُنْكِـرُوْنَ وَرْدَ ٱلْغُصُـوْنِ

إِنْ يَكُنْ عَيْبَ خَدِّهِ مَنْبَتُ ٱلشَّعْـ ـرِ فَعَيْبُ ٱلْعُيُوْنِ شَعْرُ ٱلْجُفُوْنِ

فقالَ لهُ : نَفطويهِ ـ وكانَ لهُ صديقاً ـ أَنكرتَ القياسَ في الفقهِ ، وأَثبتَّهُ في الغزَلِ ؟! قالَ : غلبةُ الهوىٰ ، ومَلَكَةُ الوجدِ دَعَوَا إِليهِ .

وقد ذكرَ الحديثَ ابنُ حزمٍ في معرضِ الاحتجاجِ ، فقالَ [منَ الوافر] :

فَإِنْ أَهْلِكْ هَوَىً أَهْلِكْ شَهِيْداً وَإِنْ تَمْنُـنْ بَقِيْـتُ قَـرِيْـرَ عَيْـنِ

رَوَىٰ هَـٰـذَا لَنَـا قَـوْمٌ ثِقَـاتٌ نَأَوْا بِٱلصِّدْقِ عَنْ كَذِبٍ وَمَيْنِ

وللقومِ فيهِ كلامٌ معروفٌ يُؤخَذُ مِنْ مَراجعِهِ ، إِذْ لا حاجةَ إِلى الإِسهابِ ، ويأتي لونٌ منهُ أَوَّلَ المجلسِ التاسعِ .

ولقد أَحسنَ أَبو الأَسودِ الدؤَليُّ ، وأَجملَ وأَجادَ ، إِذْ قالَ في أَهلِ البيتِ [في « ديوانه » ١٥٤ منَ الوافر] :

فَـإِنْ يَـكُ حُبُّهُـمْ رُشْـداً أُصِبْـهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِىءٍ إِنْ كَانَ غَيًّا

وما هوَ في شيءٍ مِنَ ٱلتشكُّكِ ، ولـٰكنَّهُ مِنْ بابِ قولِهِ تقدَّستْ

= رواهُ لنـا ثقـاتٌ عـن ثقـاتٍ عن الحَبْرِ ابنِ عباسٍ يرقىٰ

(١) الدَّعَجُ : شدةُ سوادِ العينِ معَ سِعَتها . وطرفٌ ساجٍ : ساكنٌ .

أسماؤُهُ : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] .

شرح البيت الثاني من المطلع

وأَمَّا البيتُ الثاني : فقد قالَ الشارحُ إِنَّ أَصلَهُ : (بئسَ ٱللَّيَالِي لَيَالٍ سهرتُها مِنْ طَرَبِي شوقاً إِلىٰ مَن يَبِيتُ يَرقُدُ فيها)

حذف المخصوص بالذم

وأَقولُ : أَمَّا حذفُ المخصوصِ بالذمِّ : فجائزٌ عندَ العلمِ بهِ مِنَ ٱلقرينةِ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال : ٤٠] ، و﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ : ٣٠] ، وسواءٌ كانتِ ٱلقرينةُ لفظيَّةً أَو معنويَّةً ، وإِن ٱقتصرَ في «الخلاصةِ» علىٰ بعضِ أَفرادِ الأُولىٰ في قولِهِ [في باب : (نعم وبئس) ، منَ الرَّجَزِ] :

وَإِنْ يُقَدَّمْ مُشْعِرٌ بِهِ كَفَىٰ   كَٱلْعِلْمُ نِعْمَ ٱلْمُقْتَنَىٰ وَٱلْمُقْتَفَىٰ

بلْ كثيراً ما يُحذفُ الفاعلُ معهُ لها [أي : للقرينة] ، كما في الحديثِ الصحيحِ الناسخِ لوجوبِ غُسْلِ الجمعةِ ، وهوَ : « مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ . . فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وَمَنِ ٱغْتَسَلَ . . فَٱلْغُسْلُ أَفْضَلُ »[١] .

تقديرُهُ : ونعمتِ ٱلخَصلةُ الوضوءُ خَصلةً ، أَو ما يشبهُ ذلك .

حذف عائد الصلة

وأَمَّا حذفُ عائِدِ الصفةِ : فإِنَّهُ كثيرٌ ، ومنهُ قولُ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ٩٦ منَ المتقاربِ] :

فَأَقْبَلْتُ زَحْفاً عَلَى ٱلرُّكْبَتَيْنِ   فَثَوْبٌ لَبِسْتُ وَثَوْبٌ أَجُرّْ[٢]

---

(١) أَخرجَهُ عن سمرة بن جندب أَبو داوودَ (٣٥٣) ، والتِّرمذيُّ (٤٩٧) وحسَّنَهُ ، وٱلنَّسائيُّ (١٣٨٠) ، وٱبنُ ماجه (١٠٩١) .

(٢) هذا البيت من شواهد العربية ، وهو أنه يجوز الابتداء بالنكرة (ثوب) إذا كان المقصود بها التنويع .

الرد على الشارح

وأَمَّا قولُهُ : كانَ الوجهُ أَنْ يقولَ : (يرقدُ فيها) بدلاً مِنْ (يرقدُها) . . فغلطٌ ، وقد قالَ تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمّل : ١ـ٢] .

وقالَ ٱمرؤ القيسِ [كما في « ديوانِهِ » ١١٦ منَ الطويل] :

فَإِمَّا تَرَيْنِيْ لاَ أُغَمِّضُ سَاعَةً ... مِنَ ٱللَّيْلِ إِلاَّ أَنْ أُكِبَّ وَأَنْعَسَا

والأَمرُ أَغنىٰ عَنِ ٱلتدليلِ بعدَ قولِهِم في المتونِ : إِنَّ كلَّ وقتٍ يقبلُ النصبَ علىٰ الظرفيَّةِ مُبهماً كانَ أَو مُخصَّصاً بوصفٍ ، أَو عددٍ ، أَو إِضافةٍ ، بل إِنَّ ما فعلَهُ الناظمُ هوَ الأَولىٰ ؛ لِما فيهِ مِنَ ٱلإِشارةِ إِلىٰ ٱستغراقِ المحبوبةِ الليلَ بالرقادِ ، وهوَ شاهدُ النعمةِ ، ودليلُ الترفِ ، وقد قالَتْ أُمُّ زرعٍ : (فَعِندَهُ أَقُوْلُ فَلاَ أُقَبَّحُ ، وَأَرْقُدُ فأَتصَبَّحُ)[1] ، فلا معابةَ علىٰ الناظمِ في شيءٍ مِنَ ٱلمحذوفاتِ الأَربعةِ ٱلَّتي ذكرَها الشارحُ ، وإِنَّما العيبُ عليهِ مِنْ جهةِ المعنىٰ ، فلو أَنَّهُ كانَ صحيحَ الهوىٰ . . لَمَا تبرَّمَ بما لحقَهُ مِنَ ٱلتعذيبِ فيهِ ، وللهِ دَرُّ ٱبنِ مُطَيرٍ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ٦٠ منَ الطويل] :

البلوى المحبية

وَحُبُّكِ بَلْوَىٰ غَيْرَ أَنْ لاَ يَسُرُّنِيْ ... وَإِنْ كَانَ بَلْوَىٰ أَنَّنِيْ لَكِ مُبْغِضُ

إِذَا أَنا رِضْتُ ٱلنَّفسَ فِيْ حُبِّ غَيْرِهَا ... أَتَـىٰ حُبُّهَـا مِـنْ دُوْنِهَـا يَتَعَـرَّضُ

فَيَا لَيْتَنِيْ أَقْرَضْتُ جَلْداً صَبَابَتِيْ ... وَأَقْرَضَنِيْ صَبْراً عَلَىٰ ٱلشَّوْقِ مُقْرِضُ

الكلام عن ديوان ابن الفارض

أَمَّا « ديوانُ ٱبنِ الفارضِ » : فمنْ فاتحتِهِ إِلى خاتمتِهِ في

---

(١) سلف قريباً . ومعنى: أرقد فأتصبح: أي أنام إلى وقت الضحى، وهو من علامات أهل الدلال، وليس من شأن أصحاب الجِدّ والهمة .

أستعذابِ العذابِ مِنَ ٱلأحبابِ ، مِنْ ذلكَ قولُهُ [في « ديوانهِ » ١٤٤ من البسيط] :

أَمْسَيْتُ فِيكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً   وَلَمْ أَقُلْ جزَعاً : يَا أَزْمَةُ ٱنْفَرِجِيْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٥٦ منَ الخفيف] :

وَبِمَا شِئْتَ فِيْ هَوَاكَ ٱخْتَبِرْنِيْ   فَٱخْتِيَارِيْ مَا كَانَ فِيْهِ رِضَاكَا

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٥٠ منَ الطويل] :

وَكُلُّ أَذىً فِي ٱلْحُبِّ مِنْكَ إِذَا [بَدَا]   جَعَلْتُ لَهُ شُكْرِيْ مَكَانَ شَكِيَّتِيْ

وَمَا حَلَّ بِيْ مِنْ مِحْنَةٍ فَهْوَ مِنْحَةٌ   وَقَدْ سَلِمَتْ مِنْ حَلِّ عَقْدِ عَزِيْمَتِيْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١١٩ منَ الكامل] :

هَلاَّ نَهَاكَ نُهَاكَ عَنْ لَوْمِ ٱمْرِىءٍ   لَـمْ يُلْـفَ غَيْـرَ مُنَعَّـمٍ بِشَقَـاءِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣١ منَ الكامل] :

أَمْسَىٰ بِنَارِ جَوىً حَشَتْ أَحْشَاءَهُ   مِنْهَـا يَـرَىٰ ٱلإِيْقَـادَ لاَ ٱلإِنْقَـاذَا

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٣٥ منَ الطويل] :

وَتَعْذِيبُكُمْ عَذْبٌ لَدَيَّ وَجَوْرُكُمْ   عَلَيَّ بِمَا يَقْضِيْ ٱلْهَوَىٰ لَكُمُ عَدْلُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١٢ـ١٨ منَ الرَّمَل] :

بَلْ أَسِيئُوْا فِيْ ٱلْهَوَىٰ أَو أَحْسِنُوْا   كُـلُّ شَـيْءٍ حَسَـنٌ مِنكُـمْ لَـدَيْ

أَيُّ تَعْـذِيْـبٍ سِـوَىٰ ٱلْبُعْـدِ لَنَـا   مِنْكِ عَذْبٌ حَبَّذَا مَا بَعْدَ أَيْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣٥ـ٤١ منَ الطويل] :

تُبِيْحُ ٱلْمَنَايَا إِذْ تُتِيْحُ لِيَ ٱلْمُنَىٰ   وَذَاكَ رَخِيْـصٌ مُنْيَتِـيْ بِمَنِيَّتِـيْ

وَمَا غَدَرَتْ فِيْ الْحُبِّ أَنْ هَدَرَتْ دَمِيْ ... بِشَرْعِ الْهَوَىٰ لَٰكِنْ وَفَتْ إِذْ تَوَفَّتِ

وَكَـمْ رَامَ سِلْـوَانِـيْ هَـوَاكِ مُيَمِّمـاً ... سِـوَاكِ وَأَنَّـىٰ عَنْـكِ تَبْـدِيْـلُ نِيَّـتِيْ

وَقَالَ : تلَافَ مَا بَقِيْ مِنْكَ قُلْتُ : مَا ... أُرَانِـــيَ إلاَّ لِلتَّـــلَافِ تَلَفُّتِـــيْ

إِبَائِيْ أَبَىٰ إِلاَّ خِلَافِيَ نَاصِحاً ... يُحَاوِلُ مِنِّيْ شِيْمَةً غَيْرَ شِيْمَتِيْ

والأَخيرُ هوَ صدرُ بيتٍ لأَبي عبادةَ [في « ديوانهِ » منَ الطويل] عجزُهُ : (وَتَطْلُبُ مِنِّي مَذْهَباً غَيْرَ مَذْهَبِيْ) ، ولٰكنَّ موقعَهُ مِنْ بيتِ الشيخ أَمكنُ وأَعذبُ ، فهوَ بهِ أَحقُّ ، والناظِمُ كثيراً ما يدّعي أَنَّهُ معشوقٌ مُتمنِّعٌ كما في قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٠٦ منَ الطويل] :

التناقض عند المتنبي

وَأَشْنَبَ مَعْسُوْلِ الثَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ ... حَمَيْتُ فَمِيْ عَنْهُ فَقَبَّلَ مَفْرِقِيْ[1]

وذاتَ المرَّاتِ يعترفُ بأَنَّهُ مبغوضٌ مفروكٌ[2] ؛ فيقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٣٦٢ منَ البسيط] :

وَا حَـرَّ قَلْبَـاهُ مِمَّـنْ قَلْبُـهُ شَبِـمُ ... وَمَنْ بِجِسْمِيْ وَحَالِيْ عِنْدَهُ سَقَمُ[3]

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٧٦ منَ البسيط] :

أَنْتَ الْحَبِيْبُ وَلَٰكِنِّيْ أَعُوْذُ بِهِ ... مِنْ أَنْ أَكُوْنَ مُحِبّاً غَيْرَ مَحْبُوْبِ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٨١ منَ الطويل] :

وَلَمَّـا الْتَقَيْنَـا وَالنَّـوَىٰ وَرَقِيْبُنَـا ... غَفُوْلَانِ عَنَّا ظَلْتُ أَبْكِيْ وَتَبْسِمُ

---

(١) الأَشْنَبُ : الثغرُ البَراقُ ، ويقالُ : المُحَدَّدُ الواضحُ الأَبيضُ .
(٢) مفروكٌ : لا يَحظىٰ عِندَ النساءِ .
(٣) الشَّبِمُ : الباردُ ، والشَّبَمُ : البَرْدُ .

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٥٠ منَ الطويل] :

جَفَتْنِي كَأَنِّيْ لَسْتُ أَنْطَقَ قَوْمِهَا وَأَطْعَنَهُمْ وَٱلشُّهْبُ فِيْ صُوْرَةِ ٱلدُّهْمِ[١]

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٧١ منَ المنسرح] :

تَبُلُّ خَدَّيَّ كُلَّمَا ٱبْتَسَمَتْ مِنْ مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَنَايَاهَا

وهٰذا يحتملُ معنيينِ ؛ لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يكونَ المرادُ : أَنَّهُ يبكي كلَّما ضحكَتْ . . فيكونُ كقولِهِ : (. . ظَلْتُ أَبْكِيْ وَتَبْسِمُ) وإِمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : أَنَّ لعابَها يسيلُ ، وأَنَّها تتفلُ في وجهِهِ ، وكِلاهما لا يلتئِمُ معَ قولِهِ قبلَ ذلكَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٧٠ منَ المنسرح] :

فَقَبَّلَتْ نَاظِرِيْ تُغَالِطُنِيْ وَإِنَّمَا قَبَّلَتْ بِهِ فَاهَا

امرؤ القيس كان مفركا

وفي أَخبارِ ٱمرىءِ القيسِ : أَنَّهُ كانَ مُفْرَكاً يُفتَنُ بجمالِهِ ومقالِه النساءُ بادياً ، ثُمَّ يكرهنَهُ بعدَ المخالطَةِ ، فيحتملُ أَنَّ الناظِمَ مِثلُهُ ، أَو أَنَّهُ لمَّا كانَ كبيراً في صدرِهِ . . أَحبَّ أَنْ يتمثَّلَ بهِ فيما زانَ وفيما شانَ ، حتَّىٰ لو دخلَ جُحْرَ ضَبٍّ لدخلَهُ[٢] ، وكثيراً ما تُزيِّنُ لهُ الأُحموقَةُ القبيحَ ، كما ستأْتي مُثُلُهُ في هٰذِهِ المجموعةِ إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، أَو أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يكُنْ لَهُ قدمٌ راسخٌ في الحُبِّ . . قاسَ حالَهُ معَ النساءِ علىٰ حالِ ممدوحِيهِ ، فإِنَّ شأْنَهُم كما وَصَفَ يُقبِلونَ عليهِ بدءاً ، ويُعرِضونَ عنهُ عوداً .

---

(١) الشُّهْبُ : الخيلُ التي يخالطُها البياضُ والسوادُ . الدُّهمُ : السُّودُ . والمعنىٰ : أَنَّها تغيَّرتْ أَلوانُها مِنَ الدماءِ والعَجاجِ .

(٢) أخذ المصنف هذا اللفظ من حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم (٢٦٦٩) وفيه : «لتتبعن سَنَنَ الذين من قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ ، حتى لو دخلوا في جُحر ضب لاتبعتموهم» .

التناقض العجيب

والبيتُ ٱلَّذي نحنُ بسبيلِهِ ناظرٌ إِلىٰ قولِ أَبي نُوَاسٍ [« الأغاني » ٣٢٦/٦ منَ الطويل] :

شَكَوْنَا إِلىٰ أَحْبَابِنَا طُولَ لَيْلِنَا   فَقَالُوْا لَنَا مَا أَقْصَرَ ٱللَّيْلَ عِنْدَنَا

ولا يبعدُ عنهُ قولُ العربيِّ ، وقَدْ تمثَّلَ بهِ أَميرُ المؤمنينَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ في خطبتِهِ الشقشقيَّةِ[1] [« نهج البلاغة » ١٥ منَ السريع] :

شَتَّانَ مَا يَوْمِيْ عَلَىٰ كُوْرِهَا   وَيَـوْمُ حَيَّـانَ أَخِـيْ جَـابِـرِ

عمر بن أبي ربيعة وعائشة بنت طلحة

وقالَ عمر ٱبنُ أَبي ربيعةَ يذكرُ عائِشةَ ٱبنةَ طلحةَ بنِ عُبيدِ اللهِ [في « ديوانه » ٩٤ـ٩٥ منَ الطويل] :

رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إِذا ٱلشَّمْسُ عَارَضَتْ   فَيَضْحَىٰ وَأَمَّا بِٱلْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ[2]

أَخَا سَفَرٍ جَوَّابَ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ   بِـهِ فَلَـوَاتٌ فَهْـوَ أَشْعَـثُ أَغْبَـرُ

وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ   وَرَيَّانُ مُلْتَفُّ ٱلْحَدَائِقِ أَخْضَرُ

وَوَالٍ كَفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهُمُّهَا   فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرَ ٱللَّيْلِ تَسْهَرُ

فيُروىٰ [كما في « الأغاني » ٩٢/١] : أَنَّ حالاً أَسهرَها ليلةً مِنْ زوجِها ، فقالت : ليْتَ ٱبنَ أَبي ربيعةَ يَرىٰ ليلتي هـٰذِهِ حتَّىٰ يرجعَ عَنْ بعضِ قولِهِ .

حال العاشق والمعشوق عند الشعراء

وقالَ عنترةُ [في « ديوانهِ » ١٩ منَ الكامل] :

تُمْسِيْ وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ   وَأَبِيْتُ فَوْقَ سُرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ[3]

---

(١) شقشقَ الكلامَ : أَخرجهُ أَحسنَ مخرجٍ .
(٢) يضحىٰ : يتعرَّضُ للشمسِ . يخصَرُ : يصيبه البرد .
(٣) الحَشِيَّةُ : الفِراشُ المحشو .

وقالَ [منَ الكامل] :

أَبْكِي وَيَضْحَكُ مِنْ بُكَايَ وَلَنْ تَرَىٰ   عَجَباً كَحَاضِرِ ضَحْكِهِ وَبُكَائِي

وقالَ قيسُ بنُ المُلَوَّحِ [منَ الطويل] :

فَوَاكَبِداً مِنْ حُبِّ مَنْ لاَ يُحِبُّنِي   وَمِـنْ زَفَـرَاتٍ مَـا لَهُـنَّ فَنَـاءُ

وَقالَ [منَ البسيط] :

أَطَعْتُهَا وَعَصَيْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ   فِيْ أَمْرِهَا وهَوَاهَا وَهْيَ تَعْصِيْنِيْ

وقالَ نصيبٌ [منَ الكامل] :

وَذَكَـرْتُ مَـنْ رَقَّـتْ لَـهُ كَبِـدِيْ   وَأَبَـىٰ فَلَيْـسَ تَـرِقُّ لِـيْ كَبِـدُهْ

وقالَ أَبو عبادةَ [منَ الخفيف] :

وَمِنَ ٱلضَّيْمِ فِيْ هَوَىٰ ٱلْبِيْضِ عِنْدِيْ أَنْ يَـوَدَّ ٱلْمَبْتُـوْلُ مَـنْ لاَ يَـوَدُّهْ

وَفي المجلسِ الأَوَّلِ ذَرْوٌ مِنَ ٱلقولِ في طولِ الليلِ ، ومنهُ قَولُ بشَّارٍ [في « ديوانهِ » ٤/١٦٦ منَ الرَّمَل] :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِيْ وَلَـٰكِنْ لَمْ أَنَمْ   وَنَفَىٰ عَنِّيْ ٱلْكَرَىٰ طَيْفٌ أَلَمّْ
وَإِذَا قُلْـتُ لَهَـا : جُـوْدِيْ لَنَـا   خَرَجَتْ بِٱلصَّمْتِ عَنْ لاَ وَنَعَمْ
نَفِّسِـيْ يَـا عَبْـدُ عَنِّـيْ وَٱعْلَمِـيْ   أَنَّنِـيْ يَـا عَبْـدُ مِـنْ لَحْـمٍ وَدَمْ
إِنَّ فِـيْ بُـرْدَيَّ جِسْمـاً نَـاحِـلاً   لَـوْ تَـوَكَّـأْتِ عَلَيْـهِ لانْهَـدَمْ
خَتَـمَ ٱلْحُـبُّ لَهَـا فِـيْ عُنُقِـيْ   مَوْضِعَ ٱلْخَاتَمِ مِنْ أَهْلِ ٱلذِّمَمْ

رد على بشار بن برد

وَأَخطأَ أَبو معاذٍ [بشَّارٌ] في قولِهِ : (خَرَجَتْ بِٱلصَّمْتِ عَنْ لاَ وَنَعَمْ) ، وَما أُوتيَ إِلاَّ مِنْ جَهْلِهِ بِحَديثِ مُسلمٍ [١٤٢١ في النكاح عن ابن عباس] : «إِنَّ إِذْنَ ٱلْبِكْرِ صُمَاتُهَا» .

أعينوني على الليل

وقالَ بعضُهُم [منَ الطويل] :

تَعالَوْا أَعِينُوني عَلَىٰ ٱللَّيْلِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ عَيْنٍ لاَ تَنامُ طَوِيْلُ

فَلَمْ يشعر بعدَ أُمَّةٍ[1] مِنَ ٱلزمانِ إلاَّ بطارقٍ يَقرعُ بابَهُ مِنْ نصفِ ٱللَّيلِ ، فٱنتبهَ فَزِعاً مرعوباً ، وقالَ لهُ : ما شَأْنُكَ ؟! قالَ : أَنتَ دعوتني بقولِكَ : (تَعالَوا أَعِينُوني . . . إلى آخرِ البيتِ) ، فقالَ لَهُ : ياٱبنَ أَخي ، أَبطأْتَ بِالإجابةِ حتَّىٰ جاءَ اللهُ بالفرجِ .

وإِنَّما قالَ ٱبنُ الفارضِ [في « ديوانه » ١٤٤ منَ البسيط] :

أَمسَيْتُ فِيْكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً [وَلَمْ أَقُلْ جَزَعَاً: يَا أَزْمَةُ ٱنْفَرِجِيْ]

الأصل اجتماع الهموم على العشاق بالليل ومذاهب الشعراء في ذلك

لأَنَّ الأَصلَ ٱجتماعُ الهمومِ علىٰ المحبِّينَ باللَّيلِ ، وقَدْ تتفرَّقُ عنهم نهاراً بِما يُمارسونَ مِنَ ٱلخلقِ وَالأَشغالِ ، كما قالَ قيسُ بنُ الملوَّحِ أَوِ ٱبنُ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانِ ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ » ٨٨ منَ الطويل] :

أُقَضِّيْ نَهَارِيْ بِٱلْحَدِيْثِ وَبِٱلْمُنَىٰ وَيَجْمَعُنِيْ وَٱلْهَمَّ بِٱللَّيْلِ جَامِعُ
نَهَارِيْ نَهَارُ ٱلنَّاسِ حَتَّىٰ إِذَا بَدَا لِيَ ٱللَّيْلُ هَزَّتْنِيْ إِلَيْكِ ٱلْمَضَاجِعُ
لَقَدْ ثَبَتَتْ فِيْ ٱلْقَلْبِ مِنْكِ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَتَتْ فِيْ ٱلرَّاحَتَيْنِ ٱلأَصَابِعُ

وقَدْ سبقَ إِلىٰ أَصلِهِ ٱمرؤُ القيسِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٥٢ منَ الطويل] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱللَّيْلُ ٱلطَّوِيْلُ أَلاَ ٱنْجَلِ بِصُبْحٍ وَمَا ٱلإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

(١) أُمَّةٍ: حينٍ، أو نسيانٍ، من أَمِهَ يأمَهُ أَمَهاً ؛ أي : نسي، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥].

وَأَخذَهُ الطِّرِمَّاحُ فقالَ [في « ديوانهِ » ٩٦ منَ الطويل] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱللَّيْلُ ٱلطَّوِيْلُ أَلاَ ٱصْبِحِيْ ... بِفَجْرٍ وَمَا ٱلإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَرْوَحِ

وقالَ جميلُ بنُ مَعْمَرٍ في عكسِ مَا سبقَ عَنْ ٱبنِ الدُّمَيْنَةِ [في « ديوانهِ » ٥١ منَ الطويل] :

أَظَلُّ نَهَارِيْ مُسْتَهَاماً وَيَلْتَقِيْ ... مَعَ ٱللَّيْلِ رُوْحِيْ فِيْ ٱلْمَنَامِ وَرُوْحُهَا

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » منَ الطويل] :

أَنِيْنٌ وشَكْوَىٰ بِٱلنَّهَارِ طَوِيْلَةٌ ... عَلَيَّ وَمَا يَأْتِيْ بِهِ ٱللَّيْلُ أَبْرَحُ

وقلتُ في رثاءِ ولدي بَضْرِي [كما في « ديوان المؤلف » ق/٩٥ منَ الطويل] :

فَقُلْتُ : ٱتْرُكِيْنَا نُطْفِ بَعْضَ ٱلْتِهَابِنَا ... بِغَزْرٍ مِنَ ٱلآمَاقِ فِيْ ٱللَّيْلِ إِذْ يَسْرِيْ

يَطُوْلُ نَهَارِي بِٱلتَّجَلُّدِ وَٱلدُّجَىٰ ... بِهِ مِنْ بُرُوْدِ ٱلدَّمْعِ شَيْءٌ مِنَ ٱلْقَصْرِ

وَمِنْ أَبلغِ مَا قيلَ في طولِ ٱللَّيْلِ قولُ النابغةِ [الذُّبيانيِّ في «ديوانهِ» ٤٦ منَ الطويل] :

فَبِتُّ كَأَنِّـيْ سَاوَرَتْنِـيْ ضَئِيْلَـةٌ ... مِنَ ٱلرُّقْشِ فِيْ أَنْيَابِهَا ٱلسُّمُّ نَاقِعُ[1]

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٥٥ منَ الطويل] :

تَقَاعَسَ حَتَّىٰ قُلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقَضٍ ... وَلَيْسَ ٱلَّذِيْ يَرْعَىٰ ٱلنُّجُوْمَ بِآيِبِ

وأَرادَ بـ (ٱلَّذِيْ يَرْعَىٰ ٱلنُّجُوْمَ) : الفجرَ ، وهيَ كنايةٌ عجيبةٌ ،

---

(١) ضَئِيْلَةٌ : الحيَّةُ الدقيقةُ ، قليلةُ اللحمِ . الرقشُ : المنقَّطةُ . ناقعٌ : ثابتٌ عتيدٌ كامنٌ .

وقالَ عليُّ بنُ هشامٍ [منَ السريع] :

لاَ أَظْلِـمُ ٱللَّيْـلَ وَلاَ أَدَّعِـي ... أَنَّ نُجُـومَ ٱللَّيْـلِ لَيْسَـتْ تَغُـوْرْ

لَيْلِيْ كَمَا شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَجُدْ ... طَالَ وَإِنْ جَادَتْ فَلَيْلِيْ قَصِيْرْ

قالَ الحرَّانيُّ [منَ البسيط] :

جَاءَتْ تُسَائِلُ عَنْ لَيْلِيْ فَقُلْتُ لَهَا ... وَسَوْرَةُ ٱلْهَمِّ تَمْحُوْ سَوْرَةَ ٱلْجَذَلِ[1]

لَيْلِيْ بِكَفَّيْكِ فَٱغْنَيْ عَنْ سُؤَالِكِ لِيْ ... إِنْ بِنْتِ طَالَ وإِنْ وَاصَلْتِ لَمْ يَطُلِ

أبلغ من قال في طول الليل

ويُروىٰ عَنْ ثعلبٍ أَنَّهُ كانَ يقولُ : كُلُّ مَنْ تكلَّمَ في طولِ الليلِ لَمْ يبلُغِ ٱلذُّروةَ مِنَ ٱلإجادةِ سوىٰ خالدِ الكاتبِ ، فقَد جاوزَ الغايةَ ، إِذْ يقولُ [منَ المتقارب] :

رَقَـدْتِ وَلَـمْ تَـرْثِ لِلسَّـاهِـرِ ... وَلَيْـلُ ٱلْمُحِـبِّ بِـلاَ آخِـرِ

وَلَـمْ تَـدْرِ بَعْـدَ ذَهَـابِ ٱلـرُّقَـا ... دِ مَـا صَنَـعَ ٱلـدَّمْـعُ بِـٱلنَّـاظِـرِ

وقالَ التِّهاميُّ [منَ الطويل] :

أَبَا ٱلْفَضْلِ طَالَ ٱللَّيْلُ أَمْ خَانَنِيْ صَبْرِيْ ... فَخُيِّلَ لِيْ أَنَّ ٱلْكَوَاكِبَ لاَ تَسْرِيْ

وقالَ ٱبنُ زُريقٍ [البغداديُّ في « ديوانه » منَ البسيط] :

لاَ يَطْمَئِنُّ بِجَنْبِيْ مَضْجَعٌ وَكَذَا ... لاَ يَطْمَئِنُّ بِهِ مُذْ غِبْتِ مَضْجَعُهُ

وَمَـنْ يُقَطِّـعُ قَلْبِـيْ ذِكْـرُهُ وإِذَا ... جَرَىٰ عَلَىٰ قَلْبِهِ ذِكْرِيْ يُقَطِّعُهُ

وَهُوَ خلافُ بيتِ ٱلنَّاظمِ ٱلَّذي نحنُ بسبيلِهِ غيرَ أَنَّ « ديوانَهُ » لا يخلو مِمَّا يشبهُهُ كقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٨٣ منَ الطويل] :

هَرَاقَتْ دَمِيْ مَنْ بِيْ مِنَ ٱلْوَجْدِ مَا بِهَا ... مِنَ ٱلْوَجْدِ بِيْ وَٱلشَّوْقُ لِيْ وَلَهَا حِلْفُ

---

(١) سَوْرةُ الشيء : شدتهُ وحِدَّتهُ وهياجهُ . الجَذَلُ : الفرحُ .

وهو بالرقى أَشبهُ منهُ بالأَشعارِ ، وحاصلُ معناهُ قولُ الآخرِ [مِنَ المنسرحِ] :

وَجدَتْ بِيْ مِثْلَ مَا وَجِدْتُ بِهَا فَكِــلاَنَــا مُغْــرَمٌ دَنِــفُ

ولا يبعدُ عنهُ قولُ الأَوّلِ ، وفيهِ لابنِ عائِشةَ غناءٌ ، وهُوَ[1] [مِنَ المنسرحِ] :

وَارَحْمَتَا لِلْغَرِيْبِ فِيْ ٱلْبَلَدِ ٱلنَّا زِحِ مَــاذَا بِنَفْسِــهِ صَنَعَــا

فَــارَقَ أَحْبَـابَـهُ فَمَـا ٱنْتَفَعُـوْا بِـٱلْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَلاَ ٱنْتَفَعَـا

وقالَ البهاءُ زهيرٌ [من مجزوء الكامل] :

يَــا لَيْــلُ مَــا لَــكَ آخِــرْ كَــلاَّ وَلاَ لِلشَّــوْقِ آخِــرْ[2]

لِــيْ فِيْــكَ أَجْـرُ مُجَـاهِـدٍ إِنْ صَـحَّ أَنَّ ٱللَّيْـلَ كَـافِـرْ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في « ديوانه » ٥٤١ـ٥٤٢ منَ البسيط] :

إِنَّ ٱلْمُحِـبَّ إِذَا شَطَّـتْ مَنَازِلُـهُ عَنِ ٱلْحَبِيْبِ بَكَىٰ أَوْ حَنَّ أَوْ ذَكَرَا

وَٱللَّيْلُ أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ عَلَىٰ عَيْـنِ ٱلشَّجِـيِّ إِذَا مَـا نَـوْمُـهُ نَفَـرَا

* * *

---

(١) جاءَ في هامش المخطوط: ذكرَ ٱبنُ خَلِّكانَ [كما في «وفيات الأعيان» ٣/٣٥٦]: أَنَّهُ لمَّا نُزعَتْ ثيابُ عليِّ بنِ الجَهْمِ بعدَ موتِهِ . . وُجِدَتْ فيها رُقعةٌ مكتوبٌ عليها هـٰذانِ ، لـٰكنَّهُ لا يصحُّ أَنْ تكونَ لابنِ الجهمِ ، ويكونُ فيها غناءٌ لابنِ عائِشةَ ؛ لتقدُّمِ هـٰذا علىٰ ٱبنِ الجهمِ بكثيرٍ .

(٢) وقد ورد هذا البيت أيضاً بلفظ :

يــا لَيــلُ طُــلْ أَوْ لاَ تَطُــلْ إِنِّـي عَلَـىٰ ٱلحـالَيْـنِ صَـابِـرْ

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٠١ منَ المنسرح] :

لاَ نَاقَتِيْ تَقْبَلُ ٱلرَّدِيفَ وَلاَ بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ أُجْهِدُهَا

شرح المطلع

يقولُ : إنَّ ناقتَهُ لا تقبلُ الرديفَ ، ولا تحتاجُ إلىٰ أَن تُساقَ بالسوطِ ، وإنَّما يعني : نعلَه ، ولو قالَ لا تقبلُ الانفرادَ . . لكانَ أَولىٰ بالمحاجاةِ ؛ إذْ لا تكونُ النعلُ إلاَّ مَشفوعةً ؛ كَمَا قالَ الآخرُ [منَ الطويل] :

رَواحِلُنَـا سِـتٌّ وَنَحْـنُ ثَـلاثَـةٌ نُجَنِّبُهُـنَّ ٱلْمَـاءَ فِـيْ كُـلِّ مَنْهَـلِ

خصائص النعال وأصل معنى بيت المتنبي

فهوَ مِنْ خَصائِصِها ، بخلافِ غيرِها مِنَ ٱلنوقِ ، فكثيراً مَا تعجزُ عَنِ ٱلارتدافِ ، ويقالُ إنَّ أَصلَ المعنىٰ قولُ عنترةَ [في « ديوانهِ » ٣٣ منَ الكامل] :

فَيَكُوْنُ مَرْكَبُكَ ٱلْقَعُوْدَ وَرَحْلُهُ وَٱبْنُ ٱلنَّعَامَةِ يَومَ ذَلِكَ مَرْكَبِي

أَرادَ بـ (ٱبنِ النَّعامةِ) عرقاً يكونُ في باطنِ القدمِ ، يعني : أَنَّهُ راكبٌ أَخْمَصَهُ[1] .

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨٥ منَ الطويل] :

إِلَيْكَ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ [مَنْ] مَشَىٰ عَلَيْهَا ٱمْتَطَيْنَا ٱلْحَضْرَمِيَّ ٱلْمُلَسَّنَا[2]

---

(١) الأخمص : الموضع المنخفض من باطن القدم . قال القاضي عياض رحمه الله [من الوافر] :

وممـا زادنـي شـرفـاً وتيهـاً وكـدت بـأخمصـي أطـأ الثـريّـا
دخـولـي تحت قـولـك يـا عبـادي وأن صَيَّـرْتَ أَحمـد لـي نبيّـا

(٢) الحضرميُّ المُلَسَّنُ : النعلُ الذي فيهِ طولٌ ولطافةٌ علىٰ هيئةِ اللسانِ ، أَو النعلُ=

قَلاَئِصُ لَمْ تَعْرِفْ حَنِيْناً عَلَىٰ طَلَىً وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ ٱلْفَنِيْقِ وَلاَ ٱلْهَنَا[1]

ابن المطرز والشريف الرضي والجواب المفحم

ومَرَّ ٱبنُ المطرِّزِ ـ الشاعرُ ، وفي رجلِهِ نعلٌ باليةٌ ـ علىٰ الشريفِ الرضيِّ ، فقالَ : أنشدني قصيدتَكَ ٱلَّتي مِنْها قولُكَ [منَ الطويل] :

إِذَا لَـمْ تُبَلِّغْنِـيْ إِلَيْـكِ رَكَـائِبِـيْ فَلاَ وَرَدَتْ مَاءً وَلاَ رَعَتِ ٱلْعُشْبَا

ففعلَ ، حَتَّىٰ ٱنتهىٰ إِلىٰ هـٰذا البيتِ ، فقالَ لَهُ : أَهـٰذِهِ ركائِبُكَ؟! وأَشارَ إِلىٰ نعلِهِ ، فقالَ : لَمَّا صارَتْ هِباتُ مولانا إِلىٰ مثلِ قولِهِ [منَ الخفيف] :

فَخُذِ ٱلنَّوْمَ مِنْ جُفُوْنِيْ فَإِنِّيْ قَدْ خَلَعْتُ ٱلْكَرَىٰ عَلَىٰ ٱلْعُشَّاقِ

عادَتْ ركائِبي إِلىٰ مَا ترىٰ ، فإِنَّكَ قَدْ خلعْتَ مَا لا تملكُ علىٰ مَنْ لا يقبلُ ، فأَعجبَهُ كلامُهُ وأَجازَهُ .

كاد المتعل ان يكون راكباً

وقالتِ ٱبنةُ الخُسِّ في محاجاتِها المشهورةِ : كادَ المنتعلُ يكونُ راكباً .

وفي الثالثةِ والأَربعينَ مِنْ «مقاماتِ الحريريِّ»[2] ما يتَّصلُ بالموضوعِ .

وفود أبي الشمقمق على يزيد بن المزيد

وقالَ أَبو الشمَقْمَقِ ـ وقَدْ وفدَ إِلىٰ (اليمنِ) علىٰ يزيدَ بنِ المزيدِ ـ [منَ الكامل] :

= الذي جُعلَ طرفُ مقدَّمِها كطرفِ اللسانِ .

(1) قلائصُ ـ جمعُ قلوصٍ ـ : وهي الناقةُ الشابَّةُ الفتيَّةُ . الفنيقُ : الفحلُ المكرَّمُ مِنَ الإبلِ الذي لا يُركبُ ولا يُهانُ لكرامتِهِ عليهم . الهناءُ : القَطِرانُ ، ويقالُ : هَنَأَ الإبلَ إِذا طلاها بالقَطِرانِ .

(2) اسم هذه المقامة : المقامة البكرية .

رَحلَ ٱلْمُطِيَّ إِلَيْكَ طُلاَّبُ ٱلندَىٰ ... وَرَحلْتُ نَحوكَ نَاقَةً نَعْلِيَّهْ
إِذْ لَمْ يَكُنْ لِيَ يَا يَزِيْدُ مَطِيَّةٌ ... فَجَعَلْتُهَا لَكَ فِيْ ٱلسِّفَارِ مَطِيَّهْ
تَخْدِيْ أَمَامَ ٱلْيَعْمَلاَتِ وَتَعْتَلِيْ ... فِيْ ٱلسَّيْرِ تَتْرُكُ خَلْفَهَا ٱلْمَهْرِيَّهْ[1]
مِنْ كُلِّ طَاوِيَةِ ٱلصُّوَىٰ مُزْوَرَّةٍ ... قَطْعاً لِكُلِّ تَنُوفَةٍ دَوْسِيَّهْ[2]
فَإِذَا رَكِبْتُ بِهَا طَرِيقاً لاَحِباً ... تَنْسَابُ تَحْتِيْ كَٱنْسِيَابِ ٱلْحَيَّهْ
لَوْلاَ ٱلشِّرَاكُ لَقَدْ خَشِيْتُ جِمَاحَهَا ... وَزِمَامُهَا مِنْ أَنْ تَمَسَّ يَدَيَّهْ
تَنْتَابُ أَكْرَمَ وَائِلٍ فِيْ بَيْتِهَا ... حَسَباً وَقُبَّةُ مَجْدِهَا مَبْنِيَّهْ
أَعْنِيْ يَزِيْداً سَيْفَ آلِ مُحمَّدٍ ... فَرَّاجَ كُلِّ شَدِيْدَةٍ مَخْفِيَّهْ
يَوْمَاهُ: يَوْمٌ لِلْمَوَاهِبِ وَٱلنَّدَىٰ ... خَضِلٌ وَيَوْمُ دَمٍ وَخَطْفُ مَنِيَّهْ[3]
وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ وَاثِقاً بِكَ عَالِماً ... أَنْ لَسْتَ تَسْمَعُ مِدْحَةً بِنَسِيَّهْ[4]

فقالَ لهُ يزيدُ : صدقتَ ، وأطلقَ عليهِ ألفَ دينارٍ .

وممَّا يُعزىٰ للكسائيِّ قولُهُ للرشيدِ [منَ الكامل] :

قُلْ لِلْخَلِيْفَةِ مَا تَقُوْلُ لِمَنْ ... أَمْسَىٰ إِلَيْكَ بِحُرْمَةٍ يُدْلِيْ
مَا زِلْتُ مُذْ صَارَ ٱلأَمِيرُ مَعِيْ ... عَبْدِيْ يَدِيْ وَمَطِيَّتِيْ نَعْلِيْ

---

(١) اليَعْمَلاتُ ـ جمعُ اليَعْمَلَةِ مِنَ الإبلِ ـ : وهي النجيبةُ المعتملةُ المطبوعةُ على العملِ .
المَهْرِيَّةُ : إبلٌ نجائبُ تسبقُ الخيلَ ، منسوبةٌ لقبيلة مُهرة بن حيدان .

(٢) الصُّوى : الطريق الوعر . مُزْوَرَّةٍ : معوجة، وأراد أن حذاءه عندما يسير إلى الأمير يسبق جميع الخيول السريعة . التنوفةُ : القفرُ مِنَ الأرضِ . الدوسيَّةُ : الدَّوْسُ شدَّةُ الوطءِ بالأقدام ، ومِنْ هـٰذا يقالُ : طريقٌ مَدُوْسٌ .

(٣) الخَضلةُ : النعمةُ والرفاهيةُ .

(٤) بنسيّه : أي بنسيئةٍ ، وهوَ الدَّينُ المؤجَّلُ .

وحجَّ بعضُ نُسّاكِ أَرضنا ماشياً ، فسُئِلَ : مِنْ أَيِّ الظهرِ رَكوبُكَ ؟ من أي الظهر ركوبك
فقالَ : ذلولٌ ، كنَّىٰ بها عَنِ الأَرضِ مِنْ قولِهِ جلَّ شأنُهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ [الملك : ١٥] .

وعلىٰ ذكرِ النعلِ . . أَقولُ : بينا أَنا أُطالعُ مرَّةً في كتابٍ للنبهانيِّ وجهة نظر المؤلف في بعض أبيات النبهاني
مِنْ عهدٍ بعيدٍ . . إِذا بهِ يقولُ في ليلةِ الإِسراءِ [منَ الطويل] :

عَلَىٰ رَأْسِ هَـٰذَا ٱلْكَوْنِ نَعْلُ مُحَمَّدٍ سَرَتْ فَجَمِيعُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ ظِلاَلِهِ[١]
لَدَىٰ ٱلطُّوْرِ مُوْسَىٰ نُوْدِيَ ٱخْلَعْ وَأَحْمَدٌ عَلَىٰ ٱلْعَرْشِ لَمْ يُؤْمَرْ بِخَلْعِ نِعَالِهِ

فلمْ يعجبني الكلامُ ، وٱطَّرحتُ الكتابَ ، ولمَّا كانَ الليلُ . . رأَيتُ النبهانيَّ ، أَو بعضَ محبِّيهِ فيما يرىٰ النائمُ ، فٱعترضْتُ قولَهُ وأَوسعتُهُ ردّاً ، وقلتُ لَهُ : إِنَّ الأَليقَ بمدحِ نبيِّنا ﷺ هوَ ما أَقولُ ، وأَنشدتُهُ [منَ الطويل] :

يَقُوْلُوْنَ : إِنَّ ٱلْمُصْطَفَىٰ لَيْلَةَ ٱلسُّرَىٰ إِلَىٰ ٱلْعَرْشِ لَمْ يَعْزِمْ بِخَلْعِ نِعَالِهِ
وَهَـٰذَا مُحَالٌ لاَ يَلِيْقُ بِحَالِ مَنْ تَـوَاضُعُـهُ للهِ أَسْنَـىٰ خِـلاَلِـهِ

في منامٍ طويلٍ ، لا حاجةَ إِلىٰ ٱستيعابِهِ ، إِذْ قدِ ٱستوفيتُهُ معَ ما يتعلَّقُ بهِ منَ ٱلبحثِ في كتابي « بلابلِ التغريدِ » ، ومنهُ أَنَّهُ مأمورٌ بما أَدَّبَ اللهُ بهِ موسىٰ عليهما [الصَّلاة و] السلام بنصِّ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام : ٩٠] . ولئِنِ ٱعترضَ بأَنَّ موسىٰ لَمْ يؤمرْ بخلعِ النعلِ إِلاَّ لنجاستِهِ . . فجوابُهُ : أَنَّهُ

---

(١) قال أحدهم في نحو هـٰذا المعنى : (وَنَعْلٍ مَتَىٰ نَخْضَعْ لِهَيْبَتِهَا نَعْلُو) .

قولٌ لا يعوَّلُ عليهِ ، وأمَّا الصلاةُ في النعالِ . . فهيَ مِنَ ٱلرُّخصِ ، كما قالَ ٱبنُ دقيقِ العيدِ ، لا مِنَ ٱلمستحبَّاتِ .

أمره ﷺ بمخالفة اليهود بالصلاة بالنعال

قالَ الحافظُ ٱبنُ حجرٍ [في « الفتح » ١/٤٩٤] : وروىٰ الحاكمُ [في « المستدرك » ١/٣٩١] وأبو داوودَ [في « سننه » (٦٥٢)] مِنْ حديثِ شدَّادِ بنِ أوسٍ : « خَالِفُوْا ٱلْيَهُوْدَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُصَلُّوْنَ فِيْ نِعَالِهِمْ وَلاَ خِفَافِهِمْ » ، فيكونُ ٱستحبابُ ذلكَ مِنْ جهةِ قصدِ المخالفةِ المذكورةِ ، وورَدَ في كونِ الصلاةِ في النعالِ مِنَ ٱلزينةِ المأمورِ بأَخذِها في الآيةِ حديثٌ ضعيفٌ جدّاً ، أوردَهُ ٱبنُ عديٍّ في « الكاملِ » ، وٱبنُ مردويهِ في « تفسيرِهِ »[1] ، مِنْ حديثِ أبي هريرةَ . انتهىٰ .

استحباب قلع النعل لدخول (مكة)

وقدْ صرَّحَ فقهاؤُنا بٱستحبابِ نزعِ النعلِ لدخولِ (مكَّةَ) وهوَ ممَّا يَرُدُّ كلامَ النبهانيِّ ، وهـٰذا كلُّهُ مِنْ حيثُ الفقهُ .

وأمَّا مِنْ حيثُ الروايةُ : فقدِ ٱعترفَ هوَ نفسُهُ بأنَّهُ لَمْ يُرِدْ ما يدلُّ عليهِ ، وللهِ درُّ المعرِّيِّ في قولِهِ [كما في « سقطِ الزندِ » ١٥٩ منَ البسيطِ] :

يَا شَاكِيَ ٱلنُّوَبِ ٱنْهَضْ طَالِباً حَلَبَا   نُهُوْضَ مُضْنىً لِحَسْمِ ٱلدَّاءِ مُلْتَمِسِ[2]
وٱخْلَعْ حِذَاءَكَ إِنْ حَاذَيْتَهَا وَرَعاً   كَفِعْلِ مُوْسَىٰ كَلِيْمِ ٱللهِ فِيْ ٱلْقُدُسِ

ويتَّصلُ به كثيرٌ ممَّا يأتي في الآثارِ مِنَ ٱلمجلسِ الحادي عشرَ .

تلوُّن المتنبي وتغيره في أشعاره

ثُمَّ إِنَّ الناظِمَ كثيرُ التلوُّنِ في أحوالِهِ ، فتارةً يتصعلَكُ ويتفقَّرُ

---

(١) أورده عنه ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢١٠) عن أنس مرفوعاً أنها نزلت في الصلاة بالنعال ، وقال : لكن في صحته نظر . والله أعلم .

(٢) النُّوَبُ : المصائبُ .

ويعترفُ بالرجلَةِ ، كما في البيتِ ، وكما في قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/١٢٥ منَ الكامل] :

وَحُبِيتُ مِنْ خُوصِ ٱلرِّكَابِ بِأَسْوَدٍ ... مِنْ دَارِشٍ فَغَدَوْتُ أَمْشِي رَاكِبَا(١)

و(الدارشُ) : جلدٌ أَسودُ تصنعُ منهُ الأَحذيةُ ، وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/١٤٠ منَ الوافر] :

وَلَمَّـا قَلَّـتِ ٱلإِبِـلُ ٱمْتَطَيْنَـا ... إِلَىٰ ٱبْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ ٱلْخُطُوْبَا

وقولِهِ [في « العُكْبَري » ٣/٢١١ منَ المنسرح] :

وَمَهْمَـهٍ جُبْتُـهُ عَلَـىٰ قَـدَمِـيْ ... تَعْجَزُ عَنْهُ ٱلْعَرَامِسُ ٱلذُّلُلُ(٢)

بِصَـارِمِـيْ مُـرْتَـدٍ، بِمَخْبُـرَتِـيْ ... مُجْتَزِىءٌ، بِٱلظَّلَامِ مُشْتَمِلُ(٣)

وقولِهِ [في « العُكْبَري » ١/٣٤٦ منَ المتقارب] :

وَقَـدْ كَـانَ مَشْيُهُمَـا فِـيْ ٱلنِّعَـالِ ... فَقَدْ صَارَ مَشْيُهُمَا فِيْ ٱلْقُيُوْدِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٢٩٠ منَ الطويل] :

وَغَيْـرُ كَثِيْـرٍ أَنْ يَـزُوْرَكَ رَاجِـلٌ ... فَيَـرْجِـعَ مَلْكـاً لِلْعِـرَاقَيْـنِ وَالِيَـا

---

(١) حُبيتُ : أُعطيتُ. خُوصُ الركابِ : الإبلُ المتعبةُ. والمعنى : أُعطيت بدلَ الإبلِ خفاً أَسودَ أَمشي فيهِ.

(٢) المَهْمَهُ : المفازةُ البعيدةُ والطريق ، والجمعُ المَهَامِهُ ، ومنه قول الشاعر :

ومَهْمَـه مغبـرة أرجـاؤه ... كـأن لـون أرضـه سمـاؤه

جُبْتُهُ : قَطَعْتُهُ ، ومنه : ﴿ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ [الفجر : ٩] . العرامِسُ : النوقُ الصلابُ الشديدةُ . الذُّلُلُ : المذلَّلةُ بالعملِ ، المروَّضةُ بالسيرِ ، وهي جمعُ ذَلولٍ .

(٣) المعنىٰ : أنا مرتدٍ بسيفي ، متقلِّدٌ بهِ ، مكتفٍ بعِلْمي ، لم أَحتجْ إلىٰ دليلٍ يدلُّني ويهديني الطريقَ ، لابسٌ ثوبَ الظلامِ ، مشتملٌ بهِ كما يشتملُ الرجلُ بثوبِهِ .

وقولِهِ [في « العُكْبَريّ » ٣/ ٢٧٦ منَ البسيط] :

لاَ خَيْـلَ عِنْـدَكَ تُهْـدِيْهَـا وَلاَ مَـالُ ... فَلْيُسْعِدِ ٱلنُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ ٱلْحَالُ

بينا هوَ كذلكَ . . إذَا بهِ يتطاولُ تارةً أُخرىٰ ، ويقولُ [في « العُكْبَريّ ١/ ٢٧٠ من الطويل] :

وَتُسْعِدُنِيْ فِيْ غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ ... سَبُوْحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ[1]

ويقولُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ٣٦ منَ الخفيف] :

وَلَقَـدْ أَفْنَـتِ ٱلْمَفَـاوِزُ خَيْلِـيْ ... قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِـيْ وَزَادِيْ وَمَـائِيْ

ويقولُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ٣٨ منَ المتقارب] :

إِذَا فَـزِعَـتْ قَـدَّمَتْهَـا ٱلْجِيَـادُ ... وَبِيْـضُ ٱلسُّيُـوْفِ وَسُمْـرُ القَنَـا

ويقولُ [في « العُكْبَريّ » ١/ ١٧٣ منَ البسيط] :

وَجَـدْتُ أَنْفَـعَ مَـالٍ كُنْتُ أَذْخَـرُهُ ... مَا فِيْ ٱلسَّوَابِقِ مِنْ جَرْيٍ وَتَقْرِيْبِ

ويقولُ [في « العُكْبَريّ » ٢/ ١٥١ منَ الطويل] :

عَلَيَّ لأَهْلِ ٱلْجَوْرِ كُلُّ طِمِرَّةٍ ... عَلَيْهَا غُلاَمٌ مِلْءُ حَيْزُوْمِهِ غِمْرُ[2]

وقولُهُ : (مَلْءُ حَيْزُوْمِهِ غِمْرُ) مِنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ : (تَحَمَّلَ فِيْ ٱلْقُلُوْبِ حَنَقَا) .

---

(١) السَّبُوحُ : الفرسُ الشديدُ الجري ، والبيت من شواهد البلاغة .

(٢) الطِّمِرَّةُ : الفرسُ العاليةُ المشرفةُ . الحيزومُ : الصدرُ . الغِمْرُ : الحِقْدُ . والمعنىٰ أنَّهُ يقولُ : أَنا كفيلٌ بخيلٍ فرسانُها هؤلاءِ .

وقولِ ربيعةَ بنِ مقرومٍ الضبيِّ [في « خزانةِ الأدبِ » ٨/ ٤٣٦ منَ الكامل] :

وَأَلَدَّ ذِيْ حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا تَغْلِيْ عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِيْ مِرْجَلِ

ويقولُ الناظمُ أيضاً [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٧٩ منَ الطويل] :

وَعَيْنِيْ إِلَىٰ أُذْنَيْ أَغَرَّ كَأَنَّهُ مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ(1)

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٨٥ منَ الطويل] :

وَجُرْداً مَدَدْنَا بَيْنَ آذَانِهَا القَنَا فَبِتْنَ خِفَافاً يَتَّبِعْنَ العَوَالِيَا

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٣ منَ الطويل] :

وَفِيْ النَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُوْرِ عِيْشَةٍ وَمَرْكُوْبُهُ رِجْلاَهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٩ منَ البسيط] :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِيْ وَلاَ القَنَاعَةُ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِيْ

لا مجد إلا بمال

وقد أَلَمَّ في هٰذا ، وفي قولِهِ : (فَلاَ مَجْدَ فِيْ الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ) بقولِ قيسِ بنِ سعدِ بنِ عبادةَ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٩٦] : اللهمَّ هَبْ لي حمداً ومجداً ، لا حمدَ إلا بفعالٍ ، ولا فعالَ إلاَّ بمالٍ ، اللَّهمَّ إنَّ القليلَ لا يُصْلِحُنِي ، ولا أَصلُحُ عليهِ .

تعريض الحمداني بالمتنبي ثم نفي المؤلف الذم عنه

وما أَظنُّ أبا فراسٍ الحمدانيَّ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٩٦ـ١٩٧ منَ الكامل] :

وَتَعَافُ لِيْ طَمَعَ الحَرِيْصِ أُبُوَّتِيْ وَمُرُوْءَتِيْ وَقَنَاعَتِيْ وَعَفَافِيْ

مَا كُلُّ مَا فَوْقَ البَسِيْطَةِ كَافِياً فَإِذَا قَنِعْتَ فَكُلُّ شَيْءٍ كَافِ

---

(1) المعنىٰ : أنَّهُ كانَ ينظرُ إلى أُذني فرسِهِ ، وذلكَ أنَّ الفرسَ أبصرُ شيءٍ ، فإذا حَسَّ بشخصٍ مِنْ بعيدٍ نصبَ أُذنيهِ نحوَهُ . . فيعلمُ الفارسُ أنَّهُ أبصرَ شيئاً ، ثُمَّ وصفَ فرسَهُ بأنَّهُ قطعةُ ليلٍ في وجهِهِ كوكبٌ .

إلاَّ ويُعرِّضُ بالناظِمِ ، ويشيرُ إلى قولَيْهِ السابقَينِ ، ولكنْ نفىٰ عنهُ الذمَّ كلَّ النفيِ ما أشرنا إليهِ مِنْ دُعاءِ قيسٍ ، والثاني مِنْ أبياتِ الحمدانيِّ ، هوَ مِنْ قولِ أبي ذؤَيبٍ [في « ديوانه » ٥٦ منَ الكامل] :

وَٱلنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وَإِذَا تُرَدُّ إِلَىٰ قَلِيلٍ تَقْنَعُ

عودة على تناقض المتنبي

وبينا صاحبُنا يعترفُ بقلَّةِ العَدِّ ، ويشتكي مِنْ صُفُوْرَةِ اليدِ ، ويقولُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٧٠ منَ الطويل] :

أَهُمُّ بِشَيْءٍ وَٱللَّيَالِي كَأَنَّهَا ... تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وأُطَارِدُ

وَحِيْدٌ مِنَ ٱلْخُلاَّنِ فِيْ كُلِّ بَلْدَةٍ ... إِذَا عَظُمَ ٱلْمَطْلُوْبُ قَلَّ ٱلْمُسَاعِدُ

ويقولُ للمغيثِ العِجْليِّ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٢٠ منَ البسيط] :

لَمَّا أَقَمْتَ بِأَنْطَاكِيَّةَ ٱخْتَلَفَتْ ... إِلَيَّ بِٱلْخَبَرِ ٱلرُّكْبَانُ فِيْ حَلَبَا

فَسِرْتُ نَحْوَكَ لاَ أَلْوِيْ عَلَىٰ أَحَدٍ ... أَحُثُّ رَاحِلَتَيَّ ٱلْفَقْرَ وَٱلأَدَبَا

إذا بِهِ ينتفشُ دماغُهُ ، ويمتلىءُ فراغُهُ ، ويعقصُ أنفَهُ ، ويمدُّ إلىٰ النجومِ كفَّهُ ، ولا يستحيْ أنْ يقولَ للمغيثِ في نفسِ القصيدةِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٢٠ـ١٢١ منَ البسيط] :

وَإِنْ عَمِرْتُ جَعَلْتُ ٱلْحَرْبَ وَالِدَةً ... وَٱلسَّمْهَرِيَّ أَخاً وَٱلْمَشْرَفِيَّ أَبَا(١)

بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَىٰ ٱلْمَوْتَ مُبْتَسِماً ... حَتَّىٰ كَأَنَّ لَهُ فِيْ قَتْلِهِ أَرَبَا

قُحٍّ يَكَادُ صَهِيْلُ ٱلْخَيْلِ يَقْذِفُهُ ... عَنْ سَرْجِهِ مَرَحاً بِٱلْعِزِّ أَوْ طَرَبَا(٢)

فَٱلْمَوْتُ أَعْذَرُ لِيْ وَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ بِيْ ... وَٱلْبَرُّ أَوْسَعُ وَٱلدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

---

(١) عَمِرتُ : عشتُ طويلاً .

(٢) القحُّ : الخالصُ .

امرؤ القيس وخالد السدوسي والابل المسروقة

فَٱنظُر كيفَ يطمعُ في المُلكِ الكبيرِ ، وما يجدُ ما يتبلَّغُ بِهِ مِنْ ناقةٍ أَو بعيرٍ ، فما أَشبهَهُ إِذنْ بخالدِ بنِ سدوسٍ ٱلنبهانيِّ ، إِذ أَغارَتْ بنو جديلةَ علىٰ ٱمرىءِ ٱلقيسِ ، وأَخذوا إِبلَهُ ، وهو في جوارِهِ ، فقالَ لهُ : أَعطني رواحلَكَ ؛ لأَلحقَ القومَ ، فأَرُدَّ الإِبلَ ، ففعلَ ، وركبَ خالدٌ حتَّىٰ أَدركَهم ، فقالَ : يا بنيْ جديلةَ ، أَغَرتُمْ علىٰ إِبلِ جاري! قالوا : ما هوَ لكَ بجارٍ ، قالَ : بلىٰ ، وهـٰذه رواحلُهُ معي ، قالوا : أَكذلكَ؟ قالَ : نعم ، فأَنزلوهُ عنها ، وأَخذوها فوقَ الإِبلِ ، فعادَ خالدٌ ينفضُ مذْرَوَيْهِ[1] ، قالَ لامرىءِ القيسِ : لا تخفْ فسأَردُّ عليكَ الجميعَ ، فقالَ ٱمرؤُ ٱلقيسِ [في « ديوانِهِ » ١٧٤ منَ الطويل] :

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِيْ حَجَرَاتِهِ وَهَاتِ حَدِيْثاً مَا حَدِيْثُ ٱلرَّوَاحِلِ[2]

نفي العذر عن المتنبي في تناقضه

ولا يصحُّ أَنْ يُعتذرَ عنهُ بما سبقَ مِنْ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٢٩٠ منَ الطويل] :

(وَغَيْرُ كَثِيْرٍ أَنْ يَزُوْرَكَ رَاجِلٌ . . إِلىٰ آخرِهِ) لفرقِ ما بينَ الحالينِ ؛ إِذْ هوَ ثَمَّ طالبٌ وهُنا فاخرٌ .

ويقولُ الناظِمُ أَيضاً [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٤٤ منَ البسيط] :

---

(١) المِذْرَوَانِ : الجانبانِ مِنْ كلِّ شيءٍ ، تقولُ العربُ : جاءَ فلانٌ يضربُ أَصْدَرَيْهِ ، ويَهُزُّ عطفَيْهِ وينفضُ مِذْرَوَيْهِ ، وهما منكباهُ .

(٢) القصة في « مجمع الأمثال » (١/٢٦٨) ، و« جمهرة الأمثال » (١/٤٥٢) . النهبُ : السلبُ وانتهاز الفرص لاختطاف الأشياء . حَجَرَاتُهُ : نواحيهِ ، والمعنىٰ : دع عنك حديث إبلي التي سطا عليها هؤلاء اللصوص ولكن هات حدثني عن ذهاب رواحلك ، وكيف مكنتهم من أخذها ، يا سيِّىءَ الجوار ، ويا ضعيف الدفع عن الجار ؟! .

مِيْعَادُ كُلِّ رَقِيْقِ ٱلشَّفْرَتَيْنِ غَداً   وَمَنْ عَصَىٰ مِنْ مُلُوْكِ ٱلْعُرْبِ وَٱلْعَجَمِ[1]

ويقولُ [في العُكْبَرِيِّ ٤/٤١ منَ البسيط] :

لأَتْرُكَنَّ وُجُوْهَ ٱلْخَيْلِ سَاهِمَةً   وَٱلْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَىٰ قَدَمِ[2]

وَٱلطَّعْنُ يُحْرِقُهَا وَٱلزَّجْرُ يُقْلِقُهَا   حَتَّىٰ كَأَنَّ بِهَا ضَرْباً مِنَ ٱللَّمَمِ[3]

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/١٥٧ منَ الطويل] :

وَجَنَّبَنِي قُرْبَ ٱلسَّلاَطِيْنِ مَقْتُهَا   وَمَا يَقْتَضِيْنِي مِنْ جَمَاجِمِهَا ٱلنَّسْرُ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٧٣-٣٧٤ منَ الطويل] :

سَأَطْلُبُ حَقِّيْ بِٱلْقَنَا وَمَشَايِخٍ   كَأَنَّهُمُ مِنْ طُوْلِ مَا ٱلْتَثَمُوْا مُرْدُ[4]

ثِقَالٍ إِذَا لاَقَوْا خِفَافٍ إِذَا دُعُوْا   كَثِيْرٍ إِذَا شَدُّوْا قَلِيْلٍ إِذَا عُدُّوْا

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِيْ عَلَىٰ كُلِّ سَابِحٍ   رِجَالٌ كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ فِيْ فَمِهَا شَهْدُ

ويقولُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٩٣ منَ الطويل] :

نُصَرِّفُهُ لِلطَّعْنِ فَوْقَ حَوَادِرٍ   قَدِ ٱنْقَصَفَتْ فِيْهِنَّ مِنْهُ كِعَابُ[5]

ومهما ٱعتذرنا للناظمِ - في تقلُّبِهِ بينَ الجزرِ والمدِّ ، والصَّعْرِ وضَرَعِ الخدِّ[6] بأنَّ الإنسانَ عُرضةُ ذلكَ ، ولهذا كانَ أكثرُ حلفِهِ ﷺ

---

(١) رقيقُ الشفرتينِ : السيفُ الذي رقَّتْ مضاربُهُ بكثرةِ الصقلِ .

(٢) ساهمةٌ : متغيِّرةُ الوجوهِ من هولِ ما ترىٰ .

(٣) اللممُ : الجنونُ .

(٤) أرادَ أنهمْ مجربونَ ، فلذلكَ جعلهم مشايخَ ، وأراد أنهم لا يفارقونَ الحربَ ، فلهذا لا يفارقهم اللثام ، فكأنهم مُرْدٌ لعدم رؤيته لحاهم .

(٥) الحوادِرُ: الغليظُ السمينُ مِنَ الخيلِ .

(٦) الصَّعْرُ: إمالة الخدِّ ، وهو كناية عن التكبر ، والشموخ ، والترفع ؛ تهاوناً =

بمقلِّبِ القلوبِ[1] ـ فإنَّا لا نقدِرُ أَنْ نُؤَلِّفَ بينَ ما سمعْتَ مِن هَفْوِ ٱلدعاوي الطويلةِ العريضةِ وبينَ قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٣/ ٣٤٤ منَ الخفيف] :

لَيتَ أَنَّا إِذَا رَكِبْتَ لَكَ ٱلْخَيْـ ... ـلُ وَأَنَّا إِذَا نَزَلْتَ ٱلْخِيَامُ

اختلاف الأحوال والواردات على العارفين

وَإِلاَّ . . فٱلعارِفونَ ـ وهُمْ مَنْ هُمْ ـ تضطرِبُ أَحوالُهُم ، وتتلوَّنُ أُمورُهُم ، أَلا ترىٰ إِلىٰ الشرفِ ٱبنِ الفارضِ بينا هوَ يقولُ ، وفي السماءِ أَنفُهُ ، وعلىٰ ناصيةِ الثريَّا كفُّهُ [في «ديوانهِ» ١٦٩ منَ الكامل] :

وَإِذَا سَأَلْتُكَ أَنْ أَرَاكَ حَقِيقَةً ... فَٱسْمَحْ وَلاَ تَجْعَلْ جَوَابِيَ لَنْ تَرَىٰ

إِذا به يتضاءَلُ ويذوبُ ، وينكسِرُ ويتوبُ ويقولُ [في «ديوانهِ» ٤٧ منَ الطويل] :

وَمُنِّي عَلَىٰ سَمْعِيْ بِلَنْ إِنْ مَنَعْتِ أَنْ ... أَرَاكِ فَمِنْ قَبْلِيْ لِغَيْرِيَ لَذَّتِ

ويقولُ [في «ديوانهِ» ١٥٧ منَ الخفيف] :

ذَابَ قَلْبِيْ فَأْذَنْ لَهُ يَتَمَنَّا ... كَ وَفِيْهِ بَقِيَّةٌ لِرَجَاكَا

ويقولُ [في «ديوانهِ» ١٤٧ منَ البسيط] :

وَٱرْحَمْ تعَثُّرَ آمَالِيْ ، وَمُرْتَجِعِيْ ... إِلَىٰ خِدَاعِ تَمَنِّيْ ٱلْوَعْدِ بِٱلْفَرَجِ

= بالمنظور إليه، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان: ١٨] . صَعَرُ الخدِّ : إذلالهُ .

(١) ولفظه: «يا مقلِّب القلوب» رواه عن ابن عمر البخاري ، وأبو داوود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه، ومن دعائه ﷺ كما في حديث أم سلمة عند ابن السني (٦٦٣): «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك».

وبينا هوَ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٣ منَ الكامل] :

وَإِنِ ٱكْتَفَىٰ غَيْرِيْ بِطَيْفِ خَيَالِهِ فَأَنَا ٱلَّذِيْ بِوِصَالِهِ لاَ أَكْتَفِيْ

. . إذَا بِهِ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٢٦ منَ الكامل] :

وَأَبِيْـتُ سَهْـرَانـاً أُمَثِّـلُ طَيْفَـهُ لِلطَّرْفِ كَيْ أَلْقَىٰ خَيَالَ خَيَالِهِ

وهوَ خيرٌ مِنْ قَوْلِ النَّاظِمِ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٥٣ منَ الكامل] :

إِنَّ ٱلْمُعِيْـدَ لَنَـا ٱلْمَنَـامُ خَيَـالَـهُ كَانَتْ إِعَادَتُهُ خَيَالَ خَيَالِهِ[١]

وبينا ٱلشَّرفُ ٱبنُ ٱلفَارضِ أيضاً يقولُ [في « ديوانهِ » ١٤٥ منَ البسيط] :

عَذِّبْ بِمَا شِئْتَ غَيْرَ ٱلْبُعْدِ عَنْكَ تَجِدْ أَوْفَىٰ مُحِبٍّ بِمَا يُرْضِيْكَ مُبْتَهِجِ

ويقولُ [في « ديوانهِ » ١٤٤ منَ البسيط] :

أَمْسَيْتُ فِيْكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً وَلَمْ أَقُلْ جَزَعاً : يَا أَزْمَةُ ٱنْفَرِجِيْ[٢]

ويقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٦ منَ الخفيف] :

وَبِمَا شِئْتَ فِيْ هَوَاكَ ٱخْتَبِرْنِيْ فَٱخْتِيَارِيْ مَا كَانَ فِيْهِ رِضَاكَا

. . إذْ بَطَلَ ٱختيارُهُ ، وعِيْلَ ٱصطبارُهُ ، وبكأَتْ دَرَّتُهُ[٣] ، ولانَتْ مِرَّتُهُ ، وصارَ يقولُ [في « ديوانهِ » ١٥٨ منَ الخفيف] :

بِٱنْكِسَارِيْ بِذِلَّتِيْ بِخُضُوْعِيْ بِـٱفْتِقَـارِيْ بِفَـاقَتِـيْ بِغِنَـاكَـا

لاَ تَكِلْنِيْ إِلَىٰ قُوَىٰ جَسَدٍ خَا نَ فَإِنِّيْ أَصْبَحْتُ مِنْ ضُعَفَاكَا

---

(١) المنام : فاعل المعيد ؛ أي : إن الذي يعيد المنامُ لنا خيالَهُ .

(٢) الجزعُ : عدمُ الصبرِ .

(٣) بكأتْ : قلّت .

دفع الإشكال بما ظاهره التناقض في القرآن الكريم

وقامَ أَحدُ المُلحدينَ يطعنُ في القرآنِ بما ظاهرُهُ التناقضُ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥ـ٣٦] ، وقولِهِ جلَّ ذِكرُهُ : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾ [النبأ : ٣٨] معَ أَمثالِ قولِهِ تقدَّست أَسماؤُهُ : ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : ٢٧] .

وأَجابُوا عَن ذلِكَ : بأَنَّ المنفيَّ مِنَ ٱلكلامِ . . النافعُ ، وبأَنَّ اليومَ طويلٌ تختلفُ فيهِ الأَحوالُ ، فتارةً : يُمنعونَ عَنِ ٱلتكلُّمِ لتلاطُمِ الأَهوالِ ، وأُخرىٰ : يُؤْذَنُ لهُمْ فيهِ للتبكيتِ والتقريعِ ، فالاعتراضُ مدفوعٌ مِنْ أَصلِهِ ، وإِنَّما يكونُ التعارضُ مَعَ ٱتِّحادِ الزمانِ .

المتنبي جزوع منوع

والناظِمُ يَلْبَسُ لكلِّ حالةٍ لَبُوْسَها ، إِذْ لا يزالُ يعاني مِنَ ٱلأَيَّامِ نعمتَها وبُؤْسَها[1] ، غيرَ أَنَّا لَمْ نَرَهُ في الخيرِ إِلاَّ مَنُوعاً ، وفي الشرِّ إِلاَّ جَزوعاً[2] ، بعيداً مِنْ قولِ العربيِّ [منَ البسيط] :

لاَ مُتْرَفاً إِنْ رَخَاءُ ٱلْعَيْشِ سَاعَدَهُ وَلَيْسَ إِنْ عَضَّ مَكْرُوْهٌ بِهِ خَشَعَا

ومِنْ قولِ حاتمٍ [في « ديوانهِ » ٥٢ منَ الطويل] :

عُنِيْنَـا زَمَـانـاً بِـالتَّصَعْلُـكِ وَٱلْغِنَـىٰ كَمَا ٱلدَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ ٱلْعُسْرُ وَٱلْيُسْرُ
فَمَـا زَادَنَـا شَـأْواً عَلَـىٰ ذِي قَـرَابَـةٍ غِنَانَا وَلاَ أَزْرَىٰ بِأَحْسَابِنَا ٱلْفَقْرُ[3]

---

(١) لعلَّه أخذه من قول الشافعيِّ :
ٱلبـسْ لكـلِّ حـالـةٍ لبـوسَهـا إمّـا نعيمَهـا وإمَّـا بـؤسَهـا
(٢) اقتبس أسلوبه من قوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج : ٢٠ـ٢١] .
(٣) شَأْواً : بُعْداً . أزرىٰ : عابَ .

وقولِ ٱبنِ عبدلٍ الأَسديِّ [في « الأغاني » ٢/ ٨٤٤ منَ الطويل] :

وَإِنِّـي لأَسْتَغْنِـي فَمَـا أَبْطَـرُ ٱلْغِنَـىٰ   وَأَبْذُلُ مَيْسُوْرِي لِمَنْ يَبْتَغِي قَرْضِي(1)

وَأُعْسِـرُ أَحْيَـانـاً وَتَشْتَـدُّ عُسْـرَتِـي   وَأُدْرِكُ مَيْسُوْرَ ٱلْغِنَىٰ وَمَعِي عِرْضِي

وقولِ كُثيِّرٍ [في « ديوانهِ » ٢٣٩ منَ الطويل] :

إِذَا قَلَّ مَالِيْ زَادَ عِرْضِيْ كَرَامَةً   عَلَيَّ وَلَمْ أَتْبَعْ دِقَاقَ ٱلْمَطَامِعِ(2)

وقولِ الآخرِ [منَ الطويل] :

وَكَمْ أَزْمَةٍ لِلدَّهْرِ أَلْقَتْ جِرَانَهَا   عَلَيَّ فَلَمْ تَكْشِفْ مَذَلَّتُهَا سَتْرِيْ(3)

كرم نفس أبي فراس الحمداني

وإنِّي لكثيراً مَا أَعجبُ لأَبي فراسٍ ، وأَستَدِلُّ علىٰ أُكرومتِهِ وَطيبِ أُرومتِهِ(4) بقولِهِ وهوَ في غياباتِ السجنِ [في « ديوانهِ » ٢٤٦_٢٤٧ منَ الطويل] :

أَيَضْحَـكُ مَـأْسُـوْرٌ وَتَبْكِـيْ طَلِيْقَـةٌ   وَيَسْكُتُ مَحْزُوْنٌ وَيَنْدُبُ سَالِيْ ؟!!

لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَىٰ مِنْكِ بِٱلدَّمْعِ مُقْلَةً   وَلَـٰكِنَّ دَمْعِيْ فِيْ ٱلْحَوَادِثِ غَالِيْ

عند الامتحان يكرم المرء أو يهان

ولا نعدمُ مِنْ كلامِ الناظمِ ما يشبههُ غيرَ أَنَّهُ في حالِ السَّعَةِ ، وهـٰذا يقولُهُ في حينِ الضيقِ ، وكذلكَ الحرُّ الكريمُ ، والعربيُّ الصميمُ لا تجدهُ أَشدَّ ما يكونُ إِلاَّ عندَ ٱنقطاعِ الأَسبابِ ، وٱستغلاقِ الأَبوابِ ، كَما أَطلنا البحثَ فيهِ مِنْ كتابنا « بلابلُ التغريدِ » .

---

(١) البطرُ : الطغيانُ عندَ النعمةِ .

(٢) لَمْ أَتبعْ دِقَاقَ المطامعِ : أَي لَمْ أَتبعِ المطامعَ الدقيقةَ الصغيرةَ التي يدفعُ إِليها الفقرُ أَحياناً .

(٣) الجِرَانُ : الثقلُ .

(٤) الأُرُوْمَةُ _ بفتحِ الهمزةِ وضَمِّها _ : الأَصلُ ، والجمعُ أُرُوْمٌ .

إلحاحه ﷺ على ربه يوم العريش

وحالُهُ ﷺ أكملُ الأحوالِ في ذلكَ ، ولهذا اشتدَّ خوفُهُ ، وكَثُرَ إلحاحُهُ علىٰ ربِّهِ يومَ العريشِ ، والمهاجرونَ والأنصارُ بينَ يديهِ تدورُ حَمَالِيقُهم[1] أمثالَ الحيَّاتِ .

ثباتة جاشه في الغار

وثَبَتَ جأشُهُ ، وذهَبَ إيحاشُهُ يومَ الغارِ ، ويومَ حنينٍ ، ويومَ أُحُدٍ ، وَقَدِ اصفرَّتِ الجباهُ ، ويَبِسَتِ الشفاهُ ، وغارَتِ العيونُ ، وظُنَّتِ الظنونُ .

والله يا عم لو وضعوا الشمس

وهَلْ سمعْتَ بشدَّةٍ أعظمَ مِنْ شدَّتِهِ ، وقد ظَنَّ أَنَّ عَمَّهُ سيُسلِمُهُ إلىٰ قريشٍ ؛ إنْ لَمْ يُجبْهُ إلىٰ خَصلةٍ ممَّا عَرَضَ عليهِ ، فقالَ : « واللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِيْ يَمِيْنِيْ ، وَالْقَمَرَ فِيْ شِمَالِيْ ، عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَـٰذَا الأَمْرَ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللهُ ، أَوْ أَهْلِكَ دُوْنَهُ ، مَا فَعَلْتُ »[2] .

تواضعه ﷺ عند فتح (مكة)

وهل بلغتْكَ رِقَّةٌ أعظمُ مِنْ رِقَّتِهِ يومَ فتحِ (مكَّةَ) ؛ إذ دخلَها علىٰ رَحْلٍ مُطأطِئاً رأسَهُ ، حتَّىٰ لَيَكادُ يَمَسُّ مُقدَّمَ رَحلِهِ ، مُردِفاً خلفَهُ عبداً في سوادِ الغرابِ ، وخلفَهُ ثمانيةُ آلافِ سيفٍ مُنتضاةٍ ، ومكَّنَهُ اللهُ مِنْ

---

(١) وهذا تعبيرٌ فيهِ كنايةٌ عن شدَّةِ هولِ الموقفِ الذي كانَ يمرُّ فيهِ الصحابةُ آنَ ذاكَ ، والحِملاقُ : باطنُ أجفانِ العينِ ، وحملقَ الرجلُ : إذا انقلبَ حملاقُ عينيهِ مِنَ الفزعِ .

أخرج عن ابن عباس البخاري في «صحيحه» (٢٩١٥) في كتاب الجهاد والسير ، أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر : « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، فقد ألححت على ربك ، وهو [يثب] في الدرع ، فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٥-٤٦] يعني من المرارة .

(٢) « السيرة النبوية » (٢/ ١٠١) .

رقابِ أعدائِهِ الَّذينَ فعلوا بهِ الأفاعيلَ ، فما كانَ منهُ إلاَّ أنْ جمعَهُم حولَ البيتِ ، وقالَ : « مَا تَرَوْنِي فَاعِلاً بِكُمْ ؟ » ، فقالوا : إنْ تُعَذِّبْ.. فقد أسأنا ، وإنْ تعفُ.. فخيرُ ابنٍ وخيرُ أخٍ ، فقالَ لهم : « لاَ أَقُولُ لَكُمْ إلاَّ كَمَا قَالَ ٱلْعَبْدُ ٱلصَّالِحُ : لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ، يَغْفِرُ ٱللهُ لَكُمْ »[1] أو ما يقرُبُ مِنْ هٰذا المعنىٰ[2] .

سؤال عن عفوه وعن شدته

وهاهنا سؤالٌ وهو : كيفَ عفا ﷺ عن قريشٍ ، وقتلَ ما بينَ الصلاتينِ سبعَ مئةٍ مِنَ اليهودِ ، لَمْ تأخذْهُ بِهِمْ رأفةٌ ، ولَمْ تعطِفْهُ عليهِمْ رحمةٌ ، معَ أنَّهُ أشفقُ الناسِ بالناسِ ، ومعَ أنَّ ذنبَهُم لَمْ يَكُنْ مِثْلَ ذنوبِ قريشٍ[3]؟

والجوابُ : أنْ لا هوادةَ عندَهُ ، وقد قتلَ الفريقينِ ، إلاَّ أنَّ قريشاً لمَّا كانوا أهلَ كَرَمٍ ، وبُعْدَ هِمَمٍ ، وطهارةَ شِيَمٍ.. كانَ قتلُهم بالعفوِ ، وأمَّا اليهودُ : فإنَّهُم لمَّا اشتملوا علىٰ اللُّؤْمِ ، واندمجوا علىٰ الخِسَّةِ بآيةِ أنَّ ذنبَهُم كانَ الغدرُ.. لَمْ يكُنْ ليصلِحَهُمُ الحِلْمُ ، ولا ليتداركَهُمُ العفوُ ، لا جَرَمَ اضطرَّ إلىٰ قتلِهم بالسيفِ ، وقد قالَ ابنُ المعتزِّ [منَ الكامل] :

ضَرَّابُ هَامِ ٱلرُّوْمِ مُنْتَقِماً وَفِيْ ... أَعْنَاقِهِمْ مِنْ جُوْدِهِ أَعْبَاءُ
لَوْلاَ ٱنْبِعَاثُ ٱلسَّيْفِ وَهُوَ مُسَلَّطٌ ... فِيْ قَتْلِهِمْ قَتَلَتْهُمُ ٱلنَّعْمَاءُ

---

(١) كما في سورة يوسف عليه السلام [الآية : ٩٢].

(٢) قصة دخوله ﷺ على الصفة والهيئة المذكورة في « السيرة النبوية » (٤/ ٢٤) ، ولكنه لم يذكر أنه ﷺ كان مردفاً عبداً . والله أعلم .

(٣) « ابن هشام » (٣/ ٢٥٩) .

إلاَّ أنَّ عليهِ مؤاخذتينِ :

اعتراض المؤلف على ابن المعتز

إحداهُما : أنَّ الإحسانَ ذِمَّةٌ ، فلا يليقُ بالكريمِ أَنْ يؤذيَ غَذِيَّ نعمتِهِ .

والأُخرىٰ: أنَّهُ لا يُصارُ إلىٰ القتلِ بالسيفِ إلاَّ عندَ تعذُّرِهِ بالنَّعْمَاءِ، وإلاَّ كانَ الحِلمُ أَلْيَقَ ، والعفوُ أجدرَ ، كمَا فعلَ رسولُ اللهِ ﷺ .

الصفح عند الشعراء

وقالَ أبو عبادةَ [في « ديوانهِ » منَ الطويل] :

صَفُوْحٌ عَنِ ٱلْجَانِيْ وَصَفْحَةُ سَيْفِهِ ... إِذَا هِيَ لَمْ تَقْتُلْهُ فَٱلصَّفْحُ قَاتِلُهْ

ووضَّحهُ أبو الطيِّبِ في قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢٨٨ منَ الطويل] :

وَمَا قَتَلَ ٱلأَحْرَارَ كَٱلْعَفْوِ عَنْهُمُ ... وَمَنْ لَكَ بِٱلْحُرِّ ٱلَّذِيْ يَحْفَظُ ٱلْيَدَا

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ ٱلْكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ ٱللَّئِيْمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ ٱلنَّدَىٰ فِيْ مَوْضِعِ ٱلسَّيْفِ بِٱلْعُلاَ ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ ٱلسَّيْفِ فِيْ مَوْضِعِ ٱلنَّدَىٰ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٣٦ منَ الطويل] :

وَأَحْلُمُ عَنْ خِلِّيْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ ... مَتَىٰ أَجْزِهِ حِلْماً عَلَىٰ ٱلْجَهْلِ يَنْدَمِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٨٥ منَ الكامل] :

يَا مَنْ يُقَتِّلُ مَنْ أَرَادَ بِسَيْفِهِ ... أَصْبَحْتُ مِنْ قَتْلاَكَ بِٱلإِحْسَانِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٧٩ منَ الطويل] :

وَيَصْطَنِعُ ٱلْمَعْرُوْفَ مُبْتَدِئاً بِهِ ... وَيَمْنَعُهُ عَنْ كُلِّ مَنْ ذَمُّهُ حَمْدُ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٣١٠ منَ الكامل] :

لاَ يَشْهَرُوْنَ عَلَىٰ مُخَالِفِهِمْ ... سَيْفاً يَقُوْمُ مَقَامَهُ ٱلْعَذْلُ

وفي البحثِ طولٌ وفَّيْناهُ حقَّهُ في « بلابلِ التغريدِ » .

عود على بدء

ولنعُدْ إِلىٰ ما يتَّصلُ بتناقضِ الناظِمِ ، فنقولُ :

الأصمعي وبراذين الخلفاء

حُكيَ : أَنَّ الأَصمعيَّ رُئِيَ علىٰ حمارٍ أَعجفَ ، فقيلَ لهُ : تركبُ هٰذا بعدَ براذينِ الخلفاءِ ؟ فقالَ [منَ الكامل] :

وَلَمَّا أَبَتْ إِلاَّ ٱنصِراماً لِوِدُّهَا وَكَدَّرَتِ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِيْ كَانَ صَافِيَا

شَرِبْنَا بِرِنْقٍ مِنْ هَوَاهَا مُكَدَّرٍ وَلَيْسَ يَعَافُ ٱلرَّنْقَ مَنْ كَانَ صَادِيَا

الضرورات تبيح المحظورات

وَللنّاظمِ فيما يقربُ منَ ٱلأَخير قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٨١ منَ المنسرح] :

غَيْـرَ ٱخْتِيَـارٍ قَبِلْـتُ بِـرَّكَ بِـيْ وَٱلْجُوْعُ يُرْضِيْ ٱلأُسُوْدَ بِٱلْجِيَفِ

ومثلُهُ قولُ بعضِهِم [من مجزوء الكامل] :

خُـذْ مَـا أَتَـاكَ مِـنَ ٱللِّئَـا مِ إِذَا نَـأَىٰ أَهْـلُ ٱلْكَـرَمْ

فَـالأُسْـدُ تَفْتَـرِسُ ٱلْكِـلاَ بَ إِذَا تَعَـذَّرَتِ ٱلْغَنَـمْ

ابن الرومي يطلب حاجة لا يتوقع قضاءها

وسأَلَ ٱبنُ الروميِّ حاجةً مِنْ بعضِ الرؤَساءِ ، فقضاها لهُ ، وما كانَ يتوقَّعُ ذلكَ منهُ ، فقالَ [منَ الطويل] :

سَأَلْتُكَ فِيْ أَمْرٍ فَجُدْتَ بِبَذْلِهِ عَلَىٰ أَنَّنِيْ مَا خِلْتُ أَنَّكَ تَفْعَلُ

وَأَلْزَمْتَنِيْ بِٱلْبَذْلِ شُكْراً وَإِنَّهُ عَلَيَّ مِنَ ٱلْحِرْمَانِ أَدْهَىٰ وَأَعْضَلُ

وَمَا خِلْتُ أَنَّ ٱلدَّهْرَ يَثْنِيْ بِصَرْفِهِ إِلَىٰ أَنْ أَرَىٰ فِيْ ٱلنَّاسِ مِثْلَكَ يُسْأَلُ

لَئِنْ سَرَّنِيْ مَا نِلْتُ مِنْكَ فَإِنَّهُ لَقَدْ سَاءَنِيْ إِذْ أَنْتَ مِمَّنْ يُؤَمَّلُ

ابتسام الأيام بعد عبوسها

وفيما يليقُ بموضوعِ البيتِ الّذي نتكلَّمُ فيهِ ، يقولُ ٱبنُ الروميِّ أَيضاً في أَبي الصقرِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٦٣٨ منَ الوافر] :

غَدَا يَعْلُوْ ٱلْجِيَادَ وَكَانَ يَعْلُوْ ... إِذَا مَا ٱسْتَفْرَهَ ٱلسِّبْتَ ٱلرِّقَاقَا[1]
أَعِنَّتُهَا ٱلشُّسُوْعُ فَإِنْ عَرَاهَا ... حِفَاءُ ٱلْكَدِّ أَنْعَلَهَا طِرَاقَا
فَزُوِّجَ بَعْدَ فَقْرٍ مِنْهُ نُعْمَىٰ ... أَرَانِيَ ٱللهُ صُبْحَتَهَا طَلَاقَا

رجل خفيف الحِمل

وقالَ آخرُ [منَ الخفيف] :

أَتُرَانِيَ أُرَىٰ مِنَ ٱلدَّهْرِ يَوْماً ... وَبِمِلْكِيَ مَطِيَّةٌ غَيْرَ رِجْلِيْ
وَإِذَا كُنْتُ فِيْ أُنَاسٍ فَقَالُوْا ... قَرِّبُوْا لِلرَّحِيْلِ قَرَّبْتُ نَعْلِيْ
حَيْثُمَا كُنْتُ لاَ أُخَلِّفُ رَحْلاً ... مَنْ رَآنِيْ فَقَدْ رَآنِي وَرَحْلِيْ

اللهم مثلنا أو مثلهم

وكانَ لبعضِ الفقراءِ مِنْ متأخِّري أَهل بلادِنا جيرانٌ أَغنياءُ ، فكانَ يقولُ مِنْ آخرِ الليلِ : (اللَّهمَّ مِثْلَنا أَو مِثْلَهُم) ؛ يريدُ أَنْ يفتقروا مثلَهُ أَو يثرىٰ مثلَهُم ، وكأَنَّما أَخذَهُ من قولِ بعضِهِم ، وهوَ مِنْ مَناسِبِ الموضوعِ [منَ المتقارب] :

تَسَامَىٰ ٱلرِّجَالُ عَلَىٰ خَيْلِهِمْ ... وَرِجْلِيَ مِنْ بَيْنِهِمْ حَافِيَهْ
فَإِنْ كُنْتَ حَامِلَنَا رَبَّنَا ... وَإِلاَّ فَأَرْجِلْ بَنِيْ ٱلزَّانِيَهْ

لم يذهب إلا الفضول

وذكروا : أَنَّ بعضَهُم رأَىٰ أَحَدَ بني هشامِ بنِ عبدِ المَلِكِ ، وعلىٰ ظهرِهِ قِرْبَةٌ ، فقالَ لَهُ : بعدَ الخلافةِ تكونُ علىٰ هـٰذا الحالِ؟! قالَ : لَمْ يذهبْ إلاَّ الفضولُ!!

فخر الدولة ابن المعتمد يتعلم الصياغة

ورأَىٰ ٱبنُ ٱللَّبَّانةِ فخرَ الدولةِ ٱبنَ المعتمدِ بنِ عبَّادٍ ، وقد جلسَ

---

(١) ٱستفرَهَ : تخيَّرَ الجيدَ . السِّبتُ : النعالُ المصنوعةُ مِنَ الجلدِ المدبوغِ . الرقاقُ : كنايةٌ عن الجديدِ مِنَ النعالِ ؛ لأنها لا رقعة فيها .

في السوقِ ليتعلَّمَ الصياغةَ ، وهوَ ينفُخُ الفحمَ بالقصبةِ ، فقالَ [كما في « نفح الطيب » ٤/ ٩٧ منَ البسيط] :

شَكَاتُنَا لَكَ يَا فَخرَ ٱلْعُلاَ عَظُمَتْ ... وَٱلرُّزْءُ يَعْظُمُ فِيْمَنْ قَدْرُهُ عَظُمَا
طُوِّقْتَ مِنْ نَائِبَاتِ ٱلدَّهْرِ مُخْنِقَةً ... ضَاقَتْ عَلَيْكَ وَكَمْ طَوَّقْتَنَا نِعَمَا
صَرَفْتَ فِيْ آلَةِ ٱلصَّوَّاغِ أُنْمُلَةً ... لَمْ تَدْرِ إِلاَّ ٱلنَّدَىٰ وَٱلسَّيْفَ وَٱلْقَلَمَا
يَدٌ عَهِدْتُكَ لِلتَّقْبِيْلِ تَبْسُطُهَا ... فَتَسْتَقِلُّ ٱلثُّرَيَّا أَنْ تَكُوْنَ فَمَا
يَا صَائِغاً كَانَتِ ٱلْعَلْيَا تُصَاغُ لَهُ ... حُلْياً وَكَانَ عَلَيْهِ ٱلْحُلْيُ مُنْتَظَمَا
لِلنَّفْخِ فِيْ ٱلصُّوْرِ هَوْلٌ مَا حَكَاهُ سِوَىٰ ... هَوْلٌ رِئَاتُكَ فِيْهِ تَنْفُخُ ٱلْفَحَمَا
وَدِدْتُ إِذْ نَظَرَتْ عَيْنِيْ إِلَيْكَ بِهِ ... لَوَ ٱنَّ عَيْنِيَ تَشْكُوْ قَبلَ ذَاكَ عَمَىٰ
مَا حطَّكَ ٱلدَّهْرُ لَمَّا حطَّ عَنْ شَرَفٍ ... وَلاَ تَحَيَّفَ مِنْ أَخلاَقِكَ ٱلْكَرَمَا
لُحْ فِيْ ٱلْعُلاَ كَوْكَباً إِنْ لَمْ تَلُحْ قَمَراً ... وَقُمْ بِهَا رَبْوَةً إِنْ لَمْ تَقُمْ عَلَمَا
وَٱصْبِرْ فَرُبَّتَمَا أُحْمِدْتَ عَاقِبَةً ... مَنْ يَلْزَمِ ٱلصَّبْرَ يَحْمَدْ غِبَّ مَا لَزِمَا
وَٱللهِ لَوْ أَنْصفَتْكَ ٱلشُّهْبُ لانْكَسَفَتْ ... وَلَوْ وَفَىٰ لَكَ دَمْعُ ٱلْعَيْنِ لانْسَجَمَا
أَبْكَىٰ حَدِيْثُكَ ـ حَتَّىٰ ٱلدُّرَّ ـ حِيْنَ غَدَا ... يَحْكِيْكَ رَهْطاً وَأَلْفَاظاً وَمُبْتَسَمَا

تغير أحوال أم جعفر البرمكي

ودخلَتْ أُمُّ جعفرٍ البَرمكيِّ ـ في يومِ عيدٍ ـ علىٰ بعضِ الهاشميِّينَ ، فقالوا لها : صِفِي لنا حاليكِ ، قالَت : لا أَزيدُكُم علىٰ أَنَّهُ مضىٰ عليَّ مثلُ اليومِ في العامِ الماضي وعلىٰ رأسي مئةُ وصيفةٍ ، وعندي مئةُ ألفِ دينارٍ ، وأنا أَعُدُّ وَلَدِي مُقصِّرًا في حَقِّي ، واليومَ أطلبُ درهماً أَتبلَّغُ به في عيدي .

قصة عجيبة على تغير الأحوال

وقالَ محمَّدُ بنُ يزيدَ الشاعرُ : دعاني الفضلُ بنُ يحيىٰ ذاتَ ليلةٍ إلىٰ دارٍ لهُ واسعةٍ مؤثَّثةٍ بأَجمَلِ الرياشِ ، وإذا هيَ غاصَّةٌ بالعلماءِ

والشعراءِ والأُمراءِ والْخاصَّةِ والأَعيانِ ، وأُخرِجَ مولودٌ عن يمينِ الفضلِ ، فقُرِىءَ القرآنُ حتَّىٰ أنتهَوا مِنَ ٱلخَتمةِ ، فقامَ الشعراءُ والخطباءُ ، ونُثِرتِ الدنانيرُ ولَمْ يحضرني غيرُ قولي [منَ الطويل] :

وَنَفْرَحُ بِٱلْمَوْلُوْدِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ ... وَلاَ سِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ وَلَدِ ٱلْفَضْلِ
وَيُعْـرَفُ فِيْـهِ ٱلْخَيْـرُ حَـالَ وُجُـوْدِهِ ... بِسِيْمَا ٱلْعُلاَ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجُوْدِ وَٱلْبَذْلِ

فأَمرَ لي بعشَرَةِ آلافِ دينارٍ ، وقالَ : خُذها يا محمَّدُ ، فهيَ أَوَّلُ حقِّكَ ، فخرجتُ وأَنا مِنْ أَشدِّ الناسِ فرحاً ، وتأَثَّلْتُ المالَ والعَقَارَ ، ونَعُمَ عَيشي ، وطابَ لي زماني ، ثُمَّ لَمْ تَطُلِ ٱلأَيَّامُ حتَّىٰ حَلَّتْ بِهِمُ النازلةُ . ودخلتُ ٱلحَمَّامَ بعدَ ذلكَ ، فأَشارَ قيِّمُهُ علىٰ صبيٍّ حَسَنِ الوجهِ مِنَ ٱلخَدَمِ أَنْ يَدْلُكَ بدني ، فتذكرتُ البرامكةَ وأَيَّامَهم ؛ لأَنَّهُم سببُ نعمتي ، فأَنشدتُ البيتينِ ، فأندهشَ الصبيُّ ، وسالَتْ دموعُهُ ، وسقطَ مغشياً عليه ، فظننتُ بهِ الجنونَ ، وعاتبْتُ القيِّمَ ، ولمَّا أَفاقَ ، وسأَلناهُ عَنْ أَمرِهِ . . أَمتنعَ ، وبعدَ الإلحاحِ قالَ : أَنا ذلكَ المولودُ الَّذي أَنشدتَ فيهِ الشعرَ ، وقد صرْتُ إِلىٰ ما ترىٰ ، فعرضتُ عليهِ أَنْ أَنزِلَ لَهُ عَنْ جميعِ مالي ؛ إِذ لا وارثَ لي علىٰ أَنْ أَعيشَ ما بقيَ مِنْ حياتي في كنفِهِ ، فأَبىٰ ، وقالَ : معاذَ اللهِ أَنْ أَرزأَكَ شيئاً ممَّا خوَّلكَ أَبي ، وكانَ آخرَ عهدي بهِ .

النعمان بن بشير يخطب الرقة ابنة النعمان بن المنذر

ولمَّا جاءَ النعمانُ بنُ بشيرٍ يخطبُ الرَّقَّةَ ٱبنةَ النعمانِ بنِ المنذرِ . . ردَّتْهُ ، وقالتْ له : كبرتَ عَنِ النكاحِ ، وإِنَّما أَرَدْتَ بنكاحي الفخرَ ؛ لتقولَ : أَخذتُ مملكةَ النعمانِ ، وتزوَّجتُ بنتَهُ ، فقالَ لها : صِفي لنا ما رأَيتِ ، فأَنشدَتْ [منَ الطويل] :

فَبَيْنَا نَسُوْسُ ٱلنَّاسَ وَٱلأَمْرُ أَمْرُنَا ... إِذَا نَحْـنُ فِيْهَـا سُـوْقَـةٌ نَتَنَصَّـفُ

فَـأُفٍّ لِـدُنْيَـا لاَ تَـدُوْمُ بِحَـالَـةٍ   تُقَلَّـبُ تَـارَاتٍ بِنَـا وَتُصَـرَّفُ

موسى بن نصير وتغير حاليه

ويُروىٰ : أَنَّ موسىٰ بنَ نصيرٍ فاتحَ (الأندلسِ) كانتْ تُرفَعُ لَهُ الذخائِرُ ، فيرمي بالذهبِ والفضَّةِ ، ولا يلتقطُ إلاَّ ما كانَ مِنَ ٱلجواهرِ المُثْمِنَةِ ، ثُمَّ آلَ بهِ الحالُ إلىٰ أَنْ صارَ يتسوَّلُ[1] بـ (الطائفِ) ، وإذا وقعَ لَهُ الدرهمُ . سُرَّ بهِ ، حتَّىٰ مَلَّهُ حبيبُهُ ، وباعدَهُ قريبُهُ ، وماتَ علىٰ ذلكَ .

زوجة ملك تطلب الصدقة

ولا حاجةَ للبُعدِ في ٱستخراجِ العبرةِ ، وقد رأيتُ زوجَ آخرِ ملوكِ آلِ عثمانَ تطلبُ الصدقةَ في (سنكافورةَ)[2] ، فسبحانَ مَنْ لا يزولُ ملكُهُ .

القصر الخَرِب

ورأيتُ قصرَ الأميرِ الخطيرِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ العَوْلَقيِّ خراباً يباباً في (حيدرَ أبادَ الدَّكَن) [منَ الطويل] :

أَمْسَىٰ خَلاَءً وَأَمْسَىٰ أَهْلُهُ ٱحْتَمَلُوْا   أَخْنَىٰ عَلَيْهِ ٱلَّذِيْ أَخْنَىٰ عَلَىٰ لُبَدِ[3]

مَعَ مَا كانَ عليهِ مِنَ ٱلثروةِ وضخامةِ المُلْكِ ، وما بٱلعهدِ مِنْ قِدَمٍ ؛ فإنَّما كانتْ وفاتهُ سنةَ : (١٢٨٤هـ) ، ولَمَّا ٱقتربَ أَجلُهُ . . قالَ لِمَنْ حضرَهُ : ٱعلموا أَنِّي تركتُ لولدي محسنٍ عشرينَ أَلفَ أَلفِ

---

(١) وسببه : أنه لم يؤخِّرْ فتح (الأندلس) ليكون في عهد ولي العهد ، وهكذا الأيام .

(٢) أي : (سنغافورة) البلد المعروفة .

(٣) أخنى عليه : أهلكه . لُبَدٌ : تزعمُ العربُ أَنَّ لقمانَ هو الذي بعثتهُ عادٌ في وفدِهَا إلى الحرمِ يستسقي لها فلما أهلكوا . . خُيرَ لقمانُ بين بقاء سبع بعرات سمرٍ من أظبٍ عفرٍ في جبلٍ وعرٍ لا يمسها القطرُ أو بقاءِ سبعةِ أنسرٍ كلما هلكَ نسرٌ . . خلفَ بَعْدَهُ نسرٌ ، فاختار النسور ، فكان آخر نسوره يسمى لبداً ؛ لبقائهِ ، لأنه لَبِدَ فبقي لا يذهب ولا يموت ، ومنه المثل : طالَ الأبدُ على لبدَ .

رُوبيَّـةٍ نقـداً ، فضـلاً عمَّـا سـوىٰ ذلـك مِـنَ ٱلعقـارِ والأثـاثِ والمجوهراتِ ، ثُمَّ إنْ كانَ فحلاً . . فلنْ يحتاجَها ، وإنْ كانَ فَسْلاً[1] . . فلنْ تنفعَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَأَضْحَوْا حَدِيْثاً كَٱلْمَنَامِ وَمَا ٱنْقَضَىٰ ... فَسِيَّـانِ مِنْـهُ يَقْظَـةٌ وَمَنَـامُ

وما كانَ أَحقَّهُ بقولِ بعضِهِم [مِنَ الكامل] :

يَا مَنْزِلاً عَبَثَ ٱلزَّمَانُ بِأَهْلِهِ ... فَـأَبَـادَهُـمْ بِتَفَـرُّقٍ لاَ يَجْمَـعُ

أَيْنَ ٱلَّذِيْنَ عَهِدْتُهُمْ بِكَ مَرَّةً ... كَانَ ٱلزَّمَانُ بِهِمْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ ؟!

وقولِ الآخرِ [مِنَ البسيط] :

بِٱللهِ رَبِّكَ كَمْ قَصْرٍ مَرَرْتَ بِهِ ... قَدْ كَانَ مَلآنَ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلطَّرَبِ

نَـادَىٰ غُـرَابُ ٱلْمَنَـايَـا فِـيْ جَـوَانِبِـهِ ... وَصَاحَ مِنْ بَعْدِهِ بِٱلْوَيْلِ وَٱلْحَرَبِ[2]

الصـاحـب ودار ابـن العميد

ويُحكىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٥/ ١١٠] : أَنَّ الصاحبَ بنَ عبَّادٍ مرَّ بدارِ ٱبنِ العميدِ بعدَ وفاتِهِ ، فقالَ [مِنَ الخفيف] :

أَيُّهَا ٱلرَّبْعُ لِمْ عَلاَكَ ٱكْتِئَابُ ... أَيْنَ ذَاكَ ٱلْحِجَابُ وَٱلْحُجَّابُ ؟

أَيْنَ مَنْ كَانَ يَفْزَعُ ٱلدَّهْرُ مِنْهُ ... إِنَّـهُ ٱلْيَـوْمَ فِـيْ ٱلتُّـرَابِ تُـرَابُ

قُـلْ بِـلاَ رَقْبَـةٍ وَدُوْنَ ٱحْتِشَـامِ ... مَاتَ مَوْلاَيَ فَٱعْتَلاَنِيَ ٱكْتِئَابُ

اعجب لصَرْفِ الدهر

قالَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفيَّاتِ الأعيانِ » ٥/ ١١٠] : ومثلُ هـٰذهِ الحكايةِ ما ذكرهُ عليُّ بنُ سليمانَ ، قالَ : رأيتُ بـ(الرَّيِّ) دارَ قومٍ لم يبقَ منها إلاَّ رسمُ البابِ مكتوبٌ عليهِ [مِنَ المنسرحِ] :

---

(١) الفَسْلُ مِنَ الرجالِ : الرَّذْلُ النَّذْلُ الذي لا مروءةَ لهُ .
(٢) الحَرَبُ : الهلاكُ .

اِعْجَبْ لِصَرْفِ ٱلدُّهُوْرِ مُعْتَبِراً ... فَهٰـذِهِ ٱلـدَّارُ مِـنْ عَجَـائِبِهَـا
عَهْـدِيْ بِهَـا وَٱلْمُلُـوْكُ زَاهِيَـةٌ ... قَـدْ سَطَـعَ ٱلنُّـوْرُ مِـنْ جَـوَانِبِهَا
تَبَـدَّلَـتْ وَحْشَـةً بِسَـاكِنِهَـا ... مَا أَوْحَشَ ٱلدَّارَ بَعْدَ صَاحِبِهَا

قصر ابن سبكتكين

وٱجتازَ بعضُ الأفاضلِ بقصرِ ٱبنِ سُبُكْتِكِيْنَ بعدَ موتِهِ ، وقد تشعَّثتْ فأَنشدَ [منَ الطويل] :

عَلَيْـكَ سَـلاَمُ ٱللهِ مِـنْ مَنْـزِلٍ قَفْـرِ ... فَقَدْ هِجْتَ لِيْ شَوْقاً قَدِيْماً وَمَا تَدْرِيْ
عَهِدْتُكَ مِنْ شَهْرٍ جَدِيْداً وَلَمْ أَخَلْ ... صُرُوْفَ ٱلرَّدَىٰ تُبْلِيْ مَغَانِيْكَ فِيْ شَهْرِ[1]

وما أَحسنَ قولَ بعضِهِم [منَ البسيط] :

إِنْ شِئْتَ أَن لاَ تَرَىٰ صَبْراً لِمُضْطَبِرٍ ... فَٱنْظُرْ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ أَصْبَحَ ٱلطَّلَلُ

ويأْتي ما يتَّصلُ بهٰذا في شرحِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٣٤ منَ الكامل] :

أَيْـنَ ٱلأَكَـاسِـرَةُ ٱلْجَبَـابِـرَةُ ٱلأُلَـىٰ ... كَنَزُوْا ٱلْكُنُوْزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلاَ بَقُوْا ؟

أمير (كابل)

وَأَذكرُ في الكتابِ[2] أَميرَ (كابُلَ) الَّذي بحثَ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ[3] ، وجدعَ مارِنَ أَنفِهِ بكفِّهِ[4] ، وباءَ بالصفقةِ الخاسرةِ ، وضيَّعَ الدنيا والآخرةَ ، فبعدَ أَنْ كانَ يغبطُهُ مَنْ رآهُ ، أَو سمعَ بنعمتِهِ . . تبرَّأَ مِنَ الإِسلامِ ، فطُردَ عَنِ ٱلمُلْكِ ، وسُلِبَ المالَ ،

(١) القصة في « وفيات الأعيان » ٥/ ١٧٦ .
(٢) هذا اقتباس حسن تكرر في القرآن الكريم .
(٣) بظلفه : بقدمه ، وقال أحدهم بمعناه :
إلـى حتفـي مشـىٰ قـدمـي ... أرى قـدمـي أراق دمـي
(٤) قالت الزباء : (لأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أنفَهُ) ، فضربت مثلاً .

وصارَ يرثي لَهُ كلُّ مَنْ رآهُ ، ولَعَذابُ الآخرةِ أَشَدُّ وأَبقىٰ[1] .

محمد علي باشا وأمان الله

ومع هٰذا فقد أَخبرني الفاضلُ الثقةُ السيِّدُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ بن طاهرٍ ، عَنْ محمَّدِ عليٍّ باشا بنِ توفيقٍ باشا خدَيْويِّ (مصرَ) السابقِ : أَنَّهُ قالَ : بينا أنا أَتمشَّىٰ في (باريزَ)[2] . . إذ جاءَ أَمانُ اللهِ ـ وهُوَ وليُّ عهدِ دولتهِ ـ في أَتباعِهِ وحَشَمِهِ بأَلبستِهِمُ ٱلوطنيَّةِ وشعائرِهِمُ ٱلإسلاميَّةِ فٱستلفَتُوا ٱلأَنظارَ ، ومَلَؤُوا ٱلصدورَ ، وٱستحقُّوا ٱلإِعجابَ ، وكانوا موضعَ ٱلاحترامِ ، وزادَ ٱلطِّينَ بِلَّةً أَنْ دخلَ وقتُ ٱلمغربِ . . فٱستهلَّ مؤذِّنُهُ ثُمَّ أَقامَ ، ودخلُوا في ٱلصَّلاةِ ، فبادرَتْ رجالُ ٱلحكومةِ بٱلحرسِ ؛ لمنعِ ٱلنَّاسِ عَنِ ٱلمرورِ بين أَيديهم ؛ ٱحتراماً لهم ولدينهِم ، فصاروا حديثَ ٱلنَّوادي ، ومحلَّ ٱستحسانِ ٱلقومِ وإِعظامِهم ، قالَ محمَّدُ عليٌّ : فلا تسلْ عمَّا داخلَني مِنْ حَسَدٍ لَهُم ، وٱنكسارٍ في نفسي ، وٱحتقارٍ لزِيي ٱلإِفرنجيِّ ، مع أَنَّ بلادي أَعظمُ سلطاناً من بلادِهم ، وما رفعهم إِلاَّ ٱلتَّمسُّكُ بتقاليدِ بلادِهم ودينِهم .

ثُمَّ أُرجِعُ النظرَ في حالِ أَمانِ اللهِ خانٍ وصيورِ أَمرِهِ ، فلقد ٱتَّضعَ مِنْ حيثُ ٱرتفعَ ، وٱندفعَ مِنْ حيثُ ٱنتفعَ ، نعوذُ باللهِ مِنْ عثراتِ

---

(١) ونحو قول الآخر :

أخـذت بـالجمـة رأسـاً أزعـرا	وبـالثنـايـا الـواضحـات الـدردرا
وبـالطـويـل العمـر عمـراً حيـدراً	كمـا اشتـرى المسلـم إذ تنصـرا

الأزعر : قليل الشعر . الدردر : مغارز أسنان الطفل . الحيدر : القصير .
المتنصر : هو جبلة بن الأيهم ارتدَّ بعد إسلامه ، وعاد إلى كفره .

(٢) أي : (باريس) عاصمة (فرنسا) .

ٱلشَّورِ[1] ، ومن ٱلحَوْرِ بعد ٱلكَوْرِ[2] .

ركب النميري

ثُمَّ إِنِّي ذكرتُ بتعاظمِ الناظمِ عَنْ غيرِ حقيقةٍ قولَ النُّمَيْرِيِّ [مِنَ الطويل] :

وَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ ٱلنُّمَيْرِيِّ أَعْرَضَتْ ... وَكُـنَّ مِـنَ أَنْ يَلْقَيْنَـهُ حَـذِرَاتِ

فقدْ أَحفاهُ السؤَالَ عبدُ المَلِكِ بنُ مروانَ عَنْ ذلكَ الرَّكْبِ ، فقالَ لَهُ : لا واللهِ ما هوَ إِلاَّ أَتانٌ ضالعٌ .

الجيش الكبير

وقولَ ليلىٰ لأَبيها : أَرأَيتَ قولَ أَبيْكَ [مِنَ الطويل] :

بجَيْشٍ تَظَلُّ ٱلبُلْقُ فِيْ حُجُرَاتِهِ ... بِيَثْرِبَ أُخْرَاهُ وَبِالشَّامِ قَادِمُهْ

كَمْ كانَ عددُهُ ؟ قالَ : أَنا وإِيَّاهُ وأَخوكِ فلانٌ ومعنا أتانانِ .

ابن الحجام

وقولَ ٱبنِ الحَجَّامِ[3] [مِنَ المنسرح] :

أَنَا [ٱبْنُ] مَنْ دَانَتِ ٱلرِّقَابُ لَهُ ... مَا بَيْـنَ مَخْزُوْمِهَـا وَهَـاشِمِهَـا

تَـأْتِـيْ إِلَيْـهِ ٱلأَنَـامُ طَـائِعَـةً ... يَأْخُذُ مِـنْ مَـالِهَـا وَمِـنْ دَمِهَـا

ابن الفوال

وقولَ ٱبنِ الفوَّالِ[4] [مِنَ الطويل] :

أَنَا ٱبْنُ ٱلَّذِيْ لاَ يُنْزِلُ ٱلدَّهْرُ قِدْرَهُ ... وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْماً فَسَوْفَ تَعُوْدُ

---

(١) الشَّورُ : الرأيُ بالحضرمية ، وكأنه مأخوذ من المشورة.

(٢) الحورُ بعدَ الكورِ : النقصان بعد الزيادة .
وهو من دعائه ﷺ الثابت من حديث عبد الله بن سرجس عند مسلم (١٣٤٣) والترمذي (٣٤٣٩)، والنسائي (٥٥٠٠) ، وابن ماجه (٣٨٨٨) وغيرهم. وفيه رواية بالنون (بالكون) بدل الراء ، فمعنى الكور: اللَّف والجمع، والكون: الوجود والاستقرار.

(٣) الذي يحجم الناس.

(٤) الذي يبيع الفول.

القبران المتشاتمان

وقالَ ٱبنُ خلِّكانَ [في « وفيّات الأعيانِ » ٧/ ٥٧] : قالَ عَوْثُ بنُ الزِّرعِ : حدَّثني مَنْ رَأىٰ بـ (الشامِ) قبراً مكتوباً عليهِ : لا يغترَّنَّ أحدٌ بٱلدنيا ؛ فإنِّي ٱبنُ مَنْ كانَ يُطلِقُ الريحَ إذا شاءَ ، ويحبِسُها إذا شاءَ ، وبإزائِهِ قبرٌ مكتوبٌ عليهِ : كذبَ الماصُّ بظرَ[1] أُمِّهِ لا يظنُّ أحدٌ أنَّهُ ٱبنُ سليمانَ بنِ داوودَ عليهما السلامُ ، إنَّما هو ٱبنُ حدَّادٍ يجمعُ الريحَ في الزِّقِّ ، ثُمَّ ينفخُ بها الجمرَ ، قالَ : فما رأيتُ قبرينِ قبلهما يتشاتمانِ .

الكلام على النعل

والكلامُ في النعلِ يطولُ ، وقد أُفرِدَتْ بٱلتأليفِ . وفي « حاشيتي » علىٰ « الشمائلِ » جملةٌ صالحةٌ مِنهُ ، في ضمنِهِ قولُ « التحفةِ » : وورد : « أمشوا حفاةً »[2] وفي روايةٍ أنَّهُ ﷺ مشىٰ حافياً ، وقد يؤخذُ منهُ ندبُ الحَفاءِ في بعضِ الأحوالِ بقصدِ ٱلتواضعِ ، حيثُ أَمِنَ مُؤْذياً وتنجيساً ، ولو ٱحتمالاً ، ويؤيِّدُهُ ندبُهُ لنحوِ دخولِ (مكَّةَ) بهـٰذهِ الشروطِ . انتهى .

ومِنْ محاسنِ الشريعةِ ، وٱعتنائِها بٱلعدلِ : كراهةُ المشي في نعلٍ واحدةٍ .

من الممادح رقة النعال

ومِن ممادحِ العربِ رقَّةُ النعالِ ، كما في قولِهِ [النابغةِ الذُّبيانيِّ في « ديوانِهِ » منَ الطويل] :

رِقَاقُ ٱلنِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ ... يُحَيَّوْنَ بِٱلرَّيْحَانِ يَوْمَ ٱلسَّبَاسِبِ[3]

---

(١) البظر : الشفر ، وهو بطرف فرج المرأة.

(٢) ثبت عن أبي هريرة عند البخاري (٥٨٥٥)، ومسلم (٢٠٩٧) قوله ﷺ: «لا يمشِ أحدكم في نعل واحدة، لينعلهما جميعاً، أو ليخلعهما جميعاً».

(٣) الحجزةُ : العشيرةُ يحتجز بها ، أي يُمتنَعُ . ورجلٌ طيّبُ الحجزة عفيفٌ . السباسبُ : أيّامُ السَّعانينِ ، وهو عيدٌ للنصارىٰ ، وفي الحديثِ : « إنَّ اللهَ =

ومنها لبس السبتية

ولُبْسُ السِّبْتِيَّةِ منها ، كَما قالَ عنترُ [في « ديوانهِ » ٦٥ منَ الكامل] :

بَطَـلٍ كَـأَنَّ ثِيَـابَـهُ فِـي سَـرْحَـةٍ   يَحْذَىٰ نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ[١]

والسِّبْتُ : جلودُ البقرِ المدبوغةِ ٱلَّتي لا تقربُها الكلابُ إِذا ٱبتلَّت ؛ لإِتقانِ دَبْغِها .

رقة النعل كناية عن سلامتها

وأَمَّا رِقَّةُ النعلِ : فكنايةٌ عَنْ سلامتِها مِنَ الرقاعِ ؛ لأَنَّهم ملوكٌ لا تُخصَفُ نعالُهم ، وإِنَّما تخصفُ نعلُ من يُكثِرُ المشيَ ، ومِثْلُهُ قولُهُم : (فلانٌ مُسمَّطُ النعلِ) ؛ يعنونَ أَنْ نعلَهُ طبقةٌ واحدَةٌ غيرُ مخصوفةٍ . قالَ المرارُ الفقعسيُّ [منَ الوافر] :

وَجَدْتُ بَنِيْ خَفَاجَةَ فِيْ عَقِيْلٍ   كِـرَامَ ٱلنَّـاسِ مُسْمَطَـةَ ٱلنِّعَـالِ

* * *

= تعالىٰ أَبدلَكم بيوم السباسبِ يومَ العيدِ » .

(١) مدحَهُ بأَربعِ خصالٍ كرامٍ : إِحداها : أَنَّهُ جعلَهُ بطلاً شجاعاً ، الثانيةُ : أَنَّهُ جعلَهُ طويلاً ، شبَّهه بالسَّرْحَةِ ؛ وهي : شجرٌ عظامٌ طوالٌ ، الثالثةُ : أَنَّهُ جعلَهُ شريفاً ؛ للُبسه نِعالَ السِّبتِ ، الرابعةُ : أَنَّه جعلَهُ متفرداً لا مثيل له .

المجلس الثالث

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٣٠٤ منَ المنسرح]:

لَـهُ أَيَـادٍ عَلَـيَّ سَـابِقَـةٌ أُعَـدُّ مِنهَـا وَلاَ أُعَـدِّدُهَـا

شرح المطلع

الأَيادِيْ : جمعُ يدٍ ، وهي النِّعْمَةُ ؛ لأَنَّها الَّتي تُجمعُ هٰذا الجمعَ بخلافِ الجارحةِ ، فإِنَّها لا تُجمعُ عليهِ ، وزعمَ بعضُهم أَنَّها تُجمعُ عليهِ أَيضاً ، وذكروا لهُ أَمثلةً لا يحضرنيْ مِنْها الآنَ شيءٌ .

الروايات في المطلع

أَمَّا قولُهُ : (أُعَدُّ) فيروىٰ بفتحِ الهمزةِ [أَعُدُّ] ، وهوَ مِنْ قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، ويُروىٰ بضمِّها مبنيَّةً للمفعولِ ، ونائبُ الفاعلِ مستترٌ تقديرُهُ (أَنا) ؛ يعني : أَنَّ نفسَهُ معدودةٌ مِنْ جملةِ نِعَمِ الممدوحِ ، فهو كقولِ شاعرِ الحماسةِ [منَ السريع] :

لاَ تَنْتَفَنِّـي بَعْـدَ أَنْ رِشْتَنِـي فَـإِنَّنِـي بَعْـضُ أَيَـادِيْكَـا

تلاعب المتنبي في معنى الجود

وقد تلاعبَ بهٰذا المعنىٰ في «ديوانهِ» فقالَ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/ ٣٨٠ منَ البسيط] :

مَا زِلْتَ تُتْبِعُ مَا تُوْلِيْ يَداً بِيَدٍ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ حَيَاتِيْ مِنْ أَيَادِيْكَا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٠٥ منَ الكامل] :

فَاْغْفِرْ فِدىً لَكَ واْحْبُنِي مِنْ بَعْدِهَا ... لِتَخُصَّنِـــيْ بِعَطِيَّـــةٍ مِنْهَـــا أَنَـــا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤٧ منَ المتقارب] :

وَفِيْ جُوْدِ كَفِّكَ مَا جُدْتَ لِيْ ... بِنَفْسِيْ وَلَوْ كُنْتُ أَشْقَىٰ ثَمُوْدْ

أن تكون واحدة من حسنات ممدوحك عند الشعراء

وقالَ العتابيُّ [منَ البسيط] :

مَا زِلْتُ فِيْ غَمَرَاتِ ٱلْمَوْتِ مُطَّرَحاً ... يَضِيْقُ عَنِّيْ وَسِيْعُ ٱلرَّأْيِ مِنْ حِيَلِيْ

فَلَـمْ تَـزَلْ دَائِبـاً تَسْعَىٰ بِلُطْفِكَ لِيْ ... حَتَّىٰ ٱنْتَزَعْتَ حَيَاتِيْ مِنْ يَدَيْ أَجَلِيْ

وقالَ غيرُهُ [منَ البسيط] :

رَدَدْتَ مَالِيْ وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ ... وَقَبْلَ مَالِيَ قِدْماً قَدْ حَقَنْتَ دَمِيْ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [منَ البسيط] :

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجْهِيْ فِيْ صَحِيْفَتِهِ ... رَدَّ ٱلصِّقَالِ بَهَاءَ ٱلصَّارِمِ ٱلْخَذِمِ

وَمَـا أُبَـالِيْ وَخَيْـرُ ٱلْقَـوْلِ أَصْـدَقُـهُ ... حَقَنْتَ لِيْ مَاءَ وَجْهِيْ أَوْ حَقَنْتَ دَمِيْ

وقالَ [منَ الطويل] :

عَطَاؤُكَ لاَ يَفْنَىٰ وَتَسْتَغْرِقُ ٱلْمُنَىٰ ... وَتَبْقَىٰ وُجُوْهُ ٱلرَّاغِبِيْنَ بِمَائِهَا

مصعب بن الزبير وجوده على بعض من حاربه

ويُروىٰ [كما في «تاريخ بغداد» ١٣/ ١٠٦] : أَنَّ مصعبَ بنَ الزبيرِ أَمرَ بقتلِ أَحدٍ مَنْ حاربَهُ معَ المختارِ ، فقالَ : أَترضىٰ أَنْ أَتعلَّقَ بكَ يومَ القيامةِ ، وأَنتَ علىٰ ما نرىٰ مِنْ هـٰذا الجمالِ الباهرِ ، وأَقولُ : سَلْ مصعباً فيْمَ قتَلنِي ؟ فقالَ : أَطْلِقوهُ ، قالَ : اجعل ما وهبتَ لِيْ مِنْ عُمُرِي في عيشٍ طيِّبٍ ، فَأَمَرَ لَهُ بمئةِ أَلفٍ ، قالَ : بأَبِي أَنتَ وأُمِّي ، أُشهدُكَ أَنَّ نصفَها لقيسِ الرُّقياتِ ؛ لقولِهِ فيكَ [في « ديوانه » ٩١ منَ الخفيف] :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللَّـ ـهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فضحكَ مصعبٌ ، وقالَ : لقد ألطفتَ ، وإنَّ فيكَ لموضعاً للصنيعةِ ، وأمرَ لقيسٍ بخمسينَ ألفاً ، وتركَ مئتَهُ بحالِها .

إجارة معن بن زائدة على الخليفة المهدي

ويُحكىٰ [كما في «المستطرف» ١/٣٠١] : أنَّ بعضَ الشيعةِ سعىٰ للخروجِ في أيَّامِ الدولةِ العباسيَّةِ ، فجعلَ الخليفةُ فيهِ مئةَ ألفِ درهمٍ ، فأخذَهُ رجلٌ مِنْ (بغدادَ) ، فمرَّ بهِ معنُ بنُ زائدةَ ، فقالَ : يا أبا الوليدِ أجِرْني . . أجارَكَ اللهُ ، فقالَ معنٌ للرجلِ : خَلِّ عنهُ ، فقالَ : إنَّهُ طُلْبَةُ أميرِ المؤمنينَ ، قالَ : خَلِّ سبيلَهُ ، فأبىٰ ، فخَلَّصَهُ منْهُ قهراً ، وأردفَهُ خلفَ بعضِ أعوانِهِ ، وذهبَ الرجلُ للخليفةِ ، فاستدعىٰ مَعْناً ، ولمَّا حضرَ . . قالَ لَه : أتجيرُ عليَّ ؟! قالَ : نعمْ ، قتلْتُ في طاعتِكُم خمسةَ عشرَ ألفاً بـ (حضرموتَ) في يومٍ واحدٍ[1] ، فما تروني أهلاً لأنْ أُجيرَ واحداً عَلَّقَ بي رجاءَهُ ؟ فاستحيا الخليفةُ ، ثُمَّ قالَ : قَدْ أجرنا مَنْ أجرتَ يا أبا الوليدِ ، قالَ : إنْ رأىٰ أميرُ المؤمنينَ أن يصلَ جاري ، فأمرَ لهُ بخمسينَ ألفَ درهمٍ ، فقالَ معنٌ : إنَّ ذنبهُ عظيمٌ ، وينبغي أنْ تكونَ صلاتُ الخلفاءِ علىٰ قدرِ الجرائِمِ ، فقالَ : قد جعلتُها مئةَ ألفٍ ، فرجعَ معنٌ إلىٰ منزلِهِ ، ودفعَ المالَ للرجلِ ، وحذَّرَهُ مِنْ مساخطِ الملوكِ .

إبراهيم بن سليمان يستجير عند رجل قد قتل أباه

ولَمَّا أفضَتِ ٱلخلافةُ إلىٰ بني ٱلعبَّاسِ . . ٱختفىٰ بنو أُميَّةَ حتَّىٰ أخذوا مِنَ ٱلسفَّاحِ الأمانَ ، فحضرَ عندَهُ إبراهيمُ بنُ سليمانَ بنِ عبدِ المَلِكِ ، وكانَ عالماً أديباً ، فسألَهُ السفَّاحُ عن أعجبِ ما مرَّ بهِ في تغيُّبِهِ ، قالَ :

---

(١) وفي «المستطرف» : خمسة آلاف.

بينا أَنا بـ (الحِيرةِ) . . نظرتُ الأَعلامَ السودَ خارجةً مِنَ (الكوفةِ) ، فوقعَ لي أَنَّها تريدُني ، فخرجتُ متنكِّراً ، حتَّىٰ أَتيتُ (الكوفةَ) لا أَعرفُ أَحداً ، فتحيَّرتُ ، ثُمَّ ظهرَ لي بابٌ واسعٌ ، وإِذا رجلٌ وسيمٌ حسنُ الهيئةِ ، فقالَ لي : مَنْ أَنتَ ؟ قلتُ : غريبٌ خائفٌ مستجيرٌ بكَ ، قالَ : ٱدخُلْ ، ولكَ الأَمانُ ، فدخلتُ ، وأَكرمَ مثوايَ ، وَلَمْ يسأَلنيْ عَنْ شيءٍ مِنْ أَمرِيْ ، ورأَيْتُهُ يركبُ في كُلِّ غداةٍ ، فسأَلْتُهُ ، فقالَ : ذُكِرَ لي أَنَّ إِبراهيمَ بنَ سُليمانَ مختفٍ بهٰذا الطرَفِ ، وقد قتلَ أَبي صبراً[1] ، فأَنا أركبُ في طلبِ ثأري منهُ ، فأَيقنتُ أَنَّ القدرَ ساقني إِلىٰ الهلاكِ ، وسأَلْتُهُ عَنِ ٱسمِ أَبيهِ ، حتَّىٰ عرفتُ صحَّةَ ما يقولُ ، فقلْتُ لَهُ : قد وجبَ حقُّكَ عليَّ ، وإِنَّ منهُ أَنْ أَدُلَّكَ علىٰ خصمِكَ ، أَلاَ وإِنَّهُ الذي يكلِّمُكَ ، فٱفعلْ ما تحبُّ ، فقالَ : أَحسبُ الزمانَ أَضرَّ بكَ ، فأَحببتَ الراحةَ مِنَ ٱلحياةِ ، فقلتُ : كلاَّ ، ولٰكنْ صدقتُكَ ، فلمَّا ٱستيقنَ الأَمرَ . . ٱربدَّ[2] وجهُهُ وتغيَّرَ لونُهُ ، وٱحمرَّتْ عيناهُ ، وأَطرقَ مليّاً ثُمَّ قالَ : أَمَّا أَنتَ ستلقىٰ أَبي عندَ حَكَمٍ عدلٍ ، يأْخذُ بثأْرِهِ مِنكَ ، وأَمَّا أَنا فلا أَخفِرُ ذمَّتيْ ، ولٰكنْ لا آمنُ عليكَ نفسي ، فإِنْ شئتَ أَنْ تنصرفَ آمناً إِلىٰ حيثُ تحبُّ ، وأَعطانِيْ أَلفَ دينارٍ ، فٱعتذرتُ إِليهِ مِنْ قَبولِهِ ، وٱنصرفتُ، فهٰذا أَكرمُ رجلٍ رأَيتُهُ بعدَ أَميرِ المؤمنينَ .

وفاء الحارث بن عباد للمهلهل بعد قدرته عليه

وَأَقولُ : إِنَّ في تأَخُّرِ معرفةِ إِبراهيمَ بصاحبِ الدارِ لَنوعاً مِنَ ٱلنظرِ . والقصَّةُ أَشبهُ بقصَّةِ الحارثِ بنِ عبَّادٍ ، وقَدْ قَدَرَ علىٰ

---

(١) القتلُ صبراً : هوَ أن يُحبَسَ ويُرمىٰ حتَّىٰ يموتَ .

(٢) اربدَّ وجهه : تغيرَ منَ الغضبِ وصارَ كلونِ الرمادِ .

مهلهلٍ ، وهو لا يعرفُهُ ، وطلبَ منهُ أنْ يدلَّهُ علىٰ مهلهلٍ بشرطِ الأمانِ ، فٱستعرَفَ عليهِ ، فجزَّ ناصيتَهُ ، وأطلقَهُ ، وهُوَ قاتلُ ٱبنهِ بُجَيْرٍ ، وقالَ في ذلكَ [مِنَ الخفيفِ] :

لَهْفَ نَفْسِيْ عَلَىٰ عَدِيٍّ وقَدْ أَسْـ ـقَبَ لِلْمَوْتِ وَٱحْتَوَتْهُ ٱلْيَدَانِ[١]

وعَدِيٌّ هوَ ٱسمُ المهلهلِ .

إلاَّ أنَّ صاحبَ إبراهيمَ مَنَّ مِنْ غيرِ شرطٍ بخلافِ الحارثِ ، وقصَّةُ ٱبنِ زائدةَ أيَّامَ ٱختفائِهِ مِنْ بني العبَّاسِ معَ الجندي الَّذي أَمسكَهُ ، ثُمَّ مَنَّ عليهِ وصغَّرَهُ في نفسهِ مشهورةٌ .

المهلب يعفو عمن يريد قتله

وظفرَ المهلَّبُ بخارجيٍّ يُريدُ ٱغتيالَهُ ، فقالَ لَهُ : قد ثبَتَ كيدُكَ لنا ، فٱختر أيَّ قِتلَةٍ تريدُ ، قالَ : سيفٌ ماضٍ لا يَنبُوْ ، أو عطفةُ كريمٍ تحتقرُ الضغائِنَ ، قالَ : هل فيكَ موضعٌ للصنيعةِ؟ قالَ لَهُ : سينظرُ ٱلأميرُ ما يَسرُّهُ بعدَ التجربةِ ، قالَ : فإنَّها عطفةُ كريمٍ يحتقرُ الذنوبَ ، فخلَّىٰ سبيلَهُ ، وأكرمهُ ، فكانَ بعدَ ذلكَ مِنْ أوثقِ أُصحابهِ عندَهُ .

لا ابرح حتى اعرف حديثك مع المأمون

وذُكِرَ : أنَّ المأمونَ ٱستقدمَ رجالاً مِنَ (ٱلشامِ) بعقبِ فتنةٍ ٱشتعلَتْ فيها ، ثُمَّ ٱعتقلَهُم ، ودفعَ أكبرَ المتَّهمينَ في إثارَتِها لبعضِ خاصَّتِهِ ؛ ليأخذَهُ بأنواعِ العذابِ ، حتَّىٰ يتفرَّغَ لقتلهِ ، فأخذَ الرجلُ يُسائِلُ أَسيرَهُ عَنِ (ٱلشامِ) وأَهلِها ، وقالَ لَهُ : ما فعلَ فلانٌ ، لصديقٍ لَهُ بها؟ قالَ : وما عِلمُكَ بهِ ، قالَ : لا أَقدرُ علىٰ مكافأتِهِ ، وما نعمتي وحياتي إلاَّ مِنْ حسناتِهِ ، فلقد أهدرَ الخليفةُ دمي بإثرِ حوادثَ ظُنَّتْ بي فيها الظنونُ ، ولُصِقَتْ بي فيها التُّهمُ ، فلجأتُ إليهِ

---

(١) أسقبَ : قرُبَ .

عَنْ غيرِ سابقِ معرفةٍ ، فأكرمَ مثواي ، وحقنَ دمي ، وحفظَ عليَّ ماءَ وجهي ، ثُمَّ جهَّزني بأحسنِ الجهازِ ، كسا وحملَ ، وأغنىٰ وأقنىٰ ، ثُمَّ سالمَتني الأيَّامُ ، وصارَتْ بي إلىٰ ما ترىٰ ، ولوَدِدْتُ أنّي أظفرُ بهِ . . فأُكافِئَهُ ببعضِ ما طوَّقني مِنَ ٱلنعمِ ، وأسدىٰ إليَّ مِنَ ٱلمننِ ، فقالَ الأسيرُ : لقد أظفركَ اللهُ بمطلوبِكَ مِنْ غيرِ بحثٍ ولا تعبٍ ، قالَ : وأينَ هو؟ قالَ : نجيُّكَ ، وما زالَ يستعرفُ إليهِ بالذكرياتِ . . حتَّىٰ أثبتهُ معرفةً ، فأطلقَ وثاقَهُ ، وعرضَ عليهِ الذهابَ ، والتحكُّمَ في أموالِهِ ، فقالَ : لا أضرُّكَ بنفعي ، ولٰكنِ ٱئتني بعبدي فلانٍ حتَّىٰ أُوصيَهِ إلىٰ أهلي ، وتلكَ أكبرُ مكافأةٍ ، فقالَ : لا واللهِ ، حتَّىٰ أُبلِغَكَ مأمنَكَ ، وأُوصلَكَ إلىٰ أهلِكَ قريرَ العينِ ، معَ ما يُغنيكُم طولَ الحياةِ ، فقالَ : لا أبرحُ حتَّىٰ أعرفَ حديثَكَ معَ المأمونِ ، فإنْ نجوْتَ كانَتْ نجاتي ، وإلاَّ وَقيتُكَ بنفسي ، ثُمَّ إنَّ المأمونَ سألَ صاحبَهُ عن أسيرهِ . . فأخبرَهُ بقصَّتِهِ ، فٱغرورقَتْ عيناهُ ، وقالَ : قد وجبَتْ علينا مكافأتُهُ ؛ لأنَّ وجودَ مثلِهِ قليلٌ ، وأكبرُ شيءٍ عدمُ إيثارِهِ السلامةَ وٱلانطلاقَ علىٰ نجاتِكَ ، ثُمَّ ٱستدعاهُ ، وبالغَ في إكرامِهِ ، وإسباغِ الإلطافِ عليهِ ، وصرَفَهُ موفورَ الكرامةِ ، وجعلَهُ موضعَ سرِّهِ وأمانتِهِ بـ(الشامِ) ، فكانَتْ كُتُبُهُ تَرِدُ علىٰ المأمونِ بعدَ ذلكَ فيطالعُ بها صاحبَهُ .

ولإبراهيمَ بنِ المهديِّ في أيَّامِ ٱختفائهِ ما لا يقلُّ مِنْ وجهٍ عنها .

النعمان بن المنذر ويوم بؤسه

ويتَّصلُ بها حديثُ النُّعمانِ وصاحبِهِ شريكِ بنِ عمرٍو معَ الطائيِّ الذي قدَّمَ نفسَهُ للقتلِ وفاءً بوعدِهِ ، فكانَ مِنْ بركةِ ذلكَ إبطالُ النُّعمانِ لعادتِهِ السيِّئةِ في يومِ بؤسِهِ[1] .

---

(١) وكانَ مِن أمرهِ : أنَّ النعمانَ بنَ المنذرِ جعلَ لنفسهِ يومينِ ، يومَ بؤسٍ : مَن=

. . . .

= صادفهُ فيهِ . . قتَلهُ وأرداهُ ، ويومَ نعيمٍ مَن لقيَهُ فيهِ . . أحسنَ إليهِ وأغناهُ ، وكانَ هناكَ رجلٌ طائيٌّ ، قد رماهُ حادثُ دهرهِ بسهامِ فاقتِهِ وفقرِهِ ، فأخرجتْهُ الفاقةُ مِن محلِّ استقرارِهِ ليرتادَ شيئاً لصبيتِهِ وصغارِهِ ، فبينَما هوَ كذلكَ . . إذ صادفَهُ النعمانُ في يومِ بؤسِهِ ، فلمَّا رآهُ الطائيُّ . . علمَ أنَّهُ مقتولٌ ، وأنَّ دمَهُ مطلولٌ ، فقالَ : حيَّا اللهُ الملكَ ، إنَّ لي صبيةً صغاراً ، وأهلاً جياعاً ، وقد أرقتُ ماءَ وجهي في حصولِ شيءٍ مِنَ البُلغةِ لَهم ، وقد أقدَمني سوءُ الحظِّ علىٰ الملكِ في هـٰذا اليومِ العبوسِ ، وقد قربتُ مِن مقرِّ الصبيةِ والأهلِ ، وهُم علىٰ شفا تلفٍ مِن الجوعِ ، ولَن يتفاوتَ الحالُ في قتلي بينَ أوَّلِ النهارِ وآخرِهِ ، فإنْ رأىٰ الملِكُ أن يأذنَ لي في أن أُوصلَ إليهم هـٰذا القوتَ ، وأوصيَ بهم أهلَ المروءةِ مِن الحيِّ ؛ لئَلاَّ يهلِكوا ضَياعاً ، ثمَّ أعودَ إلىٰ الملكِ ، وأُسلِّمَ نفسي لنفاذِ أمرِهِ .

فلمَّا سمعَ النعمانُ صورةَ مقالِهِ ، وفهمَ حقيقةَ حالِهِ ، ورأىٰ تلهُّفَهُ على ضياعِ أطفالِهِ . . رقَّ لهُ ، ورثىٰ لحالهِ ، غيرَ أنَّهُ قالَ لهُ : لا آذنُ لكَ حتَّىٰ يَضمنكَ رجلٌ معَنا ، فإنْ لَم ترجِع . . قتلناهُ ، وكانَ شريكُ بنُ عديِّ بنِ شرحبيلَ ـ نديمُ الملكِ ـ معَه ، فالتفتَ الطائيُّ إليهِ ، ومدحَهُ ، وتدخَّلَ عليهِ بأبياتٍ . . فقالَ شريكٌ : أصلحَ اللهُ الملكَ ، عليَّ ضمانُهُ .

فمرَّ الطائيُّ مسرعاً ، وصارَ النعمان يقولُ لشريكٍ : إنَّ صدرَ النهارِ قد ولَّىٰ ولَم يرجعْ ، وشريكٌ يقولُ : ليسَ للملكِ عليَّ سبيلٌ حتَّىٰ يأتيَ المساءُ ، فلمَّا قربَ المساءُ . . قالَ النعمانُ لشريكٍ : قد جاءَ وقتُكَ ، قُمْ فتأهَّبْ للقتلِ ، فقالَ شريكٌ : هـٰذا شخصٌ قد لاحَ مقبلاً ، وأرجو أن يكونَ الطائيَّ ، فإن لم يكن . . فأمرُ الملكِ ممتثَلٌ ، قالَ : فبينمَا هُما كذلكَ وإذ بالطائيِّ قدِ اشتدَّ عدوهُ في سيرِهِ مسرعاً ، حتَّىٰ وصلَ فقالَ : خشيتُ أن ينقضيَ النهارُ قبلَ وصولي .

ثمَّ وقفَ قائماً ، وقال : أيُّها الملكُ . . مُرْ بأمرِكَ . فأطرقَ النعمانُ ثمَّ رفعَ رأسهُ ، وقالَ : واللهِ ما رأيتُ أعجبَ منكُما ، أمَّا أنتَ يا طائيُّ : فما تركتَ لأحدٍ في الوفاءِ مقاماً يقومُ فيهِ ، ولا ذِكراً يفتخرُ بهِ ، وأمَّا أنتَ يا شريكُ : فما تركتَ لكريمٍ سماحةً يُذكَرُ بها الكرماءُ ، فلا أكونُ أنَا ألأمَ الثلاثةِ ، ألاَ وإنِّي قد=

يعود إلى السجن بعد ما خرج منه وفاءً لمن هرَّبه

ونظيرُها في زمانِنا : أَنَّ بعضَ اليافعيِّينَ ٱرتكبَ في (المُكَلاَّ) جريمةً توجبُ قتلَهُ ، فٱعتقلَهُ السلطانُ ، فطلبَ مِنَ ٱلسجَّانِ أَنْ يجمعَهُ بالجليلِ السيِّدِ حُسينِ بنِ حامدٍ ، ففعلَ ، فٱستعطفَهُ لِيُطلِقَهُ ليلةً ليوصيَ ، ويؤدِّيَ ودائِعَهُ ، ويُخبرَ أَهلَهُ بدفائِنِ أَموالِهِ قريباً مِنَ (ٱلشَّحْرِ) علىٰ شرطِ أَنْ يعودَ في الليلةِ الثانيةِ ، فأَخذَ عهدَهُ ، وأَطلقَهُ علىٰ ذلكَ ، وكانَ أَعداءُ السيِّدِ حسينٍ مِنْ بطانةِ السلطانِ غالبِ بنِ عوضٍ يراقبونَ ذلكَ ، فأَخبروهُ ، فعاتبَ السيِّدَ حسيناً ، فأَنكرَ إِطلاقَهُ ، وٱتَّعدوا علىٰ أَنْ يُفتِّشوا عنهُ في السجنِ مِنَ ٱليومِ الثاني ، ولمَّا كانَ الليلُ . . عادَ إِلىٰ مكانِهِ منهُ ، وجاءَ السلطانُ علىٰ وعدِهِ ، فأَلفاهُ كما قالَ السيِّدُ حسينٌ ، فعادَ علىٰ أَصحابِهِ بٱللأَئِمةِ ، وأَوسعَهُم توبيخاً ، ولٰكنَّ السيِّدَ حسيناً شرحَ لَهُ القصَّةَ بعدَ أَنْ هدأَتْ عنهُ سَوْرَةُ غضبِهِ ، فأَطلقَهُ ، وعفا عنهُ ، وليسَتْ هٰذهِ بٱلقليلةِ مِنْ بلادِنا علىٰ فسادِ الزمانِ ، وتنكُّرِ الأَيَّامِ ! فللَّهِ الحمدُ والمنَّةُ .

عودٌ على شرح المطلع

وقولُ الناظمِ : (وَلاَ أُعَدِّدُهَا) مناسبٌ للمعنىٰ الأَوَّلِ ، وهو

= رفعتُ يومَ بؤسي عنِ الناسِ ، ونقضتُ عادَتي ؛ كرامةً لوفاءِ الطائيِّ ، وكرمِ شريكٍ . فقالَ الطائيُّ [من الكامل] :

وَلَقَدْ دَعَتْنِي لِلْخِلاَفِ عَشِيرَتِي ... عَدَدْتُ قَوْلَهُمْ مِنَ ٱلإِخْلاَلِ

إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ مِنِّي ٱلْوَفَاءُ سَجِيَّةٌ ... وَفِعَالُ كُلِّ مُهَذَّبٍ مِفْضَالِ

فقالَ لهُ النعمانُ : ما حملكَ علىٰ الوفاءِ وفيهِ إِتلافُ نفسكَ ؟! فقالَ : ديني ، فَمن لا وفاءَ فيهِ . . لا دِينَ لهُ .

فأَحسنَ إِليهِ النعمانُ ، ووصلَهُ بِما أَغناهُ ، وأَعادَهُ مكرَّماً إِلىٰ أَهلِهِ ، وأَنالَهُ مَا تَمنَّاهُ .

انظر « المستطرف » (١/ ٤٢٩) .

ناظرٌ إلىٰ قولِهِ ﷺ: « سُبْحَانَكَ! لاَ نُحْصِيْ ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ »[1] . وهو كثيراً ما يتأثّرُ السُّنّةَ والقرآنَ ، ويستخرجُ منهُما ما يجعلُهُ في غيرِ مكانِهِ ، وهوَ القائلُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٨٨ منَ الوافر] :

وَقَدْ حَمَّلْتَنِيْ شُكْراً طَوِيْلاً   ثَقِيْلاً لاَ أُطِيْقُ بِهِ حَرَاكَا

ولهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٨١ من البسيط] :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ ٱلْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ   فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَاناً قَائِلاً فَقُلِ

ولهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١١٩ منَ البسيط] :

مَحَامِدٌ نَزَفَتْ شِعْرِيْ لِيَمْلأَهَا   فَآلَ مَا ٱمْتَلأَتْ مِنْهُ وَلاَ نَضَبَا

ولهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٦٧ منَ الكامل] :

وَمَتَىٰ يُؤَدِّيْ شَرْحَ حَالِكَ نَاطِقٌ   حَفِظَ ٱلْقَلِيْلَ ٱلنَّزْرَ مِمَّا ضَيَّعَا

ولهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٢٦ منَ الطويل] :

لَهُ مِنَنٌ تُفْنِيْ ٱلثَّنَاءَ كَأَنَّمَا   بِهِ أَقْسَمَتْ أَنْ لاَ يُؤَدَّىٰ لَهَا شُكْرُ

وغيرُ ذلك .

* * *

---

(١) أخرجه عن عائشة الصديقة مسلم (٤٨٦)، وابن خزيمة (١/ ٣٢٩).
وأخرجه عن علي المرتضى أبو داوود (١٤٢٧)، والترمذي (٣٥٦٦)، والنسائي (١٧٤٧)، وتمامه: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٠٤ منَ المنسرح] :

يُعْطِي فَلاَ مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا	بِهَا وَلاَ مَنُّهُ يُنَكِّدُهَا

شرح المطلع

الضمائِرُ في (يُكَدِّرُهَا) و (بِهَا) و (يُنَكِّدُهَا) تعودُ إِلىٰ الأَيادي ٱلمذكورةِ في البيتِ قبلَهُ .

يقولُ : إِنَّهُ يعطي الأَيادِيَ التي لا يكدِّرُها المطلُ ، ولا ينكِّدُها المَنُّ ، وليسَ المرادُ أَنَّ هناكَ مطلاً ومَنّاً غيرَ أَنْ لا تكديرَ ولا تنكيدَ منهُما ، ولٰكنَّ المرادَ نفيُ المَطلِ والمنِّ البَتَّةَ علىٰ حدِّ ما سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ مِنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [منَ الطويل] :

نفي الشيء بنفي صفته والشواهد عليه

عَلَىٰ لاَحِبٍ لاَ يُهْتَدِيْ بِمَنَارِهِ	[إِذَا سَافَهُ ٱلْعَوْدُ ٱلنُّبَاطِيُّ جَرْجَرَا]

إِذْ لَمْ يُرِد : أَنَّ لَهُ مناراً لا يهتدي بِهِ ، ولٰكنَّهُ عمدَ إِلىٰ نفيِ المنارِ مِنْ أَصلِهِ .

ومثلُهُ قولُ الآخرِ[١] في وصفِ مفازةٍ [في « خزانةِ الأدب » ١٠/ ١٩٢ منَ السريع] :

لاَ يُفْـزِعُ ٱلأَرْنَـبَ أَهْـوَالُهَـا	وَلاَ تَـرَىٰ ٱلضَّـبَّ بِهَـا يَنْجَحِـرْ

وقد ذكرَهُ الزمخشريُّ في « الكشَّافِ » [١/ ٦٣٩-٦٤٠] عندَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٥١] ، وقالَ : (فإِنْ قلتَ : كأَنَّ

---

(١) وهوَ : عمرُو بنُ أَحمرَ .

هناكَ حُجَّةٌ حَتَّىٰ نزَّلَها تعالىٰ ، فيصحُّ لَهمُ الإشراكُ . . قلْتُ : لَمْ يَعْنِ أَنَّ هناكَ حُجَّةً إلاَّ أنَّها لَمْ تنزِلْ عليهم ؛ لأنَّ الشِّركَ لا يستقيمُ أَنْ تقومَ عليهِ حُجَّةٌ ، وإنَّما المرادُ نفيُ الحُجَّةِ ونزولُها جميعاً) ، وذكرَ عجزَ البيتِ . فإنَّهُ لَمْ يُرِد : أَنَّ بها أرنباً لا تَفْزَعُ ، وضباً لا يَنْجَحِرُ ، وإنَّما أَرادَ : نفيَ الحيوانِ رَأساً ، وهـٰذا ممَّا يتنافسُ فيهِ أَهلُ البيانِ ، ويسمِّيهِ البديعيُّونَ : (نفيَ الشيءِ بإيجابهِ) ، وفسَّرهُ ابنُ رشيقٍ وابنُ أَبي الإِصبعِ[1] وغيرُهُما بأنَّهُ : (الكلامُ الذي ظاهرُهُ إيجابُ الشيءِ ، وباطنُهُ نفيُهُ) .

ومنهُ قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ﴾ [مريم : ٦٢] ، فليسَ المرادُ ـ علىٰ أصحِّ الأقوالِ ـ : أَنَّ في الجنَّةِ لغواً إلاَّ أنَّهُم لا يسمعونَهُ ، ولـٰكنَّ المرادَ : نفيُ اللغوِ مِنْ أَصلِهِ ، ومعاذَ اللهِ أَنْ يكونَ فيها لَغوٌ أو غولٌ[2] .

ومنهُ قولُ زهيرٍ [منَ الطويل] :

بِأَرْضٍ خَلاَءٍ لاَ يُسَدُّ وَصِيدُهَا ‍ ‍ ‍ عَلَيَّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرِ[3]

فأَثبتَ لَها وَصيداً ، وأَرادَ : أَنْ ليسَ لها وصيدٌ يُسَدُّ عليهِ .

ومنهُ قولُ الزُّبيرِ بنِ عبدِ المطَّلبِ يَذْكُرُ عميلةَ بنَ السَّبَّاقِ بنِ عبدِ

---

(١) ابن أبي الإصبع : هو عبد العظيم بن عبد الواحد العدواني البغدادي المصري ، شاعر أديب توفي سنة : (٦٥٤ هـ) .

(٢) غول : ما ينشأ عن الخمر من صداع أو سكر . قال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ [مريم : ٦٢] و : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ [الصافات : ٤٧] .

(٣) الوَصِيدُ : فِناءُ الدارِ والبيتِ . قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ [الكهف : ١٨] .

الدارِ ، وكانَ لَهُ نديماً [منَ الطويل] :

صَبَحْتُ بِهِمْ طَلْقاً يُرَاحُ إِلَىٰ ٱلنَّدَىٰ ... إِذَا مَا ٱنْتَشَىٰ لَمْ تَحْتَضِرْهُ مَغَافِرُهُ

ضَعِيفاً بِحَثِّ ٱلْكَأْسِ قَبْضُ بَنَانِهِ ... كَلِيْلاً عَلَىٰ وَجْهِ ٱلنَّدِيْمِ أَظَافِرُهُ

فظاهرُ كلامِهِ : أَنَّهُ يَخْمِشُ وجهَ النديمِ ، إلاَّ أَنَّهُ لا يؤذيهِ ؛ لِكَلَّةِ أَظفارِهِ ، وما أَرادَ إلاَّ أَنَّهُ لا يعربدُ ، ولا يَمَسُّ وجهَ النديمِ بشيءٍ أَصلاً .

وقالَ أَبو زيدٍ يصفُ فرساً [منَ الكامل] :

مُتَغَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِىءٍ ... كَٱلْقُرْطِ صَاوٍ غُبْرُهُ لاَ يُرْضَعُ[1]

فإِنَّهُ لَمْ يُرد : أَنَّ هناكَ لَبناً لا يُرضعُ ، وإِنَّما أَرادَ : أَنْ لا لَبنَ لَها حتَّىٰ يرضعَ .

وقالَ أَبو كبيرٍ الهُذليُّ يصفُ هضبةً [في « ديوان الهُذليِّينَ » ٢/ ٩٦-٩٧ منَ الكامل] :

وَعَلَوْتُ مُرْتَقِباً عَلَىٰ مَرْهُوْبَةٍ ... حَصَّاءَ لَيْسَ رَقِيْبُهَا فِيْ مَهْمَلِ

عَيْطَاءَ مُعْنِقَةٍ يَكُوْنُ أَنِيْسَهَا ... وُرْقُ ٱلْحَمَامِ جَمِيْمُهَا لَمْ يُؤْكَلِ[2]

---

(١) في «اللسان» (١٥/ ٣٢١) البيت لأبي ذؤيب، والنسا : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين، ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر، فإذا سمنت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النَّسا بينهما واستبان. القانىءُ: الأحمرُ. الصاوي: اليابس. الغُبْرُ: بقية اللبن في الضرع.
والمعنى: شبَّه الضرع بقرط المرأة ولم يرد أن هناك بقية لبن لا يرضع، إنما أراد أنه لا غُبْرَ هناك فيهتدي إليه .

(٢) العيطاءُ : الطويلةُ العُنُقِ . المُعْنِقَةُ : الطويلة . الجميمُ : ما نهضَ وٱنتشرَ مِنَ النباتِ ؛ وهو ما طالَ بعضَ الطولِ ولَمْ يتمَّ ؛ أَي : لا يَرقى فيها راقٍ ولا راعٍ =

يريدُ : أَنْ ليسَ بها جميمٌ حتَّىٰ يؤكَلَ ، كما يدلُّ علىٰ ذلكَ قولُهُ في البيتِ الأَوَّلِ (حَصَّاءَ) ؛ وهي التي لا نبتَ فيها .

ومنهُ قولُ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ١/ ٤٤ منَ البسيط] :

لاَ تُشْتَكَىٰ سَقْطَةٌ مِنْهَا وَقَدْ رَقَصَتْ　　بِهَا ٱلْمَفَاوِزُ حَتَّىٰ ظَهْرُهَا حَدِبُ[1]

فإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ : أَنَّ لها سقطةً ، لٰكنَّهُ لا يُشتكىٰ منها ، وإِنَّما أَرادَ : نفيَ السقوطِ رأساً .

ومنهُ قولُ مسلمِ بنِ الوليدِ [منَ البسيط] :

لاَ يَعْبَقُ ٱلطِّيبُ خَدَّيْهِ وَمَفْرَقَهُ　　وَلاَ يُمَسِّحُ عَيْنَيْهِ مِنَ ٱلْكُحُلِ

فالمرادُ : نفيُ الطِّيبِ والكحلِ مِنْ أَصلِهما ، لا نفيُ العَبَقِ والمسحِ فقط .

ومثلُهُ : قولُ الناظمِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٦٩ منَ البسيط] :

أَفْدِيْ ظِبَاءَ فَلاَةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا　　مَضْغَ ٱلْكَلاَمِ وَلاَ صَبْغَ ٱلْحَوَاجِيْبِ
وَلاَ بَرَزْنَ مِنَ ٱلْحَمَّامِ مَائِلَةً　　أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيْلاَتِ ٱلْعَرَاقِيْبِ[2]

فظاهِرُ الكلامِ : نفيُ بُروزِهنَّ مِنَ الحمَّامِ علىٰ تلكَ الهيئَةِ ، والمرادُ : عدمُ دخولِهنَّ الحمَّامَ أَصلاً ، فإِنهُنَّ بَدَوِيَّاتٌ كظِباءِ الفلاةِ ، لا يعرفْنَ شيئاً مِنْ ذلِكَ .

= ولا أَحدٌ فيأْكُلَ جميمَها . وُرْقُ الحمام : الحمامُ الخُضْرُ ؛ وهيَ التي فيها سوادٌ وغبرةٌ . والعربُ تطلقُ الخضرةَ على السوادِ .

(١) السَّقْطَةُ : العثرةُ والفترةُ . حتَّىٰ ظهرُها حَدِبُ : أي قد تقوَّسَ مِنَ الهُزَالِ .

(٢) العراقيبُ ـ جمعُ عرقوبٍ ـ : وهوَ ما يكونُ عندَ الكعبِ .

السبب في تكثير الأمثلة على هذه المسألة

وإنَّما أكثرتُ مِنَ الأمثلةِ ؛ لقولِ ٱبنِ الأثيرِ السابقِ في المجلسِ الأوَّلِ : إنَّه طافَ علىٰ أقوالِ الشعراءِ فلَم يجد منها شيئاً حتَّىٰ ٱضطرَّ إلىٰ ما نبَّهنا عليهِ مِنَ الاختلاسِ ، والحالُ أنَّها علىٰ طرفِ ذراعهِ ، فسبحانَ مَنْ لا يسهو .

الخلاف في الوعد

ثُمَّ ٱختلفَ القومُ في شأنِ الوعدِ :

١ـ صنف أحبه قبل العطية

فمنهُمْ : مَنْ أَحبَّهُ قبلَ العطيَّةِ ؛ ليحلوَ موقعُها ، وتكملَ بها اللذَّتانِ : (لذةُ الإعطاءِ ، ولذةُ الإنجازِ) ، فإنَّ النفسَ إذا تعلَّقتْ بٱلشيءِ . . حصلَ لها وَلْوَلَةٌ لا تزولُ إلاَّ بحصولِهِ ، وتلكَ الولولةُ لا تَحُطُّ مِنْ قدرِ العطيَّةِ إذا كانَ الوعدُ حقّاً ، وكانَ صاحبُهُ مناطَ الثقةِ ،

من أصحاب هذا المذهب يحيى بن خالد

وعلىٰ هـٰذا الرأيِ : يحيىٰ بنُ خالدٍ ، فقد كلَّمَهُ منصورُ بنُ زيادٍ في حاجةٍ لرجلٍ ، فقالَ : عِدْهُ قضاءَها ، قالَ منصورٌ : فقلتُ لهُ : أَصلحكَ اللهُ ، وما يدعوكَ إلىٰ العِدَةِ مَعَ القدرةِ ؟ قالَ : هـٰذا قولُ مَنْ لَمْ يعرِفْ مواقعَ الصنائعِ مِنَ ٱلقلوبِ ، فإنَّ الوعدَ تَطَعُّمٌ ، والإنجازَ إطعامٌ ، وليسَ مَنْ فاجأَهُ الطعامُ كمَنْ وجدَ رائِحتَهُ ، وتَمَطَّقَ بهِ ، وتطعَّمَهُ ، ثُمَّ قُرِّبَ إليهِ ، فدعِ الحاجةَ تُختمُ بالوعدِ ؛ ليكونَ بها عندَ المُصطَنعِ إليهِ حُسْنُ موقعٍ ، ولُطْفُ محلٍّ ، فإنَّها إذا لَمْ يتقدَّمْها موعدٌ يُنْتَظَرُ بهِ نُجحُها . . لَمْ يتجاذبِ النفسَ سرورُها .

ومنهم ابو مسلم الخولاني

وقالَ أبو مسلمٍ الخولانيُّ : أَوقعُ المعروفِ في القلوبِ ، وأَبردُهُ علىٰ الأكبادِ . . معروفٌ منتَظَرٌ بوعدٍ لا يُكَدِّرُهُ مَطْلٌ .

ومنهم المهدي

وقالَ المهديُّ [من مجزوء الكامل] :

اَلْـوَعْـدُ أَحْسَـنُ مَـا يَكُـوْ نُ إِذَا تَقَـدَّمَـهُ ضَمَـانُ

وقالَ غيرُهُ [منَ الرجز] :

حَلاوَةُ ٱلْفَضْلِ بِوَعْدٍ يُنْجَزُ لاَ خَيْرَ فِيْ ٱلْعُرْفِ كَنَهْبٍ يُنْهَزُ(١)

شاهده من القرآن الكريم

وقد يتأكَّدُ هٰذا بأمثالِ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ لموسىٰ وهارونَ : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس : ٨٩] ، فإنهُ لَمْ يظهر أثرُ الإجابةِ ـ كما يُروىٰ ـ إلاَّ بعدَ أربعينَ سنةً .

وقالَ الإمامُ الرازيُّ في تأخُّرِ ظهورِ أثرِ الرؤيا الحَسَنةِ : (إنَّ مِنْ رحمةِ اللهِ الإعلامَ بالخيرِ متقدِّماً علىٰ ظُهورِهِ بزمانٍ طويلٍ ، حتَّىٰ تكونَ البهجةُ بتوقُّعِ حصولِهِ أكثرَ وأتمَّ) . انتهىٰ بمعناهُ .

علىٰ أنَّهُ لا يبعدُ أنْ يكونَ الرَّيثُ في المواعيدِ الإلٰهيَّةِ بالدنيا مِنَ الامتحانِ الذي يَحسُنُ مِنَ اللهِ لا مِنَ الخَلْقِ فيما بينهُم .

ومنهم الحارثي

وقالَ الحارثيُّ [منَ الطويل] :

وَمَا رَوْضَةٌ دَارِيَّةٌ أَسَدِيَّةٌ مُنَمْنَمَةٌ زَهْرَاءُ ذَاتُ ثَرىً صَعْدِ

بِأَحْسَنَ مِنْ حُرٍّ تَضَمَّنَ حَاجَةً لِحُرٍّ فَأَوْفَىٰ بِالنَّجَاحِ مَعَ الْوَعْدِ

وكذلك ابن رشيق

وقالَ ابنُ رشيقٍ [في « ديوانِهِ » ١٥٠ منَ السريع] :

أَحْسَنْتَ فِيْ تَأْخِيرِهَا مِنَّةً لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ

وَكَيْفَ لاَ يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا بَعْدَ يَقِيْنِيْ أَنَّهَا حَاصِلَهْ

وَجَنَّةُ ٱلْفِرْدَوْسِ يُدْعَىٰ بِهَا آجِلَةً لِلْمَرْءِ لاَ عَاجِلَهْ

٢ـ الصنف الثاني عكسهم واستدلالهم على ذلك

وذهبَ آخرونَ إلىٰ خلافِهِ ، وأنَّهُ لا يحسنُ الاستنادُ إلىٰ المواعيدِ إلاَّ عندَ عدمِ القدرةِ ، وقد يدلُّ لهُ هَديُهُ ﷺ (فقد كانَ لا يرُدُّ سائلاً ، وإنْ لَمْ يجِدْ شيئاً . . وعدَ) .

---

(١) العُرْفُ : المعروف . والمرادُ : أنَّهُ لا خيرَ في معروفٍ يؤخذُ كالنهبِ والسرقةِ .

وقولُهُ : « اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَسْأَلُكَ مِنْ فَجْأَةِ ٱلْخَيْرِ ، وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ فَجْأَةِ ٱلشَّرِّ »[1] ولا يخرجُ عنهُ قولُهُ : « أَبَىٰ ٱللهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ ٱلْمُؤْمِنَ إِلاَّ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ »[2] .

أصحاب هذا المذهب كثر

ولا يدخلُ تحتَ الحصرِ ما فيهِ مِنْ أَقوالِ الشعراءِ . منهُ قولُ عبدِ اللهِ بنِ مصعبٍ الزبيريِّ [منَ الطويل] :

وَأَنجزَ خَلْقَ ٱللهِ مِنْ قَبْلِ وَعْدِهِ أَرَاحَكَ مِنْ مَطْلٍ وَمِنْ طُوْلِ كَدِّهِ

تكرار هذا المعنى بكثرة عند المتنبي

وقد تكرَّرَ عندَ الناظمِ منهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٦٩ منَ المتقارب] :

وَمَـالٍ وَهَبْـتَ بِـلاَ مَـوْعِـدٍ وَقِرْنٍ سَبقْتَ إِلَيْهِ ٱلْوَعِيْدَا[3]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٤٣ منَ المتقارب] :

لَقَدْ حَالَ بِٱلسَّيْفِ دُوْنَ ٱلْوَعِيْدِ وَحَالَتْ عَطَايَاهُ دُوْنَ ٱلْوُعُوْدِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٤٨ منَ البسيط] :

مُحَمَّدُ بْنَ زُرَيْقٍ مَا نَرَىٰ أَحَداً إِذَا فَقَدْنَاكَ يُعْطِيْ قَبْلَ أَنْ يَعِدَا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٧٧ منَ الطويل] :

تَـوَالَـىٰ بِـلاَ وَعْـدٍ وَلٰكِـنَّ قَبْلَـهُ شَمَائِلَهُ مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ لَهَا وَعْدُ

---

(١) أورده عن أنس الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ١١٥) وقال: رواه أبو يعلى وفيه يوسف بن عطية متروك ، والسيوطي في « الجامع الصغير » (١/ ٩١) .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة القضاعيُّ في « مسند الشهاب » (١/ ٣٤١) وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٥٨) وأطال في عزوه ، ولا يفرح له بسند مقبول .

(٣) القِرْنُ ـ بالكسر ـ : هوَ الكفءُ في الشجاعةِ والمماثلُ ، والقَرْنُ ـ بالفتح ـ : هوَ مثلُكَ في السِّنِّ . والمرادُ الأَوَّلُ .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٣٠ مِنَ الكامل] :

نَصَرَ ٱلْفَعَالَ عَلَىٰ ٱلْمِطَالِ كَأَنَّمَا ... خَالَ ٱلسُّؤَالَ عَلَىٰ ٱلنَّوَالِ مُحَرَّمَا[1]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٨٨ مِنَ الطويل] :

وَحَالَتْ عَطَايَا كَفِّهِ دُوْنَ وَعْدِهِ ... فَلَيْسَ لَهُ إِنْجَازُ وَعْدٍ وَلاَ مَطْلُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٧٧ مِنَ البسيط] :

وَٱجْزِ ٱلأَمِيْرَ ٱلَّذِيْ نُعْمَاهُ فَاجِئَةٌ ... مِنْ غَيْرِ قَوْلٍ وَنُعْمَىٰ ٱلنَّاسِ أَقْوَالُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٢٨ مِنَ الطويل] :

وَوَعْدُكَ فِعْلٌ قَبْلَ وَعْدٍ لأَنَّهُ ... نَظِيْرُ فَعَالِ ٱلصَّادِقِ ٱلْقَوْلِ وَعْدُهُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٨٣ مِنَ الخفيف] :

كُلَّمَا جَادَتِ ٱلظُّنُوْنُ بِوَعْدٍ ... عَنْكَ جَادَتْ يَدَاكَ بِٱلإِنْجَازِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٩٧ مِنَ الطويل] :

وَأَهْدَتْ إِلَيْنَا غَيْرَ قَاصِدَةٍ بِهِ ... كَرِيْمَ ٱلسَّجَايَا يَسْبِقُ ٱلْقَوْلَ بِٱلْفِعْلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٨٧ مِنَ البسيط] :

أَنْتَ ٱلْجَوَادُ بِلاَ مَنٍّ وَلاَ كَدَرٍ ... وَلاَ مِطَالٍ وَلاَ وَعْدٍ وَلاَ مَذَلِ[2]

وربَّمَا دخلَ بعضُ هٰذهِ الأبياتِ بتأويلٍ في القسمِ الأوَّلِ ، ولا مُشاحَّةَ في ذلكَ ، فالخطبُ يسيرٌ .

---

(١) الفَعَالُ ـ بفتحِ الفاءِ ـ : الفِعلُ الجميلُ .

(٢) المَذَلُ : الفترةُ والضجرُ .

الشعراء وهذا المعنى

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ١/ ٥٧٤ منَ البسيط] :

يُمْضِي ٱلْمَنَايَا دِرَاكاً ثُمَّ يُتْبِعُهَا ... بِيْضَ ٱلْعَطَاءِ وَلَمْ يُوْعِدْ وَلَمْ يَعِدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٧ منَ البسيط] :

رَطْبُ ٱلْغَمَامِ إِذَا مَا ٱسْتُمْطِرَتْ يَدُهُ ... جَاءَتْ مَوَاهِبُهُ قَبْلَ ٱلْمَوَاعِيْدِ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ١٢٩ منَ الطويل] :

فَيَا أَحْلَمَ ٱلسَّادَاتِ مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ ... وَيَا أَجْوَدَ ٱلأَجْوَادِ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدِ

وقالَ آخرُ [منَ الطويل] :

عَلَىٰ عُدَوَاءِ ٱلدَّارِ جَاءَتْ هِبَاتُهُ ... بِلاَ عِدَةٍ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ وَلاَ مَنٍّ[1]

فَأَوْلَيْتُهُ شُكْرِي وَلَكِنَّ بِرَّهُ ... لَدَيَّ ٱلْهَنِيْءُ ٱلْجَمُّ مِنْ فَوْقِ مَا أُثْنِي

وأنصعُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٩٣ منَ الطويل] :

يَرَىٰ ٱلْوَعْدَ أَخْزَىٰ ٱلْعَارِ إِذْ هُوَ لَمْ تَكُنْ ... مَوَاهِبُهُ تَأْتِي مُقَدَّمَةَ ٱلْوَعْدِ

فَلَوْ كَانَ مَا يُعْطِيْهِ غَيْثاً لأَمْطَرَتْ ... سَحَائِبُهُ مِنْ غَيْرِ بَرْقٍ وَلاَ رَعْدِ

وقالَ القاضي ظهيرُ الدينِ [منَ البسيط] :

جُوْدُ ٱلْكَرِيْمِ إِذَا مَا كَانَ عَنْ عِدَةٍ ... وَقَدْ تَأَخَّرَ لَمْ يَسْلَمْ عَنِ ٱلْكَدَرِ

إِنَّ ٱلسَّحَائِبَ لاَ تُجْدِيْ بَوَارِقُهَا ... نَفْعاً إِذَا هِيَ لَمْ تُمْطِرْ عَلَىٰ ٱلأَثَرِ

كلمة رشيقة للخابزأرزي

وقالَ ٱلخَابزأَرزيُّ في كلمةٍ رشيقةٍ لابأسَ بٱستيفائِها ؛ لعذوبتِها علىٰ ما فيها ممَّا سننبِّهُ عليهِ [منَ الطويل] :

خَلِيْلَيَّ هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا ... بِأَكْرَمَ مِنْ مَوْلَىً تَمَشَّىٰ إِلَىٰ عَبْدِ ؟!

---

(١) عُدَوَاءِ الدَّارِ : الدورُ البعيدةُ النائيةُ ، والعُدَوَاءُ : البعدُ .

أَتَىٰ زَائِراً مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ وَقَالَ لِيْ: أُجِلُّكَ عَنْ تَعْلِيْقِ قَلْبِكَ بِٱلْوَعْدِ

فَمَا زَالَ نَجْمُ ٱلْوَصْلِ بَيْنِيْ وَبَيْنَهُ يَدُوْرُ بِأَفْلَاكِ ٱلسَّعَادَةِ وَٱلسَّعْدِ

فَطَوْراً عَلَىٰ تَقْبِيْلِ نَرْجِسِ نَاظِرٍ وَطَوْراً عَلَىٰ تَعْضِيْضِ تُفَّاحَةِ ٱلْخَدِّ

ملاحظة المؤلف عليها من حيث المعنى

والَّذي نُلاحظهُ مِنْ حيثُ ٱلمعنىٰ : بطلانَ ٱلاستفهامِ ٱلإنكاريِّ في قولهِ : (. . هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَو سَمِعْتُمَا) بِمَا كانَ مِنْ هديهِ ﷺ في زيارتهِ لأصحابهِ وأخدامهِ ، حتَّىٰ لقد زارَ غلاماً نَخَّاماً[1] مِنَ ٱليهودِ .

ملاحظته عليها من حيث اللفظ

ومِنْ حيثُ ٱللَّفظُ : جَمْعُهُ بينَ ٱلسَّعادةِ وٱلسَّعدِ ، وهل هُما إلاَّ كشيءٍ واحدٍ ؟ وجاءَ في ٱلخبرِ: أَنَّ (عِدَةُ ٱلكَرِيْمِ دَيْنٌ)[2]، و: أَنَّ (لَيُّ ٱلْوَاجِدِ ظُلْمٌ)[3].

وَمِنْ كلامِهِم : إِنَّ المسؤولَ حُرٌّ حتَّىٰ يَعِدَ .

وجوب الوفاء بالوعد

ومِنْ ثَمَّ ذهبَ أكثرُ ٱلأئِمَّةِ إِلىٰ ٱلقولِ بوجوبِ ٱلوفاءِ بٱلوعدِ ، وهل بَيْعُ ٱلعُهْدَةِ[4] ٱلمعروفُ بأَرضِنا إلاَّ مبنيٌّ عليهِ ؟ وإنِّي لأَعجبُ مِنَ ٱلإمامِ ٱلشَّافعيِّ ؛ إِذْ لا يقولُ بوجوبهِ مع صحَّةِ ٱلأَحاديثِ فيهِ ، وكثرةِ ٱلوعيدِ في ٱلخُلْفِ !

---

(١) النخّامُ : المصابُ بالسعالِ .

(٢) يقال في الأمثال السائرة: ٱلوعدُ عندَ ٱلحرِّ دَينٌ.

(٣) أخرجه بنحوه عن الشريد أبو داوود (٣٦٢٨)، والنسائي (٤٦٨٩) و(٤٦٩٠)، وابن ماجه (٢٤٢٧)، وابن حبان (٥٠٨٩) بإسناد حسن ، ونحو معناه حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (٤٦٨٨) بلفظ « مَطْلُ الغنيِّ ظُلمٌ ».

(٤) ويسمَّى أيضاً بيع الإقالة: وهو مستجمع لشروط الصحة، إلا أن المشتري يعدُ البائع أنه إذا جاء بمثل الثمن له . . أقاله وردَّ عليه المبيع.

وفاء سيدنا أبي بكر عداته ﷺ

وقد وفَّىٰ أبو بكرٍ ٱلصِّدِّيقُ سائرَ عِدَاتِهِ ﷺ مِنْ بيتِ ٱلمالِ ، ولو لَمْ تكُنْ دَيناً لازماً . . لَمَا سدَّدَها منهُ . ودعوىٰ ٱلخصوصيَّةِ بهِ ﷺ لابدَّ لها مِنْ دليلٍ .

وفاء عدات سعيد بن العاص

وما كانَ دَينُ سعيدِ بنِ العاصِ ٱلَّذي بِيْعَ فيهِ دارُهُ مِنْ معاويةَ بثلاثِ مئةِ ألفٍ إلاَّ مِنْ هـٰذا ٱلقبيلِ . منهُ صكٌّ لبعضِ قريشٍ لا يؤْبَهُ لَهُ ، سأَلوْهُ عَنْ سببهِ ، فقالَ : مشيتُ معهُ مرَّةً إِلىٰ دارِهِ حتَّىٰ بلغَها ، فقالَ : ما حاجتُكَ؟ قلتُ : لا شيءَ إلاَّ أنَّني رأيْتُكَ تمشي وحدَكَ ، فأَحببْتُ أَنْ أَصِلَ جناحَكَ ، فكتبَ لِيْ هـٰذا الصكَّ ، وٱعتذرَ بعُسْرَةِ إِذْ ذاكَ ، فقالَ لَهُ عمرُو بنُ سعيدٍ : لا جرمَ ، لا تأْخُذْها إلاَّ بٱلوافيةِ ، ولا تبرح مكانَكَ حتَّىٰ تقبضَها[1] .

قصيدة شاعرة لبعض شعراء الحماسة

وللهِ درُّ بعضِ شعراءِ الحماسةِ[2] في قولِهِ [في « شرحِ حماسةِ أَبي تمَّامٍ » ٢/ ٩٢٣ـ٩٢٥ منَ الطويل] :

مَوَاعِيْدُهُمْ صِدْقٌ إِذَا مَا تَكَلَّمُوْا　　بِتِلْكَ ٱلَّتِيْ قَدْ سُمِّيَتْ وَجَبَ ٱلْفِعْلُ

وهو مِنْ كلمةِ شاعرةٍ تقتضي الجزالةُ ٱستيفاءَها وهيَ :

إِلَىٰ هَضْبَةٍ مِنْ آلِ شَيْبَانَ أُفْرِغَتْ　　لَهَا ٱلذِّرْوَةُ ٱلْعَلْيَاءُ وَٱلْكَاهِلُ ٱلْعَبْلُ[3]

إِلَـىٰ ٱلنَّفَرِ ٱلْبِيْـضِ ٱلَّـذِيْـنَ كَـأَنَّهُـمْ　　صَفَائِحُ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ أَخْلَصَهَا ٱلصَّقْلُ

إِلَـىٰ مَعْـدِنِ ٱلْعِزِّ ٱلْمُـؤَيَّـدِ وَٱلنَّـدَىٰ　　هُنَاكَ هُنَاكَ ٱلْفَضْلُ وَٱلْخُلُقُ ٱلْجَزْلُ

---

(١) راجع القصَّةَ كاملة في « الأغاني » (١/ ٣٩) .
(٢) وهوَ : خَلَفُ بنُ خليفةَ مولىٰ قيسِ بنِ ثعلبةَ .
(٣) الكاهلُ : أَصلُ العنقِ ، وهوَ الحاركُ . العَبْلُ : الغليظُ ، وهذا مثلٌ لشرفِهِم وعلوِّهم .

عِذَابٌ عَلَىٰ ٱلْأَكْبَادِ مَا لَمْ يَذُقْهُمُ   عَدُوٌّ وَفِي ٱلْأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَحْلُو

عَلَيْهِمْ وَقَارُ ٱلْحِلْمِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا   وَلِيدُهُمُ مِنْ أَجْلِ هَيْبَتِهِ كَهْلُ

إِذَا ٱسْتُجْهِلُوا لَمْ يَعْزُبِ ٱلْحِلْمُ عَنْهُمُ   وَإِنْ آثَرُوا أَنْ يَجْهَلُوا كَثُرَ ٱلْجَهْلُ

هُمُ ٱلْجَبَلُ ٱلْأَعْلَىٰ إِذَا مَا تَنَاكَرَتْ   مُلُوكُ رِجَالٍ أَوْ تَخَاطَرَتِ ٱلْبُزْلُ(١)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْقَتْلَ غَالٍ إِذَا رَضُوا   وَإِنْ غَضِبُوا فِي مَوْطِنٍ كَثُرَ ٱلْقَتْلُ

بُحُورٌ تُلَاقِيهَا بُحُورٌ غَزِيرَةٌ   إِذَا غَضِبَتْ قَيْسٌ وَإِخْوَانُهَا ذُهْلُ(٢)

ابن الزبعرى يمدح بني عبد مناف

وقالَ ٱبنُ ٱلزِّبعرىٰ يمدحُ بني عبدِ منافٍ في حديثٍ لا حاجةَ بنا إلىٰ ٱلاستطرادِ بهِ [كما في « شعرِ ابنِ ٱلزِّبعرىٰ » ٥٤ منَ ٱلكاملِ] :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمُحَوِّلُ رَحْلَهُ   هَلَّا نَزَلْتَ بِآلِ عَبْدِ مَنَافِ

ٱلْخَالِطِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ   حَتَّىٰ يَعُودَ فَقِيرُهُمْ كَٱلْكَافِي

وَٱلْقَائِلِينَ بِكُلِّ وَعْدٍ صَادِقٍ   وَٱلظَّاعِنِينَ لِرِحْلَةِ ٱلْإِيلَافِ(٣)

الحطيئة يمدح آل شماس

وقالَ ٱلحطيئةُ يمدحُ آلَ شمَّاسِ بنِ لؤَيٍّ [كما في « ديوانه » منَ ٱلطويلِ] :

أُولَـٰئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا ٱلْبِنَا   وَإِنْ عَاهَدُوا وَفَّوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ ـ عَلَىٰ جُلِّ حَادِثٍ   مِنَ ٱلدَّهْرِ ـ رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ ـ لَا أَبَا لِأَبِيكُمُ ـ   مِنَ ٱللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِي سَدُّوا

---

(١) تناكرتْ : تجاحدتْ . تخاطرتْ : حركتْ أذنابَها . البُزْلُ : حسانُ الإبلِ . والمعنىٰ : أنهمْ بلغوا الذروةَ العُليا مِنَ المكارمِ والشجاعةِ والدهاءِ قولاً وفعلاً على عكسِ غيرِهِمْ .

(٢) قيسٌ وذُهل : ابنا ثعلبةَ ، مِنْ بكرِ بنِ وائلٍ . وشيبانُ مِنْ ذُهلِ بنِ ثعلبةَ .

(٣) كما ذكرها تعالى بسورة مخصوصة .

وقالَ أيضاً [في « ديوانه » ٢٥ـ٢٦ منَ البسيط] :

قَومٌ إذَا عَقَدُوا [عَقْداً] لِجَارِهِمُ   شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرَبَا[1]

أُولَئِكَ الأَنفُ وَالأَذنَابُ غَيرُهُمُ   وَمَنْ يُسَاوِي بِأَنفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا[2]

ويُروىٰ للحَسَنِ السبطِ رضوانُ اللهِ عليهِ [منَ البسيطِ] :

وَلاَ أَقُولُ نَعَمْ يَوماً فَأُتْبِعُهَا   خُلْفاً وَلَوْ ذَهَبَتْ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ

فأخذَهُ بعضُهُم ، وقالَ [منَ الرَّمَل] :

لاَ تَقُولَنَّ إذَا مَا لَمْ تُرِدْ   أَنْ تُتِمَّ الْوَعْدَ فِي شَيْءٍ : نَعَمْ

فَإذَا قُلْتَ : نَعَمْ فَاصْبِرْ لَهَا   بِوَفَاءِ الْعَهْدِ إنَّ الْخُلْفَ ذَمّْ

وقالَ ابنُ أبي حاتِمٍ [منَ الطويل] :

إذَا قُلْتَ فِي شَيْءٍ : نَعَمْ فَأَتِمَّهُ   فَإِنَّ نَعَمْ دَيْنٌ عَلَىٰ الْحُرِّ وَاجِبُ

وَإِلاَّ فَقُلْ : لاَ ، تَسْتَرِحْ وَتُرِحْ بِهَا   لِئَلاَّ يَقُولَ النَّاسُ : إِنَّكَ كَاذِبُ

وقالَ أبو عبادةَ [في « ديوانه » ٢/٦٩٩ منَ الكامل] :

عَجِلٌ إِلَىٰ نُجْحِ الْفَعَالِ كَأَنَّمَا   يُمْسِي عَلَىٰ وِتْرٍ مِنَ الْمَوْعُودِ[3]

---

(١) يقول : إذا عَقدوا عقداً لجارهمُ . . وفوا بهِ وأحكموهُ ، وكنىٰ عن ذلكَ بالعِناجِ ، والعِنَاجُ : حبلٌ يشدُّ تحت الدلو ويتصل طرفاه من أعلاها بما يتصل به أدناها . الكَرَبُ : الحبلُ الذي يشدُّ في وسطِ خشبةِ الدلو فوقَ الرشاءِ ليقويه .

(٢) أنفُ الناقةِ : قَصدَ بهِ بغيضاً وأَهلَ بيتهِ ، وكانوا يعيَّرونَ بهِ في الجاهليَّةِ ، فلمَّا قالَ الحطيئةُ هذا البيت . . صار مدحاً لهم . والأذناب : قصد بها الزبرقانَ وأهلَ بيتهِ .

(٣) الوَترُ : الثأرُ .

وقالَ [في « ديوانه » ٢/٧٥٩ منَ الطويل] :

كَأَنَّ سَنَاهَا بِٱلْعَشِيِّ لِصُبْحِهَا ... تَبَسُّمُ عِيسَىٰ حِينَ يَلْفِظُ بِٱلْوَعْدِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠١٢ منَ الطويل] :

إِذَا وَعَـدَ ٱرْفَضَّـتْ عَطَـاءً عِـدَاتُـهُ ... وَأَعْرِفُ مِنْهُمْ مَنْ يَحُزُّ وَلاَ يُدْمِي[1]

وقالَ [في « ديوانه » ٢/ ٨٢٣ منَ الكامل] :

شُكْراً لأَنْعُمِهِ ٱلْجِسَامِ وَلَمْ تَضِعْ ... نِعَمٌ مَـلأْنَ لَـهُ ٱلْبِلاَدَ مَحَـامِـدَا

يُوْلِيْكَ فَضْلاً صَدْرُ قَاصِيهِ ٱلْغِنَىٰ ... بِعَوَائِدٍ قَدْ كُنَّ أَمْسِ مَوَاعِدَا[2]

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٣١ منَ الطويل] :

مَوَاهِبُ أَعْدَادُ ٱلأَمَانِيْ وَبَعْدَهَا ... عِدَاتٌ يَكَادُ ٱلْعُوْدُ مِنْهُنَّ يُوْرِقُ

وفي عكسِهِ يقولُ بشَّارُ بنُ بردٍ ، وقد وعدَهُ خالدُ بنُ برمكٍ بجائزةٍ ، فتأَخَّرَتْ [في « ديوانه » ٤/٨٩ منَ الطويل] :

أَظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْماً غَمَامَةٌ ... أَضَاءَ لَهَا بَرْقٌ وَأَبْطَا رَشَاشُهَا

فَلاَ غَيْمُهَا يُجْلَىٰ فَيَيْأَسَ طَامِعٌ ... وَلاَ غَيْثُهَا يَأْتِي فَتَرْوَىٰ عِطَاشُهَا

أبو العتاهية وعمر بن العلاء

وٱمتدحَ أَبو العتاهيةِ عُمرَ بنَ العلاءِ بقولِهِ [في « ديوانهِ » ٦٠٥-٦٠٦ منَ الكاملِ] :

إِنِّيْ أَمِنْتُ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَرَيْبِهِ ... لَمَّـا عَلِقْتُ مِـنَ ٱلأَمِيـرِ حِبَـالاَ

لَوْ يَسْتَطِيْعُ ٱلنَّاسُ فِيْ إِجْلاَلِهِ ... لَحَـذَوْا لَـهُ حُـرَّ ٱلْـوُجُـوْهِ نِعَـالاَ

---

(١) ارفضَّتْ : تفرَّقَت وذهبَت . العِداتُ ـ جمع العِدَةِ ـ : وهي الوعد .

(٢) المعنىٰ : أنَّ مَنْ يرجعُ من عندهِ . . يرجعُ متحققَ الوعودِ بعطايا صيَّرتهُ غنياً .

إِنَّ ٱلْمَطَـايَـا تَشْتَكِيـكَ لأَنَّهَـا   قَطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَاسِباً وَرِمَالاَ
فَـإِذَا وَرَدْنَ بِنَـا وَرَدْنَ مُخِفَّـةً   وَإِذَا صَدَرْنَ بِنَا صَـدَرْنَ ثِقَالاَ

فرسمَ لَهُ بسبعينَ أَلفاً ، فتأَخَّرَتْ ، فكتبَ إِليهِ [في « ديوانه » ٥٥٧ منَ الطويل] :

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلْعَيْنُ يَا عُمَرْ   فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
أَصَابَتْكَ عَيْنٌ فِي سَخَائِكَ صُلْبَةٌ   وَيَا رُبَّ عَيْنٍ صُلْبَةٍ تَقْطَعُ ٱلْحَجَرْ
سَنَرْقِيكَ بِٱلأَشْعَارِ حَتَّىٰ تَمَلَّهَا   فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وقالَ أَيضاً [في « ديوانه » ٥٦٨ـ٥٦٩ منَ البسيط] :

يَا ٱبْنَ ٱلْعَلاَءِ وَيَا ٱبْنَ ٱلْقَرْمِ مِرْدَاسِ   إِنِّيْ ٱمْتَدَحْتُكَ فِيْ صَحْبِيْ وَجُلاَّسِيْ[1]
أُثْنِـيْ عَلَيْـكَ وَلِـيْ حَـالٌ تُكَـذِّبُنِـيْ   فِيْمَـا أَقُـوْلُ فَـأَسْتَحْيِـيْ مِـنَ ٱلنَّـاسِ
حَتَّـىٰ إِذَا قِيْـلَ مَـا أَوْلاَكَ مِـنْ مِنَـنٍ   طَأْطَأْتُ مِنْ سُوْءِ حَالِيْ عِنْدَهَا رَاسِيْ

فأَمرَ حاجبَهُ أَنْ يعجِّلَ لَهُ بدفعِ المالِ ، وقالَ : لا تُدخِلْهُ عليَّ حتَّىٰ يقبضَها ؛ فإِنِّي مستحٍ منهُ .

وقد جرتْ للعلاَّمةِ ٱبنِ المقريِّ قضيَّةٌ مِنْ نوعِها مستوفاةٌ في « ديوانِهِ » .

وقالَ محمَّدُ بنُ يزيدَ الأُمويُّ لعيسىٰ بنِ فرخانَ شاه يعاتبُهُ [منَ الهزَجِ] :

لَقَـدْ كُنْـتُ أُرَجِّيْـكَ   لِمَـا أَخْشَـىٰ مِـنَ ٱلـدَّهْـرِ
فَقَـدْ أَصْبَحْـتَ مِـنْ أَوْكَـ   ـدِ أَسْبَـابِـيْ إِلَـىٰ ٱلْفَقْـرِ

---

(١) القَرْمُ : سيِّدُ القومِ . قالَ الشاعر كما في شواهد العربية :

إِلـى المَلِـكِ القـرمِ وابـنِ الهُمـام   وليـثِ الكتيبـةِ فـي المـزدَحَـمْ

وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْـ تُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي
مَوَاعِيدٌ كَمَا أَخْبَتْ سَرَابَ الْمَهْمَهِ الْقَفْرِ
فَمِنْ يَوْمٍ إِلَىٰ يَوْمٍ وَمِنْ شَهْرٍ إِلَىٰ شَهْرِ
لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَصْنَعَ لِي مِنْ حَيْثُ لاَ أَدْرِي

دعبل وبعض الأمراء

ووقفَ دِعبِلُ الخزاعيُّ ببعضِ أُمراءِ (الرَّقَّةِ)، فقالَ: إنِّي لا أقولُ كما قالَ صاحبُ معنٍ [في «تاريخ بغداد» ١٣/ ٢٣٩ منَ الوافر]:

بِأَيِّ الْخُلَّتَيْنِ عَلَيْكَ أُثْنِي فَإِنِّي عِنْدَ مُنْصَرَفِي مَسُولُ
أَبِالْحُسْنَىٰ وَلَيْسَ لَهَا ضِيَاءٌ عَلَيَّ فَمَنْ يُصَدِّقُ مَا أَقُولُ
أَمِ الْأُخْرَىٰ وَلَسْتَ لَهَا بِأَهْلٍ وَأَنْتَ لِكُلِّ مَكْرُمَةٍ فَعُولُ

ولٰكنِّي أقولُ [كما في «ديوانِ دِعبِل» ٢٢٠ـ٢٢١ منَ الكامل]:

إِنْ قُلْتُ: أَعْطَانِي كَذَبْتُ وَإِنْ أَقُلْ: ضَنَّ الأَمِيرُ بِمَالِهِ.. لَمْ يَجْمُلِ
وَلأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلاَ مِنْ أَنْ أَقُولَ: فَعَلْتَ مَا لَمْ تَفْعَلِ
فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا أَقُولُ فَإِنَّنِي لاَ بُدَّ مُخْبِرُهُمْ وَإِنْ لَمْ أُسْأَلِ

قالَ لَهُ: قاتلكَ اللهُ، وأمرَ لَهُ بعشرةِ آلافِ درهمٍ.

الضيف يخبر أهله

وقد سبقَ إلىٰ المعنىٰ حاتمٌ في قولِهِ [منَ الكامل]:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الضَّيْفَ مُخْبِرُ أَهْلِهِ بِمَبِيتِ لَيْلَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ

ونحنُ ذاكروهُ بما يتعلَّقُ بهِ في غيرِ هٰذا الموضعِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ.

من روائع البحتري في الاستهزاء والهجاء

وممَّا يستحقُّ أنْ يُذكَرَ بالإعجابِ ـ وإنْ خلا عَنِ التصريحِ بالاقتضاءِ، فلنْ يكونَ إلاَّ مِنْ أجلِهِ، وهو موضعُ المناسبةِ ـ قولُ البحتريِّ [في «ديوانه» ٣/ ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ منَ الطويل]:

وَأَصْيَدَ إِنْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ   كَلِيْلاً وَإِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا[1]

ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّيْ فَأَصْبَحَ مُعْرِضاً   وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُوْنَ حَتَّىٰ تَوَهَّمَا

وَقَدْ كَانَ سَهْلاً وَاضِحاً فَتَوَعَّرَتْ   رُبَاهُ وَطَلْقاً وَاضِحاً فَتَجَهَّمَا

أَلَسْتُ ٱلْمُوَالِيْ فِيْكَ غُرَّ قَصَائِدٍ   هِيَ ٱلأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا ؟

وَلَوْ أَنَّنِيْ وَقَّرْتُ شِعْرِيْ وَقَارَهُ   وَأَكْرَمْتُ مَدْحِيْ فِيْكَ أَنْ يُتَهَضَّمَا[2]

لأَكْبَرْتُ أَنْ أُوْمِيْ إِلَيْكَ بِإِصْبَعٍ   تَضَرَّعُ أَوْ أُدْنِيْ لِمَعْذِرَةٍ فَمَا

وَكَانَ ٱلَّذِيْ يَأْتِيْ بِهِ ٱلدَّهْرُ هَيِّناً   عَلَيَّ وَلَوْ كَانَ ٱلْحِمَامَ ٱلْمُقَدَّمَا

وَلٰكِنَّنِيْ أُعْلِيْ مَحَلِّيَ أَنْ أُرَىٰ   مُدِلاً وَأَسْتَحْيِيْكَ أَنْ أَتَعَظَّمَا

وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُوْ أَنْ أَؤُوْبَ مُمَلَّكاً   فَأَصْبَحْتُ أَرْجُوْ أَنْ أَؤُوْبَ مُسَلَّمَا[3]

من روائع ابن الرومي في الموضوع

فهٰذا وٱللهِ ٱلشِّعرُ يتفجَّرُ ٱلحَجَرُ لمسِّهِ ، وتهتزُّ ٱلقلوبُ لجرسِهِ ، ولا يقصرُ عنهُ قولُ ٱبنِ ٱلرُّوميِّ يُعاتبُ أَبا ٱلصَّقرِ [كما في «ديوانه» ٢/ ٥١٨-٥٢٠ منَ الطويل] :

عَقِيْلَ ٱلنَّدَىٰ أَطْلِقْ مَدَائِحَ جَمَّةً   خَوَاسِيَ حَرَّىٰ قَدْ أَبَتْ أَنْ تُسَرَّحَا[4]

---

(١) الأَصْيَدُ : الرجلُ يرفع رأسَهُ كبراً ، وقيلَ للملكِ : أَصْيَدُ ؛ لأَنَّهُ لا يلتفِتُ منَ الزهوِّ يمنياً ولا شمالاً . جمجمَ : لَم يبيِّنْ كلامَهُ .

(٢) يُتهضَّمُ : يُظلمُ ويُغتصبُ حقُّهُ .

(٣) أَؤُوبُ : أَعودُ وأَرجعُ .

(٤) الإبلُ المخيَّسةُ : هيَ الإبلُ المحبوسَةُ للنحرِ أو القسْمِ ولم تُطلَقْ ، وفي البيتِ كنايةٌ ظاهرةٌ وهيَ جعلُهُ المديحَ الذي هوَ أعلىٰ الكلامِ كالإبلِ التي هي أعلىٰ شيءٍ عندَ العربِ . حَرَّىٰ ـ فَعْلَىٰ من الحرِّ ـ : وهيَ تأنيثُ حرَّانَ ، وهما للمبالغةِ ، يريدُ أنَّها لشدَّةِ حرِّها قد عطشَتْ ويَبِسَتْ منَ العطشِ ، ومنهُ طرف الحديثِ : «في كُلِّ ذاتِ كبدٍ حرَّىٰ أجرٌ» رواه عن مخوّل البهزي ابن حبان في «الإحسان» (٥٨٨٢) بسند ضعيف .

وَكُنْتَ مَتَىٰ تُنْشِدْ مَدِيحاً ظَلَمْتَهُ ... يَكُنْ لَكَ أَهْجَىٰ كُلَّمَا كَانَ أَمْدَحَا
عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ ... سَحَائِبُهَا أَوْ كَانَ رَوْضٌ تَصَوَّحَا[1]
وَلٰكِنَّهَا سُقْيَا حُرِمْتُ رَوِيَّهَا ... وَعَارِضُهَا مُلْقٍ كَلاَكِلَ جُنَّحَا[2]
فَيَا لَكَ بَحْراً لَمْ أَجِدْ فِيْهِ مَشْرَباً ... عَلَىٰ أَنَّ غَيْرِيْ وَاجِدٌ فِيْهِ مَسْبَحَا

غيرَ أَنَّ الأَوَّلَ أَفخمُ وأَملأُ للفمِ ، فما أَبدعَهُ مِنْ قولٍ يَعزُّ علىٰ الفصحاءِ في ميدانِهِ الجولُ .

الشعراء في هذا الميدان

وقالَ البحتريُّ أَيضاً فيما يشبهُ ما نحنُ فيهِ [كما في « ديوانه » ٤/ ٢٤٢٢ منَ البسيط] :

يُطِيْلُ تَسْوِيْفَ وَعْدِيْ ثُمَّ يُخْلِفُهُ ... عَمْداً وَيَمْطُلُ دَيْنِيْ ثُمَّ يَلْوِيْهِ[3]

وقالَ [منَ الطويل] :

لَئِنْ غَرَّنِيْ مَطْلُ ٱلْبَخِيْلِ لِقَبْلَهُ ... غُرِرْتُ بِإِسْعَافِ ٱلْخَيَالِ ٱلَّذِيْ يَسْرِيْ

وقالَ الناظمُ [في « العكبري » ٢/ ٤١ـ٤٢ منَ البسيط] :

أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خَازِناً وَيَداً ... أَنَا ٱلْغَنِيُّ وَأَمْوَالِيْ ٱلْمَوَاعِيْدُ[4]
إِنِّيْ نَزَلْتُ بِكَذَّابِيْنَ ضَيْفُهُمُ ... عَنِ ٱلْقِرَىٰ وَعَنِ ٱلتَّرْحَالِ مَحْدُوْدُ
جُوْدُ ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلأَيْدِيْ وَجُوْدُهُمُ ... مِنَ ٱللِّسَانِ فَلاَ كَانُوْا وَلاَ ٱلْجُوْدُ

---

(١) أنقشعَ الغيمُ والسحابُ : إذا كشفتْهُ الريحُ . تصوَّحَ الروضُ : إذا تمَّ يبسُهُ .
(٢) الكَلاكِلُ : الجماعاتُ .
(٣) مَطَلَ : سوَّفَ الوعدَ مرَّةً بعدَ أُخرىٰ . لَوَىٰ : بمعنىٰ مَطَلَ .
(٤) أَرْوَحَ : منَ الراحةِ .

وأبطأَ رجلٌ بوعدِهِ لأبي ٱلعتاهيةِ فقالَ [منَ المنسرح] :

لاَ جَعَلَ ٱللهُ لِي إِلَيْكَ وَلاَ … عِنْدَكَ مَا عِشْتُ حَاجَةً أَبَدَا
مَا جِئْتُ فِيْ حَاجَةٍ أُقَرِّبُهَا … إِلاَّ تَثَاقَلْتَ ثُمَّ قُلْتَ غَدَا

وقالَ بشَّارُ فيما يشبهُ الكلامَ [في « ديوانهِ » ٤/٢١١-٢١٢ منَ الطويل] :

وَلاَ تَبْخَلاَ بُخْلَ ٱبْنِ قَزْعَةَ إِنَّهُ … مَخَافَةَ أَنْ يُرْجَىٰ نَدَاهُ حَزِيْنُ
إِذَا جِئْتَهُ فِيْ حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ … فَلَنْ تَلْقَهُ إِلاَّ وَأَنْتَ كَمِيْنُ

وقالَ كُثيِّرٌ [في « ديوانهِ » ٥٠٧ منَ الوافر] :

لَوَ اَنَّ ٱلْبَاخِلِيْنَ وَأَنْتِ مِنْهُمْ … رَأَوْكِ تَعَلَّمُوْا مِنْكِ ٱلْمِطَالاَ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٤٣ منَ الطويل] :

قَضَىٰ كُلُّ ذِيْ دَيْنٍ فَوَفَّىٰ غَرِيْمَهُ … وَعَزَّةُ مَمْطُوْلٌ مُعَنًّىٰ غَرِيْمُهَا(١)

العبد الموفَّق هو الذي يعمل ما يرضي سيده

فيُحكىٰ [كما في « الأغاني » ٩/٣٦] : أَنَّهُ كانَ لكُثيِّرٍ عبدٌ يبيعُ لهُ الطِّيْبَ منَ النِّساءِ ، وَيَنْسَؤُهُنَّ بٱلثمنِ ، فجاءَ يتقاضاهُنَّ ، فَأَدَّيْنَهُ إلاَّ واحدةً ، لَمْ يعرِفْها لمكانِ البُرْقُعِ ، فتمثَّلَ ببيتِ مولاهُ هٰذا ، فقُلْنَ لَهُ : أَتدري مَنْ هٰذهِ ؟! قالَ : لا ، قُلنَ لهُ : إِنَّها عَزَّةُ ، قالَ : أُشهِدُكُمْ أَنَّها في حِلٍّ مِمَّا عندَها ، وأَخبرَ مولاهُ فسُرَّ بصنيعِهِ ، وأَعتقَهُ .

فتوى في الحب

ويُحكىٰ [كما في « الأغاني » ٩/٣٦] : أَنَّ عزَّةَ دخلَتْ علىٰ أُمِّ البنينِ ، فقالتَ لها : ما الدَّيْنُ الذي يتقاضاكِ كُثيِّرٌ ؟ قالتْ : قُبْلَةٌ وعدتُهُ إيَّاها ، قالتَ : أَنجزيهِ ما وعدْتِ ، وإِثمُ ذلكَ عليَّ .

---

(١) المعنَّىٰ ـ مِنَ العناءِ ـ : وهو المشقَّةُ والتعبُ .

فكانتْ أُمُّ البنينِ تبكي كلَّما ذكرَتْ فتواها هٰذهِ لِعَزَّةَ ، وأَعتقتْ فيها رِقاباً ، وتصدَّقَتْ .

شر الآفات البخل

وقالَ بعضُهُمْ [منَ الطويل] :

فَإِنْ تُجْمَعِ ٱلآفَاتُ فَٱلْبُخْلُ شَرُّهَا وَشَرٌّ مِنَ ٱلْبُخْلِ ٱلْمَوَاعِيْدُ وَٱلْمَطْلُ

لا شيء افضل من الصراحة

وَسَأَلَ بعضُهُمْ عَدِيَّ بنَ حاتمٍ حاجةً ، فصرَّحَ بِٱلمنعِ ، فقالَ لهُ : كأَنَّكَ لَمْ تكُنْ مِنْ حاتمٍ ؟! فقالَ عديٌّ : إِنْ لَمْ أَكُنْ في الشطرِ الثاني . . فإِنِّي منهُ في الأَوَّلِ ، يعني قولَهُ [في « شرح ديوان حاتم » ٥١ منَ الطويل] :

أَمَـاوِيَّ إِمَّـا مَـانِـعٌ فَمُبَيَّـنٌ وَإِمَّا عَطَاءٌ لاَ يُنَهْنِهُهُ ٱلزَّجْرُ(١)

وصف لبخيل

وقالَ أَعرابيٌّ : فلانٌ لهُ وعدٌ عاقِبَتُهُ المَطلُ ، وثمرتُهُ الخُلْفُ ، ومحصولُهُ اليأسُ .

اول من اخلف المواعيد

وقالَ الثعالبيُّ : أَوَّلُ مَنْ أَخلفَ المواعيدَ ، ولَمْ يَفِ بشيءٍ منها : إِسماعيلُ بنُ صُبَيحٍ ، كاتبُ الرشيدِ ، وما كانتِ الرؤساءُ قبلَهُ تعرفُ ٱلمواعيدَ الكاذبةَ .

دواء ينفع مع اللئيم الحريص

وٱشتهرَ أَحدُ اللِّئامِ بشدَّةِ الحِرصِ ، حتَّىٰ أَيسَ منهُ المكدُّونَ ، فتذاكروا غِلْظَةَ كَبِدِهِ ، وتحجُّرَ يدِهِ ، فقالَ أَحدهُمْ : أَنا لَهُ ، فقالوا : لَنْ تَقدِرَ منهُ علىٰ شيءٍ ، وخاطَروهُ(٢) ، فغدا علىٰ بابِهِ يقرعُهُ قرعاً شديداً ، حتَّىٰ أَضجَرَهُ ، وآلىٰ أَنْ لا ينصرِفَ إِلاَّ بنوالٍ

---

(١) يُنهنِهُهُ : يكفُّهُ .

(٢) التخاطر : التراهن ، وسمي الرهان : مخاطرةً؛ لما فيه من احتمال فَقْدِ ما يكون فيها أو سلامته .

أَو وعدٍ ، فوعدَهُ بدانِقٍ إلىٰ سَنةٍ ، فبكّرَ إليهِ مِنَ الغدِ ، وأقلقَ راحتَهُ ، وقال له : ٱحْسُبْ فقد مضىٰ مِنَ السنةِ يومٌ ، ولَمْ يزلْ يباكرُهُ بمثلِ ذٰلكَ . . حتّىٰ ضَيَّقَ عليهِ أنفاسَهُ ، فرأىٰ التخلُّصَ بدفعِ الدانِقِ أهونَ عليهِ ، فنقدَهُ إيّاهُ ، فٱستحقَّ الخطرَ علىٰ أصحابِهِ ، ومَا أظنُّهُ ٱهتدىٰ لهٰذهِ الحيلةِ إلاَّ مِنْ حيثُ فتحَ لهُ بابَها شيخُ (المعرَّةِ) في قولِهِ[في « سقط الزند » ١٦٥ منَ الكامل] :

إِنَّ ٱلْبَخِيلَ إِذَا يُمَدُّ لَهُ ٱلْمَدَىٰ   فِيْ ٱلْجُوْدِ هَانَ عَلَيْهِ وَعْدُ ٱلسَّائِلِ

الوعد في الحب

أَمَّا ٱقتناعُ المحبِّينَ بٱلمواعيدِ : فإِنَّهُ حديثٌ آخرُ ، ومنهُ قولُ سلطانِهِمْ [في « ديوان ابن الفارض » ١٣٨ منَ الطويل] :

عِدِيْنِيْ بِوَصْلٍ وَٱمْطُلِيْ بِنَجَازِهِ   فَعِنْدِيْ إِذَا صَحَّ ٱلْهَوَىٰ حَسُنَ ٱلْمَطْلُ

وقولهُ [في « ديوانه » ١١ منَ الرَّمَل] :

أَوْعِدُوْنِيْ أَوْ عِدُوْنِيْ وَٱمْطُلُوْا   حُكْمُ دِيْنِ ٱلْحُبِّ دَيْنُ ٱلْحِبِّ لِيْ[(١)]

الكمُّون والمواعيد

ويأتِي ما يتعلَّقُ بهِ فِي فرصةٍ أنسبَ لهُ مِنْ هٰذهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وما أدري أصحيحٌ ما يقالُ : إنَّ ٱلكمُّونَ يعيشُ بٱلمواعيدِ أَمْ لا[(٢)] ؟ ففي ذلكَ ينشدونَ [منَ البسيط] :

---

(١) أَوْعِدُوني : هدِّدوني ، منَ الوعيدِ . عِدُوني : منَ الوعدِ ، يريدُ : أَنَّ حُكمَ دِينِ الحبِّ يُحلِّلُ المماطلةَ في أداءِ دَينِ المحبِّ . قال الشاعر :

وإنـي وإن أوعـدتـه أو وعـدتـه   لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

(٢) يقال : إنَّ الكمُّونَ عندما لا يبقىٰ ماء لسُقياهُ يقولون له : سنسقيك غداً ، فيغنيه هذا الكلام عن السُّقيا ، قال الشاعر :

فَأَصْبَحْتُ كَٱلْكَمُّوْنِ مَاتَتْ عُرُوْقُهُ   وَأَغْصَانُهُ مِمَّا يُمَنُّوْنَهُ خُضْرُ

وفي المثل ببلاد الشام : بالوعد يا كمون .

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ كَمُّوناً بِمَزْرَعَةٍ   إِنْ فَاتَهُ السَّقْيُ أَغْنَتْهُ الْمَوَاعِيْدُ

التكيد والمن في العطاء في أصدق الكلام

وأمَّا قولُهُ : (وَلاَ يُنَكِّدُهَا) . . فناظرٌ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إلى آخر الآيات [البقرة : ٢٦٢-٢٦٤] .

ووجهُ مناسبةِ قولِهِ : ﴿والله غني﴾ لِمَا قبلَهُ أَنَّ اللهَ يتلقَّىٰ الصدقَةَ بيدِهِ كَما فِي « الصَّحِيحَيْن »[1] ، وإِنَّما ينالُهُ مِنْ عبادِهِ التقوَىٰ ، واللهُ أعلمُ بمرادِهِ .

التكيد والمن في العطاء عند الشعراء

وقالَ الحطيئةُ [في « ديوانه » ٤١ منَ الطويل] :

وَإِنْ كَانَتِ النَّعْمَاءُ فِيْهِمْ جَزَوْا بِهَا   وَإِنْ أَنْعَمُوْا لاَ كَدَّرُوْهَا وَلاَ كَدُّوْا

وقالَ الأعشىٰ يمدحُ المنتشرَ [منَ البسيط] :

مَنْ لَيْسَ فِيْ خَيْرِهِ مَنٌّ يُكَدِّرُهُ   عَلَىٰ الصَّدِيْقِ وَلاَ فِيْ صَفْوِهِ كَدَرُ

وقالَ القطاميُّ [في « ديوانِهِ » ٣٨ منَ الوافر] :

فَلَمْ أَرَ مُنْعِمِيْنَ أَقَلَّ مَنًّا   وَأَكْرَمَ عِنْدَمَا اصْطَنَعُوْا اصْطِنَاعَا

مِنَ الْبِيْضِ الْوُجُوْهِ بَنِيْ نُفَيْلٍ   أَبَتْ أَخْلاَقُهُمْ إِلاَّ اتِّسَاعَا

---

(١) وذلكَ في الحديثِ الذي رواهُ البخاريُّ في (الزكاة) (١٤١٠) ومسلمٌ في (الزكاةِ) (١٠١٤) عَن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن رسولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قالَ : « مَن تصدَّقَ بعدلِ تمرة مِن كسبٍ طيِّبٍ ـ ولاَ يقبلُ اللهُ إِلاَّ الطيِّبَ ـ فإن اللهَ يتقبلها بيمينهِ ثم يربِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أَحدُكُم فلُوَّهُ أَو قَلوصَهُ، حتَّى تكونَ مثلَ الجبلِ » واللفظ للبخاري .

وقولُهُ : (أَقَلَّ مِنًّا) شبيهٌ بما مَرَّ القولُ فيهِ مِنْ نَفْيِ الشيءِ بإيجابِهِ ، والمرادُ : عدمُ المَنِّ ، كما في قولِهِمْ عَنْ وصفِهِ ﷺ : (كانَ يُقِلُّ اللَّغْوَ) ؛ إِذِ ٱلمرادُ منهُ : أَنَّهُ لا يقولُ لغواً أَبداً .

وقالَ جريرٌ يمدحُ بني أُميَّةَ [منَ البسيط] :

أَعطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوْهَا ثَمَانِيَةٌ   مَا فِيْ عَطَائِهِمُ مَنٌّ وَلاَ سَرَفُ

وقالَ الأخطلُ [في « ديوانِهِ » ١٧٢ منَ البسيط] :

بَنِـيْ أُمَيَّـةَ نُعْمَـاكُـمْ مُجَلِّلَـةٌ   تَمَّـتْ فَـلاَ مِنَّـةٌ فِيْهَـا وَلاَ كَـدَرُ

وقالَ أَبو قابوسٍ يمدحُ يحيىٰ بنَ خالدٍ البرمكيَّ [منَ البسيط] :

يَنْسَىٰ ٱلَّذِيْ كَانَ مِنْ مَعْرُوْفِهِ أَبَداً   إِلَىٰ ٱلرِّجَالِ وَلاَ يَنْسَىٰ ٱلَّذِيْ يَعِدُ

لا تنس حاجتي أيها الأمير

وقالَ رجلٌ لمسلمِ بنِ قريشٍ : لا تنسَ حاجتِي أَيُّها ٱلأَميرُ ، قالَ : لنْ أَنساها إِلاَّ إِذا قضيتُها .

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٣٩٧ منَ الطويل] :

كَرُمْتَ فَمَا كَدَّرْتَ نَيْلَكَ عِنْدَنَا   بِمَنٍّ وَلاَ أَتْبَعْتَ وَعْدَكَ بِٱلْخُلْفِ

تكرار هذا المعنى عند المتنبي

وأَكثرَ الناظمُ في المعنىٰ فمنهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٦٥ منَ المنسرح] :

تَظُـنُّ مِـنْ فَقْـدِكَ ٱعْتِـدَادَهُـمُ   أَنَّهُـمُ أَنْعَمُـوْا وَمَـا عَلِمُـوْا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٧٣ منَ البسيط] :

إِلَىٰ ٱلَّذِيْ تَهَبُ ٱلدَّوْلاَتِ رَاحَتُهُ   وَلاَ يَمُنُّ عَلَىٰ آثَارِ مَوْهُوْبِ[1]

---

(١) الدّولاتُ : تعريضٌ بسيفِ الدولةِ ، يريدُ : أَنَّهُ ملكٌ عظيمٌ تصلُ عطاياهُ إِلىٰ الدولاتِ .

وقولُهُ ـ وقد تقدَّمَ ـ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٨٧ منَ البسيط] :

أَنتَ ٱلْجَوَادُ بِلاَ مَنٍّ وَلاَ كَدَرٍ وَلاَ مِطَالٍ وَلاَ وَعْدٍ وَلاَ مَذَلِ[1]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٥٨ منَ الكامل] :

سَتَرُوا ٱلنَّدَىٰ سَتْرَ ٱلْغُرَابِ سِفَادَهُ فَبَدَا وَهَلْ يَخْفَىٰ ٱلرَّبَابُ ٱلْهَاطِلُ[2] ؟

أم جعفر البرمكي تصف أولادها

وقالَ بعضُ الهاشميِّينَ : كانتْ أُمُّ جعفرٍ البرمكيِّ تزورُنا ـ وهيَ أمرأَةٌ جزْلَةٌ ـ فسأَلتُها يوماً عَنْ حالِ ولديها : (الفضلِ وجعفرٍ) ، قالتْ : لا أَزيدُكَ علىٰ واقعةٍ لهما وهما طفلانِ : عادَ يحيىٰ إِلىٰ البيتِ بعدَ فراغهِ مِنْ شُغْلِ السلطانِ ، فقالَ لجعفر : بلَغني أَنَّكَ تلعبُ الشطرنجَ ، قالَ : نعم ، قالَ : فهل لكَ أَنْ تلعبَ معَ أَخيكَ؟ قالَ : نعم ، فأعتذرَ الفضلُ ، فقالَ يحيىٰ : أَتلعبُ معهُ عَلىٰ المُقامرَةِ ، وأَنا في جانبِهِ؟ قال : نعم ، فأمتنعَ الفضلُ وأستحيا ، فأنصرفَ ، فترىٰ أَنَّ جعفراً أَخطأَ مِنْ جهاتٍ ، وعزمَ اللهُ للفضلِ بالثباتِ .

ولمّا ظنَنَّا أَنَّها قضَتْ لهُ علىٰ جعفرٍ . . قالَتْ : فخلوتُ بجعفرٍ ، وقلتُ لهُ : تعرفُ أَنَّ أَباكَ يكرَهُ اللعِبَ ، وقد صارحتَهُ بأَنَّكَ تلعبُ! قالَ : ذاكَ أَهونُ عليَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَهُ . قلتُ لهُ : وحَرَصتَ علىٰ أَنْ تُخَجِّلَ أَخاكَ بغَلَبَتِهِ! قالَ : أَعرفُ تفوُّقَهُ عليَّ ، ولو ضَعُفَ . .

---

(١) المَذَلُ : الفترةُ والضجرُ .

(٢) سَفِدَ يَسفَدُ سفاداً : هو نَزْوُ الذكرِ على الأنثىٰ ، يقالُ ذلك في التيسِ والبعيرِ والثورِ والطيرِ والسباعِ . والربابُ : غيمٌ يتعلَّقُ بأَسافلِ السحاب إِذا كَثُرَ ماؤُهُ . والمعنىٰ : أَنَّهم يكتمونَ معروفَهم كما يكتمُ الغرابُ سفادَهُ ، ثُمَّ ذلكَ لا يُكتَمُ كما لا يخفىٰ السحابُ الهاطلُ .

لانغلبْتُ لهُ . قلتُ : وأَكبرُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ رضاكَ بالمُقامرةِ! قالَ : ما حملني عليها إلاَّ أَنَّ الرشيدَ أَعطاني دواةً مِنَ ٱلجوهَرِ ، ورأَيتُ أَخي يستحسنُها ، وكرهتُ أَنْ يرىٰ لي مِنَّةً عليهِ إِنْ أَنا أَهديتُها لهُ ، فأَحببْتُ أَنْ يَأخذَها بالغَلَبَةِ ؛ لتكونَ أَهنأَ لهُ . قلتُ لهُ : وقاصِمَةُ الظَّهْرِ ، رضاكَ بمغالبَةِ أَبيكَ!! قالَ : قد عرفْتِ جوابَها مِنِ ٱنْغِلابي لا محالةَ ، وإِنَّما أَردْتُ تشجيعَ أَخي علىٰ اللعِبِ حتَّىٰ يستأْثِرَ بالدَّواةِ ، فصبرْتُ للجُرأَةِ علىٰ أَبي مِنْ أَجلِ ذلِكَ . قالَ الهاشميُّ : فقلتُ لَها : أَكانَ ذلكَ وقد بلغا الحُلُمَ؟ قالتْ : أَينَ يُذهَبُ بكَ؟! أَما قلتُ لكَ : إِنَّهما طفلانِ ، إِنَّ الصبيَّ إِذا بَلَغَ عشراً لَمْ نُمَكِّنْهُ أَنْ يتبسَّمَ بمحضرِ الرجالِ .

أصبحت بيوتنا كالأسواق

وأَقولُ : إِنَّ آخرَها ليسَ بأَكبرَ ممّا رُوِيَ عَنْ بعضِ أَجدادِنا العلويِّينَ أَنَّهُ قالَ : جئْتُ وأَنا في التاسِعَةِ مِنْ عُمُري ، وأُمِّي تُسبِّحُ الضُّحىٰ ، فرأَيتُ ما ٱرتفعَ لهُ صوتي قليلاً بالضحكِ ، فما ٱنفتلَتْ أُمِّي مِنْ صلاتِهَا.. إلاَّ وقد بَلَّتْ خِمارَها بالدموعِ تسترجعُ ، وتقولُ : لقد أَصبحَتْ بيوتُنا شبيهةً بالأَسواقِ ، وما كانَ يُسمَعُ فيها إلاَّ ذِكْرُ اللهِ ، وتلاوةُ القرآنِ ، فقالتْ لي أُختي مريمُ : هل لكَ في التوبةِ؟ قلتُ : نَعم ، وتبتُ علىٰ يدها ، وأَخذْتُ ميثاقي علىٰ أَنْ لا أَعودَ إِلىٰ مثلِها ، وبقيَ الخدَمُ سنَةً يُؤَنِّبوني ، ويقولونَ : توبةٌ مقبولةٌ .

مديح البرامكة

ولقد صدقَ أَشجعُ في قولِهِ عَنِ ٱلبرامِكةِ عامَّةً ، وعَنْ جعفرٍ خاصَّةً [في « ديوانه » ٢٢٠ منَ الكامل] :

سَادَ ٱلْبَرَامِكَ جَعْفَرٌ وَهُمُ ٱلأُولَىٰ ... بَعْـدَ ٱلْخَـلاَئِـفِ سَـادَةُ ٱلإِنْـسِ

قصائد للمؤلف في مدح العلويين

وصدقتُ أنا في قولي عَنْ لَهاميمِ[1] السابقينَ مِنْ العلويِّينَ [في «ديوان المؤلف» ٢٢٦ منَ الطويل] :

مَلائِكَةٌ فِيْ سَمْتِهِمْ وَلَدَىٰ ٱلْوَغَىٰ لُيُوثٌ لَهُمْ فِيْ ٱلْمَشْرِفِيَّةِ أَخْيَاسُ
عَلَيْهِـمْ مِـنَ ٱلْبَـارِيْ وَقَـارٌ لأَنَّهُـمْ بِأَرْوَاحِهِمْ فِيْ حَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ جُلاَّسُ[2]

وقولي [كمافي « ديوان المؤلف » ١٢١ منَ الطويل] :

وَمَنْ دَرَجُوْا عَنْ وَكْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةٍ بِبَـأْسِ مُلُـوْكٍ فِـيْ لِبَـاسِ مَـلاَئِـكِ
نُجُوْمُ ٱلْهُدَىٰ مِنْ بَأْسِهِمْ يَنْمَحِيْ ٱلرَّدَىٰ وَتَعْنُوْ ٱلْعِدَا مِنْ فَتْكِهِمْ فِيْ ٱلْمَعَارِكِ[3]

وقولي [كما في « ديوان المؤلف » ٢٥١ منَ الطويل] :

لَيَالِيَ كَانَ ٱلْحَيُّ يَزْهُوْ بِجِيْرَةٍ لَهُمْ حِلْيَةُ ٱلتَّقْوَىٰ إِلَىٰ رِقَّةِ ٱلطَّبْعِ
مَرَاجِيْحُ سَبَّاقُوْنَ فِيْ ٱلْمَجْدِ لَمْ يُرِدْ بِهِمْ [رَبُّهُمْ] لِلْعَالَمِيْنَ سِوَىٰ ٱلنَّفْعِ[4]

في كثيرٍ مِنْ أَمثالِ ذلكَ .

أبلغ ما روي في تعاظم السائل وسماحة المسؤول

ومِنْ أَبلغِ ما سمِعنا في تعاظُمِ السائِلِ ، وسماحةِ نَفْسِ المسؤولِ ، ما ذُكرَ عَنْ بعضِهِم ـ وأَظنُّهُ المهلَّبَ بنَ أَبي صُفرةَ بعدَ ذهابِ دولتِهِ ، وزوالِ نعمتِهِ ـ : أَنَّهُ تحمَّلَ أَلفَ بعيرٍ في الإِصلاحِ ،

---

(١) لهاميم ـ جمعُ لِهميم ـ : وَهوَ السابقُ الجوَادُ .

(٢) في « الديوان » (٢٢٦) :

مَـلاَئِكَـةٌ فِـيْ سَمْتِهِـمْ وَلَـدَىٰ ٱلْـوَغَـىٰ لُيُـوْثُ ٱلشَّـرَىٰ وَٱلْمَشْـرَفِيَّـاتُ أَخْيَـاسُ
عَلَيْهِـمْ مـنَ ٱلْبَـارِيْ ٱلْـوَقَـارُ وَكَيْـفَ لاَ وَهُمْ بِٱلنُّهَىٰ فِيْ حَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ جُلاَّسُ

الشَّرىٰ : جبيلٌ بـ(تهَامَةَ) كثيرُ السباعِ . المشرفياتُ : سيوفٌ معروفةٌ . أخياسُ : ملتفة ، وأصله الشجرُ الملتفُّ .

(٣) تعْنُوا : تخضعُ .

(٤) مراجيحُ : حلماءُ .

فقصدَ مَلِكَ (العراقِ) ، وهوَ ٱلكوثرُ بنُ ٱلصَّعرِ ـ فيما إخالُ ـ وقالَ لهُ : الأملُ أوقفني ببابِكَ ، وحُسْنُ الظنِّ ساقني إليكَ ، وكما لَمْ أَصُنْ وجهي عَنْ سؤَالِكَ . . صُنْ وجهَكَ عَنْ رَدِّي ، وأنهىٰ لَهُ القصَّةَ ، وأنشدَ [منَ الوافر] :

وَكُنْتُ خَبَأْتُ آمَالِيْ لِيَوْمٍ فَهَـٰذَا ٱلْيَوْمُ يَوْمُكَ وَٱلسَّلاَمُ
وَكُنْتُ أُطَالِبُ ٱلدُّنْيَا بِحُرٍّ فَأَنْتَ ٱلْحُرُّ وَٱنْقَطَعَ ٱلْكَلاَمُ

فٱهتزَّ ، وأَمرَ لهُ بها وبمثلِها معها ، فقالَ : أَمَّا هيَ . . فمقبولةٌ ؛ لأنَّها المَطلَبُ ، وأمَّا الباقي . . فلا حاجَةَ لي فيهِ ، وليسَ الذي أعطيتَني بأفضلَ مِنَ ٱلذي أعطيتُكَ ـ يعني ماءَ وجهِهِ ـ فما كانَ مِنَ ٱلأميرِ إلاَّ أَنْ نزلَ عَنْ تكرمتِهِ ، وأقعدَ المهلَّبَ عليها ، وتوسَّلَ إليهِ بضراعةٍ وإلحاحٍ أَنْ لا يردَّ عطيَّتَهُ ، وأَنْ لا يقمأَهُ[1] بعدَمِ قَبولها ، ففعلَ وما كادَ .

مديح المتنبي لطاهر بن الحسين وجلوس الممدوح بين يدي الشاعر

ولا يبعدُ عنها ما كانَ مِنْ طاهرِ بنِ الحُسينِ ، فإنَّ الناظمَ ٱمتدحَهُ بطلبٍ مِنْ أَبي محمَّدِ بنِ طُغْجٍ ، ثُمَّ ركبَ إليهِ هوَ وإيَّاهُ ، فنزلَ طاهرٌ عَنْ سريرِهِ ، وأَجلسَ الناظمَ علىٰ مرتبتِهِ ، ثمَّ أَنشدَهُ القصيدةَ المُستهلَّةَ بقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/١٤٧ منَ الطويل] :

أَعِيْدُوْا صَبَاحِيْ فَهْوَ عِنْدَ ٱلكَوَاعِبِ [وَرُدُّوْا رُقَادِيْ فَهْوَ لَحْظُ ٱلْحَبَايِبِ][2]

فخلعَ عليهِ خِلَعاً نفيسةً ، قالَ بعضُ مَنْ حضرَ : ما رأَيتُ ولا سمعتُ أَنَّ شاعراً جلسَ الممدوحُ بينَ يديهِ مستمعاً لمدحِهِ سوىٰ ما كانَ مِنْ طاهرٍ مَعَ أَبي الطيِّبِ .

---

(١) يقمأه : يُصغره .
(٢) الكواعبُ ـ جمعُ كاعبٍ ـ : وهي الجاريةُ التي قد علا نهدها .

العفة في السؤال وحفظ ماء الوجه

وما أَحسنَ قولَ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٥٣ منَ البسيط] :

مَا مَاءُ كَفِّكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخِلَتْ ... مِنْ مَاءِ وَجْهِيَ إِنْ أَفْنَيْتُهُ عِوَضُ[(١)]

وقولَهُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٦٢ منَ البسيط] :

أَعْطَىٰ وَنُطْفَةُ وَجْهِي فِيْ قَرَارَتِهَا ... تَصُوْنُهَا ٱلْوَجَنَاتُ ٱلْغَضَّةُ ٱلْقُشُبُ[(٢)]

لاَ يَكْرُمُ ٱلظَّفَرُ ٱلْمُعْطَىٰ وَإِنْ حَصَلَتْ ... بِـهِ ٱلـرَّغَـائِـبُ حَتَّـىٰ يَكْـرُمَ ٱلطَّلَـبُ

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٠٩٤ منَ الطويل] :

وَمَا خَطَرِيْ دُوْنَ ٱلْغِنَىٰ إِنْ بَلَغْتُهُ ... سُؤَالاً وَلاَ عِرْضِي نَظِيْرُ ٱلدَّرَاهِمِ

وقالَ مهيارٌ [في « ديوانهِ » ٣/ ٣٤٦ منَ الطويل] :

تَنَفَّسْتُ عَنْ عَتْبٍ فُؤَادِيَ مُفْصِحٌ ... بِهِ وَلِسَانِي لِلْحِفَاظِ يُجَمْجِمُ[(٣)]

وَفِيْ فِيَّ مَاءٌ مِنْ بَقَايَا وِدَادِكُمْ ... كَثِيْراً بِهِ مِنْ مَاءِ وَجْهِيْ أَرَقْتُمُ

جابر عثرات الكرام

ويُحكَىٰ : أَنَّ بعضَ الكرام أَملقَ في ٱلعهدِ الأُمويِّ ، وٱرتكبتْهُ ٱلديونُ فقبعَ في كِسْرِ بيتِهِ ، ولَمْ يشعُرْ في إِحدىٰ الليالي إِلاَّ بطارقٍ يقرعُ بابَهُ ، وفي يَدِهِ خمسةُ آلافِ دينارٍ دفعَها إِليهِ ، فسأَلَهُ عَنِ ٱسمِهِ ، فلَمْ يزدهُ علىٰ أَنْ قالَ لَهُ : أَنا جابرُ عثراتِ الكرامِ ، فقضىٰ الرجلُ دينَهُ ، وأَصلحَ شأْنَهُ ، وتجهَّزَ للوفادةِ علىٰ الخليفةِ ، فولاَّهُ تلكَ الناحيةِ ، وأَمرَهُ أَنْ يأْخُذَ سَلَفَهُ بما عندهُ ، وأَنْ يناقشَهُ

---

(١) ماءُ الوجه : رَونقُهُ ؛ أَي: إِنَّ كَرامتي أَعظمُ مِن أَخلاقِكَ في حالتي الدفعِ والمنعِ .

(٢) النطفةُ : الماءُ القليلُ ، استعارَها لماءِ الوجهِ . القرارةُ : المطمئِنُّ مِنَ الأَرضِ . الغَضَّةُ : الطريَّةُ . القشُبُ : البيضُ .

(٣) الحفاظُ : المنعةُ والإِباءُ . يجمجمُ : لا يبيِّنُ الكلامَ مِن غيرِ عِيٍّ

الحسابَ ، فسدَّدَ المعزولُ ما في جرائِدِهِ ، غيرَ أنَّهُ عجزَ عَنْ خمسةِ آلافِ دينارٍ ، فأودعهُ السجنَ مِنْ أَجلِها ، فأَرادتْهُ ٱمرأَتَهُ علىٰ أَنْ يستعرِفَ للأَميرِ ، فلَمْ يرضَ ، فما كانَ منها إلاَّ أَنْ ركبتْ إِليهِ بعدَ هدأَةٍ مِنَ الليلِ ، وقالتْ لهُ : تدري مَنْ في سجنِكَ؟ قالَ : فلانٌ ، قالتْ : إِنَّهُ لَفلانٌ ، وإِنَّهُ لَجابرُ عثراتِ الكرامِ ، فٱضطربَ ، وٱسترجعَ ، وكادَ أَنْ يُغشىٰ عليهِ ، وذهبَ مِنْ ساعتِهِ ، وأَطلقَ وثاقَهُ بيدِهِ ، ورفعَ قدرَهُ ، وأَكرمَ مثواهُ ، وطالعَ الخليفةَ بٱلحالِ ، فأَستسنىٰ[1] قيمتَهُما ، وبالغَ في الإِنعامِ عليهما ، وأَبقىٰ العملَ شركةً بينهُما في تلكَ الناحيةِ ، فعاشا أَرغدَ عيشٍ وأَهناهُ ، فرحمةُ اللهِ علىٰ أَهلِ الجودِ وٱلوَفَاءِ ، وأَنَّىٰ بهمْ الآنَ[2] ؟!

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلْحَجُوْنِ إِلَىٰ ٱلصَّفَا [أَنِيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ][3]

غَاضَ ٱلْوَفَاءُ وَفَاضَ ٱلْغَدْرُ وَٱنْفَرَجَتْ مَسَافَةُ ٱلْخُلْفِ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَٱلْعَمَلِ[4]

الخلف أقبح من البخل

وقالوا : إِنَّ ٱلْخُلْفَ أَقبحُ مِنَ البخلِ ؛ لاشتمالِهِ علىٰ ثلاثٍ مِنَ ٱلمذامِّ : الكذبُ ، واللؤمُ ، وتخييبُ الأَملِ .

---

(١) استسنىٰ ـ مأخوذٌ مِنَ السناءِ ـ : وهو الرفعةُ . وأَسناهُ : رفعَ قيمته .

(٢) قال بهذا المعنى أحدهم :

مـات الـرجـال ومضـوا وانقضـوا ومـاتـتْ معَهـم تلـك الكـرامـاتُ
وخلَّفـونـي فـي قـومٍ ذَوي بُخُـلٍ لو أبْصَروا طَيْفَ ضيفٍ في الكَرَىٰ ماتوا

وقال آخر :

رأى الصيفَ مكتوباً على باب دارِهِ فصحَّفَهُ ضيفاً فماتَ من الذعرِ

(٣) البيت من الطويل .

(٤) هذا البيت من « لامية العجم » وهو من الطويل .

وقالَ زيادٌ الأعجمُ [في «شعره» ١٦١ من مجزوء الكامل] :

لِلهِ دَرُّكَ مِـــنْ فَتـــىً ... لَـوْ كُنْـتَ تَفْعَـلُ مَـا تَقُـوْلْ

لاَ خَيْـرَ فِـي كَـذِبِ ٱلْجَـوَا ... دِ وَحَبَّـذَا كَـذِبُ ٱلْبَخِيْـلْ

كيف كانت البطيخة؟؟

ومِنْ أقبحِ ما ذكروا في ٱلْمَنِّ : أَنَّ رجلاً أهدىٰ بِطِّيْخَةً إِلىٰ الأعمشِ ، فلاقاهُ في اليوم الثاني ، وقالَ لهُ : كيفَ كانتِ البِطِّيْخَةُ يا أَبا محمَّدٍ؟! فقالَ : طيِّبةٌ ، فأَعادَ عليهِ القولَ ثانياً ، فقالَ لهُ : إِنْ كففتَ وإِلاَّ قِئْتُها .

أبو الهذيل والدجاجة المهداة

وأَنَّ أَبا الهذيلِ أَهدىٰ إِلىٰ أُستاذٍ لهُ دجاجةً ، فجعلها تاريخاً لكلِّ كبيرٍ وصغيرٍ مِنْ شأنِهِ ، فيقولُ : جاءَ الأَميرُ يومَ أَهديْتُ الدجاجةَ ، وماتَ القاضي بعدَ إِهداءِ الدجاجةِ بعشرةِ أَيَّامٍ ، وهٰكذا .

وما أَحسنَ قولَ البُحتريِّ [في «ديوانه» ١/ ٥١٠ منَ الخفيف] :

وَمِـنَ ٱلنَّـاسِ مَـنْ يُنَـاكِـدُ حَتَّـىٰ ... إِنَّ فَنَـاً مِـنَ ٱلنَّسِيْئَـةِ نَقْـدُهْ[1]

وقولَ الناظمِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ٢٣٦ منَ البسيط] :

وَتَغْضَبُوْنَ عَلَىٰ مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ ... حَتَّىٰ يُعَاقِبَهُ ٱلتَّنْغِيْصُ وَٱلْمِنَنُ

وهوَ أَحدُ معاني قولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ١٨٥ منَ الطويل] :

وَأَظْلَمُ أَهْلِ ٱلظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً ... لِمَـنْ بَـاتَ فِـيْ مَعْـرُوْفِـهِ يَتَقَلَّـبُ

(١) النسيئةُ : التأخيرُ، والدَّينُ المؤجل ومنه قول ابن عوف: ما بعت نسيئة ولا احتقرت ربحاً .

وقالَ شاعرُ (المعرَّةِ) [في « سقطِ الزندِ » ١٥٧ منَ البسيط] :

وَدَعْ أُنَاساً إِذَا أَجْدَوْا عَلَىٰ رَجُلٍ رَنَوْا إِلَيْهِ بِعَيْنِ ٱلْمُغْضَبِ ٱلْحَنِقِ[1]

* * *

(١) أَجدوا على رجلٍ : أَنعموا عليهِ ، مِنَ الجِدَا ، وهوَ العطاءُ . رَنا : أَدامَ النظرَ . الحَنِقُ : الحاقِدُ .

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَريّ » ١/ ٣٠٨ منَ المنسرح] :

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ	يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْعِدُهَا

صفات الخائف

لا يُنكَرُ أَنَّ سَحْرَ[1] الخائفِ كلَّما انتفخَ .. تصعَّدَ النَّفَسُ ، وكلَّمَا خلا .. انحدرَ ، ومِنْ لازمِ الانتفاخِ الضغطُ علىٰ القلبِ ، حتَّىٰ ربَّما بلغَ الحَنْجَرَةَ ، كما في الذِّكْرِ الحكيمِ[2] . وأَصلُ المعنىٰ مِنْ قولِهِ ﷺ : « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ »[3] .

ماذا يعمل الخوف

ولمَّا سُئِلَ أَميرُ المؤمنينَ [عليٌّ رضي الله عنه] عمَّا غرسَ لهُ الهيبةَ في القلوبِ .. قالَ : (إنِّي أَعمدُ إلىٰ الجَبانِ فأَصرعُهُ ، ثمَّ لا أَنثني إلىٰ الشجاعِ إلاَّ وقد ذهبَ نصفُهُ) ، وهوَ في هٰذا هاضمٌ لنفسهِ ، وإلاَّ .. فالأَمرُ مِنْ فوقِ ذلكَ .

صور من شجاعة الإمام علي عليه السلام

ولمَّا ارتدَّ عمرُو بنُ معدِيكربَ الزبيديُّ معَ مَنِ ارتدَّ مِنْ (مذحجٍ) .. وجَّهَ النبيُّ ﷺ خالدَ بنَ سعيدِ بنِ العاصِ ، وخالدَ بنَ الوليدِ ، وعليهم عليُّ ابنُ أَبي طالبٍ ، فيُروىٰ أَنَّهُ لمَّا بلغَ عَمْراً قُرْبُ

---

(١) السَّحْرُ : الرِّئَةُ ، تقول عائشة رضي الله عنها : (قبض رسول الله ﷺ بين سَحري ونحري) .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾ [غافر : ١٨] .

(٣) رواهُ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما البخاريُّ (٣٣٥) ، وفي الباب : عَن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عند مسلمٍ (٥٢٣) .

مكانِهِمْ . . أَقبلَ في جماعةٍ مِنْ قومِهِ ، وقالَ : دعوني آتي هـٰؤلاءِ القومِ ؛ فإِنِّي لَمْ أُسَمَّ لأَحدٍ قطُّ إِلاَّ هابَني ، فلمَّا دَنا منهُمْ . . قالَ : أَنا أَبو ثورٍ ، أَنا عمرُو بنُ معدِيكربَ ، فأبتدرَهُ عليٌّ وخالدٌ [رضي الله عنهما]، كلاهما يقولُ لصاحبِهِ : دعني وإِيَّاهُ ، ويفديهِ بأَبيهِ وأُمِّهِ ، فقالَ عمرٌو عندَ ذلكَ : العربُ تفزعُ منِّي ، وأَراني جَزْراً لهـٰؤلاءِ ، فأنصرفَ عنهُمْ ، ثمَّ رجعَ إِلىٰ الإِسلامِ[1] .

ومِنْ هـٰذا أَخذَ مهيارٌ الديلميُّ قولَهُ [في « ديوانِهِ » ٤/ ٣٢ منَ الكامل] :

وَإِذا رَأَوْكَ تفَـرَّقَـتْ أَرْوَاحُهُـمْ   فكَـأَنَّمَـا عَـرَفَتْـكَ قَبْـلَ ٱلأَعْيُـنِ
فَـإِذَا أَرَدْتَ بِـأَنْ تَفُـلَّ كَتِيبَـةً   لاَقَيْتَهَـا فَتَسَـمَّ فِيهَـا وَٱكْتَـنِ

وفي الجزءِ الثالثِ (ص ١٢٨) مِنْ « شرح نهجِ البلاغةِ » : أَنَّهم ٱجتمعوا بموضعٍ يقالُ لهُ : (كَسْرٌ) فأقتتلوا هناكَ ، وصمدَ[2] عمرٌو لعليٍّ ، فعاينَ منهُ ما لَمْ يحتسبْهُ ، ففرَّ مِنْ بينِ يدهِ هارباً بحشاشةِ نفسهِ ، وفرَّ معهُ رؤَساءُ (مذحجٍ) وفرسانُهُمْ ، وغَنِمَ المسلمونَ أَموالَهُمْ ، وسُبِيَتْ في ذلكَ اليومِ ريحانةُ أُختُ عمرٍو .

وقولُهُ : بموضعٍ يقالُ لهُ : (كَسْرٌ) لاَ يبعدُ أَنْ يكونَ المرادُ بهِ

---

(١) في « شرح النهج » (١٢/ ١٢٠) قريبٍ مِن هذا اللفظ ، ولكنَّ الذي يناسبُ موضوعَنا هوَ ما جاءَ في « شرحِ النهجِ » (١٠/ ٢٥٩) أَنَّ سيدَنا عمرَ بنَ الخطَّابِ كتبَ إِلىٰ عمروِ بنِ معديكربَ ـ وهوَ شجاعُ العربِ الذي تضربُ فيهِ الأَمثالُ ـ في أمرٍ أَنكرهُ عليهِ :
أَمَا واللهِ : لئن أَقمتَ علىٰ ما أَنتَ عليهِ . . لأَبعثنَّ إِليكَ رجلاً تستصغرُ معهُ نفسكَ ، يضعُ سيفَه علىٰ هامتِكَ ، فيخرجُه مِن بينِ فخذيكَ . فقالَ عمروٌ ـ لمَّا وقفَ علىٰ الكتابِ ـ : هدَّدني بعليٍّ واللهِ .

(٢) صَمَدَ لَهُ : ثَبَتَ لَهُ .

(كَسْرَ قُشَاقِشَ) الذي مِنْ قُراهُ الآنَ (هَينن) ؛ فإنَّ أَرضَ (مذحج) ليستْ بالبعيدةِ منهُ ، إذْ مياهُها تصبُّ إلىٰ (حضرموتَ) .

ويقربُ ذلكَ أَنَّ فَرْوةَ بنَ مُسَيْكٍ المراديَّ كانَ أَساءَ السيرةَ ، وطلبَ المددَ مِنْ رسولِ الله ﷺ ، ولن يستجيشَهُ إلاَّ وهُمُ الغازونَ ، واللهُ أَعلمُ بحقيقةِ الحالِ .

خوف المحارَب من الاسم عند الفرزدق

ثمَّ ذكرْتُ أَنَّ الفرزدقَ سبقَ إلىٰ المعنىٰ إذ يقولُ في رثاءِ مخلدِ بنِ يزيدِ بنِ المهلَّبِ [في « ديوانهِ » ١/ ١٩٣ منَ الطويل] :

أَبُوْكَ ٱلَّذِيْ تُسْتَهْزَمُ ٱلْخَيْلُ بِٱسْمِهِ وَإِنْ كَانَ فِيْهَا قِيْدُ شِبْرٍ مُطَرَّدِ[1]
وَقَدْ عَلِمُوْا إِذْ شَدَّ حَقْوَيْهِ أَنَّهُ هُوَ ٱللَّيْثُ لَيْثُ ٱلْغَابِ لاَ بِٱلْمُعَرْبِدِ[2]

تكرار هذا المعنى عند المتنبي

والمعنىٰ الذي نحنُ فيهِ متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ، فمنهُ **قولُهُ** [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٦٤ منَ الخفيف] :

طَاعِنُ ٱلطَّعْنَةِ ٱلَّتِيْ تُذْعِرُ ٱلْفَيْـ ـلَقَ بِٱلذُّعْرِ وَٱلدَّمِ ٱلْمُهْرَاقِ[3]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٤٣ منَ الكامل] :

تَلفُ ٱلَّذِيْ ٱتَّخَذَ ٱلْجَرَاءَةَ خُلَّةً وَعَظَ ٱلَّذِيْ ٱتَّخَذَ ٱلْفِرَارَ خَلِيْلاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٣٩ منَ الخفيف] :

مَا مَضَوْا لَمْ يُقَاتِلُوْكَ وَلَكِـ ـنَّ ٱلْقِتَالَ ٱلَّذِيْ كَفَاكَ ٱلْقِتَالاَ

---

(١) قِيد : قدر . مُطَرَّدٌ : طويل تام . والمعنى : أنها تخاف من ذكر اسمه ولو كان بينها وبينه المسافات الشاسعة .
(٢) العِربيدُ : هي الحيةُ التي تنفخُ ولا تؤذي، ومنهُ اشتقَ اسمُ المُعَربِدِ : للرجلِ السكيرِ الشريرِ . والمعنىٰ : أنَّ ممدوحهُ ممَّنْ إذا قَالوا فَعلوا .
(٣) الفيلَقُ : هوَ الجيشُ . الذُّعْرُ : الخوفُ والفزَعُ .

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٤٣ منَ الكامل] :

سَمِعَ ٱبْنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ ... فَنَجَا يُهَرْوِلُ مِنْكَ أَمْسِ مَهُوْلاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٦٦ منَ الخفيف] :

بَعَثُوْا ٱلرُّعْبَ فِيْ قُلُوبِ ٱلأَعَادِيْ ... فَكَأَنَّ ٱلْقِتَالَ قَبْلَ ٱلْقِتَالِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣٦٥ منَ البسيط] :

قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيْدُ ٱلْخَوْفِ وَٱصْطَنَعَتْ ... لَكَ ٱلْمَهَابَةُ مَا لاَ تَصْنَعُ ٱلْبُهَمُ(١)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٩٣ منَ الطويل] :

فَإِنْ تَكُ مِنْ بَعْدِ ٱلْقِتَالِ أَتَيْتَنَا ... فَقَدْ هَزَمَ ٱلأَعْدَاءَ ذِكْرُكَ مِنْ قَبْلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٥٩ منَ الكامل] :

وَيُمِيتُ قَبْلَ قِتَالِهِ وَيَبَشُّ قَبْـ ... ـلَ نَوَالِهِ وَيُنِيلُ قَبْلَ سُؤَالِهِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٤١ منَ الخفيف] :

أَبْصَرُوْا ٱلطَّعْنَ فِيْ ٱلْقُلُوْبِ دِرَاكَا ... قَبْلَ أَنْ يُبْصِرُوْا ٱلرِّمَاحَ خَيَالاَ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٩٨ منَ الخفيف] :

فَهُمُ لاتِّقَائِهِ ٱلدَّهْرَ فِيْ يَوْ ... مِ نِزَالٍ وَلَيْسَ يَوْمَ نِزَالِ(٢)

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١١٦ منَ الطويل] :

فَخَافُوْكَ حَتَّىٰ مَا لِقَتْلٍ زِيَادَةٌ ... وَجَاؤُوْكَ حَتَّىٰ مَا تُرَادُ ٱلسَّلاَسِلُ(٣)

---

(١) البُهَمُ ـ جمعُ بُهمَةٍ ـ : وهمُ الأبطالُ الذينَ تناهَتْ شجاعتُهمْ .

(٢) النِّزَالُ : المحاربةُ والنزولُ إلىٰ ٱتِّقاءِ الأعداءِ .

(٣) المعنى : أَبدوا من مخافتكَ مَا يزيدُ على القتلِ، وجاؤوكَ طائعينَ، حتى إنَّكَ لا =

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/٥٦ منَ الطويل] :

لَقَدْ حَالَ بَيْنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ سَيْفُهُ　　فَمَا ٱلظَّنُّ بَعْدَ ٱلْجِنِّ بِٱلْعُرْبِ وَٱلْعُجْمِ

وَأَرْهَبَ حَتَّىٰ لَوْ تَأَمَّلَ دِرْعَهُ　　جَرَتْ جَزَعاً مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلاَ فَحْمِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/٣٦٢ منَ الوافر] :

وَلَٰكِنْ هَبَّ خَوْفُكَ فِيْ حَشَاهُمْ　　هُبُوْبَ ٱلرِّيْحِ فِيْ رِجْلِ ٱلْجَرَادِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/١٧٠ منَ البسيط] :

فَقَدْ تَرَكْتَ ٱلأُلَىٰ لاَقَيْتَهُمْ جَزَراً　　وَقَدْ قَتَلْتَ ٱلأُلَىٰ لَمْ تَلْقَهُمْ وَجَلاَ(١)

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/٢٥٧ منَ الوافر] :

إِذَا مَا لَمْ تُسِرْ جَيْشاً إِلَيْهِمْ　　أَسَرْتَ إِلَىٰ قُلُوْبِهِمُ ٱلْهُلُوْعَا

والقصيدةُ التي مُسْتَهَلُّهَا (أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الأَنَامِ هُمَامُ) تدورُ حولَ هٰذا المعنىٰ .

جبن الأخطل وقصته مع الجحاف

وذكرْتُ بهِ : أَنَّ الأخطلَ ٱستفزَّهُ القربُ مِنَ ٱلخليفةِ ، فقالَ للجَحّافِ وكانَ حاضراً [في « ديوانهِ » ٤٢٦ منَ الطويل] :

أَلاَ سَائِلِ ٱلْجَحَّافَ هَلْ هُوَ ثَائِرٌ　　بِقَتْلَىٰ أُصِيْبَتْ مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرِ ؟(٢)

فقالَ الجحّافُ [منَ الطويل] :

بَلَىٰ سَوْفَ نُبْكِيْهِمْ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ　　وَنُبْكِيْ عُمَيْراً بِٱلرِّمَاحِ ٱلشَّوَاجِرِ

= تحتاجُ في أسرهمْ إلىٰ السلاسلِ .

(١) الجَزَرُ : ما أُلقيَ للسباعِ ، ويقالُ : (ما كانوا إلاَّ جزراً لسيوفنا) أي: الذينَ نقتُلُهم فنلقيهِمْ للسباعِ .

(٢) الجَحّافُ : من السُّلَمِيِّيْنَ أعداءِ بني تغلبَ ، ولهُ يومُ البشرِ الذي أوقعَ بالتغلبيِّيْنَ شرَّ وقعَةٍ .

فأنخزلَ الأخطلُ ، وكأنَّما كانَ في نشوةٍ فأفاقَ ، وأخذتْهُ الحُمَّىٰ مِنَ الفرَقِ ، فقالَ له عبدُ الملكِ : ماذا عليكَ وأنتَ في جِوارِي؟ قالَ : هَبْكَ أجرتني في اليقظَةِ ، فمن يُجيرُني مِنهُ في المنام ؟ وكانَ عارفاً بشدَّةِ بأسهِ ، وأصابهُ قلَقٌ أقضَّ مضجعَهُ ، ونغَّصَ عيشَهُ ، حتَّىٰ أوقعَ الجَحَّافُ وقعتَهُ المشهورةَ بِبني تغلبَ رهطِ الأخطلِ ، فقالَ الأخطلُ [في « ديوانهِ » ٢٧٢ منَ الطويل] :

لَقَدْ أَوْقَعَ ٱلْجَحَّافُ بِٱلْبِشْرِ وَقْعَةً ... إِلَىٰ اللهِ مِنْهَا ٱلْمُشْتَكَىٰ وَٱلْمُعَوَّلُ[١]

لَئِـنْ لَـمْ تُغَيِّـرْهَـا قُـرَيـشٌ بِمِثْلِهَـا ... يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمَازٌ وَمَرْحَلُ[٢]

قالَ عبدُ الملكِ : إلىٰ أينَ إذنْ؟ قالَ الأخطلُ : إلى ٱلنَّارِ ، قالَ عبدُ الملكِ : أولىٰ لكَ ، أمَا وَاللهِ لَو قلتَ غيرهَا.. لم تطرِفْ عيناكَ[٣] .

إلى أين أبا ليلى؟

وقولُ ٱلأخطلِ إلىٰ ٱلنَّارِ عكسُ قولِ ٱلنَّابغةِ ٱلجعديِّ إلىٰ ٱلجنَّةِ ، حينَ قالَ [في « ديوانهِ » ٧١ منَ الطويل] :

بَلَغْنَا ٱلسَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُوْدُنَا ... وَإِنَّا لَنَبْغِيْ فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ : « إلىٰ أينَ يا أبا ليلىٰ ؟ » قالَ : إلىٰ الجنَّةِ ، قالَ لهُ النبيُّ [ﷺ] : « فَنَعَمْ إذاً »[٤] ، وهـٰذا مِنْ قصيدةٍ لَهُ

---

(١) المُعَوَّلُ : الاعتمادُ والمفزَعُ .

(٢) مُستَمازٌ : مِن (ماز) رَحَلَ وأنتقلَ مِنْ مكانٍ إلى آخرَ .

(٣) تنظر القصة في « الأغاني » (١٢/ ٢٤٠) .

(٤) أورد الخبر بنحوه عن النابغة الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ١٢٦) وقال: رواه البزار وفيه يعلىٰ بن الأشدق وهو ضعيف.
ولفظه عنده:
=

منقَّحةِ اللفظِ ، جزلةِ المعاني إلاَّ أنَّها تداخلَتْ معَ قصيدةٍ لزُفرَ بنِ الحارثِ في بحرِهَا وقافيتِهَا ، وأَوَّلُها [في « ديوانِ النابغةِ الجعدي » ٨٧ منَ الطويل] :

تَذَكَّرْتُ والذِّكْرَىٰ تُهَيِّجُ لِلْفَتَىٰ ... وَمِنْ عَادَةِ ٱلْمَحْزُوْنِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
وَإِنِّيْ لأَسْتَشْفِيْ بِرُؤْيَةِ جَارِهَا ... إِذَا مَـا تَلَقِّيْهَـا عَلَـيَّ تَعَـذَّرَا

مِنها :

حَسِبْنَا زَمَاناً كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً ... لَيَالِيَ إِذْ نَغْزُوْ جُذَاماً وَحِمْيَرَا
إِلَىٰ أَنْ لَقِيْنَا ٱلْحَيَّ بَكْرَ بْنَ وَائِلٍ ... ثَمَـانُـوْنَ أَلْفـاً دَارِعِيْـنَ وَحُسَّـرَا
فَلَمَّا قَرَعْنَا ٱلنَّبْعَ بِٱلنَّبْعِ بَعْضَهُ ... بِبَعْضٍ أَبَتْ عِيْدَانُهُ أَنْ تَكَسَّرَا
سَقَيْنَاهُمُ كَأْسَاً سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا ... وَلٰكِنَّنَا كُنَّا عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ أَصْبَرَا
بِنَفْسِـيْ بِـأَهْلِـيْ عُصْبَـةً سَلَمِيَّـةً ... يُعِدُّوْنَ لِلْهَيْجَا عَنَاجِيْجَ ضُمَّرَا[1]
وَنُنْكِـرُ يَـوْمَ ٱلـرَّوْعِ أَلْـوَانَ خَيْلِنَـا ... مِنَ ٱلطَّعْنِ حَتَّىٰ نَحْسَبُ ٱلْجَوْنَ أَشْقَرَا[2]
وَقَالُوْا لَنَا : أَحْيُوْا لَنَا مَنْ قَتَلْتُمُ ... لَقَدْ جِئْتُمُ أَمْراً مِنَ ٱلْقَوْلِ مُنْكَرَا
وَلَسْنَا نَرُدُّ ٱلرُّوْحَ فِي جِسْمِ مَيِّتٍ ... وَلَـٰكِنْ نَسُلُّ ٱلرُّوْحَ مِمَّنْ تَنَشَّرَا
مَلَكْنَا فَلَمْ نَكْشِفْ قِنَاعاً لِحُرَّةٍ ... وَلَمْ نَسْتَلِبْ إِلاَّ ٱلْحَدِيْدَ ٱلْمُسَمَّرَا
وَلَو أَنَّنَا شِئْنَا سِوَىٰ ذَاكَ أَصْبَحَتْ ... كَـرَائِمُهُـمْ فِيْنَـا تُبَـاعُ وَتُشْتَـرَىٰ

= علـونـا العبـاد عفـةً وتكـرمـا ... وإنا لنرجو فـوق ذلـك مظهـراً

(١) سلميَّةٌ : مِنْ بني سَلَمٍ . العناجيجُ ـ جمعُ عنجوجٍ ـ : وهو الرائعُ مِنَ الخيلِ . الخيل الضمَّر : التي ضُمِّرَ بطنها، وهي من أسرع أنواع الخيل .

(٢) الجونُ : الأَسودُ .

منهَا :

وَلاَ خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وَلاَ خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... حَلِيْمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ ٱلأَمْرَ أَصْدَرَا

أَتَيْنَا رَسُوْلَ ٱللهِ إِذْ جَاءَ بِٱلْهُدَىٰ ... وَيَتْلُـوْ كِتَـابـاً كَـٱلْمَجَـرَّةِ نَيِّـرَا

فيُروىٰ [في « مجمع الزوائد » ٨/١٢٦] : أَنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لهُ : « لاَ يَفْضُضِ ٱللهُ فَاكَ » . فعاشَ مئةً وستينَ سنةً ، لم يُثْغَرْ لهُ سِنٌّ[1] .

الجبن حتى في النوم

وما أَظنُّ أَشجعَ السلميَّ إلا ناظراً إلى ما جرىٰ للأَخطلِ مِنَ ٱلجَحَّافِ ، حيثُ يقولُ للرشيدِ مِنْ كلمةٍ لهُ خالصةٍ [في « ديوانه » ٢٥٣ منَ الكامل] :

وَعَلىٰ عَدُوِّكَ يَا ٱبْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ ... رَصْدَانِ ضَوْءُ ٱلصُّبْحِ وَٱلإِظْلاَمُ

فَـإِذَا تَنَبَّـهَ رُعْتَـهُ وَإِذَا غَفَـا ... سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوْفَكَ ٱلأَحْلاَمُ

المتنبي وهـٰذا المعنى

وَلَمْ ينسَ حظَّهُ الناظمُ مِنْ هـٰذا المعنىٰ إِلاَّ أَنَّهُ يغثُ تارةً كما في قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٦٤ منَ الوافر] :

يَرَىٰ فِي ٱلنَّوْمِ رُمْحَكَ فِيْ كُلاَهُ ... وَيَخْشَـىٰ أَنْ يَـرَاهُ فِـيْ ٱلسُّهَـادِ

ويجيدُ أُخرىٰ كما في قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٤٤ منَ البسيط] :

مَنْ لَوْ رَآنِيَ مَاءً مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ ... وَلَوْ مَثَلْتُ لَهُ فِي ٱلنَّوْمِ لَمْ يَنَمِ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٤٥ منَ الوافر] :

إِذَا ٱمْتَلأَتْ عُيُوْنُ ٱلْخَيْلِ مِنِّيْ ... فَـوَيْـلٌ فِـي ٱلتَّيَقُّـظِ وَٱلْمَنَـامِ

---

(١) لَمْ يُثْغَرْ : لَمْ يُكسرْ ، أو لم يسقط .

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٢٩ منَ البسيط] :

يُقَاتِلُ ٱلْخَطْوَ عَنْهُ حِيْنَ يَطْلُبُهُ ... وَيَطْرُدُ ٱلنَّوْمَ عَنْهُ حِيْنَ يَضْطَجِعُ

وقولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٨٣ منَ البسيط] :

وَكُلَّمَا حَلَمَتْ عَذْرَاءُ عِنْدَهُمْ ... فَإِنَّمَا حَلَمَتْ بِٱلسَّبْيِ وَٱلْجَمَلِ (١)

وقالَ السريُّ الرَّفَّاءُ [في « ديوانه » ٢٤٥ منَ البسيط] :

تَرُوْعُ أَحْشَاؤُهُ بِٱلْكُتْبِ وَهْوَ لَهَا ... خَوْفَ ٱلرَّدَىٰ وَرَجَاءَ ٱلسِّلْمِ يَسْتَلِمُ

لاَ يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ إِلاَّ غَصَّ مِنْ حَذَرٍ ... وَلاَ يُهَوِّمُ إِلاَّ رَاعَهُ ٱلْحُلُمُ

المعري في الموضوع

وأَلَمَّ بهِ شاعرُ المعرَّةِ إلاَّ أنَّهُ غيَّرَ الموضوعَ، فقالَ [في « سقط الزند » ١١١ منَ البسيط] :

وَأَنْتَ مَنْ لَوْ رَأَىٰ ٱلإِنْسَانُ طَلْعَتَهُ ... فِيْ ٱلنَّوْمِ لَمْ يُمْسِ مِنْ خَطْبٍ عَلَىٰ خَطَرِ

ابو الهيذام ورثاؤه لأخيه

وقتلَ الرشيدُ أخاً لأَبي الهيذامِ ، فجاءَ في رثيهِ بما يشبهُ قولَ الجحّافِ إذْ يقولُ [منَ الطويل] :

سَأَبْكِيْكَ بِٱلْبِيْضِ ٱلرِّقَاقِ وَبِٱلْقَنَا ... فَإِنَّ بِهَا مَا يَطْلُبُ ٱلْمَاجِدُ ٱلْوَتْرَا

وَلَسْتُ كَمَنْ يَبْكِيْ أَخَاهُ بِعَبْرَةٍ ... يُعَصِّرُهَا فِيْ جَفْنِ مُقْلَتِهِ عَصْرَا

وَإِنَّا أُنَاسٌ مَا تَفِيْضُ عُيُوْنُنَا ... عَلَىٰ هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قَصَمَ ٱلظَّهْرَا

وَلَكِنَّنَا نَشْفِيْ ٱلْفُؤَادَ بِغَارَةٍ ... تَلَهَّبُ مِنْ قُطْرَيْ جَوَانِبِهَا جَمْرَا

عبد الله بن أبي ربيعة ورثاؤه لعثمان بن عفان رضي الله عنه

وقبلَ ذلكَ يقولُ عبدُ اللهِ ٱبنُ أَبي ربيعةَ أخو عيَّاشٍ عندما بلغَهُ مقتلُ عثمانَ [ابن عفان رضي الله عنه منَ الطويل] :

سَأَبْكِيْ أَبَا عَمْرٍو بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ... وَبِيْضٍ [لها فِيْ ٱلدَّارِعِيْنَ فُلُوْلُ]

---

(١) ذكرَ الجملَ مع السبي ؛ لأنَ العربَ تحمِلُ السبايا على الجمالِ .

ثُمَّ لَمْ يزدْ علىٰ أَنْ خرجَ بمَنْ معهُ فلمَّا قربَ مِنْ (مكَّةَ) . . سقطَ عَنْ راحلتِهِ وماتَ .

عبد الملك بن مروان ينهى ولده عن البكاء

وممّا قالهُ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ ـ عندَ موتهِ ـ للوليدِ ، وقد رآهُ يبكي عندَ رأسِهِ ، يشجّعهُ ، وينهاهُ عَنِ ٱلبكاءِ ، وحنينِ النساءِ لنفسهِ أَو متمثِّلاً [منَ الطويل] :

بَنُوْ ٱلْحَرْبِ لاَ نُعْنَىٰ بِشَيْءٍ نُرِيْدُهُ وَلَسْنَا عَلَىٰ مَا أَحْدَثَ ٱلدَّهْرُ نَجْزَعُ
جِلاَدٌ عَلَىٰ رَيْبِ ٱلزَّمَانِ فَلَنْ تَرَىٰ عَلَىٰ هَالِكٍ عَيْناً لَنَا ٱلدَّهْرَ تَدْمَعُ

هيبة سيدنا ابن عباس من سيدنا عمر رضي الله عنهم

وكانَ ٱبنُ الخطَّابِ عظيمَ الهيبةِ ، ولهـٰذا لم يقدرِ ٱبنُ عباسٍ علىٰ إظهارِ قولِهِ في العَولِ حتَّىٰ ماتَ ، فقيلَ لَهُ : هلاَّ قلْتَ هـٰذا في حياةِ عمرَ؟! قالَ : (هِبْتُهُ ، وكانَ ٱمْرأً مَهيباً)[1] .

من هيبة سيدنا عمر رضي الله عنه تضع المرأة حملها

ويُروىٰ : أَنَّهُ ٱستدعىٰ ٱمرأةً ليسأَلَهَا عَنْ أَمرٍ ، وكانَتْ حاملاً ، فلشدَّةِ هيبتِهِ أَلقتْ ما في بطنِهَا ميْتاً ، فٱستفتىٰ أَكابرَ الصحابةِ ، فقالوا : لا شيءَ عليكَ ، قالَ لَهُ عليٌّ : إِنْ كانوا راقبوكَ فقد غشُّوكَ ، وإِنْ كانَ هـٰذا جُهْدَ رأْيِهِم فقد أَخطؤوا ، عليكَ غُرَّةٌ[2] ، فرجعَ عمرُ والصحابةُ إِلىٰ قولِهِ[3] .

نهيه النساء عن رفع الصوت

ومِنْ ذلكَ سكوتُ النساءِ لمّا دخلَ ، وأَصواتُهُنَّ عاليةٌ عندَ

---

(١) أخرجه عن زفر ، البيهقيُّ في « الكبرىٰ » (٦/ ٢٥٣)، وابن حزم في «المحلى» (٩/ ٤٦٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٢٥٤ و٢٥٨) والعول: زيادة في سهام المسألة ونقص في مقاديرها .

(٢) الغُرَّةُ : ديةُ الجنينِ ؛ وهي عبدٌ أو أمةٌ ، وتقدَّرُ بنصفِ عشرِ الديةِ الكاملةِ ، والديةُ الكاملةُ: مئةٌ مِنَ الإبلِ .

(٣) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (٦/ ١٢٣) .

رسولِ اللهِ ﷺ ، فقالَ لَهُنَّ : (يا عدوَّاتِ أنفسهِنَّ ، أتَهَبْنَنِي ، ولاَ تَهَبْنَ رسولَ اللهِ؟ قلْنَ : أَنتَ أفظُّ وأَغلظُ)[1] .

الاستهزاء بالجبان عندما يهدد

وفي عكسِ معنىٰ البيتِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، يقولُ جريرٌ [في « ديوانهِ » ٩١٦ منَ الكامل] :

زَعَمَ ٱلْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مَرْبَعاً أَبْشِرْ بِطُوْلِ سَلاَمَةٍ يَا مَرْبَعُ[2]

وقالَ غيرهُ [منَ الوافر] :

تَـوَعَّـدَنِـي لِتَقْتُلَنِـي نُمَيْـرٌ مَتَىٰ قَتَلَتْ نُمَيْرٌ مَنْ هَجَاهَا ؟

وقالَ [منَ البسيط] :

قَدْ هَبَّتِ ٱلرِّيْحُ طُوْلَ ٱلدَّهْرِ وٱخْتَلَفَتْ عَلَىٰ ٱلْجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رَوَاسِيْهَا

وقالَ ٱبنُ أَبي عيينةَ [منَ الكامل] :

فَدَعِ ٱلْوَعِيْدَ فَمَا وَعِيْدُكَ ضَائِرِيْ أَطَنِيْنُ أَجْنِحَةِ ٱلذُّبَابِ يَضِيْرُ ؟

شجاعة بني عبد المطلب

وكتبَ معاويةُ إلى عليٍّ يتهدَّدُهُ ، فأجابَهُ بما معناهُ ـ إنْ أخطأَتُ لفظَهُ ـ [في « نهج البلاغة » ٣٣٣] : وذكرْتَ أنَّهُ ليسَ لِيْ ولأَصحابي عندَكَ إلاَّ السيفُ ، فلقد أضحكْتَ بعدَ ٱستعبارٍ[3] ، متىٰ ألفيْتَ بني عبدِ المطلبِ عَنِ ٱلهيجاءِ ناكلينَ ، وبالسيوفِ مخوَّفينَ ، لَبِّثْ قليلاً يلحقِ

---

(١) أخرجه عن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه البخاري (٣٢٩٤) في بدء الخلق .

(٢) مَربعُ : لقبُ راويةِ جريرٍ المسمَّىٰ (وَعْوَعَةَ) ، وهو مِنْ بني أَبي بكرِ بنِ كلابٍ ، وكانَ نفَّرَ بأَبي الفرزدقِ وضربَهُ ، فيقالُ : إنَّهُ ماتَ في تلكَ العِلَّةِ ، فحلفَ الفرزدقُ ليقتلَنَّهُ .

(٣) الاستعبارُ: البكاءُ.

ٱلهيجا حَمَلٌ(١) ، وأنا مُرْقِلٌ(٢) نحوَكَ في جحفلٍ مِنَ ٱلمهاجرينَ والأنصارِ ، قد صَحِبَتْهُم ذريَّةٌ بدريَّةٌ ، وسيوفٌ هاشميَّةٌ ، عَرَفَتْ مواقعَ نصالِهَا في أَخيْكَ وخالِكَ وجدِّكَ ، وما هِيَ مِنَ ٱلظالمينَ ببعيدٍ .

قصة امرىء القيس مع قتلة أبيه

ولمَّا أكثرَ ٱمرؤُ القيسِ الوعيدَ في قتلِ أَبيهِ . . قَدِمَ عليهِ قبيصةُ بنُ نعيمٍ في أَشياخِ بني أَسدٍ ، يراجعونَهُ في خطبِ أَبيهِ ، فقالَ قبيصةُ [في «جمهرة خطب العرب» ١/٣٦ و«الأغاني» ٩/١٢٤] :

أَمَّا بعدُ : فإِنَّكَ مِنَ ٱلمحلِّ والقدرِ والمعرفةِ بتصاريفِ الدهرِ بحيثُ لا تَحتاجُ إِلىٰ تذكيرِ مذكِّرٍ ، ولا تبصيرِ مجرِّبٍ ، ولكَ مِنْ سؤْددِ منصبِكَ وشرفِ أَعراقِكَ وَكرمِ أَصلِكَ . . مَحْتِدٌ(٣) يَحمِلُ علىٰ إِقالةِ العثرةِ ، وٱغتفارِ الزلَّةِ ، وإِنَّ الهِمَمَ لا تتجاوزُ إِلىٰ غايةٍ إِلاَّ رجعَتْ إِليكَ ، فوجدَتْ عندكَ مِنْ فضيلةِ الرأيِ ، وبصيرةِ الفهمِ ، وكرمِ الصفحِ ، ما يُطوِّلُ رغباتِهَا ، وقد كانَ ما كانَ مِنَ ٱلخطبِ الجليلِ ، الذي عمَّتْ مصيبتُهُ العربَ ، ولَمْ تُخَصَّ بهِ (كندةُ) دونَنا ؛ للشرفِ البارعِ كانَ لحجرٍ ، ولو يُفدىٰ هالكٌ بنفسٍ . . لَمَا بَخِلَتْ بِها كرائِمُنا علىٰ مثلِهِ ، ولـٰكنْ مضىٰ بهِ سبيلٌ لا يرجعُ آخرُهُ علىٰ أَوَّلِهِ ، وَأَحمدُ الحالاتِ أَنْ تطلبَنَا في إِحدىٰ ثلاثِ خِلالٍ :

إِمَّا : أَنْ تختارَ مِنْ بني أَسدٍ أَشرفَها بيتاً ، وأَبعدَها صِيْتاً ، فَقُدْناهُ

---

(١) لَبِّثْ قليلاً يلحق الهيجا حمل : مثلٌ عربي ؛ يعني : انتظر حتى يتلاحق الشبان ، والهيجاء : الحرب ، وحمل : قال في «التاج» : هو ابن سعدانة الصحابي ، وفي «المحكم» : هو ابن بدر . قلت : وفيه نظر . اهـ كلام الزبيدي رحمه الله .

(٢) مُرْقِلٌ ، يقال : أَرقَلَ القومُ إِلىٰ الحربِ أَسرعوا .

(٣) المحتدُ : الأَصلُ وٱلطبعُ .

إليكَ بِنِسْعَةٍ[1] ، يذهبُ معَ شَفَراتِ حسامِكَ ، ونقولُ : عظيمٌ ٱمتُحِنَ بمَهْلِكِ عزيزٍ لَهُ ، فلَمْ تُسْتَلَّ سخيمةُ صدرِهِ إلاَّ بمكنتِهِ مِنَ ٱلانتقامِ .

وإمَّا : فداءٌ بما يَروحُ علىٰ بني أَسَدٍ مِنْ نَعَمِها ، فهي أُلوفٌ تكونُ فداءً ، رُجِعَتْ بهِ ٱلقضبُ إلىٰ أجفانِها .

وإمَّا : أَنْ توادِعَنا إلىٰ أَنْ تَضعَ الحواملُ ، وتُسْدَلَ الأُزُرُ ، وتُعقَدَ الخُمُرُ فوقَ الراياتِ .

فما كانَ مِنِ ٱمْرِىءِ القيسِ إلاَّ أَنْ أَطرقَ ساعةً ثُمَّ رفعَ رأسَهُ ، وقالَ : لقد علمَتِ ٱلعربُ أَنْ لا كفؤَ لحُجرٍ بدمٍ ، وأَنِّي لَنْ أَعتاضَ بهِ جملاً ، ولا ناقةً ، فأَكتسبَ بهِ سبَّ الأَبَدِ ، وفتَّ العَضُدِ . وأَمَّا النظرةُ : فقد أَوجبَتْهَا الأَجنَّةُ في بطونِ الأُمَّهاتِ ، ولَنْ أَكونَ سبباً لِعَطَبِها ، وستعرفونَ طلائعَ (كندةَ) بعدَ ذلكَ ، تحملُ في القلوبِ حَنَقاً[2] ، وفي الأَسنَّةِ عَلَقاً [منَ المتقاربِ] :

إِذَا جَالَتِ ٱلْحَرْبُ فِي مَأْزِقٍ   تُصَافِحُ فِيْهِ ٱلْمَنَايَا ٱلنُّفُوْسَا

أَتقيمونَ أَم تنصرفونَ؟ قالوا : بل ننصرفُ بأَسوإِ الاختيارِ ، وأَبلىٰ الاجترارِ بمكروهٍ وأَذيَّةٍ ، وحربٍ وبليَّةٍ ، وقالَ قبيصةُ يتمثَّلُ [منَ الطويل] :

لَعَلَّكَ إِنْ تَسْتَوْخِمِ ٱلوِرْدَ إِنْ عَدَتْ   كَتَائِبُنَا فِي مَأْزِقِ ٱلْحَرْبِ تَمْطُرُ

فقالَ ٱمرؤُ القيسِ : لاَ واللهِ ، ولٰكنْ أَستعذبُهُ ، فرويداً ينفرجُ لَكَ دُجَاهَا عَنْ فرسانِ (كندةَ) وكتائبِ (حِمْيَرَ) ، ولقد كانَ غيرُ

---

(١) النِّسْعُ : حبلٌ يُضفَرُ على هيئةِ أَعِنَّةِ النعالِ تُشَدُّ بهِ الرحالُ .
(٢) الحَنَقُ : شدَّةُ الاغتياظِ .

هٰذا أَولىٰ بي ؛ إِذْ كنْتُ نازلاً بربعي ، ولٰكنَّكَ قُلتَ فأَوجبتَ) .

تعليق المؤلف على القصة

وفي هٰذا الكلامِ مِنَ ٱلجزالةِ والعذوبةِ ما يأْخذُ بمجامعِ القلوبِ إِلىٰ مَا يُشَفُّ عنهُ مِنَ ٱلسؤددِ الضخمِ ، والكرمِ الخالصِ ، والشمائلِ الراقيةِ ، والهممِ العاليةِ ، والنفوسِ القويَّةِ ، وٱحترامِ الأَرواحِ البريئةِ ، وغيرِ ذلكَ ، ومِنَ ٱلأعاجيبِ قولُ الشارحِ : إِنَّ البيتَ الذي نحنُ بسبيلِهِ شبيهٌ بقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٣٥ منَ الكامل] :

تعليق المؤلف على العكبري في شرح المطلع

أَبْدَىٰ ٱلْعِدَاةُ بِكَ ٱلسُّرُوْرَ كَأَنَّهُمْ ... فَرِحُوْا وَعِنْدَهُمُ ٱلْمُقِيْمُ ٱلْمُقْعِدُ

وما هو في شيءٍ مِنْ ذاكَ ؛ لأَنَّهُ لا يكونُ كذاكَ إِلاَّ لو أَرادَ المقيمَ المقعِدَ مِنَ ٱلخوفِ ، وإِنَّما أَرادَ المقيمَ المقعِدَ مِنَ ٱلحزنِ ؛ كما تشهدُ بهِ فحوىٰ الطباقِ ، فهو مِنْ جنسِ قولِ سويدِ بنِ أَبي كاهلٍ [منَ الرَّمَل] :

وَيُحَيِّيْنِـــي إِذَا لاَقَيْتُــــهُ ... وَإِذَا يَخْلُـوْ لَـهُ لَحْمِـيْ رَتَـعْ

وقولِ سَدِيْفٍ [منَ الخفيف] :

ذُلُّهَـا أَظْهَـرَ ٱلتَّـوَدُّدَ مِنْهَـا ... وَبِهَـا مِنْكُـمْ كَحَـزِّ ٱلْمَـوَاسِـيْ

وقولِ المعرِّيِّ [في « سقط الزند » ٢٣٤ منَ الوافر] :

وَيُظْهِـرُ لِـيْ مَـوَدَّتَـهُ مَقَـالاً ... وَيُبْغِضُنِـيْ ضَمِيْـراً وَٱعْتِقَـادَا

وقولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٦٣-٣٦٤ منَ الوافر] :

فَـلاَ تَغْـرُرْكَ أَلْسِنَـةٌ مَـوَالٍ ... تُقَلِّبُهُـــنَّ أَفْئِـــدَةٌ أَعَــادِيْ
فَـإِنَّ ٱلْمَـاءَ يَجْـرِيْ مِـنْ جَمَـادٍ ... وَإِنَّ ٱلنَّـارَ تَخْـرُجُ مِـنْ زِنَـادِ

* * *

[قال أبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣١٠ منَ المنسرح]:

قَدْ أَجْمَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلْخَلِيْقَةُ لِيْ ... أَنَّكَ يَا ٱبْنَ ٱلنَّبِيِّ أَوْحَدُهَا
وَأَنَّكَ بِٱلأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَلِماً ... شَيْخَ مَعَدٍّ وَأَنْتَ أَمْرَدُهَا

ادعاء التفرد للممدوح عند المتنبي

أمّا البيتُ الأوَّلُ : فقلَّما تجدُ شاعراً إلاَّ يدَّعي لممدوحِهِ التفرُّدَ ، ومنهُ قولُهُ لشجاعِ بنِ محمَّد الطائيِّ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٣٦ منَ الكامل] :

كُنْ حَيْثُ شِئْتَ تَسِرْ إِلَيْكَ رِكَابُنَا ... فَٱلأَرْضُ وَاحِدَةٌ وَأَنْتَ ٱلأَوْحَدُ

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٨٤ منَ الطويل] :

إِلَىٰ وَاحِدِ ٱلدُّنْيَا إِلَىٰ ٱبْنِ مُحَمَّدٍ ... شُجَاعِ ٱلَّذِيْ للهِ ثُمَّ لَهُ ٱلْفَضْلُ

وقولُهُ لبدرِ بنِ عمَّارٍ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٧٢ منَ المتقارب] :

فَأَنْتَ وَحِيْدُ بَنِيْ آدَمٍ ... وَلَسْتَ لِفَقْدِ نَظِيْرٍ وَحِيْدَا

وقولُهُ لعُبيدِ اللهِ بنِ يحيىٰ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٧٩ منَ البسيط] :

فَكُنْ كَمَا أَنْتَ يَا مَنْ لاَ شَبِيْهَ لَهُ ... فَكَيْفَ شِئْتَ فَمَا خَلْقٌ يُدَانِيْكَا

وقولُهُ لابنِ العميدِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٥١ منَ الخفيف] :

جَمَعَ ٱلدَّهْرُ حَدَّهُ وَيَدَيْهِ ... وَثَنَائِيْ فَٱسْتَجْمَعَتْ آحَادُهْ

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٦٧ منَ الكامل] :

أَنْتَ ٱلْوَحِيْدُ إِذَا ٱرْتَكَبْتَ طَرِيْقَةً ... وَمَنِ ٱلرَّدِيْفُ إِذَا رَكِبْتَ غَضَنْفَرَا ؟

وقولُهُ لكافورٍ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/٢٤٦ منَ الطويل] :

قَضَىٰ اللهُ يَا كَافُوْرُ أَنَّكَ أَوَّلٌ   وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يُرَىٰ لَكَ ثَانِيْ

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/٢٧ منَ الطويل] :

وَمَا زَالَ أَهْلُ ٱلدَّهْرِ يَشْتَبِهُوْنَ لِيْ   إِلَيْكَ فَلَمَّا لُحتَ لِيْ لاَحَ فَرْدُهُ

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/١٩٩ منَ الطويل] :

جَرَىٰ ٱلْخُلْفُ إِلاَّ فِيْكَ أَنَّكَ وَاحِدٌ   وَأَنَّــكَ لَيْـثٌ وَٱلْمُلُــوْكَ ذِئَــابُ

وقولُهُ لابنِ كيغلغ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/١٢١-١٢٢ منَ البسيط] :

مَنْ قَالَ لَسْتَ بِخَيْرِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ   فَجَهْلُهُ بِكَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ عَاذِرُهُ[1]

أَوْ شَكَّ أَنَّكَ فَرْدٌ فِيْ زِمَانِهِمُ   بِلاَ نَظِيْرٍ فَفِيْ رُوْحِيْ أُخَاطِرُهُ

وقولُهُ في عضدِ الدولةِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/٢٥٦ منَ الوافر] :

فَـإِنَّ ٱلنَّـاسَ وَٱلـدُّنْيَـا طَـرِيْـقٌ   إِلَىٰ مَنْ مَا لَهُ فِيْ ٱلنَّاسِ ثَانِيْ

وقولُهُ فِيْ يومِ الأَضحىٰ لسيفِ الدولةِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/٢٨٦ منَ الطويل] :

فَذَا ٱلْيَوْمُ فِيْ ٱلأَيَّامِ مِثْلُكَ فِيْ ٱلْوَرَىٰ   كَمَا كُنْتَ فِيْهِمْ أَوْحَداً كَانَ أَوْحَدَا

وقولُهُ لَهُ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/١١ منَ الكامل] :

وَإِذَا ٱمْتَحَنْتَ تَكَشَّفَتْ عَزَمَاتُهُ   عَنْ أَوْحَدِيِّ ٱلنَّقْضِ وَٱلإِبْرَامِ

وقولُهُ لَهُ في رثاءِ ولدِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/٥٠ منَ الطَّويلِ] :

وَيَلْقَىٰ كَمَا تَلْقَىٰ مِنَ ٱلسِّلْمِ وَٱلْوَغَىٰ   وَيُمْسِيْ كَمَا تُمْسِيْ وَحِيْداً بَلا مِثْلِ

---

(١) في المخطوط : غَادِرُهُ .

وقولُهُ في بستانٍ لبعضِهِم [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١١ مِنْ مَجزوءِ ٱلكاملِ] :

وَإِذَا رَجَعْـتَ إِلَـىٰ ٱلحَقَـا ... ئِـقِ فَهْـيَ وَاحِـدَةٌ لأَوْحَـدْ

وقولُهُ في فرسِ بدرِ بنِ عمَّارٍ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٤١ مِنَ ٱلكاملِ] :

فِيْ سَرْجِ ظَامِئَةِ ٱلْفُصُوْصِ طِمِرَّةٍ ... يَـأْبَىٰ تَفَـرُّدُهَـا لَهَـا ٱلتَّمْثِيْـلاَ[1]

شدة انتقاد المؤلف علىٰ المتنبي: إسرافه في المدح

في كثيرٍ مِنْ أَمثالِهِ ، فكأَنَّما التفرُّدُ حِلْيَةٌ بيدِهِ ، يقلِّدُها جِيْدَ كُلِّ مَنْ يُنيطُ بِهِ أَملَهُ ، ويُعلِّقُ فيهِ رجاءَهُ ، وما ذاكَ إِلاَّ لأَنَّهُ يَكيلُ المدحَ جُزَافاً ، ويُسرفُ فيهِ إِسرافاً ، ولولا ذلكَ . . لَمَا ٱحتاجَ إِلىٰ مثلِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢١٣ مِنَ البسيط] :

مَدَحْتُ قَوْماً وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ ... قَصَائِداً مِنْ إِنَاثِ ٱلْخَيْلِ وَٱلْحُصُنِ

ولو أَنَّهُ ٱستثنىٰ في بعضِ القولِ أَو علَّقَ . . لانْحَفَظَ لَهُ خطُّ الرجعةِ ، ولٰكنَّهُ قطعَهُ علىٰ نفسِهِ ، فقد هجا كافورَ بعدَ قولِهِ لَهُ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢٠٠ مِنَ الطويل] :

وَإِنَّ مَدِيْحَ ٱلنَّاسِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ ... وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيْسَ فِيْهِ كِذَابُ

ثناء سيدنا عمر رضي الله عنه علىٰ ابن أبي سلمى

وقد أَثنىٰ ٱبنُ الخطَّابِ علىٰ زهيرِ ٱبنِ أَبي سُلمىٰ ، بأَنَّهُ لا يُعاظِلُ[2] الكلامَ ، ولا يمدحُ أَحداً إِلاَّ بما فيهِ علىٰ حدِّ ما يُروىٰ مِنْ قولِهِ [مِنَ البسيط] :

---

(١) الطِّمِرَّةُ : الفرسُ الوثَّابةُ ، وقيلَ : المرتفعةُ، وظامِئَةُ الفصوصِ : عطاشٌ ، ليست برهلةٍ رخوةٍ ، وكذا خيولُ العربِ .

(٢) يُعَاظِلُ ، العِظَالُ في القوافي : التضمينُ . ورُوِيَ عَنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ : أَنَّهُ قالَ لقومٍ مِنَ العربِ : (أَشعرُ شعرائِكُمْ مَنْ لم يُعَاظِلِ الكلامَ) أَي : لَمْ يحملْ بعضَهُ علىٰ بعضٍ ، ولَمْ يتكلَّمْ بالرجيعِ مِنَ القولِ ، ولَمْ يكرِّرِ اللفظَ والمعنىٰ .

وَإِنَّ أَحْسَـنَ بَيْـتٍ أَنْـتَ قَـائِلُـهُ   بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

إن من البيان لسحراً

ومِنْ هنا قضي لَهُ بالتفضيلِ علىٰ الشعراءِ أَجمعَ ، وما أَحسنَ ما تخلَّصَ بهِ عمرُو بنُ الأَهتمِ ، وقد رأَىٰ النبيَّ ﷺ يشمئِزُّ مِنْ تناقضِ قولِهِ في الزبرقانِ بنِ بدرٍ ؛ إِذْ مدحَهُ بادئاً ، ثُمَّ ذمَّهُ ثانياً ، فإِنَّهُ قالَ : لقد صدقْتُ في ٱلأُولىٰ ، ولم أَكذبْ في ٱلثّانيةِ ، ولـٰكنَّا قومٌ إِذَا رضيْنَا . . ذكرنا أَحسنَ مَا نجدُ ، وإِذا غضبْنَا . . جئْنَا بأَقبحِ ما نعلمُ ، فقالَ ﷺ : « إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْراً »[1] ، أَو ما هـٰذا معناهُ ، أَو ما يقربُ منهُ ، ومَنْ لا حرجَ لهُ مِنَ ٱلدِّينِ ، ولا زِمامَ عندهُ مِنَ ٱلمروءةِ ، ولا رقيبَ عليهِ مِنَ ٱلضميرِ ، وكانَ ٱلحاملُ لَهُ علىٰ ٱلمدحِ مجرَّدَ ٱلطَّمعِ ، أَو ٱلملقِ . . فلَنْ يكونَ ما يأْتي بهِ إِلاَّ كَذِباً صريحاً ، وغلوّاً قبيحاً ؛ ولهـٰذا قالَ ٱبنُ عبدِ ٱلسَّلامِ في « قواعدِهِ »[2] ، كما نقلَهُ ٱبنُ

سبب الكذب في المديح

---

(١) أخرجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما البخاري (٥١٤٦) في النكاح ، والقصة كما في «جمهرة خطب العرب» (١/ ١٦٥):
أن رسول الله ﷺ سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدرٍ، فقال عمرو: مطاعٌ في أذينة، شديد العارضة، مانعٌ لما وراء ظهره.
فقال الزبرقان: والله يا رسول الله . . . إنه ليعلم مني أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي.
فقال عمرو: أما والله لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر، زمن المروءة، أحمق الوالد، لئيم الخال، حديث الغنىٰ.
فلما رأى أنه خالف قولُهُ الآخر قولَهُ الأوّلَ، ورأى الإنكار في عيني رسول الله ﷺ.. قال: يا رسول الله.. رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «إن من البيان لسحراً» .
(٢) وتمام اسمه: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام».

حجرٍ في « تحفتِهِ » : لا تكادُ تجدُ مدَّاحاً إلاَّ رَذْلاً ، ولا هجَّاءَ إلاَّ نَذْلاً .

المؤلف وهذا الزمان

وأَكبرُ مِنْ ذلكَ ما ٱبْتُلِيَ بهِ ذُنَابَىٰ[1] ٱلبلادِ مِنْ إهانةِ ٱلأَدبِ ، وبذلِ ٱلمديحِ لِمَن لا يستحقُّهُ ، وكثيراً ما يعتقدُ ٱلمادحُ عكسَ ما يقولُ ، فتراهُ يمدحُ بلسانِهِ مَنْ يذمُّهُ بقلبِهِ ، ويتلوَّنُ أَلواناً ، ويتَّخذُ لكلِّ حالةٍ وجهاً ولساناً [منَ الطويل] :

وَأَقْتَلُ شَيْءٍ رُؤْيَةُ ٱلْعَيْنِ ظَالِماً   يُسِيْءُ وَيُتْلَىٰ فِيْ ٱلْمَحَافِلِ حَمْدُهُ

إعجابه بأشراف النفوس

وإِنَّهُ ليعجبني ترفُّعُ ٱبنِ أَبي ربيعةَ وجميلٍ والفرزدقِ وأَضرابِهِم مِنْ أَشرافِ النفوسِ .

شرف الفرزدق

قالَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ : ما رأَيْتُ أَشرفَ نفساً مِنَ ٱلفرزدقِ ، مدحني سُوْقةً ، وهجاني مَلِكاً .

تلون المتنبي

وإِنَّ المتنبِّي علىٰ ما عندَهُ مِنَ البأْوِ[2] وَالزُّهوِّ ، ومعَ قولِهِ [في «العُكبريِّ» ٢/ ١٤٩ منَ الطويل] :

إِذَا ٱلْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ   عَلَىٰ هِبةٍ فَٱلْفَضْلُ فِيْمَنْ لَهُ ٱلشُّكْرُ

ابو تمام يمدح ابن الزيات فيرد مديحه عليه

. . لكثيراً ما يَخضعُ في القولِ ، ويُلَيِّنُ الجانبَ ، ويُسِفُّ[3] إلىٰ الأَرضِ ، وما ذلكَ مِنْ تناقضهِ بغريبٍ ، وما كانَ أَحقَّهُ في بعضِ

---

(١) الذُّنَابَىٰ : الأَتباعُ .

(٢) البَأْو : العظمةُ والكِبْرُ والفخرُ .

(٣) أَسَفَّ الطائرُ والسحابةُ وغيرُهما : دنا مِنَ الأرضِ . والطائرُ يُسِفُّ : إذا طار على وجهِ الأرضِ .

أَطوارِهِ بما فعلَ ٱبنُ الزيَّاتِ[1] معَ حبيبٍ [أبي تمام] ، (فقد ٱمتدحهُ بقصيدةٍ سائرةٍ بعقبِ ما ٱمتدحَ بعضَ السقَّاطِ ، فوقَّعَ ٱبنُ الزيَّاتِ علىٰ ظهرِ قصيدةِ حبيبٍ لَهُ بهـٰذا [منَ الطويل] :

رَأَيْتُكَ سَمْحَ ٱلْبَيْعِ سَهْلاً وَإِنَّمَا ... يُغَالِيْ إِذَا مَا ضَنَّ بِٱلشَّيْءِ صَاحِبُهْ
فَـأَمَّـا إِذَا هَـانَـتْ بَضَـائِـعُ بَيْعِـهِ ... فَيُوْشِكُ أَنْ تَبْقَىٰ عَلَيْهِ بَضَائِعُهْ
هُوَ ٱلْمَاءُ إِنْ أَجْمَمْتَهُ طَابَ وِرْدُهُ ... وَيَفْسُدُ مِنْهُ أَنْ تُبَاحَ مَشَارِعُهْ[2]

ويقالُ [في « الأغاني » ٢٣/ ٤٦٢] : إِنَّ أَبَا تمَّامٍ أَجابَهُ عَنْ ذلكَ بقصيدةٍ يحتجُّ بها عليهِ ، ويعتذرُ مِنْ مدحِ غيرهِ إِليهِ[3] ، منها [في « ديوانه » ١/ ١٦٤ـ١٦٥ منَ البسيط] :

أَمَّا ٱلْقَوافِيْ فَقَدْ حَصَّنْتُ غُرَّتَهَا ... فَمَا يُصَابُ دَمٌ مِنهَا وَلاَ سَلَبُ
مَنَعْـتُ إِلاَّ مِـنَ ٱلأَكْفَـاءِ أَيِّمَهَـا ... إِذْ كَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا ٱلْعَطْفُ وَٱلْحَدَبُ[4]

---

(١) ابنُ الزيَّات : هوَ محمدُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ أَبَانَ ، وزيرُ المعتصمِ والواثقِ ، قويٌّ ، حازمٌ داهيةٌ .
(٢) أورد الأصبهاني القصة في « الأغاني » (٢٣/ ٦٢) .
(٣) ولكنَّ الأَبياتَ التي قالَها أَبو تمَّامٍ لابنِ الزيَّاتِ هيَ كما في « الأغاني » (٢٣/ ٦٢) :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ شَاعِراً ... أُسَامِحُ فِيْ بَيْعِيْ لَهُ مَنْ أُبَايِعُهْ
فَقَدْ كُنْتَ قَبْلِيْ شَاعِراً تَاجِراً بِهِ ... تُسَاهِلُ مَنْ عَادَتْ عَلَيْكَ مَنَافِعُهْ
فَصِـرْتَ وَزِيْـراً وَٱلْـوَزَارَةُ مَكْـرَعٌ ... يَغَـصُّ بِـهِ بَعْـدَ ٱللَّـذَاذَةِ كَـارِعُـهْ
وَكَـمْ مِـنْ وَزِيْـرٍ قَـدْ رَأَيْنَـا مُسَلَّطـاً ... فَعَـادَ وَقَـدْ سُـدَّتْ عَلَيْـهِ مَطَـالِعُـهْ
وَللهِ قَـوْسٌ لاَ تَطِيْـشُ سِهَـامُهَـا ... وَللهِ سَيْـفٌ لاَ تُفَـلُّ مَقَـاطِعُـهْ

(٤) الأَيِّمُ : التي لا زوجَ لها . الحَدَبُ : الإِشفاقُ .

وَلَوْ عَضَلْتُ وَلَمْ أُنْكِحْ عَقَائِلَهَا ... وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِيْ أَطْهَارِهَا أَرَبُ[1]

كَانَتْ بَنَاتِ نُصَيْبٍ حِيْنَ ضَنَّ بِهَا ... عَلَىٰ ٱلْمَوَالِيْ وَلَمْ تَقْنَعْ بِهَا ٱلْعَرَبُ[2]

ولا شكَّ أنَّهُ عذرٌ بأمٍّ دَوٍّ ، فقد تموتُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثدييْها[3] ، وذكَرتُ بهٰذا ـ والشيءُ يُذْكَرُ بما يشبهُهُ ، ولو مِنْ بعيدٍ ـ

---

(١) عَضْلُ المرأةِ عن الزواج : منعُها وحبسُها عنهُ . أَطْهَارُها ـ مفردُها طهرٌ ـ : جعلَ القوافي كالنساءِ ، فإذا طهرَتِ المرأةُ احتيجَ إليها ، وتُعتزَلُ في الحيضِ .

(٢) نُصَيْبٌ : شاعرٌ أمويٌّ ، كانَ أسودَ ، ومولىٰ لآلِ مروانَ . وكانَ لهُ بناتٌ يبخلُ بهنَّ على الموالي ، ولم تحفلْ بهنَّ العربُ لسوادِ أبيهنَّ .

(٣) مثل عربي ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » (١/ ١٢٢) . وقصته: أنَّ الحارثَ بنَ سليلٍ الأسَديَّ كانَ حليفاً لعلقمةَ بنِ خصْفةَ الطائيِّ ، فزارَهُ ، فنظرَ إلىٰ ابنتِهِ الزَّبَّاءِ ، وكانتْ مِنْ أجملِ أهلِ دهرِها ، فأُعجبَ بها ، فقالَ لَهُ : أتيتُكَ خاطباً ، وقد يُنكحُ الخاطبُ ، ويُدركُ الطالبُ ، ويُمنحُ الراغبُ ، فقالَ لَهُ علقمةُ : أنتَ كفءٌ كريمٌ ، يقبلُ منكَ الصفوُ ، ويؤخَذُ منكَ العفوُ ، فأَقِمْ ننظرْ في أمرِكَ ، ثمَّ انكفأَ إلىٰ أمِّها ، فقالَ : إنَّ الحارثَ بنَ سليلٍ سيِّدُ قومِهِ حسباً ومنصباً وبيتاً ، وقد خطبَ إلينا الزبَّاءَ ، فلا ينصرفنَّ إلاَّ بحاجتِهِ ، فقالتِ امرأتُهُ لابنتِها : أيُّ الرجالِ أحبُّ إليكِ ، الكهلُ الجحجاحُ ، الواصلُ المنَّاحُ ؟ أمِ الفتىٰ الوضَّاحُ ؟ فقالت : لا بل الفتىٰ الوضَّاحُ ، قالت : إنَّ الفتىٰ يغيِّرُكِ ، وإنَّ الشيخَ يميِّرُكِ ، وليسَ الكهلُ الفاضلُ، الكثيرُ النائلِ، كالحديثِ السنِّ ، الكثيرِ المنِّ ، قالت: يا أمَّتاهُ :

إنَّ ٱلْفَتَاةَ تُحِبُّ ٱلْفَتَىٰ ... كَحُبِّ ٱلرِّعَاءِ أَنِيْقَ ٱلْكَلاَ

قالت : أيْ بُنيَّةُ . إنَّ الفتىٰ شديدُ الحجاب ، كثيرُ العتاب ، قالت : إنَّ الشيخَ يُبلي شبابي ، ويدنِّسُ ثيابي ، ويشمِّتُ بي أترابي ، فلَمْ تزلْ بها أمُّها حتَّىٰ غلبتْها علىٰ رأيِها ، فتزوَّجَها الحارثُ علىٰ مئةٍ وخمسينَ مِنَ الإبلِ ، وخادمٍ وألفِ درهمٍ ، فابتنىٰ بها ، ثمَّ رحلَ بها إلىٰ قومِهِ ، فبينا هوَ ذاتَ يومٍ جالِسٌ بفناءِ قومِهِ ، وهيَ إلىٰ جانبِهِ . . إذ أقبلَ إليهِ شبابٌ مِنْ بني أسدٍ يعتلجونَ ، فتنفَّستِ الصعداءَ ، ثمَّ أرخَتْ عينيها بالبكاءِ ، فقالَ لها : ما يبكيكِ ؟ قالت : =

مديح الشماخ لعبد الله بن جعفر

أَنَّ الشمَّاخَ امتدحَ عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ بقولِهِ [في « ديوانه » ٤٦٤ـ٤٦٧ منَ الرَّجَز] :

إِنَّكَ يَا ٱبْنَ جَعْفَرٍ نِعْمَ ٱلْفَتَىٰ وَنِعْـمَ مَـأْوَىٰ طَـارِقٍ إِذَا أَتَـىٰ
وَجَارُ ضَيْفٍ طَرَقَ ٱلْحَيَّ سُرَىٰ صَادَفَ زَاداً وَحَدِيْثاً مَا ٱشْتَهَىٰ
إِنَّ ٱلْحَدِيْثَ طَرَفٌ مِنَ ٱلْقِرَىٰ

المبالغة في المديح ترفع الممدوح وتضع المادح

وَٱمتدحَ عُرَابَةَ ٱلأَوْسيَّ إزاءَ حُمُولَةٍ مِنَ ٱلتمرِ ، بما تحسدُهُ الثريَّا دُرَرَ لفظِهِ ، وجمالَ ديباجتِهِ ، كقولِهِ [في « الأغاني » ٩/ ٣٢٨٧ـ٣٢٨٨ منَ الوافر] :

رَأَيْـتُ عُـرَابَـةَ ٱلأَوْسِـيَّ يَسْمُـوْ إِلَىٰ ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِيْنِ
إِذَا مَـا رَايَـةٌ رُفِعَـتْ لِمَجْـدٍ تَلَقَّـاهَـا عُـرَابَـةُ بِـٱلْيَمِيْـنِ

وقولِهِ [منَ البسيط] :

مِنْ بَيْتِ مَـأْثَـرَةٍ عِزٍّ وَمَكْـرُمَـةٍ سَبَّاقُ غَايَاتِ مَجْدٍ وَٱبْنُ سَبَّاقِ
ضَخْـمُ ٱلـدَّسِيْعَةِ مِتْلَافٌ أَخُوْ ثِقَـةٍ جَزْلُ ٱلْمَوَاهِبِ ذُوْ قِيْلٍ ومِصْدَاقِ[1]

فقد ٱرتفعَ عُرابةُ بذلكَ إِلىٰ ٱلذُّرىٰ ، وٱنحطَّ بهِ ٱلشمَّاخُ ـ كما ذكروهُ ـ إِلىٰ ٱلحضيضِ ، وسيعادُ هـٰذا في ٱلمجلسِ ٱلحادي عشرَ غفلةً عمَّا هنا .

صغر نفس المتنبي

وما رأَيْتُ الناظمَ أَقلَّ حياءً ، ولا أَصفقَ وجهاً[2] ، ولا أَصغرَ

= ما لي وللشُّيوخِ الناهضين كالفروخِ ؟ فقالَ لها : ثكلتكِ أُمُّكِ ، تجوعُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثديَيْها .

(١) الدسيعةُ : ٱلعطاءُ ٱلجزيلُ .

(٢) أَصفقُ وجهاً ، يقالُ : وجهٌ صفيقٌ بيِّنُ الصَّفاقةِ : وَقِحٌ .

نفساً في قولِهِ ـ مِمَّا يتعلَّقُ بالموضوعِ ـ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/١١ مِنَ الكاملِ] :

إِنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ   فَبَرِئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ ٱلإِسْلَامِ

لولا ٱعتذارُهُم عنهُ في ذلكَ بصباهُ ، كما سيأتِي في موضعِهِ بَسْطُ القولِ فيهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

التفرد بالكمال مقرون بالحرمان

ثُمَّ إِنَّ التفرُّدَ بالكمالِ علىٰ عِزَّتِهِ مَقرونٌ في الأغلبِ بالحِرمانِ ، وقَلَّ مَنْ تَقدَّمَ في أمرٍ إلاَّ حُرِمَ ثمرتَهُ وفائدتَهُ ، والقولُ يطولُ في ذلكَ ، وما أَحسنَ قولَ الحمدونيِّ [منَ البسيط] :

إِنَّ ٱلْمُقَدَّمَ فِيْ حَذْقٍ بِصَنْعَتِهِ   أَنَّىٰ تَوَجَّهَ فِيْهَا فَهُوَ مَحْرُوْمُ

وقولَ كُشَاجِمٍ [في « ديوانه » ٣٨٦ منَ الكامل] :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا ٱلْكَمَالِ إِلَىٰ   عَيْبٍ يُوَقِّيْهِ مِنَ ٱلْعَيْنِ

ترقب زوال الشيء إذا ما قيل: تم

وحدَّثَ المعافىٰ بنُ زكريَّا : أَنَّهُ لمَّا بويعَ ابنُ المعتزِّ بالخلافةِ . . دخلُوا علىٰ شيخِنَا محمَّدِ بنِ جريرٍ الطبريِّ ، فقالَ : مَا الخبرُ؟ قيلَ : بُويعَ ٱبنُ المعتزِّ ، قالَ : فمَنْ ذُكِرَ للقضاءِ؟ قالوا : الحسنُ بنُ الحسنِ بنِ المثنىٰ ، أَو أبو المثنىٰ ، قالَ : فمنْ رُشِّحَ للوزارةِ؟ قالوا : محمَّدُ بنُ داودَ ، فقالَ : هـٰذا الأَمرُ لا يتمُّ ؛ لأَنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ هـٰؤلاءِ متقدِّمٌ في فضلِهِ ، والدنيا مُوَلِّيَةٌ ، فما أَراهُ إلاَّ عائداً إِلىٰ الاضمحلالِ ، فكانَ كذلكَ .

اول من أتي من داء الكمال في الإسلام سيدنا علي وصور من ذلك

وغالبُ ظنِّيْ أَنَّ أَوَّلَ مِنْ أُتِيَ في الإسلامِ مِنْ داءِ الكمالِ هو أَميرُ المؤمنينَ عليُّ ٱبنُ أَبي طالبٍ ـ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ فقد كانَ أَهلُ (البصرةِ) يُبغِضونَهُ وكثيرٌ مِنْ أَهلِ (الكوفةِ) وأَهلِ (المدينةِ) ، وأَمَّا أَهلُ (مكَّةَ) : فإِنَّهم كانوا يكرهونَهُ قاطبةً ، وكانَتْ قريشٌ بأَسرِها علىٰ خلافِهِ ، وكانَ جمهورُ الخَلْقِ مع بني أُميَّةَ عليهِ .

وروىٰ عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ ، عَنْ عبدِ الرحمـٰنِ ٱبنِ أَبي بكرة قالَ [في « شرح نهج البلاغة » ١٠٣/٤] : سمعْتُ عليّاً ـ عليهِ السلامُ ـ يقولُ : ما لقيَ أَحدٌ مِنَ الناسِ ما لقيْتُ .

وروىٰ الشعبيُّ عنهُ ـ عليهِ السلامُ ـ أَنَّهُ يقولُ [في « شرحِ نهجِ البلاغةِ » ١٠٤/٤] : اللَّهُمَّ إِنِّيْ أستعدِيْكَ علىٰ قريشٍ ؛ فإِنَّهُم قطعوا رحمي ، وأَصغـوا إِنـائـيْ[1] ، وصغَّـروا عظيـمَ مَنـزِلتـي ، وأَجمعـوا علـىٰ منازعَتي .

ورَوىٰ أَبو عمرانَ النهديُّ قالَ : سمعتُ عليَّ بنَ الحسينِ يقولُ [كما في « شرح نهجِ البلاغةِ » ١٠٤/٤] : ما بـ(مكَّةَ) و(المدينةِ) عِشرونَ رجلاً يحبُّنا .

وللهِ درُّ ٱبنِ أَبي الحديدِ في قولهِ [كما في « شرح نهج البلاغة » ١١٢/٤ منَ الخفيف] :

طَأْمَنَتْ مَجْدَهُ قُرَيْشٌ فَأَعْطَتْـهُ إِلَىٰ سِدْرَةِ ٱلسَّمَاءِ رُقِيَّا[2]
أَخْمَلَـتْ صِيتَـهُ فَطَـارَ إِلَـىٰ أَنْ مَـلأَ ٱلأَرْضَ ضَجَّـةً وَدَوِيَّـا

وقالَ الآخرُ [منَ الطويل] :

لَقَـدْ كَتَمَـتْ آثَـارَ آلِ مُحَمَّـدٍ مُحِبُّوْهُمُ خَوْفاً وَأَعْدَاؤُهُمْ بُغْضَا
وَلٰكِنْ فَشَتْ بَيْنَ ٱلْفَرِيْقَيْنِ نَبْذَةٌ بِهَا مَلأَ ٱللهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَا

ومِنْ كلامِهِ عليهِ السلامُ [في « نهج البلاغة » ٣٦] ما معناهُ : لا تزالُ الرعيَّةُ تشكُو ظُلْمَ الملوكِ ، ولٰكنَّني أَشتكي ٱلظلمَ مِنْ رَعيَّتي .

---

(١) أصغىٰ الإناء : أمالَهُ ليُفرِغَ ما فيهِ .
(٢) طَأْمَنَت الأرضُ : ٱنخفضَتْ .

وقالَ لأَصحابِهِ [في «نهج البلاغة» ٣٦] : لقد ملأْتُم قلبي قَيحاً ، وشَحَنتُم صدري غيظاً ، وجرَّعتُموني نُغَبَ ٱلتَّهمامِ أَنفاساً[١] ، حتَّىٰ قالتْ قريشٌ : إنَّ ٱبنَ أَبي طالبٍ رجلٌ شجاعٌ ، ولٰكنْ لا عِلْمَ لَهُ بالحربِ ـ للهِ أَبوهُم ـ وهل أَشدُّ لها مِراساً مِنِّي ؟! لقد دخلْتُ فيها دونَ العشرينَ ، وهاأَنا قد ذَرَفْتُ فيها علىٰ الستِّينَ ، ولٰكنْ لا رأْيَ لِمَنْ لا يُطاعُ .

صور من امتحان النبي ﷺ بالمنافقين

بل إنَّ الأَمرَ أَعظمُ مِنْ ذلكَ ، فسيِّدُ أَهلِ الأَرضِ والسماءِ ، وأَفضلُ مَنْ يشربُ عذبَ الماءِ . . كانَ مُمتحَناً بالمنافقينَ بشهادةِ سورةِ ﴿ براءة ﴾ مِنْ فاتحتِها إلىٰ خاتمتِها ، بل لَمْ يسلَمْ معَ ذلكَ مِنَ ٱلتواءِ فضلاءِ الصحابةِ عليهِ .

أَلا ترىٰ أَنَّهُم كرِهوا لقاءَ العدوِّ يومَ بدرٍ حتَّىٰ أُنزلَ فيهم : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٦] .

وقولُهُ تعالىٰ أَيضاً : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] .

وخالفوا أَمرَهُ يومَ أُحُدٍ ، وأَسلموهُ حتَّىٰ أَلقتْهُ فرَسُهُ بينَ القتلىٰ ، وٱستصرخَ فلَمْ يُجبْهُ غيرُ مَنِ ٱشتدَّ بهِ ٱختصاصُهُ .

وقالَ اللهُ جلَّ شأنُهُ فيهم : ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

وعصَوْا أَمرَهُ في تبوكَ أَيضاً ، حتَّىٰ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ

---

(١) نُغَبَ : جرعات . التَّهمامُ : الهمُّ . أنفاساً : جرعةً بعدَ جرعةٍ .

﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة : ٣٨ـ٣٩] .

فهٰذا عتابٌ للمؤمنينَ ، وشاهدٌ بأَنَّهُ لَمْ ينجُ مِنْ خلافِهم عليهِ ، وقد أَشرْنَا في الفائدةِ الثامنةِ مِنْ « بلابلِ التغريدِ » إلىٰ تثاقلِهم ليلةَ الخندقِ عَنِ ٱستِكْنَاهِ خبرِ القومِ[١] ، وقد أَلَحَّ عليهم في ذلكَ ، وهوَ لا يُخالِفُ ما نقرِّرُهُ مِن ٱمتلاءِ صدورِهم بٱلإيمانِ ، وتقدُّمِهم بٱلنفوسِ المطمئنَّةِ إلىٰ شفراتِ السيوفِ ؛ لأَنَّهُ الأكثرُ مِنْ أَحوالِهم ، ولأَنَّ الامتحانَ يعشقُ الكمالَ ، فٱقتضىٰ عَلِيُّ قدرِهِ ﷺ أَنْ تلتويَ عليهِ الأُمورُ ، وتَعْصَوْصِبَ[٢] لَهُ الأَهوالُ ، وتتنكَّرَ لَهُ الأَيَّامُ ، ويجمحَ عليهِ الزمانُ ؛ ليجاوزَ مدىٰ أُولي العزمِ مِنَ ٱلرسلِ ، وتلكَ الغايةُ منوطةٌ بالمحنةِ ؛ ولهٰذا قالَ لَهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وكانَ يوعَكُ كما يوعَكُ الاثنانِ مِنْ عُرْضِ الناسِ[٣] ، وكانَ يقولُ : « أَشَدُّ ٱلنَّاسِ بَلَاءً ٱلْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ »[٤] .

---

(١) استكناهُ خبرِ القوم : استقصاؤُهُ .

(٢) يعصوصبُ ، يقالُ : أعصوصبَ اليومُ والشرُّ : ٱشتدَّ وتجمَّعَ .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود البخاري (٥٦٤٨) في المرضىٰ ، ومسلم (٢٥٧١) في البر والصلة . ولفظه عنده : «أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» .
عُرْضُ الناسِ : عامتهم .

(٤) أخرجه عن سعد ٱبن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٠٠).

وللهِ درُّ أَبي تمَّامٍ في قولِهِ [منَ البسيط] :

مَا زِلْتُ أَرْمِيْ بِآمَالِيْ مَطَالِبَهَا ... لَمْ يُخْلِقِ ٱلْعِرْضَ مِنِّيْ سُوْءُ مُطَّلَبِيْ

إِذَا قَصَدْتُ لِشَأْوٍ خِلْتُ أَنِّيَ قَدْ ... أَدْرَكْتُهُ أَدْرَكَتْنِيْ حِرْفَةُ ٱلأَدَبِ[١]

وأَخذَهُ عليُّ بنُ محمَّدِ بنِ بسَّامٍ ، فقالَ في رثاءِ ٱبنِ المعتزِّ : [في «ديوانه» ٢٧ منَ البسيط] :

للهِ دَرُّكَ مِنْ مَلْكٍ بِمَضْيَعَةٍ ... نَاهِيْكَ فِيْ ٱلْعَقْلِ وَٱلآدَابِ وَٱلْحَسَبِ[٢]

مَا فِيْهِ لَوٌّ وَلاَ لَيْتٌ فَتَنْقِصَهُ ... وَإِنَّمَا أَدْرَكَتْهُ حِرْفَةُ ٱلأَدَبِ

وتلاعبَ بهِ الشعراءُ بعدَ ذلكَ ، ويتَّصلُ بالموضوعِ قولُ بعضِهِم [مِنَ ٱلكاملِ] :

عَابُوْا ٱلْجَهَالَةَ وَٱزْدَرَوْا بِحُقُوْقِهَا ... وَتَهَاوَنُوْا بِحَدِيْثِهَا فِيْ ٱلْمَجْلِسِ

وَهِيَ ٱلَّتِيْ يَنْقَادُ فِيْ يَدِهَا ٱلْغِنَىٰ ... وَتَجِيْئُهَا ٱلدُّنْيَا بِرَغْمِ ٱلْمَعْطِسِ

وقالَ أَبو العتاهيةِ [في «ديوانه» ٦٤٥ منَ الطويل] :

كَفَاكَ عَنِ ٱلدُّنْيَا ٱلذَّمِيْمَةِ مُخْبِراً ... غِنَىٰ بَاخِلِيْهَا وَٱفْتِقَارُ كِرَامِهَا

وَأَنَّ رِجَالَ ٱلنَّفْعِ تَحْتَ مَدَاسِهَا ... وَأَنَّ رِجَالَ ٱلضُّرِّ فَوْقَ سَنَامِهَا

وقالَ آخرُ [مِنَ ٱلسَّريعِ] :

مَنْ يَرْجُ بِٱلْفَضْلِ نَوَالاً يَمُتْ ... جُوْعاً وَلَوْ كَانَ بَدِيْعَ ٱلزَّمَانْ

وَمَنْ يَقُدْ أَوْ يَتَمَسْخَرْ يَعِشْ ... عَيْشاً رَخِيّاً فِيْ ظِلاَلِ ٱلأَمَانْ[٣]

---

(١) حرفةُ الأَدبِ : الفقرُ .

(٢) مَلْكٍ كذا في المخطوطِ، وفي «الديوانِ» : (ميتٍ) .

(٣) يَقُدْ : يعملُ قَواداً .

ولابنِ نُباتةَ السعديِّ [من الكامل] :

مَا بَالُ طَعْمِ ٱلْعَيْشِ عِنْدَ مَعَاشِرٍ   حُلْوٌ وَعِنْدَ مَعَاشِرٍ كَٱلْعَلْقَمِ
مَنْ لِيْ بِعَيْشِ ٱلأَغْبِيَاءِ فَإِنَّهُ   لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ مَنْ لَمْ يَعْلَمِ

وقلتُ في « لُزُومِيَّاتي » [منَ الطويل] :

أُعَاتِبُ فِيْ ٱلتَّقْصِيْرِ نَفْسِيْ فَلاَ أَرَىٰ   مَجَالَ عِتَابٍ مُقْتَضٍ لِلتَّنَدُّمِ
وَلَـٰكِنْ شُفُوفِيْ خَانَ حَظِّيْ وَهـٰكَذَا   تَرَىٰ خَيْبَةَ ٱلآمَالِ رَهْنَ ٱلتَّقَدُّمِ[1]
أَتَيْنَا وَدَهْرُ ٱلسُّوْءِ يَمْشِيْ إِلَىٰ ٱلْوَرَىٰ   وَمَبْنَىٰ ٱلْمَعَالِيْ آخِذٌ فِيْ ٱلتَّهَدُّمِ

الكمال مقرون بعلو الهمة ولكن الأيام لا تساعد

ومِنْ دَواعي تعبِ أَهلِ الكمالِ . . أَنَّهُ مقرونٌ بعلوِّ الهمَّةِ وكِبَرِ النَّفْسِ ، والزمانُ معاندٌ والأَيَّامُ لا تساعدُ .

وَإِذَا كَانَتِ ٱلنُّفُوْسُ كِبَاراً   تَعِبَتْ فِيْ مُرَادِهَا ٱلأَجْسَامُ[2]

لأنَّها لا تقفُ عندَ غايةٍ ، ولا تفضي إِلىٰ نهايةٍ ، وقد قالَ اللهُ جلَّ شأْنُهُ لأَفضلِ الخلقِ عليهِ السلامُ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الانشراح : ٧ـ٨] .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٣١ منَ الكامل] :

خَدَمَ ٱلْعُلَىٰ فَخَدَمْنَهُ وَهْيَ ٱلَّتِيْ   لاَ تَخْدُمُ ٱلأَقْوَامَ مَا لَمْ تُخْدَمِ
فَإِذَا ٱرْتَقَىٰ فِيْ قُلَّةٍ مِنْ سُؤْدَدٍ   قَالَتْ لَهُ ٱلأُخْرَىٰ : بَلَغْتَ تَقَدَّمِ[3]

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٧٢ منَ الوافر] :

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إِلاَّ ذُوْ مَحَلٍّ   تَعَالَىٰ ٱلْجَيْشُ وَٱنْحَطَّ ٱلْقَتَامُ

---

(١) الشُّفوفُ : نحولُ ٱلجسمِ مِنَ ٱلهمِّ وٱلوَجْدِ .
(٢) البيت من الخفيف .
(٣) القُلَّةُ : رأسُ كلِّ شيءٍ .

وَلَــوْ لَــمْ يَــزِعَ إِلاَّ مُسْتَحِــقٌّ لِـرُتْبَتِـهِ أَسَـامَهُـمُ ٱلْمُسَـامُ[1]

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٧٣ منَ المتقارب] :

وَلَــوْ بِتُّمَــا عِنْــدَ قَــدْرَيْكُمَــا لَبِــتَّ وَأَعْــلاَكُمَــا ٱلأَسْفَــلُ[2]

وقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٠٨ منَ الطويل] :

وَمَا ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلْمَاءِ وَٱلنَّارِ فِيْ يَدِيْ بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ ٱلْجَدَّ وَٱلْفَهْمَا[3]

ومعيارُ العمومِ الاستثناءُ ، وقد قالَ لأَبي العشائرِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٦٤ منَ الخفيف] :

لَيْـسَ إِلاَّ أَبَـا ٱلْعَشَـائِـرِ خَلْـقٌ سَـادَ هَـٰـذَا ٱلأَنَـامَ بِـٱسْتِحْقَـاقِ

أَمَّا قولُهُ لسيفِ الدولةِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٧٢ منَ الطويل] :

وَلَمَّا رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ دُوْنَ مَحَلِّهِ تَيَقَّنْتُ أَنَّ ٱلدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدُ

صفات بني حمدان

فَأَصابَ فيهِ مِنْ جهةٍ ، والعادةُ قد تنخرقُ ، وعينُ الدهرِ قد تنامُ ، والطبيعةُ لها فَلَتاتٌ ، وبنو حمدانَ ـ كما قالَ المحقِّقُ التفتازانيُّ[4] ـ ملوكٌ ، وجوهُهم للصباحةِ ، وأَلسنتُهم للفصاحةِ ، وأَيديْهِم للسماحةِ .

---

(١) القتام : العجاج . سامتِ السائمةُ : إذا رَعتْ ، والمسامُ : الرعيَّةُ .

(٢) المعنىٰ : لو بتُّما ـ النجم والممدوح ـ وموضعُ كلِّ واحدٍ منكما على حسبِ فضلِهِ ، ومكانُهُ حيثُ يستحقُّ بقدرِهِ . . لَبِتَّ في مواضعِ النجومِ وباتَتْ في موضعِكَ ، تعلوها أنتَ وتسفلُ منكَ ؛ لشرفِ قدركَ علىٰ قدرِها .

(٣) الجَدُّ : الحظُّ والبَختُ . الفهمُ : معرفةُ العلومِ .

(٤) التفتازاني : هو مسعود بن عمر بن عبد الله ، سعد الدين ، من أئمة العربية والبيان والمنطق ، له مؤلفات ، توفي سنة : (٧٩٣ هـ) .

أوحد بني حمدان

وأَخطأَ مِنَ ٱلأُخرىٰ ؛ فإِنَّ أَوْحدَ بني حمدانَ بلاغةً وبراعةً وشجاعةً . . إِنَّما هو أَبو فراسٍ ، وقد أَدركَتْهُ حرفةُ الأَدبِ ، وأَصابَتْهُ عينُ الكمالِ ، فأَسرتْهُ الرومُ في بعضِ وقائِعِها ، فٱزدادَتْ شاعريَّتُهُ رِقَّةً ولطافةً ، كما سبقَ بعضُ قولِهِ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، وهو القائلُ [في « ديوانه » ١٤٤ منَ الطويل] :

أُسِرْتُ وَمَا قَوْمِيْ بِعُزْلٍ لَدَىٰ ٱلْوَغَىٰ ... وَلاَ فَرَسِـيْ مُهْرٌ وَلاَ رَبُّـهُ غَمْـرٌ[1]

وَلٰكِنْ إِذَا حُمَّ ٱلْقَضَاءُ عَلَىٰ ٱمْرِىءٍ ... فَلَيْـسَ لَـهُ بَـرٌّ يَقِيْـهِ وَلاَ بَحْـرُ

بدء الشعر بملك وختم بملك

وقالَ الصاحبُ بنُ عبَّادٍ [في « قرى الضيف » ١/ ٥٧] : بُدِيءَ الشعرُ بمَلِكٍ ، وخُتِمَ بمَلِكٍ ؛ يعني : ٱمرأَ القيسِ ، وأَبا فراسٍ .

ومن أَكبرِ بيِّناتِهِ ٱعتراضُهُ علىٰ الناظمِ يومَ أَنشدَ قصيدتَهُ المُستهَلَّةَ بقولِهِ [في « العُكبريّ » ٣/ ٣٦٢ منَ البسيط] :

وَا حَـرَّ قَلْبَـاهُ مِمَّـنْ قَلْبُـهُ شَبِـمُ ... [وَمَنْ بِجِسْمِيْ وَحَالِيْ عِنْدَهُ سَقَمُ]

وملاحظتُهُ عليها ، وتنبيهُهُ علىٰ مواضعِ ٱلاختلاسِ فيها ، بِمَا لو روَّىٰ فيه ٱمرؤٌ . لَمَا دُوفعَ في حدَّةِ الفهمِ ، وإِصابةِ السهمِ ، وغزارةِ العلمِ ، ومعجزاتِ ٱلاطلاعِ ، كَما سنفيضُ فيهِ عندَما تنتهي إِليهِ النوبةُ ، إِنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

عود على شرح البيت من المطلع

وأَمَّا البيتُ الثاني : فـ (أَنْ) فيهِ مخففةٌ مِنَ ٱلثقيلةِ ، وشرطُ ٱسمِها أَنْ يكونَ ضميراً محذوفاً ، وربَّما ثبتَ كقولِهِ [منَ البسيط] :

فَلَوْ أَنْكِ فِيْ يَوْمِ ٱلرَّخَاءِ طَلَبْتِنِيْ ... طَلاَقَكِ لَمْ أَبْخَلْ وَأَنْتِ صَدِيْقُ

---

(١) الغمرُ : الذي لَمْ يجرِّبِ الأُمورَ .

وقولِ جنوبٍ ترثِي أخاها عمراً ذا الكلبِ [منَ المتقارب] :

بِـأَنَّـكَ رَبِيْـعٌ وَغَيْـثٌ مَـرِيْـعٌ ... وَأَنَّـكَ هُنَـاكَ تَكُـوْنُ ٱلثُّمَـالا[1]

وهوَ مختصٌّ بحالِ الضرورةِ علىٰ الأَصحِّ .

اقتباس البيت

ومعناهُ[2] مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم : ١٢] ،

سيادة الصغير العمر عند المتنبي

وقد تلاعبَ بهِ في « ديوانِهِ » ، فقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٧٠ منَ البسيط] :

لَيسَ ٱلْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ ... قَدْ يُوجَدُ ٱلْحِلْمُ فِيْ ٱلشُّبَّانِ وَٱلشِّيبِ

تَرَعْرَعَ ٱلْمَلِكُ ٱلأُسْتَاذُ مُكْتَهِلاً ... قَبْلَ ٱكْتِهَالٍ أَدِيباً قَبْلَ تَأْدِيبِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٠ منَ الكامل] :

صَغُرْتَ كُلَّ كَبِيْرَةٍ وَكَبُرْتَ عَنْ ... لَكَـأَنَّـهُ وَعَـدَدْتَ سِـنَّ غُـلاَمِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٣٢ منَ الوافر] :

وَأَعْجَبُ مِنْكَ كَيْفَ قَدَرْتَ تَنْشَا ... وَقَدْ أُعْطِيْتَ فِيْ ٱلْمَهْدِ ٱلْكَمَالاَ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٤٥ و٤٩ منَ الطويل] :

بِمَوْلُوْدِهِمْ صَمْتُ ٱللِّسَانِ كَغَيْرِهِ ... وَلَـٰكِنَّ فِيْ أَعْطَافِهِ مَنْطِقَ ٱلْفَضْلِ

وَقَدْ مَدَّتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْعِتَاقُ عُيُوْنَهَا ... إِلَىٰ وَقْتِ تَبْدِيْلِ ٱلرِّكَابِ مِنَ ٱلنَّعْلِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٨١ منَ البسيط] :

نَفْسٌ تُصَغِّرُ نَفْسَ ٱلدَّهْرِ مِنْ كِبَرٍ ... لَهَا نُهَىٰ كَهْلِهِ فِيْ سِنِّ أَمْرَدِهِ

---

(١) المريع : الخصيبُ الذي لا ينقطع. الثُّمالا : الماءُ القليلُ يبقىٰ في أَسفلِ الحوضِ ، أَو في أَيِّ إناءٍ كانَ .

(٢) أي البيت الذي يتكلم عليه .

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٨ منَ الطويل] :

أَرَىٰ ٱلْقَمَرَ ٱبْنَ ٱلشَّمْسِ قَدْ لَبِسَ ٱلْعُلاَ رُوَيْـدَكَ حَتَّىٰ يَلْبَسَ ٱلشَّعَرَ ٱلْخَدُّ
وَبَـاشَـرَ أَبْكَـارَ ٱلْمَكَـارِمِ أَمْـرَداً وَكَـانَ كَـذَا آبَـاؤُهُ وَهُـمُ مُـرْدُ

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٤٥ منَ المتقارب] :

سَعَـوْا لِلْمَعَـالِـيْ وَهُـمْ صِبْيَـةٌ وَسَادُوْا وَجَادُوْا وَهُمْ فِيْ ٱلْمُهُوْدِ

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٦٤ منَ المنسرح] :

قَـوْمٌ بُلُـوْغُ ٱلْغُـلاَمِ عِنْـدَهُـمُ طَعْنُ نُحُوْرِ ٱلْكُمَـاةِ لاَ ٱلْحُلُـمُ

بلوغ الغلمان عند يحيى بن زيد

والأخيرُ مُنتزَعٌ مِنْ قولِ يحيىٰ بنِ زيدِ بنِ عليِّ بنِ الحُسينِ رضوانُ اللهِ عليهم [منَ الطويل] :

خَرَجْنَا نُقِيْمُ ٱلدِّيْنَ بَعْدَ ٱعْوِجَاجِهِ سَوِيّاً وَلَمْ نَخْرُجْ لِجَمْعِ ٱلدَّرَاهِمِ
إِذَا أَتْقَـنَ ٱلتَّنْـزِيْـلَ وَٱلْعِلْـمَ طِفْلُنَـا فَإِنَّ بُلُوْغَ ٱلطِّفْلِ ضَرْبُ ٱلْجَمَاجِمِ

هٰذا وٱللهِ ٱلشَّرفُ ٱلَّذي يطأُ بأَخمَصهِ ٱلنُّجومَ ، ويغلبُ علىٰ ٱلنُّفوسِ عندَ ذِكْرِهِ ٱلوجومُ ، ويُحاطُ دينُ ٱللهِ منهُ بٱلرّجومِ ، ويَعْذُبُ لِمَنْ سمعَهُ علىٰ الموتِ ٱلهجومُ .

وما زالتِ ٱلهاشميَّةُ نيرانَ ٱلحتوفِ ، وأَربابَ ٱلأَقلامِ وٱلسُّيوفِ ، ومصابيحَ ٱلنورِ ، وهُداةَ ٱلعُوْرِ ، ولئن قلَّ في ٱلأَواخرِ ٱلباسُ . . فسأَذكرُ ما يناسبُ طهارتَهم مِنَ ٱلأَدناسِ .

تربية الأسياد أولادهم

كثيراً ما سمعتُ والدي يقولُ : كانَ لآلِ جديدٍ وآلِ بصريٍّ وآلِ علويٍّ ثلاثةُ ديارٍ ، عليها سورٌ بمدينة (تَرِيْمَ) ، يقالُ لها : (الحوطةُ) ، كانوا يحوطونَ أَولادَهم فيها بالنظرِ ، ويلاحظونَهم

بِٱلتَّربيةِ حتَّىٰ لا يبرحوها ، ولا يطرُّ شاربُ ٱلغلامِ منهم إلاَّ وقد ورَىٰ زنادُهُ ، وتجوهرَ فؤادُهُ ، وشملتْهُ ٱلأسرارُ ، وأَشرقَتْ عليهِ ٱلأنوارُ ، وٱلتحقَ بِٱلصّالحينَ ٱلأخيارِ ، فلا يخافونَ عليهِ بَعدُ مِنْ مخالطةِ ٱلأغيارِ .

اصحاب مشورة سيدنا عمر رضي الله عنه

وكانَ أَصحابُ مشورةِ عمرَ شبَّاناً ، وكانَ يدني عبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ ، ويدخلُهُ معَ الأَشياخِ ، ولَمَّا قالوا لَهُ : إنَّ لنا أَبناءً مثلَهُ . . قالَ : إنَّهُ مِنْ حيثُ ترونَ .

ولا جرمَ ؛ فإنَّ الفاروقَ لَمَّا قايسَ الناسَ بِٱلفضيلةِ . . ٱنبعثَتْ لها النفوسُ فٱرتفعَ الشأْنُ ، وسَعِدَ الزمانُ .

تقديم الأسن عند الاستواء في الفضل

أَمَّا قولُهُ ﷺ : « كبِّرْ كبِّرْ »(١) في قضيَّةِ حويصةَ وأَخيهِ . . فإنَّما هوَ لاستوائِهم في الفضلِ ، وبمثلِهِ قالوا في قولِهِ ﷺ : « ثُمَّ لِيؤُمَّكُمْ أَكبَرُكُمْ »(٢) : فإنَّهم ٱستوَوا في الإقامةِ لتلقِّي العلمِ معَ ٱنتفاءِ التفاوتِ في الأَفهامِ ، فكانوا غيرَ متفاوتينَ فيما تلقَّوْهُ مِنَ ٱلفقهِ ، وبقيَتِ ٱلأَرجحيَّةُ بالسنِّ ، وقد بحثَ المحبُّ الطبريُّ تقديمَ الأَسنِّ فيما إذا أَسلموا معاً ، وٱستووا فقهاً ؛ لعمومِ هـٰذا الحديثِ ، والأَكثرُ علىٰ أَنْ لا ٱعتبارَ للسنِّ في غيرِ الإسلامِ ، والظاهرُ أَنَّ إسلامَهم معاً ، فلعلَّ في الأَكبرِ فضيلةً زادَ بها عليهم ، فٱستحقَّ التقديمَ ، أَو لعلَّ المرادَ بالأَكبرِ الأَكبرُ منزلةً وقدراً ، فيُرادُ منهُ الأَفقهُ حينئذٍ ، فيندفعُ مِنْ أَصلِهِ الإشكالُ .

---

(١) أخرجه عن سهل بن أبي حثمة البخاري (٧١٩٢) في الأحكام ، ومسلم (١٦٦٩) في القسامة .

(٢) أخرجه عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه البخاري (٦٠٠٨) في الأدب ، ومسلم (٦٧٤) في المساجد .

سرعة بديهة يحيى بن أكثم

ولمَّا وليَ يحيىٰ بنُ أكثمَ قضاءَ (البصرةِ) . . أرادوا العبثَ بهِ ، فسألوهُ عَنْ سِنِّهِ ، ولمَّا تجاوزِ العشرينَ ، فقالَ : أنا أكبرُ مِنْ عتَّابِ بنِ أَسِيْدٍ[1] حينَ وجَّهَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ قاضياً علىٰ (مكَّةَ) يومَ الفتحِ ، وأنا أكبرُ مِنْ معاذِ بنِ جبلٍ[2] حينَ وجَّهَ بهِ النبيُّ ﷺ قاضياً علىٰ (اليمنِ) ، وأنا أكبرُ مِنْ كعبِ بنِ سورٍ[3] حينَ وجَّهَ بهِ ٱبنُ الخطَّابِ قاضياً عليكُم ، فأفحمهم ؛ إذْ جعلَ كلامَهُ ٱحتجاجاً وجواباً .

المرء بأصغريه

وقَدِمَ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وفدٌ ، فيهم حَدَثٌ ، رآهُ يشرئبُّ للكلامِ ، فقالَ لهُ : كَبِّرْ كَبِّرْ ، فقالَ : لو كانَتْ بالسنِّ . . لكانَ في مجلسِكَ هٰذا مَنْ هوَ أولىٰ منكَ بالخلافةِ ، إنَّما المرءُ بأصغريهِ ، فقالَ لهُ : تكلَّمْ ، فأجادَ وشفىٰ ، وأفادَ وكفىٰ[4] .

سيادة أبي جهل

وسادَ أَبو جهلٍ ٱبنُ هشامٍ قبلَ أَنْ يَطُرَّ عِذارُهُ[5] ، وكانَتْ مشيخةُ قريشٍ تُدخِلُهُ معها دارَ الندوةِ ، ولا تقطعُ أمراً دونَهُ .

---

(١) عَتّاب بن أَسيد ٱبن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، أبو عبد الرحمن، والٍ صحابي قرشي أموي مكي ولد سنة : (١٣ ق. هـ) ومات سنة : (١٣ هـ).

(٢) معاذ : صحابي خزرجي، أبو عبد الرحمن، ولد سنة : (٢٠ ق.هـ) ومات سنة : (١٨ هـ) كان من أعلم الأمة بالحلال والحرام.

(٣) كعب بن سور بن بكر الأزدي، تابعيٌّ من الأعيان المقدمين في صدر الإسلام توفي سنة : (٣٦ هـ).

(٤) في « جمهرة خطب العرب » (٢/ ٤١٩). فقال عند ذلك أمير المؤمنين [من الطويل] :

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ ٱلْمَرْءُ يُوْلَدُ عَالِماً ... وَلَيْسَ أَخُوْ عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وَإِنَّ كَبِيْرَ ٱلْقَوْمِ لاَ عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيْرٌ إِذَا ٱلْتَفَّتْ عَلَيْهِ ٱلْمَحَافِلُ

(٥) العِذار : ما طلعَ مِنْ وَبرِ جانبِ لحيتهِ .

سيادة عمرو بن كلثوم

وسادَ عمرو بنُ كلثومٍ ـ صاحبُ المعلَّقةِ ـ لخمسَ عشرةَ سنةً ، ثُمَّ لَمْ يمُتْ إلاَّ عن مئةٍ وخمسينَ ربيعاً، وهو القائلُ [في «ديوانه» ١٠٠ منَ الوافر] :

إِذَا بَلَـغَ ٱلْفِطَـامَ لَنَـا صَبِـيٌّ   تَخِـرُّ لَـهُ ٱلْجَبَابِـرُ سَـاجِـدِيْنَـا

سيادة أخ الخنساء

وقالَتِ ٱلخنساءُ [في « ديوانِها » ١٥ منَ المتقارب] :

طَـوِيْـلُ ٱلنِّجَـادِ رَفِيْـعُ ٱلْعِمَـا   دِ سَـادَ عَشِيْـرَتَـهُ أَمْـرَدَا[1]

سيادة طرفة بن العبد

وقالَتْ أُختُ طرفةَ بنِ العبدِ في رثائِهِ [كما في « خزانةِ الأدبِ » ٢/ ٤٢٣ منَ الطويل] :

عَدَدْنَا لَهُ سِتّاً وَعِشْرِيْنَ حِجَةً   فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَىٰ سَيِّداً ضَخْمَا

محمد بن القاسم يبيد الأكراد وعمره سبع عشرة سنة

ويروىٰ : أَنَّ الحجَّاجَ ولَّىٰ محمَّدَ بنَ القاسمِ قتالَ الأكرادِ بـ(فارسَ) ، فأَبادَهم ، ثُمَّ ولاَّهُ (السِّنْدَ) و(الهندَ) ، فأُحمِدَ أَثرُهُ ، وسِنُّهُ إِذْ ذاكَ سبعَ عشرةَ سنةً ، فقالَ فيهِ بعضُ الشعراءِ [زياد الأعجم كما في « المستطرف » ١/ ٤٩٧ منَ الكامل] :

قُدْتَ ٱلْجُيُوْشَ لِسَبْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً   يَا قُرْبَ ذَلِكَ سُؤْدُداً مِنْ مَوْلِدِ

الشعراء والسيادة في الصغر

وقالَ جريرُ لعُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ [منَ الوافر] :

فَسُدْتَ ٱلنَّاسَ قَبْلَ سِنِيَّ عَشْرٍ   كَذَاكَ أَبُوْكَ قَبْلَ ٱلْعَشْرِ سَادَا

وقالَ الفرزدقُ يمدحُ يزيدَ بنَ المُهلَّبِ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٧٨ منَ الكامل] :

مَـا زَالَ مُـذْ عَقَـدَتْ يَـدَاهُ إِزَارَهُ   وَسَمَـا وَأَدْرَكَ خَمْسَـةَ ٱلأَشْبَـارِ

يُدْنِيْ كَتَائِبَ مِنْ كَتَائِبَ تَلْتَقِيْ   فِـيْ ظِـلِّ مُغْتَبَـطِ ٱلْغُبَـارِ مُثَـارِ

---

(١) النجادِ : حمائلُ السيفِ ، وطويلُ النجاد: كنايةٌ عن طولِ القامةِ . رفيع العماد ، يقال : رجلٌ معمدٌ ؛ أي : طويلٌ .

وَمِمَّا أَصابَ المَحزَّ ، وطَبَّقَ المِفْصَلِ ، قولُ الحزينِ الكنانيِّ في الإمامِ زيدِ بنِ عليٍّ[1] رضوانُ اللهِ عليهم [منَ الطويل] :

وَلَمَّا تَرَدَّىٰ بِٱلْحَمَائِلِ وَٱنْثَنَىٰ ... يَصُوْلُ بِأَطْرَافِ ٱلْقَنَا وٱلْقَنَابِلِ

تَبَيَّنَتِ ٱلأَعْدَاءُ أَنَّ سِنَانَهُ ... يُطِيْلُ حَنِيْنَ ٱلأُمَّهَاتِ ٱلثَّوَاكِلِ

تَبَيَّنَ فِيْهِ مُلْيِمُ ٱلْعِزِّ وَٱلتُّقَىٰ ... وَلِيْداً يُفَدَّىٰ بَيْنَ أَيْدِيْ ٱلْقَوَابِلِ

وقالَ العلويُّ صاحبُ الزنجِ [منَ البسيط] :

إِنِّيْ وَقَوْمِيَ فِيْ أَنْسَابِ قَوْمِهِمُ ... كَمَسْجِدِ ٱلْخَيْفِ فِيْ بَحْبُوْحَةِ ٱلْخَيْفِ

مَا عُلِّقَ ٱلسَّيْفُ مِنَّا بِٱبْنِ عَاشِرَةٍ ... إِلاَّ وَهِمَّتُهُ أَمْضَىٰ مِنَ ٱلسَّيْفِ

ومِنْ خالصِ الشعرِ ، ومختارِ الكلامِ ، قولُ مروانَ ٱبنِ أَبي حفصةَ[2] يمدحُ معنَ بنَ زائدةَ[3] [في « ديوانه » ٦٤-٦٥ منَ الطويل] :

نَجِيْبُ مَنَاجِيْبٍ وَسَيِّدُ سَادَةٍ ... ذُرَىٰ ٱلْمَجْدِ مِنْ فَرْعَيْ نِزَارٍ تَفَرَّعَا

لَبَانَتْ خِصَالُ ٱلْخَيْرِ فِيْهِ وَأُكْمِلَتْ ... وَمَا كَمَلَتْ خَمْساً سِنُوْهُ وَأَرْبَعَا

لَقَدْ أَصْبَحَتْ فِيْ كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ ... بِسَيْفِكَ أَعْنَاقُ ٱلْمُرِيْبِيْنَ خُضَّعَا

وَطِئْتَ خُدُوْدَ ٱلْحَضْرَمِيِّيْنَ وَطْأَةً ... بِهَا مَا بَنَوْا مِنْ عِزَّةٍ قَدْ تَضَعْضَعَا

فَأَقْعَوْا عَلَىٰ ٱلأَسْتَاهِ إِقْعَاءَ مَعْشَرٍ ... يَرَوْنَ ٱتِّبَاعَ ٱلذُّلِّ أَوْلَىٰ وَأَنْفَعَا

فَلَوْ مُدَّتِ ٱلأَيْدِيْ إِلَىٰ ٱلْحَرْبِ كُلُّهَا ... لَكَفُّوْا وَمَا مَدُّوْا إِلَىٰ ٱلْحَرْبِ إِصْبَعَا

---

(١) زيد بن علي بن الحسين بن علي ٱبن أبي طالب، الإمام، أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي، ويقال له: زيد الشهيد، عدَّه الجاحظ من خطباء بني هاشم. توفي سنة: (١٢٢هـ). عن (٤٣) سنة.

(٢) هو مروان بن سليمان ٱبن أبي حفصة يزيد، شاعر عالي الطبقة توفي سنة: (١٨٢ هـ).

(٣) هو أشهر أجواد العرب وشجعانهم الفصحاء توفي سنة: (١٥١ هـ).

وما أحسنَ قولَ بعضِهم [منَ الوافر] :

إِذَا مَـا أَوَّلُ ٱلْخَطِّـيِّ أَخطَـا ... فَمَـا يُـرْجَـىٰ لآخِـرِهِ ٱنْتِصَـارُ
وَإِنْ جَازَ ٱلْفَتَىٰ عِشْرِيْنَ عَاماً ... وَمَـا بَلَـغَ ٱلْمُـرَادَ فَـذَاكَ عَـارُ

ولٰكنَّ الإمامَ أَبا حنيفةَ أَمهلهُ إِلىٰ خمسةٍ وعشرينَ عاماً ، فمتىٰ بلغَها . . دُفعَ له مالُهُ ، وإِنْ لَمْ يستجمعْ رشدَهُ ؛ لليأسِ مِنْ صلاحِهِ ، ولأَنَّ السنَّ المذكورَ غايةُ ما ينتهي إِليهِ الاستواءُ .

وقالَ أَبو عبادةَ وقد أَوفىٰ علىٰ الإجادةِ [في « ديوانه » ٣/ ١٤١٤ـ١٤١٥ منَ الكامل] :

مُسْتَظْهِـرٌ بِـذَخِيْـرَةٍ مِـنْ رَأْيِـهِ ... تُمْضِيْ ٱلأُمُوْرَ وَبَحْرُهَا لَمْ يُنْزَفِ
إِلاَّ يَكُـنْ كَهْـلَ ٱلسِّنِيْـنَ فَـإِنَّـهُ ... كَهْلُ ٱلتَّجَارِبِ فِيْ ضَجَاجِ ٱلْمَوْقِفِ
تَبْـدُوْ مَـوَاقِـعُ رَأْيِـهِ وَكَـأَنَّهَـا ... غُرَرُ ٱلسَّوَابِقِ مِنْ يَفَاعٍ مُشْرِفِ[1]
وَإِذَا خِطَابُ ٱلْقَوْمِ فِيْ ٱلْخَطْبِ ٱعْتَلَىٰ ... فَصَـلَ ٱلْقَضِيَّـةَ فِـيْ ثَـلاَثَـةِ أَحْـرُفِ

وممَّا يعجبني مِنْ هٰذهِ القصيدةِ قولُهُ [في «ديوانه» ٣/ ١٤١٧ من الكامل] :

قَـاسَمْتَـهُ أَخْـلاَقَـهُ وَهْـيَ ٱلـرَّدَىٰ ... لِلْمُعْتَدِيْ ، وَهِيَ ٱلنَّدَىٰ لِلْمُعْتَفِيْ
فَإِذَا جَرَىٰ مِنْ غَايَةٍ وَجَرَيْتَ مِنْ ... أُخرَىٰ ٱلتُقَىٰ شَأْوَاكُمَا فِيْ ٱلْمَنْصَفِ

وما زالَ الناسُ يُعجبونَ بقولِ ٱبنِ هانىء الأَندلسيِّ [منَ الكامل] :

أَبَنِيْ ٱلْعَوَالِيْ ٱلسَّمْهَرِيَّةِ وَٱلْمَوَا ... ضِيْ ٱلْمَشْرَفِيَّةِ وَٱلْعَدِيْدِ ٱلأَكْثَرِ
مَنْ مِنْكُمُ ٱلْمَلِكُ ٱلْمُطَاعُ كَأَنَّهُ ... تَحْتَ ٱلسَّوَابِغِ تُبَّعٌ فِيْ حِمْيَرِ[2]

---

(١) اليفاعُ : ما ارتفعَ منَ الأرضِ .

(٢) السمهريةُ : الرماحُ الصلبةُ الشديدةُ . السوابغُ ، يقالُ : سبغَ الشيءُ : طالَ =

حتَّىٰ وجدْتُ بعضَ لفظِهِ مِنْ قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ٢/١٠٢٩ من الكامل] :

وَتَنَاوَلَ ٱلضَّحَّاكَ مِنْ خَلْفِ ٱلْقَنَا وَٱلْمَشْـرَفِيَّـةِ وَٱلْعَـدِيْـدِ ٱلأَكْثَـرِ

وبَعضُ المعنىٰ مِنْ قولِهِ في القصيدةِ الَّتي نوَّهنا بها [في « ديوانه » ٣/ ١٤١٣ـ١٤١٤ منَ الكامل] :

يَهْـدِيْهِـمُ ٱلأَسَـدُ ٱلْمُطَـاعُ كَـأَنَّـهُ عِنْدَ ٱجْتِمَاعِ ٱلْجَحْفَلِ ٱلْمُتَضَايِفِ

عَمْرُو ٱلْقَنَا فِيْ مَذْحِجٍ أَوْ حَاتِمٌ فِيْ طَيِّىءٍ أَوْ عَامِرٌ فِيْ خِنْدِفِ

إلاَّ أَنَّ ٱبن هانىءٍ بتناسقِ قولِهِ ، وجزالةِ لفظِهِ ، وٱطِّرادِ سياقِهِ ، وحُسنِ ٱتِّباعهِ . . كانَ الأَحقَّ بِهِ .

إلمام المتنبي بقول البحتري

وقد أَلمَّ الناظمُ بقولِ البُحتريِّ : (فَصَلَ ٱلْقَضِيَّةَ فِيْ ثَلاَثَةِ أَحْرُفِ) ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٨٥ منَ الطويل] :

يَقُوْمُ مَقَامَ ٱلْجَيْشِ تَقْطِيْبُ وَجْهِهِ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلأَلْفَاظَ مِنْ لَفْظِهِ حَرْفُ

وفي قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٩٧ منَ الطويل] :

حُرُوْفُ هِجَاءِ ٱلنَّاسِ فِيْهِ ثَلاَثَةٌ: جَـوَادٌ وَرُمْـحٌ ذَابِـلٌ وَحُسَـامُ

تألم المؤلف على ما آل إليه حال العلويين ونصحه لهم

وبمناسبةِ ما سبقَ عَنْ يحيىٰ بنِ زيدٍ ، وما قيلَ في أَبيهِ ، وما ذكرتُهُ عَنْ صاحبِ الزنجِ ، وما سقتُهُ في كرامةِ آبائِنا ، وكونِ الممدوحِ في القصيدةِ الَّتي بينَ أَيدينا علويَّ النسبِ . . أَنعي علىٰ العلويِّينَ ٱنقسامَهم وتخاذُلَهم وٱنحطاطَهم ، حتَّىٰ لقد نهبَ

= وٱتَّسعَ ، وسبغتِ الدروعُ : فهيَ السوابغُ .

الصَّيْعَرُ[1] اثنتينِ مِنَ الإماءِ مرَّةً ، إحداهما لعلويٍّ ، والأُخرىٰ لدلاَّلٍ .
فأمَّا الثاني : فلَمْ يَصِلْ إلىٰ (الريدةِ) لاستنقاذِها إلاَّ في أربعِ مئةٍ مِنْ أبناءِ جنسِهِ ، جاؤوا مدداً لَهُ مِنْ نواحي (حضرموت) . وأمَّا العلويُّ : فلَمْ يلبِّهِ أحدٌ ، ولَمْ يَصِلْ إلاَّ وحدَهُ ، فما أحقَّهُ بأنْ يتمثَّلَ لهُم بما سيأتي قُبَيلَ المجلسِ السابعِ : وكَمْ لها مِنْ أخواتٍ تُعَدُّ بالمئاتِ ، لَمْ يَجُفَّ بعضُها بعدُ . ولولا ما في ذِكرِها مِنْ جَرحِ العواطفِ بلا كبيرِ فائدةٍ . . لسردْنا منها ، فإنَّا نَعُدُّ منها ولا نعدِّدُها [منَ البسيط] :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِيْ ... بَنُوْ اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ ابْنِ شَيْبَانَا
لٰكِنَّ قَوْمِيْ وَإِنْ كَانُوْا ذَوِيْ عَدَدٍ ... لَيْسُوْا مِنَ الْخَيْرِ فِيْ شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

والعَجَبُ أنَّكَ لا ترىٰ أحداً مِنَ الناسِ يتكلَّمُ في الأخلاقِ ومدحِ الاجتماعِ مثلَهم ، ومعَ ذلكَ ـ ولا أُحاشي ـ تجدهُم مِنْ أكثرِ الخَلْقِ نفاقاً ، وأفسدِهم أخلاقاً ، وإنَّكَ لتجدُ الحاكمَ وَمَنْ دونَهُم يَفْضُلونَهُم في الهيئةِ الاجتماعيَّةِ بدرجاتٍ ، فما أقلَّ حياءَهُم ، وما أصفقَ وجوهَهُم ؛ إذْ يتبجَّحونَ بالانتسابِ إلىٰ ساداتِ الكونِ علىٰ بُعْدِ ما بينَهُم مِنَ الفرقِ والبَونِ ، وللهِ درُّ القائلِ [منَ البسيط] :

لَسْتُمْ بَنِيهِمْ وَلَسْتُمْ مِنْ سُلاَلَتِهِمْ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ أَمَمَا

وما أحسنَ قولَ الناظمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/١٥٦ منَ الطويل] :

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ ... فَمَا هُوَ إِلاَّ حُجَّةٌ للنَّوَاصِبِ[2]

(١) الصيعرُ : قبيلة من قبائل (حضرموت) .
(٢) النواصب ـ جمع ناصبٍ ـ : وهم الخوارجُ الذين نصبوا العداوة للإمام عليِّ ابنِ أبي طالبٍ عليه السلام .

وهو مِنْ قولِ شاعرٍ قبلَهُ ، يقولُ لبعضِ العلويِّينَ [منَ الطويل] :

إِذَا ٱلْغُصْنُ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً ... مِنَ ٱلْمُثْمِرَاتِ ٱعْتَدَّهُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْحَطَبْ

متى يبلغ البنيان التمام؟!

ولمَّا ٱنحرفَتْ سيرةُ المُوسَوِيِّينَ بـ(بغدادَ) . . كتبَ لهُم أحدُ محبِّيهِم ـ بما قَوْمُنا بِهِ الآنَ أَحقُّ منهم ـ وهو هـٰذا [منَ الطويل] :

يَعِزُّ عَلَىٰ أَسْلاَفِكُمْ يَا بَنِي ٱلْعُلاَ ... إِذَا نَالَ مِنْ أَعْرَاضِكُمْ شَتْمُ شَاتِمِ

بَنَوْا لَكُمُ مَجْدَ ٱلْحَيَاةِ فَمَا لَكُمْ ... أَسَأْتُمْ إِلَىٰ تِلْكَ ٱلْعِظَامِ ٱلرَّمَائِمِ

إِذَا أَلْفُ بَانٍ خَلْفَهُمْ هَادِمٌ كَفَىٰ ... فَكَيْفَ بِبَانٍ خَلْفَهُ أَلْفُ هَادِمِ

والمعنىٰ موجودٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٠] ، وقولُهُ : ﴿يسيراً﴾ ممَّا يحقُّ بهِ للأحزانِ أَنْ تُشملَ رياطُها[1] ، وللقلوبِ أَنْ يتقطَّعَ نياطُها[2] ، فما لنبيٍّ معهُ إرادةٌ ، ولا بينَهُ وبينَ أَحدٍ مِنْ خلقِهِ هوادةٌ ، فأَنَّىٰ ينجو المقصِّرُ ، أَو يسعدُ الطالحُ ، وقد قالَ الله تعالىٰ لنوحٍ عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ ﴾ [هود : ٤٦] ، وما أَحسنَ ما قلتُ مِنْ قصيدٍ [منَ الطويل] :

إِذَا لَمْ يَسِرْ نَجْلُ ٱلنَّبِيِّ بِسَيْرِهِ ... فَلاَ بِدْعَ إِنْ قَالَ ٱلْعِدَا إِنَّهُ دَعِيْ

أَيُّ حقٍّ نصروهُ ؟! وأَيُّ باطلٍ أَنكروهُ ؟! وأَيُّ واحدٍ منهم تمعَّرَ وجهُهُ[3] في ذاتِ اللهِ ؟! معَ عَرَضِ دعاويهم وطولِها ، وكثرةِ

---

(١) الرياط : الملاءةُ إذا كانتْ قطعةً واحدةً ، وهو تشبيهٌ للأحزانِ بما ذكرنا .
(٢) نياطُ القلب : عِرقٌ نيطَ به ٱلقلب إلىٰ ٱلوتين .
(٣) تمعُّرُ الوجهِ : تغيُّرُه وٱعتلاءُ الصُّفرةِ عليه من ٱلغيظ .

مواعظِهم وفضولِها ، بلْ أَيُّ رذيلةٍ بـ(حضرموتَ) و(جاوه)[1] لَمْ يقرعوا مروءتَها ، ولَمْ يصعَدوا ذِروتَها ؟!

قصيدة للمؤلف في العلويين

أَرُونِي ٱمْرَأً مِنهُمْ تَمعَّرَ عِنْدَمَا ... تَمطَّىٰ ٱلْبَلاَ فِيْ قُطْرِنَا بِظَلاَمِهِ
وَقَامَ ٱحْتِسَاباً يَوْمَ حَلَّتْ بِعُقْرِنَا ... طَلاَئِعُ كُفْرٍ هَمُّهَا فِيْ ٱلْتِهَامِهِ
أَيُغْضِي عَلَىٰ هَـٰذَا ٱلْقَذَا جَفْنُ مُسْلِمٍ ... يُؤَمِّلُ بِـالإِسْـلاَمِ مَحْـوَ أَثَـامِـهِ ؟
وَيَرْضَىٰ بِتَحْرِيفِ ٱلشَّرِيعَةِ طَامِعٌ ... مِنَ ٱللهِ أَنْ يَحْظَىٰ بِحُسْنِ خِتَامِهِ
وَيُدْهِنُ فِيْ ذَاتِ ٱلإِلَـٰهِ وَلَوْ عَدَوْا ... عَلَىٰ شَاتِهِ لَمْ يَنْحَجِزْ عَنْ قِيَامِهِ
وَيَغْضَبُ فِيْ شَرْوَىٰ نَقِيْرٍ وَيُكْثِرُ ... ٱلضِّجَاجَ إِذَا مَا زَادَ مِلْحُ طَعَامِهِ
وَيَخْطِرُ مِثْلَ ٱلْفَحْلِ إِنْ قَصَّرَ ٱمْرُؤٌ ... يُـلاَقِيْـهِ فِـيْ تَقْبِيْلِـهِ وَٱحْتِـرَامِـهِ
إِذَا لَـمْ يَكُـنْ يَـرْجُـوْ وَإِلاَّ فَـإِنَّـهُ ... يُـلاَيِنُـهُ مِـنْ قَبْـلِ رَدِّ سَـلاَمِـهِ
فَهَيْهَاتَ مِمَّنْ كَانَ ذَا وَصْفُهُ ٱلتُّقَىٰ ... وَإِنْ زَادَ فِـيْ تَسْبِيْحِـهِ وَصِيَـامِـهِ
فَزِيُّ صَلاَحِ ٱلْقَوْمِ مَـا رَيْتُ مِثْلَهُ ... مِنَ ٱلسُّحْبِ إِلاَّ خَالِيَاتِ جَهَامِهِ[2]

هل صحيح أن الإنسان الذي يبلغ التمام في أمر يُنفِد هـذا الأمرَ من ذريته؟

ولا أَزالُ في وَجَلٍ مِنْ مقالةٍ طرقتْ سمعي في « شرحِ النهجِ » [١٢/٤٥] ، حـاصلُهـا : أَنَّ سيِّدَنـا عُمـرَ بـنَ الخطَّـابِ ٱستفـرغَ عـدلَ ذُرِّيَّتِهِ ، فَلَمْ يتولَّ منهمْ عادلٌ إِلاَّ نادراً بطريقةِ الشذوذِ ؛ لأَنَّ الأَمرَ في أَسلافِنا علىٰ مقرُبَةٍ مِمَّا ذُكِرَ عَنِ ٱبْنِ الخطَّابِ في بلوغِ الغاياتِ مِنَ ٱلفضائلِ ، فنخافُ أَن يكونَ السابقونَ إِلىٰ عهدِ المُقدَّمِ[3] ٱستفرغوا

(١) جاوه: وتعني (إندونيسية).
(٢) والأبيات من نظم المؤلِّفَ ـ رحمهُ اللهُ ـ في « ديوانهِ » (٣٠٢ـ٣٠٣) منَ الطويل.
الجَهَامُ : السحابُ الَّذي لا ماءَ فيهِ ، وقيل : الَّذي قد هَراقَ ماءَهُ معَ الريحِ .
(٣) أي: إلى عهدِ الإمامِ شيخ الشيوخِ الفقيه المُقَدَّمِ : محمَّدِ بن عليٍّ الشريف =

ما لِمَنْ بعدَهم مِنَ ٱلجهادِ والكفاحِ ، وملاعبةِ الأَسنَّةِ والصِّفاحِ ، وأَنْ يكونَ الفقيهُ ومَنْ بعدَهُ ٱستفرغوا ما لأَهلِ عصرِنا مِنْ خيرٍ وصلاحٍ ، وفوزٍ ونجاحٍ ، وتقوىً وعبادةٍ ، وورعٍ وزَهادةٍ ، ورُبَّما شهدَ الزمانُ ، ودلَّلَ العِيانُ .

وَكَمْ سُقْتُ فِيْ آثارِهِمْ مِنْ نَصِيْحَةٍ   وَقَدْ يَسْتَفِيْدُ ٱلظِّنَةَ ٱلْمَتَنَصِّحُ[1]

الكمال بين الناقصين ذنب

ولٰكنَّهم قد وصلوا ـ مِنْ سوءِ الحالةِ ـ إِلىٰ حَدٍّ أَنَّهم يعدُّونَ للإِنسانِ ذنباً كمالَهُ .

قصيدة أخرى للمؤلف في نعي أسلافه وحث إخوانه

ولا بأسَ أَن نختمَ ٱلمجلسَ ـ علىٰ طولِهِ ـ بذروٍ مِنَ ٱلقصيدةِ ٱلَّتي ختمْتُ بها كتابي « صوبَ ٱلرُّكامِ » ؛ لأَنَّ فيهِ مناسبةً للمقامِ [في « ديوان المؤلف » ١٩٧ منَ الطويل] :

وَقَدْ أَلْجَمَ ٱلإِذْهَانُ آلَ مُحَمَّدٍ   فَمَا رَيْتُ مَنْ للهِ يَرْضَىٰ وَيَغْضَبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُوْنُوْا مِنْ عَلِيٍّ وَلَمْ يَمُتْ   لَهُمْ فِيْ قِرَاعِ ٱلْجَوْرِ جَدٌّ وَلاَ أَبُ
وَيَا لَيْتَهُمْ كَانُوْا كَفَافاً وَلاَ جَنَىٰ   عَلَىٰ ٱلَّذِيْنِ مِنْهُمْ كَاشِحُونَ وَأَجْلَبُوْا
وَلَوْلاَ ٱفْتِرَاقٌ بَيْنَهُمْ عَمَّ شَرُّهُ   لأَوْشَكَ صَدْعُ ٱلْقُطْرِ بِٱلْجَوْرِ يُشْعَبُ
أَلَحُّوْا وَلَجُّوا فِيْ بِعَادٍ وَبِغْضَةٍ   فَقَدْ نَشَّبُوْا فِيْ حَبْلِ غَيٍّ وَأَنْشَبُوْا[2]
وَفِيْ شِعْرِ حَدَّادِ ٱلْقُلُوْبِ نَظِيْرُ مَا   ذَكَرْتُ فَمَاذَا يُنْكِرُ ٱلْمُتَحَزِّبُ ؟[3]
وَإِنْ خَاضَ فِيْ ٱلإِصْلاَحِ بَعْضٌ فَإِنَّهَا   أَمَانِيُّ آرَاءٍ بِهِمْ تَتَشَعَّبُ

= الحسيني التريمي المتوفَىٰ سنة : (٦٥٣ هـ) بـ(تريم) رحمه الله تعالىٰ .

(١) البيت من الطويل ، الظِّنَّةُ : التهمة .

(٢) نَشَّبُوا وأَنشبوا : تعلقوا بحبل الضلال .

(٣) حداد القلوب : هو الإمام عبد الله الحداد المتوفى سنة (١١٣٢ هـ) رحمه الله تعالى .

يُرِيدُونَهُ مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهِ وَهَلْ ... مَعَ ٱلتَّرْكِ لِلأَسْبَابِ يُرْجَىٰ ٱلْمُسَبَّبُ ؟

يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَإِنْ تَشِمْ ... وَمِيضَ وُعُودٍ مِنْهُمُ فَهِيَ خُلَّبُ(١)

سِرَاعٌ إِلَىٰ مَا فِيهِ ضَرٌّ بِقَدْرِ مَا ... يَفِرُّونَ عَمَّا فِيهِ نَفْعٌ مُرَتَّبُ

فَهُمْ فِي ٱضْطِرَابٍ مِنْ عُبَابٍ مَذَاقُهُ ... أُجَاجٌ وَلٰكِنْ لِلسَّفَاهِينَ يَعْذُبُ(٢)

لِسُوقِ ٱلْمَلاَهِي وَٱلسَّفَاسِفِ بَيْنَهُمْ ... رَوَاجٌ وَلٰكِنْ لَيْسَ لِلْحَقِّ مَشْرَبُ

وَلَمَّا رَأَوْنِي رَافِعَ ٱلصَّوْتِ بِالدُّعَا ... إِلَيْهِ تَحَامَوْنِي كَأَنِّي أَجْرَبُ

يُقِرُّونَ بِالإِجْمَاعِ لِي بِتَفَرُّدِي ... وَمَا لِيَ فِيهِمْ قَطُّ سَهْلٌ وَمَرْحَبُ

جَزَاءُ قِيَامِي بِالنَّصِيحَةِ أَنَّنِي ... إِذَا شِدْتُ بُنْيَاناً مِنَ ٱلْمَجْدِ خَرَّبُوا

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفُوا بِضِغْنِ نُفُوسِهِمْ ... سِرَاجَ هُدىً يُزْكِيهِ عِلْمٌ فَخُيِّبُوا

وَيَهْوَوْنَ مَوْتِي وَهْوَ مَوْتٌ لِعِزِّهِمْ ... فَلَيْسَ لَهُمْ إِلاَّيَ فِي ٱللَّيْلِ كَوْكَبُ

يَقُولُونَ لِي : وَارِبْ فَتَأْبَى أُبُوَّتِي ... وَأَصْلِي وَطَبْعِي ، وَٱلطَّبِيعَةُ أَغْلَبُ(٣)

وَعِرْضٌ كَعَيْنِ ٱلدِّيكِ مَا فِيهِ نُكْتَةٌ ... وَسَلْ هَلْ لِطَعْنٍ صَادِقٍ فِيَّ مَذْهَبُ ؟

عَفَافٌ بِهِ فِي ٱلنَّاسِ أَعْطِسُ شَامِخاً ... كَأَنِّي عَلَىٰ حُسْنِ ٱعْتِدَالٍ مُشَذَّبُ(٤)

عَلَىٰ حِينَ لاَ عِرْضٌ بِلاَ مَثْنَوِيَّةٍ ... لأَعْدَائِنَا إِلاَّ بِعَارٍ مُخَضَّبُ(٥)

وَغَايَتُهُمْ أَنْ يَفْتَرُوا وَمَتَىٰ ٱفْتَرَوْا ... أَقُومُ وَلاَ أَنْسَىٰ ٱلتَّحَدِّي وَأَخْطُبُ(٦)

---

(١) تَشِمْ : تنظر ، من شام البرقَ إذا نظر إليه . خُلَّبُ : كاذب ، ومنه قولهم: برق خُلَّب .

(٢) العبابُ : معظمُ السيلِ أو موجُهُ .

(٣) في الأصل: أمومتي، وهو تصحيف. وَارِبْ: خادعْ .

(٤) مُشَذَّبٌ : مُهذَّب مُصلَّح .

(٥) بلاَ مَثْنَوِيَّةٍ : بلا استثناء .

(٦) في المخطوط و«الديوان»: أنسىٰ، ولعله قال: أخشىٰ . ولقد تداخل البيت على السيد هنا عمّا في «الديوان» فأخذ صدراً من بيتٍ وعجزاً من البيت الذي =

وَذلِكَ تَارِيْخِي نَقِيٌّ وَحُجَّتِيْ ... يَخِرُّ صَرِيْعاً دُوْنَهَا ٱلْمُتَعَصِّبُ
وَمَنْ يَكُ فِيْ شَكٍّ فَهَا أَنَا ذَا وَمَا ... أَخَافُ وَلِيْ مِنْ نَاصِعِ ٱلْحَقِّ مَرْكَبُ
إِذَا لَمْ أُجِبْ عَنْ كُلِّ قَوْلٍ بِقَاطِعٍ ... فَلاَ عُذْنَ بِيْ ٱلأَمْثَالُ فِيْ ٱلْفَهْمِ تُضْرَبُ

ومنها :

بَعُدْتُ بِفَضْلِيْ عَنْهُمْ قَدْرَ مَا دَنَا ... رِفَاقُ ٱلْخَنَا وَٱلشَّكْلُ لِلشَّكْلِ يَجْذُبُ
وَمَـا زَالَ لِـيْ بِـٱللهِ جَـلَّ ثَنَـاؤُهُ ... عَلَىٰ هَامَةِ ٱلشِّعْرَىٰ خِبَاءٌ مُطَنَّبُ[1]
علاءٌ بِلاَ جُنْدٍ وَلاَ رِيْحِ دَوْلَةٍ ... عَلَىٰ قُلَلِ ٱلشُّمِّ ٱلذُّرَىٰ يَتَوَثَّبُ
سَأَمْضِيْ بَرَاحاً لاَ ضَرَاءَ إِلَىٰ ٱلْعُلَىٰ ... وَفِيْ نَصْرِ دِيْنِ ٱللهِ لاَ أَتَهَيَّبُ[2]
وَلِيْ قَلَمٌ كَٱلْمَشْرَفِيِّ وَمِقْوَلٌ ... يُذِيْبُ ٱلصَّفَا آنَاءَ أُمْلِيْ وَأَكْتُبُ

وٱللهُ أعلمُ

* * *

= يليه، وهي في «الديوان» :

وَغَايَتُهُمْ أَنْ يَكْذِبُوْا وَمَتَىٰ ٱفْتَرَوْا ... أَقُـوْلُ تَعَـالَـوْا قَـابِلُـوْنِـيْ فَيَهْـرُبُـوْا
يَعِيْبُـونَنِـيْ غَيْبـاً وَفِـيْ كَـلِّ مَشْهَـدٍ ... أَقُـوْمُ وَلاَ أَنْسَـىٰ ٱلتَّحَـدِّيْ وَأَخْطُـبُ

(١) الشِّعْرَىٰ : كوكبٌ نيرٌ يَطْلُعُ عند شدةِ ٱلحرِّ . خباءٌ مطنبٌ : بناءٌ من وبرٍ مشدودٌ بالحبالِ .

(٢) البراح : الجهرُ . الضرّاءُ : الاستخفاءُ .

المجلس الرّابع

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٦٠ منَ الطويل] :

مُحِبِّيْ قِيَامِي مَا لِذَالِكُمُ ٱلنَّصْلِ	بَرِيّاً مِنَ ٱلْجَرْحَىٰ سَلِيْماً مِنَ ٱلْقَتْلِ

نكوص أصحاب المتنبي عنه وتكليفهم إياه شيئاً ليس من شيمته

إمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : تُحبُّونَ قيامي علىٰ أَنْ أَبقىٰ مكتوفاً ، لا يجرحُ نَصلي ، ولا يقتلُ ، وهوَ غيرُ شيمتِهِ الَّتي يتحدَّثُ عنها في مثلِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/١٤٨ مِنَ الوافرِ] :

وَمَـا فِـيْ طِبِّـهِ أَنِّـيْ جَـوَادٌ ... أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُوْلُ ٱلْجَمَامِ[1]

وأَلَمَّ بهِ المعرِّيُ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ٢٣٣ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا ٱلنَّارُ لَمْ تُطْعَمْ ضِرَاماً ... فَـأَوْشِـكْ أَنْ تَمُـرَّ بِهَـا رَمَـادَا

وإِمَّا أَنْ يكونَ معناهُ : كيفَ تحبُّونَ نُهوضي بٱلأَمرِ ، وقيامي بٱلثورةِ ، والحالُ أَنَّ سيوفَكُم الَّتي تعدُّونَها لنُصرتي لَمْ تتعوَّدْ علىٰ الجرحِ والقتلِ .

تألم الإمام من نكوص الأصحاب

وبهِ تذكَّرتُ تأَلُّمَ أَميرِ المؤمنينَ مِنْ نُكوصِ أَصحابِهِ عَنِ ٱلحربِ ، حتَّىٰ قالَ [في «نهجِ البلاغةِ» ٣٤] : ليتَ معاويةَ صارَفني بِكُم صرفَ الدينارِ بٱلدراهمِ ، فأَعطيتهُ عِشرينَ ، وأَخذْتُ منهُ واحداً . . وقالَ :

---

(١) الجَمَامُ : أَنْ يُتركَ الفرسُ فلا يُركب .

يا أَشباهَ الرجالِ ، ولا رجالَ ، حلومُ الأَطفالِ ، وعقولُ ربَّاتِ الحِجالِ ، أَكُلَّما قلتُ لكُم : ٱنفروا لقتالِ عدوِّكُم . . قلتُم : أَمهِلْنا حتَّىٰ تنسلخَ عنَّا حَمارَّةُ القيظِ ، وإِنِ ٱستنفرتُكم في الشتاءِ . . قُلتُم : أَمهِلْنا حتَّىٰ تذهبَ عنَّا صَبارَّةُ القرِّ[1] ، أَكُلُّ هٰذا فراراً مِنَ ٱلحرِّ والقرِّ ؟! لأَنتُم ـ واللهِ ـ مِنَ ٱلسيفِ أَفرُّ .

وقالَ مرَّةً أُخرىٰ [في « نهج البلاغة » ٣٣] : ليتَ لي بكُم أَلفَ رأسٍ مِنْ بني فراسِ بنِ غَنَمٍ .

هُنَالِكَ لَوْ دَعَيْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ ٱلْحَمِيمِ[2]

وقالَ أَيضاً [في « نهج البلاغة » ٦٥] : ٱلذَّليلُ مَنْ نصرتُموهُ ، والقليلُ مَنْ كثَّرتُموهُ ، مَنْ رمىٰ بكُم . . فقد رمىٰ بأَفوَقِ ناصلٍ[3] ، إِنَّكم ـ واللهِ ـ لكثيرٌ في ٱلباحاتِ ، قليلٌ تحتَ ٱلرّاياتِ .

فكلُّ هٰذا نوردُهُ بٱلمعنىٰ ؛ لبُعدِ العهدِ ، ولعلوِّ منالِ لهجةِ الإِمامِ ، وفصاحةِ أُسلوبِهِ . . يندفعُ الملامُ .

ويشبهُ بعضَهُ قولَ عُوَيْفِ القوافيِّ [مِنَ الطويلِ] :

وَمَا أُمُّكُمْ تَحْتَ ٱلْخَوَافِقِ وَٱلْقَنَا بِثَكْلَىٰ ، وَلاَ زَهْرَاءَ مِنْ نِسْوَةٍ زُهْرِ

أَلَسْتُمْ أَقَلَّ ٱلنَّاسِ عِنْدَ لِوَائِهِمْ وَأَكْثَرَهُمْ عِنْدَ ٱلذَّبِيْحَةِ وَٱلْقِدْرِ ؟

البطء عن الضيف والسرعة إلى الطعام تستوجب الهجاء

ومثلُهُ في عكسِ قولِهِ ـ عليهِ السلامُ ـ للأَنصارِ : « إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُوْنَ عِنْدَ ٱلْجزَعِ ، وَتَقِلُّوْنَ عِنْدَ ٱلطَّمَعِ »[4] . . قولُ الآخرِ [مِنَ الطويلِ] :

---

(١) صَبارَّةُ القرِّ: شدَّةُ البردِ .

(٢) البيت من الوافر، الأرميةُ: السحاب الشديد الوقع . الحميم: مطر القيظ .

(٣) أَفوقِ ناصلٍ: الفَوَقُ : ميلٌ أَو ٱنكسارٌ في النصلِ ، وهوَ السهمُ .

(٤) له شهرة، ولم أره عن النبي ﷺ الآن.

صِغَارٌ مَقَارِيهِمْ عِظَامٌ جُعُورُهُمْ ... بِطَاءٌ عَنِ الدَّاعِي إِذَا لَمْ يَكُنْ أَكْلا[1]

كثرة كغثاء السيل

وقولُ الحماسيِّ [في «شرحِ حماسة أَبي تمَّامٍ» ٢/١٠٥٧ مِنَ الطويلِ] :

وَكَاثِرْ بِسَعْدٍ إِنَّ سَعْداً كَثِيرَةٌ ... وَلاَ تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلاَ نَصْرَا

يَرُوْعُكَ مِنْ سَعْدِ بْنِ عَمْرٍو جُسُوْمُهَا ... وَتَزْهَدُ فِيهَا حِيْنَ تَقْتُلُهَا خُبْرَا[2]

البرق الخلبي

وقولُ قُرادِ بنِ حَنَشٍ [في «شرحِ حماسةِ أَبي تمَّامٍ» ٢/ ١٠٣٥ـ١٠٣٦ مِنَ الطويلِ] :

وَأَنْتُمْ سَمَاءٌ يُعْجِبُ النَّاسَ نَوْؤُهَا ... وَأَكْذَبُ شَيْءٍ بَرْقُهَا وَرُعُوْدُهَا[3]

فَوَيْلُ اُمِّهَا خَيْلاً بَهَاءً وَشَارَةً ... إِذَا لاَقَتِ الأَعْدَاءَ لَوْلاَ صُدُوْدُهَا[4]

وذكرتُ هنا ما لا يليقُ بالأدبِ ذكرُهُ معَ كلامِ الإمامِ في كتابٍ فضلاً عَنْ مجلسٍ واحدٍ لولا سعةُ العُذرِ؛ بأَنَّ مجالِسَنا كالكشكولِ[5].

أبو العتاهية يهجو عبد الله بن معن بن زائدة

وقد جاءَ عَنِ السَّلفِ الطَّيِّبِ التَّرخيصُ في مثلِ ذلكَ ، وهوَ ما وقعَ مِنْ أَبي العتاهيةِ معَ عبدِ اللهِ بنِ معنِ بنِ زائدَةَ ، وقولُهُ لهُ [في «ديوانهِ» مِنَ البسيطِ] :

لَمْ تَنْدَ كَفَّاكَ مِنْ بَذْلِ النَّوَالِ كَمَا ... لَمْ يَنْدَ سَيْفُكَ مُذْ قُلِّدْتَهُ بِدَمِ

---

(١) مقاريهم ـ جمعُ مقراةٍ ـ: وهيَ القصعةُ الَّتي يُقرىٰ للضيفِ فيها . جُعُورُهُم ـ جمع جاعرة ـ: وهو حلقة الدبر ، وقصد بذلك كِبَرَهَا عندهم من كثرةِ أكلِهِم.

(٢) الخُبْرُ : العلمُ بالشيءِ .

(٣) نوؤُها: ضوؤها. وقيل عن النوء : إنه سقوط نجم في المغرب وطلوع رقيبه من ساعته في المشرق ، وذلك في كل ثلاثة عشر يوماً.

(٤) المعنى: أنَّهم في الهيئة والبهاءِ والمنظرِ فرسانٌ، إلاَّ أنَّهُ لاَ خيرَ فيهم عندَ ملاقاةِ الأعداءِ.

(٥) الكشكول: وعاء المتسول يجمع فيه رزقه، واسم كتاب لبهاء الدين العاملي. وأصل الكلمة آرامية.

وقولُهُ [في «ديوانه» ٦٠٨ مِنَ الهزجِ] :

فَصُغْ مَا كُنْتَ حَلَّيْتَ ... بِهِ سَيْفَكَ خِلْخَالاَ
فَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ ... إِذَا لَمْ تَكُ قَتَّالاَ

عبد الله يأمر غلمانه بارتكاب الفاحشة من أبي العتاهية

وما زالَ يهجوهُ بمثلِ ذلكَ ، وبما هوَ أَمضُّ منهُ . . حتَّىٰ ٱحتالَ عليهِ ، وأَظهرَ لَهُ المصافاةَ ، ودعاهُ ، فأَمرَ غِلمانَهُ أَنْ يرتكبوا منهُ الفاحشةَ بمرآهُ ، وتصالحا بعقبِ ذلكَ[1] .

السيوف الممدوحة

وفي عكسِ المعنىٰ يقولُ السَّمَوْأَلُ [في «ديوانه» ٤٩ـ٥٠ مِنَ الطويلِ] :

وَأَسْيَافُنَا فِيْ كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ ... بِهَا مِنْ قِتَالِ ٱلدَّارِعِيْنَ فُلُوْلُ
مُعَوَّدَةٌ أَنْ لاَ تُسَلَّ نِصَالُهَا ... فَتُغْمَدَ حَتَّىٰ يُسْتَبَاحَ قَتِيْلُ

هل عيب السيوف الفلول؟

والأَوَّلُ : شبيهٌ بقولِ النابغةِ الذبيانيِّ [في «ديوانه» ٦٠ منَ الطويلِ] :

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

معرفة عروة بن الزبير سيف أخيه

ويروىٰ [كما في «وفيات الأعيان» ٣/٢٥٧] : أَنَّ عروةَ بنَ الزبيرِ قَدِمَ علىٰ عبدِ المَلِكِ بنِ مروانَ دُبُرَ مقتلِ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ ، فطلبَ سيفَ أَخيهِ ، فعرضَ عليهِ عبدُ الملِكِ سيوفاً كثيرةً فيها سيفُ عبدِ اللهِ ، فأَخذَ واحداً منها ، فقالَ لَهُ عبدُ الملكِ : بِمَ عرفتَهُ؟ قالَ : بقولِ النابغةِ ، وأَنشدَ البيتَ .

لا ينبغي لنبي لبس لأمة أن ينزعها حتى يقاتل

وأَمَّا الثاني : فشبيهٌ بما صنعَهُ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ أُحدٍ ، وذلكَ أَنَّهُ كانَ مِنْ رأْيِهِ أَنْ لا يخرجَ عَنِ (ٱلمدينةِ) في لقاءِ قريشٍ ، ثمَّ لَمْ يزلْ بهِ بعضُ أَصحابهِ حتَّىٰ لَبِسَ لأْمَتَهُ[2] ، ولَمَّا ظنُّوا أَنَّهم ٱستكرهوهُ . .

---

(١) ذكر القصة في «الأغاني» (٤/٢٦) .
(٢) لأْمَتُهُ : دِرعُهُ ، وقيلَ : سلاحُهُ .

سُقِطَ في أَيديهم ، فقالوا لهُ ، فقالَ [ﷺ] : « لاَ ينْبَغِيْ لِنَبِيٍّ لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَنْزِعَهَا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ »[1] .

الشعراء وتلبية المنادي

وقالَ الفرزدقُ [في « ديوانهِ » ١/١٣٩ منَ الطويل] :

بِأَيْدِيْ رِجَالٍ لَمْ يُشِيمُوْا سُيُوْفَهُمْ ... وَلَمْ يُكْثِرُوْا الْقَتْلَىٰ بِهَا حِيْنَ سُلَّتِ[2]

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانهِ » ٤/١٦٣ منَ الطويل] :

إِذَا مَـا غَضِبْنَـا غَضْبَـةً مُضَـرِيَّـةً ... هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَو قَطَرَتْ دِمَا

وقال البُحتريُّ [منَ الوافر] :

فَتـىً هَـزَّ الْقَنَـا فَحَـوَىٰ سَنَـاءً ... بِهَـا لاَ بِـالأَحَـاظِـيْ وَالْجُـدُوْدِ

وقالَ يزيدُ المهلَّبيُّ [منَ الطويل] :

سَعَيْتُمْ فَأَدْرَكْتُمْ بِصَالِحِ سَعْيِكُمْ ... وَأَدْرَكَ قَـوْمٌ غَيْـرُكُـمْ بِـالْمَقَـادِرِ

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَريّ » ٤/٢٩١ منَ الطويل] :

وَمَا كُنْتَ مِمَّنْ أَدْرَكَ الْمُلْكَ بِالْمُنَىٰ ... وَلَـٰكِـنْ بِـأَيَّـامٍ أَشَبْـنَ النَّـوَاصِيَـا

وقالَ [في « العُكْبَريّ » ١/٧١ منَ المنسرح] :

أَحْسَنُ مَا يُخْضَبُ الْحَدِيْدُ بِهِ ... وَخَاضِبِيْهِ النَّجِيْعُ والْغَضَبُ[3]

يزيد بن المهلب والإمارة

وسلَّمَتْ إِحدىٰ حظايا يزيدِ بنِ المهلَّبِ بالإمارةِ عليهِ ، فقالَ متمثِّلاً بقولِ بشرِ بنِ قَطَنَةَ الأَسديِّ [منَ الطويل] :

---

(١) أخرجه عن جابر ابن الجارود في « المنتقىٰ » (٢٦٦) بلفظ : « حَتَّىٰ يُقَاتِلَ » . وأورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٦/١٠٧)، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) لم يشيموا : لم يغمدوا .

(٣) النَّجيعُ : الدَّمُ .

رُوَيْدَكِ حَتَّىٰ تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي   غَمَامَةُ هَـٰذَا ٱلْعَارِضِ ٱلْمُتَأَلِّقِ[1]

مكان الأمور الجسيمة

وقالَ العتَّابيُّ [في «الأغاني» ١٣/ ١٣٧ منَ الطويل] :

فَإِنَّ جَسِيمَاتِ ٱلْأُمُورِ مَشُوبَةٌ   بِمُسْتَوْدَعَاتٍ فِي بُطُوْنِ ٱلْأَسَاوِدِ

لا بد دون الشهد من إبر النحل

وقالَ الناظمُ [في «العُكبَريّ» ٣/ ٢٩٠ منَ الطويل] :

ذَرِيْنِي أَنَلْ مَا لاَ يُنَالُ مِنَ ٱلْعُلاَ   فَصَعْبُ ٱلْعُلاَ فِي ٱلصَّعْبِ وَٱلسَّهْلُ فِي ٱلسَّهْلِ
تُرِيْدِيْنَ لُقْيَانَ ٱلْمَعَالِي رَخِيْصَةً   وَلاَبُدَّ دُوْنَ ٱلشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ ٱلنَّحْلِ

طعم الموت لا يتغير

وقالَ [في «العُكبَريّ» ٤/ ١١٩ـ١٢٠ منَ الوافر] :

إِذَا غَـامَـرْتَ فِـيْ شَـرَفٍ مَـرُوْمِ   فَـلاَ تَقْنَـعْ بِمَـا دُوْنَ ٱلنُّجُـوْمِ
فَطَعْـمُ ٱلْمَـوْتِ فِـيْ أَمْـرٍ حَقِيْـرٍ   كَطَعْمِ ٱلْمَوْتِ فِيْ أَمْرٍ عَظِيْمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِيْ ٱلْمَرْءِ تُغْنِيْ   وَلاَ مِثْلُ ٱلشَّجَاعَةِ فِيْ ٱلْحَكِيْمِ
يَـرَىٰ ٱلْجُبَنَـاءُ أَنَّ ٱلْجُبْـنَ حَـزْمٌ   وَتِلْـكَ خَـدِيْعَـةُ ٱلطَّبْـعِ ٱللَّئِيْـمِ

وقالَ [في «العُكبَريّ» ٢/ ١١٤ منَ الطويل] :

إِذَا لَمْ تَجِدْ مَا يَبْتُرُ ٱلْفَقْرَ قَاعِداً   فَقُمْ وَٱطْلُبِ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي يَبْتُرُ ٱلْعُمْرَا

وقالَ [في «العُكبَريّ» ١/ ٢٧٠ منَ الطويل] :

أَهُـمُّ بِشَـيْءٍ وَٱللَّيَـالِـيْ كَـأَنَّهَـا   تُطَـارِدُنِـيْ عَـنْ كَـوْنِـهِ وَأُطَـارِدُ
وَحِيْداً مِنَ ٱلْخُلاَّنِ فِيْ كُلِّ بَلْدَةٍ   إِذَا عَظُمَ ٱلْمَطْلُوْبُ قَلَّ ٱلْمُسَاعِدُ

ولا يُحصىٰ كثرةً ما لَهُ في إثارةِ العزائمِ ، وتنبيهِ الحِفَاظِ ، وإذكاءِ الغَيْرةِ ، وإحماءِ المعاطسِ .

---

(١) الخبر مفصلاً في «وفيات الأعيان» (٦/ ٣٠٣) .

شجاعة زيد بن علي

ولمّا خرجَ زيدُ بنُ عليٍّ . . حذَّرهُ بعضُ أبناءِ عمِّه ، وقالَ لهُ : إنَّ أهلَ (العراقِ) خذلوا آباءَكَ ، فهُمْ خاذِلوكَ كما خذلوهُم ، فتأهَّبْ للموتِ أو دَعْ ، فقالَ متمثِّلاً [الأبيات لعنترة كما في « الأغاني » ٨/٢٤٨ منَ الكامل] :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي ٱلْحُتُوفَ كَأَنَّنِي ... أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ ٱلْحُتُوفِ بِمَعْزِلِ

فَأَجَبْتُهَا : إِنَّ ٱلْمَنِيَّةَ مَنْهَلٌ ... لاَ بُدَّ أَنْ أُسْقَىٰ بِكَأْسِ ٱلْمَنْهَلِ

فَٱقْنِي حَيَاءَكِ لاَ أَبَا لَكِ وَٱعْلَمِي ... أَنِّيَ ٱمْرُؤٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

شجاعة داوود بن علي وابنه موسى

ولمَّا خرجَ داودُ بنُ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ وٱبنهُ موسىٰ . . عذلَهُم بعضُ أصحابهم ، وقالَ لهم : ما تفعلونَ بشيخِ العربِ يزيدَ بنِ عمرَ بنِ هُبيرةَ في فرسانهِ بـ(العراقِ)؟ فقالَ أبو العبَّاسِ السفَّاحُ ـ وكانَ حاضراً ـ : يا عمُّ ، مَنْ أحبَّ الحياةَ ذَلَّ ، ثُمَّ تمثلَ بقولِ الأعشىٰ [في « ديوانهِ » ٣١٧ منَ الطويل] :

فَمَا مِيتَةٌ إِنْ مِتُّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ ... بِعَارٍ إِذَا ما غَالَتِ ٱلنَّفْسَ غُوْلُهَا[1]

فقالَ داودُ لابنهِ موسىٰ : صدقَ ٱبنُ عمِّكَ ، فلننهضْ معهُ ؛ فإمَّا أنْ نفوزَ ، وإمَّا أنْ نموتَ كراماً .

عبد الله بن الزبير وأمه

ويروىٰ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٧٣] : أنَّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ دخلَ علىٰ أُمِّهِ ، وقد أضرَّتْ[2] ، فسلَّمَ ، ودنا ، فقبَّلَ يدَها ، قالتْ : هٰذا وداعٌ فلا يبعدُ ، قال : إنِّي لأرىٰ هٰذا اليومَ آخرَ أيامي في الدنيا ، وإذا قُتِلتُ . . فٱعلمي أنِّي لحمٌ ودمٌ ، لا يضرُّني ما عساهُمْ

---

(١) غولُها ـ بالرفعِ : ما يغتالها .
(٢) أَضَرَّتْ : أصبحت عمياء.

بي صانعونَ ، قالتْ : صدقتَ يا بنيَّ ، فأَقمْ علىٰ بصيرتِكَ ، وٱمضِ أَمَماً في شأنكَ ، وتنمَّرْ لعدوِّكَ ، ولا تمكِّنِ ابنَ أَبي عقيلٍ منكَ ، ثُمَّ ٱستذنَتَهُ لتودِّعَهُ ، فدنا منها ، فقبَّلَتْهُ ، وعانقَتْهُ ، فوجدَتْ مسَّ الدرعِ ، فقالتْ : ما هٰذا صنيعُ مَنْ يريدُ الشهادةَ ، فقالَ : إِنَّما لبستُهُ لأَشُدَّ منكِ ، قالت : لا يشدُّ منِّي إلاَّ الثباتُ علىٰ الحقِّ ، فودَّعَها ، وخرجَ يحملُ علىٰ صفوفِ الشامِيِّينَ فيفرِّقُها ، وأَرسلتْ إِليهِ إِحدىٰ أَزواجهِ ـ وقد رأَتْ تفرُّقَ الناسِ عنهُ ـ أَأَخرجُ فأُقاتلُ معك ؟ فقالَ : لا ، وأَنشدَ [منَ الخفيف] :

كُتِبَ ٱلْقَتْلُ وَٱلْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ ٱلْغَانِيَاتِ جَرُّ ٱلذُّيُولِ

فلمَّا كانَ الليلُ . . قامَ يصلِّي إِلىٰ قريبِ السَّحَرِ ، ثُمَّ ٱحتبىٰ[1] بحمائلِ سيفهِ ، وأَغفىٰ قليلاً ، ثُمَّ : قامَ فتوضَّأَ ، وصلّىٰ ، وقرأَ : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] ، ثُمَّ قالَ بعدَ ٱنقضاءِ صلاتهِ : مَنْ كانَ عنِّي سائلاً . . فإِنِّي في الرعيلِ الأَوَّلِ ، ثُمَّ أَنشدَ [في « شرحِ حماسةِ أَبي تمَّامٍ » ١/٣٤١ منَ الطويل] :

وَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ ٱلْحَيَاةِ بِسُبَّةٍ وَلاَ مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ سُلَّمَا

ثُمَّ حَملَ حتَّىٰ بلغَ (الحُجُونَ) ، فرُميَ في وجههِ ، فلمَّا وجدَ سخونةَ الدمِ . . قال [في « شرح حماسةِ أَبي تمَّامٍ » ١/٣١٦ منَ الطويل] :

وَلَسْنَا عَلَىٰ ٱلأَعْقَابِ تَدْمَىٰ كُلُومُنَا وَلَٰكِنْ عَلَىٰ أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ ٱلدِّمَا

---

(١) ٱحتبىٰ : جلسَ علىٰ أَليتيهِ وضمَّ فخذيهِ وساقيه إِلىٰ بطنهِ بذراعيهِ ليستندَ ، وٱحتبىٰ بالثوبِ : أَدارهُ علىٰ ساقيهِ وظهرهِ وهو جالسٌ على نحوِ ما سبقَ ليستندَ ، وكذلكَ الاحتباءُ بالسيفِ .

ثُمَّ حَملَ علىٰ أَهلِ (الشام) ، فغاصَ فيهم ، فأعتوروهُ بسيوفِهم حتَّىٰ سقطَ ، وجاءَ الحجَّاجُ فوقفَ عليهِ ، وهو مَيْتٌ ، ومعهُ طارقُ بنُ عمرٍو ، فقالَ : ما ولدتِ ٱلنساءُ أَذكرَ مِنْ هـٰذا! وكانَ قد ٱنفضَّ مِنْ حولهِ عامَّةُ أَصحابهِ ، حتَّىٰ بعضُ أَولادهِ خرجوا إِلىٰ الحجَّاجِ في الأَمانِ ، منهم : حمزةُ وخُبَيْبٌ ، وعزمَ اللهُ لهُ بٱلثباتِ كما شجعتهُ عليهِ أُمُّه في كلامها السابقِ بعضهُ . وإِنَّها لأُمورٌ تقفُ لها الشعورُ ، وتذرفُ لها العيونُ ، وتمتلىءُ بها القلوبُ .

المفضل الضبي وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن

وروىٰ أَبو الفرجِ الأَصبهانيُّ [في « الأغاني » ١٩/ ٢٠٤] عَنِ ٱلمُفَضَّلِ بنِ أَحمدَ ٱلضَّبِّيِّ قالَ : خرجَ إِبراهيمُ بنُ عبدِ ٱللهِ بنِ ٱلحسنِ ، فلمّا كانَ بـ (ٱلمِرْبَدِ) . . ٱستسقىٰ ماءً ، فأُتيَ بهِ ، فشرِبَ ، ثُمَّ تمثَّلَ بأَبياتٍ منها [في «ديوان ضرار بن الخطاب» ٧٥ـ٧٦ من المنسرح] :

إِنِّـيْ لأَنْمِـيْ إِذَا ٱنْتَمَيْـتُ إِلَـىٰ ... عِـزٍّ عَـزِيـزٍ وَمَعْشَـرٍ صُـدُقِ[1]

بِيْـضٍ سِبَـاطٍ كَـأَنَّ أَعْيُنَهُـمْ ... تُكْحَلُ يَوْمَ ٱلْهِيَاجِ بِٱلْعَلَقِ[2]

فقلتُ : لِمَنْ هـٰذهِ؟ فقالَ : يقولها ضرارُ بنُ الخطَّابِ الفِهريُّ يومَ عَبَرَ الخندقَ علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ ، وتمثَّلَ بها عليُّ بنُ أَبي طالبٍ يومَ صفِّينَ ، والحسينُ يومَ الطَّفِّ ، وزيدُ بنُ عليٍّ يومَ السَّبخةِ ، ويحيىٰ بنُ زيدٍ يومَ الجوزجانِ ، فتطيَّرْتُ مِنْ تمثُّلِهِ بأَبياتٍ لَمْ ينشدها أَحدٌ إِلاَّ قُتِلَ ، ثُمَّ سرنا إِلىٰ باخمرىٰ ، فأَتاهُ نعيُ أَخيهِ محمَّدٍ ، فتغيَّرَ لونُهُ ، وجَرَضَ بريقِهِ[3] ، ثُمَّ أَجهشَ باكياً ، وقالَ : اللَّهمَّ إِنْ كنتَ

---

(١) أَنمي : أَنتمي وأَنتسبُ .

(٢) العلقُ : الدمُ الغليظُ ، وصفَهم بحمرةِ الأعينِ ؛ لشدَّةِ الغضبِ في الحربِ .

(٣) جَرَضَ بِريقِهِ : ابتَلعَ ريقَهُ على همٍّ وحزنٍ بالجهدِ .

تعلَمُ أَنَّ محمَّداً خرجَ يطلُبُ مرضاتِكَ ، ويؤثرُ أَنْ تكونَ كلمتُكَ العليا . فاْغفرْ لهُ ، واْرحمهُ ، واْرضَ عنهُ ، ثُمَّ تمثَّلَ [منَ البسيط] :

ٱللهُ يَعْلَـمُ أَنِّـيْ لَـوْ خَشِيتُهُـمُ ... لآنَسَ ٱلْقَلْبُ مِنْ خَوْفٍ لَهُمْ فَزَعَا

لَمْ يَقْتُلُوْكَ وَلَمْ أُسْلِمْ أُخيَّ لَهُمْ ... حَتَّىٰ نَعِيْشَ جَمِيْعاً أَوْ نَمُوْتَ مَعَا

قالَ المُفضَّلُ : فجعلتُ أُعزِّيهِ ، وأُعاتبهِ علىٰ ما أَظهرَ مِنْ جزعهِ. فقالَ : إِنِّي ـ واللهِ في هٰذا ـ لَكَما قالَ دريدٌ [في «ديوانه» ٦٣ـ٦٥ منَ الطويل] :

يَقُـوْلُ أَلاَ تَبْكِـيْ أَخَـاكَ وَقَـدْ أَرَىٰ ... مَكَانَ ٱلْبُكَا لٰكِنْ بُنِيْتُ عَلَىٰ ٱلصَّبْرِ

لِمَقْتَـلِ عَبْـدِ ٱللهِ وَٱلْهَـالِـكِ ٱلَّـذِيْ ... عَلَىٰ ٱلشَّرَفِ ٱلأَعْلَىٰ قَتِيْلِ أَبِيْ بَكْرِ

فَـإِمَّـا تَـرَيْنَـا لاَ تَـزَالُ دِمَـاؤُنَـا ... لَدَىٰ وَاتِرٍ يَسْعَىٰ بِهَا آخِرَ ٱلدَّهْرِ

فَإِنَّا لَلَحْمُ ٱلسَّيْفِ غَيْرَ نَكِيْرَةٍ ... وَنَلْحَمُهُ طَوْراً وَلَيْسَ بِذِيْ نُكْرِ

يُغَـارُ عَلَيْنَـا وَاتِـرِيْـنَ فَيُشْتَفَـىٰ ... بِنَا إِنْ أُصِبْنَا أَو نُغِيْرُ عَلَىٰ وِتْرِ(١)

بِذَاكَ قَسَمْنَا ٱلدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا ... فَمَا يَنْقَضِيْ إِلاَّ وَنَحْنُ عَلَىٰ شَطْرِ

قالَ المُفَضَّلُ : ثُمَّ ظهرت لنا جيوشُ أَبي جعفرٍ مثلَ الجرادِ ، فأَنشدَ إِبراهيمُ(٢) متمثِّلاً [في «الأغاني» ١٩/ ٢٠٤ منَ الطويل] :

إِنْ يَقْتُلُوْنِيْ لاَ تُصِبْ أَرْمَاحُهُمْ ... ثَأْرِيْ وَيَسْعَىٰ ٱلْقَوْمُ سَعْياً جَاهِدَا

نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِيْ جُذَيْمَةَ أَجْمَعَتْ ... أَمْـراً تُـدَبِّـرُهُ لِتَقْتُـلَ خَـالِـدَا

أَرْمِيْ ٱلطَّرِيْقَ وَإِنْ رُصِدْتُ بِضِيْقَةٍ ... وَأُنَازِلُ ٱلْبَطَلَ ٱلْكَمِيَّ ٱلْحَارِدَا(٣)

---

(١) الوِتْرُ : الثأر .

(٢) هو إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ حسنٍ العلويُّ . « السير » (٦/ ٢١٨) .

(٣) الكميُّ : الشجاعُ المقدامُ الجريءُ كانَ عليهِ سلاحٌ أو لمْ يكنْ . الحارد : الغضبان .

فقلتُ لهُ : لِمَنْ هـٰذا يا ٱبنَ رسولِ اللهِ ؟ قالَ : يقولهُ خالدُ بنُ جعفرِ بنِ كلابٍ يومَ (شِعْبِ جَبَلَةَ) ، ثُمَّ ٱنغمسَ في الحربِ ، فقلتُ لهُ : أتباشرُ القتالَ بنفسكَ ، وإنَّما العسكرُ منوطٌ بكَ؟! فتمثَّلَ بأبياتٍ لعويفِ القوافيِّ ، وٱلتحمتِ ٱلحربُ ، فقالَ : ٱحكني بشيءٍ يا مفضلُ ، فذكرتُ أبياتاً لعويفٍ لمّا كانَ هو ـ عليهِ السلامُ ـ قد ذكرهُ ، فأنشدتُهُ [مِنَ الطويلِ] :

أَبَىٰ كُـلُّ حُـرٍّ أَنْ يَبِيـتَ بِـوِتْـرِهِ ... وَيُمْنَـعَ مِنْـهُ ٱلنَّـوْمُ إِذْ أَنْـتَ نَـائِـمُ

أَقُـوْلُ لِفِتْيَـانٍ كِـرَامٍ تَـرَوَّحُـوْا ... عَلَىٰ ٱلْجُرْدِ فِيْ أَفْوَاهِهِنَّ ٱلشَّكَائِمُ[1]

قِفُوْا وَقْفَةً مَنْ يَحْيَ لاَ يَخْزَ بَعْدَهَا ... مَـنْ يُخْتَـرَمْ لاَ تَتْبَعْـهُ ٱللَّـوَائِـمُ

وَهَلْ أَنْتَ إِنْ بَاعَدْتَ نَفْسَكَ عَنْهُمُ ... لِتَسْلَـمَ فِيْمَـا بَعْـدَ ذَلِـكَ سَـالِـمُ ؟

فقالَ : أَعِدْها عليَّ ، فأعدتُها ، فتمطَّىٰ في ركابيهِ ، فقَطَعهما وحملَ ، فغابَ في القومِ يفرِّقهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ ، حتَّىٰ أتاهُ سهمٌ عائرٌ[2] فقتلهُ رضوانُ اللهِ عليهِ[3] .

أبو تمام والشجاعة

وما أحسنَ قولَ أبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٠٣ـ٣٠٤ مِنَ الطويلِ] :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ ٱلْمَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ ... إِلَيْهِ ٱلْحِفَاظُ ٱلْمُرُّ وَٱلْخُلُقُ ٱلْوَعْرُ

وَنَفْـسٌ تَعَـافُ ٱلضَّيْـمَ حَتَّـىٰ كَـأَنَّـهُ ... هُوَ ٱلْكُفْرُ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ أَو دُوْنَهُ ٱلْكُفْرُ

فَأَثْبَتَ فِيْ مُسْتَنْقَعِ ٱلْمَوْتِ رِجْلَهُ ... وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكِ ٱلْحَشْرُ

---

(١) الجردُ ـ جمع أجرد ـ : الحصان . الشكائمُ : ما يَلجم فمَ الفرسِ منَ الحديدِ .

(٢) سهمٌ عائرٌ : الطائشُ الذي لا يعرفُ راميهِ .

(٣) جاء في «الأغاني» (١٩/ ٢٠٥).

فَتَىً مَاتَ بَيْنَ ٱلطَّعْنِ وَٱلضَّرْبِ مِيْتَةً ... تَقُوْمُ مَقَامَ ٱلنَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ ٱلنَّصْرُ
تَرَدَّىٰ ثِيَابَ ٱلْمَوْتِ حُمْراً فَمَا دَجَىٰ ... لَهَا ٱللَّيْلُ إِلاَّ وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

وقالَ [في «ديوانهِ» ١/ ٤٠٤ مِنَ الوافرِ] :

فَتَىٰ ٱلنَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِيْ إِذَا مَا ... يَطُفْـنَ بِـهِ إِلَـىٰ خُلُـقٍ وَسَـاعِ
يُثِيْـرُ عَجَـاجَـةً فِـيْ كُـلِّ فَـجٍّ ... يَهِيْمُ بِهَا عَدِيُّ بْنُ ٱلرِّقَاعِ[1]
يَخُوْضُ مَعَ ٱلسِّبَاعِ ٱلْمَاءَ حَتَّىٰ ... لَتَحْسَبُـهُ ٱلسِّبَـاعُ مِـنَ ٱلسِّبَـاعِ
يُلَبِّيْ ٱلْحَزْمَ إِنْ حَاوَلْتَ يَوْماً ... بِـأَنْ يَسْطِيْـعَ غَيْـرَ ٱلْمُسْتَطَـاعِ
فَلَمْ يَرْكَبْ كَنَاجِيَةِ ٱلْمَهَارِيْ ... وَلَمْ تُرْكِبْ هُمُوْمَكَ كَٱلزَّمَاعِ[2]

وقالَ [في «ديوانهِ» ١/ ٣٩٣ـ٣٩٤ مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّ خَيْراً مِمَّا رَأَيْتُ مِنَ ٱلصَّفْـ ... ـحِ عَنِ ٱلنَّائِبَاتِ وَٱلإِغْمَاضِ
عَـزْمَـةٌ تَقْتَـدِيْ بِعَـزْمَـةِ قَيْـسِ بْـ ... ـنِ زُهَيْرٍ وَٱلْحَارِثِ بْنِ مُضَاضِ[3]
غَـرَضَـيْ نَكْبَتَيْـنِ مَـا فَتَـلاَ رَأْ ... ياً فَخَافَا عَلَيْهِ نَكْثَ ٱنْتِقَاضِ
مَـنْ أَبَـنَّ ٱلْبُيُـوْتَ أَصْبَحَ فِـيْ ثَـوْ ... بٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ لَيْسَ بِٱلْفَضْفَاضِ[4]
وَٱلْفَتَـىٰ مَـنْ تَعَـرَّقَتْـهُ ٱللَّيَـالِـيْ ... وَٱلْفَيَافِيْ كَٱلْحَيَّةِ ٱلنَّضْنَاضِ[5]

---

(١) ذكرَ الاسمَ لمناسبتهِ للقافيةِ، ولا علاقةَ لهُ بالموضوعِ .

(٢) ناجيةُ المهاري : الناقةُ الكريمةُ . الزَّماعُ : العزمُ علىٰ الرحيلِ ؛ أي : لم تُضَعِ الرحلُ علىٰ شيءٍ يضاهي الناقة الكريمةَ ، ولَم تركبْ همومُكَ علىٰ دابةٍ مثلُ عزمِكَ علىٰ الرحيلِ .

(٣) العزمُ : الصبر على الشدائدِ . وعزمةٌ : خبرُ (إنَّ) في البيتِ السابقِ . وقيسُ بنُ زهير العبسي مشهورٌ ، حاربَ ذِبيانَ وانتقلَ في البلادِ كثيراً ، والحارثُ بنُ مضَاضٍ ينتسبُ في جُرْهُمَ، كانَ رئيساً في (مكةَ) أيامَ كانَ قومهُ فيها.

(٤) أَبنَّ : أَقَامَ .

(٥) الحيةُ النضناضُ : التي لا تثبتُ في مكانها لِشرَّتها ونشاطِها .

كُـلَّ يَـوْمٍ لَـهُ بِصَـرْفِ ٱللَّيَـالِـيْ فَتْكَـةٌ مِثْـلُ فَتْكَـةِ ٱلْبَـرَّاضِ[1]

تسهيل الصعب بم يكون؟

وقالَ أبو عبادةَ [البُحتريُّ في « ديوانهِ » ١/ ٦٣٣-٦٣٤ مِنَ الخفيف] :

يَـا نَـدِيْمَـيَّ بِـالسَّـوَاجِيْـرِ مِـنْ شَمْـ ـسِ بْنِ عَمْرٍو وَبُحْتَرِ بْنِ عَتُوْدِ[2]
أُطْلُبَـا ثَـالِثـاً سِـوَايَ فَـإِنِّـيْ رَابِـعُ ٱلْعِيْسِ وَٱلـدُّجَـىٰ وَٱلْبِيْـدِ
لَسْتُ بِٱلْعَاجِزِ ٱلضَّعِيْفِ وَلاَ ٱلْقَا ئِلِ يَوْماً : إِنَّ ٱلْغِنَىٰ بِٱلْجُدُوْدِ[3]
وَإِذَا ٱسْتُصْعِبَـتْ مَقَـادَةُ أَمْـرٍ سَهَّلَتْهُ أَيْدِي ٱلْمَهَارَىٰ ٱلْقُوْدِ[4]

المتنبي والشجاعة

وما أَحسنَ قولَ الناظمِ [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٤٨-١٤٩ مِنَ الطويلِ] :

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا ٱلدَّهْرُ وَحِيْدَاً، وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيْ ٱلصَّبْرُ ؟!
وَأَشْجَعُ مِنِّيْ كُلَّ يَوْمٍ سَلاَمَتِيْ وَمَا ثَبَتَتْ إِلاَّ وَفِيْ نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرَّسْـتُ بِـالأَيَّـامِ حَتَّـىٰ تَـرَكْتُهَـا تَقُوْلُ: أَمَاتَ ٱلْمَوْتُ أَمْ ذُعِرَ ٱلذُّعْرُ[5] ؟
وَأَقْـدَمْـتُ إِقْـدَامَ ٱلأَتِـيِّ كَـأَنَّ لِـيْ سِوَىٰ مُهْجَتِيْ أَوْ كَانَ لِيْ عِنْدَهَا وِتْرُ[6]
ذَرِ ٱلنَّفْسَ تَأْخُذْ حَظَّهَا قَبْلَ بَيْنِهَا فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا ٱلْعُمْرُ

---

(١) البرَّاضُ بن قيس الكناني توفي نحو (٣٥ ق.هـ) ، قتلَ عروةَ الرجال ، فاتك جاهلي ، يضرب بفتكهِ المثل ، كان فجَّر حربَ الفجار التي وقعت بينَ قيسٍ وكنانةَ .

(٢) السواجرُ : نهرٌ مشهورٌ مِنْ عملِ (منبجٍ) بـ(سوريا) .

(٣) الجدودُ : الحظوظُ .

(٤) المهارىٰ ـ جمعُ مهريَّةٍ ـ : وهي الناقةُ التي تسبق الخيل ، نسبةً إلىٰ بني مهرة بنِ حيدانَ ؛ وهم حيٌّ مِنَ العربِ ٱشتهروا بإبلهم . القودُ ـ جمعُ قوداءَ ـ : وهي الطويلةُ الأعناقِ .

(٥) في «العكبري» : (بِٱلآفَاتِ) بدل (بِٱلأَيَّامِ).

(٦) الأَتِيُّ : السيل المندفع .

وَلاَ تَحْسَبَـنَّ ٱلْمَجْـدَ زِقّـاً وَقَيْنَـةً   فَمَا ٱلْمَجْدُ إِلاَّ ٱلسَّيْفُ وَٱلْفَتْكَةُ ٱلْبِكْرُ
وَتَضْرِيبُ هَامَاتِ ٱلْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَىٰ   لَكَ ٱلْهَبَوَاتُ ٱلسُّودُ وَٱلْعَسْكَرُ ٱلْمَجْرُ[1]
وَتَرْكُكَ فِيْ ٱلدُّنْيَا دَوِيّاً كَأَنَّمَا   تَدَاوَلَ سَمْعَ ٱلْمَرْءِ أَنْمُلُهُ ٱلْعَشْرُ

ابن المقرب والشجاعة

وفي « ديوانِ ٱبنِ المقربِ » الغَثُّ والسمينُ ؛ فمِنْ سمينهِ الَّذي يذكي الحميَّةَ ، ويهيجُ الغَيْرَةَ ، ويكادُ يقذفُ بالمَوْتُورِ مِنْ سرجهِ إِلىٰ ساحةِ الوغىٰ . . قولُهُ [منَ الوافر] :

تُخَـوِّفُنِـيْ ٱبْنَـةُ ٱلْعَبْـدِيِّ فَتْكِـيْ   وَإِقْحَامِيْ ٱلْمَهَالِكَ وَٱفْتِرَاعِيْ
وَتَعْـذِلُنِـيْ عَلَـىٰ إِنْفَـاقِ مَـالِـيْ   وَتَـزْعُـمُ أَنَّـهُ لِلْفَقْـرِ دَاعِـيْ
فَقُلْتُ لَهَا وَقَدْ أَرَبَتْ وَزَادَتْ   رُوَيْدَكِ لاَ شُفِيْتِ فَلَنْ تُطَاعِيْ
أَأَخْشَـىٰ ٱلْفَقْـرَ وَٱلـدُّنْيَـا مَتَـاعٌ   وَرَبِّـيْ بِـٱلْكِـرَام أَبَـرُّ رَاعِـيْ
وَلَمْ يَحْفَظْ مُضَاعَ ٱلْمَجْدِ شَيْءٌ   مِـنَ ٱلأَشْيَـاءِ كَـٱلْمَـالِ ٱلْمُضَـاعِ
ذَرِيْنِـيْ وَٱلْمُلُـوكَ بِكُـلِّ أَرْضٍ   أُكَايِلُهَـا ٱلـرَّدَىٰ صَـاعـاً بِصَـاعِ
فَمَـا أَيْمَـانُهُـمْ تَعْلُـوْ شِمَـالِـيْ   وَلاَ أَبْـوَاعُهُـمْ تَعْلُـوْ ذِرَاعِـيْ[2]
سَـأَطْلُـبُ حَـقَّ آبَـائِـيْ وَحَقِّـيْ   وَلَوْ مِنْ بَيْنِ أَنْيَابِ ٱلأَفَاعِيْ

سرقة الشعراء من بعضهم

وقولُهُ : (وَلَمْ يَحْفَظْ مُضَاعَ ٱلْمَجْدِ شَيْءٌ . . . إلخ) مأخوذٌ برُمَّتهِ مِنْ أَبي تمَّامٍ ، وقد أخذهُ الناظمُ بمعناهُ ، فقالَ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٨٥ منَ الطويل] :

إِلَىٰ رَبِّ مَالٍ كُلَّمَا شَتَّ شَمْلُهُ   تَجَمَّعَ فِيْ تَشْتِيتِهِ لِلْعُلاَ شَمْلُ

---

(١) الهبواتُ : الغبارُ الكثيفُ . المَجْرُ ، يُقالُ : جيشٌ مَجْرٌ ، كثيرٌ جداً .

(٢) أبواعٌ - جمع باعٍ وبوعٍ : وهو وحدةُ قياسٍ مقدارُها ما بينَ الكفينِ حالَ بسطِهِمَا ، وتعادل : (٢) متراً . والذراعُ : وحدةُ قياسٍ مقدارُهَا ما بينَ طرفِ المرفقِ إلى طرفِ الإصبعِ الوسطىٰ . والبوع أيضاً عظم يلي إبهام الرجل .

وقالَ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ٢٦٤ منَ الكامل] :

أَبَـداً يُصَـدِّعُ شَعْـبَ وَفْـرٍ وَافِـرٍ ... وَيَلُمُّ شَعْبَ مَكَارِمٍ مُتَصَدِّعَا[1]

إلاَّ أَنَّهُ أَرادَ أَنْ يمدحَ فذمَّ ؛ وذلكَ لاقتضاءِ كلامِهِ تصدُّعَ مكارمِ ممدوحهِ .

وقولُ أَبي تمَّامِ السابقُ : (يَخُوْضُ مَعَ ٱلسِّبَاعِ ٱلْمَاءَ حَتَّىٰ . . . إلخ) مأخوذٌ مِنْ قولِ عبدِ اللهِ بنِ ثعلبةَ الأَزديِّ [من مجزوء الكامل] :

تَـرِدُ ٱلسِّبَـاعُ مَعِـيْ فَتَحْـ ... ـسَبُنِـيْ ٱلسِّبَـاعُ مِـنَ ٱلسِّبَـاعِ

اجمل ما قيل في التحريض على الإباء

والأَشعارُ في التحريضِ علىٰ الإباءِ والأَنَفِ مِنِ ٱحتمالِ الضيمِ أَكثرُ مِنْ أَنْ تُذكَرَ ، ويأتي في هٰذهِ المجموعةِ الكثيرُ الطيِّبُ منها بحسَبِ المناسباتِ ، ومِنْ أَحسنِها ، أَو أَحسنُها علىٰ الإطلاقِ عندي . . قولُ بعضِ الخوارجِ [في «شعرِ الخوارجِ» ١١٧-١١٨ منَ الطويل] :

وَمَنْ يَخْشَ أَظْفَارَ ٱلْمَنَايَا فَإِنَّنَا ... لَبِسْنَا لَهُنَّ ٱلسَّابِغَاتِ مِنَ ٱلصَّبْرِ

وَإِنَّ كَرِيْهَ ٱلْمَوْتِ عَذْبٌ مَذَاقُهُ ... إِذَا مَا مَزَجْنَاهُ بِطِيْبٍ مِنَ ٱلذِّكْرِ

* * *

---

(١) الشَّعبُ : مصدر شَعَبْتُ الشيءَ إذا لأَمتُه . الوفرُ : الغنىٰ . والمعنى: يفرق المال ويجمع المكارم .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي - في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦٠ منَ الطويل]:

وَخُضْرَةُ ثَوْبِ ٱلْعَيْشِ فِيْ ٱلْخُضْرَةِ ٱلَّتِيْ	تُرِيْكَ ٱحْمِرَارَ ٱلْمَوْتِ فِيْ مَدْرَجِ ٱلنَّمْلِ

تشبيه المتنبي السيف

شبَّهَ صفيحةَ السيفِ بمدرجِ النمل ؛ لِمَا فيهِ مِنْ آثارِ الفِرِنْدِ[1] ، وقالَ : إنَّ خفضَ العيشِ وطيبَهُ لا يكونُ إلاَّ في ٱستعمالِ السيفِ الَّذي يميلُ صفاؤهُ إلىٰ الخُضرةِ ؛ لأنَّهُ أَفضلُ السيوفِ ، وفي المعنىٰ قولُهُ ﷺ : « وَجُعِلَ رِزْقِيْ تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِيْ »[2] .

أفضل المكاسب المغانم

وصرَّحَ الفقهاءُ : بأَنْ أَفضلَ المكاسبِ المغانمُ ، فما جاءَ بها الناظمُ مِنْ كيسهِ ، ولا استنزلَها مِنْ سمائهِ ، ولا يُحصىٰ مَنِ ٱفتخرَ مِنَ ٱلعربِ بصُفُورةِ اليدِ مِنَ ٱلمالِ مَعَ ٱلاحتفاظِ بالسلاحِ .

تمادح الشعراء بصفورة اليد إلا من عدة القتال

قالَ أَبو الأَبيضِ العَنْسيُّ [في « ديوان الحماسة » ١/ ١٧٩ منَ الطويل] :

وَمَا لِيَ مَالٌ غَيْرَ دِرْعٍ وَمِغْفَرٍ	وَأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ ٱلْحَدِيْدِ صَقِيْلِ
وَأَسْمَـرَ خَطِّـيِّ ٱلْقَنَـاةِ مُثَقَّـفٍ	وَأَجْرَدَ عُرْيَانِ ٱلسَّرَاةِ طَوِيْلِ[3]

---

(١) الفِرِنْدُ : ما يُرىٰ في السيفِ مِنْ تموُّجاتِ الضوءِ . ومدرجُ النملِ: طريقةُ الذي يمشي فيهِ.

(٢) طرف الحديث أورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٥/ ٢٦٧) وقال: رواه الطبراني ، وفيه عبد الرحمن بن ثابت ، وثقه ابن المديني وأبو حاتم وغيرهما ، وضعفه أحمد وغيره ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) الأسمرُ المثقَّفُ : الرمُح المسوَّىٰ . السراةُ مِن كلِّ شيءٍ: أعلاهُ ، وسراةُ الفرسِ أعلىٰ مَتنهِ .

وقالَ حاتِمٌ [في « ديوانهِ » ٤٧ منَ الطويل] :

مَتَىٰ مَا يَجِيءْ يَوْماً إِلَىٰ ٱلْمَالِ وَارِثِي ... يَجِدْ جَمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلأَىٰ وَلاَ صِفْرِ
يَجِدْ فَرَساً مِثْلَ ٱلْعَنَانِ وَصَارِماً ... حُسَاماً إِذَا مَا هَزَّ لَمْ يَرْضَ بِٱلْهَبْرِ[1]
وَأَسْمَرَ خَطِّيّاً كَأَنَّ كُعُوبَهُ ... نَوَىٰ ٱلْقَسْبِ قَدْ أَرْبَىٰ ذِرَاعاً عَلَىٰ ٱلْعَشْرِ[2]

هٰذا ما يقولُ أخو طيٍّ ، أمَّا صاحبنا : فقد شاءَ مِنْ ولعهِ بالغلوِّ أنْ يزيدَ عليهِ ، فقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٩٢ منَ الطويل] :

وَأَسْمَرَ ذِي عِشْرِينَ تَرْضَاهُ وَارِداً ... وَيَرْضَاكَ فِي إِيرَادِهِ ٱلْخَيْلَ سَاقِيَا

وقالَ المجنُّ بنُ جُوَينٍ يمدحُ عمرَو بنَ معديكربَ الزُّبيديَّ حينما أطلقَهُ مِنَ الأسرِ [منَ الطويل] :

فَتىً جُلُّ مَا يَحْوِيهِ زَغْفٌ مُفَاضَةٌ ... وَطَرْفٌ جَوَادٌ وَٱلرُّدَيْنِيَّةُ ٱلسُّمْرُ[3]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عَنَمَةَ الضبيُّ [منَ البسيطِ] :

وَقَدْ أَرُوحُ أَمَامَ ٱلْحَيِّ يَقْذِفُنِي ... صَافِي ٱلأَدِيمِ كُمَيْتُ ٱللَّوْنِ مَكْسُوبُ
مُجَنَّبٌ مِثْلُ شَاطِي ٱلرَّمْلِ مُحْتَقَرٌ ... بِٱلْعَفْرَتَيْنِ عَلَىٰ أُوْلاَهُ مَصْبُوبُ
فَذَاكَ ذُخْرِي إِذَا مَا خَيْلُهُمْ رَكَضَتْ ... إِلَىٰ ٱلْمَنُونِ هَفَا لِلرَّوْعِ سَرْحُوبُ[4]

---

(١) الهبرُ : قِطَعُ اللحمِ .

(٢) القَسبُ : نوعٌ مِنَ التمورِ .

(٣) زَغفٌ مَفَاضَةٌ : درعٌ واسعةٌ . الرُّدَينيَّةُ : الرماحُ ، وسميتْ بذلكَ؛ نسبةً إلى امرأةٍ كانتْ تسوي الرماحَ .

(٤) السرحوبُ : الطويلُ الحسنُ الجسمِ ، وفرسٌ سرحوبٌ : طويلةٌ على وجهِ الأرضِ .

وقالَ عمرُو بنُ براقِ الهمدانيُّ [في «الأغاني» ٢١/ ١٧٥-١٧٦ مِنَ الطويلِ]:

وكيفَ يَنامُ ٱللَّيْلَ مَنْ جُلُّ مَالِهِ ... حُسَامٌ كَلَوْنِ ٱلْمِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمُ
كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ ٱللهِ لاَ تَأْخُذُونَهَا ... مُرَاغَمَةً مَا دَامَ لِلسَّيْفِ قَائِمُ
وَمَنْ يَطْلُبِ ٱلْمَالَ ٱلْمُمَنَّعَ بِٱلْقَنَا ... يَعِشْ مَاجِداً[1] أَوْ تَخْتَرِمْهُ ٱلْخَوَارِمُ

الحجر الذي لا يعجبك يشجُّك

وذكرَ الزبيرُ بنُ بكَّارٍ: أَنَّ نُهَيْكَ بنَ أَسافِ الحارثيَّ ٱفتقرَ، فقدمَ علىٰ مصعبِ بنِ الزبيرِ، حينَ بلغهُ أَنَّ أَهلَ (الراذانِ) قد خلعوهُ، فندبَ الناسَ مراراً، فلم ينتدبْ لَهُ إلاَّ نهيكُ، قامَ محتزماً بحبلٍ، وعلىٰ رأسهِ سَمَلُ[2] عمامةٍ مُتنكِّباً قوساً عربيَّةً، فقالَ: أنا لهُم، قالَ: ومَنْ أَنتَ؟ فٱنتسبَ لهُ، فقالَ: ٱجلسْ، وكأَنَّهُ ٱزدراهُ، ثُمَّ أَعادَ القولَ فلمْ يقُمْ غيرُهُ، فعلَ ذلكَ مراراً، فقالَ لهُ مصعبٌ: ما عندكَ؟ قالَ: عزمٌ إذا أَبصرتُ، ومشاورةٌ إذا شككتُ، قالَ: أَنتَ لها، وعقدَ لهُ عليها، وقالَ لهُ: إنْ أَظفرَكَ اللهُ بها.. أَطعمتُكها سنةً، فخرجَ وظفرَ، وبعثَ إلىٰ أُمِّهِ إبلاً مُحمَّلَةً، وكتبَ إليها يقول [مِنَ الطويلِ]:

أَأُمَّ نُهَيْكٍ إِرْفَعِي ٱلظَّنَّ صَاعِداً ... وَلاَ تَيْأَسِي أَنْ يُثْرِيَ ٱلدَّهْرَ آيِسُ
سَأَكْسِبُ مَالاً أَوْ تَبِيتِنَّ لَيْلَةً ... بِصَدْرِكِ مِنْ هَمٍّ عَلَيَّ وَسَاوِسُ
وَقَدْ عَلِمَتْ خَيْلٌ بِرَاذَانَ أَنَّنِي ... شَدَدْتُ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ ٱلْقَوْمِ فَارِسُ
وَمَنْ يَطْلُبِ ٱلْمَالَ ٱلْمُمَنَّعَ بِٱلْقَنَا ... يَعِشْ مُثْرِياً أَوْ يُودَ فِيْمَا يُمَارِسُ[3]

---

(١) في «الأغاني»: يعش ذا غنىً.
(٢) السَّمَلُ: ٱلخلَقُ مِنَ الثِّيابِ.
(٣) الأبيات في «الأغاني» (٢٤/ ١٤) لعبد الله ٱبن أبي معقلٍ في غير هذا الموضوع.

الغلام القيسي

وقال غُلامٌ مِنْ قيسٍ [مِنْ مجزوءِ الرمَلِ] :

اِقْـذِفِ ٱلسَّـرْجَ عَلَـىٰ ٱلْمُهْـــرِ وَقَـرِّطْـهُ ٱللِّجَـامَـا
ثُـمَّ صُـبَّ ٱلـدِّرْعَ فِـيْ رَأْسِـيْ وَنَـاوِلْنِـيَ ٱلْحُسَـامَـا
فَمَتَـىٰ أَطْلُـبُ إِنْ لَـمْ أَطْلُـبِ ٱلـرِّزْقَ غُـلاَمَـا
سَـأَجُـوبُ الأَرْضَ أَبْغِيْـــهِ حَـلاَلاً أَوْ حَـرَامَـا
فَلَعَـلَّ ٱلظَّعْـنَ يَنْفِـيْ ٱلْـفَقْرَ أَوْ يُـدْنِـيْ ٱلْحِمَـامَـا

رثاء هدبة اليشكري

وقالَ أَيُّوبُ بنُ خولةَ يرثي هدبةَ اليَشكُرِيَّ ، وهو مِنَ ٱلخوارجِ في أَيّامِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ [في « شعرِ الخوارجِ » ٧١ مِنَ الطويلِ] :

فَيَا هُذْبَ لِلْهَيْجَا وَيَا هُذْبَ لِلْفِدَا وَيَا هُذْبَ لِلْخَصْمِ ٱلأَلَدِّ تُحَارِبُهْ
تَزَوَّدْتَ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعاً وَمِغْفَراً وَعَضْباً حُسَاماً لَمْ تَخُنْكَ مَضَارِبُهْ
وَأَجْرَدَ مَحْبُوكِ ٱلسَّرَاةِ كَأَنَّهُ إِذَا ٱنْقَضَّ وَافِي ٱلرِّيْشِ حُمْشٌ مَخَالِبُهْ[1]

القطامي والبداوة

وقالَ القُطاميُّ [في « ديوانِهِ » ٧٦ مِنَ الوافرِ] :

فَمَنْ تَكُنِ ٱلْحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيَّ رِجَالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا ؟
وَمَنْ رَبَطَ ٱلْجِحَاشَ فَإِنَّ فِيْنَا قَنـاً صُلْباً وَأَفْرَاساً حِسَانَا

رثاء الوليد بن طريف

وقالتْ ليلىٰ بنتُ طريفٍ ترثي أَخاها الوليدَ [في « وفياتِ الأَعيانِ » ٦/ ٣٢ مِنَ الطويلِ] :

فَتىً لاَ يُحِبُّ ٱلزَّادَ إِلاَّ مِنَ ٱلتُّقَىٰ وَلاَ ٱلْمَالَ إِلاَّ مِنْ قَناً وَسُيُوفِ
وَلاَ ٱلذُّخْرَ إِلاَّ كُلَّ جَرْدَاءَ صِلْدِمٍ مُعَاوِدَةٍ لِلْكَرِّ بَيْنَ صُفُوفِ[2]

---

(١) وافي الريشِ : الجارح الذي كثر ريشه وتم . حُمْشٌ : شديدةٌ .

(٢) جرداء : قصيرةُ ٱلشَّعرِ ، وهوَ من علاماتِ ٱلعِتاقِ والكرامِ في الخيلِ . الصِّلْدِمُ : الشديدُ الحافرِ .

المعري والمال المكتسب في الحروب

وقد أغارَ علىٰ أوَّلِهمَا المعرِّيُّ في قولهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٢٥ مِنَ الوافرِ] :

رَأَيْتُكَ سَاخِطاً مَا جَاءَ عَفْواً ... وَلَوْ جَادَتْكَ بِالذَّهَبِ الْعِهَادُ[1]

فَمَا تَعْتَدُّ مَالاً غَيْرَ مَالٍ ... حَبَاكَ بِهِ طِعَانٌ أَوْ جِلَادُ[2]

فقراء بني النطّاح

وقالَ بكرُ بنُ النَّطَّاحِ [مِنَ الطويلِ] :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ ... وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلِ

صورة رائعة من شجاعة بكر بن النطاح

فيُروىٰ [كما في « الأغاني » ١١٦/١٩] : أَنَّهُ وفدَ علىٰ أبي دُلَفٍ العِجْليِّ ، فقالَ لهُ : أَراكَ تتظاهَرُ بالشجاعةِ في أشعارِكَ ، وما رأيتُ لها أثراً في أفعالكِ ، فقالَ : وما عسىٰ أنْ يكونَ مِنْ شيخٍ راجلٍ أعزلَ ، فقلَّدَهُ سيفاً ، وأعطاهُ فرساً ، فخرجَ لوجههِ ، وجمعَ مِنَ الذُّوْبَانِ[3] والصعالكِ ما أَلَّفَ بهِ جماعةً ، ثُمَّ عرضَ لقافلةٍ مِنْ قوافلِ الأميرِ فاستاقَها ، وقتلَ مَنْ فيها ، وأغذَّ السيرَ حتَّىٰ سبقَ الطلبَ ، فقالَ أبو دلفٍ : أنا الَّذي هيجتُهُ ، ثُمَّ استدعاهُ ، وسوَّغهُ ما أخذَ .

رواية أخرى للقصة

ويُروىٰ : أَنَّ القصَّةَ إنَّما كانتْ معَ بعضِ بني بكرٍ لا معهُ ، وأَنَّ أبا دُلفٍ قالَ لهُ : أتستميحُ وأبوكَ القائلُ[4] ؟! فقالَ لهُ : لقد أودعتَها

---

(١) العِهَادُ : المطرُ .

(٢) الطعانُ والجلادُ : القتالُ والثباتُ في مقارعةِ الأعداءِ .

(٣) الذوبان : اللصوصُ ؛ وسموا بذلكَ لأنهمْ كالذئبانِ، وأصلهُ بالهمزِ لكنهُ خففَ فانقلبت واواً .

(٤) أي : أحد أولاد بكر بن النطاح، وقد قال أبوه : ومن يفتقر منا . . .

أُذُناً واعيةً ، ثُمَّ فعلَ فِعلتهُ الَّتي فعلَ ، وهو مِنَ ٱلظالمينَ ، واللهُ أَعلمُ أَيُّ ذلكَ كانَ ، فالرواياتُ تختلفُ .

مديح بشار

وقالَ بشَّارٌ يمدحُ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٠٥ مِنَ الطويلِ] :

إِذَا خَزَنَ ٱلْمَالَ ٱلْبَخِيْلُ فَإِنَّمَا ... خَزَائِنُهُ خَطِّيَّةٌ وَدُرُوْعُ[(١)]
وَبِيْضٌ بِهَا مِسْكٌ لِمَسِّ أَكُفِّهِمْ ... عَلَىٰ أَنَّهَا رِيحُ ٱلدِّمَاءِ تَضُوْعُ[(٢)]

اقتداء ابن المعتز به

وهو معنىً جليلٌ حسدَهُ عليهِ ٱبنُ المعتزِّ ، فأَحسنَ ٱتِّباعَهُ حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٥ مِنَ الطويلِ] :

مُلُوْكٌ إِذَا خَاضُوْا ٱلْوَغَىٰ فَسُيُوْفُهُمْ ... مَقَابِضُهَا مِسْكٌ وَسَائِرُهَا دَمُ

إجادة المديح عند المعري

عَلَىٰ أَنَّهُ قد يؤخذُ علىٰ بشَّارٍ أَنَّ الرائحةَ المسكيَّةَ لا تكونُ إِلاَّ لدماءِ الشهداءِ، فكيفَ يُثنيْ علىٰ ممدوحهِ بحربهم؟ وإِنَّما أَصابَ كبدَ المعنىٰ الأَعمىٰ الثاني في قولهِ [أَي المعرِّيِّ في « سقطِ الزندِ » ١٦١ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّمَا ٱلضَّرْبُ يَفْرِيْ مِنْ كُلُوْمِهِمُ ... أَكْبَادَ سِرْبٍ رَعَيْنَ ٱلنَّوْرَ فِي ٱلْكُنُسِ[(٣)]
سَالَتْ تَضَوَّعُ حَتَّىٰ ظَنَّ جَارِحُهُمْ ... قَسِيْمَةَ ٱلْمِسْكِ جُرْحَ ٱلْفَارِسِ ٱلنَّدُسِ[(٤)]

الرثاء والمديح عند الشعراء

وقالَ مروانُ ٱبنُ أَبي حفصةَ يرثي مَعْناً فيما نحنُ بسبيلهِ [في «ديوانهِ» ٨٠ مِنَ الوافرِ] :

وَلَمْ يَكُ كَنْزُهُ ذَهَباً وَلَٰكِنْ ... حَدِيْدَ ٱلْهِنْدِ وَٱلْحَلَقَ ٱلْمُذَالاَ[(٥)]

---

(١) خَطيةٌ : رماحٌ منسوبةٌ إِلىٰ بلدةِ (خَطٌّ) ، وهو موضعٌ بـ(اليمامةِ) .
(٢) تضوعُ : تنتشرُ وتفوحُ .
(٣) النَّوْرُ : الزهرُ . الكُنُسُ ـ جمعُ كناسٍ ـ : وهو مأْوىٰ الظبي .
(٤) النَّدُسُ : الحاذقُ بالطعنِ .
(٥) الحَلَقُ المُذَالُ : الدرعُ المصنوعُ صناعةً جيدةً محكمةً .

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٨٠ مِنَ الطويلِ] :

قَلِيلُ فُضُوْلِ ٱلزَّادِ إلاَّ صَوَاهِلاً ظَهَارِيَّ طَعْنٍ أَوْ حَدِيْداً يُظَاهِرُهْ(١)

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٧٠ـ٢٧١ مِنَ الكاملِ] :

كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً ذَهَباً فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بَلْقَعُ

وَإِذَا ٱلْمَكَارِمُ وَٱلصَّوَارِمُ وَٱلْقَنَا وَبَنَاتُ أَعْوَجَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ(٢)

وقالَ أَبو المنيعِ قرواشٌ معتمدُ الدولةِ [في « وفياتِ الأعيانِ » ٥/ ٢٦٤ مِنَ الكاملِ] :

مَنْ كَانَ يَحْمَدُ أَو يَذُمُّ مُوَرَّثاً لِلْمَالِ مِنْ آبَائِهِ وَجُدُوْدِهِ

فَأَنَا ٱمْرُؤٌ للهِ أَشْكُرُ وَحْدَهُ شُكْراً كَثِيْراً جَالِباً لِمَزِيْدِهِ

لِيْ أَشْقَرٌ مِلْءُ ٱلْعِنَانِ مُغَاوِرٌ يُعْطِيْكَ مَا يُرْضِيْكَ مِنْ مَجْهُوْدِهِ

وَمُهَنَّدٌ عَضْبٌ إِذَا جَرَّدْتُهُ خِلْتَ ٱلْبُرُوْقَ تَمُوْجُ فِيْ تَجْرِيْدِهِ

وَمُثَقَّفٌ لَدْنُ ٱلسِّنَانِ كَأَنَّمَا أُمُّ ٱلْمَنَايَا رُكِّبَتْ فِيْ عُوْدِهِ(٣)

فَبِذَا حَوَيْتُ ٱلْمَالَ إِلاَّ أَنَّنِيْ سَلَّطْتُ جُوْدَ يَدِيْ عَلَىٰ تَبْدِيْدِهِ

الاعتداد بالسلاح ووصفه عند الشعراء

وَأَمَّا الاعتدادُ بالسلاحِ والكُراعِ ومجردُ وصفهِ : فأَكثرُ وأَكثرُ ، قالَ الشدَّاخُ [مِنَ الطويل] :

أَبَيْنَا فَلاَ نُعْطِيْ مَلِيْكاً ظُلاَمَةً وَلاَ سُوْقَةً إِلاَّ ٱلْوَشِيْجَ ٱلْمُقَوَّمَا

وَإِلاَّ حُسَاماً يُبْهِرُ ٱلعَيْنَ لَمْحُهُ كَصَاعِقَةٍ فِيْ عَارِضٍ قَدْ تَبَسَّمَا

---

(١) الظهاريُّ ـ جمعُ ظِهري ـ: وهو البعيرُ القويُّ الظهرِ ، المُعَدُّ لوقتِ الحاجةِ .

(٢) راجع معنى الخيلِ الأعوجيةِ آخرَ هذا المجلسِ .

(٣) اللَّدْنُ : اللينُ مِنْ كلِّ شيءٍ، من عودٍ أو حبل أو رمحٍ .

وقالَ مالكُ بنُ حزيمٍ ٱلْهَمدانيُّ [منَ الطويل] :

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَا آلَ هَمْدَانَ ظَالِمُ ؟
مَتَىٰ تَجْمَعُ ٱلْقَلْبَ ٱلذَّكِيَّ وَصَارِماً وَأَنْفاً حَمِيّاً تَجْتَنِبْكَ ٱلْمَظَالِمُ

وقالَ يحيىٰ بنُ منصورٍ الحنفيُّ [منَ الطويل] :

وَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا ٱلْعَشِيْرَةُ كُلُّهَا أَنَخْنَا مُخَالِفَنَا ٱلسُّيُوْفَ عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ
فَمَا أَسْلَمَتْنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيْهَةٍ وَلاَ نَحْنُ أَغْضَيْنَا ٱلْجُفُوْنَ عَلَىٰ وَتْرِ

وقالَ عمرُو بنُ معديكربَ الزبيديُّ لسعدِ ٱبنِ أبي وقاصٍ [في « ديوانه » ١٣٨ منَ الطويل] :

أَيُوْعِدُنِي سَعْدٌ وَفِي ٱلْكَفِّ صَارِمٌ سَيَمْنَعُ مِنِّي أَنْ أَذِلَّ وَأَخْضَعَا
فَوَٱللهِ لَوْلاَ ٱللهُ لاَ شَيْءَ غَيْرُهُ لَجَلَّلْتُهُ ٱلصَّمْصَامَ أَوْ يَتَقَطَّعَا[1]

وقالَ دريدُ بنُ الصِّمَّةِ الجشميُّ [في « ديوانه » ٦٠ منَ الوافر] :

أَعَاذِلُ إِنَّمَا أَفْنَىٰ شَبَابِي رُكُوْبِي فِي ٱلصَّبَاحِ إِلَىٰ ٱلْمُنَادِي
مَعَ ٱلْفِتْيَانِ حَتَّىٰ سَلَّ جِسْمِي وَأَقْرَحَ عَاتِقِي حَمْلُ ٱلنِّجَادِ
أَعَاذِلُ إِنَّهُ مَالٌ طَرِيْفٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَالٍ تِلاَدِ
أَعَاذِلُ عُدَّتِي بِزِّي وَسَرْجِي وَكُلُّ مَقَلَّصٍ سَلِسِ ٱلْقِيَادِ
وَيَبْقَىٰ بَعْدَ حِلْمِ ٱلْقَوْمِ حِلْمِي وَيَفْنَىٰ قَبْلَ زَادِ ٱلْقَوْمِ زَادِي

وقال ٱمرؤُ القيسِ يصفُ رُمحاً ، وهوَ مِنْ أبلغِ الكلامِ ، ويستشهدُ بهِ أهلُ البيانِ علىٰ تفصيلِ التشبيهِ [في « ديوانه » ٢١٧ منَ الطويل] :

حَمَلْتُ رُدَيْنِيّاً كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

---

(١) جَلَّلْتُهُ الصمصامَ : علوتُهُ بسيفي . الصمصامُ : السيفُ الصارمُ .

وقالَ أبو الهولِ الحميريُّ يصفُ سيفاً [منَ الخفيف] :

مَا يُبَالِيْ إِذَا ٱلضَّرِيْبَةُ حَانَتْ ... أَشِمَـالٌ سَطَـتْ بِـهِ أَمْ يَمِيْـنُ

وَكَـأَنَّ ٱلْفِـرِنْـدَ وَٱلـرَّوْنَـقَ ٱلْجَا ... رِيْ عَلَـىٰ صَفْحَتَيْـهِ مَـاءٌ مَعِيْـنُ

نِعْمَ مِخْرَاقُ ذِيْ ٱلْحَفِيْظَةِ فِيْ ٱلْهَيْـ ... ـجَـاءِ يَسْطُـوْ بِـهِ وَنِعْـمَ ٱلْمُعِيْـنُ

وقالَ ابنُ المعتزِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٣ منَ الطويل] :

وَلِيْ صَارِمٌ فِيْهِ ٱلْمَنَايَا كَوَامِنٌ ... فَمَـا يُنْتَضَـىٰ إِلاَّ لِسَفْـكِ دِمَـاءِ

تَرَىٰ فَوْقَ مَتْنَيْهِ ٱلْفِرِنْدَ كَأَنَّهُ ... بَقِيَّـةُ غَيْـمٍ رَقَّ دُوْنَ سَمَــاءِ

وقالَ أبو تمَّامٍ يصفُ رِماحاً [في « ديوانه » ١/ ٤٢٠ منَ البسيط] :

مُثَقَّفَــاتٍ سَلَبْـنَ ٱلـرُّوْمَ زُرْقَتَهَــا ... وَٱلْعُرْبَ أُدْمَتَهَا وَٱلْعَاشِقَ ٱلْقَضَفَا(١)

وقالَ مزردٌ [منَ الطويل] :

وَمُطَّـرِدٍ لَـدْنِ ٱلْكُعُـوبِ كَـأَنَّمَـا ... تَغَشَّاهُ مِنْبَاعٌ مِنَ ٱلزَّيْتِ سَائِلُ(٢)

أَصَـمَّ إِذَا مَـا هُـزَّ مَـارَتْ سَرَاتُـهُ ... كَمَا مَارَ ثُعْبَانُ ٱلرِّمَالِ ٱلْمُوَائِلُ(٣)

لَـهُ رَائِـدٌ مَـاضِ ٱلْفِـرَارِ كَـأَنَّـهُ ... هِلاَلٌ بَدَا فِيْ ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ نَاحِلُ

وقالَ البُحتريُّ يصفُ سيفاً [في « ديوانه » ٣/ ١٧٤٧ـ١٧٤٨ منَ الكامل] :

مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُمْضِهِ يَدُ فَارِسٍ ... بَطَلٍ وَمَصْقُوْلٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ

---

(١) المثقفاتُ : الرماح المقوماتُ ، ثمَّ وصفهنَّ بقوله : سلبْنَ زرقةَ عيونِ الرومِ لأستنهنَّ الزرقِ ، وسُمرةَ العربِ لأعوادِهنَّ ، وأخذْنَ مِنَ العاشقِ قضافتَهُ : أيْ لطافتَهُ .

(٢) المُطَّرِدُ : الفرسُ . لَدْنُ الكعوبِ : ليِّن المفاصلِ ، شبَّههُ بالرمح ليِّنِ العُقَدِ .

(٣) مارَ : تحرَّكَ وتدافعَ . السَّراةُ من الفرسِ: أعلىٰ ظهرِهِ . الموائِلُ : الذاهبُ إلى ملجئِهِ .

يَغْشَىٰ ٱلْوَغَىٰ فَٱلتُّرْسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَٱلدِّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ

مُصْغٍ إِلَىٰ حُكْمِ ٱلرَّدَىٰ فَإِذَا مَضَىٰ لَمْ يَلْتَفِتْ وَإِذَا قَضَىٰ لَمْ يَعْدِلِ

مُتَوَقِّدٌ يَفْرِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مَا أَدْرَكَتْ وَلَوَ ٱنَّهَا فِي يَذْبُلِ[1]

وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلِ

وقولُهُ: (ماضٍ وَإِنْ لَم تُمْضِهِ... إلىٰ آخره) غلوٌّ لا يقبلُ، وقد أَلَمَّ بهِ المعرِّيُّ فأَحسنهُ بالمقاربةِ إذ قالَ [في «سقطِ الزندِ» ١٠٠ منَ الوافر]:

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلنِّبَالاَ

تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ تَجِدُّ إِلَىٰ رِقَابِهِمُ ٱنْسِلاَلاَ

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ الأندلسيُّ، وفيه مناسبةٌ لما سبقَ مِنْ خُضرةِ السيفِ [في «ديوانه» ١٦١ منَ الكامل]:

فُتِقَتْ لَكُمْ رِيحُ ٱلْجِلاَدِ بِعَنْبَرٍ وَأَمَدَّكُمْ فَلَقُ ٱلصَّبَاحِ ٱلْمُسْفِرِ[2]

وَجَنَيْتُمُ ثَمَرَ ٱلْوَقَائِعِ يَانِعاً بِٱلنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ ٱلْحَدِيدِ ٱلأَخْضَرِ[3]

وقولُهُ: (فُتِقَتْ لَكُمْ... إلىٰ آخرهِ) يقربُ مِنْ قولِ الناظمِ [في «العُكبَريِّ» ٤/٢٢٨ منَ البسيط]:

كَأَنَّهُمْ يَرِدُونَ ٱلْمَوْتَ مِنْ ظَمَإٍ أَوْ يَنْشَقُونَ مِنَ ٱلْخَطِّيِّ رَيْحَانَا

وقالَ الشريفُ الرضيُّ [في «ديوانه» ١/٣٨٠ منَ الكامل]:

وَٱسْتَنْزَلُوا أَرْزَاقَهُمْ بِسُيُوفِهِمْ فَغَنَوْا بِغَيْرِ مَذَلَّةٍ وَصَغَارِ

---

(١) يذبل: اسم جبل في (نجد).

(٢) فُتِقَ المسكُ: استُخرجَتْ رائحتُهُ. الجلادُ: الحربُ.

(٣) ورقُ الحديدِ: السيوفُ.

نَـزَلُـوْا بِقَـارِعَـةٍ تَشَـابَـهَ عِنْـدَهَـا ذُلُّ ٱلْعَبِيْـدِ وَعِـزَّةُ ٱلأَحْـرَارِ

الاعتداد بالسلاح عند المتنبي معنىً متكرر

والبيتُ الَّذي نتكلَّمُ فيهِ مكرَّرُ المعنىٰ في « ديوانِهِ » ، منه قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٢٢ منَ البسيط] :

أَأَطْرَحُ ٱلْمَجْدَ عَنْ كِتْفِيْ وَأَطْلُبُهُ وَأَتْرُكُ ٱلْغَيْثَ فِيْ غِمْدِيْ وَأَنْتَجِعُ[1]

وَٱلْمَشْرَفِيَّةُ ـ مَا زَالَتْ مُشَرَّفَةً ـ دَوَاءُ كُلِّ كَرِيْمٍ أَوْ هِيَ ٱلْوَجَعُ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٦٠ منَ البسيط] :

مَنِ اقْتَضَىٰ بِسِوَىٰ ٱلْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ[2]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٧٣ منَ البسيط] :

وَجَـدْتُ أَنْفَـعَ مَـالٍ كُنْـتُ أَذْخَـرُهُ مَا فِي ٱلسَّوَابِقِ مِنْ جَرْيٍ وَتَقْرِيْبِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٧٨ منَ البسيط] :

لاَ أَكْسِبُ ٱلذِّكْرَ إِلاَّ مِنْ مَضَارِبِهِ أَوْ مِنْ سِنَانٍ أَصَمِّ ٱلْكَعْبِ مُعْتَدِلِ

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٠٨ منَ الطويل] :

وَلَـٰكِنَّنِـيْ مُسْتَنْصِـرٌ بِـذُبَـابِـهِ وَمُرْتَكِبٌ فِيْ كُلِّ حَالٍ بِهِ ٱلْغَشْمَا[3]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٧٣ منَ المنسرح] :

كُـنْ لُجَّـةً أَيُّهَـا ٱلسَّمَـاحُ فَقَـدْ آمَنَـهُ سَيْفُـهُ مِـنَ ٱلْغَـرَقِ

---

(١) الانتجاعُ في الأصلِ : طلبُ الكلأ ، ثمَّ صارَ كلُّ طلبٍ انتجاعاً .

(٢) المعنى كما قاله الواحدي : من طلب حاجته بغير السيف . . أجاب سائله عن قوله : هل أدركت حاجتك ؟ بقوله : لم أدرك .

(٣) ذبابُ السيفِ : طرفُهُ . الغشمُ : الظلمُ .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٢ منَ البسيط] :

هِنْدِيَّةٌ إِنْ تُصَغِّرْ مَعْشَراً . . صَغُرُوْا بِحَدِّهَا أَوْ تُعَظِّمْ مَعْشَراً . . عَظُمُوْا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٥ منَ البسيط] :

مُقَلَّداً فَوْقَ شُكْرِ ٱللهِ ذَا شُطَبٍ لاَ تُسْتَدَامُ بِأَمْضَىٰ مِنْهُمَا ٱلنِّعَمُ

تشبيه جوهر السيف بمدرج النمل عند الشعراء

وَأَمَّا تشبيهُ جَوْهرِ السيفِ بمدرج النملِ : فإنَّهُ شائعٌ في أَشعارِهِمْ ، منهُ قولُ أَوسِ بنِ حجرٍ [في « ديوانه » ٨٥ منَ الطويل] :

كَأَنَّ مَدَبَّ ٱلنَّمْلِ يَتَّبِعُ ٱلرُّبَىٰ وَمَدْرَجَ ذَرٍّ خِلْنَ بَرْداً فَأَسْهَلاَ

عَلَىٰ صَفْحَتَيْهِ بَعْدَ حِيْنِ جِلاَئِهِ كَفَىٰ بِالَّذِيْ أَبْلِيْ وَأَنْعَتُ مُنْصُلاَ[1]

وقولُ ٱبنِ دريدٍ [منَ الرَّجَز] :

وَصَاحِبَايَ صَارِمٌ فِيْ مَتْنِهِ مِثْلُ مَدَبِّ ٱلنَّمْلِ يَعْلُوْ فِيْ ٱلرُّبَى

وقالَ أَبو العلاءِ المعرِّيُّ يصفُ سيفاً [في « سقطِ الزندِ » ١٥٣ منَ الطويل] :

كَأَنَّ ٱلْمَنَايَا جَيْشُ ذَرٍّ عَرَمْرَمٌ تَخِذْنَ إِلَىٰ ٱلأَرْوَاحِ فِيْهِ مَسَارَا

وقالَ أَيضاً [في « سقطِ الزندِ » ١٠٥ منَ الوافر] :

سَلِيْلُ ٱلنَّارِ دَقَّ وَرَقَّ حَتَّىٰ كَأَنَّ أَبَاهُ أَوْرَثَهُ ٱلسُّلاَلاَ[2]

مُحَلَّىٰ ٱلبُرْدِ تَحْسَبُهُ تَرَدَّىٰ نُجُوْمَ ٱللَّيْلِ وَٱنْتَعَلَ ٱلْهِلاَلاَ

---

(١) فأَسهلَ : أَتىٰ السهلَ ، أَي: أَنَّ النملَ تركَ أَعلىٰ الوادي وأَتىٰ السهلَ لشدَّةِ البردِ . الجلاءُ : الصقلُ . المُنْصُلُ : السيفُ .

(٢) سليلُ النار : السيفُ الذي رقَّ من النارِ . السُّلالُ : داءُ السلِّ .

مُقِيمُ ٱلنَّصْلِ فِي طَرَفَيْ نَقِيضٍ يَكُونُ تَبَايُنٌ مِنْهُ ٱشْتِكَالاَ[1]
تَبَيَّنُ فَوْقَهُ ضَحْضَاحَ مَاءٍ وَتُبْصِرُ فِيهِ لِلنَّارِ ٱشْتِعَالاَ
غَرَارَاهُ لِسَانَا مَشْرَفِيٍّ يَقُولُ غَرَائِبَ ٱلْمَوْتِ ٱرْتِجَالاَ
إِذَا بَصَرَ ٱلأَمِيرُ وَقَدْ نَضَاهُ بِأَعْلَىٰ ٱلْجَوِّ ظَنَّ عَلَيْهِ آلاَ[2]
وَدَبَّتْ فَوْقَهُ حُمْرُ ٱلْمَنَايَا وَلَٰكِنْ بَعْدَمَا مُسِخَتْ نِمَالاَ

وهٰذا موضعُ الشاهدِ ، وقد نظرَ فيهِ إلىٰ البيتِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، وقالَ [في « سقطِ الزندِ » ١١٠ منَ البسيط] :

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ جَفْناً قَبْلَ مَسْكَنِهِ فِي ٱلْجَفْنِ يُطْوَىٰ عَلَىٰ نَارٍ وَلاَ نَهَرِ[3]
وَلاَ ظَنَنْتُ صِغَارَ ٱلنَّمْلِ يُمْكِنُهَا مَشْيٌ عَلَىٰ ٱللُّجِّ أَوْ سَعْيٌ عَلَىٰ ٱلسُّعُرِ[4]

تسمية السيف بالهندي أو المشرفي

ومتىٰ سُوِّيَ السيفُ بـ(الهندِ) . . فهو مُهَنَّدٌ وهنديٌّ وهندوانيٌّ ، وإذا عُملَ بـ(المشارفِ) ، وهي قرىً مِنْ أَرضِ العربِ تدنو مِنَ ٱلريفِ . . فهوَ مَشْرَفيٌّ .

* * *

(١) طرفي نقيضٍ : الماءُ والنارُ .
(٢) آلاً : بَرْقاً .
(٣) الجفنُ : غمدُ السيفِ .
(٤) صغارُ النملِ : كنايةٌ عن تموجات الضوء على صفحة السيف . اللُّجُّ : الماءُ . السُّعُر : النار المشتعلة .

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦١ منَ الطويل] :

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيْهِيْ بِمَا وَكَأَنَّهُ	فَمَا أَحَدٌ فَوْقِيْ وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِيْ

الفخر والاعتداد بالنفس عند المتنبي

يقولُ : لا تُشبِّهْني بأَحدٍ ، ولا تقلْ كَأَنَّهُ فلانٌ ، أَو ما أَشبههُ بفلانٍ ، وهي حماقةٌ فاحشةٌ ، وغرورٌ مستهجَنٌ ، ومثلُهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٠٧ منَ الطويل] :

تَغَرَّبَ لاَ مُسْتَعْظِماً غَيْرَ نَفْسِهِ	وَلاَ قَـابِـلاً إِلاَّ لِخَـالِقِـهِ حُكْمَـا

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢٣ منَ الخفيف] :

إِنْ أَكُـنْ مُعْجَبـاً فَعُجْـبُ عَجِيْـبٍ	لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيْدِ

تعاظم أبي جهل

ويشبهُ بعضَهُ قولَ أَبي جهلِ ٱبنِ هشامٍ: وهل فوقَ رجلٍ قتلتموهُ[١] .

مقالة كتبها المؤلف يوم تأمير شوقي

وذكرتُ بهـٰذا مقالةً كتبْتُها يومَ تَعالمَ الناسُ بتأَميرِ شوقي غِبَّ فَشَلِ مُؤتمرِ الخلافةِ ، وذكرتُ أَنَّ الميزانَ العادلَ في ٱستحقاقهِ التأَميرَ عدمُه. . هو ما سيقولُهُ في ذلكَ الحفلِ ؛ لأَنَّهُ سيتَنَأَنَقُ لهُ بطبيعةِ الحالِ ، فلَمْ تأَتِ الأَهرامُ[٢] إِلاَّ بقصيدةٍ تُستهلُّ بقولهِ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٨٥ منَ الخفيف] :

مَـرْحَبـاً بِـالـرَّبِيْـعِ فِيْ رَيْعَـانِـهْ	وَبِـأَنْـوَارِهِ وَطِيْـبِ زَمَـانِـهْ

---

(١) قالها أبو جهلٍ أثناءَ مصرعهِ في بدرٍ عندما سأَلهُ ابنا عفراءَ: آأنتَ أبو جهلٍ ؟ فقالها ليدلَ على أنهُ لا رجلَ فوقهُ .

(٢) الأهرامُ : صحيفةٌ مصريةٌ مشهورةٌ .

أَحصينا عليها ببادىءِ النظرِ جملةَ ملاحظاتٍ لا يتَّسعُ لها الموضوعُ ، منها : عدمُ التناسبِ ، ومِنْها : أَنَّهُ شبَّهَ الربيعَ يمشي في السهلِ بالأَميرِ في البستانِ .

فإِنّي بعدَ أَنْ طَرَدْتُ نظري في مسارحِ التشبيهِ . . لَمْ يظهرْ لي غيرَ أَنَّهُ أَرادَ تشبيهَ الربيعِ بما لا غايةَ بعدَهُ ، فلَمْ يجدْ أَكبرَ مِنْ نفسهِ يتمشّىٰ في بستانهِ ، فكأَنَّهُ شبَّهَ الربيعَ بنفسهِ ، وهو حينئذٍ مِنْ قولِ الناظمِ السابقِ لَمْ يجدْ فوقَ نفسهِ مِنْ مَزيدٍ .

وبعثَ بتلكَ ٱلمقالةِ أَحدُ رفاقِنا لبعضِ ٱلصُّحفِ ، فضاقتْ عنها .

الفخر متكرر عند المتنبي

وطالما تكرَّرَ معنىٰ البيتِ الَّذي بين أَيدينا في «ديوانِ الناظمِ» منهُ قولُهُ يفتخرُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٤٣ منَ الطويل] :

وَنَفْسٍ لاَ تُجِيْبُ إِلَىٰ خَسِيْسٍ　　وَعَيْنٍ لاَ تُدَارُ عَلَىٰ نَظِيْرِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٠ منَ الكامل] :

صَغَّرْتَ كُلَّ كَبِيْرَةٍ وَكَبُرْتَ عَنْ　　لَكَأَنَّهُ وَعَدَدْتَ سِنَّ غُلاَمِ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٨٤ منَ الطويل] :

يَجِلُّ عَنِ ٱلتَّشْبِيْهِ لاَ ٱلْكَفُّ لُجَّةٌ　　وَلاَ هُوَ ضِرْغَامٌ، وَلاَ ٱلرَّأْيُ مِخْذَمُ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١٦ منَ الطويل] :

وَلَوْلاَ ٱحْتِقَارُ ٱلأُسْدِ شَبَّهْتُهَا بِهِمْ　　وَلَٰكِنَّهَا مَعْدُوْدَةٌ فِيْ ٱلْبَهَائِمِ

---

(١) عَدَدْتَ سِنَّ غلام : قصد أَنَّه لا زال في سنِّ الشباب .

(٢) المخذمُ : السيفُ القاطعُ . والمعنى : أنه أعظم من أن يشبه كفُّهُ بالبحر ، ونفسه بالأسد ، ورأيه بالسيف القاطع ؛ لأن ذلك كلَّه دونه .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٦] منَ الوافر :

بِـلاَ مِثْـلٍ وَإِنْ أَبْصَـرْتَ فِيْـهِ ... لِكُـلِّ مُغَيَّـبٍ حَسَـنٍ مِثَـالاَ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٢٧ منَ الطويل] :

بِمَنْ أَضْرِبُ ٱلأَمْثَالَ أَمْ مَنْ أَقِيْسُهُ ... إِلَيْكَ وَأَهْلُ ٱلدَّهْرِ دُوْنَكَ وَٱلدَّهْرُ ؟

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٧٩ منَ البسيط] :

فَكُنْ كَمَا أَنْتَ يَا مَنْ لاَ شَبِيْهَ لَهُ ... أَوْ كَيْفَ شِئْتَ فَمَا خَلْقٌ يُدَانِيْكَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٣٣ منَ الخفيف] :

فَـإِذَا مَـا ٱشْتَهَـىٰ حَيَـاتَـكَ دَاعٍ ... قَالَ لاَ زُلْتَ أَوْ تَرَىٰ لَكَ مِثْلاَ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٧٩ منَ البسيط] :

كَفَـاتِـكٍ وَدُخُـوْلُ ٱلْكَـافِ مَنْقَصَـةٌ ... كَٱلشَّمْسِ قُلْتُ : وَمَا لِلشَّمْسِ أَمْثَالُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٠ منَ المنسرح] :

مِثْلُـكَ يَـا بَـدْرُ لاَ يَكُـوْنُ وَلاَ ... تَصْلُـحُ إِلاَّ لِمِثْلِـكَ ٱلـدُّوَلُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢١٧ منَ السريع] :

وَلَـمْ أَقُـلْ مِثْلُـكَ أَعْنِـيْ بِـهِ ... سِـوَاكَ يَـا فَـرْداً بِـلاَ مُشْبِـهِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٧٧ منَ الخفيف] :

وَتَمَنَّيْـتُ مِثْلَـهُ فَكَـأَنِّـي ... طَالِبٌ لاٱبْنِ صَالِحٍ مَنْ يُوَازِي

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٩ منَ الوافر] :

جَـوَابُ مُسَـائِلِـيْ أَلَـهُ نَظِيْـرٌ ... وَلاَ لَكَ فِيْ سُؤَالِكَ لاَ ، أَلاَ لاَ[1]

---

(١) المعنىٰ : إذا سألني سائلٌ ، فقالَ : هلْ له نظير ؟ فجوابه لا ، ولا لك نظير في=

الفخر عند الشعراء

وأصلُ البيتِ الذي نحنُ بسبيلهِ مِنْ قولِ الأوَّلِ [منَ الطويل] :

تَعَالَيْنَ عَنْ وَصْفٍ فَلَسْتُ بِذَاكِرٍ (كَأَنَّ) لَدَىٰ تَشْبِيهِهَا وَ(كَأَنَّمَا)

وَمِنْ قولِ أَبي نُوَاسٍ [في «ديوانهِ» منَ الطويل] :

خُلِقْتَ بَدِيعاً لاَ يُقَالُ كَأَنَّهُ تَعَالَىٰ وَلاَ يَسْمَعْ بِمِثْلِكَ سَامِعُ

وقالَ البُحتريُّ [في «ديوانهِ» ٣/ ١٦٥٩ منَ الكامل] :

لاَ تَطْلُبَنَّ لَهُ ٱلشَّبِيهَ فَإِنَّهُ قَمَرُ ٱلتَّأَمُّلِ مُزْنَةُ ٱلتَّأْمِيلِ[1]

تكذيب المؤلف لهذه الأشعار

وجلُّها دعاوي مَكْذُوبةٌ ، ومبالغاتٌ مردودةٌ ، فإِنَّ ٱلَّذي في ٱلسَّماءِ عرشُهُ ، وفي الأَرضِ بطشُهُ . يُقَرِّبُ المنالَ ، ويضربُ لنفسهِ الأَمثالَ ، وما أَحسنَ قولَ حبيبٍ [في «ديوانه» ١/ ٣٦٩ منَ الكامل] :

لاَ تُنْكِرُوْا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُوْنَهُ مَثَلاً شَرُوْداً فِيْ ٱلنَّدَىٰ وَٱلْبَاسِ

فَٱللهُ قَدْ ضَرَبَ ٱلأَقَلَّ لِنُوْرِهِ مَثَلاً مِنَ ٱلْمِشْكَاةِ وَٱلنِّبْرَاسِ[2]

تفسير: ﴿الله نور السمٰوات والأرض﴾ عند الجاحظ

ومِنْ محاسنِ الجاحظِ قولُهُ في هٰذهِ الآيةِ : أَنَّها مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ جَلَّ شأنُهُ لنبيِّهِ ﷺ ، فإِنَّ تقاسيمَ وجههِ ، وأَساريرَ جبينهِ . تَنطِقُ بنبوَّتهِ ، وتشهدُ بصدقِ رسالتهِ ، فما أَصدقَ فيهِ قولَ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ [في «ديوانه» ٩٥ منَ البسيط] :

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيْهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيْكَ بِٱلْخَبَرِ

= سؤالِكَ عَن هذا ؛ لأنَّ أحداً لا يجهلُ هذا غيركَ ، فأنتَ في جهلكَ بلا نظيرٍ ، وكرَّرَ النفيَ بقولِهِ : (ألا ، لا) إشارةً إلىٰ أنَّ جهلَ هذا السائلِ يوجبُ إعادةَ الجوابِ عليهِ .

(١) المُزْنَةُ : السحابةُ البيضاءُ .

(٢) والمَثَلُ قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [النور : ٣٥] .

تفسير: ﴿ليس كمثله شيء﴾

أَمَّا قولُهُ تعالىٰ :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] :

فإمَّا : أَنْ يُجعلَ (المِثْلُ) فيهِ بمعنىٰ ٱلنَّفْسِ وٱلذَّاتِ وهو شائعٌ في لسانِ العربِ . قالَ أَوسُ بنُ حجرٍ [من مُخلَّع البسيط] :

لَيْسَ كَمِثْلِ ٱلْفَتَىٰ زُهَيْرٍ ... خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي ٱلْفَضَائِلْ

ومنهُ ما سبقَ مِنْ قولِ الناظمِ : (وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ . . . إلى آخرِهِ) .

فليس كمثلهِ شيءٌ . . نظيرُ (ليسَ كذاتهِ شيءٌ) إلاَّ أَنَّها لا توجدُ في الثاني مبالغةُ النفي الموجودةُ في الأَوَّلِ ؛ لِمَا فيهِ مِنَ ٱلكنايةِ الَّتي لا يُجهَلُ مكانُها في حُسْنِ الكلامِ ، وكثيراً ما تقولُ العربُ : (مِثْلُكَ لا يَبخَلُ) ؛ لتمكينِ ٱنتفاءِ البُخلِ عنهُ مِنْ نفسِ السامعِ ، فإنَّ تلكَ الجملةَ تفيدُ ما لا يفيدُهُ قولُهم : (أَنتَ لا تبخَلُ) .

وإمَّا : أَنْ يُجعلَ (المِثْلُ) بمعنىٰ الصفةِ إشارةً إلىٰ أَنَّهُ وإنْ وُصِفَ جلَّ شأْنهُ ، وتقدَّستْ أَسماؤهُ بما يوصفُ بهِ البشرُ مِنْ نحوِ : السمعِ والبصرِ والعلمِ والإرادةِ وما أَشبهَ ذلكَ . . فليستْ صفاتُهُ عزَّ وجلَّ كمثلِ صفاتِ المخلوقينَ إلاَّ في مجرَّدِ الأَسماءِ ، وإلاَّ . . فالبَوْنُ بعيدٌ ، والفرقُ عظيمٌ .

وَلِلْبَازِي وَلِلزُّنْبُورِ أَيْضاً ... لَدَىٰ ٱلطَّيَرَانِ أَجْنِحَةٌ وَخَفْقُ
وَلَٰكِنْ بَيْنَ مَا يَصْطَادُ بَازٍ ... وَمَا يَصْطَادُهُ ٱلزُّنْبُورُ فَرْقُ[1]

وإمَّا : أَنْ يُجعلَ (المِثْلُ) بمعنى الذاتِ والصفةِ ، فيكونُ ٱستعمالُهُ فيهما مِنْ بابِ ٱستعمالِ المشتركِ في معنييهِ إنْ قلنا إنَّ المِثْلَ

---

(١) البيتان من الوافر .

حقيقةٌ في كلٍّ مِنَ ٱلذاتِ والصفةِ ، أَو مِنِ ٱستعمالهِ في حقيقتهِ ومجازهِ إِنْ قلنا إِنهُ حقيقةٌ في أَحدِهما مَجازٌ في الآخرِ ، فينتجُ حينئذٍ أَنَّهُ لا يماثلهُ شيءٌ مطلقاً لا في الذاتِ ولا في الصفاتِ ولا في الأفعالِ .

أَمَّا القولُ بزيادةِ الكافِ لتأكيدِ التشبيهِ في نفي المثليةِ كَما في قولِ الشاعرِ [منَ الرجَز] :

بِٱلأَمْسِ كَانُوا فِيْ رَخَاءٍ مَأْمُوْلْ ... فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُوْلْ

فإِنَّه داخلٌ في الاحتمالِ الأَوَّلِ .

تفسير الغزالي لـ: إن الله خلق آدم على صورته

وقالَ الغزاليُّ في معنىٰ « إِنَّ ٱللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُوْرَتِهِ »[1] :

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٥٥٩) مقتصراً على الشطر الأول في الاستئذان ، وأحمد (٢/ ٢٤٤)، ومسلم (٢٦١٢) (١١٥) في البر والصلة، ولفظ مسلم: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته».

وأورد شطر الحديث الآخر الغزالي في «الإحياء» (٢/ ١٦٦) فقال: وهجرَ المحاسبي أبا ثور في تأويل هذا الحديث، وهذا أمر يختلف باختلاف النية، وتختلف النية باختلاف الحال. . . إلخ، وفي (٤/ ٢٣) قال: وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون. . . تعالى الله علواً كبيراً، ثم قال عن الحديث: فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً، ومن هنا زلّ من زلّ في صفات إلهية. . . .

قال القرطبي في «المفهم» (٦/ ٥٩٧ـ٥٩٨) في تفسير الحديث: أي على صورة وجه المضروب، فكأنَّ اللاطم في وجه أحد ولد آدم لطم وجه أبيه آدم. وعلى هذا فيحرم لطم الوجه من المسلم والكافر. . .

وإنما مقصود الحديث : إكرام وجه المؤمن لحرمته، لأنا نقول مسلم. . . .
وهذا الذي ذكرناه هو ظاهر الحديث، ولا يكون في الحديث إشكال يوهم في حقِّ الله تعالى تشبيهاً، وإنما أشكل ذلك على من أعاد الضمير في صورته =

المرادُ بالصورةِ المعنويَّةُ ، كَما يُقالُ : صورةُ المسألةِ كذا ، وآدمُ بهٰذا الاعتبارِ علىٰ صورةِ ربِّهِ في الذاتِ والأَفعالِ والصفاتِ :

أَمَّا في الذاتِ : فلأَنَّ الروحَ ليستْ بجسمٍ ، ولا عَرَضٍ ، ولا جوهرٍ متحيِّزٍ ، ولا تحُلُّ المكانَ والجهةَ ، ولا هي متَّصلةٌ بالْبَدَنِ والعالمِ ، ولا منفصلةٌ عنهما ، وكذلكَ ذاتُ الباري عزَّ وجلَّ[1] .

= على الله تعالى، وذلك ينبغي ألا يصار إليه شرعاً ولا عقلاً، أما العقل فيحيل الصورة الجسمية على الله تعالى، وأما الشرع فلم ينصَّ على ذلك نصّاً قاطعاً، ومحال أن يكون ذلك، فإن النصَّ القاطع صادق، والصادق لا يقول المحال فيتعيَّن عود الضمير على المضروب لأنه هو الذي سبق الكلام لبيان حكمه.

وقد أعادت المشبِّهَةُ هذا الضمير على الله تعالى، فالتزموا القول بالتجسيم، وذلك نتيجة العقل السقيم والجهل الصميم، وقد بينا جهلهم وحققنا كفرهم فيما تقدم، ولو سلمنا أن الضمير عائد على الله تعالى.. فللتأويل وجه صحيح، وهو أن الصورة قد تطلق بمعنى الصفة كما يقال: صورة المسألة كذا أي صفتها .... إلخ.

وقال الإمام النواوي في «المنهاج» في شرح الحديث: هذا تصريح بالنهي عن ضرب الوجه؛ لأنه لطيف يجمع المحاسن، وأعضاؤه نفيسة لطيفة وأكثر الإدراك بها... وهو من أحاديث الصفات، وأن من العلماء من يمسك عن تأويلها ويقول: نؤمن بأنها حقٌّ، وأن ظاهرها غير مراد ولها معنى يليق بها، وهو مذهب جمهور السلف، وهو أحوط وأسلم، ...... إلى أن قال: واختلف العلماء في تأويله، فقالت طائفة: الضمير في صورتهِ عائد على الأخ المضروب، وهذا ظاهر رواية مسلم، وقالت طائفة: يعود إلى آدم وفيه ضعف، وقالت طائفة يعود إلى الله تعالى، ويكون المراد إضافة تشريف واختصاص كقوله: ﴿ناقة الله﴾ [الشمس: ١٣] وكما يقال عن الكعبة بيت الله ونظائره، والله أعلم.

(١) تعالى عن مشابهته للحوادث من مخلوقاته علواً كبيراً؛ لأن كلَّ ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك وكما يُعلم أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وأَمَّا الصفاتُ : فلأنَّهُ حيٌّ عالِمٌ ، قادرٌ مريدٌ ، سميعٌ بصيرٌ متكلِّمٌ ، واللهُ تعالىٰ كذلكَ .

وأَمَّا في الأَفعالِ : فإِنَّ الإنسانَ إِذا أَرادَ الكتابةَ في غرضٍ . . فأَوَّلُ فعلِهِ إِرادةٌ يظهَرُ أَثرُها في القلبِ ، ثُمَّ يصعدُ إِلىٰ الدماغِ ، ثُمَّ إِلىٰ الأَعصابِ ، ثُمَّ إِلىٰ الأَصابعِ ، وبها يتحرَّكُ القلمُ بِما ٱرتسمَ في خِزانةِ الخيالِ . فالقلبُ كالعرشِ ، والدماغُ كالكرسي ، والحواسُّ كالملائكةِ ، والأَعصابُ كٱلسماواتِ ، والقدرةُ في الأَصابعِ كٱلطبيعةِ المركوزةِ في الأَجسامِ ، والقرطاسُ والقلمُ والمِدادُ كالعناصرِ ، ومرآةُ التخيُّلِ كٱللوحِ المحفوظِ .

ومِنْ هٰذهِ الموازنةِ تَعرِفُ أَنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتهِ ، ولولا المضاهاةُ المذكورةُ لَمْ يقدِرِ ٱلإنسانُ علىٰ الترقِّي مِنْ معرفةِ نفسهِ إِلىٰ معرفةِ ربِّهِ ، كَما قالَ عليهِ السلامُ : « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . . فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ »[1] كذا رأيتهُ في سياقٍ لهُ ، ومثلُهُ في ذهني عَنْ « مفاتيحِ ٱلغيبِ » للإمامِ الرازي ، وقد قَفَّ شَعَري[2] ، وضاقَ صدري منهُ باديءَ الأَمرِ إِلاَّ أَنَّهُ يهونُ الخطبُ بما قرَّرناهُ في الاحتمالِ الثاني ، وٱستشهدنا عليهِ بما بينَ البازي والزنبورِ مِنَ ٱلفرقِ الكبيرِ[3] ،

(١) أورده السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١١٤٩) فقال : قال أبو المظفر السمعاني في الكلام على التحسين والتقبيح العقلي : من القواطع أنه لم يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من قوله، وكذا قال النواوي : إنه ليس بثابت، وقيل في تأويله : من عرف نفسه بالحدوث . . عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء . . عرف ربه بالبقاء .

(٢) قفَّ الشَّعرُ : قامَ منَ الفزعِ .

(٣) بل لا يتصور التشابه بين الخالق والمخلوق، ولا بين القديم والحادث.

والعهدةُ عليهم ، ولولا جلالةُ مقاديرهم.. لَمَا تجاسرتُ علىٰ حكايتهِ عنهم ، وأَولىٰ ما يكونُ بالقَبولِ في الموضوعِ الَّذي نتحدَّثُ فيهِ قولُ شاعرِ (المعرَّةِ) [منَ الوافر] :

ضَرِيبُكَ فِيْ بَنِيْ ٱلدُّنْيَا كَثِيْرٌ ... وَعَـزَّ ٱللهُ رَبُّـكَ مِـنْ ضَـرِيـبِ

وَمَـا ٱلْعُلَمَـاءُ وَٱلْجُهَـلاَءُ إِلاَّ ... قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ مِنْ قَرِيبِ

* * *

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٦٢ منَ الطويل] :

وَذَرْنــيْ وَإِيَّــاهُ وَطِـرْفِـيْ وَذَابِلِـيْ	نكُنْ وَاحِداً نَلْقَ ٱلْوَرَىٰ وَٱنْظُرَنْ فِعْلِيْ

ادعاء المتنبي الشجاعة

الطِّرْفُ : الفرسُ الكريمُ ، والذَّابِل : ما لانَ وٱهتزَّ مِنَ ٱلرماحِ ، يقولُ : دعني وهـٰذا السيفَ وفرسي ورمحي نجتمعُ ، فنكونَ واحداً في رأيِ العينِ . يلقىٰ الورىٰ : أَي يحاربُهم ثُمَّ أنظر إِلىٰ ما أَفعلُهُ فيهم .

من أين أخذ المتنبي بيته

قالَ ٱبنُ جِنِّيٍّ وقد لاذَ في هـٰذا البيتِ بقولِ ذِي الرُّمَّة [في « ديوانه » ٢/١١٠٨ـ١١٠٩ منَ الطويل] :

وَلَيْـلٍ كَجِلْبَـابِ ٱلْعَـرُوْسِ ٱدَّرَعْتُـهُ	بِأَرْبَعَةٍ وَٱلشَّخصُ فِيْ ٱلْعَيْنِ وَاحِدُ
أَحَـمُّ غُـدَافِـيٌّ وَأَبْيَـضُ صَـارِمٌ	وَأَعْيَسُ مَهْرِيٌّ وَأَرْوَعُ مَاجِدُ(١)

أَقولُ : ومثلُهُ قولُ السلاميِّ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٢٩٥ منَ الطويل] :

فَكُنْتُ وَعَزْمِيْ فِيْ ٱلظَّلَامِ وَصَارِمِيْ	ثَـلَاثَـةَ أَشْبَـاحٍ كَمَـا ٱجْتَمَـعَ ٱلنَّسْـرُ

شجاعة الإمام

وقولُهُ : (يلقَىٰ الوَرىٰ) ناظرٌ إِلىٰ قولِ أَميرِ المؤمنينَ [في « نهج البلاغة » ٣٥٩] : (واللهِ لو تظاهرَتِ ٱلعربُ بأَسرِها علىٰ قتالي . . لما وَلَّيْتُ عنها ، وأَنا مِنْ رسولِ الله كالصِّنْوِ مِنَ ٱلصِّنْوِ ، والذِّراعِ مِنَ العَضُدِ) .

---

(١) الأحمُ الغدافيُّ : الفرسُ الشديدُ السوادِ . أَروعُ ماجدٌ : فارسٌ شجاعٌ من خيرة الناس .

والناظم كثيراً ما يَرعىٰ غيرَ ماشِيَتِهِ ، ويَحطِبُ في حبلِ غيرِهِ ، وقلتُ في عكسِ قولِ ذي الرُّمَّةِ من قصيدةٍ أَصِفُ بها فرسِي [منَ الطويل] :

تعليق المؤلف على المتنبي

إِذَا ٱعْتَرَضَتْ بِيْ قَالَ قَوْمٌ ثَلاَثَةٌ ... وَمَا ثَمَّ غَيْرِيْ لَـٰكِنِ ٱلذَّيْلُ وَٱلرَّاسُ

وتَجدُ أَنْ لا مخالفةَ عندَ إِمعانِ النَّظَرِ ؛ لأَنِّي أَصفُ فَرَسِي مُعْتَرِضَةً ، وهو يصفُ بعيرَهُ مقبلاً أَو مدبراً ، وقد قالَ في نظيرِهِ الناظمُ [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢١٤ منَ المنسرح] :

الفارس والفرس والسلاح قطعة واحدة عند الشعراء

إِنْ أَدْبَرَتْ قُلْتُ: لاَ تَلِيْلَ لَهَا ... أَوْ أَقْبَلَتْ قُلْتُ: مَا لَهَا كَفَلُ[1]

ومِمَّا جاءَ في وصفِ الخيلِ قولُ ٱمرىءِ القَيْسِ [في « ديوانه » ١٥٣ـ١٥٥ منَ الطويل] :

وَقَدْ أَغْتَدِيْ وَٱلطَّيْرُ فِيْ وُكُنَاتِهَا ... بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلأَوَابِدِ هَيْكَلِ[2]

مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُقْبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مَعـاً ... كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ ٱلسَّيْلُ مِنْ عَلِ[3]

لَـهُ أَيْطَـلاَ ظَبْـيٍ وَسَـاقَـا نَعَـامَـةٍ ... وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبُ تَتْفُلِ[4]

---

(١) **التليلُ** : العنقُ . **الكَفَلُ** : الردفُ ، كما مرَّ سابقاً .

(٢) **وكناتُها** : أَوكارُها . **المنجردُ** : الفرسُ القصيرُ الشعرِ . **الأوابدُ** : الوحوشُ . **وقَيْدُها** : إِمساكُها بقوةٍ ، فكأَنَّها لَمْ تبرحْ مكانَها . **الهيكلُ** : الفرسُ الطويلُ المتينُ الخلقِ .

(٣) **الجلمودُ** : الصخر الأَصمُّ . **مِنْ عَلِ** : مِنْ مكانٍ عالٍ .

(٤) **أَيطلا ظَبْيٍ** : خاصرتا ظَبْيٍ ؛ لضمورِهما . **وساقا نعامةٍ** : شبَّهَ ساقيهِ بساقي النعامةِ ؛ لصلابتِهما وقصرِهما . **وإِرخاءُ سِرْحانَ** : سرعةُ ذئبٍ في لينٍ . **وتقريبُ تتفلِ** : وجري تتفل ؛ وهو ولدُ الذئبِ .

أول من جعل الحصان قيداً للأوابد

وكادَ الإجماعُ ينعقدُ علىٰ أَنَّهُ السابقُ إِلىٰ جعلهِ الحصانَ قيداً للأَوابدِ ، وعندي أنَّه مخالفٌ لقولِهم : إِنَّ (زَادَ الرَّكْبِ) فرسٌ معروفٌ منَ الخيلِ التي وصَفَها اللهُ بـ: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ [صٓ : ٣١] ، سُمِّيَ بذلكَ ؛ لأنَّه كانَ يلحقُ الصيدَ ، فكانَ الوفدُ إِذا نزلوا . . ركبَهُ أَحدُهم ، فصادَ لهم ما يكفيهم ، وهو مِنْ سليمانَ عليهِ السلامُ ، أَعطاهُ للأَزْدِ[١] لمَّا وفدوا عليهِ ، فكيفَ يكونُ اْمرؤُ القيسِ السابقَ إليهِ معَ هٰذا ؟! ولٰكنَّهُ تنوَّعَ فيهِ وأفرغهُ في عِدَّةِ قوالبَ ، منها قولُهُ [في « ديوانه » ٥٣ منَ الطويل] :

إِذَا مَا رَكِبْنَا قَالَ وُلْدَانُ أَهْلِنَا ... تَعَالَوْا إِلَيْنَا يَأْتِنَا ٱلصَّيْدُ نَحْطِبِ[٢]

الشعراء وجعلهم الحصان قيداً للوحوش

وقالَ عمارةُ بنُ عقيلٍ [في « خزانة الأدب » ١/١٥٨ منَ الخفيف] :

وَأَرَى ٱلْوَحْشَ فِيْ يَمِيْنِيْ إِذَا مَا ... كَانَ يَوْمَاً عِنَانُهُ بِشِمَالِيْ

وقالَ اْبنُ مقبلٍ [منَ البسيط] :

لاَ يَنْفَعُ ٱلْوَحْشَ مِنْهُ أَنْ تَحَذَّرَهُ ... كَأَنَّهُ مُعْلَقٌ مِنْهَا بِخُطَّافِ[٣]

وقالَ الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٩٤ منَ الطويل] :

وَخَيْلٍ إِذَا مَرَّتْ بِمَرْجٍ وَرَوْضَةٍ ... أَبَتْ رَعْيَهَا إِلاَّ وَمِرْجَلُنَا يَغْلِي[٤]

---

(١) الأزدُ : قبيلةٌ مِنَ (اليمن) .

(٢) نَحطِبُ : نجمعُ الحطبَ؛ للشواءِ والطبخِ .

(٣) الخُطَّافُ ـ بضمِ الخاءِ ـ: هو الحديدةُ المعوجَّةُ .

(٤) في «العكبري» : (بِوَحْشٍ) بدل (بِمَرْجٍ). المرجلُ : القِدْرُ ؛ أَي : وخيلُنا الكريمةُ تأبىٰ أَنْ ترتعَ في الرياضِ والكلأ إذا رأَتِ الوحوشَ، حتىٰ تجعلَ قدورَنا تغلي ، ونأكلَ مِنْ لحمِها .

وقالَ [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ١٧٩ منَ الكامل] :

مُتَفَيِّئِيْـنَ ظِـلاَلَ كُـلِّ مُطَهَّـمٍ   أَجَلِ ٱلظَّلِيْمِ وَرِبْقَةِ ٱلسِّرْحَانِ[(١)]

وقالَ البُحتريُّ ـ وكانَ وَصَّافاً للخيلِ ـ [في « ديوانه » ٣/ ٢٠٢٧ـ٢٠٢٨ منَ الوافر] :

وصف البحتري للخيل

أَرَاجِعَتِـيْ يَـدَاكَ بِـأَعْـوَجِـيٍّ   كَقِدْحِ ٱلنَّبْعِ فِيْ ٱلرِّيْشِ ٱللُّؤَامِ؟[(٢)]

بِـأَدْهَـمَ كَـالظَّـلاَمِ أَغَـرَّ يَجْلُـوْ   بِغُـرَّتِـهِ دَيَـاجِيْـرَ ٱلظَّـلاَمِ

تَـرَىٰ أَحْجَـالَـهُ يَصْعَـدْنَ فِيْـهِ   صُعُوْدَ ٱلْبَرْقِ فِيْ جَوْنِ ٱلْغَمَامِ[(٣)]

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٨٥ـ١٩٨٨ منَ الكامل] :

أَمَّـا ٱلْجَـوَادُ فَقَـدْ بَلَـوْنَـا يَـوْمَـهُ   وَكَفَىٰ بِيَوْمٍ مُخْبِراً عَنْ عَامِهِ

جَارَىٰ ٱلْجِيَادَ فَطَارَ عَنْ أَوْهَامِهَا   سَبْقاً وَكَادَ يَطِيْرُ عَنْ أَوْهَامِهِ

جَـذْلاَنَ تَلْطِمُـهُ جَـوَانِـبُ غُـرَّةٍ   جَاءَتْ مَجِيْءَ ٱلْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ[(٤)]

وَٱسْوَدَّ ثُمَّ صَفَتْ لِعَيْنَيْ نَاظِرٍ   جَنَبَـاتُـهُ فَـأَضَـاءَ فِـيْ إِظْـلاَمِـهِ

مَالَتْ جَوَانِبُ عُرْفِهِ وَكَأَنَّهَا   عَذَبَاتُ أَثْلٍ مَالَ تَحْتَ حَمَامِهِ[(٥)]

---

(١) في «العكبري»: (يَتَقَلَّبُوْنَ) بدل (مُتَفَيِّئِيْنَ). المُطَهَّمُ : الفرسُ التامُّ ، كُلُّ شيءٍ منهُ على حدتِهِ . والظليمُ : ذكرُ النعامِ . والرِّبْقَةُ : ما يكونُ في رقبةِ الشاةِ ، تحبسُها مِنَ التصرفِ . السرحانُ : الذئبُ .

(٢) القدحُ : السهمُ قبلَ أَنْ ينصلَ ويراشَ . النَّبْعُ : شجرٌ تتخذُ منهُ السهامُ والقسيُّ . اللُّؤام ، يقالُ : سهمٌ لأمٌ ؛ أي عليهِ ريشٌ .

(٣) الأحجالُ : بياضٌ في قوائمِ الفرسِ . الجَوْنُ : الأَسودُ .

(٤) جذلان : فرحان .

(٥) العَذَبَةُ : طرفُ الشيءِ . الأَثْلُ : شجرٌ كثيرُ الأغصانِ .

وكَـأَنَّ فَـارِسَـهُ وَرَاءَ قَـذَالِـهِ ... رِدْفٌ فَلَسْتَ تَرَاهُ مِنْ قُدَّامِهِ[1]
لانَـتْ مَعَـاطِفُـهُ فَتَحْسَـبُ أَنَّـهُ ... لِلْخَيْـزُرَانِ مُنَـاسِـبٌ بِعِظَـامِـهِ
فِيْ شُعْلَةٍ كَالشَّيْبِ لاَحَ بِمَفْرِقَيْ ... غَـزِلٍ لَهَـا عَـنْ شَيْبِـهِ بِغَـرَامِـهِ
وَكَـأَنَّ صَهْلَتَـهُ إِذَا اسْتَعْلَىٰ بِهَـا ... رَعْدٌ تَقَعْقَعَ فِيْ ازْدِحَامِ غَمَامِهِ
مِثْلُ الْغُرَابِ مَشَىٰ يُبَارِيْ صَحْبَهُ ... بِسَـوَادِ صِبْغَتِـهِ وَحُسْـنِ قَـوَامِـهِ

وقالَ [في «ديوانه» ٣/ ١٧٤٠_١٧٤٤ منَ الكامل] :

وأَغَرَّ فِيْ الزَّمَنِ الْبَهِيْمِ مُحَجَّلٍ ... قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَىٰ أَغَرَّ مُحَجَّلِ
كَـالْهَيْكَـلِ الْمَبْنِـيِّ إِلاَّ أَنَّـهُ ... فِيْ الْحُسْنِ جَاءَ كَصُوْرَةٍ فِيْ هَيْكَلِ
ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ الرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ ... عُـرْفٍ ، وَعُـرْفٌ كَـالْقِنَـاعِ الْمُسْبَلِ
جَذْلاَنَ يَنْفُضُ عُذْرَةً فِيْ غُرَّةٍ ... يَقَقٍ تَسِيْلُ حُجُوْلُهَا فِيْ جَنْدَلِ[2]
تَتَـوَهَّـمُ الْجَـوْزَاءَ فِـيْ أَرْسَـاغِـهِ ... وَالْبَـدْرَ غُـرَّةَ وَجْهِـهِ الْمُتَهَلِّـلِ
فَكَـأَنَّمَـا نَفَضَـتْ عَلَيْـهِ صِبْغَهَـا ... صَهْبَـاءُ لِلْبَـرَدَانِ أَوْ قُطْـرَبُّـلِ[3]
وَتَخَالُهُ كُسِيَ الْخُدُوْدَ نَوَاعِماً ... مَهْمَا تُوَاصِلْهَا بِلَحْظٍ تَخْجَلِ
وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِيْ الْغُبَارِ لَهِيْبُهُ ... لَوْناً وَشَدّاً كَالْحَرِيْقِ الْمُشْعَلِ
هَزِجُ الصَّهِيْلِ كَأَنَّ فِيْ نَغَمَاتِهِ ... نَبَرَاتِ مَعْبَدَ فِيْ الثَّقِيْلِ الأَوَّلِ[4]

---

(١) قَذَالُ الفرس : مَعْقِدُ سَيْرَيْ اللجام، خلفَ الناصيةِ .
(٢) العُذْرَةُ : الشَعْرُ علىٰ كاهلِ الفرسِ . اليقَقُ : شدَّةُ البياضِ . جندلٌ : مكان في مجرى النهر يشتد فيه التيار .
(٣) قُطْرَبُّلُ: اسم قرية بين (بغداد) و(عكبرىٰ) ينسب إليها الخمر، وما زالت متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. البردان : اسم بلدٍ قريبةٍ من (عكبرىٰ) و(قطربل) و(بغداد) .
(٤) مَعبَد: رجلٌ من أئمةِ الغناءِ. الثقيل الأول: ضرب من ضروب الإيقاع يبحث في علم الموسيقىٰ .

مَلَكَ ٱلْعُيُونَ إِذَا بَدَا أَعْطَيْنَهُ ... نَظَرَ ٱلْمُحِبِّ إِلَىٰ ٱلْحَبِيبِ ٱلْمُقْبِلِ

وقالَ حبيبٌ [في «ديوانه» ١/ ٣٨٠ منَ السريع] :

وصف أبي تمام للخيل

إِنْ زَارَ مَيْدَاناً سَبَىٰ أَهْلَهُ ... أَوْ نَادِياً قَامَ إِلَيْهِ ٱلْجُلُوسْ

تَرَىٰ رِزَانَ ٱلْقَوْمِ قَدْ أَسْمَحَتْ ... عُيُونُهُمْ فِيْ حُسْنِهِ وَهْيَ شُوسْ[١]

كَأَنَّمَا لاَحَ لَهُمْ بَارِقٌ ... فِيْ ٱلْمَحْلِ أَوْ زُفَّتْ إِلَيْهِمْ عَرُوسْ

عَوَّذَهُ ٱلْحَاسِدُ ظَنّاً بِهِ ... وَرَفْرَفَتْ خَوْفاً عَلَيْهِ ٱلنُّفُوسْ

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [في «ديوانه» ١/ ٥١ منَ الكامل] :

وصف ابن المعتز للخيل

وَلَقَدْ يَشُقُّ بِيَ ٱلْكَتِيبَةَ قَارِحٌ ... حَتَّىٰ أُخَضِّبَ بِٱلدِّمَاءِ سِلاَحِيْ

ذُوْ غُرَّةٍ فِيْ دُهْمَةٍ فَكَأَنَّهُ ... لَيْلٌ تَبَرْقَعَ وَجْهُهُ بِصَبَاحِ

وقالَ الناظمُ [في «العُكْبَريِّ» ١/ ١٧٩ـ١٨٠ منَ الطويل] :

وصف المتنبي للخيل

وَعَيْنِيْ إِلَىٰ أُذْنَيْ أَغَرَّ كَأَنَّهُ ... مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِيْ إِهَابِهِ ... تَجِيءُ عَلَىٰ صَدْرٍ رَحِيْبٍ وَتَذْهَبُ

شَقَقْتُ بِهِ ٱلظَّلْمَاءَ أُدْنِيْ عِنَانَهُ ... فَيَطْغَىٰ وَأُرْخِيهِ مِرَاراً فَيَلْعَبُ

وَأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ ... وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِيْنَ أَرْكَبُ

وَمَا ٱلْخَيْلُ إِلاَّ كَالصَّدِيْقِ قَلِيْلَةٌ ... وَإِنْ كَثُرَتْ فِيْ عَيْنِ مَنْ لاَ يُجَرِّبُ

وقولُهُ : (وأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ . . . إلىٰ آخرِهِ) مِنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في «ديوانهِ» ١٥٦ منَ الطويل] :

فَعَادَىٰ عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ ... وَعَادَ فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ

---

(١) أسمحتْ : ذلَّت وٱنقادَت . الأَشوسُ : الذي ينظر بطرفِ عينهِ تكبُّراً .

قضاء زوجة امرىء القيس لعلقمة

وحديثُ امرىءِ القيسِ ، وما قضتْ عليهِ فيهِ زوجُهُ لِعَلْقَمَةَ الفَحْلِ مشهورٌ[1] .

وصف المعري للخيل

وقالَ المعرِّيُّ [في «سقطِ الزند» ٢٣٠ منَ الطويل] :

وَقَدْ أَغْتَدِيْ وَٱللَّيْلُ يَبْكِيْ تَأَسُّفاً عَلَىٰ نَفْسِهِ وَٱلنَّجْمُ فِيْ ٱلْغَرْبِ مَائِلُ
بِـرِيْـحٍ أُعِيْـرَتْ حَـافِـراً مِـنْ زُمُـرُّدٍ لَهَا ٱلتِّبْرُ جِسْمٌ وَٱللُّجَيْنُ خَلاَخِلُ[2]
كَـأَنَّ الصَّبَـا أَلْقَـتْ إِلَـيَّ عِنَـانَهَـا تَخُـبُّ بِسَـرْجِـيْ تَـارَةً وَتُنَـاقِـلُ[3]
إِذَا ٱشْتَاقَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْمَنَاهِلَ أَعْرَضَتْ عَنِ ٱلْمَاءِ فَٱشْتَاقَتْ إِلَيْهَا المَنَاهِلُ

الشعراء والخيل

وَيُعْجِبُنِي قولُ بعضِهِم [منَ الكامل] :

فَكَـأَنَّمَـا لَطَـمَ الصَّبَـاحُ جَبِيْنَـهُ فَٱغْتَاظَ مِنْهُ فَدَاسَ فِيْ أَحْشَائِهِ

وقالَ مُهَذَّبُ الدِّينِ [منَ البسيط] :

سُوْدٌ حَوَافِرُهَا بِيْضٌ جَحَافِلُهَا صِبْغٌ تَوَلَّدَ بَيْنَ ٱلصُّبْحِ وَٱلْغَسَقِ
مِنْ طُوْلِ مَا وَطِئَتْ ظَهْرَ ٱلدُّجَىٰ خَبَباً وَطُوْلِ مَا كَرَعَتْ مِنْ مَنْهَلِ ٱلْفَلَقِ[4]

وهاهنا وقفةٌ؛ فَإِنَّ امرأَ القيسِ يقولُ عَنْ فرسِهِ [في معلقته منَ الطويل] :

كُمَيْتٍ إِذَا ٱسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ بِضَافٍ فُوَيْقَ ٱلأَرْضِ لَيْسَ بِأَعْزَلِ

---

(١) وقصَّةُ علقمةَ: أَنَّهُ خلفَ علىٰ امرأَةِ امرىءِ القيسِ لمَّا حكمت له علىٰ امرىءِ القيسِ بأَنَّهُ أَشعرُ منهُ في صفةِ فرسِهِ، فطلَّقها امرؤُ القيسِ، فخالفهُ عليها، وما زالتِ العربُ تسميهِ بالفحلِ لذلكَ . «الأغاني» (١٠/٢٠٦) .

(٢) الحافرُ مِنْ زُمُرُّد : أَيْ حافرٌ أَخضرُ صلبٌ ، التبرُ : الذهبُ . اللجينُ : الفضَّةُ .

(٣) تَخُبُّ : مِنَ الخببِ؛ وهو مِنْ ضروبِ السيرِ. التَّقَالُ: مِنَ المناقلةِ؛ وهي المشي اللَّيِّنُ الرقيقُ.

(٤) الفلقُ : الصبحُ .

ويقولُ [في «ديوانه» منَ المتقارب] :

لَهَا ذَنَبٌ مِثْلُ ذَيْلِ ٱلْعَرُوْسِ   تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرْ

والطِّرِمَّاحُ يقولُ في صفةِ فرسٍ لهُ ذَيَّالٍ[1] [كما في «ديوانه» ٥٣٣ منَ الوافر] :

فَسَدَّ بِمَضْرَحِيِّ ٱللَّوْنِ جَثْلٍ   خَوَايَةَ فَرْجِ مِقْلاَتٍ دَهِيْنِ[2]

المحمود من الخيل

وكُلُّهُ مشكلٌ ؛ لأَنَّ المحمودَ في الخيلِ إنَّما هو أن تَشُوْلَ بأذنابِها ، وتُبالغَ في رفعِ رُؤُوسِها ، حتَّىٰ تُظَنَّ ثلاثةً إذا اعترضتْ بالراكبِ ، كما سبقَ في قولي عنْ فرسِي ، وكما قالَ بشَّارٌ [في «ديوانه» ٤/ ٢٤ منَ الكامل] :

وَٱلْخَيْلُ شَائِلَةٌ تَشُقُّ عُبَابَهَا   مِثْلَ ٱلْعَقَارِبِ رَفَّعَتْ أَذْنَابَهَا

وكمَا قالَ الناظمُ في غارتهِ عليهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٣/ ٩٩ منَ الطويل] :

شَوَائِلَ تَشْوَالَ ٱلْعَقَارِبِ بِٱلْقَنَا   لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِمْ وَصَهِيْلُ

وقد سبقتِ العربُ إلىٰ ذلكَ ، فقالَ أحدُ بَني تَيْمِ اللهِ بنِ ثعلبةَ [في «ديوان الحماسة» ١/ ٣٥ منَ الكامل] :

وَلَقَدْ رَأَيْتُ ٱلْخَيْلَ شُلْنَ عَلَيْكُمُ   شَوْلَ ٱلْمَخَاضِ أَبَتْ عَلَىٰ ٱلْمُتَغَبِّرِ[3]

---

(١) ذَيَّالٌ : هو الفرسُ الطويلُ الجسم الطويلُ الذيلِ . فإن كانَ قصيرَ الجسمِ طويلَ الذيلِ قيلَ لهُ : ذائلٌ ، أو ذَيَّالُ الذنبِ، فيذكرونَ الذنبَ .

(٢) مضرحيُّ اللونِ : الأبيضُ مِن كلِّ شيءٍ . الجثلُ : الكثيرُ الشعرِ، الطويلُ الملتفُّ . الخوايةُ : الفرجةُ بين فخذي الناقةِ التي يسدُّها ذنبُها . المِقْلاَتُ : الناقةُ التي تلدُ واحداً ثُمَّ لا تحملُ ؛ وذلكَ أقوىٰ لها . الدهينُ : الناقةُ القليلةُ اللبنِ ؛ وهو أقوىٰ لها أيضاً .

(٣) شُلنَ عليكُم : مِن شالَ الفرسُ بذنبهِ يشولُ شولاً ؛ أي: رفعَهُ عندَ الجري . =

وقالَ غَنِيُّ بنُ مالكٍ [منَ الوافر] :

دَفَعْنَا ٱلْخَيْلَ شَائِلَةً عَلَيْهِمْ   وَقُلْنَا بِٱلضُّحَىٰ فَيْحَىٰ فَيَاحِ[1]

وقالَ الحطيئةُ [في « ديوانه » ١٥٣ منَ الطويل] :

عَوَاسِرَ بَيْنَ ٱلطَّلْحِ يَرْجُمْنَ بِٱلْقَنَا   خُرُوجَ ٱلظِّبَاءِ مِنْ حِرَاجِ قِطَانِ

إذِ العواسيرُ هِيَ ٱلَّتي ترفعُ أذنابَها لقوَّتِها ، شَبَّهَ الخيلَ بالظباءِ الخوارجِ مِنَ ٱلحِراجِ ، جمعُ حَرَجَة ؛ وهي ما التفَّ منَ الشجرِ ، وقِطَان : موضعٌ معروفٌ ، إلاَّ أنْ يقالَ : إنَّ الأوَّلينَ أرادوا وصفَها قائمةً في مرابِطِها ، فقد يكونُ علىٰ شيءٍ فيهِ مِنَ ٱلبعدِ ، ثُمَّ إنَّ قولَ التَّيْمي : (شَوْلَ المخاضِ) ، وقولَ بشار ، والناظمِ : مثلَ العقاربِ . . لا يخلو مِنَ ٱلملاحظةِ ؛ لأَنَّ المحمودَ في الخيلِ إنَّما هوَ أنْ ترفعَ أذنابَها ثم تَرُدَّها إلىٰ الوَراءِ ، كهيئةِ الرسوم الواقعةِ بالدنانيرِ[2] الإنكليزيةِ ، لا أنْ تبالغَ في رفعِها إلىٰ ما ذكرهُ أُولئكَ ، غيرَ أنَّهُ يمكنُ أنْ يَرِدَ إليهِ ما سبقَ عنِ ٱلطِّرِمَّاحِ ، وعنِ ٱمرىءِ القيسِ ، ولا سيَّما ما كانَ في بيتهِ الثاني ؛ إذ لا يبعدُ أنْ يكونَ المرادُ : أنَّها تشولُ بِهَا ، ثُمَّ تردُّها حتَّىٰ تَسُدَّ به فروجَها ، فيجتمعُ حينئذٍ المدحُ بالطولِ والشولانِ .

= المخاضُ : النوقُ الحواملُ . الغبرُ : البقيَّةُ مِنَ اللبنِ في الضَّرعِ . والمعنىٰ : لقد رأيتُكُم منهزمينَ والخيلُ تعدو عليكُم رافعةً أذنابَها رفعَ النوقِ الحواملِ لها إذا طُلِبَ حلبُ غبرِ لبنِها .

(١) فيحىٰ فياحِ : ٱنتشري وٱتَّسعي أيَّتُهَا الغارةُ .

(٢) المراد الليرة الذهبية الإنكليزية المعروفة الآن .

توجيه قولٍ للبحتري

أَمَّا قولُ البُحتريِّ السابقُ [في « ديوانه » ٣/ ١٧٤٢ منَ الكامل] :

ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ ٱلرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَـالْقِنَاعِ ٱلْمُسْبَلِ

فلاَ شكَّ أَنَّهُ يصفُهُ قائماً ، وإلاَّ . . كانَ فيهِ عَيْبُ الإِرْخَاءِ وعَيْبُ التَّحْرِيكِ ؛ فإِنَّهُ لا يُحْمَدُ من الخيلِ ، وإِنَّما يُحْمَدُ من الإبلِ ، كما قال أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانه » ٢٩٧ منَ الكامل] :

تَثْنِيْ عَلَىٰ ٱلحَاذَيْنِ ذَا خُصَلٍ تَعْمَالُهُ الشَّذْرَانُ وَٱلْخَطْرُ[1]

أَمَّا إِذَا رَفَعَتْهُ شَامِذَةً فَتَقُوْلُ : رَنَّقَ فَوْقَهَا نَسْرُ[2]

أَمَّا إِذَا وَضَعَتْهُ خَافِضَةً فَتَقُولُ : أُرْخِيَ دُوْنَهَا سَتْرُ

هل معقول أن سرعة الخيل الأعوجية تعادل سرعة القطا؟

والكلامُ في الخيلِ يطولُ ، وسنسيرُ عليهِ في الفُصُولِ ، كُلَّما سنَحتْ فرصةٌ . . نذكرُ منهُ حِصَّةً ، وهي ممّا أُفرِدَتْ بالتآليفِ العديدةِ ، ومِنْ أَشهرِها (الأَعوجيَّةُ) منسوبة لفحلٍ كريمٍ كان لكندةَ ، ثُمَّ أخذَتْهُ سُليمٌ ، ثُمَّ صارَ لبني عامرٍ ، ثُمَّ لبني هلالٍ ، رُكِبَ رطباً ، فأعوجتْ أَرساغُهُ ، قيلَ لصاحبهِ : ما رأيتَ مِنْ شدةِ عَدْوِهِ ؟ قال : عطشتُ في الفلاةِ ، ولا أَعرفُ منهلاً ، فما كانَ بأَسرعَ مِنْ سربِ قَطَا واردٍ ، فأَجريتُهُ في إِثرهِ ، فوافينا الماءَ معاً ، وكنتُ أَغضُّ مِنْ عِنانِهِ .

---

(١) الحاذانِ ـ مثنًّىٰ الحاذي ـ : وهوَ ظاهرُ الفخذِ . ذا خصلٍ : يريدُ بهِ ذنبَ الناقةِ . التَّعمالُ : الاضطرابُ . الشذَرانُ : جمعُ الناقةِ قُطرَيها وَرَفْعُها ذَنَبَها . الخَطْرُ : أَنْ تضربَ الناقةُ بذيلها يميناً ويساراً .

(٢) الشامذةُ : الناقةُ التي تشيلُ ذنبها نشاطاً .

وفيهِ مبالغاتٌ ؛ لأنَّ القطا مِنْ أشدِّ الطيرِ طيراناً ، وإذا أرادَ الماءَ . . اشتدَّ ، ومَا كفاهُ ذلكَ حتَّىٰ قالَ : أغضُّ مِنْ لجامهِ .

أول من ركب الخيل

وأوَّلُ مَنْ ركبَ الخيلَ : إسماعيلُ ـ عليهِ السلامُ ـ وكانتْ قبلَ ذلكَ وحشيَّةً ، كما سيأتي بيانهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ .

واللهُ أعلمُ

* * *

المجلس الخامس

[قالَ أَبو الطيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٤/٢٩ مِنَ الكامل] :

غُصْنٌ عَلَىٰ نَقَوَا فَلاَةٍ نَابِتٌ　　شَمْسُ ٱلنَّهَارِ تُقِلُّ لَيْلاً مُظْلِمَا

وصف المتنبي لحبيبته

يصفُ حبيبتَهُ فيقولُ : هي (غصنٌ) يعني : قامتَها . (نابتٌ) علىٰ كثيبَيْ رملٍ ـ يعني : رِدفَيها . ووجهُهَا شمسٌ تحملُ ليلاً مُظلِماً ـ يعني : فرعَها . و(نَقَوَا) ـ تثنيةُ نقاً ـ وهوَ : ٱلكثيبُ مِنَ الرَّمْلِ . و(الفَلاَةُ) : ٱلمَفازةُ ، وتشبيهُ ٱلكَفَلِ بالنَّقا شائعٌ ذائعٌ مرميٌّ في مدارجِ الطُّرقِ ، غيرَ أَنَّ التَّثنيةَ قد تُخرِجُهُ عَنِ ٱلابتذَالِ ، وٱلمَرأَةُ لها مأْكُمتانِ ، فشبَّهَ كلَّ واحدةٍ بنَقاً مِنَ الرَّملِ نابتٌ عليهِما غصنُ ٱلقامةِ ، وذِكرُ ٱلفلاةِ مِنَ ٱلفضولِ ؛ إذ لاَ معنىٰ لَهُ غيرَ ٱلاسترفادِ ، ما لَمْ تكُنِ ٱلمراةُ أَعرابيَّةً ، فيكونُ مِنْ بيانِ ٱلواقعِ . وقولهُ : (نابتٌ) مِنَ ٱلحشوِ أَيضاً ؛ إِذْ لا يزيدُ شيئاً علىٰ قولِهِ : (غُصْنٌ عَلَىٰ نَقَوَا) ، وتشبيهُ ٱلمآكمِ بكُثبانِ الرَّملِ علىٰ ما ذكرنا مِنَ ٱلشُّيوعِ .

تشبيه المآكم بكثبان الرمل عند الشعراء

ومِمّا جاءَ مُحكماً فيهِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ١/١٠٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ ٱلْهِنْدِيِّ ـ مُصْلَتَةً　　تَهْتَزُّ ـ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ مِنْ كُثُبِ[1]

---

(١) القُضُبُ ـ مفردها قضيبٌ ـ : وهوَ السيفُ اللطيفُ القطَّاعُ . مُصْلَتَةً : مسلولةً ؛ =

وقولُ ٱلبُحتريِّ [في «ديوانه» ٣/ ١٩٥٤ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَيـنَ ٱلغَـزَالُ ٱلْمُسْتَعِيـرُ مِـنَ ٱلنَّقَـا كَفَلاً، وَمِنْ نَوْرِ ٱلأَقَاحِيْ مَبْسِمَا[1] ؟

ومرَّ كثيرٌ ممَّا يتَّصلُ بهِ في ٱلمجلسِ ٱلثَّاني عندَ قولهِ [في «العُكبرَيّ» ١/ ٢٩٧] : (بَانُوا بِخُرْعُوْبَةٍ لَهَا كَفَلٌ . . .)، ولٰكنَّ ٱلإجادةَ كلَّ ٱلإجادةِ ما فعلَ ذو الرُّمَّةِ مِنْ عكسهِ ٱلتَّشبيهَ في قولهِ [في «ديوانهِ» ٢/ ١١٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَرَمْـلٍ كَـأَوْرَاكِ ٱلعَـذَارَىٰ قَطَعْتُـهُ وَقَدْ جَلَّلَتْهُ ٱلْمُظْلِمَاتُ ٱلْحَنَادِسُ[2]

كثرة استعمال التشبيه تبليه إلا إن خرج عن بابه مع تظريف

وكذلكَ تشبيهُ ٱلوجهِ بٱلشَّمسِ وٱلبدرِ ، وٱلفرعِ بٱللَّيلِ[3] ، فإنَّهُ ممَّا أذالَهُ ٱلابتذالُ ، فلَمْ يعُدْ يَحسُنُ إلاَّ معَ تظريفٍ يُغرِّبُهُ فيخرِجُهُ عَنِ ٱلامتهانِ ؛ كقولِ طَرَفَةَ [في «ديوانهِ» ١١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَوَجْهٍ كَأَنَّ ٱلشَّمْسَ حَلَّتْ رِدَاءَهَا عَلَيْـهِ نَقِيُّ ٱللَّـوْنِ لَـمْ يَتَخَـدَّدِ[4]

وقولِ قيسٍ [مِنَ ٱلكاملِ] :

لَوْ أَنَّ لَيْلَىٰ حَاكَمَتْ شَمْسَ ٱلضُّحَىٰ فِيْ ٱلْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ . . لَقَضَىٰ لَهَا

وقولِ ٱلبُحتريِّ [في «ديوانهِ» ٤/ ٢٤١٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فِيْ طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ شَيْءٌ مِنْ مَلاَحَتِهَا وَلِلْقَضِيْـبِ نَصِيْـبٌ مِـنْ تَثَنِّيْهَـا

= والمعنى : أنَّ تلكَ السيوفَ الهنديَّةَ إذا اهتزَّتْ . . سَبَتِ الذراريَ ، وأحرزتِ النساءَ اللاَّتي تهتزُّ كالقُضبانِ في كُثبانِ الرملِ .

(١) النقا : الرمل . والأقاحي ـ جمع أُقحوانٍ ـ : وهوَ نبتٌ طيِّبُ الريحِ ، حواليهِ ورق أبيضُ ، ووسطهُ أصفرُ ، وهوَ البابونج .

(٢) الحنادسُ : ثلاثُ ليالٍ مِنَ الشهرِ لظُلمَتهنَّ .

(٣) الفرعُ : الشَّعرُ .

(٤) الوجهُ المتخدِّدُ : المتجعِّدُ .

وقولِ ٱلآخَرِ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَـرَاءَىٰ وَمِـرْآةُ ٱلسَّمَـاءِ صَقِيلَـةٌ فَأَثَّرَ فِيهَا وَجْهُهُ صُورَةَ ٱلْبَدْرِ

وقولِ بعضِ قدماءِ ٱلمولَّدينَ[1] [مِنَ ٱلبسيطِ] :

قَدْ قُلْتُ لِلْبَدْرِ وَٱسْتَعْبَرْتُ حِينَ بَدَا مَا فِيْكَ يَا بَدْرُ لِيْ مِنْ وَجْهِهَا خَلَفُ

تُبْدِيْ لَنَا كُلَّمَا شِئْنَا مَحَاسِنَهَا وَأَنْتَ تَنْقُصُ أَحْيَاناً وَتَنْخَسِفُ

وقولِ حبيبٍ [في «ديوانِهِ» مِنَ الطَّويلِ] :

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا ٱلشَّمْسُ وَٱللَّيْلُ مُظْلِمٌ بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ ٱلْخِدْرِ تَطْلُعُ

فَـوَٱللهِ مَـا أَدْرِيْ أَٱلْأَحْـلَامُ نَـائِـمٍ أَلَمَّتْ بِنَا، أَمْ كَانَ فِيْ ٱلرَّكْبِ يُوْشَعُ[2]

وَإِلىٰ مِثْلِهِ يُشيرُ أَبو ٱلعلاءِ في قولِهِ [مِنَ ٱلوافِرِ] :

وَيُـوْشَـعُ رَدَّ يَـوْمـاً بَعْـضَ يَـوْمٍ وَأَنْتَ مَتَىٰ سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوْحَا[3]

وما أَحْسَنَ قولَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ حَلَفَتْ أَنْ تَسْأَلَ ٱلشَّمْسَ حَاجَةً وَإِنْ سَـأَلَتْـكَ ٱلْيُسْـرَ بَـرَّتْ يَمِيْنُهَـا

---

(1) المولَّدينَ : المُحْدَثينَ ، والمولَّدُ لغة : المُحْدَثُ مِنْ كُلِّ شيءٍ ، واصطلاحاً : هوَ العربيُّ غيرُ المحضِ ، وُلِدَ عندَ العربِ ، ونشأَ معَ أولادِهِم ، وتأدَّبَ بآدابِهِم ، فهوَ مولَّدٌ وليسَ بعربيٍّ صريحٍ .

(2) والمعنى : شبَّهَ سفورَ محبوبتِهِ ليلاً كأنَّها شمسُ النهارِ عادت ليلاً ، ثمَّ يستغربُ ويشكُّكُ فيما رأى فيظنُّهُ تارةً حُلْماً وتارةً يظنُّ أنَّ يوشعَ بنَ نونٍ معَ الركبِ ، حيثُ إنَّ يوشعَ استوقفَ الشمسَ عندما كانَ يقاتِلَ الجبَّارينَ يومَ الجُمُعةِ ، فلمَّا أدبرتِ الشمسُ . . خافَ أَنْ تغيبَ قبلَ أَنْ يفرغَ مِنَ القتالِ ويدخُلَ السبتُ ، فلا يحلُّ لهُ القتالُ ، فدعا اللهَ فردَّ لهُ الشمسَ حتَّى فَرَغَ مِنْ قتالِهِم .

(3) سفرت : برزتَ مِنْ غيرِ حجابٍ . يوحا : اسمٌ مِن أسماءِ الشمسِ .

وقولُهُ [في « سقط الزَّندِ » ١٦١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

أَرَىٰ جَبِيْنَكَ هَـٰذِيْ ٱلشَّمْسُ خَالِقُهَا وَقَـدْ أَنَـارَتْ بِنُـوْرٍ عَنْـهُ مُنْعَكِـسِ

وقولَ بَديعِ الزَّمانِ [في « ديوانهِ » ٣٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَكَادُ يَحْكِيْكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِباً لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا
وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وقولَ ٱبنِ ٱلمعتزِّ [في « ديوانهِ » ٢/١٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

سَقَتْنِيَ فِيْ لَيْلٍ شَبِيْهٍ بِشَعْرِهَا شَبِيْهَـةَ خَـدَّيْهَـا بِغَيْـرِ رَقِيْـبِ
فَأَمْسَيْتُ فِيْ لَيْلَيْنِ فِيْ ٱلشَّعْرِ وَٱلدُّجَىٰ وَشَمْسَيْـنِ مِـنْ خَمْـرٍ وَخَـدِّ حَبِيْـبِ

الرشيد وعلي بن الخليل

ويروىٰ [كما في « الأغاني » ١٤/ ١٧٤] : أَنَّ شَيْخاً حسَنَ ٱلهيئةِ قامَ في مجلسِ الرَّشيدِ للمظالمِ برُقعةٍ ، فأَمرَ بأَخذِها ، فقالَ الشَّيخُ : إِنْ رأىٰ أَميرُ ٱلمؤمنينَ أَنْ يأذنَ لي بقراءتِها ؛ فإِنِّي أَعرفُ بخطِّي ، قال : ٱقرأْ ، فأَنشدهُ قصيدةً [مِنَ الكاملِ] منها :

لَمَّـا رَأَتْـكَ ٱلشَّمْـسُ طَـالِعَـةً سَجَدَتْ لِوَجْهِكَ طَلْعَةُ ٱلشَّمْسِ
خَيْـرُ ٱلْبَـرِيَّـةِ أَنْـتَ كُلِّهِـمُ فِيْ يَوْمِكَ ٱلْغَادِيْ وَفِيْ أَمْسِ
للهِ يَـا هَـارُوْنُ مِـنْ مَلِـكٍ عَـفِّ ٱلسَّرِيْـرَةِ طَاهِـرِ ٱلنَّفْسِ

حتَّىٰ أَتىٰ علىٰ آخِرِها . قالَ الرَّشيدُ : مَنِ الشَّيخُ؟ قالَ : عليُّ بنُ ٱلخليلِ ، الَّذي يُقالُ إِنَّهُ زِنْدِيقٌ ، قال : أَنتَ آمِنٌ ، وأَمرَ لهُ بخمسِ مئةِ أَلفِ دِرهمٍ[1] .

---

(١) وجاء في « الأغاني » : أَنَّهُ أَعطاهُ خمسةَ آلافِ درهمٍ .

المتنبي وإغرابه في التشبيه

وما أكثرَ في « ديوانِ النّاظمِ » مِنِ ٱستعارةِ الشّمسِ بتنكيتٍ[1] تارةً ، وبدونهِ أُخرىٰ .

مِنْ ذلكَ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أَهْوَىٰ بِلَيْلٍ عَوَاذِلِي فَقُلْنَ : نَرَىٰ شَمْساً وَمَا طَلَعَ ٱلْفَجْرُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَمْ تَلْقَ هَـٰذَا ٱلْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا إِلاَّ بِـوَجْـهٍ لَيْـسَ فِيْـهِ حَيَـاءُ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٣٠ مِنَ ٱلكامِلِ] :

كَٱلشَّمْسِ فِيْ كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا يَغْشَـىٰ ٱلْبِـلاَدَ مَشَـارِقـاً وَمَغَـارِبَـا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

بِفَـرْعٍ يُـرِيْـكَ ٱللَّيْـلَ وَٱلصُّبْـحُ نَيِّـرٌ وَوَجْهٍ يُعِيْدُ ٱلصُّبْحَ وَٱللَّيْلُ مُظْلِمُ[2]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١١٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

بَيَاضُ وَجْهٍ يُرِيْكَ ٱلشَّمْسَ حَالِكَةً وَدُرُّ لَفْظٍ يُرِيْكَ ٱلدُّرَّ مَخْشَلَبَا[3]

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٨١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

شَمْسٌ إِذَا ٱلشَّمْسُ لاَقَتْهُ عَلَىٰ فَرَسٍ تَـرَدَّدَ ٱلنُّـوْرُ فِيْهَـا مِـنْ تَـرَدُّدِهِ

---

(١) النكتةُ : المسألةُ العلميَّةُ الدقيقةُ ، يتوصَّلُ إليها بدقَّةٍ وإنعامِ فكرٍ .

(٢) الباءُ في قولِهِ : (بِفَرْعٍ) متعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرهُ : تُقْبِلُ .

والمعنى : قد جُمِعَتْ فيها الأضدادُ ، فهيَ تجمعُ بينَ الليلِ والنهارِ ، تُريكَ النهارَ ليلاً بشَعرِها ، والليل نهاراً بوجهها .

(٣) المَخْشَلَبُ والمَشْخَلَبُ : لُغتانِ ، وليستا عربيَّتينِ ، وإنَّما هُما لُغتانِ للنَّبَطِ ، وهوَ : خَرزٌ مِنْ حجارةِ البحرِ ، وليسَ بدُرٍّ .

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٢/٩٩ مِنَ البسيطِ] :

تَكَسَّبُ ٱلشَّمْسُ مِنكَ ٱلنُّوْرَ طَالِعَةً   كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُوْرَهُ ٱلقَمَرُ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٢/١١٠ مِنَ الوافِرِ] :

كَأَنَّ شُعَاعَ عَيْنِ ٱلشَّمْسِ فِيْهِ   فَفِيْ أَبْصَارِنَا عَنْهُ ٱنْكِسَارُ

وقولُهُ [في «العُكبَريّ» ٤/٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ زَالَتِ ٱلشَّمْسُ ٱلَّتِيْ فِيْ سَمَائِهِ   مُطَالِعَةَ ٱلشَّمْسِ ٱلَّتِيْ فِيْ لِثَامِهِ

وَلاَ زَالَ تَجْتَازُ ٱلْبُدُوْرُ بِوَجْهِهِ   تَعَجَّبُ مِنْ نُقْصَانِهَا وَتَمَامِهِ

وصف السيدة فاطمة الزهراء

وأفضلُ ما فِي ٱلموضوعِ : ما أخرجهُ ٱلحاكمُ [في «ٱلمستدركِ» ٣/١٧٦] عَنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ : سألتُ أُمِّي عَنْ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فقالَتْ : كانَتْ كٱلقمرِ ليلةَ ٱلبدرِ ، أَوِ الشَّمسِ إذا خرجَتْ مِنَ السَّحابِ ؛ بيضاءَ مشرَّبةً حُمرةً ، لها شعرٌ أسودُ ، مِنْ أشدِّ النَّاسِ شبهاً برسولِ الله ﷺ ، هيَ ـ واللهِ ـ كما قالَ الشَّاعرُ [مِنَ ٱلكاملِ] :

بَيْضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامٍ شَعْرَهَا   وَتَغِيْبُ فِيْهِ وَهْوَ جَثْلٌ أَسْحَمُ[1]

فَكَأَنَّهَا فِيْهِ نَهَارٌ مُشْرِقٌ   وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مُظْلِمُ

وصف سيد الأنام ﷺ

وقالَ كعبُ بنُ زهيرٍ يمدحُ سيِّدَ ٱلمرسلينَ ﷺ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

تَجْرِيْ بِهِ ٱلنَّاقَةُ ٱلأَدْمَاءُ مُعْتَجِراً   بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّىٰ لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ[2]

وهوَ تشبيهٌ بليغٌ معَ وجودِ ٱلأداةِ ، وعدمِ ٱلإغرابِ ، وقلَّةِ ٱلنُّكاتِ ، وما وقعَ مِنَ ٱلقبولِ بما هوَ عليهِ إلاَّ مِنْ حيثُ إنَّهُ صادفَ

(١) الجثْلُ : الكثيرُ الملتفُّ . أَسحمُ : أَسودُ .
(٢) الأَدماءُ : السوداءُ .

محلَّهُ ، وكانَ قبلَ ٱبتذالِ ٱلمعنىٰ إِلىٰ جَزالةِ تركيبٍ ، وفَخامةِ لفظٍ ، وتَناسُقِ سَبْكٍ ، واتِّفاقِ جِناسٍ ، وسلاسةِ تعبيرٍ ، ولا كذلكَ بيتُ النَّاظمِ الَّذي نتكلَّمُ فيهِ ؛ لخلوِّهِ مِنَ ٱلإِغرابِ الَّذي لا يزالُ يتصيَّدُهُ ، وبيتُ كعبٍ هٰذا أَحدُ بيتينِ أَجمعَ أَهلُ ٱلعلمِ بالصِّناعةِ علىٰ تقديمِهِما ، وقد شطَّرتُهما بما ٱمتزجَ بهما ٱمتزاجَ ٱلماءِ بالرَّاحِ ، وٱختلطَ بهما ٱختلاطَ الأَجسامِ بالأَرواحِ ، فقلتُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

تشطير المؤلف لقصيدة كعب بن زهير

تَجْرِيْ بِهِ ٱلنَّاقَةُ ٱلأَدْمَاءُ مُعْتَجِراً ... فِيْ ٱلْغَزْوِ مَخْضُوْبَةً أَخْفَافُهَا بِدَمِ
وَٱلْيَوْمُ بِٱلنَّقْعِ لَيْلٌ وَهْوَ مُتَّشِحٌ ... بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّىٰ لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ
وَفِـيْ عِطَـافَيْـهِ أَوْ أَثْنَـاءِ رِيْطَتِـهِ ... جَلاَلَةُ ٱلْوَحْيِ فِيْ مُسْتَحْسَنِ ٱلشِّيَمِ[1]
وَبَيْـنَ جَنْبَيْـهِ قَلْـبٌ مِـلْءُ حَبَّتِـهِ ... مَا يَعْلَمُ ٱللهُ مِنْ دِيْنٍ وَمِنْ كَرَمِ

التوغل والاستغراق في المديح عند المتنبي

وقد أَلَمَّ النَّاظمُ بالأَخيرِ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٤٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

يَفْنَىٰ ٱلْكَلاَمُ وَلاَ يُحِيْطُ بِوَصْفِكُمْ ... أَيُحِيْطُ مَا يَفْنَىٰ بِمَا لاَ يَنْفَدُ ؟!

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٥٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَمْ أُجْرِ غَايَةَ فِكْرِيْ مِنْكَ فِيْ صِفَةٍ ... إِلاَّ وَجَدْتُ مَدَاهَا غَايَةَ ٱلأَبَدِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٣٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَتَحَيَّرَتْ فِيْهِ ٱلصِّفَاتُ لأَنَّهَا ... أَلْفَتْ طَرَائِقَهُ عَلَيْهَا تَبْعُدُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا حَارَتِ ٱلأَفْهَامُ فِي عُظْمِ شَأْنِهِ ... بِأَكْثَرَ مِمَّا حَارَ فِيْ حُسْنِهِ ٱلطَّرْفُ

---

(١) الرَّيطةُ : المَلاءةُ إِذا كانتْ قطعةً واحدةً ولم تكن لِفقين .

وقولِهِ ـ وقد أساءَ ٱلأدبَ ـ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٠١ مِنَ ٱلكاملِ] :

تَتَقَاصَرُ ٱلأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ   مِثْلُ ٱلَّذِي ٱلأَفْلَاكُ فِيْهِ وَٱلدُّنَا[1]

التوغل والاستغراق في المديح عند الشعراء

وقالَ بعضُهم [مِنَ ٱلوافرِ] :

مُرَامٌ شَطَّ مَرْمَىٰ ٱلْوَصْفِ فِيْهِ   فَدُوْنَ مَدَاهُ بِيْدٌ لاَ تَبِيْدُ[2]

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ [في « ديوانهِ » ٩١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

أَتْبَعْتُهُ فِكْرَتِيْ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتْ   غَايَاتِهَا بَيْنَ تَصْوِيْبٍ وَتَصْعِيْدِ

أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانٍ يَلُوْحُ وَمَا   أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيْفٍ وَتَحْدِيْدِ

وما أَليقَ هـٰذا بٱلجَنابِ ٱلأقدسِ ، غيرَ أَنَّ هـٰؤلاءِ لاَ يوزَعونَ[3] عَنِ ٱلغُلُوِّ في ٱلمخلوقينَ .

وقالَ ٱلعجَّاجُ فيما يُشبِهُ قولَ كعبٍ [في « ديوانهِ » ٣٩٧ مِنَ الرَّجَزِ] :

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدَدٍ وَفَخْرِ   يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِيْ وَمَا لاَ نَدْرِيْ

قالَ ٱلأصمعيُّ ـ وأَصلُهُ قولُ ٱلحارثِ بنِ حِلِّزَةَ ـ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

وَفَعَلْنَا كَمَا عَلِمَ ٱللهُ   وَمَا إِنْ لِلْخَائِنِيْنَ دَمَاءُ[4]

وقالتِ ٱلخنساءُ [في « ديوانِها » ٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ ثَكِلَتْ أُمُّ ٱلَّذِيْنَ مَضَوْا بِهِ   إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ مَاذَا يَحْمِلُوْنَ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ ؟!

---

(١) مِثْلُ : الروايةُ الصحيحةُ بالرفعِ ، ويكونُ على تقديرِ : هوَ مِثْلُ ؛ يعني : أَنَّ الأَفهامَ تتقاصرُ عن هـٰذا الممدوحِ في معرفةِ حقيقتِهِ ، فهو مثلُ علمِ اللهِ تعالىٰ .

(٢) مُرامٌ : مقصودٌ .

(٣) لا يوزَعونَ : لا يرتدعونَ .

(٤) الدَّمَاءُ : بقيَّةُ الروحِ في المذبوحِ ، أَو قوَّةُ قلبهِ . =

وفي ٱلذِّكرِ ٱلحكيمِ منهُ ٱلكثيرُ الطَّيِّبُ ، كقولهِ جلَّ ٱسمهُ : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٨] ، وقولهِ : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم : ١٦] ، وقولهِ : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩] .

المؤلف ومفاضلته بين بيتٍ للبوصيري وبيت لابن الفارض في أحد المجالس

وٱتَّفقَ أنْ حضرنَا مجلساً جَرَىٰ فيهِ ذكرُ قولِ ٱلبوصيريِّ [في « بردتهِ » ١٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَمَبْلَـغُ ٱلْعِلْـمِ فِيْـهِ أَنَّـهُ بَشَـرٌ   وَأَنَّـهُ خَيْـرُ خَلْـقِ ٱللهِ كُلِّهِـمِ

فقلتُ : ما زالتِ ٱلأُدباءُ تفاضِلُ بينهُ وبينَ قولِ ٱبنِ ٱلفارضِ [في « ديوانهِ » ١٥٤ منَ ٱلكاملِ] :

وَعَلَىٰ تَفَنُّـنِ وَاصِفِيْـهِ بِـوَصْفِـهِ   يَفْنَىٰ ٱلزَّمَانُ وَفِيْهِ مَا لَمْ يُوْصَفِ

ومنهمْ منْ يرجِّحُ ٱلأَوَّلَ ؛ لاقتضائهِ أَنَّ ٱلعلمَ لاَ يصلُ كُنْهَ صِفَتهِ عليهِ ٱلسَّلامُ ؛ إِذْ صارَ كأَنَّهُ ٱستجمعَ فضيلةَ كلِّ فاضلٍ ، وزادَ .

وٱلحالُ : أَنَّ ذِكْرَ فضلِ سائرِ ٱلفضلاءِ بلهَ الزِّيادةِ عليهِ لاَ يُحصىٰ في أَزمنةٍ ، فضلاً عَنِ ٱلزَّمانِ ٱلواحدِ ، فٱلأمرُ أَكثرُ مِنْ قولِ ٱلنَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٢٦٧ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَوْ نِيطَتِ ٱلدُّنيَا بِأُخرَىٰ مِثْلِهَا   لَعَمَمْنَهَا وَخَشِيْنَ أَنْ لاَ تَقْنَعَا[1]

إتمامه ﷺ بيتاً لابن الفارض في المنام

ويحكونَ فيه مناماً ، حاصلُهُ : أَنَّ ٱلبوصيريَّ وقف بعدَ ٱلشَّطرِ ٱلأَوَّلِ مِنَ ٱلبيتِ ، ولمْ يدرِ ما يقولُ ، فرأىٰ ٱلنَّبي ﷺ يُتِمُّهُ لهُ كمَا هوَ ، ولـٰكنَّ بيتَ ٱبنِ ٱلفارضِ أَفخمُ ، وأَملأُ للفمِ ، وأَرقُّ دِيباجةً ،

---

(١) لَعَمَمْنَها : أَيْ هِمَّتُكَ وعزمُكَ وسعةُ صدركَ .

وأَلطفُ حاشيةً ، وأَجملُ سَبْكاً ، ولاَسِيَّما مِنْ شطرِ بيتِ ٱلبوصيريِّ ٱلأخيرِ ، علىٰ أَنَّ (أَل) في ٱلمفردِ مِنْ صيغِ ٱلعمومِ ، فيساوي بيتَ ٱلبوصيريِّ حينئذٍ في ٱلمعنىٰ ، ويبقىٰ لهُ ٱلتَّفرُّدُ بفصاحةِ ٱلأَلفاظِ ، وهيَ ٱلَّتي لاَ تتفاوتُ ٱلدَّرجاتُ وتتمايزُ ٱلمقاديرُ إِلاَّ بهَا .

المعاني موجودة حتى عند العامة ولكن الفضل في نظمها

أَمَّا ٱلمعانِي : فقد تجدُ في كلامِ ٱلعامَّةِ ما لا تجدُ مثلَهُ منها في أَشعارِ ٱلفحولِ ؛ ولهـٰذا قالَ أَبو تمَّامٍ : لمّا نظمتُ قصيدتِي ٱلمستهلَّةَ بقولِي [في « ديوانه » ١/١٤٨ ـ ١٤٩ مِنَ الطَّويلِ] : (عَلَىٰ مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلاعِبِ) ، ووصلتُ إِلىٰ قولي منها :

يَـرَىٰ أَقْبَـحَ ٱلأَشْيَـاءِ أَوْبَـةَ آمِـلٍ كَسَتْهُ يَدُ ٱلْمَأْمُوْلِ حُلَّةَ خَائِبِ

(وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ ٱلصَّبَا) . . تبلَّدْتُ ولمْ أَقدرْ علىٰ شيءٍ ، حتَّىٰ قامَ سائلٌ بٱلبابِ يقول : مِنْ بياضِ عطاياكُم في سوادِ مطالبِنَا ، فأَتممتُ ٱلبيت هـٰكذا : (بَيَاضُ ٱلْعَطَايَا فِيْ سَوَادِ ٱلْمَطَالِبِ) .

علىٰ أَنَّ ٱلشَّيخَ ٱبنَ ٱلفارضِ لمّا فُتِحَ عليهِ بٱلبيتِ ٱلمذكورِ . . رقصَ طويلاً ، وتواجدَ وجداً عظيماً ، وتحدَّرَ منهُ عرقٌ كثيرٌ ، حتَّىٰ سالَ تحتَ قدميهِ ، وخرَّ إِلىٰ ٱلأَرضِ ، وٱضطربَ كما يضطربُ ٱلعصفورُ ، قالَ ولدهُ : ثمَّ سكنَ حالُهُ ، وسجدَ للهِ تعالىٰ ، وقالَ : فُتِحَ عليَّ بمعنىً لَمْ يفتحْ عليَّ بمثلهِ ، وأَنشدَ ٱلبيتَ . . . هـٰذا ما قلتهُ بمعناهُ إِنْ تعذَّرَ لفظهُ .

اعتراض بعض الحاضرين على المؤلف ورد المؤلف عليه

وفي ٱلمجلسِ بعضُ مَنْ يدَّعِي ٱلعلمَ فأَعادَ بعضَ كلامِي عَنْ بيتِ ٱلبوصيريِّ بعبارةٍ عاميَّةٍ مُبتَذَلَةٍ ، وقضىٰ لهُ ، وقالَ : كيفَ لا يكونُ أَبلغَ مِنْ بيتِ ٱبنِ ٱلفارضِ ، وقد أَملاهُ عليهِ سيِّدُ ٱلبشرِ؟! قلتُ لهُ : ذلكَ أَدنىٰ لتفضيلِ بيتِ ٱبنِ ٱلفارضِ عليهِ ؛ فاللهُ جلَّ ثناؤهُ يقولُ :

﴿ وَمَا عَلَّمۡنَـٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ وَقُرۡءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] .

ومِنْ هُنا نجدُ في ٱلقسمِ الثَّاني الَّذي ذكرَ أَنَّهُ أملاهُ عليه السَّلامُ ضعفاً يزيدُنا إيماناً وطمأنينةً بصدقِ رسالتهِ ، وحقيقةِ وحيهِ ، فٱنقطعَ الرَّجلُ عَنِ ٱلحجَّةِ غيرَ أَنَّهُ لجَّ في ٱلمكابرةِ ، وأَبىٰ لهُ أَصحابهُ إلاَّ ٱلغَلَبَ ، وإِلىٰ النَّاظرينَ ٱلحُكمَ فيما شجرَ ، ويرحمُ اللهُ مَنْ نظرَ بعينِ ٱلمَعْدَلَةِ ، وتكلَّمَ بلسانِ ٱلإنصافِ .

ثمَّ ذكرتُ : أَنَّ ٱلأَخطلَ كما في « معاهدِ ٱلتنصيصِ » يقولُ [منَ الطَّويلِ] :

رَأَيْنَـا بيَـاضـاً فِـي سَـوَادٍ كَـأَنَّـهُ ... بيَاضُ ٱلْعَطَايَا فِي سَوَادِ ٱلْمَطَالِبِ

فغلبَ علىٰ ٱلظَّنِّ أَنَّ ٱلطَّائيَّ[1] إِنَّما ٱنتحلَ حديثَ ٱلسَّائلِ ليواريَ مِنْ سوأَتِهِ ، ويُعَفِّيَ علىٰ سرقتِهِ .

واللهُ أَعلمُ

* * *

(١) هو الشاعرُ ٱلمعروفُ ، أبو تمام ، حبيبُ بنُ أَوسٍ ٱلطَّائيُّ .

[قالَ أَبو الطَّيبِ المتنبي في « ٱلعُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَمْ تَجمَعِ ٱلأَضْدَادَ فِيْ مُتَشَابِهٍ	إِلاَّ لِتَجْعَلَنِيْ لِغُرْمِيَ مَغْنَمَا

تشبيه المتنبي ما يلزم من العشق بالدَّين

يقولُ : إِنَّ مَا لزمهُ مِنْ عشقِ ٱلحبيبةِ بمثابةِ الدَّينِ الثَّابتِ ، وهيَ لم تجمعِ ٱلأَوصافَ الضِّدِّيَةَ في شخصِها ٱلمتمثِّلِ حُسْناً إِلاَّ لتجعلنِي غنيمةً للمغرمِ الَّذي لزمنِي مِنْ هواها .

شرح البيت

قالَ الشَّارحُ : أَي لتستعبدَنِي وترتهنَ قلبي ، وأَقولُ : إِنَّ ٱلأولىٰ : لتقتُلَني إِذا غلقَ رهنُ قلبي بما فيهِ ؛ لأَنَّهُ ٱلأَقربُ ٱلمتبادرُ مِنْ لفظِ ٱلبيتِ .

و(أَلْ) في ٱلأَضدادِ للعهدِ ٱلمذكورِ في ٱلبيتِ قبلهُ مِنَ ٱلهَيَفِ في ٱلقدِّ ، والضَّخامةِ في ٱلكفلِ ، والضِّياءِ في ٱلوجهِ ، والظَّلامِ في ٱلفرعِ .

معنى التشابه

والتَّشابهُ ؛ وهو : التَّساوي ، وقد يرادُ بهِ ٱلمؤَدِّي للالتباسِ ، ومنهُ قولهُ تعالىٰ : ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة : ١١٨] ، وقولهُ جلَّ ذكرهُ عن بني إِسرائيلَ : ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة : ٧٠] وقولهُ تقدَّستْ أَسماؤهُ : ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام : ٩٩] ، ويدخلُ في التَّشابهِ التَّشبيهُ ٱلمعكوسُ ، وهو : أَنْ يُشبَّهَ كلٌّ مِنَ الشَّيئينِ بالآخرِ ، كقولِ الصَّاحبِ [في « ديوانهِ » ١٧٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

رَقَّ ٱلـزُّجَاجُ وَرَاقَـتِ ٱلْخَمْـرُ   فَتَشَـابَهَـا وَتَشَـاكَـلَ ٱلأَمْـرُ
فَكَـأَنَّمَـا خَمْـرٌ وَلاَ قَـدَحٌ   وَكَـأَنَّمَـا قَـدَحٌ وَلاَ خَمْـرُ

والمرادُ منَ التَّشابهِ هنا ـ كما أسلفنا الإشارةَ إليهِ ـ : التَّساوي في الحُسنِ والجمالِ والتَّناسبُ فيهِ ؛ إذْ لكلِّ عضوٍ مِنَ الأعضاءِ جمالٌ يخصُّهُ حَسْبما هو مشروحٌ في مواضعهِ ، ولكنها لاَ تغلو قيمةُ ذلكَ الجمالِ في العضوِ إلاَّ إذا ناسبتْهُ الأعضاءُ بأَسرِها ، وذلكَ هو الجمالُ المتناصفُ الممدوحُ ، بخلافِ المتفاوتِ ، فإنَّهُ مذمومٌ ؛ ولذا قالَ جلَّ شأنُهُ :

تناسب الأعضاء إلى بعضها هو معيار الحسن

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك : ٣] .

ولقد ذُكِرَ عن بعضِ العربِ[1] : أنَّهُ خرجَ يمتارُ[2] لأهلهِ علىٰ حمارينِ ، فرأَىٰ امرأةً مبرقعةً استهوتهُ بعينيها النَّجلاوينِ ، فتدلَّهَ ، ولَّهَهُ حسنُها ، حتَّىٰ انفلتَ عليهِ الحمارانِ مِنْ حيثُ لاَ يشعرُ ، فلمَّا سفرَتْ عن وجهها . . رآهَا فوهاءَ لاَ يتناسبُ سحرُ عينيها بسَعةِ فمِها ، فأَفاقَ مِنْ غشيتهِ وانتبهَ مِنْ حيرتهِ ، وقالَ : ذكَّرني فُوها . . حمارَيْ أَهلي ، وقالَ [منَ الكاملِ] :

ذكرني فوها حماري أهلي

لَيْتَ ٱلنِّقَابَ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ مُحَرَّمٌ ... كَيْ لاَ تَغُرَّ قَبِيْحَةٌ إِنْسَانَا

ولو كانتْ تلكَ السَّعةُ في غيرِ ذَلكَ الوجهِ المفرطِ الجمالِ . . لاحتُملتْ ، ولمْ تَشِنْهُ إلى تلكَ الغايةِ .

وقد أَشكلَ علىٰ بعضهم معابةُ سعةِ الفمِ ، معَ ما جاءَ في وصفهِ ﷺ بأنَّهُ كانَ واسعَ الفمِ ، يفتتحُ الكلامَ ويختتمهُ بأشداقهِ ، والجواب : أنَّ سعتَهُ مِنَ الرِّجالِ ممدوحةٌ ؛ لدلالتها علىٰ اللَّسَنِ

سعة الفم ممدوحة في الرجال لا النساء

---

(١) الخبر في « مجمع الأمثال » (١/ ٢٧٥) .
(٢) يمتار : يشتري الطعام .

وجهارةِ الصَّوتِ ، بخلافِها في النِّساءِ ، فإنَّها مذمومةٌ ؛ لأَنَّهَا تدُلُّ علىٰ سعةٍ أُخرىٰ لا تُحمدُ[1] .

الجمال يكون بسواد أربعة

ثمَّ إنَّ جمالَ ٱلمرأَةِ بسوادِ أَربعةٍ ، هي : شعرُ الرَّأسِ ، والحاجبينِ ، والأشفارِ ، والحَدَقتينِ .

وبياض أربعة

وبياضِ أَربعةٍ ، هيَ : اللَّونُ ، وبياضُ العينينِ ، والثَّغْرِ ، والظُّفُرِ .

وحمرة أربعة

وحُمرةِ أَربعةٍ ، هيَ : الوجنتانِ ، والشَّفتانِ ، واللِّثَةُ ، واللِّسانُ .

وكبر أربعة

وكِبَرِ أَربعةٍ ، هيَ : الثَّديانِ ، والركبتانِ ، والعجيزةُ ، والرَّكَبُ .

وصغر أربعة

وصِغَرِ أَربعةٍ ، هيَ : الأُذُنانِ ، واليدانِ ، والرِّجْلانِ ، والفمُ .

وسعة أربعة

وسعةِ أَربعةٍ ، هيَ : الجبينُ ، والعينانِ ، والسُّرَّةُ ، وأُصولُ الثَّديينِ .

وضيق أربعة

وضيقِ أَربعةٍ ، وهيَ : المِنخرانِ ، والأُذُنانِ ، والخَصرُ ، والفرجُ .

ولكلٍّ واحِدٍ ما يخصُّهُ مِنْ كلامِ العربِ ، ولا بدَّ مِنَ الإلمامِ بهِ مجموعاً في غيرِ هٰذا المجلسِ .

المراد من حمرة الشفة

وليسَ المرادُ بحُمرةِ الشَّفَةِ حقيقةَ الحمرةِ ، إنَّما المرادُ : السُّمرةُ ؛ لأَنَّها المحمودةُ في الشِّفاهِ ، ويقالُ لها : اللَّعَسُ ، كما في قولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٨٧ مِنَ البسيطِ] :

---

(١) كبذاءة الألفاظ واستطالتها .

صَــرِيْــعَ مُقْلَتِهَــا سَــأَلَ دِمْنَتِهَــا قَتِيْلَ تَكْسِيْرِ ذَاكَ ٱلْجَفْنِ وَٱللَّعَسِ[1]

وقالَ أُحيحةُ بنُ ٱلجلاَّحِ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَلاَعَبَنِي عَلَىٰ ٱلأَنْمَـاطِ لُعْـسٌ عَلَـىٰ أَفْـوَاهِهِـنَّ ٱلـزَّنْجَبِيْـلُ[2]

وقالَ ذو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَمْيَـاءُ فِـيْ شَفَتَيْهَـا حُـوَّةٌ لَعَـسٌ وَفِيْ ٱللِّثَاتِ وَفِيْ أَنْيَابِهَا شَنَبُ[3]

واللَّمىٰ والحُـوَّةُ واللَّعَـسُ شـيءٌ واحـدٌ ، وهـو : الحمـرةُ فـي الشفةِ .

الملاحة والخلاف فيها

وقالَ بعضُهم : إنَّ تساوي الأعضاءِ وتشابهَها في ٱلجمالِ هو ٱلمَلاحةُ .

وقالَ آخرونَ : إنَّما ٱلمَلاحةُ أَثرُ ذَلكَ التَّناسبِ لاَ نفسُهُ ، فهيَ فيهِ : إمَّا حقيقةٌ ، وإمَّا مجازٌ .

ويتحصَّلُ منه : أَنَّ كلَّ مليحٍ جميلٌ ، ولا عكسَ .

الفرق بين المليح والجميل والخلاف فيه

وقيلَ : إنَّ الجميلَ الذي يأخذُ بِبصركَ علىٰ البعدِ ، والمليحَ : الذي يأخذُ بقلبكَ علىٰ القربِ .

وقيلَ : إنَّ الجميلةَ التي تعجبكَ بعيدةً ، فإذا دنتْ . . لمْ تكن عندَ ذاكَ ، والمليحةَ : التي تأخذُ بمجامعِ القلوبِ علىٰ الحالينِ ، وفي القربِ أكثرُ .

---

(١) الدِمنَةُ : آثار الديار .

(٢) الأنماط ـ جمع نَمط ـ : وهو ضربٌ مِنَ البُسُطِ ، لهُ خملٌ رقيقٌ .

(٣) الشَّنبُ : هو بردٌ وعذوبةٌ في الأسنانِ ، وقيل : تحديدُ الأَنيابِ ودقَّتُها ، والأَوَّلُ أَجودُ .

مواضع الحُسن

وقال قومٌ : ٱلحسنُ في ٱلوجهِ صَباحةٌ ، وفي ٱلبشرةِ وَضاءَةٌ ، وفي ٱلأنفِ جمالٌ ، وفي ٱلعينينِ حلاوةٌ ، وفي ٱلفمِ مَلاحةٌ ، وفي اللِّسانِ ظَرَفٌ ، وفي ٱلقدِّ رَشاقةٌ ، وفي الشَّمائلِ لباقةٌ .

وقد يتوسَّعونَ في إطلاقِ بعضِها علىٰ بعضٍ .

الجمال عند العرب

وقال آخرون : ٱلجمالُ عندَ ٱلعربِ في ٱعتدالِ ٱلقامةِ ، وطولِ ٱلجيدِ ، وبروزِ النَّهدِ ، وذبولِ ٱلعيونِ السُّودِ ، وٱحمرارِ ٱلخدودِ ، وٱبيضاضِ الصُّدورِ ، وثِقَلِ الرَّوادفِ ، ونحولِ ٱلخصورِ .

الحُسن عند علي بن عبيد

وقالَ عليُّ بنُ عبيدٍ الرَّيحانيُّ : ٱلحُسنُ تناسبُ الصُّورةِ ، وزينتُهُ ٱعتدالُ ٱلحركةِ ، ثُمَّ ما لا يُحسِنُ اللِّسانُ التَّرجمةَ عنهُ مِن خفَّةِ الرُّوحِ وٱلقَبولِ ، وبمقدارِ هـٰذا يتمكَّنُ مِنَ ٱلقلوبِ ، ويستحكمُ سلطانُ ٱلهوىٰ علىٰ ٱلعقولِ ، وأَحسنُهُ ما لَمْ يُجلَبْ بتزيينٍ وتضييقٍ ، وتحليةٍ وتزويقٍ ؛ ولهـٰذا قالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٦٨ مِنَ ٱلبسيطِ] :

الحسن عند المتنبي

حُسْنُ ٱلْحَضَارَةِ مَجْلُوْبٌ بِتَطْرِيَةٍ ... وَفِيْ ٱلْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوْبِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١١١ مِنَ ٱلبسيط] :

هَـامَ ٱلْفُـؤَادُ بِـأَعْـرَابِيَّـةٍ سَكَنَـتْ ... بَيْتاً مِنَ ٱلْقَلْبِ لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طُنُبا(١)

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

عَـدَوِيَّـةٌ بَـدَوِيَّـةٌ مِـنْ دُوْنِهَـا ... سَلْبُ ٱلنُّفُوْسِ وَنَارُ حَرْبٍ تُوْقَدُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٠٠ـ٣٠١ مِنَ ٱلكاملِ] :

ٱلْحُسْـنُ يَـرْحَـلُ كُلَّمَـا رَحَلُـوْا ... مَعَهُـمْ وَيَنْـزِلُ حَيْثُمَـا نَـزَلُـوْا

---

(١) الطنبُ : الحبلُ الذي تشدُّ بهِ الخيمةُ .

فِـيْ مُقْلَتَـيْ رَشَـأ تُـدِيْـرُهُـمَـا   بَـدَوِيَّـةٌ فُتِنَـتْ بِهَـا ٱلْحُلَـلُ[1]

ولمَّا أَرسلَ ٱلحارثُ بنُ عَمرٍو ـ مَلِكُ (كِندةَ) ـ ٱمرأَةً مِنْ قومهِ ؛ لِتَخبُرَ لَهُ جمالَ ٱبنةِ عوفِ بنِ محلِّمِ الشَّيبانيِّ ولَبَاقتَها. . رجعَتْ إِليهِ ، فقالَ : ما وراءَكِ يا عصامُ ؟ ـ فذهَبتْ مثلاً ـ فقالَتْ : صرَّحَ المَخْضُ عَنِ الزُّبدِ ، رأَيتُ جبهةً كاَلمِرآةِ ٱلمصقولةِ ، يزيِّنُها شَعْرٌ حالكٌ ، إِنْ أَرسلتْهُ . . خِلْتَهُ السلاسلَ ، وإِنْ مَشَطَتْهُ . . قلتَ : العناقيدُ جَلاَّها الوابلُ[2] ، وحاجبينِ كأَنَّما خُطَّا بٱلقلمِ الأَسودِ ، تَقَوَّسَا علىٰ مثلِ عيونِ الظبيةِ ، بينَهُما أَنفٌ في حدِّ السيفِ ، حُفَّتْ بهِ وجْناتٌ كٱلأُرجوانِ[3] ، في وجهٍ كٱلبدرِ ، شُقَّ فيهِ فمٌ كٱلخاتَمِ ، لذيذُ المبسمِ ، فيهِ ٱلثَّنايا الغرُّ ، يزيِّنُها الأَشْرُ[4] ، تَقَلَّبَ فيهِ لسانٌ ذو فصاحةٍ وبيانٍ ، بعقلٍ وافرٍ ، وجوابٍ حاضرٍ ، تلتقي فيهِ شفتانِ حمراوانِ ، تتحلَّبانِ ريقاً كٱلشَّهدِ ، في جيدٍ كإِبريقِ ٱلفضَّةِ ، رُكِّبَتْ فوقَ صدرٍ كأَنَّهُ تمثالُ دميةٍ ، وعضُدَينِ مدمَّجينِ ، يتَّصلُ بهما ذراعانِ ، ليسَ فيهما عظمٌ يُمَسُّ ، ولا عِرْقٌ يُجَسُّ ، رُكِّبَتْ فيهما كفَّانِ ، دقيقٌ قَصَبُهُما ، ليِّنٌ عَصَبُهُما ، تكادُ تُعقَدُ منهُما ٱلأَناملُ ، في ذلكَ الصَّدرِ ثديانِ كالرُّمَّانتينِ يخرقانِ عليها ثيابَها ، تحتَ ذلكَ بطنٌ طُوِيَ طيَّ ٱلقباطي ٱلمدمَّجةِ[5] ، يتكسَّرُ عُكَناً[6] كالقراطيسِ

أروع وصف لامرأة هو ما تصف به عصام امرأة من كندة للحارث بن عمرو

---

(١) الرشأُ : ولدُ الظبيةِ الصغيرُ . الحُلَلُ ـ جمعُ حُلَّةٍ ـ : وهيَ القومُ المجتمونَ في بيوتٍ مجتمعةٍ للنزولِ .

(٢) جلاَّها ٱلوابلُ : بلَّلها ٱلمطرُ .

(٣) الأُرجوانُ : شجرٌ له زهرٌ شديد الحمرة ، حسنُ المنظرِ ، ليست له رائحةٌ .

(٤) الأَشْرُ : هوَ تحزيزُ الأَسنانِ .

(٥) القباطي المدمجة : ثيابٌ من كتّانٍ منسوبةٍ إلى القبط .

(٦) العُكَنُ : ما ٱنطوىٰ وتثنّىٰ مِنْ لَحمِ البطنِ سِمناً .

المدرجةِ ، تحيطُ بها سرّةٌ كالمُدْهُنِ[1] المجلوِّ ، خلفَ ذلكَ ظهرٌ فيهِ مثلُ الجدولِ ، ينتهي إلىٰ خصرٍ لولا رحمةُ اللهِ . لانبَتَرَ ، لها كَفَلٌ يُقعِدُها إذا نهضَتْ ، ويُنهضُها إذا قعدَتْ ، كأنَّهُ دِعْصُ الرَّملِ[2] لَبَّدَهُ سَقيطُ ٱلطلِّ[3] ، يَحمِلُهُ فَخِذانِ كأنَّما قُلِبا علىٰ نَضِيدِ جُمانٍ[4] ، تحتَها ساقانِ خَدْلَتانِ[5] ، يحمِلْنَ قدمينِ كحذوِ اللِّسانِ ، فتباركَ اللهُ معَ صغرِهما كيفَ يطيقانِ حملَ ما فوقَهما[6] .

---

(١) المُدْهُنُ : آلةُ الدُّهنِ .

(٢) دِعصُ الرَّملِ : كثيبه المجتمع .

(٣) لبَّدهُ سقيطُ الطَّلِّ : لزَّق بعضه ببعضٍ هطولُ المطرِ .

(٤) نضيدُ ٱلجمانِ : اللؤلؤُ في سلكِهِ .

(٥) خَدلَتانِ : ممتلئتان .

(٦) وعلىٰ عادةِ كتبِ الأدبِ التي تُعنى بٱلاستطرادِ وٱلانتقالِ من زهرةٍ إلىٰ زهرةٍ ، نُتِمُّ القِصَّةَ للفائدةِ التي وردَت فيها ، وتمامُها :

أنَّ الملكَ أَرسلَ إلىٰ أبيها فخطبَها ، فزوَّجه إيَّاها ، وبعثَ بصداقِها فجُهِّزَتْ ، فلمَّا أَرادوا أن يحملوها إلىٰ زوجِها . . قالَتْ لَها أُمُّها :

(أيْ بُنيَةُ : إنَّ الوصيَّةَ لو تُرِكَت لفضلِ أَدبٍ . . تُرِكَتْ لذلكَ مِنْكِ ، ولٰكنَّها تذكرةٌ للغافلِ ، ومعونةٌ للعاقلِ ، وَلو أَنَّ ٱمرأَةً ٱستغنتْ عَنِ ٱلزوجِ لِغِنَىٰ أَبويها وشدَّةِ حاجتِهما إليها . . كنتِ أَغنىٰ الناسِ عنهُ ، ولٰكنَّ النساءَ للرجالِ خُلِقنَ ، ولهُنَّ خلقَ الرجالُ .

أَيْ بنيَّةُ : إنَّكِ فارقْتِ الحُجْرَ الذي منهُ خرجتِ ، وخلَّفتِ العشَّ الذي فيهِ دَرَجْتِ ، إلىٰ وَكرٍ لَم تعرفيهِ ، وقرينٍ لَم تأْلفيهِ ، فأَصبحَ بمِلْكِهِ عليك رقيباً ومليكاً ، فكوني لهُ أَمَةً . . يَكُنْ لكِ عَبداً .

يا بنيَّةُ : ٱحملي عنّي عشرةَ خصالٍ تَكُنْ لكِ ذُخراً وَذِكراً :

الصحبةُ بالقناعةِ ، والمعاشرَةُ بحسنِ السمعِ والطاعةِ ، والتعَهُّدُ لموقعِ عينِهِ ، والتفقُّدُ لموضعِ أَنفهِ ، فلا تقعُ عينُهُ منكِ علىٰ قَبيحٍ ، ولاَ يشمُّ منكِ إلاَّ أَطيبَ ريحٍ ـ والكحلُ أَحسنُ الحسنِ ، والماءُ أَطيبُ الطيبِ المفقودِ ـ والتعهُّدُ=

عـزَّة الميـلاء تخطـب وتصف

وحكىٰ أَبو الفرجِ الأَصفهانيُّ [كما في «الأغاني» ١١/١٨٢] : أَنَّ مُصْعَبَ بنَ الزُّبيرِ لمَّا عزمَ علىٰ زواجِ عائشةَ بنتِ طلحةَ . . جاءَ هوَ وعبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ ٱبنِ أَبي بكرٍ الصدِّيقِ ، وسعيدُ بنُ العاصِ إِلىٰ عزَّةَ الميلاءِ ـ وكانتْ مِنْ أَظرفِ الناسِ وأَعلمِهم بأُمورِ النِّساءِ ، وكانَتْ تأْلفُها ٱلأَشرافُ ـ فقالوا لها : إِنَّا خَطبْنا فانظري لنا ، فقالَتْ لمصعبٍ : يا ٱبنَ أَبي عبدِ اللهِ ومَنْ خطبْتَ ؟ قالَ : عائشةَ بنتَ طلحةَ ، قالتْ : فأَنتَ يا ٱبنَ أُحيحةَ ؟ قالَ : عائشةَ بنتَ عثمانَ ، قالَتْ : فأَنْتَ يا ٱبنَ الصدِّيقِ ؟ قالَ : أُمَّ الهيثمِ بنتَ زكريَّا بنِ طلحةَ ، فقالَتْ : يا جاريةُ ، هاتي مِنْقَلَيَّ ـ تعني : خُفَّيها ـ فلبستْهُما ، وخرجَتْ ، ومعها خادمٌ لها ، فبدأَتْ بعائشةَ بنتِ

= لوقتِ طعامِهِ ، والهدوَّ عنهُ عندَ منامِهِ ؛ فإِنَّ حرارةَ الجوعِ مَلْهَبَةٌ ، وتَنغِيصَ النومِ مَبْغَضَةٌ ، والاحتفاظَ ببيتِهِ ومالِهِ ، والإِرعاءَ علىٰ نفسِهِ وحشَمِهِ وعيالِهِ ، فإِنَّ الاحتفاظَ بالمالِ حسنُ التقديرِ ، والإِرعاءَ علىٰ العيالِ والحشَمِ جميلُ حسنِ التدبيرِ ، ولاَ تُفشِيْ لهُ سرّاً ، ولاَ تعصي لهُ أَمراً ؛ فإِنَّكِ إِنْ أَفشيتِ سرَّهُ . . لَمْ تأْمني غدرَهُ ، وإِنْ عصيتِ أَمرهُ . . أَوغرتِ صدرَهُ .

ثمَّ ٱتَّقي معَ ذلكَ الفرحَ إِنْ كَانَ تَرِحاً ، والاكتئابَ عندَهُ إِنْ كانَ فَرِحاً ؛ فإِنَّ الخصلةَ الأُولىٰ مِنَ التقصيرِ ، والثانيةَ مِنَ التكديرِ ، وَكوني أَشَدَّ ما تكونينَ لَهُ إِعظاماً . . يَكُنْ أَشدَّ ما يكونُ لكِ إِكراماً ، وأَشدَّ ما تكونينَ لهُ موافقَةً . . يَكُنْ أَطْولَ ما تكونينَ لَهُ مرافقَةً ، وأَعلمي أَنَّكِ لا تصلينَ إِلىٰ ما تحبِّينَ حتَّىٰ تُؤثِري رضاهُ علىٰ رضاكِ ، وهواهُ علىٰ هواكِ فيما أَحببتِ وكَرهتِ ، واللهُ يخيرُ لكِ) .

فحُمِلتْ إِليهِ ، فسُلِّمَتْ إِليهِ ، فَعَظُمَ موقعُها منهُ ، وَوَلَدَتْ لهُ الملوكَ السبعةَ الذينَ ملَكوا بعدَهُ (اليمنَ) .

والقصةُ فِي « جمهرةِ خطبِ العربِ » (١/١٤٢) و« مجمعِ الأَمثالِ » (٢/٢٦٣) .

طلحةَ ، فقالَتْ : فديتُكِ ، كنّا في مأدُبةٍ ـ أَو مأتمٍ ـ لقريشٍ ، فتذاكروا جَمالَ النساءِ ، فذكرتُكِ فلَمْ أَدرِ كيفَ أَصفُكِ ، فديتُكِ ، فأَلقي ثيابَكِ ، ففعلَتْ ، وأَقبلَتْ وأَدبرَتْ ، فأرتجَّ منها كلُّ شيءٍ ، فقالَتْ لها عزَّةُ : خذي ثوبَكِ ، فقالَتْ : قد قضيْتِ حاجتَكِ ، وبقيَتْ حاجتي ، قالَتْ عزَّةُ : وما هي فديتُكِ ؟ قالَتْ : تغنِّيني صوتاً ، فأندفعت تغنِّي لَحْنَها لجميلِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ معمَرٍ العذريِّ [في «ديوانه» ١٧١ـ١٧٢ من الطويل] :

خَلِيْلَيَّ عُوْجَا بِالْمَحَلَّةِ مِنْ جُمْلِ ... وَأَتْرَابِهَا بَيْنَ الأُصَيْفِرِ وَالْحَبْلِ (١)

نَقِفْ بِمَغَانٍ قَدْ مَحَا رَسْمَهَا الْبِلَىٰ ... تَعَاقَبُهَا الأَيَّامُ بِالرِّيْحِ وَالْوَبْلِ

فَلَوْ دَرَجَ النَّمْلُ الصِّغَارُ بِجِلْدِهَا ... لأَنْدَبَ أَعْلَىٰ جِلْدِهَا مَدْرَجُ النَّمْلِ (٢)

وَأَحْسَنُ خَلْقِ اللهِ جِيْداً وَمُقْلَةً ... تُشَبَّهُ فِيْ النِّسْوَانِ بِالشَّادِنِ الطِّفْلِ (٣)

فقبَّلتْ عائشةُ ما بينَ عينيها ، ودعَتْ لها بأثوابٍ وطرائفَ مِنَ الفضَّةِ ، فدفعتْهُ إلىٰ مولاتِها ، وأَتَتِ النسوةَ علىٰ مثلِ ذلكَ تقولُ لَهنَّ ، ثُمَّ عادَتْ إلىٰ القومِ ، فقالوا : ما صنعْتِ ؟ فقالَتْ : يا ابنَ أَبي عبدِ اللهِ ، أَمَّا عائشةُ ـ فلا واللهِ ـ ما رأَيْتُ مثلَها مُقبلةً ، ولا مُدْبرةً ، محطوطةَ المتنينِ ، عظيمةَ العجيزةِ ، ممتلئةَ الترائبِ ، نقيَّةَ الثغرِ وصفحةِ الوجهِ ، فرعاءَ الشعَرِ ، ممتلئةَ الصدرِ ، خميصةَ البطنِ ، ذاتَ عُكَنٍ ، ضخمةَ السرَّةِ ، مسرولةَ الساقِ ، يرتجُّ ما بينَ أَعلاها إلىٰ قدميها ، وفيها عيبانِ ، يواري أَحدَهُما الخمارُ ، ويسترُ

---

(١) الأُصيفرُ ـ لعلَّهُ تصغيرُ أَصفرٍ ـ : وهوَ موضعٌ . الحبلُ : الرملُ المستطيلُ .

(٢) أَندبَ : تركَ ندوباً ، أَي آثارَ جراحٍ .

(٣) الشادنُ : ولدُ الظبيةِ . الطِّفلُ : الناعمُ .

ثانيهما الخفُّ ؛ كبرُ الأُذنِ والقدمِ ، وكانَتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ كذلكَ .

وأَمَّا أَنْتَ يا ٱبنَ أُحيحةَ : فإنِّي - واللهِ - ما رأَيْتُ مثلَ خَلْقِ عائشةَ بنتِ عثمانَ لامرأَةٍ قطُّ، ليسَ فيها عيبٌ ، ولكأنَّما أُفرغَتْ إفراغاً ، إلاَّ أَنَّ في الوجهِ ردَّةً[1] ، وإنْ ٱستشرْتَني . . أَشرْتُ عليكَ ، قالَ : هاتِ ، قالَتْ : عليكَ بوجهٍ تستأْنسُ بهِ .

وأَمَّا أَنتَ يا ٱبنَ الصدِّيقِ - فواللهِ - ما رأيتُ مثلَ أُمِّ الهيثمِ ، كأَنَّها خُوْطُ بانةٍ[2] تتثنَّىٰ ، أَو كأَنَّها خَشْفٌ[3] ينسابُ علىٰ الرملِ ، لو شئتَ أَنْ تَعقِدَ أَطرافَها . . لفعلتَ ، ولٰكنَّها شَخْتةٌ[4] الصدرِ ، وأَنتَ عريضُ الصدرِ ، فإذا كانَ كذلكَ . . كانَ قبيحاً ، لا - واللهِ - حَتَّىٰ يملأَ كلُّ شيءٍ مثلَهُ ، قالَ : فوصلَها الرجالُ والنساءُ ، وتزوجُوهنَّ .

تشكك المؤلف في القصة

وأَقولُ : إنَّ عندي في القصَّةِ نظراً ؛ لأَنَّ أَبا الفرجِ نفسَهُ روىٰ [في « الأغاني » ١١/١٨٦] : أَنَّ عائشةَ بنتَ طلحةَ لمْ تتزوَّجْ مصعباً إلاَّ بعدَ عبدِ ٱللهِ بنِ عبدِ ٱلرحمـٰنِ ٱبنِ أَبي بكرٍ ، وأَنَّهُ[5] ماتَ وهيَ عندَهُ ، اللَّهمَّ إلاَّ أَنْ يكونَ مصعبٌ خطبَها قبلَ ذلكَ فتزوَّجت بعبدِ اللهِ وتركَتْهُ .

---

(١) وجهٌ رديدٌ : فيه قبحٌ .

(٢) خوطُ بانةٍ : الخوطُ هو الغصن الناعم ، والبان : شجر معروف ، واحدهُ بانةٌ ، وٱمرأةٌ خُوطُ بانيَّةٌ : مشبهةٌ بالخوط .

(٣) الخَشْفُ : الظبيُ ساعةَ ولادتهِ .

(٤) الشَّختةُ : نحيفةُ الجسمِ ، دقيقتُهُ .

(٥) أَي : عبدُ اللهِ .

وكيفما كانَ . . فٱلقصَّةُ لا تلتئمُ ، وٱلاستطرادُ لا يَحتاجُ إِلىٰ إِمعانِ النظرِ ، ومعاودةِ البحثِ .

وٱلبيتُ الذي نتكلَّمُ فيهِ لا يبعدُ عَنْ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَـا ذَرَفَـتْ عَيْنَـاكِ إِلاَّ لِتَضْـرِبِـيْ ... بِسَهْمَيْكِ فِيْ أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ[1]

* * *

(١) أَعشارُ القلبِ : أَجزاؤهُ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٩ من الكامل] :

كَصِفَاتِ مَوْلاَنَا أَبِيْ ٱلْفَضْلِ ٱلَّتِيْ	بَهَرَتْ فَأَنْطَقَ وَاصِفِيْهِ وَأَفْحَمَا[1]

جمع الأضداد في الصفات يستهوي المتنبي

(بَهَرَ) : غلبَ ، ومنه : الشمسُ تبهَرُ النجومَ ، يقولُ : إِنَّ حبيبتَهُ ٱستبتْهُ بما جمعَتْ مِنْ تناسُبِ الأَضدادِ في جَمالها ، وكذلكَ مولاهُ أَبو ٱلفضلِ ٱستهواهُ بما جَمَعَ منها في الشَّرفِ ؛ فقد كانَ حُلْواً للأَولياءِ، مُرّاً للأَعداءِ، هَشّاً للضُّيوفِ، عَبُوساً إِذا ٱشتجرَتِ السُّيوفُ[2]، وممَّا يُشبِهُ ذلكَ ما ذَكَرَهُ في مثلِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٧٨ مِنَ ٱلوافرِ] :

نُصَرِّعُهُمْ بِأَعْيُنِنَا حَيَاءً	وَتَنْبُوْ عَنْ وُجُوْهِهِمُ ٱلسِّهَامُ[3]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

حَيِيُّوْنَ إِلاَّ أَنَّهُمْ فِيْ نِزَالِهِمْ	أَقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ ٱلصَّوَارِمِ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٨٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

دَانٍ بَعِيْدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ	أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٠١ مِنَ ٱلخفيفِ] :

أَنْتَ طَوْراً أَمَرُّ مِنْ نَاقِعِ ٱلسُّـ	ـمِّ وَطَوْراً أَحْلَى مِنَ ٱلسَّلْسَالِ[4]

(١) في « العكبري » : (أَوْحَدِنَا) بدل (مَوْلاَنَا) .

(٢) اشتجرتِ السيوفُ : تداخلت وقتَ الطِّعانِ .

(٣) نُصرِّعُهم : يريدُ : صرعناهُم ؛ أَي : قَدرنا عليهم . تنبو : ترتفعُ ولا تصيب .

(٤) السَّلسَالُ : الماءُ العذبُ الذي يتسلسلُ في الحلقِ .

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١١٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

تَحْلُـوْ مَـذَاقَتُـهُ حَتَّـىٰ إذَا غَضِبَـا حَالَتْ فَلَوْ قَطَرَتْ فِيْ ٱلبَحْرِ مَا شُرِبَا[1]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٤٢ مِنَ ٱلوافرِ] :

قَسَـا فَـالأُسْـدُ تَفْـزَعُ مِـنْ قُـوَاهُ وَرَقَّ فَنَحْـنُ نَخْشَـىٰ أَنْ يَـذُوْبَـا

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

لَـهُ رَحْمَـةٌ تُحْـيِ ٱلْعِظَـامَ وَغَضْبَـةٌ بِهَا فَضْلَةٌ لِلْجُرْمِ عَنْ صَاحِبِ ٱلْجُرْمِ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٥ مِنَ ٱلكاملِ] :

مُتَفَرِّقُ ٱلطَّعْمَيْنِ مُجْتَمِعُ ٱلْقُوَىٰ فَكَـأَنَّـهُ ٱلسَّـرَّاءُ وَٱلضَّـرَّاءُ

الشعراء وجمع الأضداد

فالمعنىٰ متكرِّرٌ عندهُ ، وهو عندَ غيرِهِ أكثرُ ، قالَ لبيدٌ [في « ديوانهِ » ١٩٧ مِنَ الرَّمَلِ] :

مُمْقِـرٌ مُـرٌّ عَلَـىٰ أَعْـدَائِـهِ وَعَلَىٰ ٱلأَدْنَيْنَ حُلْوٌ كَٱلْعَسَلْ[2]

وقالَ النابغةُ الجعديُّ [في « ديوانهِ » ١٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتـىً تَـمَّ فِيْـهِ مَـا يَسُـرُّ صَـدِيْقَـهُ عَلَىٰ أَنَّ فِيْهِ مَا يَسُوْءُ ٱلأَعَادِيَا

وقالَ المرارُ الفقعسيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنِّي إِذَا ٱحْلَوْلَيْتُ حُلْوٌ مَذَاقَتِيْ وَمُرٌّ إِذَا مَا رَامَ ذُوْ إِحْنَةٍ هَضْمِيْ[3]

---

(١) البحرُ : المكانُ الواسع ، ومنه سمي البحر بحراً ، وأراد بالبحر هنا العذبَ منه ؛ لقوله تعالى : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمـٰن : ١٩] ؛ يريد الملح والعذب ، وأهل (مصر) يسمون النيل بحراً .

(٢) أمقرَ الشيءُ فهو مُمْقِرٌ إذا كانَ مُرّاً ؛ أي : شديدٌ على أعدائِهِ ، رحيمٌ عطوفٌ على أقاربِهِ .

(٣) أَحِنَ عليه : حقد عليه .

وقالَ قيسُ بنُ ٱلخطيمِ [في « ديوانهِ » ١٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أُمِرُّ عَلَىٰ ٱلْبَاغِي وَيَغْلُظُ جَانِبِي ... وَذُو ٱلْقَصْدِ أَحْلَوْلِي لَهُ وَأَلِينُ[١]

وفي سيرةِ ٱبنِ الخطَّابِ ـ رضوانُ اللهِ عليهِ ـ أَنَّهُ كانَ يقولُ : لانَ قلبي حتَّىٰ هو أَلينُ مِنَ الزُّبْدِ ، وخَشُنَ حتَّىٰ لَهُوَ أَشدُّ مِنَ ٱلحجارةِ .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢١٢ مِنَ ٱلخفيفِ] :

قَدْ بَثَثْتُمْ غَرْسَ ٱلْمَوَدَّةِ وَٱلشَّحْـ ... ـنَاءِ فِيْ قَلْبِ كُلِّ قَارٍ وَبَادِيْ[٢]

أَبْغَضُوا عِزَّكُمْ وَوَدُّوْا نَدَاكُمْ ... فَقِرَاكُمْ مِنْ بِغْضَةٍ وَوِدَادِ

لاَ عَدِمْتُمْ غَرِيْبَ مَجْدٍ رَبَقْتُمْ ... فِيْ عُرَاهُ نَوَافِرَ ٱلأَضْدَادِ[٣]

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [مِنَ ٱلكاملِ] :

حَذَرَ ٱمْرِىءٍ نُصِرَتْ يَدَاهُ عَلَىٰ ٱلْعِدَا ... كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلَيَانُ

أبو تمام يتكلف تأليف بيت من الشعر

فذكرَ بعضُهُم : أَنَّهُ ٱستأذنَ علىٰ أَبي تمَّامٍ ، وكانَ لا يستترُ عنهُ ، فأَلفاهُ في بيتٍ مُصَهرَجٍ[٤] ، يتقلَّبُ شمالاً ويميناً في الماءِ ، فقالَ لهُ : بلغَ بكَ ٱلحرُّ مبلغاً شديداً ؟ قالَ : لا ، ولٰكنْ غيرُهُ ، ومكثَ ساعةً كذلكَ ، ثُمَّ قامَ كأَنَّما أُطلقَ مِنْ عِقالٍ ، فقالَ : الآنَ بلغتُ ما أَردتُ ، وكتبَ شيئاً ، ثُمَّ قالَ : تدري ما كنتُ فيهِ مُذِ الآنَ ؟ قلتُ : لا ، قالَ قولَ أَبي نُوَاسٍ : (كالدَّهْرِ فِيْهِ شَرَاسَةٌ وَلَيَانُ) ، فقد أَردتُ

---

(١) أُمِرُّ : أَصير مُرّاً .
(٢) القاري : النازلُ القرىٰ . البادي : النازلُ الباديةَ .
(٣) ربقتُم : شَددتُم .
(٤) الصَّهريجُ : حوضٌ يجتمعُ فيهِ الماءُ .

معناهُ ، فشَمُسَ عليَّ[1] ، فلَمْ أَزلْ علىٰ تلكَ الحالِ حتَّىٰ أَمكنني اللهُ منهُ ، فقلْتُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

شَرَسْتَ بَلْ لِنتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ بِذَا فَأَنْتَ لاَ شَكَّ فِيكَ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

استهزاء المؤلف به

ولعمري إِنَّهُ لبيتٌ ساقطٌ ، ينادي علىٰ نفسهِ بالخذلانِ ، لو تجسَّمَ . لكانَ مِعوَلاً لتكسيرِ الحجارةِ ، وهٰذا هو الشعرُ المتكلَّفُ الباردُ .

عودة إلى جمع الأضداد عند الشعراء

وقالَ سَلْمٌ الخاسرُ ـ كما رأَيْتُهُ في « المحاسن والمساوىء » للبيهقي معزوّاً إِليهِ [مِنَ ٱلكاملِ] ـ :

شُدَّتْ مَنَاكِبُ مُلْكِهِمْ بِخَلِيفَةٍ كَـالـدَّهْـرِ يَخْلِـطُ لِينَـهُ بِشِمَـاسِ

وسيعادُ هٰذا البيتُ أَوائِلَ المجلسِ الرابعَ عشرَ .

وقالَ أَبو الشِّيصِ الخزاعيُّ [في « ديوانهِ » ١٠٤ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَكَـالسَّيْـفِ إِنْ لاَيَنْتَـهُ لاَنَ مَتْنُـهُ وَحَـدَّاهُ إِنْ خَـاشَنْتَـهُ خَشِنَـانِ

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٨٣٧ مِنَ ٱلكاملِ] :

أَحْكَمْتَ مَا دبَّرْتَ بِٱلتَّقْرِيبِ وَٱلْـ ـتَّبْعِيْـدِ وَٱلتَّصْعِيْـبِ وَٱلتَّسْهِيْـلِ
لَوْلاَ ٱلتَّبَايُنُ فِيْ ٱلطَّبَائِعِ لَمْ يَقُمْ بُنْيَـانُ هَـٰذَا ٱلْعَـالَـمِ ٱلْمَجْبُـولِ
قَـوْلٌ يُتَـرْجِمُـهُ ٱلْفَعَـالُ وَإِنَّمَـا يُتَفَهَّـمُ ٱلتَّنْـزِيـلُ بِـٱلتَّـأْوِيـلِ[2]
مَاذَا نَقُوْلُ وَقَدْ جَمَعْتَ شَتَاتِنَاً وَأَتَيْتَنَـا بِـٱلْعَـدْلِ وَٱلتَّعْـدِيْـلِ ؟

---

(١) شمُسَ عليَّ : ٱستغلق ، وتأبَّىٰ .
(٢) الفَعالُ : قالَ اللَّيثُ : الفَعالُ ٱسمٌ للفِعلِ الحَسَنِ . التنزيلُ : يقصدُ بهِ كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وقالَ الشريفُ الرضيُّ : ما زلتُ أَستخرجُ العجبَ مِنَ ٱلإخوانِ بكلامِ الإمامِ في ٱلزهدِ ؛ لأَنَّ مَنْ سَمِعَهُ لا يظنُّهُ إِلاَّ كلامَ منقطعٍ في سفحِ جبلٍ ، أو قابعٍ في كِسْرِ بيتٍ ، ولا يحسبُ أَنَّهُ كلامُ مَن ينغمسُ في ٱلحروبِ ، وينثني وسيفُهُ يسيلُ دماً ، ويقطرُ مُهَجاً ، أَو ما يُشْبِهُ هـٰذا ، وكنتُ معجباً بهِ إِلىٰ حدِّ ٱلافتتانِ . . حتَّىٰ تبيَّنتُ سَبْقَ ٱلذِّكرِ ٱلحكيمِ إِلىٰ هـٰذا ٱلمعنىٰ ٱلشريفِ في كُثُرٍ مِنَ ٱلآياتِ منها قولهُ جلَّ ذكرهُ : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقولهُ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وكَمْ فيهِ مِنْ آياتِ الزهدِ التي تسيلُ رِقَّةً حَتَّىٰ لتكادُ تذوبُ لها الحجارةُ ، ومن آياتِ الحربِ التي تأخذُ بأُنوفِ الجُبَنَاءِ إِلىٰ عنانِ السَّمَاءِ .

وصف الشريف الرضي للإمام

إعجاب المؤلف به

ويعجبني قولُ عكرشةَ بنِ أَربدَ في ولدهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

مديح أب لابنه

رَأَيْتُ رِيَاطاً حِيْنَ تَمَّ شَبَابُهُ ... وَوَلَّىٰ شَبَابِيْ لَيْسَ فِيْ بِرِّهِ عَتْبُ
إِذَا كَـانَ أَوْلاَدُ ٱلـرِّجَـالِ حَـرَارَةً ... فَأَنْتَ ٱلزُّلاَلُ ٱلْحُلْوُ وَٱلْبَارِدُ ٱلْعَذْبُ
لَنَـا جَـانِـبٌ مِنْـهُ دَمِيْـثٌ وَجَـانِـبٌ ... شَدِيْدٌ عَلَىٰ ٱلأَعْدَاءِ مُمْتَنِعٌ صَعْبُ[١]
وَتَـأْخُـذُهُ عِنْـدَ ٱلْمَكَـارِمِ نَشْـوَةٌ ... كَمَا ٱهْتَزَّ تَحْتَ ٱلْبَارِحِ ٱلْغُصُنُ ٱلرَّطْبُ[٢]

وفي عكسِ هـٰذا المعنىٰ يقولُ الحصينُ بنُ المنذرِ ـ أَحدُ بني عمرِو بنِ شيبانَ الذهليِّ وكانَ صاحبَ الرايةِ معَ عليٍّ بـ(صفِّينَ) ـ في ولدهِ غَيَّاظاً [مِنَ الطَّويلِ] :

هجاء أب لابنه

(١) دميثٌ ، يقالُ : دَمِثَ دَمَثاً ، فهوَ دَمِثٌ ودَمِيْثٌ ، لاَنَ وسَهُلَ .
(٢) البارحُ ـ جمعُهُ بوارحُ ـ : وهيَ الرياحُ الشدائدُ التي تَحملُ الترابَ في شدَّةِ الهبواتِ ، وقيلَ : هيَ الريحُ الحارَّةُ في الصيفِ .

نَسِيٌّ لِمَا أَوْلَيْتُ مِنْ صَالِحٍ مَضَىٰ   وَأَنْتَ لِتَأْدِيبِ عَلَيَّ حَفِيظُ
تَلِينُ لأَهْلِ ٱلْغِلِّ وَٱلْغَمْزُ مِنْهُمْ   وَأَنْتَ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلصَّفَاءِ غَلِيظُ
وَسُمِّيتَ غَيَّاظاً وَلَسْتَ بِغَائِظٍ   عَدُوّاً وَلَٰكِنْ لِلصَّدِيقِ تَغِيظُ
فَلاَ حَفِظَ ٱلرَّحْمَٰنُ رُوحَكَ حَيَّةً   وَلاَ وَهْيَ فِيْ ٱلأَرْوَاحِ حِيْنَ تَغِيْظُ
عَدُوُّكَ مَسْرُوْرٌ وَذُوْ ٱلْوِدِّ بِالَّذِيْ   يُرَىٰ مِنْكَ مِنْ غَيْظٍ عَلَيْكَ كَظِيْظُ[1]

أنت ومالك لأبيك

وأخرجَ ٱلبيهقيُّ في « الدَّلائلِ » ، والطَّبرانيُّ في « ٱلأوسطِ » [٦/ ٣٤٠] و« الصَّغيرِ » [٩٤٨] بسندٍ فيهِ مَنْ لا يُعرفُ عن جابرٍ ، قالَ : جاءَ رجلٌ إِلىٰ ٱلنبيِّ ﷺ ، فقالَ : يا رسولَ ٱللهِ ، إِنَّ أَبي أَخذَ مالي ، فقالَ لهُ : اِذهبْ فَأتني بأَبيكَ ، فنزلَ جبريلُ ، فقالَ إِنَّ ٱللهَ عزَّ وجلَّ يقرئُكَ ٱلسلامَ ، ويقولُ : إِذَا جاءكَ ٱلشيخُ . . فسلْهُ عمَّا قالهُ في نفسهِ ، ولم تسمعهُ أُذُناهُ ، فلمَّا جاءَ . . قالَ لهُ ٱلنبيُّ ﷺ : « مَا بَالُ ٱبْنِكَ يَشْكُوْكَ ، تَأْخُذُ مَالَهُ » ؟ قالَ : سلْهُ هَلْ أَنفقتُهُ إِلاَّ علىٰ عمَّاتهِ وخالاتهِ ، أَو علىٰ نفسي ؟ فقالَ : « أَخبِرْنِيْ عَنْ شَيْءٍ قُلْتَهُ فِيْ نَفْسِكَ وَمَا سَمِعَتْهُ أُذُنَاكَ ؟ » فقالَ الشَّيخُ : واللهِ ما يزالُ اللهُ يزيدُنَا بكَ يقيناً ، لقد قلْتُ في نفسي شيئاً ما سمعَتْهُ أُذُنَيَّ ، فقالَ : « مَا هُوَ » ؟ فقالَ : قلتُ [مِنَ الطَّويلِ] :

غَذَوْتُكَ مَوْلُوْداً وَمُنْتُكَ يَافِعاً   تَعَلُّ بِمَا أَجْنِيْ عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ[2]
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بِٱلسُّقْمِ لَمْ أَبِتْ   لِسُقْمِكَ إِلاَّ سَاهِراً أَتَمَلْمَلُ
كَأَنِّيْ أَنَا ٱلْمَطْرُوْقُ دُوْنَكَ بِالَّذِيْ   طُرِقْتَ بِهِ دُوْنِيْ فَعَيْنَايَ تَهْمُلُ

---

(١) الكظيظُ : الممتلىءُ غيظاً .
(٢) مُنتكَ : كفيتُكَ مُؤنتك وحَاجتكَ .

تَخَافُ ٱلرَّدَىٰ نَفْسِيْ عَلَيْكَ وَإِنَّهَا	لَتَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ مُؤَجَّلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ ٱلسِّنَّ وَٱلْغَايَةَ ٱلَّتِيْ	إِلَيْهَا مَدَىٰ مَا كُنْتُ فِيْهَا أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِيْ غِلْظَةً وَفَظَاظَةً	كَأَنَّكَ أَنْتَ ٱلْمُنْعِمُ ٱلْمُتَفَضِّلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِيْ	فَعَلْتَ كَمَا ٱلْجَارُ ٱلْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ
تَـرَاهُ مُعِـدّاً لِلْخِـلَافِ كَـأَنَّـهُ	بِرَدٍّ عَلَىٰ أَهْلِ ٱلصَّوَابِ مُوَكَّلُ

قالَ : فحينئذٍ أخذَ النبيُّ ﷺ بتلابيبِ ٱبنه ، وقالَ : « أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيْـكَ »[1] . وهـٰذا الحـديـثُ مـوجـودٌ فـي سـورةِ الإسـراءِ مِـنَ « ٱلكشّافِ » ، وبلفظٍ يقربُ منهُ ، والقصَّةُ باطلةٌ مِنْ حيثُ الروايةُ كما علمتَ ؛ ولِمَا جاءَ أَنَّ الشعرَ لأُميَّةَ ٱبنِ أَبي الصَّلتِ .

بطلان قصة الحديث

ومن حيثُ ٱلطبيعةُ ؛ إِذْ يستحيلُ أَنْ يقولَ ٱلشاعرُ شيئاً فيصبرَ عَنْ أَنْ يتغنىٰ بهِ ذاتَ ٱلمرَّاتِ .

أَمَّا قولُ ٱلرجلِ لغيرهِ : (يا مولايَ) . . ففيهِ للفقهاءِ كلامٌ :

هل يجوز قول الرجل لغيره: يا مولاي؟

قالَ أَبو جعفرٍ ٱلنحَّاسُ : لا نعلمُ خلافاً بينَ العلماءِ أَنَّهُ لا ينبغي أَنْ يُقالَ لأَحدٍ مِنَ ٱلمخلوقينَ (مولاي) .

وقالَ ٱبنُ حجرٍ : مَرَّ جوازُ إِطلاقِ (مولاي) .

ولا مخالفةَ بينَهُ وبينَ هـٰذا ، فإِنَّ النَّحَّاسَ تكلَّمَ في ٱلمولىٰ بٱلأَلفِ وٱللاَّمِ . ولذا قالَ ٱلنَّحَّاسُ : يُقالُ : سيِّدٌ لغيرِ ٱلفاسقِ ،

القول في التسييد

---

(1) بل أخرج الحديث فقط عن عائشة ابن حبان في « الإحسان » (٤٢٦٢) بإسناد صحيح ، وكذا عن جابر أخرجه ابن ماجه (٢٢٩١) في التجارات ، والطحاوي في « معاني الآثار » (٤/ ١٥٨) في القضاء . قال عنه البوصيري : هذا إسناد صحيح .

ولا يقالُ : ٱلسَّيِّدُ ، لغيرِ ٱللهِ تعالىٰ . والأظهرُ : أَنَّهُ لا بأسَ بإطلاقِ ٱلمولىٰ وٱلسَّيِّدِ بٱلألفِ وٱللاَّمِ بشرطِهِ ٱلسَّابقِ . ٱنتهىٰ كلامُهُ .

وما أشارَ إلىٰ مرورِهِ : هوَ ما ساقَهُ عَنِ ٱلنواويِّ [في « الأذكار » ص ٥٧٣] - في ٱلجمعِ بينَ ٱلأحاديثِ ٱلواردةِ في ٱلتَّسييدِ وما صحَّ مِنْ قولِهِ ﷺ : « لا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ سَيِّداً . . فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وجَلَّ »[1] - مِنْ قولِهِ : لا بأسَ بإطلاقِ (فلانٌ سيِّدٌ ، ويا سيِّدِي ونحو ذلكَ) إذَا كانَ ٱلمُسَوَّدُ فاضلاً خيِّراً لعلمٍ أو صلاحٍ أو غيرِهما ، وإنْ كانَ نحوُ فاسقٍ أو متَّهمٍ في دِينهِ . . كُرِهَ أَنْ يُقالَ لَهُ سيِّدٌ[2] . ٱنتهىٰ .

ولا شكَّ أنَّ سيِّدِي أو ٱلسيِّدَ أشدُّ كراهةً ، وممَّا عمَّ ٱلابتلاءُ بهِ أنَّ ٱلجُهَّالَ وأهلَ ٱلمَلَقِ لا يتورعونَ أنْ يُطلقوا ٱلأوصافَ ٱلإلـٰهيَّةَ علىٰ مَنْ يدَّعونَ له ٱلولايةَ أو يُعظِّمونَ مِنْ أبناءِ الدُّنيا .

شهامة شاعر

ويعجبني قولُ عليِّ بنِ محمَّدٍ ٱلكوفيِّ مِنْ قصيدةٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ نَذِيرَ ٱلشَّمْسِ يَحْكِيْ بِبِشْرِهِ عَلِيَّ بْنَ دَاوُدٍ أَخِيْ وَنَسِيْبِيْ
وَلَوْلاَ ٱتِّقَائِيْ عَتْبَهُ قُلْتُ سَيِّدِيْ وَلَـٰكِنْ يَرَاهَا مِنْ أَجَلِّ ذُنُوْبِيْ

---

(١) أخرجه عن بريدة أبو داوود (٤٩٧٧) ، والنسائي في « الكبرى » (٦/ ٧٠) بنحوه ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١/ ٢٦٧) بنحوه .

(٢) وعقّب بقوله : وقد روينا عن الإمام أبي سليمان الخطابي في « معالم السنن » في الجمع بينهما نحو ذلك .

ثم أورد أيضاً خبر أبي هريرة عند البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) عن النبي ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضىء ربك ، اسق ربك ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي أمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي » .

نَسِيبُ إِخَاءٍ وَهْوَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ   قَرِيبُ صَفَاءٍ وَهْوَ غَيْرُ قَرِيبِ

خضوع البعض لممدوحيه

وممَّا يُلاحظُ علىٰ شيخِنَا ٱبنِ شهابٍ خضوعُهُ في بعضِ القولِ لممدوحِيْهِ ؛ فقد قالَ من قصيدةٍ هي في الاعتبارِ الأَوَّلِ مِنَ ٱلفصاحةِ وٱلبلاغةِ وجمالِ الدِّيباجةِ ورقَّةِ الانسجامِ ، للأميرِ أَحمدَ فضلٍ ٱلعبدليِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَيَا أَيُّهَا ٱلْمَوْلَىٰ وَمَا غَيْرُكَ ٱمْرُؤٌ   نُسَمِّيْهِ مِنْ بَعْدِ ٱلْوَصِيِّ بِمَوْلاَنَا[1]

ثُمَّ لَمْ يقفْ عندَ ذلكَ ، بل حَنِثَ في قولِهِ ، وخاطبَ بعدَ ذلك غيرَهُ بمثلِهِ .

ولو أَنِّي أَخذتُ بيتَ شيخِنا لمخاطبةِ الحضرةِ المتوكِّليَّةِ . . لكُنتُ أَحقَّ بهِ ؛ لأَنَّني لَمْ أَسمح بذلكَ لأَحدٍ مِمَّنْ عاصرتُهُ سواهُ وسوىٰ سيِّدي الأُستاذِ الأَبرِّ عيدروسِ بنِ عُمرَ المتوفَّىٰ مِنْ نحوِ سبعٍ وثلاثينَ عاماً ، ويأَتي ما لهُ تعلُّقٌ بهٰذا قُبيلَ المجلسِ الحادي عشرَ .

المدائح التي توجد في الممدوح هي التي تنظم نفسها شعراً عند المتنبي

وأَمَّا قولُهُ : (فَأَنْطَقَ وَاصِفِيْهِ) . . فإِنَّهُ متكرِّرٌ عندهُ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ ٱلْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ   فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَاناً قَائِلاً فَقُلِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٤٦ مِنَ ٱلخفيفِ] :

إِنَّمَا أَحْفَظُ ٱلْمَدِيْحَ بِعَيْنِي   لاَ بِقَلْبِي لِمَا أَرَىٰ فِي ٱلأَمِيْرِ
مِنْ خِصَالٍ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا   نَظَمَتْ لِي غَرَائِبَ ٱلْمَنْثُوْرِ

---

(١) الوَصيُّ : لعلّ المراد سَيِّدُنا الإمامُ الهمامُ ، عليُّ ٱبنُ أبي طالبٍ عليه السلام .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٦٨ مِنَ المنسرحِ] :

أَبَا ٱلْحُسَيْنِ ٱسْتَمِعْ فَمَدْحُكُمُ فِي ٱلذِّهْنِ قَبْلَ ٱلْكَلَامِ يَنْتَظِمُ[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَخْلاَقُ كَافُوْرٍ إِذَا شِئْتُ مَدْحَهُ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تُمْلَىٰ عَلَيَّ وَأَكْتُبُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَنَا وَحْدِيْ قُلْتُ ذَا ٱلشِّعْرَ كُلَّهُ وَلَكِنْ لِشِعْرِيْ فِيْكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

لَكَ ٱلْحَمْدُ فِيْ ٱلدُّرِّ ٱلَّذِيْ لِيَ لَفْظُهُ فَــإِنَّــكَ مُعْطِيْــهِ وَإِنِّــيَ نَــاظِــمُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٥٥ مِنَ الخَفيفِ] :

غَمَــرَتْنِــيْ فَــوَائِــدٌ شَــاءَ فِيْهَــا أَنْ يَكُــوْنَ ٱلْكَــلَامُ مِمَّــا أَفَــادَهْ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٧٥ مِنَ المنسرحِ] :

تَقُــوْدُ مُسْتَحْسَــنَ ٱلْكَــلَامِ لَنَــا كَمَــا تَقُــوْدُ ٱلسَّحَــابَ عُظْمَــاهَــا

وكذلك عند الشعراء

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٧ مِنَ البسيطِ] :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيْهِ إِذْ أَرِقْتُ لَهُ حَتَّــىٰ تَكَــادَ قَــوَافِيْــهِ سَتَقْتَتِــلُ

وقالَ ابنُ الرُّوميّ [في « ديوانِهِ » ٦/ ٢٢٩٣ مِنَ الوافرِ] :

وَدُوْنَــكَ مِــنْ أَقَــاوِيْلِــيْ مَــدِيْحــاً غَــدَا لَــكَ دُرُّهُ وَلِــيَ ٱلنِّظَــامُ

وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

خُذْ مِنْ فَوَائِدِكَ ٱلَّتِيْ أَعْطَيْتَنِيْ فَــٱلــدُّرُّ دُرُّكَ وَٱلنِّظَــامُ نِظَــامِــيْ

---

(١) في « العكبري » : (ٱلْفِعْلِ) بدل (ٱلذِّهْنِ) .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

كَرُمْتُمْ فَجَاشَ ٱلْمُفْحَمُوْنَ بِمَدْحِكُمْ ... إِذَا رَجَزُوْا فِيْكُمْ أَبَيْتُمْ فَقَصَّدُوْا[1]

كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ ... فَأَضْحَتْ وَعُجْمُ ٱلطَّيْرِ فِيْهَا تُغَرِّدُ

وقالَ أحمدُ ٱبنُ أَبي طاهرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا نَحْنُ حُكْنَا ٱلشِّعْرَ فِيْكَ تَسَهَّلَتْ ... عَلَيْنَـا مَعَـانِيْـهِ وَذَلَّـتْ صِعَـابُهَـا

وقالَ أحمدُ بنُ إسماعيلَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي وَإِنْ أَحْسَنْتُ فِيْ ٱلْقَوْلِ مَرَّةً ... فَمِنْكَ وَمِنْ إِحْسَانِكَ ٱمْتَارَهَا لَفْظِيْ[2]

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

مَا لَقِيْنَا مِنْ جُوْدِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَىٰ ... تَـرَكَ ٱلنَّـاسَ كُلَّهُـمْ شُعَـرَاءَ

وأَصلُ المعنىٰ قولُ عمرِو بنِ معديكربَ [في « ديوانهِ » ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِيْ أَنْطَقَتْنِيْ رِمَاحُهُمْ ... نَطَقْتُ وَلَـٰكِنَّ ٱلرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

وقالَ ٱبنُ ٱلفارضِ [في « ديوانهِ » ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَحَاسِنُ تَهْدِيْ ٱلْمَادِحِيْنَ لِوَصْفِهَا ... فَيَحْسُنُ فِيْهَا مِنْهُمُ ٱلنَّثْرُ وَٱلنَّظْمُ

وقالَ أيضاً [في « ديوانهِ » ١٢٦ مِنَ الكاملِ] :

تَفْدِيْهِ مُهْجَتِيَ ٱلَّتِيْ تَلِفَتْ وَلاَ ... مَـنٌّ عَلَيْـهِ لأَنَّهَـا مِـنْ مَـالِـهِ

وهو مِنْ قولِ النَّاظمِ [مِنَ الكاملِ] :

كَالْبَحْرِ يُمْطِرُهُ ٱلسَّحَابُ وَمَا لَهُ ... مَـنٌّ عَلَيْـهِ لأَنَّهَـا مِـنْ مَـائِـهِ

---

(١) المفحَمُ : العييُّ الذي لا يقولُ الشِّعرَ .

(٢) ٱمْتَارَهَا : ٱجتلبها .

وقالَ ٱبنُ طَباطَبا [مِنَ ٱلكاملِ] :

لاَ تُنْكِـرَنْ إِهْـدَاءَنَـا لَـكَ مَنْطِقـاً مِنْكَ ٱسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ

وهوَ من بابِ شبيهٍ بقولِ ٱلحَسَنِ بنِ محمَّدِ ٱبنِ عليِّ ابنِ أَبي الضَّوءِ ٱلعلويِّ ٱلحُسينيِّ ، نقيبِ مشهدِ بابِ التِّينِ ، ٱلمتوفَّىٰ بـ(بغـدادَ) سنةَ : (٥٣٧ هـ) ، أَو شـاعـرٍ آخـرَ مِـنْ معـاصـري ٱلبُحتريِّ ، يقالُ لَهُ : أَبو ٱلعبَّاسِ ٱلخَثعَميُّ علىٰ ٱختلافٍ في ٱلروايةِ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

اِذْهَبَا بِيْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمَا عَقْـ ـرٌ إِلىٰ جَنْبِ قَبْرِهِ فَٱعْقِرَانِيْ[1]

وَٱنْضحَا مِنْ دَمِيْ عَلَيْهِ فَقَدْ كَا نَ دَمِـيْ مِـنْ نَـدَاهُ لَـوْ تَعْلَمَـانِ

وهُما أَصلُ معنىٰ قولِ الزَّمخشريِّ في رثاءِ شيخهِ أَبي مُضَرَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـائِلَـةٍ مَـا هَـٰـذِهِ ٱلـدُّرَرُ ٱلَّتِـيْ تُسَاقِطُهَا عَيْنَاكَ سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ[2]

فَقُلْتُ لَهَا ٱلدُّرُّ ٱلَّذِيْ كَانَ قَدْ حَشَا أَبُوْ مُضَرٍ أُذْنِيْ تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنِيْ

وقالَ ٱلقاضي ٱلأَرَّجانيُّ ـ وأَبدعَ وأَلطفَ ما شاءَ ـ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَمْ يُبْكِنِيْ إِلاَّ حَدِيْثُ فِرَاقِكُمْ لَمَّـا أَسَـرَّ بِـهِ إِلَـيَّ مُـوَدِّعِـيْ

هُـوَ ذَلِـكَ ٱلـدُّرُّ ٱلَّـذِيْ أَوْدَعْتُـمُ فِيْ مَسْمَعِيْ أَلْقَيْتُهُ مِنْ مَدْمَعِيْ

---

(١) الجملُ العَقيرُ : المنحورُ .

(٢) السِّمطُ : هوَ الخيطُ ما دامَ اللؤلؤُ فيهِ منظوماً ، فإذا كانَ فارغاً . . سُمِّيَ سِلكاً ، شبَّهَ الشاعرُ دموعَهُ التي تُذْرَفُ من عينيه متواصلةً . . باللؤلؤ المنظوم المتواصل .

وقالَ ٱلمعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ١٩٨ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَأَلْقَيْـنَ لِـيْ دُرّاً فَلَمَّـا عَـدَدْتُـهُ غِنىً مَسَخَتْهُ شِقْوَةُ ٱلْحَظِّ أَدْمُعِي[1]

وقالَ بعضُهُم [مِنَ ٱلطَّويلِ] :

تَعَلَّمْـتُ مِمَّـا قُلْتُـهُ وَفَعَلْتُـهُ فَأَهْدَيْتُ حُلْواً مِنْ جَنَايَ لِفَارِسِ

وقالَ آخرُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

إِنْ رَاقَ مَعْنىً فَمِنْ جَدْوَاهُ مُعْتَصَرُ أَوْ رَقَّ لَفْظاً فَمِنْ عَلْيَاهُ مُهْتَصَرُ[2]

تعجز لغة الكلام عن التعبير في كثير من الأحيان

وأَمَّا قولُهُ : (وَأَفْحَمَا) . . فمِنْ قولِ أَشجعَ [في « ديوانِهِ » ٢٤٨ مِنَ ٱلوافرِ] :

مَـدَحْنَـاهُـمْ فَلَمْ نُـدْرِكْ بِمَـدْحٍ مَـآثِـرَهُـمْ وَلَـمْ نَتْـرُكْ مَقَـالاَ

وقولِهِ [في « ديوانِهِ » ١٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

جَهِـدْتُ فَلَـمْ أَبْلُـغْ مَـدَاكَ بِمِـدْحَـةٍ وَلَيْسَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ مُجْتَهِداً عَتْبُ

وقدِ ٱختلسَهُ ٱلماكيُّ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَهِـدْتُ وَلَـمْ أَبْلُـغْ مَـدَاكَ بِمِـدْحَـةٍ وَلَيْسَ مَعَ ٱلتَّقْصِيْرِ عِنْدِيْ سِوَىٰ ٱلْعُذْرِ

وقالَ ٱبنُ ٱلحجَّاجِ [مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلْبَحْرُ إِنْ حَدَّثْتُ عَنْ مُعْجِزَاتِهِ ضَعُفْتُ عَنِ ٱسْتِغْرَاقِ تِلْكَ ٱلْعَجَائِبِ

وَإِنْ رَامَ شِعْـرِيْ أَنْ يُحِيْـطَ بِـوَصْفِـهِ أَحَاطَ بِشِعْرِيْ ٱلْعَجْزُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

---

(١) يقول : إنَّ تلكَ الخيالاتِ لما طرقتهُ في النومِ . . أعطينَهُ عقوداً أو درّاً ، فأنتبهَ مِن نومِهِ فرِحاً ، لكنَّهُ لم يرَ شيئاً ، فنافت دموعُهُ حسرةً علىٰ ما فاتَهُ ، وأوّلَ الدُّرَّ بالدمعِ ٱلذي تناثرَ مِن عينيهِ عندَ البكاءِ .

(٢) الهَصْرُ : الجذبُ والإمالةُ ، تقولُ : هَصَرْتُ الغصنَ إذا أملتُهُ إليك .

إفحام أبي نواس للشعراء والخطباء

وفي يومِ إملاكِ[1] الرِّضا بٱبنةِ ٱلمأمونِ قامَتِ الشُّعراءُ والخطباءُ ، وأَبو نُوَاسٍ ساكتٌ ، فعُوتِبَ ، فألقىٰ ٱلأبياتَ ٱلآتيةَ ـ ٱلتي كانَتْ بمثابةِ عصا موسىٰ عليهِ السَّلامُ ، تلقَّفَتْ ما كانوا يصنعونَ ـ وهيَ [مِنَ ٱلخفيفِ] :

قِيْلَ لِيْ : أَنْتَ أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ طُرّاً ... فِيْ ٱلْمَعَانِيْ وَفِيْ ٱلْكَلاَمِ ٱلنَّبِيْهِ

لَكَ مِنْ جَيِّدِ ٱلْقَرِيْضِ مَدِيْحٌ ... يَنْثُرُ ٱلدُّرَّ مِنْ يَدَيْ مُجْتَنِيْهِ

فَلِمَاذَا لَمْ تَمْتَدِحْ نَجْلَ مُوْسَىٰ ... وَٱلصِّفَاتِ ٱلَّتِيْ تَحَكَّمْنَ فِيْهِ

قُلْتُ : لاَ أَسْتَطِيْعُ مَدْحَ إِمَامٍ ... كَانَ جِبْرِيْلُ خَادِماً لأَبِيْهِ

شدة القرب حجاب

وقد نظرَ ٱلناظمُ إلىٰ قولِ ٱلأعرابيِّ [مِنَ ٱلوافرِ] :

تَكَاثَرَتِ ٱلظِّبَاءُ عَلَىٰ خِدَاشٍ ... فَمَا يَدْرِيْ خِدَاشٌ مَا يَصِيْدُ

ومِنْ شدَّةِ ٱلظُّهورِ ٱلخفاءُ ، ومنهُ أَحجمَ فحولُ ٱلشُّعراءِ عَنْ مدحهِ ﷺ ؛ لأنَّهُ لا يُستطاعُ ؛ إذ هوَ فوقَ كلِّ كلامٍ ، ومِنْ وراءِ كلِّ عبارةٍ ، وكلُّ مدحٍ فيهِ تقصيرٌ .

ارتفاع بعض الممدوحين فوق مرتبة المديح

وما أَحسنَ ما يُروىٰ للناظمِ في غيرِ « ٱلدِّيوانِ » حينما عُوتبَ علىٰ تركِ ٱمتداحِ أَهلِ البيتِ وهو قولُهُ [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَتَرَكْتُ مَدْحِيْ لِلْوَصِيِّ تَعَمُّداً ... إِذْ كَانَ نُوْراً مُسْتَطِيْلاً شَامِلاَ

وَإِذَا ٱسْتَطَالَ ٱلشَّيْءُ قَامَ بِنَفْسِهِ ... وَصِفَاتُ ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ تَذْهَبُ بَاطِلاَ

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٢ مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ ٱلشَّمْسِ مَوْضِعُهُ ... فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلاَ يَضَعُ

---

(١) الإملاكُ : التزويج .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٥٩ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ عَلَوْتَ فَمَا تُبَالِيْ بَعْدَ مَا　　عَرَفُوْا أَيَحْمَدُ أَمْ يَذُمُّ ٱلْقَائِلُ

أُثْنِي عَلَيْكَ وَلَوْ تَشَاءُ.. لَقُلْتَ لِيْ:　　قَصَّـرْتَ فَـالإِمْسَـاكُ عَنِّـيَ نَـائِـلُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٧٩ مِنَ البسيطِ] :

وَعُظْمُ قَدْرِكَ فِيْ ٱلآفَاقِ أَوْهَمَنِيْ　　أَنِّيْ بِقِلَّـةِ مَـا أَثْنَيْـتُ أَهْجُـوْكَـا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

تَجَاوَزَ قَدْرَ ٱلْمَدْحِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ　　بِـأَبْلَـغِ مَـا يُثْنَـىٰ عَلَيْـهِ يُعَـابُ

وهو مِنْ قولِ ٱلْبُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١٥ مِنَ الخفيفِ] :

جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ ٱلْمَدِيْحِ فَقَدْ كَا　　نَ يَكُـوْنُ ٱلْمَـدِيْـحُ فِيْـهِ هِجَـاءَ

وللهِ درُّ ٱلبوصيريِّ في قولِهِ [مِنَ البسيطِ] :

مَـاذَا عَسَـىٰ ٱلشُّعَـرَاءُ ٱلْيَـوْمَ قَـائِلَـةً　　مِنْ بَعْدِ مَا مَدَحَتْ (حاميمُ تَنْزِيْلُ)

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٣٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

كَبُـرَ ٱلْعِيَـانُ عَلَـيَّ حَتَّـىٰ إِنَّـهُ	صَارَ ٱلْعِيَانُ مِنَ ٱلْيَقِيْنِ تَوَهُّمَا

عندما يرى الإنسان شيئاً يكذب عينيه والمتنبي أول من أوضح هذا المعنى

يقولُ : إنَّ شأنَ ٱلممدوحِ عظيمٌ ، لَم يستقلَّ علىٰ عقلهِ ثبوتُهُ ؛ لاستعظامهِ إِيَّاهُ ، فكَبُرَ عليهِ حتَّىٰ تشكَّكَ فيهِ مِنْ كِبَرِهِ معَ ٱلمشاهدةِ ، وهوَ معنىً شريفٌ ، يجدُهُ مِنْ نفسهِ كلُّ مَنْ فوجِىءَ بنعمةٍ عُظمىٰ ، أَو مصيبةٍ كُبرىٰ ، وينحلُّ بهِ إِشكالُ ما يوهِمُ تشكُّكَ ٱلنَّبيِّ ﷺ فيما فاجأَهُ مِنْ أَمرِ ٱلوحي لأَوَّلِ وهلةٍ ، كما قرَّرناهُ ، وأَكثرنا مِنْ مثلهِ في كتابِنا « بلابلِ ٱلتغريدِ » ، وهوَ وإِنْ كانَ مغروزاً في ٱلنفوسِ ، متداولاً بينَ ٱلشُّعراءِ ، جارياً في ٱلخِطابِ ما بينَ ٱلطَّبقاتِ . . فللناظمِ علىٰ ٱلإِطلاقِ فضيلةُ ٱلتَّوضيحِ ؛ إِذ جلاَّهُ في أَجملِ صورةٍ ، وأَفرَغهُ في أَبدعِ قالَبٍ ، وأَكثرَ منهُ ، ولٰكنْ لا في مثلِ تنقيحهِ مِنْ هٰذا ٱلبيتِ ، **فقالَ** [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٦٦ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

أَحُلْمـاً نَـرَىٰ أَمْ زَمَـانـاً جَـدِيْـدَا	أَمِ ٱلْخَلْقُ فِيْ شَخْصِ حَيٍّ أُعِيْدَا

وقالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٤٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَمِنَ ٱحْتِقَارِكَ كُلَّ مَا تَحْبُوْ بِهِ	فِيْمَـا أُلاَحِظُـهُ بِعَيْنَـيْ نَـائِـمِ[1]

(١) المعنىٰ : أَنتَ عظيمُ القدرِ ، تحتقرُ الأَشياءَ العظيمةَ ، فإِذا رأَيتُ كثرة مواهبك التي تحتقرُها . . ظننتُ أَنِّي في نومٍ ؛ لأن العادة لَم تجرِ بذلك في اليقظةِ .

قول الشعراء في هذا المعنى

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٤٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ لاَ أَرَىٰ مِثْلِيْ ٱمْتَرَىٰ ٱلْيَوْمَ فِيْ رَسْمِ ... تَغَصُّ بِهِ عَيْنِيْ وَيَلْفِظُهُ وَهْمِيْ[1]

وقالَ أَبو عُبادةَ [في « ديوانهِ » ١٥٣٠ـ١٥٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَزَوْرٍ أَتَـانِـيْ طَـارِقـاً فَحَسِبْتُـهُ ... خَيَالاً أَتَىٰ مِنْ آخِرِ ٱللَّيْلِ يَطْرُقُ

أُقَسِّمُ فِيْهِ ٱلظَّنَّ طَوْراً مُكَذِّباً ... بِـهِ أَنَّـهُ حَـقٌّ وَطَـوْراً أُصَـدِّقُ

أَخَافُ وَأَرْجُوْ بُطْلَ ظَنِّيْ وَصِدْقَهُ ... فَلِلَّهِ شَكِّيْ حِيْنَ أَرْجُوْ وَأَفْرَقُ[2]

وَقَدْ ضَمَّنَا وَشْكُ ٱلتَّلاَقِيْ وَلَفَّنَا ... عِنَـاقٌ عَلَـىٰ أَعْنَـاقِنَـا ثَـمَّ ضَيِّـقُ

فَلَمْ تَرَ إِلاَّ مُخْبِراً عَنْ صَبَابَةٍ ... بِشَكْـوَىٰ وَإِلاَّ عَبْـرَةً تَتَـرَقْـرَقُ

فَأَحْسِنْ بِنَا وَٱلدَّمْعُ بِٱلدَّمْعِ وَاشِجٌ ... تَمَـازُجُـهُ وَٱلْخَـدُّ بِـٱلْخَـدِّ مُلْصَـقُ

وقالَ [مِنَ ٱلمنسرحِ] :

فَرِحْتُ حَتَّىٰ ٱسْتَخَفَّنِيْ فَرَحِيْ ... فَشِبْـتُ عَيْـنَ ٱلْيَقِيْـنِ بِـٱلْـوَهَـمِ

أَمْسَـحُ عَيْنِـيْ مُسْتَثْبِتـاً نَظَـرِيْ ... أَخَـالُنِـيْ حَـالِمـاً وَلَـمْ أَنَـمِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٠٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

حَبِيْبٌ سَرَىٰ فِيْ خُفْيَةٍ وَعَلَىٰ ذُعْرِ ... يَجُوْبُ ٱلدُّجَىٰ حَتَّىٰ ٱلْتَقَيْنَا عَلَىٰ قَدْرِ

تَشَكَّكْـتُ فِيْـهِ مِـنْ سُـرُوْرٍ وَخِلْتُـهُ ... خَيَالاً أَتَىٰ فِيْ ٱلنَّوْمِ مِنْ طَيْفِهِ يَسْرِيْ

وقالَ ٱلعلاَّمةُ ٱبنُ ٱلمقَّري [مِنَ ٱلكاملِ] :

أَعْطَـىٰ فَظَـنَّ ٱلْـوَافِـدُوْنَ بِـأَنَّهَـا ... رُؤْيَـا فَظَلُّـوْا يَمْسَحُـوْنَ ٱلأَعْيُنَـا

وَيَقُوْلُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَنْتُمُ ... يَقْظَـىٰ ، وَهَـٰذَا كُلُّـهُ هِبَـةٌ لَنَـا

---

(١) امترى : شكَّ .

(٢) أَفرقُ : أَجزعُ ويشتدُّ خوفي .

ويقربُ منهُ ـ وليسَ بهِ ـ قولُ أَبي تمَّامٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

تُجَاوِزُ غَايَاتِ ٱلْعُقُوْلِ رَغَائِبٌ تَكَادُ بِهَا لَوْلاَ ٱلْعِيَانُ تُصَدَّقُ

وقولُ ٱلبُحتريِّ [في « ديوانهِ » ٢/١٣١٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَحَدِيْثُ مَجْدٍ عَنكَ أَطْرَبَ حُسْنُهُ حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ مَوْضُوْعُ

وقولُ ٱلنَّاظمِ[1] [مِنَ الكاملِ] :

لَمَّا كَرُمْتَ أَتَيْتُ فِيْكَ بِمَنْطِقٍ صِدْقٍ فَلَمْ أَكْذِبْ وَلَمْ أَتَحَوَّبِ
وَلَوِ ٱمْتَدَحْتُ سِوَاكَ كُنْتُ مَتَىٰ يَضِقْ عَنِّي لَهُ صِدْقُ ٱلْمَقَالَةِ أَكْذِبِ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/١٢٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

كَرَماً فَلَوْ حَدَّثْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ بِعَظِيْمِ مَا صَنَعَتْ لَظَنَّكَ كَاذِبَا

وقولُ البديعِ [الهمذاني في « ديوانهِ » ١٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

مَحَاسِنُ يُبْدِيْهَا ٱلْعِيَانُ كَمَا تَرَىٰ وَإِنْ نَحْنُ حَدَّثْنَا بِهَا دَفَعَ ٱلْعَقْلُ

وهو مِنْ قصيدةٍ خالصةٍ يهيِّجُ أَشجاني منها قولُهُ عن أَبيهِ :

إِذَا وَرَدَ ٱلرُّكْبَانُ وَافَىٰ رِكَابَهُمْ بِفَوَّارَتَيْ دَمْعٍ هُمَا ٱلسَّجْلُ وَٱلنَّجْلُ[2]
يُسَائِلُهُمْ أَيْنَ ٱبْنُهُ، أَيْنَ دَارُهُ، إِلاَمَ ٱنْتَهَىٰ، لِمْ لَمْ يَعُدْ، هَلْ لَهُ شُغْلُ؟!

الحديث عن كتاب الشكوك

وهوَ لا يشبهُ شيئاً مِنْ مذاهبِ اللاَّأَدريَّةِ[3] ٱلمنادي بإِنكارِ حقائقِ ٱلأَشياءِ، ٱلذي وضعَ فيهِ صالحُ بنُ عبدِ ٱلقدوسِ كتابَ «ٱلشُّكوكِ»،

(١) بل هو من قول أبي تمام في « ديوانه » .
(٢) السَّجْلُ : الدَّلوُ العظيمُ . النَّجْلُ : الماءُ السائِلُ .
(٣) وهم : طائفةٌ مِنَ الفلاسفةِ يتردَّدونَ بينَ إثباتِ حقائِقِ الأشياءِ وإنكارِها ، وهم : فريقٌ مِنَ السفسطائيِّينَ ، ولهُم اسمٌ آخرُ : (الشكَّاكونَ) .

ثُمَّ ماتَ عليهِ ولدٌ ، فحزنَ عليهِ حزناً شديداً ، وقالَ لأَبي ٱلهذيلِ ٱلعلاّفِ : إِنَّهُ لَمْ يشتدَّ وجدي عليهِ إِلاَّ لأَنَّني أَقرأْتُهُ كتابَ « ٱلشُّكوكِ » فأَتقنهُ ، قالَ لهُ : وما كتابُ « ٱلشُّكوكِ » ؟ قالَ : مَنْ قرأَهُ . . يشكُّ في الموجودِ حتَّىٰ كأَنَّهُ معدومٌ ، وفي ٱلمعدوم حتَّىٰ كأَنَّهُ موجودٌ ، قالَ لهُ : ٱلخطبُ هيِّنٌ إِذَنْ ، فشُكَّ في ولدِكَ أَنَّهُ لَم يمتْ ، فٱنقطعَ .

ما يجده المؤمن من الوسوسة في صدره ليس من هذا القبيل

وما يجدهُ أَهلُ ٱلإِيمانِ مِنَ ٱلوسوسةِ معَ ٱلتَّصميمِ وصحَّةِ عقودِ ٱلقلوبِ لونٌ آخرُ ـ أَيضاً ـ منهُ : ما جاءَ في « مصابيحِ ٱلبغويِّ » عَنْ جابرٍ قالَ : جاءَ ناسٌ مِنْ أَصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ إِلىٰ النبيِّ ، فسأَلوهُ : إِنَّا نَجدُ في أَنفسِنا ما يَتعاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتكَلَّمَ بهِ ، قالَ : « أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » ، قالُوا : نعمْ ، قالَ : « ذَاكَ صَرِيحُ ٱلإِيْمَانِ »[1] .

إِذْ ٱلأَكثرُ علىٰ أَنَّ المدحَ إِنَّما جاءَ مِنْ جهةِ تعاظُمِهم لهُ ، لا مِنْ حيثُ وجودُهُ .

والله أعلمُ

* * *

---

(١) أخرجه عن جابر مسلم (١٨٨) في الإيمان ، وأبو داوود (٤٤٤٧) .

المجلس السادس

[قال أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ أَيِّ حِيْنٍ أَنْتَ فِيْ زِيِّ مُحْرِمِ؟	وَحَتَّىٰ مَتَىٰ فِيْ شِقْوَةٍ وَإِلَىٰ كَمِ ؟

متى يبتسم الدهر؟

يقولُ : إِلىٰ متىٰ وأَنتَ صِفرٌ مِنَ ٱلمالِ ، في زِيِّ ٱلمُحرِمِ ٱلمتجرِّدِ عَنِ اللِّباسِ ؟ وحتَّىٰ متىٰ هـٰذا الشَّقاءُ بٱلفقرِ ؟ وإِلىٰ أَيِّ أَمدٍ مِنَ الزَّمانِ ينجلي ٱلبؤسُ ويبتسمُ الدَّهرُ ٱلعبوسُ ؟

ويمكنُ أَنْ يكونَ ٱلمرادُ : إِلىٰ متىٰ وأَنتَ مثلُ ٱلمُحرِمِ لا تقتلُ ولا تصيدُ ؟

وهـٰذا أَحلىٰ موقعاً .

الكفر قرين الفقر

وكانَ ﷺ يستعيذُ مِنَ ٱلفقرِ ، ويقولُ : « **كَادَ ٱلْفَقْرُ أَنْ يَكُوْنَ كُفْراً** »(١) .

---

(١) أخرجه عن أنس القضاعي في « مسند الشهاب » (١/ ٣٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٣ و١٠٩) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٤/ ٢٠٦) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٢/ ٣٢٠) ، وأورد العجلوني في «كشف الخفاء» (١٩١٩) ، وزاد في نسبته إلى أحمد بن منيع ، وابن السكن في =

استعاذته ﷺ من الدَّين والفقر

ومِنْ دعائِهِ بٱلليلِ ـ كما عندَ « مسلمٍ » [(٢٧١٣) في الذكر والدعاء] وغيرِهِ ـ : « ٱللَّهُمَّ رَبَّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَ[ربَّ] ٱلأَرْضِ ، وَرَبَّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيْمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، مُنَزِّلَ ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيْلِ وَٱلْقُرْآنِ ، فَالِقَ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِيْ شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، أَنْتَ ٱلأَوَّلُ فَلَيْسَ أَحَدٌ قَبْلَكَ ، وَأَنْتَ ٱلآخِرُ فَلَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَكَ ، وَأَنْتَ ٱلظَّاهِرُ فَلَيْسَ أَحَدٌ فَوْقَكَ ، وَأَنْتَ ٱلْبَاطِنُ فَلَيْسَ أَحَدٌ دُوْنَكَ ، ٱقْضِ عَنَّا ٱلدَّيْنَ ، وأَغْنِنَا مِنَ ٱلفَقْرِ »[1] .

أصول النعم

وقالوا : أُصولُ النِّعمِ أَربعةٌ : الإيمانُ ، وٱلأَمانُ ، وٱلغنىٰ ، وٱلعافيةُ .

في أيدينا لا في قلوبنا

وقالَ سفيانُ : كانَ مِنْ دعائِهم : ٱللَّهمَّ زهِّدنا في الدُّنيا ، ووسِّعها علينا ، ولا تَذْدْها عنّا ، وتُرغِّبنا فيها .

ارحموا ثلاثة

ويُروىٰ عنهُ ﷺ : أَنَّهُ كانَ يقولُ : « ٱرْحَمُوْا ثَلاثَةً : عَزِيْزَ قَوْمٍ ذَلَّ ، وَغَنِيَّ قَوْمٍ ٱفتَقَرَ ، وَعَالِماً بَيْنَ جُهَّالٍ »[2] .

= « مصنفه » والبيهقي في « الشعب » وابن عدي في « الكامل » وقال : في سنده يزيد الرقاشي ضعيف .

(١) وأخرجه من حديث أبي هريرة أيضاً أبو داوود (٥٠٥١) ، والترمذي (٣٤٠٠) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٧٩٠) ، وابن ماجه (٢٨٧٣) . وفي بعض رواياته : شيء بدل أحد ، وبدل عنّا : عني ، وبدل أغننا : أغنني .

(٢) أخرجه عن ابن مسعود القضاعي في « مسند الشهاب » (١/٤٢٧) بألفاظ متقاربة .

وقيلَ : جَهْدُ ٱلبلاءِ أَنْ تزولَ النِّعمةُ ، وتبقىٰ ٱلعالةُ ، ثُمَّ لا تَعْدَمُ صديقاً مُؤَنِّباً ، وعدوّاً شامتاً . جهد البلاء

وكانَ يُقالُ : ٱلفقرُ مَجْمَعُ ٱلعيوبِ . الفقر مجمع العيوب

قالَ حسَّانُ [في « ديوانهِ » ٤٠ مِنَ ٱلخفيفِ] :

رُبَّ حِلْـمٍ أَضَـاعَـهُ عَـدَمُ ٱلْمَـا لِ ، وَجَهْلٍ غطَّىٰ عَلَيْهِ ٱلنَّعِيْمُ

وقالَ عروةُ [في « ديوانهِ » ٩١ مِنَ ٱلوافرِ] :

ذَرِيْنِـيْ لِلْغِنَـىٰ أَسْعَـىٰ فَـإِنِّـيْ رَأَيْـتُ ٱلنَّـاسَ شَـرُّهُـمُ ٱلْفَقِيْـرُ

وقالَ جريرٌ [في « ديوانهِ » ٢٦ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

تَـرَادَفَهُـمْ فَقْـرٌ قَـدِيْـمٌ وَذِلَّـةٌ وَشَرُّ ٱلرَّدِيْفَاتِ ٱلْمَذَلَّةُ وَٱلْفَقْرُ

وما مِنْ خَصلةٍ تكونُ للغنيِّ مدحاً . . إلاَّ كانَتْ للفقيرِ ذمّاً ، فإِنْ كانَ حليماً . . قيلَ : بليدٌ ، أَو شجاعاً . . قيلَ : أَهوجُ ، أَو لَسِناً . . قيلَ : مِهْذَارٌ ، وما أَشبهَ ذلِكَ . الصفة الواحدة للغني مدح وللفقير ذم

وقيلَ لبعضِ أَهلِ ٱلحِجا : كَمْ لكَ مِنْ صديقٍ ؟ قالَ : لا أَدري ؛ لأَنَّ الدُّنيا مقبلةٌ ، وٱلأَموالَ عندي موجودةٌ ، وإِنَّما يُعرفُ ذلكَ لو وَلَّتْ . أَلَمْ تسمعْ قولَ طريحٍ ؟! [مِنَ ٱلكاملِ] : كم لك من الأصدقاء؟

وَٱلنَّـاسُ أَعْـدَاءٌ لِكُـلِّ مُـدَقَّـعٍ صِفْرِ ٱلْيَـدَيْـنِ وَإِخْـوَةٌ لِلْمُكْثِـرِ

ولَمَّا ٱستوزرَ عليُّ بنُ عيسىٰ ، ورأَىٰ ٱجتماعَ النَّاسِ حولَهُ . . تمثَّلَ بقولِ أَبي ٱلعتاهيةِ [في « ديوانه » ٢٢ مِنَ ٱلبسيطِ] : الناس مع صاحب الدنيا

مَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ مَعَ ٱلدُّنْيَا وَصَاحِبِهَا فَكَيْفَمَا ٱنْقَلَبَتْ يَوْماً بِهِ ٱنْقَلَبُوْا

يُعظِّمُوْنَ أَخَا ٱلدُّنْيَا فَإِنْ وَثَبَتْ ... يَوْماً عَلَيْهِ بِمَا لاَ يَشْتَهِيْ وَثَبُوْا

وقديماً قيلَ : إذَا أَيسرْتَ . . فكلُّ رَجلٍ رَجلُك ، وَإِذَا أَعسرْتَ . . أنكرَكَ حتَّىٰ أَهلُكَ .

ما أكثر الإخوان حين تعدهم

وكانَ في ٱلجاهليَّةِ رجلٌ حسنُ ٱلحالِ ، يختلفُ إِليهِ إخوانُهُ وبنو عمِّهِ ، فيعطيهِم ، ويواسيهِم ، ثُمَّ ٱختلَّ أَمرُهُ ، فجفَوهُ ، فعادَ إِلىٰ منزلهِ كئيباً ، فقالَتْ لهُ ٱمرأَتُهُ : ما شأْنُكَ ؟ فقالَ : دعيني عنكِ ، وأَنشأَ يقولُ [الأبيات في « ٱلمستطرفِ » ٢/٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعِيْ عَنْكِ عَذْلِيْ مَا مِنَ ٱلعَذْلِ أَعْجَبُ ... وَلاَ بُدَّ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ تَقَلَّبُ
وَكَانَ بَنُوْ عَمِّيْ يَقُوْلُوْنَ : مَرْحَباً ... فَلَمَّا رَأَوْنِيْ مُقْتِراً مَاتَ مَرْحَبُ
كَأَنَّ مُقِلاًّ حِيْنَ يَغْدُوْ لِحَاجَةٍ ... إِلَىٰ كُلِّ مَنْ يَلْقَىٰ مِنَ ٱلنَّاسِ مُذْنِبُ

هيبة ذي المال

ومرَّ رجلٌ مِنَ ٱلأَغنياءِ برجلٍ مِنْ أَهلِ ٱلعلمِ ، فتحرَّكَ لهُ ، وأَكرمهُ ، فقيلَ لهُ : هَلْ كانَتْ لكَ إِليهِ حاجةٌ ؟ قالَ : لا ، ولـٰكنَّ ذَا المالِ مَهِيْبٌ ، وقد قيلَ فيهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ كُلَّ ذِيْ مَالٍ يُجَلُّ لِمَالِهِ ... وَمَنْ لَيْسَ ذَا مَالٍ يُهَانُ وَيُحْقَرُ
وَيَخْذُلُهُ ٱلإِخْوَانُ ، إِنْ زَارَهُمْ جَفَوْا ... وَلَمْ يَسْأَلُوْا إِنْ غَابَ بَلْ هُوَ يُهْجَرُ
سَأَقْنَعُ بِٱلْمَالِ ٱلْقَلِيْلِ تَكَرُّماً ... لأَغْنَىٰ بِهِ عَمَّا لَدَيْهِمْ وَأَصْبِرُ

خسة العالم الذي يتواضع لغني

وهـٰذا ٱلعالِمُ لا شكَّ أَنَّهُ مِنْ صغارِ ٱلنُّفوسِ ، وزُمناءِ ٱلمروءَةِ[1] ، وضعفاءِ ٱلدِّينِ ، وإِلاَّ . . فقد كانَ ٱلأَغنياءُ يتمنَّوْنَ أَنْ لو كانوا فقراءَ

---

(١) زمناءُ المروءَةِ : أصابَ مروءَتَهمُ المرضُ .

في مجلسِ سفيانَ الثَّوريِّ ؛ لِمَا يرونَ مِنْ إيثارِهِ إيَّاهم ، وذلكَ هديُ رسولِ ٱللهِ ﷺ ، لا يُنزلُ النَّاسَ إلاَّ عندَ مواضعِهِم في ٱلفضلِ وٱلدِّينِ ، وحديثُ عمرَ معَ صفوانَ بنِ أُميَّةَ وسهيلِ بنِ عمرٍو ، وتأخيرُهُ مجالسَهُم لرفعِ ٱلمهاجرينَ ٱلأوَّلِينَ عليهم . . معروفٌ .

الإمام يحب المساكين

وفي وصفِ ٱلإمامِ عليٍّ ـ كرَّمَ ٱللهُ وجهَهُ ـ أنَّهُ يحبُّ ٱلمساكينَ ، ويُقدِّمُ أهلَ ٱلدِّينِ .

إكرام العلماء عند أهل (اليمن)

وما زالَ ٱلحالُ في بلادِنا ـ حرسها ٱللهُ ـ علىٰ ما كانَ عليهِ ٱلسَّلفُ ٱلصَّالحُ مِنْ إيثارِ أهلِ ٱلدِّينِ ، حَتَّىٰ لقد أخبرني ٱلثِّقةُ عمَّنْ حضرَ ٱجتماعَ ٱلأعيانِ بمحضرِ ٱلإمامِ حسنِ بنِ صالحِ ٱلبحرِ للمُشاورةِ في غرضٍ مِنَ ٱلأغراضِ : أنَّ ٱلسَّيِّدَ ٱلجليلَ أحمدَ ٱلجنيدَ ـ وكانَ بصيراً[1] ـ سبقَ إلىٰ مجلسٍ يقربُ مِنَ الصَّدرِ ، فأقامَهُ الشَّهمُ ٱلهمامُ السَّيِّدُ حسينُ بنُ سهلٍ ، وقالَ لهُ : إنَّما الصَّدرُ للصدورِ مِنْ أهلِ ٱلعلمِ ، وأمَّا مجلسي وإيَّاكَ ومَنْ لفَّنا مِنْ أهلِ الثَّروةِ فإنَّما يكونُ في ٱلأُخرياتِ ، نعمْ واللهِ ما زالَ عندنا ٱلأمرُ كذلِكَ حَتَّىٰ هدمَ شرفَ ٱلدِّينِ بُناتُهُ ، وأضاعَهُ حُماتُهُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بٱللهِ .

الكلام في الغنى والفقر

وٱلكلامُ في ٱلغنىٰ وٱلفقرِ معروفٌ ، وٱلمفاضَلةُ بينَ ٱلفقيرِ ٱلصَّابرِ ، وٱلغنيِّ ٱلشَّاكرِ طويلةُ ٱلذَّيلِ ، وعامَّةُ ٱلصُّوفيَّةِ علىٰ تفضيلِ ٱلأوَّلِ ، وآياتُ ٱلقرآنِ أكثرُ دلالةً عليهِ ، ولو لم يكنْ مِنها إلاَّ قولُهُ تقدَّستْ أسماؤُهُ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ

---

(١) قصد أنه أعمىٰ ، وهو من قبيل تسمية الشيء بضده تفاؤلاً .

بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وصف الإمام للنبي ﷺ

وممّا ينسبُ لأميرِ ٱلمؤمنينَ ـ كرَّمَ ٱللهُ وجهَهُ ـ في وصفِهِ ﷺ قولُهُ [في «نهج البلاغةِ» ١٨٧]: وقد زُوِيَتْ[١] عنهُ أطرافُها[٢] ـ ووُطِّئَتْ لغيرِهِ مِنَ ٱلجبابرةِ أكنافُها[٣] ـ فلينظرْ ناظرٌ بعقلِهِ، هل أكرمَ ٱللهُ محمَّداً بذلكَ أو أهانَهُ؟ فإنْ قالَ: أهانَهُ.. فقد جاءَ بٱلإفكِ ٱلعظيمِ، وإنْ قالَ: أكرمَهُ.. فليعلمْ أنَّ ٱللهَ أهانَ غيرَهُ ممَّنْ بسطَ ٱلدنيا لهُ.

تواضعه ﷺ

وقالَ ﷺ لعُمرَ حينَ لَمْ يملِكْ عينَهُ، وقد رأىٰ أثرَ ٱلحصيرِ في جَنبِهِ، ولَمْ يرَ ما يردُّ ٱلطَّرفَ في بيتِهِ غيرَ القَرَظِ[٤] وٱلأُهُبِ، وذكرَ حالَ كسرىٰ وقيصرَ: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُوْنَ لَهُمُ ٱلدُّنْيَا وَلَنَا ٱلآخِرَةُ؟!»[٥].

تفضيل أهل الحديث الغنى على الفقر

وقالَ أهلُ ٱلحديثِ: بتفضيلِ الثاني[٦]؛ لأنَّهُ الآخِرُ مِنْ أحوالِهِ ﷺ، ولِمَا سبقَ مِنِ ٱستعاذتِهِ مِنَ ٱلفقرِ، وقرنِهِ إيَّاهُ بالكفرِ، ولا يُشكِلُ هٰذا بموتِهِ ودرعُهُ مرهونةٌ؛ فإنَّ ٱلبلادَ قد ٱفتُتِحَتْ،

---

(١) زُوِيتْ: نُحِّيت، وبُوعِدَت.

(٢) شيءٌ طريفٌ: طيِّبٌ، والمعنىٰ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ أبعدَ نبيَّهُ ﷺ عَن طيِّباتِ الدنيا؛ ليدَّخِرَها لهُ في الآخرةِ.

(٣) أكنافُها: نَواحيها وجوانِبُها.

(٤) القَرَظُ: ورق شجر يدبغ به الأُهُب وهي الجلود.

(٥) أخرجه عن ابن عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما البخاري (٤٩١٣) في التفسير، وأحمد في «مسنده» (٣/١٣٩).

(٦) أي: الغَنِيِّ.

وأَغنىٰ ٱلأَرضِ ـ وهي (ٱليمنُ) ـ تجبىٰ إِليهِ ، إِلاَّ أَنَّ دأبَهُ ٱلإِيثارُ ، فلا بأسَ أَن يحصلَ ذلكَ معَ ٱتِّصافهِ بالغنىٰ بلا تغايرٍ .

من خصائص النبي ﷺ

ومِنْ خصائصِهِ : أَنَّهُ لا يبيتُ عندَهُ درهمٌ ، إِلاَّ درهمٌ يرصدُهُ لِدَينٍ ، وفي « الصحيحِ » [البخاري ١٢٢١] : أَنَّهُ ٱنصرفَ وقد أُقيمتِ ٱلصلاةُ ؛ لتذكُّرِهِ تِبْرَاً في بيتهِ ، ولم يعُد حَتَّىٰ تبرَّأَ منهُ إِلىٰ مَنْ يستحقُّهُ ، فهو ٱلأَحقُّ بقولِ جوبةَ بنِ ٱلنضرِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

إِنَّا إِذَا ٱجْتَمَعَتْ يَوْماً دَرَاهِمُنَا ظَلَّتْ إِلَىٰ طُرُقِ ٱلْمَعْرُوْفِ تَسْتَبِقُ
لاَ يَأْلَفُ ٱلدِّرْهَمُ ٱلْمَضْرُوْبُ صُرَّتَنَا لَٰكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهْوَ مُنْطَلِقُ

وإِلاَّ . . فأَيُّ غنيٍّ يقدرُ أَنْ يقولَ مثلَهُ ؟ : « مَنْ مَاتَ وَتَرَكَ مَالاً . . فَلِوَرَثَتِهِ ، وَمَنْ مَاتَ وَتَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً . . فَعَلَيْنَا »(١) .

أفضل الأحوال الكفاف

والكلامُ في ذلكَ يستدعي طولاً ، ومعَ ٱختلافِهِم فيما ذُكِرَ ، فقد ٱتَّفقوا علىٰ تفضيلِ الكفافِ ، ولهٰذا سأَلَهُ رسولُ ٱللهِ ﷺ لأَهلِ بيتهِ ، فقالَ : « ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتاً »(٢) .

استشكال حديث: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»

وفيهِ إِشكالٌ ؛ لأَنَّ ٱلمُشاهَدَ مِنْ آلِ ٱلبيتِ أَنَّهُم كسائرِ ٱلنَّاسِ ، فيهمُ ٱلغنيُّ وٱلفقيرُ وٱلمسكينُ وٱلمتوسِّطُ ٱلحالِ ، حَتَّىٰ لقد ذهبَ بها ٱلقطبُ ٱلحدَّادُ ـ معَ جلالةِ قدرِهِ ، وغزارةِ علمِهِ ، وبُعدِ نظرِهِ ـ عريضةً ، فتشكَّكَ في نسبِ مَنْ يُثري مِنْ أَهلِ ٱلبيتِ ، ويلزمُهُ نظيرُهُ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٦١٩) في الفرائض بألفاظ متقاربة . الضياعُ : كلُّ من تلزمه نفقتهم ويضيعون بضياعه وفقده .
(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٧٤٧) في الزكاة .

فيمَن يُعْدِمُ ، وأَحسنُ ٱلأَجوبةِ أَنْ يُقالَ : إِنَّ ٱلمرادَ مِنْ أَهلِ ٱلبيتِ في ٱلحديثِ : إِنَّما همُ ٱلموجودونَ إِذْ ذاكَ ، لا سائرُهُم في كلِّ زمانٍ .

وإِلاَّ جاءَ ما قالَهُ الحدَّادُ ، أَو تبيَّنَ عدمُ قَبولِ ٱلدُّعاءِ ، ويدخلُ في ٱلموضوعِ كلُّ ما جاءَ في ذمِّ الدُّنيا ومدحِها ، وفي ذلِكَ إِشكالٌ عظيمٌ، يأتي حَلُّهُ في ٱلمجلسِ الثَّالثَ عشرَ بِمَا يشفي ويكفي ، إِنْ شاءَ ٱللهُ تعالىٰ.

خير الغنى

وقالَ أَوسُ بنُ حارثةَ : خيرُ ٱلْغِنىٰ ٱلقُنُوعُ ، وَشرُّ ٱلفقرِ ٱلخضُوعُ

الشعراء والغنى والفقر

وقالَ سالمُ بنُ وابصةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

غِنَىٰ ٱلنَّفْسِ مَا يَكْفِيْكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ ... فَإِنْ زَادَ شَيْئاً عَادَ ذَاكَ ٱلْغِنَىٰ فَقْرَا

وقالَ ٱلأَضبطُ بنُ قُرَيْعٍ [مِنَ المنسرحِ] :

اِرْضَ مِنَ ٱلدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ ... مَنْ قَرَّ عَيْناً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ

وقالَ ٱلجُرهميُّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

ٱلْعَيْشُ لاَ عَيْشَ إِلاَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ ... قَدْ يَكْثُرُ ٱلْمَالُ وَٱلإِنْسَانُ مُفْتَقِرُ

وأَلَمَّ بهِ النَّاظمُ في قولِهِ [في « العُكبريّ » ٢/ ١٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ أَنْفَقَ ٱلسَّاعَاتِ فِيْ جَمْعِ مَالِهِ ... مَخَافَةَ فَقْرٍ فَٱلَّذِيْ فَعَلَ ٱلْفَقْرُ

وأَنشدَ ٱلأَصمعيُّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

فَٱلْهَمُّ فَضْلٌ وَطُوْلُ ٱلْعَيْشِ مُنْقَطِعُ ... وَٱلرِّزْقُ آتٍ وَفَضْلُ ٱللهِ مُنْتَظَرُ

ومِمَّا يُروىٰ للشافعيِّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَكِسْرَةٌ مِنْ جَرِيْشِ ٱلْخُبْزِ تُشْبِعُنِيْ ... وَنَهْلَةٌ مِنْ زُلاَلِ ٱلْمَاءِ تُرْوِيْنِيْ

وَقِطْعَةٌ مِنْ غَلِيظِ ٱلْقُطْنِ تَسْتُرُنِي ... حَيّاً وَإِنْ مِتُّ تَكْفِينِي لِتَكْفِينِي[1]

ويُروىٰ لهُ [مِنَ الخفيفِ] :

أَمْطِرِي لُؤْلُؤاً جِبَالَ سَرَنْدِيـ ... ـبَ وَفِيضِي جِبَالَ تَكْرُورَ تِبْرَا

أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ قُوتاً ... وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرَا

وكانَ القاضي يحيىٰ بنُ أَكثمَ كثيراً ما ينشدُ [مِنَ البسيطِ] :

حَتَّىٰ مَتَىٰ أَنَا فِي حَطٍّ وتَرْحَالِ ... وَطُولِ سَعْيٍ وَإِدْبَارٍ وَإِقْبَالِ

وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي ٱلرِّزْقُ فِي دَعَةٍ ... إِنَّ ٱلْقُنُوعَ ٱلْغِنَىٰ لاَ كَثْرَةُ ٱلْمَالِ

وكانَ بعضُ أَصحابهِ ينالُ مِنْ فضلِ معروفِهِ ، غيرَ أَنَّهُ يلقىٰ عَنَتاً في ٱلوصولِ إليهِ ، وذُلاً في ٱلوقوفِ ببابهِ ، فأَخذَهُ ٱلأَنفُ مِنْ ذلكَ ، وٱنجمعَ في بيتِهِ ، فعاتبَتْهُ ٱمرأَتُهُ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

تُكَلِّفُنِي إِذْلاَلَ نَفْسِي لِعِزِّهَا ... وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أُهَانَ لِتُكْرَمَا

تَقُولُ: سَلِ ٱلْمَعْرُوفَ يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمٍ ... فَقُلْتُ : سَلِيهِ رَبَّ يَحْيَىٰ بْنِ أَكْثَمَا

وقالَ بعضُهُم [مِنَ السَّريعِ] :

مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَلَمْ ... يَقْنَعْ فَذَاكَ ٱلْمُوسِرُ ٱلْمُعْسِرُ

ٱلْفَقْرُ فِي ٱلنَّفْسِ وَفِيهَا ٱلْغِنَىٰ ... وَفِي غِنَىٰ ٱلنَّفْسِ ٱلْغِنَىٰ ٱلأَكْبَرُ

القناعة هي الحياة الطيبة

ويُروىٰ عَنِ ٱلحسنِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] : إِنَّها ٱلقناعةُ .

---

(١) أَي : للوقتِ الذي أَلبَسُ فيهِ الكَفَنَ .

كيف تصبح ملكاً؟

وقيلَ لمحمَّدِ بنِ واسعٍ : أَوصني ، فقالَ : كُنْ ملكاً في ٱلدُّنيا وفي ٱلآخرةِ ، فقيلَ لهُ : وكيفَ ؟ قالَ : ٱزهدْ في ٱلدُّنيا ، وٱقنعْ .

أخذَ بعضَهُ ٱلطُّغرائيُّ فقالَ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

مُلْكُ ٱلْقَنَاعَةِ لاَ يُخْشَىٰ عَلَيْهِ وَلاَ يُحْتَاجُ فِيْهِ إِلَىٰ الأَنْصَارِ وَٱلْخَوَلِ

القليل الكافي خير من الكثير الملهي

وصحَّ مِنْ حديثِ أَبي ٱلدَّرداءِ مرفوعاً : « مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ إِلاَّ بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ : يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ، هَلُمُّوْا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَىٰ ، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَىٰ »(١) .

الغنى غنى القلب

وصحَّ مِنْ حديثِ أَبي ذَرٍّ يرفعهُ : « إِنَّمَا ٱلْغِنَىٰ غِنَىٰ ٱلْقَلْبِ ، وَٱلْفَقْرُ فَقْرُ ٱلْقَلْبِ »(٢) .

عودة إلى الشعراء

وقالَ أَبو فراسٍ ٱلحمدانيُّ [في « ديوانهِ » ٢٤٨ مِنَ ٱلهزَجِ] :

غِنَىٰ ٱلنَّفْسِ لِمَنْ يَعْقِـ ـلُ خَيْرٌ مِنْ غِنَىٰ ٱلْمَالِ

وَفَضْلُ ٱلنَّاسِ فِيْ ٱلأَنْفُـ ـسِ لَيْسَ ٱلْفَضْلُ فِيْ ٱلْمَالِ

---

(١) أخرجه عن أبي الدرداء أحمد في « مسنده » (٥/ ١٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٦٦٢) .

وتمام الحديث : « ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللهم . . أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً مالاً تلفاً » .

(٢) أخرجه عن أبي ذر الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٦٣) ، وابن حبان في « الإحسان » مطولاً (٦٨٥) بإسناد صحيح .

وقالَ نابغةُ ذبيانَ [في « ديوانهِ » ٢٣٢ مِنَ الوافرِ] :

وَلَسْتُ بِخَابِىءٍ لِغَدٍ طَعَاماً حَذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وقالَ قيسُ بنُ الخطيمِ [في « ديوانهِ » ١٠١ مِنَ الوافرِ] :

غَنَاءُ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ غَنَاءُ وَفَقْرُ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاءُ

وجهة نظر الخليل الفراهيدي إلى الغنى والفقر

وقالَ النَّضرُ بنُ شميلٍ : أقامَ الخليلُ في خُصٍّ مِنْ أخصاصِ (البصرةِ) ، لا يقدرُ علىٰ فَلْسٍ ، وأصحابُهُ يكسبونَ بعلمِهِ الأموالَ ، ولقد سمعتُهُ يقولُ : إنِّي لأُغلقُ عليَّ بابي ، فما يجاوزُهُ همِّيْ ، وكتبَ إليهِ سليمانُ بنُ حبيبِ بنِ المهلَّبِ ، وهو والي (الأهوازِ) و(فارسَ) ، يستدعيهِ ، فكتبَ الخليلُ في جوابِهِ [مِنَ البسيطِ] :

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ أَنِّيْ عَنْهُ فِيْ سَعَةٍ وَفِيْ غِنىً غَيْرَ أَنِّيْ لَسْتُ ذَا مَالِ

شُحّاً بِنَفْسِيَ أَنِّيْ لاَ أَرَىٰ أَحَداً يَمُوْتُ هُزْلاً وَلاَ يَبْقَىٰ عَلَىٰ حَالِ

وَالرِّزْقُ عَنْ قَدَرٍ لاَ الضَّعْفُ يُنْقِصُهُ وَلاَ يَزِيْدُكَ فِيْهِ حَوْلُ مُحْتَالِ

وَالْفَقْرُ فِيْ النَّفْسِ لاَ فِيْ الْمَالِ تَعْرِفُهُ وَمِثْلُ ذَاكَ الْغِنَىٰ فِيْ النَّفْسِ لاَ الْمَالِ

خير الرزق ما كان مياومة

وَأَغارَ البُحتريُّ علىٰ بيتِ النابغةِ السَّابقِ فقالَ [مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا كَانَ عِنْدِيْ قُوْتُ يَوْمٍ طَرَحْتُ الْهَمَّ عَنِّيْ يَا سَعِيْدُ

وَلَمْ تَخْطُرْ هُمُوْمُ غَدٍ بِبَالِيْ لأَنَّ غَداً لَهُ رِزْقٌ جَدِيْدُ

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

مَنْ كَانَ لَمْ يُعْطَ عِلْماً فِيْ بَقَاءِ غَدٍ مَاذَا تَفَكُّرُهُ فِيْ رِزْقِ بَعْدَ غَدِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ البسيطِ] :

لأَصْبِرَنَّ عَلَىٰ عُسْرِي وَمَيْسَرَتِي يَوْماً بِيَوْمٍ كَمَا تَجْبِي الْعَصَافِيرُ[1]

الطمع هو الفقر والقناعة هي الغنى

وصحَّ أنَّهُ عليهِ السَّلامُ قالَ : « عَلَيْكَ بِالإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ ؛ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ ، وَصَلِّ صَلاَتَكَ وَأَنْتَ مُوَدِّعٌ ، وَإِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ »[2] .

وقالَ أبو العتاهيةِ [في « ديوانهِ » ١٤١ مِنَ الوافرِ] :

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي وَلَوْ أَنِّي قَنِعْتُ لَكُنْتُ حُرَّا

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ تعريضُ أبي فراسٍ بالنَّاظمِ في قولهِ [مِنَ البسيطِ] :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِي وَلاَ الْقَنَاعَةُ بِالإِقْلاَلِ مِنْ شِيَمِي

وقالَ المعريُّ [في « ديوانهِ » ١٢٣ مِنَ الوافرِ] :

أَأَلْخُمُولُ وَالنَّبَاهَةُ فِيَّ لَفْظٌ وَأَقْتُرُ وَالْقَنَاعَةُ لِي عَتَادُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي لَمُثْرٍ يَا ابْنَ آخِرِ لَيْلَةٍ وَإِنْ قَلَّ مَالٌ فَالْقُنُوعُ ثَرَاءُ[3]

---

(١) لما أخرجه عن الخليفة الراشدي عمرَ رضي الله عنه ابنُ حبان في « الإحسان » (٧٣٠) بإسناد جيد وغيره ، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم توكَّلون على اللهِ حقَّ توكُّلِهِ ؛ لرزقَكُم كما يَرزُقُ الطيرَ تغدو خماصاً وتروح بطاناً » . خماصاً : جياعاً . وتروح بطاناً : ترجع شباعاً ممتلئة البطون .

(٢) أخرجه عن سعد ابن أبي وقاص مالكٌ رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٦٢) ، وفي الباب :

عن جابر رضي الله عنه رواه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٧/ ٣٧٠) .

(٣) ابنُ آخرِ ليلةٍ : هوَ الذي حملَت بهِ أمُّه في آخرِ ليلةٍ مِن طُهرِها ، وفي اعتقادِ=

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ ٱلْغِنَىٰ وَٱلْفَقْرَ فِيْ مَذْهَبِ ٱلنُّهَىٰ لَسِيَّانِ بَلْ أَعْفَىٰ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ ٱلْعُدْمُ
فَمَا نِلْتُ مَالاً قَطُّ إِلاَّ وَمَالَ بِيْ وَلاَ دِرْهَماً إِلاَّ وَدَرَّ بِيَ ٱلْهَمُّ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢١١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَٱلْمَوْتُ أَحْسَنُ بِٱلنَّفْسِ ٱلَّتِيْ أَلِفَتْ عِزَّ ٱلْقَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ ٱلْقُوْتَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٥٢ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَمَا يَنْفَكُّ ذُو مَالٍ عَتِيْدٍ فَتىً جَعَلَ ٱلْقُنُوعَ لَهُ عَتَادَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

سَيَطْلُبُنِيْ رِزْقِيْ ٱلَّذِيْ لَوْ طَلَبْتُهُ لَمَا زَادَ وَٱلدُّنْيَا حُظُوْظٌ وَإِقْبَالُ

وهو مِنْ قولِ عروةَ بنِ أُذَيْنَةَ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِيْ

وقالَ ٱلمعريُّ أَيضاً [مِنَ الطَّويلِ] :

وهَلْ يَذْخَرُ ٱلضِّرْغَامُ قُوْتاً لِيَوْمِهِ إِذَا ٱدَّخَرَ ٱلنَّمْلُ ٱلطَّعَامَ لِعَامِهِ

وفي هـٰذا يطولُ ٱلكلامُ، وقد وفَّيْناهُ حقَّهُ مِنَ التَّفصيلِ في كتابِنا «بلابل التغريدِ».

علم ابن ميادة أن عنده ناقة حلوباً فاستغنى عن الملوك

وأَزمعَ ٱبنُ ميَّادةَ ٱلوفادةَ علىٰ ٱلمنصورِ ؛ ليمدحَهُ بقصيدتِهِ ٱلتي يقولُ فيها [في « شعرهِ » ١٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

قَوْمٌ إِذَا جُلِبَ ٱلثَّنَاءُ إِلَيْهِمُ بِيْعَ ٱلثَّنَاءُ هُنَاكَ بِٱلأَرْبَاحِ

= العربِ أَنَّ الولدَ الذي حُملَ بهِ علىٰ هـٰذا النَّحوِ ولدٌ ذميمٌ .

فأراحَ عليهِ خادمُهُ بلبَنِ لَقْحَةٍ له[1] ، فشربَ حتَّىٰ رُئيَ الرِّيُّ يخرجُ مِنْ أَظفارِهِ ، وصارَتْ بطنُهُ مثلَ القدحِ ، فقالَ : أَيوجدُ معنا هٰذا كلَّ يومٍ ؟ قالَ لَهُ : نعمْ ، فثنَىٰ عزمَهُ ، وحلَّ رحلَهُ .

البخيل يبخل بالمال فابخل بماء وجهك

ويعجبني قولُ مهيارٍ [في « ديوانه » ٣/ ١٣٨ مِنَ الكاملِ] :

يُلْحِيْ عَلَىٰ ٱلْبُخْلِ ٱلشَّحِيْحُ بِمَالِهِ ... أَفَلاَ تَكُوْنُ بِمَاءِ وَجْهِكَ أَبْخَلاَ ؟!
أَكْرِمْ يَدَيْكَ عَنِ ٱلسُّؤَالِ فَإِنَّمَا ... قَدْرُ ٱلْحَيَاةِ أَقَلُّ مِنْ أَنْ تُسْأَلاَ
وَلَقَدْ أَضُمُّ إِلَيَّ فَضْلَ قَنَاعَتِيْ ... وَأَبِيْتُ مُشْتَمِلاً بِهَا مُتَزَمِّلاَ
وَأَرِيْ ٱلْعَدُوَّ عَلَىٰ ٱلْخَصَاصَةِ حَالَةً ... تَصِفُ ٱلْغِنَىٰ فَيَخَالُنِيْ مُتَمَوِّلاَ
وَإِذَا ٱمْرُؤٌ أَفْنَىٰ ٱللَّيَالِيَ حَسْرَةً ... وَأَمَانِيَاً . . أَفْنَيْتُهُنَّ تَوَكُّلاَ

الإخلاص في التوكل

غيرَ أَنَّ القولَ الجامعَ قولُهُ ﷺ : « لَوْ تَوكَّلْتُمْ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ . . لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ ٱلطَّيْرَ ، تَغْدُوْ خِمَاصاً[2] وَتَرُوْحُ بِطَاناً »[3] ، فَلَمْ يُثْنِ علىٰ القعودِ ولزومِ البيوتِ ، وإنَّما أَشارَ بالعملِ ، ونهىٰ عَنِ الالتِفاتِ إليهِ ، وحثَّ علىٰ الأَسبابِ ، وأَمرَ بالاعتمادِ علىٰ مسبِّبِها .

صدق رسول الله ﷺ إن من الشعر لحكمة

ويعجبُني ما ذكرَ ابنُ السُّبكيِّ [في « طبقاته » ٤/ ٢٣١] عَنِ الإصطَخريِّ : أَنَّ أَبا إِسحاقَ الشِّيرازيَّ أَنشدَهُ ، ولم يُسمِّ قائلاً ، وهو [مِنَ الطَّويلِ] :

صَبَرْتُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلأَذَىٰ خَوْفَ كُلِّهِ ... وَأَلْزَمْتُ نَفْسِيْ صَبْرَهَا فَٱسْتَقَرَّتِ

---

(١) اللقحةُ : الناقةُ الحلوبُ الغزيرةُ اللبنِ .
(٢) تغدو خِماصاً : تخرجُ في الصباح ضامرةَ البطونِ .
(٣) أخرجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٥٤) ، وسلف في التعليق .

وَجَرَّعْتُهَا ٱلْمَكْرُوهَ حَتَّىٰ تَدَرَّبَتْ وَلَوْ حُمِّلَتْهُ جُمْلَةً لاشْمَأَزَّتِ
فَيَا رُبَّ عِزٍّ جَرَّ لِلنَّفْسِ ذِلَّةً وَيَا رُبَّ نَفْسٍ بِٱلتَّذَلُّلِ عَزَّتِ
وَمَا ٱلْعِزُّ إِلاَّ خِيفَةَ ٱللهِ وَحْدَهُ فَمَنْ خَافَ مِنْهُ خَافَهُ مَا أَقَلَّتِ
سَأَصْدُقُ نَفْسِيْ إِنَّ فِيْ ٱلصِّدْقِ حِكْمَةً وَأَرْضَىٰ بِدُنْيَايَ وَإِنْ هِيَ قَلَّتِ
وَأَهْجُرُ أَبْوَابَ ٱلْمُلُوكِ فَإِنَّنِيْ أَرَىٰ ٱلْحِرْصَ جَلاَّباً لِكُلِّ مَذَلَّةِ
إِذَا مَا مَدَدْتُ ٱلْكَفَّ أَلْتَمِسُ ٱلْغِنَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ مَنْ قَالَ ٱسْأَلُوْنِيْ فَشَلَّتِ
إِذَا طَرَقَتْنِيْ ٱلنَّائِبَاتُ بِنَكْبَةٍ تَذَكَّرْتُ مَا عُوْفِيْتُ مِنْهُ فَقَلَّتِ
وَمَا نَكْبَةٌ إِلاَّ وَللهِ مِنَّةٌ إِذَا قَابَلَتْهَا أَدْبَرَتْ وَٱضْمَحَلَّتِ
تَبَارَكَ رَزَّاقُ ٱلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا عَلَىٰ مَا أَرَادَ لاَ عَلَىٰ مَا ٱسْتَحَقَّتِ
فَكَمْ عَاقِلٍ لاَ يَسْتَبِيْتُ وَجَاهِلٍ تَرَقَّتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَتَعَلَّتِ[1]
وَكَمْ مِنْ جَلِيْلٍ لاَ يُرَامُ حِجَابُهُ بِدَارِ غُرُوْرٍ أَدْبَرَتْ وَتَوَلَّتِ
تَشُوْبُ ٱلْقَذَىٰ بِٱلصَّفْوِ وَٱلصَّفْوَ بِٱلْقَذَىٰ وَلَوْ أَحْسَنَتْ فِيْ كُلِّ حَالٍ لَمُلَّتِ

* * *

(١) لا يستبيتُ : أي ليس له بِيْتُ ليلة ، والبِيتُ : القوتُ .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبي في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ ٱلسُّيُوْفِ مُكَرَّماً   تَمُتْ وَتُقَاسِيْ ٱلذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

حث المتنبي على الإقدام

يحثُّ علىٰ ٱلإقدامِ ؛ لطلبِ ٱلعزِّ ، ويقولُ : إِنَّ ٱلموتَ لا بدَّ منهُ ، فإِمَّا : تحتَ بارقةِ ٱلسُّيوفِ علىٰ ٱلشَّرفِ ، وإِمَّا : حتفَ ٱلأَنفِ علىٰ ٱلذُّلِ وٱلمهانةِ .

الشعراء تشجع الجبان وتحث على الإقدام

وما زالتِ ٱلشُّعراءُ تشجِّعُ ٱلجبانَ بمثلِ هٰذا ، وأَحسنُ ٱلخَلْقِ قولاً فيهِ ٱلخوارجُ .

قالَ قَطَرِيُّ بنُ ٱلفجاءَةِ [كما في « حياتِهِ وشعرِهِ » ٦٨ مِنَ ٱلوافرِ] :

أَقُوْلُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شُعَاعاً   مِنَ ٱلأَبْطَالِ وَيْحَكِ لاَ تُرَاعِيْ[1]

فَإِنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ بَقَاءَ يَوْمٍ   عَلَىٰ ٱلأَجَلِ ٱلَّذِيْ لَكِ لَمْ تُطَاعِيْ

فَصَبْراً فِيْ مَجَالِ ٱلْمَوْتِ صَبْراً   فَمَا نَيْلُ ٱلْخُلُوْدِ بِمُسْتَطَاعِ

سَبِيْلُ ٱلْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ   وَدَاعِيْهِ لأَهْلِ ٱلأَرْضِ دَاعِ

وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِيْ حَيَاةٍ   إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ ٱلْمَتَاعِ

وقالَ [في « ديوانِهِ » ٦٩ـ٧٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

لاَ يَرْكَنَنْ أَحَدٌ إِلَىٰ ٱلإِحْجَامِ   يَوْمَ ٱلْوَغَىٰ مُتَخَوِّفاً لِحِمَامِ[2]

---

(١) طارَتْ شُعاعاً : تفرَّقَت وٱنتشَرت مِن الخوفِ .

(٢) يَركَنْ : يميلُ . الإِحجامُ : النكوصُ والرجوعُ .

فَلَقَدْ أُرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيَّةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي[1]
حَتَّىٰ خَضَبْتُ بِمَا تَحَدَّرَ مِنْ دَمِي سَرْجِي وَسَائِرَ شِكَّتِي وَلِجَامِي[2]
وَرَجَعْتُ مَوْفُورَ ٱلْكَرَامَةِ فَائِزاً جَذَعَ ٱلْبَصِيرَةِ قَارِحَ ٱلأَقْدَامِ[3]

لي عندك يد يا أمير المؤمنين

وقدمَ أحدُ ٱلعربِ علىٰ معاويةَ في يومِ حفلِهِ ، فقالَ : لي عندكَ يدٌ يا أَميرَ ٱلمؤمنينَ ، قالَ : وما هي ، قالَ : أَمَا تذكر بـ(صفِّينَ) يومَ ٱنتفخَ سحْرُكَ[4] ، وٱحولَّتْ عيناكَ ، ووضعْتَ رجلَكَ في الرِّكابِ ؛ لتفرَّ ، وقد لاحَ الظَّفَرُ لأَهلِ (ٱلعراقِ) ، فأَخذْتُ بيدِكَ ، وقلْتُ لكَ : إنَّ ٱلعربَ أَعطتْكَ قيادَها ، وقلَّدتْكَ أزمَّتَها ، وأَعطتْكَ مِنْ أَنفُسِها شهرينِ ، فأَعطِها مِنْ نفسِكَ ساعةً ، ووٱللهِ لو كانَتْ هندُ بنتُ عتبةَ مكانَكَ . . ما فرَّتْ ، ولاختارَتْ أَنْ تموتَ كريمةً ، فقلْتَ لِي : ٱخفضْ صوتَكَ لاَ أُمَّ لكَ ، فتماسكْتَ ، وتراجعَتْ إِليكَ نفسُكَ ، وتمثَّلْتَ بشعرٍ أَحفظُ منهُ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَأَشَتْ وَجَاشَتْ مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي[5]

فقالَ معاويةُ : صدقْتَ ، ولوَدِدْتُ أَنَّكَ ٱلآنَ خفضْتَ مِنْ صوتِكَ ، يا غلامُ ، أَعطِهِ خمسينَ أَلفَ درهمٍ ، ولو كنْتَ أَحسنْتَ ٱلأَدبَ . . لَكُنَّا أَحسنَّا في الزِّيادةِ . وٱلروايةُ بالمعنىٰ ، واللَّفظُ يزيدُ وينقصُ[6] .

---

(١) الدَّرِيَّةُ : العلامةُ التي توضعُ للرماةِ ؛ ليتدربوا على الرمايةِ ، وتسمّى أيضاً : دريئة .
(٢) شِكَّتِي : سلاحي . في الديوان : أَكْتَافَ سَرْجِي أَوْعَنَانَ لِجَامِي .
(٣) الجَذَعُ : القويُّ ٱلفتيُّ . قارحُ الأَقدامِ : مجروحها .
(٤) انتفخَ سَحْرُكَ : تعبير استخدمته العربُ لمن ملأ الخوف جوفه .
(٥) جَأَشَتْ نفسهُ : ارتفعتْ من حزنٍ أو فزعٍ . جَاشتْ نفسهُ : هَمَّتْ بالفرارِ .
(٦) في الطريقةِ التي روىٰ بها المؤلِّفُ رحمهُ اللهُ القصةَ غضٌّ مِن مقامِ سيِّدِنا معاويةَ =

ثلاثة من الفرسان جزعوا ثم صبروا

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ : جزِعَ ثلاثةٌ مِنْ فرسانِ ٱلعربِ ثُمَّ صبرُوا ، وهم :

عمرُو بنُ معدِيْكَرِبَ في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَجَاشَتْ إِلَيَّ ٱلنَّفْسُ أَوَّلَ مَرَّةٍ   فَرُدَّتْ عَلَىٰ مَكْرُوْهِهَا فَٱسْتَقَرَّتِ

وَٱبنُ الأَطنابةِ في قولِهِ [مِنَ ٱلوافرِ] :

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَأَشَتْ . . . . [البيت السابق] .

وعنترُ في قولِهِ [في « ديوانه » ٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

إِذْ يَتَّقُوْنَ بِيَ ٱلأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ   عَنْهَا وَلَـٰكِنِّي تَضَايَقَ مُقْدِمِي[1]

= رضيَ اللهُ عنهُ وعَن كافَّةِ الصحابةِ أجمعينَ .

بلِ القصَّةُ كما جاءتْ في « المزهر » (٢/ ٢٦٦) ، و« المستظرف » (١/ ١٣٩) من كتبِ الأدبِ علىٰ النحو التالي :

قالَ ثعلبٌ في « أماليهِ » : أخبرَنا عبدُ ٱللهِ بنُ شبيبٍ قالَ : حدثني ثابتُ بنُ عبدِ الرحمنِ قالَ : كتبَ معاويةُ ٱبنُ أبي سفيانَ إلىٰ زيادٍ : إذَا جاءَكَ كتابي . . فأوفدْ إليَّ ٱبنكَ عبيدَ اللهِ ، فأوفدهُ عليهِ ، فَما سأَلَهُ عَن شيءٍ إلاَّ أنفذَهُ لهُ ، حتىٰ سأَلهُ عنِ الشعرِ فلَم يعرفْ منهُ شيئاً ، قالَ : فما منعكَ مِن روايتهِ ؟ قالَ : كرهتُ أَن أجمعَ كَلامَ اللهِ وكلامَ الشيطانِ في صدري ، فكتبَ إلىٰ أَبيهِ : باركَ اللهُ لكَ في ٱبنكَ ، فأروِهِ الشعرَ فقدْ وجدتُهُ كاملاً ، وإنِّي سمعتُ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : أرووا الشعرَ ؛ فإنَّهُ يدلُّ علىٰ محاسنِ الأخلاقِ ، ويقي مساويها ، وتعلَّموا الأنسابَ ، فربَّ رحمٍ مجهولةٍ قد وصفتْ بعريانِ النسبِ ، وتعلَّموا مِنَ النجومِ ما يدلُّكُم علىٰ سُبُلِكُمْ فِي البرِّ والبحرِ .

ولقدْ هممتُ بالهربِ يومَ صفِّينَ فما ثبَّتني إلاَّ قولُ ٱبنِ الأطنابةِ :

وَقَوْلِيْ كُلَّمَا جَأَشَتْ وَجَاشَتْ   مَكَانَكِ تُحْمَدِيْ أَوْ تَسْتَرِيْحِيْ

(١) الخَيْمُ : الجبنُ .

وأمّا ثلاثةٌ . . فلَمْ يجزعُوا أصلاً ، وهم :

وثلاثة لم يجزعوا أصلاً

قيسُ بنُ ٱلخطيمِ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيَ فِيْ ٱلْحَرْبِ ٱلضَّرُوْسِ مُوَكَّلٌ بِإِقْدَامِ نَفْسٍ مَا أُرِيْدُ بَقَاءَهَا

وعامرُ بنُ ٱلطُّفَيلِ في قولِهِ [في « حياتِهِ وشعرِهِ » ٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُوْلُ لِنَفْسٍ مَا أُرِيْدُ بَقَاءَهَا أَقِلِّيْ ٱحْتِرَاساً إِنَّنِيْ غَيْرُ مُدْبِرِ

وٱلعبَّاسُ بنُ مِرداسٍ في قولِهِ [مِنَ الوافرِ] :

أَشُدُّ عَلَىٰ ٱلْكَتِيْبَةِ لاَ أُبَالِيْ أَحَتْفِيْ كَانَ فِيْهَا أَمْ سِوَاهَا

وممّا يُروىٰ للأعورِ السلميِّ ، قالهُ في (صفِّينَ) [مِنَ الطَّويلِ] :

الرجال لا تفر من القتال

إِذَا مَا فَرَرْنَا كَانَ شَرُّ فِرَارِنَا صُدُوْدَ خُدُودٍ وَٱلْتِوَاءَ مَنَاكِبِ
نُشِيْحُ قَلِيْلاً وَٱلْقَنَا مُتَشَاجِرٌ وَلاَ تَبْرَحُ ٱلأَقْدَامُ عِنْدَ ٱلتَّضَارُبِ[1]

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا ٱلمجلسِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/٣٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ ٱلْمَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ إِلَيْهِ ٱلْحِفَاظُ ٱلْمُرُّ وَٱلْخُلُقُ ٱلْوَعْرُ[2]

وهو مِنْ قولِ ٱلأعرابيَّةِ [مِنَ الطَّويل] :

أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوْا وَٱلْقَنَا فِيْ نُحُوْرِهِمْ وَلَمْ يَبْتَغُوْا مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ سُلَّمَا
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَرُّوْا لَكَانُوْا أَعِزَّةً وَلَـٰكِنْ رَأَوْا صَبْراً عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ أَكْرَمَا

---

(١) أشاحَ بوجهِهِ : أماله .
(٢) الحِفاظُ المرُّ : الذَّبُّ الشديدُ عنِ المحارِمِ . الخُلُقُ الوَعْرُ : الشدَّةُ عندَ المنازعَةِ .

مكتوب على ذي الفقار

ويُروىٰ بضعفٍ : أنَّهُ كانَ مكتوبٌ علىٰ ذي ٱلفقارِ[1] هـٰذا ٱلبيتُ [مِنَ ٱلبَسيطِ] :

فِيْ ٱلْجُبْنِ عَارٌ وَفِيْ ٱلإِقْدَامِ مَكْرُمَةٌ وَٱلْمَرْءُ بِٱلْجُبْنِ لاَ يَنْجُوْ مِنَ ٱلْقَدَرِ

قصة الحصين بن الحمام وبني جوشن

وقالَ ٱلحصينُ بنُ ٱلحُمامِ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِيْ ٱلْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِـيْ حَيَـاةً مِثْـلَ أَنْ أَتَقَـدَّمَـا

وسببُهُ : أنَّ بني جوشنَ ـ مِنْ غطفانَ ـ قتلتْ جاراً لبني سهمٍ ، رهطِ ٱلحصينِ وعقيلِ بنِ علقمةَ ، وكانَ عقيلٌ غائباً ، فبعثَ بأبياتٍ يحرِّضُ أماثِلَ[2] بني سهمٍ علىٰ غسلِ ٱلعارِ بٱلدم ، فقالَ ٱلحصينُ : إياي عَنَىٰ ، وبي نَوَّهَ ، وٱمتشقَ ٱلحُسامَ ، وأبلىٰ أحسنَ ٱلبلاءِ ، وقالَ ٱلبيتَ السَّابقَ ، مِنْ قصيدةٍ سبقَ بعضُ أبياتِها في خلالِ ٱلمجالسِ ، ومنها [في « شرحِ الحماسةِ » ١/٣١٦ـ ٣٤٠ـ ٣٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَسْنَا عَلَىٰ ٱلأَعْقَابِ تَدْمَىٰ كُلُوْمُنَا وَلَـٰكِنْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا تَقطُرُ ٱلدِّمَا
نُفَلِّـقُ هَـامـاً مِـنْ كِـرَامٍ أَعِـزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا
وَلَمَّا رَأَيْنَا ٱلصَّبْرَ قَدْ حِيْلَ دُوْنَهُ وَقَدْ كَانَ يَوْماً ذَا كَوَاكِبَ مُظْلِمَا
صَبَرْنَا وَكَانَ ٱلصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفّاً وَمِعْصَمَا
وَلَمَّـا رَأَيْـتُ ٱلْـوُدَّ لَيْـسَ بِنَـافِعِـيْ عَمَدْتُ إِلَىٰ ٱلأَمْرِ ٱلَّذِيْ كَانَ أَحْزَمَا
فَلَسْـــتُ بِمُبْتَـــاعِ ٱلْحَيَـــاةِ بِسُبَّـــةٍ وَلاَ مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْمَوْتِ سُلَّمَا

(١) ذو الفَقَار : ٱسمُ سيفٍ للنَّبيِّ ﷺ ، وسمِّي بذلك لأنه كان لظهره مثل فقار الظهر .
(٢) الأماثل : الأخيار .

وقيلَ للمهلَّبِ ٱبنِ أَبي صفرةَ : إِنَّكَ لتُلقي نفسَكَ في ٱلمهالكِ ، فقالَ : إِنْ لَمْ آتِ ٱلموتَ مسترسلاً . . أَتاني مستعجلاً ، إِنِّي لستُ آتي ٱلموتَ مِنْ حُبِّهِ ، ولٰكنِّي آتيهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تمثَّلَ بقولِ ٱلحصينِ :

الموت آت على كل حال

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي ٱلْحَيَاةَ . . . البيتُ

وما زالتِ ٱلعربُ تَمادَحُ بٱلقتلِ ، وتتهاجىٰ بٱلموتِ علىٰ ٱلفراشِ ، فتقولُ : فلانٌ ماتَ عَبْطَةً[1] ، وماتَ حتفَ أنفهِ .

المدح بالقتل

وقالَ ٱلسمَوْأَلُ [في « ديوانه » ٤٦ ـ ٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

لا يموت السيد في فراشه

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِيْ فِرَاشِهِ   وَلاَ طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيْلُ[2]
تَسِيْلُ عَلَىٰ حَدِّ ٱلظُّبَاتِ نُفُوْسُنَا   وَلَيَسَتْ عَلَىٰ غَيْرِ ٱلظُّبَاتِ تَسِيْلُ[3]

وقد أَنِفَ عامرُ بنُ الطُّفيلِ أَنْ يموتَ علىٰ فراشهِ، فركبَ ظهرَ دابتهِ.

وتوجَّعَ خالدُ بنُ ٱلوليدِ مِنْ موتهِ علىٰ ٱلفراشِ ، وما مِنْ موضعِ أَربعةِ أَصابعَ مِنْ بدنِهِ إِلاَّ فيهِ طعنةٌ برمحٍ ، أَو ضربةٌ بسيفٍ ، وقالَ : ويلٌ للجبناءِ!

وذكرَ ٱلأَصفهانيُّ [كما في « ٱلأغاني » ١٩/١٤٠] : أَنَّهُ لَمَّا جاءَ نعيُ ٱلمُصعبِ بنِ الزُّبيرِ إِلىٰ (مكَّةَ) . . أَضربَ عبدُ اللهِ أَيَّاماً عَنِ ٱلكلامِ ، حَتَّىٰ تُحُدِّثَ بهِ في الطُّرقاتِ ، فصعدَ ٱلمنبرَ ، وجلسَ مليّاً

نعي المصعب بن الزبير إلى أخيه عبد الله

---

(١) العَبْطَةُ : الصحيحُ الشابُّ .
(٢) المعنى : لم يمت منا سيِّد دون أن يُأخَذَ بثأرِهِ . وطُلَّ دمُ فلانٍ : هدرَ وَلَمْ يُثأَرْ لهُ .
(٣) الظُّباتُ ـ جمعُ ظُبَةٍ ـ : وهيَ السُّيوفُ .

لا يتكلَّمُ ، والكآبةُ عليهِ باديةٌ ، والعرقُ يترشَّحُ مِنْ جبينِهِ ، فقالَ واحدٌ لآخرَ : مَا لَهُ لا يتكلَّمُ ، وهو واللهِ الخطيبُ المِصْقَعُ[١] .

قالَ الآخرُ : أَراهُ يريدُ أَنْ يذكرَ سيِّدَ العربِ المُصعَبَ ، فهو يتصعَّدُ بهِ[٢] ، حتَّىٰ قالَ :

الحمدُ للهِ ، الَّذي لهُ الخلقُ والأمرُ ، ملِكِ الدُّنيا والآخرةِ ، يُعِزُّ مَنْ يشاءُ ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ ، أَلا وإِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ كانَ الحقُّ معهُ وإِنْ كانَ ضعيفاً مفرداً ، ولا يَعزُّ مَنْ كانَ علىٰ الباطلِ وإِنِ استظهرَ عُدَّةً وعدداً ، أَلا وإِنَّهُ أَتانا خبرٌ مِنَ (العراقِ) فساءَنا وسرَّنا . أَتانا أَنَّ مصعباً قُتل ، فأَمَّا الَّذي أَحزننا . . فإِنَّ لفراقِ الحميمِ لذعةً ولوعةً ، يجدُها حميمُهُ عندَ المصيبةِ ، ثمَّ يرعوي أُولو الرَّأْيِ إِلىٰ الصَّبرِ ، وأَمَّا الَّذي سرَّنا منهُ . . فإِنَّ قتلَهُ كانَ لهُ شهادةً ، وإِنَّ اللهَ جاعلٌ لنا ولهُ في ذلكَ الخيرةَ ، أَلا وإِنَّ أَهلَ (العراقِ) أَهلُ الغدرِ والشِّقاقِ ، باعوهُ بأَقلِّ الأَثمانِ وأَخسرِها ، وأَسلموهُ إِسلامَ النَّعَمِ المُخْطَمةِ[٣] ، حتَّىٰ قُتلَ ، ولئنْ قُتلَ . . فقد قُتلَ أَبوهُ وعمُّهُ وأَخوهُ ، وكانوا الخيارَ الصَّالحينَ ، وإِنَّا واللهِ مَا نموتُ حتفَ آنافِنا ، ولٰكِنْ قعصاً[٤] بالرِّماحِ ، وضرباً بالسُّيُوْفِ ، لا كَما تموتُ بنو مروانَ ، واللهِ ما قُتلَ منهم رجلٌ في جاهليَّةٍ ولا إِسلامٍ ، وإِنَّما الدُّنيا عاريةٌ مِنَ المَلِكِ الجبَّارِ الَّذي لا يزولُ سلطانُهُ ، ولا يَبيدُ ملكُهُ ، فإِنْ تُقبلِ الدُّنيا

---

(١) المِصْقعُ : البليغُ .
(٢) يتصعَّدُ بِهِ ـ أي ذِكْرَ مصعب ـ : يتعب تعباً شديداً .
(٣) المُخطمةُ : التي وضع في أنفها الزمام أو المُلجمةُ .
(٤) قَعصاً : طعناً ، ووردت في المخطوط : قصعاً ، وهو تصحيف .

عليَّ . . لا آخذُهَا أَخذَ ٱللَّئيمِ ٱلبَطِرِ ، وإِنْ تدبرْ عنِّي . . لا أَبكيْ عليها بكاءَ ٱلخَرِفِ ٱلمهترِ[1] ، ثُمَّ نزلَ .

آل الزبير أعرق الناس في القتل

وقدْ قالَ ٱبنُ دريدٍ : أَعرقُ النَّاسِ في ٱلقتلِ آلُ ٱلزُّبَيرِ ، فقد قُتلَ عمارةُ بنُ حمزةَ وأَبوهُ بـ(قُديدٍ) ، وقُتلَ عبدُ ٱللهِ بـ(مكَّةَ) ، وقُتلَ مصعبُ وٱبنُهُ بـ(ٱلعراقِ) ، وقُتلَ ٱلزُّبيرُ بـ(وادي ٱلسِّباعِ) ، وقُتلَ ٱلعوَّامُ في يومِ ٱلفِجَارِ ، وقُتلَ خويلدُ بنُ أَسَدٍ في حربِ خزاعةَ ، عدا مَنْ قُتلَ مِنْ أَبنائِهم وأَحفادِهم ، وكانَ قتلُ عمرِو بنِ الزُّبيرِ علىٰ يدِ أخيهِ عبدِ ٱللهِ ، كانوا يضربونَهُ ، وٱلقيحُ ينضحُ مِنْ ظهرِهِ وأَكتافِهِ ، ثُمَّ أَرسلُوا عليهِ ٱلجُعَلانَ[2] ، فأَكلَ منهُ ، وهو مقيَّدٌ مغلولٌ ، يستغيثُ فلا يغاثُ ، حَتَّىٰ ماتَ علىٰ تلكَ ٱلحالةِ .

فبِحَقٍّ ما يقولُ عبدُ اللهِ ، وما يقولُ فيهم ٱلشَّاعرُ ، ونصُّهُ [مِنَ ٱلمتقاربِ] :

وَآلُ ٱلـــزُّبَيْـــرِ بَنُـــوْ حُـــرَّةٍ ... مَرَوْا بِٱلسُّيُوْفِ صُدُوْراً حِنَاقَا[3]
يَمُـــوْتُـــوْنَ وَٱلقَتْـــلُ دَاءٌ لَهُـــمْ ... يُغِيْثُـوْنَ يَـوْمَ ٱلسِّبَـاقِ ٱلسِّبَـاقَـا
إِذَا فَـــرَجَ ٱلقَتْـــلُ مِـــنْ عِيْصِهِـــمْ ... أَبَىٰ ذَلِكَ ٱلعِيْصُ إِلاَّ ٱتِّفَاقَا[4]

فما كانَ أَحقَّهم بقولِ السَّموأَلِ [في « ديوانهِ » ٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا ... وَتَكْـرَهُـهُ آجَـالُهُـمْ فَتَطُـوْلُ

---

(١) ٱلمهترُ : ٱلمخطئُ في كلامِهِ .
(٢) الجُعَل : دابَّةٌ سوْداءُ مِن دوابِّ الأَرضِ .
(٣) مَرَوا بالسيوف : زينوا .
(٤) عِيصُ الرجُلِ : منبتُ أَصلِهِ ، والمعنى : كلَّما حاوَلَ القتلُ تشتيتَ شملهم . . ٱلتأموا .

وللهِ درُّ أَبي تمَّامٍ في قولِهِ [كما في « ديوانه » ٢/٣٠٧ مِنَ البسيطِ] :

فِيمَ ٱلشَّمَاتَةُ إِعْلاَنَاً بِأُسْدٍ وَغَىٰ   أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

قول ماوية لزيد الخيل عندما أراد خطبتها

ولمّا ٱنتَدَبَ لِخِطبةِ ماويةَ ، حاتمٌ ، وأَوسُ بنُ حارثَةَ بنِ لامٍ ، وزيدُ ٱلخيلِ . . قالَتْ لزيدٍ : أَمَّا أَنتَ يا زيدُ ، فقد وترتَ ٱلعربَ بأَسرِها ، وبقاؤكَ مع ٱلحُرَّةِ قليلٌ(١) ، فيا بردَ ذلكَ ٱلكلامِ على قلبهِ ، وما أَرفعَهُ لرأَسِهِ ، وأَشمخَهُ لأَنفهِ ، وإِنْ كانَ فيهِ ردَّهُ ، وفي ٱلقصَّةِ طولٌ ، ولولا خشيةُ الإملالِ . . كنتُ أَمْلَلْتُهَا بحذافيرِها ؛ فإِنَّها مِنْ طرائِفِ الأَخبارِ ، وهي موجودةٌ في « أَمالي الزجَّاجي » [ص/ ١٠٦ـ١٠٩] .

قصيدة للطرماح يتمنى فيها أن يموت أفضل ميتة

وقالَ ٱلطِّرِمَّاحُ [في « ديوانهِ » ٣٣٣ـ٣٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّـي لَقَيَّـادٌ جَـوَادِيْ فَقَـاذِفٌ   بِهِ وَبِنَفْسِيَ ٱلْيَوْمَ إِحْدَىٰ ٱلْمَتَالِفِ
لأَكْسَبَ مَالاً أَوْ أَؤُوْبَ إِلَىٰ غِنىً   مِنَ ٱللهِ يَكْفِيْنِي ٱمْتِنَانَ ٱلْخَلاَئِفِ
فَيَا رَبِّ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِيْ فَلاَ تَكُنْ   عَلَىٰ شَرْجَعٍ يُكْسَىٰ بِخُضْرِ ٱلْمَطَارِفِ(٢)
وَلَـٰكِـنَّ قَبْـرِيْ بَطْـنُ دَوٍّ مَقِيْلُـهُ   بِجَوِّ سَمَاءٍ فِيْ نُسُوْرٍ عَوَائِفِ(٣)

---

(١) وتمام قولها : وأما أنت يا أوس فرجلٌ ذو ضرائرَ ، والصبر عليهن شديد ، وأمّا أنت يا حاتم فمرضيُّ الخلائق ، محمود الشيَم ، كريم النفس وقد زوجتك نفسي .

(٢) الشَّرْجَعُ : السريرُ يحملُ عليهِ الميْتُ ، وهوَ النعشُ . المطارِفُ ـ جمعُ مُطْرَفٍ ـ : وهو ثوبٌ مربَّعٌ مِن خزٍّ .

(٣) الدوُّ : الفلاة الواسعة . النسورُ العوائفُ : التي تدورُ حول الشيءِ تريدُ الوقوعَ عليهِ .

وأُمسِيْ شَهِيْداً ثَاوِياً فِيْ عِصَابَةٍ يُصَابُوْنَ فِيْ فَجٍّ مِنَ الأَرضِ خَائِفِ[1]
فَوَارِسُ أَشْتَاتٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ هُدَىٰ ٱللهِ نَزَّالُوْنَ عِنْدَ ٱلْمَوَاقِفِ

لم يتحقق حلمه ومات على عكس ما أراد

قالَ ٱبنُ شُبرمَةَ : بينا أنا في بعضِ شوارعِ (ٱلكوفةِ) . . إذا جنازةٌ عليها مُطْرَفُ خزٍّ أَخضرُ ، فسأَلتُ عن صاحبِها ، فقيلَ : ٱلطِرِمَّاحُ ، فعلمتُ أَنَّ ٱللهَ تعالىٰ لَمْ يستجبْ لَهُ .

الشعراء والشجاعة

وقالَتْ أُمُّ معدانَ ٱلأَعرابيَّةُ عَنْ بَنِيْهَا [مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَانَتْ لَهُمْ هِمَمٌ فَرَّقْنَ بَيْنَهُمْ إِذَا ٱلقَعَادِيْدُ عَنْ أَمْثَالِهَا قَعَدُوْا[2]
فِعْلُ ٱلْجَمِيْلِ وَتَفْرِيْجُ ٱلْجَلِيْلِ وَإِسْـ ـدَاءُ ٱلْجَزِيْلِ ٱلَّذِيْ لَمْ يُسْدِهِ أَحَدُ

وقالَ عنترُ [في « ديوانهِ » ١١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَيَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْ حَيَاتِيْ دَنِيَّةً وَلاَ مِيْتَتِيْ يَا رَبِّ بَيْنَ ٱلنَّوَائِحِ
وَلَـٰكِنْ صَرِيْعاً بَيْنَ أَرْمَاحِ فِتْيَةٍ طِوَالِ ٱلْقَنَا مِنْ فَوْقِ أَجْرَدَ سَابِحِ

وقد سبقَ قولُ أَبي تمَّام في غيرِ هـٰذا ٱلمجلسِ (فَتىً مَاتَ بَيْنَ ٱلضَّرْبِ وَٱلطَّعْنِ . . .) إلىٰ آخرِ ٱلأَبياتِ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

قَلُّوْا وَلَـٰكِنَّهُمْ طَابُوْا فَأَنْجَدَهُمْ جَيْشٌ مِنَ ٱلصَّبْرِ لاَ يُحْصَىٰ لَهُ عَدَدُ
إِذَا رَأَوْا لِلْمَنَايَا عَارِضاً لَبِسُوْا مِنَ ٱلْيَقِيْنِ دُرُوْعاً مَا لَهَا زَرَدُ[3]
نَأَوْا عَنِ ٱلْمُصْرِخِ ٱلأَدْنَىٰ فَلَيْسَ لَهُمْ إِلاَّ ٱلسُّيُوْفَ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ مَدَدُ[4]

(١) طريقٌ خائفٌ : أي مخيفٌ يخيفُ الناسَ .
(٢) القَعَاديدُ مِن الرجالِ : الجُبناءُ القاعِدونَ عَن الحرب والمكارمِ .
(٣) العارضُ : ما ٱعترضَ في الأُفُقِ فسدَّهُ . الزَّرَدُ : حَلَقُ المغفرِ والدرعِ .
(٤) المُصْرِخُ : المغيثُ .

وقالَ أَبو عبادةَ [في «ديوانِهِ» ٣/ ١٩٤١ـ١٩٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَبَا غَانِمٍ أَرْدَىٰ بَنِيْكَ ٱعْتِقَادُهُمْ ... بِأَنَّ ٱلرَّدَىٰ فِيْ ٱلْحَرْبِ أَكْبَرُ مَغْنَمِ

مَضَوْا يَسْتَلِذُّوْنَ ٱلْمَنَايَا حَفِيْظَةً ... وَحِفظاً لِذَاكَ ٱلسُّؤْدُدِ ٱلْمُتَقَدِّمِ

وَمَا طَعَنُوْا إِلاَّ بِرُمْحٍ مُوَصَّلٍ ... وَلاَ ضَرَبُوْا إِلاَّ بِسَيْفٍ مُثَلَّمِ

دَعَتْهُمْ أَفَانِيْنُ ٱلرَّدَىٰ فَتَتَابَعُوْا ... تَتَابُعَ مُنْبَتِّ ٱلْفَرِيْدِ ٱلْمُنَظَّمِ(١)

سَلاَمٌ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْخَلاَئِقِ إِنَّهَا ... مُنَزَّهَةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْثَمِ

مَسَاعٍ عِظَامٌ لَيسَ يَبْلَىٰ جَدِيْدُهَا ... وَإِنْ بَلِيَتْ مِنْهَا رَمَائِمُ أَعْظُمِ

أَحَبَّ بَنُوْكَ ٱلْمَكْرُمَاتِ فَفَرَّقَتْ ... جَمَاعَتَهُمْ فِيْ كُلِّ دَهْيَاءَ صَيْلَمِ(٢)

تَدَانَتْ مَنَايَاهُمْ بِهِمْ وَتَبَاعَدَتْ ... مَضَاجِعُهُمْ عَنْ تُرْبِكَ ٱلْمُتَنَسَّمِ

فَكُلٌّ لَهُ قَبْرٌ غَرِيْبٌ بِبَلْدَةٍ ... فَمِنْ مُنْجِدٍ نَائِيْ ٱلضَّرِيْحِ وَمُتْهِمِ(٣)

قُبُوْرٌ بِأَطْرَافِ ٱلْبِلاَدِ كَأَنَّمَا ... مَوَاقِعُهَا مِنْهَا مَوَاقِعُ أَنْجُمِ

وقالَ بعض شعراءِ ٱلحماسةِ [في «شرحِ الحماسةِ» ١٢/ ١١٣ـ١١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَأَغْسِلُ عَنِّيْ ٱلْعَارَ بِٱلسَّيْفِ جَالِباً ... عَلَيَّ قَضَاءُ ٱللهِ مَا كَانَ جَالِبَا

وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِيْ وَأَجْعَلُ هَدْمَهَا ... عِرْضِيَ مِنْ بَاقِيْ ٱلْمَذَلَّةِ حَاجِبَا

وَيَصْغُرُ فِيْ عَيْنِيْ تِلاَدِيْ إِذَا ٱنْثَنَتْ ... يَمِيْنِيْ بِإِدْرَاكِ ٱلَّذِيْ كُنْتُ طَالِبَا(٤)

---

(١) الفريدُ : اللؤلؤُ المنظومُ . المنبتُّ : الذي ٱنقطعَ . والمعنىٰ : أنَّهم يتتابعونَ كما هوَ حالُ العقدِ إذَا ٱنقطعَ ، وهوَ كنايةٌ عَنْ شدَّةِ سرعتِهِم إلىٰ ما رَمَوا إليهِ .

(٢) الدهياءُ : ما يصيبُ الإنسانَ مِن نوائبِ الدهرِ . الصَّيلَمُ : الأمرُ الشديدُ .

(٣) المنجِدُ : الذي قبرهُ بـ(نجدٍ) . مُتْهِمٌ : من قبرهُ بـ(تهامَةَ) .

(٤) التِّلادُ : المالُ القديمُ .

فَإِنْ تَهْدِمُوْا بِٱلْغَدْرِ دَارِيْ فَإِنَّهَا تُرَاثُ كَرِيْمٍ لاَ يُبَالِيْ ٱلْعَوَاقِبَا

أَخِيْ عَزَمَاتٍ لاَ يُطِيْعُ عَلَىٰ ٱلَّذِيْ يَهُمُّ بِهِ مِنْ هَايِلِ ٱلأَمْرِ عَاتِبَا

إِذَا هَمَّ أَلْقَىٰ بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ ٱلْعَوَاقِبِ جَانِبَا

إِذَا هَمَّ لَمْ تُرْدَعْ عَزِيْمَةُ هَمِّهِ وَلَمْ يَأْتِ مَا يَأْتِيْ مِنَ ٱلأَمْرِ هَائِبَا

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِيْ شَأْنِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلاَّ قَائِمَ ٱلسَّيْفِ صَاحِبَا

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ ٱلأندلسيُّ [في « ديوانه » ١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَجِدِ ٱلإِنْسَانَ إِلاَّ ٱبْنَ سَعْيِهِ فَمَنْ كَانَ أَسْعَىٰ كَانَ بِٱلْمَجْدِ أَجْدَرَا

وَبِٱلْهِمَّةِ ٱلْعَلْيَاءِ تَرْقَىٰ إِلَىٰ ٱلْعُلاَ فَمَنْ كَانَ أَعْلَىٰ هِمَّةً كَانَ أَظْهَرَا

وَلَمْ يَتَأَخَّرْ مَنْ أَرَادَ تَقَدُّماً وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مَنْ أَرَادَ تَأَخُّرَا

وقالَ أَبو نصرٍ ٱبنُ نُبَاتةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِٱلسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ ٱلأَسْبَابُ وَٱلْمَوْتُ وَاحِدُ

وقالَ أَبو فراسٍ [في « ديوانه » ٢٩٢ مِنَ الوافرِ] :

مَتَىٰ مَا يَدْنُ مِنْ أَجَلِيْ كِتَابِيْ أَمُتْ بَيْنَ ٱلأَسِنَّةِ وَٱلأَعِنَّهْ

وقالَ الموسويُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَسْتَقْبِحُوْنَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْمَوْتُ رَاحَةٌ وَأَتْعَبُ مَيْتٍ مَنْ يَمُوْتُ بِدَاءِ

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ ٱلعزيزِ [مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّ مَوْتَ ٱلْفِرَاشِ ذُلٌّ وَعَارٌ وَهْوَ تَحْتَ ٱلسُّيُوْفِ فَضْلٌ شَرِيْفُ

الشهداء أحياء

وهنا ذكرتُ قولَهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

أمنية الشهيد

وقولهُ ﷺ : « لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِيْ سَبِيْلِ ٱللهِ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ »(١) .

شجاعة الإمام

وقولَ ٱبنِ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ ٱللهُ وجهَهُ [في « نهج البلاغةِ » ١٤٢]ـ : (وٱللهِ لألفُ ضربةٍ بٱلسَّيفِ أهونُ عليَّ مِنْ ميتةٍ على ٱلفراشِ) .

تقديم النبي ﷺ آل بيته في القتال عند إحجام الشجعان

وقولَهُ ـ رضوانُ ٱللهِ عليهِ ـ [في « نهج البلاغةِ » ٣١٤] : (وكانَ ﷺ إِذا ٱشتدَّ ٱلبأسُ ، وأَحجمَ ٱلنَّاسُ . . قدَّمَ أهلَ بيتهِ ، فوقى بهِمْ أَصحابَهُ حرَّ ٱلأَسنةِ وٱلسُّيوفِ ، فقُتلَ عُبيدةُ [بنُ الحارثِ] يومَ بدرٍ ، وقُتلَ حمزةُ يومَ أُحُدٍ ، وقُتلَ جعفرٌ يومَ مؤتةَ ، وأَرادَ مَنْ لو شئتُ . . ذكرتُ ٱسمَهُ مثلَ ٱلَّذي أَرادوا مِنَ ٱلشَّهادةِ ، غيرَ أَنَّ مناياهُم عُجِّلَتْ ، ومنيَّتَهُ أُجِّلَتْ) .

وٱلمرادُ بٱلنَّاسِ في قولهِ عليهِ ٱلسَّلامُ : (وَأَحْجَمَ ٱلنَّاسُ) هم مراجيحُ ٱلأبطالِ ، ولهاميمُ ٱلرِّجالِ ، فأَهلُ ٱلبيتِ حينئذٍ كما قالَ أبو تمَّامٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً كُلَّمَا ٱرْتَادَ ٱلشُّجَاعُ مِنَ ٱلرَّدَىٰ ... مَفَرّاً غَدَاةَ ٱلْمَأْزِقِ ٱرْتَادَ مَصْرَعَا

وفيهم أَقولُ [كما في « ديوان المؤلف » ٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

مَسَاعِيْرُ لاَ يَقْضُونَ حَتْفَ أُنُوفِهِمْ ... وَلَـٰكِنْ كِرَاماً فِيْ مَجَالِ ٱلْوَغَىٰ جُزْزَا

بكاء زين العابدين

ويُروىٰ : أَنَّ زينَ ٱلعابدينَ ٱلسَّجَّادَ كانَ لا ترقأُ لهُ دمعةٌ(٢) ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : كيفَ ؟! وقد رأيتُ ثمانيةَ عشرَ مِنْ آبائي

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي ٱللهُ عنهُ البخاري (٣٦) في الإيمان ، ومسلم (١٨٧٦) في الإمارة .

(٢) لا ترقأ : لا تهدأ .

وإخواني يُنحرونَ كَما تُنحرُ ٱلإبلُ في غداةٍ واحدةٍ ، وهو هاضمٌ لنفسهِ في مقالتهِ ، وإلاَّ . . فٱلمعروفُ مِنْ حالِهِ في كثرةِ بكائِهِ ٱلخشيةُ مِنَ ٱلباري عزَّ وجلَّ ؛ ولهٰذا كانَ يصفرُّ كلَّما دخلَ في الصَّلاةِ ، ويُغشىٰ عليهِ عندما يشرعُ في التَّلبيةِ ، ومعَ ذلكَ فٱلبكاءُ علىٰ نجومِ ٱلأرضِ داخلٌ في ٱلبكاءِ مِنْ خشيتِهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ مصائبَهُم ثلومُ الإسلامِ [مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ مِثْلِهِمْ فَلْتَلْطُمِ ٱلْعَيْنُ خَدَّهَا بِسَبْعٍ مِنَ ٱلْحُمْرِ ٱلْقَوَانِي عَلَىٰ سَبْعِ

وقد رخَّصَ النَّبيُّ ﷺ فيما كانَ مِنْ دمعِ ٱلعينِ ، وحزنِ ٱلقلبِ[1] ، والسَّجَّادُ لا محالةَ واقفٌ عندَ ما رسمَ لَهُ جَدُّهُ مِنْ ذلكَ ؛ لأنَّهُ مِنَ ٱلقومِ ٱلذينَ يقولُ فيهم ٱبنُ أَوسٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّا دُعُوْا لِلْمَوْتِ لَمْ تَبْكِ مِنْهُمْ عَلَىٰ حَادِثِ ٱلدَّهْرِ ٱلْعُيُوْنُ ٱلدَّوَامِعُ

وقد قالَ ٱلملكُ ٱلضِّلِّيلُ [مِنَ الطَّويلِ] :

ربما يكون البكاء دواء عند الشعراء

وَإِنَّ شِفَـائِـيَ عَبْـرَةٌ لَـوْ سَفَحْتُهَـا وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ ؟

وقالَتِ ٱلخنساءُ [مِنْ مَجزوءِ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْبُكَـــاءَ هُـــوَ ٱلشِّفَـــا ءُ مِـنَ ٱلْجَـوَىٰ بَيْـنَ ٱلْجَـوانِـحْ

---

(1) وذلكَ في الحديثِ الذي رواهُ عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ البخاريُّ (١٣٠٣) في الجنائزِ ، قالَ : دخلْنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ علىٰ أبي سيفٍ القيْنِ ، وكانَ ظئْراً لإبراهيمَ عليهِ السلامُ ، فأخذَ رسولُ اللهِ ﷺ إبراهيمَ فقبَّلَهُ وشمَّهُ ، ثمَّ دخلْنا عليهِ بعدَ ذلكَ ، وإبراهيمُ يجودُ بنفسِه ، فجعلَتْ عينا رسولِ اللهِ ﷺ تذرفانِ ، فقالَ لَهُ عبدُ الرحمٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ : وأنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « يا ابنَ عوفٍ ، إنَّها رحمةٌ » . ثمَّ أتبعَها بأخرىٰ ، فقالَ ﷺ : « إنَّ العينَ تدمعُ ، والقلبَ يحزنُ ، ولاَ نقولُ إلاَّ ما يَرْضَىٰ ربُّنا ، وإنَّا بفراقِكَ ـ يا إبراهيمُ ـ لمحزونونَ » .

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَلَّ ٱنْحِدَارَ ٱلدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً ... مِنَ ٱلْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ ٱلْبَلَابِلِ

وقالَ أَبو عُبادةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْضَحْ جَوَاكَ بِعَبْرَةٍ ... غَلاَ فِي ٱلتَّمَادِي أَوْ قَضَىٰ فِي ٱلتَّسَعُّرِ

وقالَ [مِنَ ٱلوافرِ] :

تَعُوْدُ عَوَائِدُ ٱلدَّمْعِ ٱلْمُرَاقِ ... عَلَىٰ مَا فِي ٱلْقُلُوْبِ مِنِ ٱحْتِرَاقِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٧٦٣ مِنَ ٱلخفيفِ] :

عَلَّ مَاءَ ٱلدُّمُوْعِ يُخْمِدُ نَاراً ... مِنْ جَوَىٰ ٱلْقَلْبِ أَوْ يَبُلُّ غَلِيْلاَ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ أَبْكِ لاَ أَشْفِ ٱلْغَلِيْلَ وَإِنْ أَدَعْ ... أَدَعْ حُرْقَةً فِيْ ٱلصَّدْرِ ذَاتَ تَلَهُّبِ

وبعضُ ما يناسبُ هـٰذا معَ ٱلإحالةِ علىٰ ما هنا ، أَوائلَ ٱلمجلسِ ٱلثَّاني ، ثُمَّ إِنَّها تداخلتْ علينا ٱلشَّواهدُ في ٱلموضوعِ ، وكلَّما خرجنا عن مبحثٍ . . رجعنا إِليهِ بحكمِ تداعي ٱلأَفكارِ ، ولا معابةَ مَعَ ٱتحادِ ٱلجنسِ في ٱضطرابِ ٱلفروعِ ؛ إِذْ كلُّها تدندنُ حولَ ٱلأَنفةِ وٱلإباءِ ، وٱلابتعادِ عَنْ مواقعِ ٱلذلِّ ، ومرامي ٱلهوانِ ، وجُلُّ « ديوانِ ٱلنَّاظمِ » مِنْ هـٰذا ٱلقبيلِ منهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٦١ مِن ٱلمنسرحِ] :

الأنفة والإباء عند المتنبي

يَأْنَفُ مِنْ مِيْتَةِ ٱلْفِرَاشِ وَقَدْ ... حَلَّ بِهِ أَصْدَقُ ٱلْمَوَاعِيْدِ

وَمِثْلُهُ أَنْكَرَ ٱلْمَمَاتَ عَلَىٰ ... غَيْرِ سُرُوْجِ ٱلسَّوَابِحِ ٱلْقُوْدِ[1]

---

(١) السَّوابحُ ـ جمعُ سابحٍ ـ : وهوَ الشديدُ الجري ، كأَنَّهُ يسبحُ في جريهِ . القُوْدُ : الطوالُ مِن الخيلِ ، وفرسٌ أَقودُ ؛ أَي : طويلُ الظهرِ والعنُقِ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٤١ مِنَ ٱلخفيفِ] :

وَلَـوْ أَنَّ ٱلْحَيَـاةَ تَبقَـىٰ لِحَـيٍّ ... لَعَـدَدْنَـا أَضَلَّنَـا ٱلشُّجْعَـانَـا
وَإِذَا لَـمْ يَكُـنْ مِـنَ ٱلْمَـوْتِ بُـدٌّ ... فَمِـنَ ٱلْعَجْـزِ أَنْ تَكُـوْنَ جَبَـانَـا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَنَـالَ حَيَـاةً يَشْتَهِيْهَـا عَـدُوُّهُ ... وَمَوْتاً يُشَهِّي ٱلْمَوْتَ كُلَّ جَبَانِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢١٣ مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَمْ مَخْلَصٍ وَعُلاً فِيْ خَوْضِ مَهْلَكَةٍ ... وَقَتْلَـةٍ قُـرِنَـتْ بِـالـذَّمِّ فِـي ٱلْجُبُـنِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١٩ـ١٢٠ مِنَ ٱلوافرِ] :

فَطَعْمُ ٱلْمَوْتِ فِيْ أَمْرٍ صَغِيْرٍ ... كَطَعْمِ ٱلْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيْمِ
يَـرَىٰ ٱلْجُبَنَـاءُ أَنَّ ٱلْعَجْـزَ عَقْـلٌ ... وَتِلْـكَ خَـدِيْعَـةُ ٱلطَّبْـعِ ٱللَّئِيْـمِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأُورِدُ نَفْسِيْ وَٱلْمُهَنَّدُ فِيْ يَدِيْ ... مَوَارِدَ لاَ يُصْدِرْنَ مَنْ لاَ يُجَالِدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٢١ـ٣٢٢ مِنَ ٱلخفيفِ] :

عِشْ عَزِيْزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيْمٌ ... بَيْنَ طَعْنِ ٱلْقَنَا وَخَفْقِ ٱلْبُنُوْدِ
أُطْلُبِ ٱلْعِزَّ فِي لَظَىً وَدَعِ ٱلذُّلْـ ... ـلَ وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ ٱلْخُلُوْدِ

والأَخيرُ مِنْ قولِ عنترةَ [في « ديوانهِ » ١٩٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

مَـاءُ ٱلْحَيَـاةِ بِـذِلَّـةٍ كَجَهَنَّـمٍ ... وَجَهَنَّـمٌ بِـالْعِـزِّ أَطْيَـبُ مَنْـزِلِ

لا عز في طريق النار ولا ذل في طريق الجنة

وهو مِنْ فاحشِ ٱلغلطِ ، لولا جهلُ ٱلأَوَّلِ ، وجاهليَّةُ ٱلثَّاني ؛ إِذْ لا ذُلَّ في طريقِ ٱلجنَّةِ ، ولا عِزَّ في طريقِ النَّارِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، وما هـٰذا إِلاَّ مِنِ ٱمتحانِ ٱلإِسلامِ بمن

لا يفهمُ أَسرارَهُ ، وإلاَّ فهو دينُ ٱلعزِّ وٱلشَّرفِ ، ودينُ ٱلمجدِ وٱلأَنَفِ ، لقد حَظرَ علىٰ ٱلإنسانِ أَنْ يذلَّ نفسَهُ ، وجعلَهُ حرّاً في سائرِ أَطوارِهِ ، معَ ٱلاعترافِ بٱلعبوديَّةِ لخالقهِ بأَداءِ ٱلفرضِ ، ومعَ ٱلتَّلزُّمِ بقانونهِ ٱلمُفْضِي إلى سعادةِ ٱلدَّارينِ ، وعمارةِ ٱلأَرضِ ، وسيأَتي ما يتعلَّقُ بهِ في محلِّهِ مِنَ ٱلكلامِ علىٰ ٱلبيتِ ٱلمذكورِ .

* * *

[قالَ أَبو ٱلطَّيِّبِ ٱلمتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَثِبْ وَاثِقاً بِـاللهِ وِثْبَـةَ مَـاجِـدٍ يَرَىٰ ٱلْمَوْتَ فِي ٱلْهَيْجَا جَنَىٰ ٱلنَّحْلِ فِي ٱلْفَمِ

تحريض المتنبي على القتال

يقولُ لصاحبِهِ أَو لنفسِهِ علىٰ سبيلِ ٱلتَّجريدِ : قمْ مبادراً للحربِ مبادرةَ كريمٍ شريفٍ ، يجدُ في طعمِ ٱلموتِ حلاوةَ ٱلعسلِ ، وكثيراً ما يدَّعي ٱلنَّاظمُ ذلكَ لنفسِهِ ، ولعسكرِهِ ٱلخيالي ، كما في قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣٧٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِيْ عَلَىٰ كُلِّ سَابِحٍ رِجَالٌ كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ فِيْ فَمِهَا شَهْدُ

شجاعة الإمام عليه السلام

وهـٰذهِ الدَّعوىٰ الضَّخمةِ لا نعرفُ صِدقَها إِلاَّ لعليِّ ٱبنِ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ ٱللهُ وجهَهُ ـ إِذْ قامَ بوردِهِ مِنَ الصَّلاةِ (ليلةَ ٱلهريرِ)[1] ، وٱلسِّهامُ كٱلمطرِ حفافيةٌ[2] ، حَتَّىٰ عذلَهُ في ذلكَ أَحدُ ٱلحَسَنَينِ ، فقالَ لهُ : لا يبالي أَبوكَ وقعَ علىٰ ٱلموتِ ، أَوْ وقعَ ٱلموتُ عليهِ ، فهوَ الَّذي لهُ في قتلِهِ أَرَبٌ ، وهوَ الَّذي يرىٰ قتالَهُ أَفضلَ ٱلقُرَبِ ، وهوَ ٱلأَولىٰ بقولِ ٱلحماسيِّ [حارثةَ بن بدرٍ الغدانيِّ في « شرحِ ٱلحماسةِ » ١/ ٤٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّا لَتَسْتَحْلِيْ ٱلْمَنَايَا نُفُوْسُنَا وَنَتْرُكُ أُخْرَىٰ مُرَّةً مَا نَذُوْقُهَا

---

(١) ليلةُ الهريرِ : أَسمُ واقعةٍ حدثت بين سيدنا علي ومعاوية بظاهر (الكوفة) وسميت بالهرير ؛ لأنهم لما عجزوا عن القتال صار بعضهم يهرُّ على بعض .

(٢) حفافيةٌ : محيطةٌ مِن كلِّ جانبٍ .

وقولِ الآخرِ [مِنَ الوافرِ] :

رَخِيْصٌ عِنْدَهُ مُهَجُ الْعَوَالِيْ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيْ فَكَّيْهِ شَهْدُ

وقولِ المزينيِّ [من الوافر] :

دَعَوْتُ بَنِيْ قُحَافَةَ فَاسْتَجَابُوْا فَقُلْتُ : رِدُوْا فَقَدْ طَابَ الْوُرُوْدُ

وقولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٩ مِنَ البسيطِ] :

يَسْتَعْذِبُوْنَ مَنَايَاهُمْ كَأَنَّهُمُ لاَ يَخْرُجُوْنَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوْا

تمييزه بين العسل الطائفي وغيره في أحلك الظروف

بلْ هوَ أَكبرُ مِن ذلكَ وأَجلُّ ، ولقدِ استسقىٰ ليلتَئِذٍ ، فأَتاهُ بعضُ الهاشميِّينَ بماءٍ فيهِ عَسَلٌ ، فقالَ لهُ : عسلُكَ هٰذا طائفيٌّ ، فقالَ : يا عمُّ ، في مثلِ هٰذا الموقفِ الَّذي شخصَتْ فيهِ الأَبصارُ ، وذُهلَتِ العقولُ ، وطاشَتِ الأحلامُ ، وبلغَتِ القلوبُ الحناجرَ ، تُفَرِّقُ بينَ العسلِ الطائفيِّ ممزوجاً ، وبينَ غيرِهِ ؟! فقالَ لهُ : يا ابنَ أَخي ، لَمْ يملأْ صدرَ عمِّكَ هَوْلٌ قطُّ ، فمَا كانَ أَحقَّهُ بقولِ الأَعرابيِّ [مِنَ البسيطِ] :

لاَ يَمْلأُ الْهَوْلُ صَدْرِيْ قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلاَ أَضِيْقُ بِهِ ذَرْعاً إِذَا وَقَعَا

وقولِ مهيارٍ [مِنَ الكاملِ] :

جَبَلُ الْعُلاَ سَعْيُ الْهُمُوْمِ فُؤَادُهُ وَتُنَاطُ مِنْهُ بِقَارِحٍ مُتَعَوِّدِ

معرفة أبي العلاء ماء وطنه وقد مزج بماء الفرات وهو بالعراق

ونظيرُهَا ما حُكِيَ : أَنَّ أَبا العلاءِ لمَّا وَرَدَ (العراقَ) . . تشوَّقَ إِلىٰ وطنهِ ، فقالَ مِنْ أَثناءِ قصيدةٍ [كما في « ديوانهِ » ٢٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَيَا بَرْقُ لَيْسَ الْكَرْخُ دَارِيْ وَإِنَّمَا رَمَانِيْ إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيَالِيْ

فَهَلْ فِيْكَ مِنْ مَاءِ الْمَعَرَّةِ قَطْرَةٌ تَبُلُّ بِهَا ظَمْآنَ لَيْسَ بِسَالِيْ

فيقالُ : إِنَّ الأَميرَ استدعىٰ ماءً علىٰ خيلِ البريدِ مِنْ مَعَرَّةِ

النُّعمانِ ، وقدَّمهُ لهُ ممزوجاً بماءِ ٱلفراتِ ، فقالَ : هـٰذا ماؤُهَا ، فأَينَ هواؤُها ؟ ولـٰكنْ هيهاتَ هيهاتَ! فهـٰذا يقولُهَا فِي رخاءِ ٱلبالِ ، وسَعَـةِ ٱلحـالِ ، وٱلإمـامُ يقـولُهَـا ، وقـدْ تقلَّصَـتِ ٱلخُصـىٰ[1] ، وتقاصرَتِ ٱلخُطَىٰ ، وشتَّانَ ما بينَ ٱلمقامينِ ، وبصدقٍ يقولُ : واللهِ لابْنُ أَبي طالبٍ آنسُ بٱلموتِ مِنَ الطِّفلِ بثديِ أُمِّهِ .

الإمام آنس بالموت من الطفـل بثـدي أمـه وتفصيل هذا الكلام

وهـٰذا أَبلغُ ممَّا يشبِّهُ ٱلناظمُ وغيرُهُ ٱلموتَ بٱلعسلِ ، وأَصدقُ من وجوهٍ :

أَحدُهَا : مطابقتُهُ للواقعِ وتظاهرُ ٱلبيِّناتِ بهِ .

ثانيها : أَنَّ اللَّبنَ أَفضلُ مِنَ ٱلعسلِ ، كما صرَّحَ بهِ فقهاؤُنا ، ولهـٰذا كانَ ﷺ يحمدُ ٱللهَ كلَّما تناولَ شيئاً ، ويسأَلُهُ خيراً منهُ إلاَّ اللَّبنَ ، فإِنَّهُ يحمدُ ٱللهَ عليهِ ، ويستزيدُهُ منهُ[2] .

ثالثُها : أَنَّ ٱلتذاذَ ٱلطِّفلِ بٱللَّبنِ أَكثرُ مِنْ غيرِهِ ، بل لا لذَّةَ لهُ سواهُ ، ولا صلاحَ لهُ بغيرِهِ .

رابعُها : أَنَّ ثديَ ٱلأُمِّ آنسُ لطفلِها مِنْ سائرِ ٱلثُّدَىٰ وٱلأَلبانِ .

خامسُها : ٱلإشارةُ إِلىٰ ما جاءَ في « ٱلصحيح » : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ ٱللهِ . أَحَبَّ ٱللهُ لقاءَهُ »[3] ؛ ولذا قالَ آخرَهُ سيِّدُ ٱلمرسلينَ :

---

(١) تقلصَّت الخُصىٰ : تشمَّرت إلى أعلىٰ من شدَّةِ الهول والفزعِ .

(٢) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أبي داوود (٣٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٥٥) وحسنه وقال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أكل أحدكم طعاماً . . فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاه الله تعالى لبناً . . فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، فإنه ليس شيء يجزىء من الطعام والشراب غير اللبن » .

(٣) أخرجه عن عبادة رضي الله عنه البخاري (٦٥٠٧) في الرقاق ، وفيه قول =

« ٱلرَّفِيْقَ ٱلأَعْلَىٰ »[1] ، ففي ٱلكلامِ مِنَ ٱلبدائعِ ما لا تتَّسِعُ لها ٱلمداركُ ، ولا تستقرُّ لها ٱلعقولُ .

ولا غرابةَ في صدورِها عن بابِ مدينةِ علمِ[2] مَنْ لا ينطقُ عَنِ ٱلهوىٰ .

هـٰذا وٱللهِ ٱلكلامُ ٱلذي تزلُّ ٱلعُصْمُ عَنْ صفاتِهِ ، وتختلجُ ٱلفصحاءُ عَنْ مرَقاتِهِ ، فلو أَنَّ قلباً تقطَّعَ ، أَو حجراً تصدَّعَ لعذوبةِ هـٰذا ٱلكلامِ وحلاوتهِ وجزالتهِ وطلاوتهِ . . لكانَ محقوقاً بذلكَ ، فيا سبحانَ ٱلمانحِ ! .

استعذاب الموت في طلب العز عند الشعراء

وممّا يتّصلُ بما ٱلكلامُ فيهِ مِنِ ٱستعذابِ ٱلموتِ في طلبِ ٱلعزِّ . . قولُ عليِّ بنِ محمدٍ الصُّليحيِّ ٱلقائمِ بـ(اليمنِ) [مِنَ ٱلكاملِ] :

وَأَلَــذُّ مِــنْ قَــرْعِ ٱلْمَثَـانِـيْ عِنْـدَهُ ... فِيْ ٱلْحَرْبِ أَلْجِمْ يَا غُلَامُ وَأَسْرِجِ

= عائشة ، ومسلم (٢٦٨٣) في الذكر والدعاء . وفي الباب :

عن عائشة عند مسلم (٢٦٨٤) ، والترمذي (١٠٦٧) ، والنسائي (٤/ ١٠) وابن ماجه (٤٢٦٤) .

وكذا عن أبي موسى وأبي هريرة في صحيحيهما .

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٦٥٠٩) في الرقاق و(٣٦٦٩) ، ومسلم (٢٤٤٤) في فضائل الصحابة .

(٢) كما جاء في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٣٧٢٥) قال : « أنا دار الحكمة وعلي بابها » لكن قال الترمذي : حديث غريب منكر ، روى بعضهم هذا الحديث عن شريك ولم يذكروا فيه عن الصنابحي ، ولا نعرف هذا الحديث عن أحد من الثقات غير شريك . وفي الباب : عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في « نفع القوت » : « أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأته من بابهِ » قال في « الاستيعاب » ت (١٨٥٥) : روي ، وصححه الحاكم وهو عند الطبراني .

خَيْلٌ بِأَقْصَىٰ حَضْرَمَوْتَ مَغَارُهَا ... وَصَهِيْلُهَا بَيْنَ الْفُرَاتِ وَمَنْبِجِ

وقولُ العلويِّ صاحبِ الزّنجِ [مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا تُنَازِعُنِيْ أَقُوْلُ لَهَا قِرِيْ ... مَوْتُ الْمُلُوْكِ عَلَىٰ صُعُوْدِ الْمِنْبَرِ
مَا قَدْ قُضِيْ سَيَكُوْنُ فَاصْطَبِرِيْ لَهُ ... وَلَكِ الأَمَانُ مِنَ الَّذِيْ لَمْ يُقْدَرِ

شدة ثبات جاش عبد الله بن الزبير

وسُئِلَ ابنُ أَبي مُليكةَ عن عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ ، فقالَ : ما رأيتُ أثبتَ مِنْ نفسِهِ ؛ مرَّ حجرُ المنجنيقِ بينَ جنبِهِ وصدرِهِ ، وهو قائمٌ يصلِّي ، فما اضطربَ لَهُ ، ولا خشعَ بصرُهُ ، ولا قطعَ قراءتَهُ ، ولا ركعَ دونَ الرُّكوعِ ، فكأنَّما عناهُ أبو تمَّامٍ بقولِهِ [في « ديوانه » ٢/ ١٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

يَرَىٰ الْعَلْقَمَ الْمَأْدُوْمَ بِالْعِزِّ أَرْيَةً ... يَمَانِيَّةً وَالأَرْيَ بِالذُّلِّ عَلْقَمَا[1]

تشبيه الموت بالعسل اليماني

وفي هٰذا البيتِ مضربُ المثلِ بالعسلِ اليمانيِّ ، ولاَ شكَّ أَنَّ أفضلَهُ عسلُ (حضرموتَ) ، فلهُ أكبرُ شرفِ البيتِ ، وهو شبيهٌ بما سبقَ عن بعضِ الخوارجِ قبيلَ قولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَخُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِيْ الْخُضْرَةِ الَّتِيْ ... تُرِيْكَ احْمِرَارَ الْمَوْتِ فِيْ مَدْرَجِ النَّمْلِ

الأحق بهذه الأشعار هو ابن الزبير

ولابنُ الزُّبيرِ أحقُّ مِنِ ابنِ أبي عُيينةَ بقولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي مِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوْسَهُمْ ... بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالدَّمَا

وقولِ أبي تمَّامٍ أيضاً [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٣٣ مِنَ البسيطِ] :

وَحَنَّ لِلْمَوْتِ حَتَّىٰ ظَنَّ مُبْصِرُهُ ... بِأَنَّهُ حَنَّ مُشْتَاقاً إِلَىٰ وَطَنِ
لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَماً ... لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

---

(١) الأَرْيُ : العَسَلُ .

وقولِهِ [في « ديوانه » ٢/١٦٩ مِنَ الكامل] :

لِحِيَـاضِهَـا مُتَـوَرِّدٌ وَلِخَبْطِهَـا مُتَعَـوِّدٌ وَبِـدَرِّهَـا مَلْبُـوْنُ

الجمال لا ينافي الشجاعة

ولله درُّ ٱلقائلِ [مِنَ الكامل] :

عُقْبَانُ رَوْعٍ وَٱلسُّرُوْجُ وُكُوْرُهَا وَلُيُوْثُ حَرْبٍ وَٱلْقَنَا آجَامُ[1]

وَبُدُوْرُ تِمٍّ ، وَٱلشَّوَائِكُ فِيْ ٱلوَغَىٰ هَـالاَتُهَـا وَٱلسَّـابِـرِيُّ غَمَـامُ[2]

جَادُوْا بِمَمْنُوْعِ ٱلتِّلاَدِ وَجَوَّدُوْا ضَرْباً تُحَذُّ بِهِ ٱلطُّلاَ وَٱلْهَامُ[3]

وَتَجَاوَرَتْ أَسْيَافُهُمْ وَجِيَادُهُمْ فَٱلأَرْضُ تُمْطَرُ وَٱلسَّمَاءُ تُغَامُ

يستمهل السجان كي يتم لعبة الشطرنج

ومازالتِ ٱلعربُ تسيرُ إِلىٰ ٱلموتِ بٱلخطىٰ ٱلواسعةِ ، وتتلقَّاهُ بالصُّدورِ ٱلرَّحبةِ ، أَوَ ما رأَيتَ هُدبةَ بنَ ٱلخشرمِ لَمْ ينزعجْ لمّا دُعِيَ للقتلِ ! ؟ ولٰكنّهُ ٱستمهلَ السَّجّانَ ريثَما يُتمُّ لعبتَهُ بالشَّطرنجِ ، فهوَ وٱللهِ صادقٌ إِنْ أَرادَ نفسَهُ في قولِهِ [في « شعره » ١٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخُوْ ٱلْحَرْبِ مَنْ لا يَجْتَوِيْهَا إِذَا ٱجْتَوَتْ وَلاَ يُظْهِرُ ٱلشَّكْوَىٰ وَإِنْ كَانَ مُوْجَعَا

وسنستوفي حديثَهُ في مجلسٍ آخرَ .

شجاعة أبي نعامة

وصدقَ أَيضاً أَخو الشُّراةِ أَبو نعامةَ في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ قَرَّبَ ٱلْمَوْتَ ٱلْقِرَاعُ لَقَدْ أَنَىٰ لِمَوْتِيَ أَنْ يَدْنُوْ لِطُوْلِ قِرَاعِيَا

أُغَـادِيْ قِتَـالَ ٱلْمُعْلَمِيْـنَ كَـأَنَّنِـيْ عَلَىٰ ٱلعُسَلِ ٱلْمَاذِيِّ أُصْبِحُ غَادِيَا[4]

---

(١) الآجامُ : الشجرُ الكثيرُ الملتفُ ، وهو كنايةٌ عن كثرةِ الرماحِ .

(٢) السابري : الدرع .

(٣) الطُّلا : الأعناق .

(٤) الماذي : الأبيض الرقيق .

وأَمرَ مصعبُ بنُ الزُّبيرِ رجلاً مِن بني أَسدٍ بقتلِ مُرَّةَ بنِ مَحْكانَ ، فتقدَّمَ بجأْشٍ رابطٍ ، وأَنشأَ يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

شجاعة ابن محكان

بَنِـيْ أَسَـدٍ إِنْ تَقْتُلُـوْنِـيْ تُحَـارِبُـوْا ... تَمِيْماً إِذَا ٱلْحَرْبُ ٱلْعَوَانُ ٱشْمَعَلَّتِ[1]

وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيْبَةً ... بِبَاكٍ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

ولو رَوَّىٰ في هٰذا الشِّعرِ صاحبُ دَعَةٍ . . لَمَا نَقَّحَهُ هٰذا التَّنقيحَ وأَبدعَهُ .

ولمّا أُسِرَ عبدُ بنُ يغوثَ ، وشدُّوا لسانَهُ مخافةَ ٱلهجاءِ . . ٱلتمسَ منهُم أَنْ يُطلِقوهُ ؛ لينوحَ علىٰ نفسِهِ ، وعاهدَهُم أَنْ لا يهجوَهُم ، فأَطلقوا لسانَهُ[2] ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

عبد بن يغوث ينوح على نفسه قبل قتله بقصيدة شعرية رائعة

أَلاَ لاَ تَلُوْمَانِيْ كَفَىٰ ٱللَّوْمَ مَا بِيَا ... فَمَا لَكُمَا فِيْ ٱللَّوْمِ خَيْرٌ وَلاَ لِيَا

أَيَا رَاكِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا

جَزَىٰ ٱللهُ قَوْمِيْ بِٱلْكُلاَبِ مَلاَمَةً ... صَرِيْحَهُمُ وَٱلآخَرِيْنَ ٱلْمَوَالِيَا

أَبَا كُـرَبٍ وَٱلأَيْهَمِيْـنِ كِـلاَهُمَـا ... وَقَيْساً بِأَعلَىٰ حَضْرَمَوْتَ ٱلْيَمَانِيَا

أَقُوْلُ وَقَدْ شَدُّوْا لِسَانِيْ بِنِسْعَةٍ ... أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوْا مِنْ لِسَانِيَا[3]

فَإِنْ تَقْتُلُوْنِيْ تَقْتُلُوْنِيْ بِخَيْرِكُمْ ... وَإِنْ تُطْلِقُوْنِيْ تَحْرُبُوْنِي بِمَالِيَا[4]

وَتَضْحَكُ مِنِّيْ شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ ... كَأَنْ لَمْ تَرَىٰ قَبْلِيْ أَسِيْرَاً يَمَانِيَا[5]

---

(١) العوانُ اشمعلَّتِ : الحرب اتسعت وتكررت معاركها .

(٢) انظر الأبيات والقصة في « الأغاني » (١٦/ ٣٦١-٣٦٢) .

(٣) النِّسعُ : حبلٌ مضفورٌ يُجعلُ زماماً للبعيرِ وغيرِهِ .

(٤) تحرُبوني : تسلِبوني جميعَ ما أَملكُ .

(٥) عبشميَّةٌ : أي من بني عبد شمس .

وَقَدْ عَلِمَتْ عِرْسِيْ مُلَيْكَةُ أَنَّنِيْ أَنَا ٱللَّيْثُ مَعْدُوّاً عَلَيْهِ وَعَادِيَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا ٱلْخَيْلُ سَمَّمَهَا ٱلْقَنَا لَبِيْقاً بِتَعْرِيْفِ ٱلْقَنَاةِ بَنَانِيَا
وَعَادِيَةٍ سَوْمَ ٱلْجِرَامِ وَزَعْتُهَا بِكَفِّيْ وَقَدْ أَنْحَوْا إِلَيَّ ٱلْعَوَالِيَا[١]
كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ : كُرِّيْ مَرَّةً عَنْ رِجَالِيَا
وَلَمْ أَسْبَأِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لأَيْسَارِ صِدْقٍ: أَعْظِمُوْا ضَوْءَ نَارِيَا[٢]

وعرضَ عليهِم ألفَ ناقةٍ في فدائِهِ ، فلمْ يقبلُوا ، وإنَّها لعِزَّةٌ باهرةٌ وشهامةٌ ظاهرةٌ .

شجاعة طرفة بن العبد

أَمَّا طرفةُ بنُ ٱلعبدِ . . فلم يَتَجَلَّجْ[٣] عندَ ٱلقتلِ ، غيرَ أَنَّهُ خضعَ في بعضِ ٱلقولِ ؛ إذْ أنشدَ حينئذٍ [في « ديوانه » ١٧٢-١٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُوْراً صَحِيْفَتِيْ وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِيْ ٱلطَّوْعِ مَالِيْ وَلاَ عِرْضِيْ
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ بَعْضُ ٱلشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

عبيد بن الأبرص يخاف الموت

وَأَمَّا عُبيدُ بنُ ٱلأبرصِ . . فتلعثَمَتْ لسانُهُ خوفَ ٱلقتلِ ، ولمَّا قالَ لهُ النُّعمانُ يومَ بُؤسِهِ: أَنشدني . . قالَ: حالَ ٱلجَريضُ دونَ ٱلقريضِ[٤] .

---

(١) العاديَةُ : الخيلُ تَعدو . السَّومُ : سرعةُ المَرِّ مع قصدِ الصوبِ ، وسَوْمُ الرياحِ : مُرُّها . الجِرْمُ : ألواحُ الجسدِ وجثمانُهُ . وَزَعتُها : فرَّقتُها .

(٢) سَبأَ الخمر : إذا حملَها مِن بلدٍ إلىٰ بلدٍ وآشتراها ليشربَها . الزِّقُّ : هوَ وعاءٌ من جلد تنقلُ فيهِ الخمرُ .

(٣) الجلجُ : القلقُ والاضطرابُ .

(٤) الجريض : الغصةُ بالريقِ مِنْ هَمٍّ أو نحوِهِ . القريضُ : الشِّعرُ ، وهُو مثلٌ عربيٌّ ، أصلُهُ : أنَّ رجلاً كانَ لهُ ابنٌ نبغَ في الشِّعرِ ، فنهاهُ أبوهُ عنْ ذلكَ ، فَجَاشَ بهِ صدرُهُ ومَرِضَ حتى أشرفَ علىٰ الهلاكِ ، فأذِنَ لهُ أبوهُ في قولِ الشِّعرِ فقالَ هذَا القولَ .

تميم بن جميل يتكلم خطبة حال قتله يعجز عنها من هو في الدَّعة

ومِنْ خيرِ مَا في ٱلموضوعِ : حديثُ تميمِ بنِ جميلٍ[1] ، فقد جاشَ خاطِرُهُ حينَ قدَّمهُ ٱلمعتصمُ للقتلِ بأَبياتٍ ، لو رَوَّىٰ شاعرٌ في مثلِها حولاً .. لَما بلغَ أَصغرَ آنيتِهِ ، وهٰذا ما بٱلذهن منها [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) كانَ تميمُ بنُ جميلٍ السدوسيُّ قد خرجَ بشاطىءِ الفراتِ وٱجتمعَ إليهِ الكثيرُ مِنَ الأعرابِ فَعَظُمَ أَمرُهُ ، وبَعُدَ ذِكرُهُ ، فكتبَ ٱلمعتصمُ إلىٰ مالكِ بنِ طوقٍ في النهوضِ إليهِ ، فبدَّدَ جمعَهُ وظَفِرَ بهِ ، فحمله موثقاً إلى المعتصم ، قال أحمدُ ٱبنُ أبي داوود : ما رأينا رجلاً عاين الموت فما هالهُ ، ولا أَذْهَلَهُ عمَّا كان يجبُ عليهِ أَن يفعلَهُ إلاَّ تميمُ بنُ جميلٍ ، فإنَّهُ أَوفىٰ بهِ الرسولُ بابَ أَميرِ المؤمنينَ المعتصمِ في يومِ الموكبِ حينَ يجلسُ للعامَّةِ ، ودخلَ عليهِ ، فلمَّا مَثُلَ بينَ يديهِ .. دَعا بالنطعِ والسيفِ فأُحضِرا ، فجعلَ تميمُ بنُ جميلٍ ينظرُ إليهما ولا يقولُ شيئاً ، وجعلَ المعتصمُ يُصعِّدُ النظرَ فيهِ ، ويصوِّبُهُ ، وكانَ جسيماً وسيماً ، ورأىٰ أَن يستنطقَهُ لينظرَ أَينَ جنانَهُ ولسانَهُ مِن منظرهِ ، فقالَ : يا تميمُ ، إنْ كانَ لكَ عذرٌ .. فأْتِ بهِ ، أَو حجَّةٌ .. فأَدْلِ بها ، فقالَ : أَمَّا إذ قد أَذِنَ لي أَميرُ المؤمنينَ : فإنِّي أقولُ : الحمدُ للهِ الذي أَحسنَ كلَّ شيءٍ خلَقَهُ ، وبدأَ خلقَ الإنسانِ مِن طينٍ ، ثمَّ جعلَ نسلَهُ مِن سلالةٍ مِن ماءٍ مهينٍ ، جبرَ بكَ صدعَ الأُمَّةِ ، ولَمَّ بكَ شَعَثَ المسلمينَ ، وأَوضحَ بكَ سُبُلَ الحقِّ ، وأَخمدَ بكَ شهابَ الباطلِ ، يا أَميرَ المؤمنينَ ، إنَّ الذنوبَ تُخرِسُ الأَلسنةَ الفصيحةَ ، وتُعْيِي ٱلأفئدةَ الصحيحةَ ، ولقد عظمتِ الجريرةُ ، وٱنقطعتِ الحجَّةُ ، وكَبُرَ الذنبُ ، وساءَ الظنُّ ، ولم يبقَ إلاَّ عفوُكَ أَوِ ٱنتقامُكَ ، وأَرجو أَن يكونَ أَقربُهما منِّي وأَسرعُهما إليَّ أَولاَهُمَا بامتنانكَ ، وأَشبَهَهُما بخلافتِكَ ثمَّ أَنشأَ يقولُ :

(أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ) .... الأبيات .

فتبسَّمَ المعتصمُ ، وقالَ : كادَ واللهِ ـ يا تميمُ ـ أَن يسبقَ السيفُ العذلَ ، ٱذهب فقد غفرتُ لكَ الصبوةَ ، ووهبتُكَ للصِّبْيَةِ ، ثمَّ أمرَ بفكِّ قيودِهِ ، وخلَعَ عليهِ ، وعقدَ لهُ بشاطىءِ (الفراتِ) . « جمهرة خطب العرب » (٣/ ١٤٥) .

أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ بَيْنَ ٱلسَّيْفِ وَٱلنِّطْعِ كَامِناً ... يُلاَحِظُنِي مِنْ حَيْثُ مَا أَتَلَفَّتُ[1]

وَأَيُّ ٱمْرِىءٍ يُدْلِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ ... وَسَيْفُ ٱلْمَنَايَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُصْلَتُ

يَعِزُّ عَلَىٰ ٱلأَوْسِ بْنِ تَغْلِبَ مَوْقِفٌ ... يُسَلُّ عَلَيَّ ٱلسَّيْفُ فِيهِ فَأَسْكُتُ

وَمَا جَزَعِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنَّنِي ... لأَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ مُوَقَّتُ

وَلَـٰكِنَّ خَلْفِي صِبْيَةً قَدْ تَرَكْتُهُمْ ... وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ

فَإِنْ عِشْتُ عَاشُوْا خَافِضِيْنَ بِغِبْطَةٍ ... أَذُوْدُ ٱلرَّدَىٰ عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مُوِّتُوْا[2]

وَكَمْ قَائِلٍ : لاَ يُبْعِدُ ٱللهُ دَارَهُ ... وَآخَرَ جَذْلاَنٌ يُسَرُّ وَيَشْمَتُ

علي بن الجهم يصلب وهو حي عرياناً

وقالَ عليُّ بنُ ٱلجهمِ ، وقد صلبوهُ وهوَ حيٌّ عُرياناً [في « ديوانهِ » ١٧١-١٧٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَمْ يَنْصِبُوْا بِٱلشَّاذِيَاخِ عَشِيَّةَ ٱلْـ ... إِثْنَيْنِ مَغْلُوْلاً وَلاَ مَجْهُوْلاَ[3]

نَصَبُوْا بِحَمْدِ ٱللهِ مِلْءَ عُيُوْنِهِمْ ... حُسْناً وَمِلْءَ صُدُوْرِهِمْ تَبْجِيلاَ

مَا ضَرَّهُ أَنْ بُزَّ عَنْهُ لِبَاسُهُ ... فَٱلسَّيْفُ أَهْوَلُ مَا يُرَىٰ مَسْلُوْلاَ

نجدة القرآن وشهامته

ومِنْ مفاخرِ ٱلعربِ إجابةُ ٱلصَّوتِ ، وإغاثةُ ٱلصَّريخِ ، وٱلاستهانةُ بٱلموتِ في سبيلِ ذلك ، حتَّىٰ لقد قامَ أحدُ عظماءِ ٱلأدبِ ٱلمصريِّينَ بمنىٰ عامَ حَجَجْنا ، فقالَ :

إنَّني تأمَّلتُ القرآنَ . . فوجدْتُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات : ٩] ، ما يشبهُ قانونَ جمعيَّةِ ٱلأُمَمِ ،

---

(١) النِّطْعُ : بساط من الجلدِ يقتل عليه المحكوم بالقتل .

(٢) خافضين : من الخفض ، وهو الدَّعَةُ .

(٣) الشَّاذياخُ : ضاحيةٌ مِن ضواحي (نيسابورَ) .

فلمَّا انتهى إليَّ القولُ . . تعرَّضْتُ لمقالِهِ ، مِنْ إعجابي بموضوعِهِ ، وقلْتُ : أَمَّا نجدةُ ٱلقرآنِ وشهامتهُ ، وتمكينُهُ للسلام بٱلعدلِ ، وٱلانتصافِ مِنْ وراءِ كلِّ قياسٍ . . لا يوزنُ بهِ ٱليومَ شيءٌ مِنْ أَحوالِ ٱلناسِ ، لكنْ بينَ أَيدينا مثالٌ مِنْ أعمالِ أهلِ ٱلجاهليَّةِ الجهلاءِ ، يزيدُ علىٰ ما في قانونِ تلكَ ٱلجمعيَّةِ ، مِنْ وجوهِ ذلكَ ، ٱلمثالُ هو حلفُ الفضولِ ، الذي يقولُ عنه ﷺ : « لَقَدْ شَهِدْتُ حِلْفاً في دَارِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ جَدعَانَ ، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيْ بِهِ حُمْرَ ٱلنَّعَمِ ، وَلَوْ دُعِيْتُ بِهِ فِيْ ٱلإِسْلامِ . . لأَجَبْتُ »(١) .

وجوه فضل حلف الفضول

وأَمَّا وجوهُ فضلِهِ :

فمنها : أَنَّ قانونَ تلكَ ٱلجمعيَّةِ لا يتعهَّدُ بنصرِ مَنْ لم ينضمَّ إليها ، وإنَّما هو مقصورٌ علىٰ أَهلِها فقط ـ فيما إخالُ ـ بخلافِ حلفِ ٱلفضولِ ، فقدِ ٱقتطعَ علىٰ نفسِهِ نصرةَ ٱلمظلومِ ، أَيّاً كانَ ، مِنْ غيرِ شرطٍ ولا قيدٍ .

السرعة في إجابة المنادي دون أي سؤال

ومنها : أَنَّ نصرَ جمعيَّةِ ٱلأُممِ ضمارٌ(٢) ووعدٌ ، ونصرَ هٰذا خلاصٌ ونقدٌ ، وما بينَ ٱلمظلومِ وبينَهُ إلاَّ أَنْ ينادِيَ يا آلَ حِلفِ ٱلفضولِ ، فتتبادرهُ ٱلسيوفُ ، ثُمَّ لا تنحجزُ عنهُ حتَّىٰ تستخرجَ لَهُ حقَّهُ ممَّنْ كانَ ، وللهِ درُّ بَشامةَ بنِ حَزَنٍ إِذْ يقولُ [في « الكاملِ » ١/١٤٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

إِنَّـا لَمِـنْ مَعْشَـرٍ أَفْنَـىٰ أَوَائِلَهُـمْ   قِيْلُ ٱلْكُمَاةِ أَلاَ أَيْنَ ٱلْمُحَامُوْنَا

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٦/٣٦٧) عن طلحة بن عبيد الله ، ومحمد بن إسحاق الفاكهي في « أخبار مكة » (٥/١٩١) بنحوه .

(٢) الضِّمارُ : ما لا يُرجى من الدَّينِ والوعدِ ، وكلُّ ما لا تكونُ منهُ علىٰ ثقةٍ .

لَوْ كَانَ فِيْ ٱلأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ وَدَعَوْا: مَنْ فَارِسٌ ؟ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا
وَلاَ تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ مَعَ ٱلْبُكَاةِ عَلَىٰ مَنْ مَاتَ يَبْكُونَا

وقالَ طرفَةُ [في « ديوانهِ » ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْقَوْمُ قَالُوْا: مَنْ فَتىً؟ خِلْتُ أَنَّنِيْ عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

وقالَ بعضُ ٱلعربِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا دُعُوْا لَمْ يَسْأَلُوْا مَنْ دَعَاهُمُ لأَيَّةِ حَرْبٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانِ

وقالَ سلاَّمةُ بنُ جندَلٍ [في « ديوانهِ » ١٢٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

إِنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كَانَ ٱلصُّرَاخُ لَهُ قَرْعَ ٱلظَّنَابِيبِ(١)

وقالَ ٱلحُطيئَةُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا دُعُوْا لَمْ يَسْأَلُوْا مَنْ دَعَاهُمُ وَلَمْ يُمْسِكُوْا فَوْقَ ٱلْقُلُوْبِ ٱلْخَوَافِقِ
أَحَلُّوْا حِيَاضَ ٱلْمَوْتِ فَوْقَ جِبَاهِهِمْ مَكَانَ ٱلنَّوَاصِيْ مِنْ وُجُوْهِ ٱلسَّوَابِقِ

وقالَ ٱلكلحبةُ [في « المفضَّليّاتِ » ١/ ١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقُلْتُ لِكَأْسٍ : أَلْجِمِيْهَا فَإِنَّما نَزَلْنَا ٱلْكَثِيْبَ مِنْ زَرُوْدَ لِنَفْزَعَا(٢)

وقالَ الرَّاعي [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا فَزِعْنَا أَو دُعِيْنَا لِنَجْدَةٍ لَبِسْنَا عَلَيْهِنَّ ٱلْحَدِيْدَ ٱلْمُسَرَّدَا(٣)

---

(١) الظُّنبوبُ : حرفُ الساقِ اليابسِ ، وعَنىٰ بذلكَ سرعةَ الإجابةِ ، وجعلَ قرعَ السوطِ علىٰ ساقِ الخفِّ ، في زجرِ الفرسِ ، قرعاً للظُّنْبُوبِ .
(٢) كأسٍ : اسمُ أبنتِهِ . زَرُوْدَ : أسمُ مكانٍ . الكثيبُ : الرمل المجتمعُ . نَفزَعُ : نغيثُ .
(٣) السّرْدُ : أسمٌ جامعٌ للدروعِ وغيرِها مِن سائرِ الحِلَقِ .

وقال قُرَيْطٌ [في « شرحِ الحماسةِ » ١٢/٣٥٨ مِنَ البسيطِ] :

لاَ يَسْأَلُوْنَ أَخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ ... فِيْ النَّائِبَاتِ عَلَىٰ مَا قَالَ بُرْهَانَا

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَىٰ نَاجِذَيْهِ لَهُمْ ... طَارُوْا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

وقالَ الحماسيُّ [سعد بن مالك بن ثعلبة في « شرحِ الحماسةِ » ١/١٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَـوْتُ بَنِـيْ قَيْـسٍ إِلَيَّ فَشَمَّـرَتْ ... خَنَاذِيْذُ مِنْ سَعْدٍ طِوَالُ السَّوَاعِدِ[1]

إِذَا مَا قُلُوْبُ الْقَوْمِ طَارَتْ مَخَافَةً ... مِنَ الْمَوْتِ أَرْسَوْا بِالنُّفُوْسِ النَّوَاجِدِ[2]

ويعجبني قولُ أَبي حويةَ ، وهوَ ابنُ عمِّ الأَميرِ قرواشِ بنِ المقلَّدِ ـ صاحبِ (الموصلِ) ـ [مِنَ الكاملِ] :

قَوْمٌ إِذَا الْتَحَمَ الْعَجَاجُ رَأَيْتَهُمْ ... أُسُداً وَخِلْتَ وُجُوْهَهُمْ أَقْمَارَا

لاَ يَبْخَلُوْنَ بِرِفْدِهِمْ عَنْ سَائِلٍ ... عَـدَلَ الـزَّمَـانُ عَلَيْهِـمُ أَوْ جَـارَا

وَإِذَا الصَّـرِيْـخُ دَعَـاهُـمُ لِمُلِمَّـةٍ ... بَذَلُوْا النُّفُوْسَ وَأَرْخَصُوْا الأَعْمَارَا

وَإِذَا زِنَادُ الْحَرْبِ أُخْمِدَ نَارُهَا ... قَـدَحُـوْا بِـأَطْـرَافِ الأَسِنَّـةِ نَـارَا

سرعة النبي ﷺ إلى إجابة الصوت

تلكَ هي شمائلُ العربِ ، الَّتي كانَ بعضُها يأكلُ الميْتاتِ ، ويدفنُ البناتِ علىٰ قيد الحياةِ ، ثُمَّ جاءَ الإِسلامُ بإِتمامِ مكارمِ الأَخلاقِ[3] ، وكانَ صاحبُ شريعةِ الإِسلامِ ﷺ أَسرعَ النَّاسِ إِلىٰ الصَّوتِ ، حَتَّىٰ لقد كانَ فَزَعٌ بـ(المدينةِ) ، فركبَ علىٰ فرسٍ عُرْيٍ

---

(١) الخِنْذِيذُ : هوَ الشجاعُ الذي لا يُهتدىٰ لقتالِهِ .

(٢) النواجد : الشجعان .

(٣) لما ورد عن أبي هريرة عند أحمد والحاكم والبيهقي قوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

لأَبي طلحةَ ، وسبقَ النَّاسَ إلىٰ الصَّريخِ ، وقالَ : « إنْ وَجَدْنَاهُ ـ يعني : الفرسَ ـ لَبَحْرَاً »[1] .

السبب في شجاعة الصحابة رضوان الله عليهم أنها جبلَّة ودين وملَّة

ومَا بالكَ بقومٍ علمْتَ مِنْ أَنَفِهِم وحميَّتِهِم وحفاظِهِم ما علمْتَ ، وأكرمَهُم ٱللهُ بٱلإسلامِ ، حتَّىٰ خالطَ قلوبَهم ، وٱمتزجَ بلحومِهِم ودمائِهِم ، ثُمَّ أنزلَ اللهُ عليهم أمثالَ قولِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ ﴾ [الصف : ١٠ـ١٣] ، وقولِهِ : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] ، وقولِهِ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

فإنَّهم بعدَ أَنْ كانَتْ حميَّتُهُم جبِلَّةً صارَتْ ديناً وملَّةً ، فلا جرمَ علىٰ قلَّةِ ٱلعَدَدِ ، وضعفِ ٱلعُدَدِ ، ٱنكفؤُوا علىٰ عروشِ ٱلملوكِ ، وأبلَوا ما يشهدُ بهِ التَّاريخُ في ٱلقادسيَّةِ وٱليرموكِ ، وللهِ درُّ ٱلقائلِ فيهم [مِنَ الرمَلِ] :

قِفْ عَلَىٰ ٱلْيَرْمُوْكِ وَٱخْضَعْ جَاثِياً   وَتَيَمَّمْ مِنْ صَعِيْدِ ٱلْقَادِسِيَّهْ

---

(١) أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (٢٦٢٧) في الهبة، ومسلم (٢٣٠٧) في الفضائل.

تُـــرْبَــــةٌ طَيِّبَــــةٌ طَـــاهِـــرَةٌ وَقُبُـوْرٌ مِـنْ حَيَـا ٱلنَّقْـعِ نَـدِيَّـهْ
يَـا قُبُـوْراً مُحِيَـتْ وَٱنْـدَرَسَـتْ أَنْتِ نِبْرَاسُ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْوَطَنِيَّهْ
هَاهُنَا مَثْوىٰ ٱلصَّنَادِيْدِ ٱلأُلَىٰ دَوَّخُوْا ٱلْكُفْرَ بِبِيْضٍ ٱلْمَشْرَفِيَّهْ
دَوَّخُـوْا ٱلـرُّوْمَ وَثَلُّـوْا عَـرْشَهَـا وَطَوَوْا حُمْرَ ٱلْبُنُوْدِ ٱلْفَارِسِيَّهْ

فحدِّثْ ولا حرجَ عنهم ، فإنَّ لهم في إرخاصِ النُّفوسِ ، وٱستعذابِ ٱلبؤسِ ، وإغاثةِ الصَّريخِ ، ونصرِ ٱلمظلومِ ، وكسبِ ٱلمعدومِ . . ما صغَّرَ كلَّ عظيمٍ ، وحَثَا في وجهِ كلِّ مُقْرِمٍ[1] ، وغبَّرَ في قبلةِ كلِّ شجاعٍ ، ولقد أَلقىٰ بعضُهم تمراتٍ في يدِهِ ٱستعجالاً للشهادةِ[2] .

وقالَ آخرُ : إنِّي لأَشمُّ رائحةَ ٱلجنَّةِ مِنْ جهةِ أُحدٍ ، في كثيرٍ مِنْ تلكَ الأَمثالِ .

الصحابة الكرام أحق بجميع الأشعار المادحة والثناء البالغ

فما أَحقَّهم بقولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٧٨ مِنَ ٱلكاملِ] :

مُتَرَسِّلِيْنَ إِلَىٰ ٱلْحُتُوْفِ كَأَنَّمَا بَيْـنَ ٱلْحُتُـوْفِ وَبَيْنَهُـمْ أَرْحَـامُ

---

(١) المُقْرِمُ : السيِّدُ العظيم ، المقدَّمُ في المعرفَةِ وتجارِبِ الأمورِ .

(٢) وذلكَ في الحديثِ الذي أَخرجهُ مسلمٌ (١٩٠١) في الإمارةِ ، عَن أَنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ يومَ بدرٍ : « قوموا إلى جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأَرضُ ، قالَ : يقولُ عميرُ بنُ الحُمَامِ الأَنصاريُّ : يا رسولَ اللهِ ، جنَّةٌ عرضُها السماواتُ والأَرضُ ؟ قالَ : نعَمْ ، قالَ : بَخٍ بَخٍ ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : مَا يحمِلُكَ علىٰ قولِ بَخٍ بَخٍ ؟ قالَ : لا واللهِ يا رسولَ اللهِ إلاَّ رجاءَةَ أَن أكونَ مِن أَهلِها ، قالَ : فإنَّكَ مِن أَهلِها ، فأَخرجَ تمراتٍ مِن قرنِهِ فجعلَ يأْكلُ منهنَّ ، ثُمَّ قالَ : لئِن حييتُ حتَّىٰ آكلَ تمراتي هذهِ إنَّها لحياةٌ طويلةٌ ، قالَ فرمىٰ بما كانَ معهُ مِنَ ٱلتمرِ ، ثمَّ قاتلَ حتَّىٰ قُتِلَ » .

وقولِ ٱلبُحتريِّ [مِنَ ٱلكاملِ] :

مُتَرَسِّلِيْنَ إِلَىٰ ٱلْحُتُوفِ كَأَنَّهَا وَفْرٌ بِأَرْضِ عَدُوِّهِمْ يُتَنَهَّبُ[1]

وقولِهِ أيضاً [في « ديوانهِ » ١/١٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَسَرَّعَ حَتَّىٰ قَالَ مَنْ شَهِدَ ٱلْوَغَىٰ لِقَاءُ أَعَادٍ ، أَمْ لِقَاءُ حَبَائِبِ ؟!

وقولِ بعضِهِم [مِنَ ٱلكاملِ] :

قَوْمٌ شَرَابُ سُيُوْفِهِمْ وَرِمَاحِهِمْ فِـيْ كُـلِّ مُعْتَـرَكٍ دَمُ ٱلأَشْـرَافِ
يَتَحَنَّنُـوْنَ إِلَـىٰ لِقَـاءِ عَـدُوِّهِـمْ كَتَحَنُّـــنِ ٱلأُلاَّفِ لِـــلأُلاَّفِ
وَيُبَاشِرُونَ ظُبَا ٱلسُّيُوْفِ بِأَنْفُسٍ أَمضَىٰ وَأَقْطَعُ مِنْ ظُبَا ٱلأَسْيَافِ

وقولِ ٱلنَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَقْـدَمْـتُ إِقْـدَامَ ٱلأَتِـيِّ كَـأَنَّ لِـيْ سِوَىٰ مُهْجَتِيْ أَوْ كَانَ لِيْ عِنْدَهَا وِتْرُ[2]

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/١٢١ مِنَ ٱلبسيطِ] :

بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَىٰ ٱلْمَوْتَ مُبْتَسِماً حَتَّـىٰ كَـأَنَّ لَـهُ فِـيْ قَتْلِـهِ أَرَبَـا

وقولِ أَبي فراسٍ [في « ديوانهِ » ٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

صَبُوْرٌ وَلَوْ لَمْ تَبْقَ مِنِّيْ بَقِيَّةٌ قَؤُوْلٌ وَلَوْ أَنَّ ٱلسُّيُوْفَ جَوَابُ
وَقُوْرٌ وَأَحْدَاثُ ٱللَّيَالِيْ تَنُوْشُنِيْ وَلِلْمَوْتِ حَوْلِيْ جَيْئَةٌ وَذَهَابُ

أجمع الآيات في النجدة

ومِنْ أَجمعِ ٱلآياتِ في ٱلنجدةِ وٱلوفا . . قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، فلقد صحَّ أن ٱليمانَ وٱبنَهُ حذيفةَ لمَّا قاما في الصَّفِّ

---

(١) الوَفْرُ : الكثير الواسع من المال والمتاع .
(٢) الأَتِيُّ : السيلُ الذي لا يُرَدُّ . الوِترُ : الثأرُ .

يومَ بدرٍ . . قالا لرسولِ ٱللهِ ﷺ : إِنَّ بعضَهم أَخذَ علينا ٱلعهدَ بعدما مَنَّ علينا أَنْ لا نشهرَ السِّلاحَ عليهِ ، فعسىٰ أَنْ لا يكونَ في حربِهِم علينا حرجٌ ، فأَخذَ بأَيديهما ، وقالَ لهما : « فُوَا لَهُمْ . . »[1] .

فأَيُّ وفاءٍ بربِّكَ يشبهُ هـٰذا ٱلوفاءَ معَ ٱلحاجةِ ؟! وأَيُّ صدقٍ كمثلِ هـٰذا ٱلصِّدقِ ؟! وقد ٱرتفعتِ ٱلعجاجةُ .

تمهيد المؤلف العذر لنفسه في هذا الاستطراد

وقد كانَ بعضُ هـٰذا ٱلمقالِ أَولىٰ بالتَّأْخيرِ إِلىٰ عندِ مثلِ قولِ النَّاظمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٧٣ مِنَ الرَّجزِ] :

إِنْ تَـدْعُ يَـا سَيْـفُ لِتَسْتَعِيْنَـهُ يُجِبْـكَ قَبْـلَ أَنْ تُتِـمَّ سِيْنَـهُ

أَو قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٠٢ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

سَبَقْـتَ إِلَيْهِـمْ مَنَـايَـاهُـمُ وَمَنْفَعَـةُ ٱلْغَـوْثِ قَبْـلَ ٱلْعَطَـبْ

أَو قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٩٩ـ٣٠٠ مِنَ ٱلوافرِ] :

وَإِنْ نَقَـعَ ٱلصَّـرِيْـخُ إِلَىٰ مَكَـانٍ نَصَبْـنَ لَـهُ مُـؤَلَّلَـةً دِقَـاقَـا[2]
فَكَـانَ ٱلطَّعْـنُ بَيْنَهُمَـا جَـوَابـاً وَكَـانَ ٱللَّبْـثُ بَيْنَهُمَـا فُـوَاقَـا[3]

غيرَ أَنَّ ٱلحديثَ شُجونٌ ، وٱلاستطرادَ جُموحٌ ، وٱلفائدةَ صيدٌ ، وٱلحزمَ في ٱستعجالِ ٱلقيدِ ، وإِذْ ذكرنَا بعضَ ما يهزُّ الرُّؤُوسَ ، ويحمي ٱلأُنوفَ مِنْ كلامِ النَّاسِ في ٱلموضوعِ ، وٱعترَفنا بالعجزِ عمَّا

---

(١) أخرجه عن حذيفة الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٦٥) ، والسيوطي في « الجامع الصغير » وتمامه : « ونستعين الله عليهم » ونسبه لأحمد .
(٢) النَّقعُ : رفعُ الصوتِ وبُعدهُ . الصريخُ : المستغيثُ . المؤلَّلَةُ : المحدَّدَةُ . الدِّقاقُ : الرقاقُ ، وهي صفةٌ للآذانِ ، وآذانُ الخيلِ توصفُ بالدقَّةِ .
(٣) الفُواقُ : قدرُ ما بينَ الحلبتَينِ ، ويضربُ مثلاً للسرعةِ .

للصحابةِ رضوانُ ٱللهِ عنهمْ فيهِ ؛ لأنَّهُ ٱلفضاءُ ٱلواسعُ ، الَّذي لا تأتي علىٰ أطرافهِ النُّسورُ . فلنتبرَّكْ بذكرِ شيءٍ ممَّا قالَهُ السَّادةُ الصُّوفيَّةُ في ٱستعذابِ التَّعذيبِ ، وٱختيارِ ٱلموتِ في مرضاتِ ٱلحبيبِ ، وَلَئِنْ ٱختلفتِ ٱلألوانُ . . فٱلجامعُ قولُ مسلمِ بنِ ٱلوليدِ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ ٱلْجَوَادُ بِهَا ... وَٱلْجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ ٱلْجُوْدِ

كل شيء من الحبيب حبيب

قالَ أَبو حامدٍ ٱلغزاليُّ كما ذكرهُ ٱبنُ السُّبكيِّ في « طبقاتهِ » [٢/ ٢٢٢ مِنَ ٱلمديدِ] :

سَقَمِيْ فِيْ ٱلْحُبِّ عَافِيَتِيْ ... وَوُجُوْدِيْ فِيْ ٱلْهَوَىٰ عَدَمِيْ

وَعَذَابٌ تَرْتَضُونَ بِهِ ... فِيْ فَمِيْ أَحْلَىٰ مِنَ ٱلنِّعَمِ

مَا لِضُرٍّ فِيْ مَحَبَّتِكُمْ ... عِنْدَنَا وَٱللهِ مِنْ أَلَمِ

سلطان العاشقين يستعذب العذاب

وقالَ ٱبنُ ٱلفارضِ [في « ديوانهِ » ٢٦ مِنَ ٱلكاملِ] :

إِنْ كَانَ فِيْ تَلَفِيْ رِضَاكَ صَبَابَةً ... وَلَكَ ٱلْبَقَاءُ وَجَدْتُ فِيْهِ لَذَاذَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥١ مِنَ ٱلكاملِ] :

مَا لِيْ سِوَىٰ رُوْحِيْ وَبَاذِلُ نَفْسِهِ ... فِيْ حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ

فَلَئِنْ رَضِيْتَ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِيْ ... يَا خَيْبَةَ ٱلْمَسْعَىٰ إِذَا لَمْ تُسْعِفِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥٢ مِنَ ٱلكاملِ] :

لَوْ أَنَّ رُوْحِيْ فِي يَدِيْ وَوَهَبْتُهَا ... لِمُبَشِّرِيْ بِقُدُوْمِكُمْ لَمْ أُنْصِفِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٥٦ مِنَ ٱلخفيفِ] :

وَتَلاَفِيْ إِنْ كَانَ فِيْهِ ٱئْتِلاَفِيْ ... بِكَ ، عَجِّلْ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَا

وقالَ [في « ديوانه » ١٤٥ مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَنْ لِيْ بِإِتْلاَفِ رُوْحِيْ فِيْ هَوَىٰ رَشَأٍ ... حُلْوِ ٱلشَّمَائِلِ بِٱلأَرْوَاحِ مُمْتَزِجِ[١]

وقالَ [في « ديوانه » ١٤٤ مِنَ ٱلبسيطِ] :

مَا بَيْنَ مُعْتَرَكِ ٱلأَحْدَاقِ وَٱلْمُهَجِ ... أَنَـا ٱلْقَتِيْـلُ بِـلاَ إِثْـمٍ وَلاَ حَـرَجِ

وَدَّعْتُ قَبْلَ ٱلْهَوَىٰ رُوْحِيْ لِمَا نَظَرَتْ ... عَيْنَايَ مِنْ حُسْنِ ذَاكَ ٱلْمَنْظَرِ ٱلْبَهِجِ

وقالَ [في « ديوانه » ١٢٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

وَهَـٰذِهِ سُنَّةُ ٱلْعُشَّاقِ مَا عَلِقُوْا ... بِشَادِنٍ فَخَلاَ عُضْوٌ مِنَ ٱلأَلَمِ

وقالَ [في « ديوانه » ١٣٤ـ١٣٧ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَلَـٰكِنْ لَدَيَّ ٱلْمَوْتُ فِيْهِ صَبَابَةٌ ... حَيَاةٌ لِمَنْ أَهْوَىٰ عَلَيَّ بِهَا ٱلْفَضْلُ

فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيْداً فَمُتْ بِهِ ... شَهِيْـداً وَإِلاَّ فَـٱلْغَـرَامُ لَـهُ أَهْـلُ

فَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِيْ حُبِّهِ لَمْ يَعِشْ بِهِ ... وَدُوْنَ ٱجْتِنَاءِ ٱلنَّحْلِ مَا جَنَتِ ٱلنَّحْلُ[٢]

وَقُـلْ لِقَتِيْـلِ ٱلْحُبِّ : وَفَّيْـتَ حَقَّـهُ ... وَلِلْمُدَّعِيْ هَيْهَاتَ مَا ٱلْكَحَلُ ٱلْكُحْلُ[٣]

فَمَنْ لَمْ يَجُدْ فِيْ حُبِّ نُعْمٍ بِنَفْسِهِ ... وَلَوْ جَادَ بِٱلدُّنْيَا إِلَيْهِ ٱنْتَهَىٰ ٱلْبُخْلُ[٤]

وقالَ [في « ديوانه » ٥٠ـ٥١ مِنَ ٱلطَّويلِ] :

وَمَا حَلَّ بِيْ مِنْ مِحْنَةٍ فَهْوَ مِنْحَةٌ ... وَقَدْ سَلِمَتْ مِنْ حَلِّ عَقْدٍ عَزِيْمَتِيْ

فَكُلُّ أَذىً فِي ٱلْحُبِّ مِنْكِ إِذَا بَدَا ... جَعَلْتُ لَهُ شُكْرِيْ مَكَانَ شَكِيَّتِيْ

---

(١) الرَّشَأُ : ولدُ الغزالِ .

(٢) ماجنَت : أَي ما ارتكبت من جنايةٍ ، وهي لَسعُها لمن يجني عسلَها .

(٣) الكَحَلُ : سواد طرف أجفان العين خلقةً .

(٤) نُعمٌ : اسمُ المحبوبةِ .

نَعَمْ وَتَبَارِيحُ ٱلصَّبَابَةِ إِنْ عَدَتْ عَلَيَّ مِنَ ٱلنَّعْمَاءِ فِيْ ٱلْحُبِّ عُدَّتِي[1]
وَمِنْكِ شَقَائِيْ بَلْ بَلاَئِيَ مِنَّةٌ وَفِيْكِ لِبَاسُ ٱلْبُؤْسِ أَسْبَغُ نِعْمَةِ
فَحَلَّيْتِ لِيْ ٱلْبَلْوَىٰ وَخَلَّيْتِ بَيْنَهَا بَيْنِيْ فَكَانَتْ مِنْكِ أَجْمَلَ زِيْنَةِ

وقالَ [في « ديوانه » ٥٤ـ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَقَالَتْ: هَوَىٰ غَيْرِيْ قَصَدْتَ وَدُوْنَهُ ٱقْـ ـتَصَدْتَ عَمِيًّا عَنْ سَوَاءِ مَحَجَّتِي[2]
وَنَهجُ سَبِيْلِيْ وَاضِحٌ لِمَنِ ٱهْتَدَىٰ وَلَـٰكِنَّهَا ٱلأَهْوَاءُ عَمَّتْ فَأَعْمَتِ
حَلِيْفُ غَرَامٍ أَنْتَ لَـٰكِنْ بِنَفْسِهِ وَإِبْقَاكَ وَصْفاً مِنْكَ بَعْضُ أَدِلَّتِيْ
فَلَمْ تَهْوَنِيْ مَا لَمْ تَكُنْ فِيَّ فَانِياً وَلَمْ تَفْنَ مَا لَمْ تُجْتَلَىٰ فِيْكَ صُوْرَتِيْ
فَدَعْ عَنْكَ دَعْوَىٰ ٱلْحُبِّ وَٱدْعُ لِغَيْرِهِ فُؤَادَكَ وَٱدْفَعْ عَنْكَ غَيَّكَ بِٱلَّتِيْ[3]
وَجَانِبْ جَنَابَ ٱلْوَصْلِ هَيْهَاتَ لَمْ يَكُنْ وَهَا أَنْتَ حَيٌّ إِنْ تَكُنْ صَادِقاً مُتِ
فَقُلْتُ لَهَا : رُوْحِيْ لَدَيْكِ وَقَبْضُهَا إِلَيْكِ وَمَنْ لِيْ أَنْ تَكُوْنَ بِقَبْضَتِيْ
وَمَا أَنَا بِٱلشَّانِيْ ٱلْوَفَاةَ عَلَىٰ ٱلْهَوَىٰ وَشَأْنِيْ ٱلْوَفَا تَأْبَىٰ سِوَاهُ سَجِيَّتِيْ[4]
وَمَاذَا عَسَىٰ عَنِّيْ يُقَالُ سِوَىٰ قَضَىٰ فُلاَنٌ هَوىً مَنْ لِيْ بِذَا وَهْوَ بُغْيَتِيْ
أَجَلْ أَجَلِيْ أَرْضَىٰ ٱنْقِضَاهُ صَبَابَةً وَلاَ وَصْلَ إِنْ صَحَّتْ لِحُبِّكِ نِسْبَتِيْ
وَإِنْ لَمْ أَفُزْ حَقّاً إِلَيْكِ بِنِسْبَةٍ لِعِزَّتِهَا حَسْبِيْ ٱفْتِخَاراً بِتُهْمَتِيْ
وَدُوْنَ ٱتِّهَامِيْ إِنْ قَضَيْتُ أَسىً فَمَا أَسَأْتُ بِنَفْسٍ بِٱلشَّهَادَةِ قَرَّتِ[5]

(١) التباريحُ : الشدةُ .
(٢) المَحَجَّةُ : الطريق المستقيمة التي لا عِوَجَ فيها .
(٣) في الكلام اكتفاء إذ المقصود ظاهرٌ ؛ أي : بالتي هي أحسن .
(٤) الشاني : المبغض . شأني : عادتي .
(٥) أسىً : حزناً .

وَلِيْ مِنكَ كَافٍ إِنْ هَدَرْتِ دَمِيْ، وَلَمْ ... أُعَدَّ شَهِيداً ، عِلْمُ دَاعِيْ مَنِيَّتِيْ
وَلَمْ تَسْوَ رُوْحِيْ فِيْ وِصَالِكِ بَذْلَهَا ... لَدَيَّ لِبَوْنٍ بَيْنَ صَوْنٍ وَبِذْلَةِ[1]
فَإِنْ صَحَّ هَـٰذَا ٱلْفَأْلُ مِنكِ رَفَعْتِنِيْ ... وَأَعْلَيْتِ مِقْدَارِيْ وَأَغْلَيْتِ قِيْمَتِيْ
فَهَا أَنَا مُسْتَدْعٍ قَضَاكِ وَمَا بِهِ ... رِضَاكِ وَلاَ أَخْتَارُ تَأْخِيرَ مُدَّتِيْ

ذم وهجاء من يبطىء في إجابة الصوت

وفي عكسِ ما سبقَ مِنْ إجابةِ الصَّوتِ يقولُ قُرَيطٌ [في «شرحِ الحماسةِ» ١/١٥٧-١٥٩ مِنَ ٱلبسيطِ] :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِيْ ... بَنُوْ ٱللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا[2]
لَـٰكِنَّ قَوْمِيْ وَإِنْ كَانُوْا ذَوِيْ عَدَدٍ ... لَيْسُوْا مِنَ ٱلشَّرِّ فِيْ شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

وقالَ أبو عمرِو بنِ ٱلعلاءِ [مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَا قَوْمَهُ حَوْلِيْ فَجَاؤُوْا لِنَصْرِهِ ... وَنَادَيْتُ قَوْمِيْ بِٱلْمُسَنَّاةِ غُيَّبَا[3]
وَرُبَّ بَقِيْعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِخَوِّهِ ... أَتَانِيْ كَرِيْمٌ يَنْفُضُ ٱلرَّأْسَ مُغْضَبَا[4]

وقالَ أبو عليٍّ الضَّريرُ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَأَنَّنِيْ يَوْمَ أَدْعُوْهَا لِنَائِبَةٍ ... أَدْعُوْ لَهَا مِنْ بُطُوْنِ ٱلأَرْضِ أَمْوَاتَا

---

(١) تسوَ : من قولنا : هذا المتاعُ يسوىٰ ديناراً مثلاً . البَوْنُ : البعدُ . البِذْلَةُ : مِن الابتذالِ وٱلامتهانِ .

(٢) بنو مازن : حيٌّ من تميمٍ ، وهو مازنُ بنُ مالكِ بنِ عمرِو بنِ تميمٍ ، وهم أشرافُ ولدِ عمرِو بنِ تميمٍ ، فلذلك تمنَّىٰ الشاعرُ أن يكون منهم . وذُهلُ بنُ شيبانَ : حيٌّ من بكرِ بن وائلٍ ، وكانتِ الحربُ بين تميمٍ وبكرٍ . واللقيطةُ : المنبوذةُ الملقوطةُ ، وجعلَها كذلكَ مبالغةً في الهجوِ .

(٣) المُسَنَّاةُ : بلدةٌ .

(٤) بخوِّه : بفضائه .

وقد سبقَ أَوَّلَ ٱلمجلسِ ٱلرَّابعِ قولُ ٱلحماسيِّ [في « شرحِ الحماسةِ » ٢/١٠٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَـاثِـرْ بِسَعْـدٍ إِنَّ سَعْـداً كَثِيْـرَةٌ ... وَلاَ تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلاَ نَصْرَا[1]

معَ جملةٍ مِن أَمثالِهِ .

ولمّا سُئِلَ خالدُ بنُ صفوانَ عن حالِ ٱبنيهِ . أَنشدَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَبُوْ مَالِكٍ جَارٌ لَهُمْ وَٱبْنُ مَرْثَدٍ ... فَيَـا لَـكَ جَـارَيْ ذِلَّـةٍ وَصَغَـارِ

وقالَ إِبراهيمُ بنُ ٱلعبَّاسِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّـي إِذَا أَدْعُـوْكَ عِنْـدَ مُلِمَّـةٍ ... كَدَاعِيَةٍ بَيْنَ ٱلْقُبُوْرِ نَصِيْرُهَا[2]

وقالَ ريقانُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا دَارُ عَمِّيْ لِيْ بِدَارِ خَفَارَةٍ ... وَلاَ عَهْدُ عَمِّيْ لِيْ بِعَهْدِ جِوَارِ[3]

وقالَ ٱلحُطيئةُ [مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا بَدَا لِيَ مِنْكُمْ ذَاتُ أَنْفُسِكُمْ ... وَلَمْ يَكُنْ لِجِرَاحِيْ فِيْكُمُ آسِيْ[4]

أَزْمَعْتُ يَأْساً مُبِيْناً عَنْ جِوَارِكُمُ ... وَلَنْ تَرَىٰ طَارِداً لِلْحُرِّ كَٱلْيَاسِ

---

(١) المكاثَرةُ : المباهاةُ بالكثرَةِ ، أَي : عددُهم كثيرٌ ، وغِناهُم قليلٌ ، وهم : سعدُ بنُ زيدِ مناةَ بنِ تميمٍ ، وهم أَكثرُ تميمٍ وأَعزُّها .

(٢) وذلك كقول الشاعر :

لقـد أسمعـت لـو نـاديـت حيّـاً ... ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادي

(٣) الخفارَةُ : الأمانُ .

(٤) الآسي : هوَ المداوي والمعالجُ . قال المتنبي يصف الأسد :

يطـأ الثـرى متـرفقـاً مـن تيهـهِ ... فكـأنـه آسٍ يجـسُّ عليـلاً

وقالَ ٱلنَّاظمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٣٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

رَأَيْتُكُمْ لاَ يَصُونُ ٱلْعِرْضَ جَارُكُمُ   وَلاَ يَدِرُّ عَلَىٰ مَرْعَاكُمُ ٱللَّبَنُ
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنكُمُ مَلَلٌ   وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنكُمُ ضَغَنُ[1]

السبب في حرب البسوس

ولمَّا طَعنَ كليبُ وائلٍ ناقةَ ٱلجرميِّ ٱلَّذي كانَ في جوارِ ٱلبسوسِ خالةِ جسَّاسٍ . . قالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرِيَ لَوْ أَصْبَحْتُ فِيْ دَارِ مُنْقِذٍ   لَمَا ضِيمَ سَعْدٌ وَهُوَ جَارٌ لأَبْيَاتِي
وَلَٰكِنَّنِيْ أَصْبَحْتُ فِيْ دَارِ غُرْبَةٍ   مَتَىٰ يَعْدُ فِيهَا ٱلذِّئْبُ يَعْدُ عَلَىٰ شَاتِيْ
فَيَا سَعْدُ لاَ تُغْرَرْ بِنَفْسِكَ وَٱرْتَحِلْ   فَإِنَّكَ فِيْ قَوْمٍ عَنِ ٱلْجَارِ أَمْوَاتِ

ذم القرآن الكريم للمنافقين

فحميَ عندَ ذلكَ أنفُ جسَّاسٍ ، ولَمْ يَزلْ يترصَّدُ غُرَّةَ كُليبٍ . . حتَّىٰ قتلَهُ ، ودامتِ ٱلحربُ أربعينَ سنةً ، وكانَ ذلكَ قبلَ مبعثِ النَّبيِّ ﷺ بستِّينَ سنةً ، وٱللهُ جلَّ شأنهُ يقولُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر : ١١ـ١٢] .

أصعب السهام التي تأتيك من أخيك واشد الآلام النزيف الداخلي

وفي لونٍ آخرَ مِن هٰذا ٱلبزِّ[2] يقولُ ٱبنُ الرُّوميِّ [في « ديوانهِ » ٥/ ١٩١١ مِنَ الطَّويلِ] :

تَخِذْتُكُمُ دِرْعاً حَصِيناً لِتَدْفَعُوْا   نِبَالَ ٱلْعِدَا عَنِّيْ فَكُنْتُمْ نِصَالَهَا
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُوْ مِنكُمُ خَيْرَ نَاصِرٍ   عَلَىٰ حِيْنِ خِذْلاَنِ ٱلْيَمِيْنِ شِمَالَهَا

---

(١) الضِّغْنُ : الحِقدُ .
(٢) البزُّ : السَّلبُ .

فَإِنْ كُنتُمُ لاَ تَحفَظُوْنَ مَوَدَّتِيْ ... ذِماماً فَكُوْنُواْ لاَ عَلَيْهَا وَلاَ لَهَا[1]

قِفُوْا وِقْفَةَ ٱلْمَعْذُوْرِ عَنِّيْ بِمَعْزِلٍ ... وَخَلُّوْا نِبَالِيْ لِلْعِدَا وَنِبَالِهَا

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

أَعْدَدْتُكُمْ لِدِفَاعِ كُلِّ مُلِمَّةٍ ... عَوْناً فَكُنْتُمْ عَوْنَ كُلِّ مُلِمَّةِ

وَتَخِذْتُكُمْ لِيْ جُنَّةً فَكَأَنَّمَا ... نَظَرَ ٱلْعَدُوُّ مَقَاتِلِيْ مِنْ جُنَّتِيْ[2]

فَلأَنْفُضَنَّ يَدَيَّ يَأْساً مِنْكُمُ ... نَفْضَ ٱلأَنَامِلَ مِنْ تُرَابِ ٱلْمَيِّتِ

وقالَ ٱبنُ ٱلرُّوميِّ أَيضاً [مِنَ الخفيفِ] :

خِلْتُكُمْ عُدَّةً لِصَرْفِ زَمَانِيْ ... فَإِذَا أَنْتُمُ صُرُوْفُ زَمَانِيْ[3]

وقالَ آخرُ [مِنَ الرَّمَلِ] :

رُبَّ مَنْ تَرْجُوْ بِهِ دَفْعَ ٱلأَذَىٰ ... سَوْفَ يَأْتِيْكَ ٱلأَذَىٰ مِنْ قِبَلِهْ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الخفيفِ] :

كُنْتُ مِنْ كُرْبَتِيْ أَفِرُّ إِلَيْهِمْ ... فَهُمُ كُرْبَتِيْ فَأَيْنَ ٱلْفِرَارُ

الجدار القصير تقفز عليه الكلاب

وقدمَتْ (مكَّةَ) ٱمرأَةٌ وضيئَةٌ ، فٱستهامَ بها ٱبنُ أَبي ربيعةَ ، وأَخذَ يتعرَّضُ لها ، ويؤذيها في المطافِ ، فقالَتْ لبعضِ رجالِها :

---

(١) الذِّمامُ : كلُّ حرمةٍ تلزمكَ إذا ضيَّعتها المذمَّةُ .

(٢) جُنَّةٌ : أَي ساتِراً .

(٣) صَرْفُ الزمانِ : نوائبُهُ . وقال أحدهم نحوه :

وإخـوانٍ حسبتهـم دروعـاً ... فكـانـوهـا ولكـن لـلأعـادي

وخلتهـم سهـامـاً صـائبـات ... فكـانـوهـا ولكـن فـي فـؤادي

وقـالـوا قـد صفـت منـا قلـوب ... فقلـت نعـم ولكـن مـن ودادي

طُفْ معي ، فلمَّا رآهُ معها . . ٱنزجرَ . فقالَتْ [مِنَ البسيطِ] :

تَعْدُوْ ٱلذِّئَابُ عَلَىٰ مَنْ لاَ كِلاَبَ لَهُ وَتَتَّقِيْ صَوْلَةَ ٱلْمُسْتَأْسِدِ ٱلْحَامِيْ

واحسرتا على من ليس له أحد

وللهِ درُّ ٱلقائِلِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْمَرْءُ لَمْ يَغْضَبْ لَهُ حِيْنَ يَغْضَبُ فَوَارِسُ إِنْ قِيْلَ: ٱرْكَبُوْا ٱلْمَوْتَ يَرْكَبُوْا

وَلَـمْ يَحْبُـهُ بِـٱلنَّصْـرِ قَـوْمٌ أَعِـزَّةٌ مَقَاحِيْمُ فِيْ ٱلأَمْرِ ٱلَّذِيْ يُتَهَيَّبُ

تَهَضَّمَهُ أَدْنَىٰ ٱلْعَدُوِّ وَلَمْ يَزَلْ وَإِنْ كَانَ عَضْباً بِالظَّلاَمَةِ يُضْرَبُ[1]

ثاني اثنين في التنور

وقيلَ للجاحظِ : لِمَ خذلْتَ ٱبنَ ٱلزيّاتِ ، وهربْتَ منهُ لمّا أَصابتْهُ ٱلمِحنةُ ؟ فقالَ : خشيتُ أَن يُقالَ : ثانيَ ٱثنينِ إِذْ هما في التَّنُّورِ ، وكانَتْ عقوبةُ ٱبنِ ٱلزيّاتِ أَن عُذِّبَ في التَّنُّورِ ٱلذي كانَ يُعَذِّبُ بِهِ مَنْ شَاءَ أَنْ يَنْتَقِمَ منهُ ، ولحديثِ ٱمرىءِ ٱلقيسِ معَ جارهِ السَّابقِ في غيرِ هٰذا ٱلمجلسِ ٱتصالٌ بٱلموضوعِ .

واللهُ أعلمُ

* * *

(١) الأعضَبُ من الرجالِ : الذي لا ناصرَ لهُ ، والعضْبُ : السيفُ القاطعُ .

المحتوى

المحتوى

أَبْلَىٰ ٱلْهَوَىٰ أَسَفاً يَوْمَ ٱلنَّوَىٰ بَدَنِي وَفَرَّقَ ٱلْهَجْرُ بَيْنَ ٱلْجَفْنِ وَٱلْوَسَنِ

أَطَارَتِ ٱلرِّيحُ عَنْهُ ٱلثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ	رُوْحٌ تَرَدَّدُ فِيْ مِثْلِ ٱلْخِلاَلِ إِذَا
لَوْلاَ مُخَاطَبَتِيْ إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِيْ	كَفَىْ بِجِسْمِيْ نُحُوْلاً أَنَّنِيْ رَجُلٌ

المجلس الثاني

أَهْــلاً بِــدَارٍ سَبَــاكَ أَغْيَــدُهَــا	أَبْعَــدَ مَــا بَــانَ عَنْــكَ خُــرَّدُهَــا

لاَ نَـاقَتِـيْ تَقْبَـلُ ٱلـرَّدِيْـفَ وَلاَ بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ أُجْهِدُهَا

المجلس الثالث

لَـهُ أَيَـادٍ عَلَـيَّ سَـابِقَـةٌ ... أُعَـدُّ مِنْهَـا وَلاَ أُعَـدِّدُهَـا

يُعْطِـيْ فَـلاَ مَطْلُـهُ يُكَـدِّرُهَـا	بِهَـا وَلاَ مَنُّـهُ يُنَكِّـدُهَـا

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْعِدُهَا

قَدْ أَجْمَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلْخَلِيقَةُ لِيْ أَنَّـكَ يَـا ٱبْـنَ ٱلنَّبِـيِّ أَوْحَـدُهَـا
وَأَنَّـكَ بِـاْلأَمْـسِ كُنْـتَ مُحْتَلِمـاً شَيْـخَ مَعَـدٍّ وَأَنْـتَ أَمْـرَدُهَـا

المجلس الرابع

مُحِبِّيْ قِيَامِيْ مَا لِذَالِكُمُ ٱلنَّصْلِ	بَرِيّاً مِنَ ٱلْجَرْحَىٰ سَلِيْماً مِنَ ٱلْقَتْلِ

وَخُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِيْ الْخُضْرَةِ الَّتِيْ ... تُرِيْكَ احْمِرَارَ الْمَوْتِ فِيْ مَدْرَجِ النَّمْلِ

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ ... فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِي

وَذَرْنِـيْ وَإِيَّـاهُ وَطِـرْفِـيْ وَذَابِلِـيْ	نَكُنْ وَاحِداً نَلْقَ ٱلْوَرَىٰ وَٱنْظُرَنْ فِعْلِيْ

المجلس الخامس

غُصْـنٌ عَلَـىٰ نَقَـوَا فَـلاَةٍ نَـابِـتٌ	شَمْـسُ ٱلنَّهَـارِ تُقِـلُّ لَيْـلاً مُظْلِمَـا

لَمْ تَجْمَعِ ٱلأَضْدَادَ فِيْ مُتَشَابِهٍ إِلاَّ لِتَجْعَلَنِيْ لِغُـرْمِـيَ مَغْنَمَـا

كَصِفَاتِ مَوْلَانَا أَبِيْ الْفَضْلِ الَّتِيْ بَهَرَتْ فَأَنْطَقَ وَاصِفِيْهِ وَأَفْحَمَا

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ ٱلسُّيُوْفِ مُكَرَّماً	تَمُتْ وَتُقَاسِيْ ٱلذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

* * *